بــوب وُدورد

خطة الهجوم



تعريب: فاضل جتكر

مكتبة العبيكان



منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

خطة الهجوم

تأليف

بوب ودورد

Bob Woodward

تعريب

فاضل جتكر

مكتبة العبيكان

Original title:

PLAN OF ATTACK

BY

Bob Woodward

ISBN: 0 - 7432 - 5547 - X

الرياض 11595، المملكة العربية السعودية، شمال طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة، ص. ب. 62807
Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P.O. Box 62807, Riyadh 11595, Saudi Arabia

الطبعة العربية الأولى 1425هـ ـ 2004م

ISBN 9960 - 40 - 615 - 6

© مكتبة العبيكان، 1425هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ودورد، بوب

خطة الهجوم. / بوب ودورد. - الرياض، 1425هـ

657 ص؛ 16,5 × 24 سم

ردمك: 6 - 615 - 40 - 9960

1ـ حرب العراق أ. العنوان

ديوي: 956,709 1425 / 4015

رقم الإيداع: 4015 / 1425

ردمك: 6 - 615 - 40 - 9960 ISBN

ملحوظة المؤلف

كـان مـارك مـالسـيـد Mark Malseed، وهو خـريج هندسـة لسنة ١٩٩٧ في جامعة ليهي Lehigh، مساعدي لدى قيامي بكتابة بوش محارباً، وظل معي لمعاونتي في تأليف هذا الكتاب الذي هو الجزء الثاني من الملحمة البوشية. كنت سعيد الحظ به إذ تفرغ لمسـاعدتي في مجـالات جمع المعلومـات، الكتابة، البحث وعـملية إخـراج الكتـاب. ازدهر مـارك من جميع النواحي، خصوصاً كمحرر يتقن فن التكثيف، فن تسليط الضـوء على المعـاني، وفن الاهتداء إلـى الكلمـات والألحـان المناسـبـة لكل من القـصص. إنه واسـع الاطلاع على نحـو لا يصـدق فـيمـا يخص جـمـيـع المـيـادين بدءاً بالأدب وانتهـاء بالجـغـرافـيـا والأحـداث الراهنة. وبوصفـه أحد أبناء الجيل الأكثـر شـبـاباً، الجيل الذي بـاتت المهارات التكنولوجيـة عنده حاسّة سـادسـة، يبـقى مـارك متحلياً ببـراعة فائقة في ميدان الاستفادة من خدمات الحاسوب (الكمبيوتر) وشبكة الشبكات (الانترنت). ومع انه يحتفظ ببساطة رأس طبيعية معينة، فإن سماته الأبرز تتمـثل بإحـسـاس عـمـيق بالانصـاف والنـزاهة مع إصـرار مميـز على بقـائنا، كلينا، ملتزمـين بتقديم مـا قـاله الناس، مـا عنوه، ومـا فعلوه بدقـة. يالهـا من صـداقـة نمت وازدهرت، صداقة أواصل تثمينها عالياً! في المرة السابقة لم يكن مارك إلا مساعداً. أما الآن فقد كان شريكاً.

إلــى أيلــزا



رسالة إلى القراء

يستهدف هذا الكتاب تقديم صورة ما وراء الكواليس التفصيلية الأولى لشكل ودوافع قيام الرئيس جورج دبليو. بوش، مجلسه الحربي وحلفائه باتخاذ قرار شن حرب استباقية في العراق من أجل إسقاط صدام حسين.

تأتي معلومات الكتاب من أكثر من ٧٥ شخصاً مفتاحياً منخرطاً انخراطاً مباشراً في الأحداث، بمن فيهم أعضاء مجلس الحرب، عناصر جهاز العاملين في البيت الأبيض، وموظفون يتولون مستويات متباينة من المناصب في وزارتي الخارجية والدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية. وجملة هذه المقابلات تمت حول الخلفية، بمعنى أنني أستطيع استخدام المعلومات ولكن دون تحديد مصادرها في الكتاب. جرت مقابلة المصادر الرئيسية عدداً من المرات، مع فترات راحة طويلة بين اللقاءات بما مكنها من تناول معلومات جديدة حصلت عليها. أضف إلى ذلك أنني قابلت الرئيس بوش وسجلت كلامه لمدة زادت على ثلاث ساعات ونصف الساعة على امتداد يومي العاشر والحادي عشر من كانون الأول /ديسمبر ٢٠٠٣. كذلك أجريت حديثاً مع وزير الدفاع دونالد رمسفلد مدة طالت أكثر من ثلاث ساعات في خريف ٢٠٠٣.

كثرة من الاقتباسات المباشرة من الحوار، من التواريخ، من الأزمان، ومن التفاصيل الأخرى لهذا التاريخ مستقاة من الوثائق بما فيها الملاحظات الشخصية، المذكرات، اليوميات، السجلات الرسيمة وغير الرسمية، الاتصالات الهاتفية المفرغة على الورق والمفكرات.

إذا كانت الأفكار، الأحكام، أو المشاعر منسوبة إلى مشاركين، فأكون قد حصلت عليها من الشخص مباشرة، من زميل على معرفة حميمة، أو من سجل مكتوب.

انفقت ما يزيد على العام وأنا أبحث وأجري المقابلات بغية الحصول على هذه المادة. بدأت الكتابة عند قاعدة سلسلة المعلومات مع عدد كبير من المصادر غير المذكورة في الكتاب غير أنها كانت حريصة على اقتسام ولو جزء من التاريخ السري.

لعل آلية صنع القرار المفضي إلى الحرب العراقية- وهي آلية تركزت في الأشهر الستة عشر الممتدة من تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١ وآذار / مارس ٢٠٠٢- هي النافذة الأفضل التي تمكن المرء من فهم هوية جورج دبليو. بوش، إدراك أسلوب عمله، والوقوف على ما يهتم به.

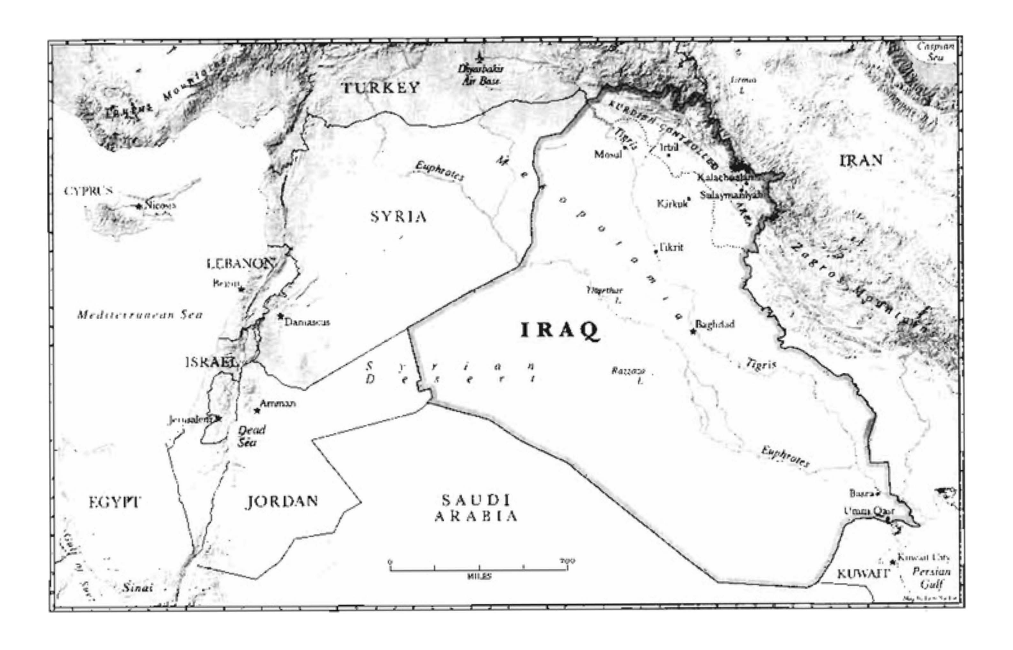
بذلت ما استطعت من جهد لاكتشاف ما قد حصل بالفعل ولتقديم بعض التفسيرات ونوع من التحليل الآني. أردت أن أوصل أي قارئ إلى أقرب نقطة ممكنة من بؤرة اتخاذ القرار الذي مالبث أن قاد إلى الحرب.

تمثل هدفي بإعادة سرد جملة الاستراتيجيات، الاجتماعات، الاتصالات الهاتفية، الجلسات التخطيطية، الدوافع، المآزق، المطبات، الصراعات، الشكوك، والعواطف المنطلقة من عقالها. غالباً ما تبقى أكثر أجزاء تاريخي مراوغة متمثلة باللحظات الحاسمة في النقاشات وبالمنعطفات المفتاحية أو محطات القرار التي تبقى مكتومة لسنوات ولا يتم الكشف عنها أمام الملأ إلى حين رحيل الرؤساء وغيرهم من مناصبهم. يعرض هذا التاريخ عدداً كبيراً من تلك اللحظات، ولكنني مدرك لحقيقة أنني لم أتمكن من الاهتداء إليها جميعاً.

بوب وُدورد

في الأول من آذار، ٢٠٠٤

واشنطن، العاصمة.



TURKEY
Diyarbakir
Air Base
SYRIA
Euphrates
CYPRUS
Nicosia
LEBANON
Damascus
Mediterranean Sea
ISRAEL
Amman
Jerusalem
Dead
Sea
EGYPT
JORDAN
Sinai
SAUDI
ARABIA
MILES
0
200
IRAQ
S y r i a n
D e s e r t
Mosul
Tigris
Irbil
Kirkuk
Tikrit
Kalachoalan
Sulaymaniyah
KURDISH-CONTROLLED AREA
Baghdad
Tigris
Euphrates
Basra
Umm Qasr
KUWAIT
Kuwait City
Persian
Gulf
IRAN
Zagros Mountains
Caspian
Sea

مدخل

قبيل انتهاء اجتماع مجلس الأمن القومي في غرفة عمليات البيت الأبيض يوم الأربعاء الواقع في الحادي والعشرين من تشرين الثاني،/نوفمبر ٢٠٠١، قام الرئيس جورج دبليو. بوش بإلقاء ذراعيه على كتفي وزير دفاعه دونالد اتش. رمسفلد. كان ذلك قبل يوم واحد من عيد الشكر وبعد ٧٢ يوماً فقط من هجمات ٩/١١ وبداية الشهر الحادي عشر من رئاسة بوش.

قال الرئيس لرمسفلد: «أنا بحاجة لرؤيتك». جاءت اللفتة الحميمة منطوية على رسالة تقول بوجود أعمال رئاسية مهمة تجب مناقشتها وبحثها في ظل أعلى درجات السرية. كان بوش يعلم أن من شأن تنحّيه جانباً مع وزير الدفاع أن يكون مثيراً. مالبث الرجلان أن تسللا إلى إحدى الغرف المكتبية الصغيرة المجاورة لغرفة العمليات، أغلقا الباب وراءهما، وجلسا.

بدأ الرئيس كلامه مكرراً جملته الأولى كما هي عادته قائلاً: «أريدك أن تصارحني.. ما نوع خطة الحرب الموجودة لديك بالنسبة إلى العراق؟ ما شعورك بشأن خطة الحرب الخاصة بالعراق؟»

أفاد رمسفلد بأنه لم يكن يؤمن بأن خطة حرب العراق كانت راهنة. إنها لم تكن تمثل نمط تفكير الجنرال تومي فرانكس، ذلك القائد المحارب للمنطقة، كما لم تكن، بكل تأكيد، تمثل نمط تفكيره هو. لم تكن الخطة أساساً سوى عاصفة صحراء ثانية موسعة بمعنى أنها كانت نسخة محسنة قليلاً لقوة الغزو الكبيرة التي كان والد بوش قد استخدمها في حرب الخليج لعام ١٩٩١. ثم أضاف الوزير: «إنني قلق بشأن خططنا الحربية كلها.» أطلق بعضاً من إحباطاته ومخاوفه المتراكمة. كان يراجع جميع خطط الوزارة الحربية الـ ٦٨ مع غيرها من الخطط المحتملة في أرجاء العالم وذلك منذ أشهر.

كان بوش ورمسفلد زوجين متناقضين. فبوش الضخم الجسيم صاحب النظرة المحدِّقة من عينين بنيتين صغيرتين البالغ خمساً وخمسين سنة من العمر متمتع بمزاج سريع متدفق، مزاج يكاد أحياناً أن يصل إلى حدود التهور. لم يكن، وهو الحريص، المباشر، والعملي ولكن دون وضوح طبيعي، قد انتُخب لمنصبه السياسي الأول حاكماً لولاية تكساس إلا قبل تسع سنوات؛ لم يكن إلا غراً جرى إقحامه على الرئاسة. أما رمسفلد ذو الأعوام التسعة والستين فكان قد انتُخب لمنصبه السياسي الأول، نائباً في الكونغرس عن دائرة إيلينوي الثالثة عشرة من أرياف شيكاغو قبل تسع وثلاثين سنة. كان رمسفلد صاحب الجسم الصغير الشبيه بالأطفال اندفاعاً ذو الشعر الخفيف المقلوب إلى الخلف حاداً وشديد التركيز أيضاً عبر عدسات نظاراته الثلاثية. إنه متمكن من نشر ابتسامة عريضة معدية قادرة على تغطية وجهه أو التعبير بدلاً من ذلك عن نفاذ الصبر بل وحتى عن التنازل أو التلطف رغم مراعاة الرئيس واحترامه له.

بصوته شبه المحترف بيَّنَ رمسفلد لبوش أن علمية وضع الخطط الحربية كانت بالغة التعقيد ومتطلبة لسنوات من الوقت. وقال للرئيس إن خطط الحرب الحالية تكاد أن تكون قائمة على افتراضات بالية وهي قاصرة على نحو بائس عن تلبية متطلبات حقيقة أن إدارة جديدة ذات أهداف مختلفة قد تولت السلطة. كانت آلية التخطيط للحرب محطمة على نحو مأساوي وباعثة على الجنون. وكان هو عاكفاً على إصلاحها.

عاد بوش إلى الكلام قائلاً: «فلنباشر بهذا. لنكلف تومي فرانكس بالنظر فيما تتطلبه حماية أمريكا عن طريق إزاحة صدام حسين إذا اضطررنا» ثم سأل عن إمكانية إنجاز ذلك بطريقة لا تلفت الأنظار على نحو مرعب.

رد رمسفلد قائلاً: «مؤكد، لأنني اقوم بكل شيء بنفسي». كان من شأن نظرته

الشـاملة للعـالـم أن توفـر غطـاء. «ليس هنـاك قـائد مـيداني لا يعـرف شـعوري وكـيف سـأعمل على إنعـاشهم». كان قد تحـدث مـع جمـيع القـادة الاقليمـيين، جمـيع جنرالات النجوم الأربعـة لكل من المحـيط الهـادي، أوربا، أمـريكا اللاتـينيـة، جنبـاً إلى جنب مـع قيادة فرانكس المركزية (السنتكوم CENTCOM)، وهـي القيادة المسؤولة عن الشرق الأوسط، جنوب- وسط آسيا، والقرن الأفريقي.

كان لدى الرئيس مطلب آخر: لا تتحدث عما أنت عاكف على فعله مع الآخرين!

« أمـرك سـيدي!» قـال رمـسـفلد. غيـر أن من شـأن مـعرفة من يسـتطيع التـحدث مـعـه أن تكون مـفيـدة بعد أن يكون الرئيس قـد أقنع آخـرين بفكرته. أضـاف الوزير: «مما ينطوي علـى أهمـيـة اسـتـثنائيـة أن أتحـدث مـع جـورج تنت.» فـمـدير وكـالة الاسـتـخبـارات المركـزية تنت سيكون عنصـراً حـاسـمـاً على صـعـيد جـمع المعلومات الاستخباراتية وأي جهود تمويهيـة منسقة في العراق. «رائع» قال الرئيس، مشيراً إلى إمكانية إشراك تنت وآخرين في تاريخ لاحق ولكن ليس الآن.

وفي المقابلات بعد عامين اثنين، أقر بوش بانه لم يكن يريد إطلاع الآخرين على السـر لأن أي تسـرب كـان مـن شـأنه أن يثـيـر» ذعـراً دوليـاً هـائلاً ومضـاربات مـحليـة صـاخبـة. كنت أعـرف مـا كـان سـيـحدث لو أعـتقـد الناس بأننا عـاكفـون علـى تطوير إمكانية أو خطة حربية لغزو العراق».

بقي عـمل بوش- رمـسفلد- فـرانكس سـراً مدة أشـهـر وحين تسـربت نتف جزئيـة عنه إلى وسـائل الإعلام في السنة التالية، بادر الرئيس، رمسفلد وآخرون في الإدارة، في محاولة منهم لنفي أي شـعور بالقرب، إلى الحديث عن التخطيط للاحتمالات مع تأكيد عدم وجود أي خطط حربية على مكتب الرئيس.

كان من شـأن الكشف عن هذا العمل أن يشعل حريقاً هائلاً، برأي الرئيس. «لقد كانت لحظة رهـانـات كبيـرة وفي وقت كان شعور بالحـرب يتملك الناس في أعقـاب

القرار الأفغاني،» أي أمر بوش بإطلاق عملية عسكرية إلى داخل أفغانستان رداً على ٩/١١، « كان من شأن الأمر أن يبدو كما لو كنت تواقاً لخوض الحروب. وأنا لست تواقاً للذهاب إلى الحرب». أكد الرئيس، مضيفاً: «إن الحرب هي خياري الأخير على نحو مطلق.»

في الوقت نفسه اعترف بوش بأنه كان يدرك أن التحرك البسيط المتمثل بدفع رمسفلد إلى مباشرة رسم خطط شن الحرب على العراق كان من شأنه أن يشكل الخطوة الأولى على طريق جر الأمة إلى حرب مع صدام حسين. «بالمطلق» تذكّر بوش.

أما ما قد لا يكون أدركه فهو أن خطط الحرب وعملية التخطيط الحربي من شأنهما أن يصبحا سياسة وخطة بزخمهما الخاص، خصوصاً مع الانخراط الحميم لكل من وزير الدفاع والرئيس.

تبقى قصة قرارات بوش المفضية إلى الحرب العراقية تأريخاً لسلسلة متصلة من المآزق المستمرة، لأن الرئيس كان يتبع خطين سياسيين في وقت واحد. كان يخطط للحرب، وكان دائباً على ممارسة دبلوماسية هادفة إلى تجنب الحرب. أحياناً كان التخطيط للحرب يدعم العمل الدبلوماسي؛ وأحياناً أخرى كان يأتي متناقضاً معه.



من الحوار الذي تم في الحجرة الضيقة القريبة من غرفة العمليات في ذلك اليوم، أدرك رمسفلد مدى تركز بوش على مسألة العراق. علق الرئيس: «كان لا بد له من أن يفعل لأنه رأى مدى جدّيتي».

خرج رمسفلد بانطباع يقول إن بوش لم يكن قد فاتح أحداً غيره. لم يكن الأمر كذلك. ففي صباح اليوم نفسه كان الرئيس قد أبلغ مستشارته للأمن القومي، كوندوليزا رايس أنه كان يخطط لدفع رمسفلد إلى تركيز الاهتمام على العراق.

بنظر رايس كانت أحداث ٩/١١ قد وضعت مسألة العراق على النار الهادئة. والرئيس لم يشرح لها أسباب عودته إلى المسألة الآن، أو الدوافع الكامنة وراء الأوامر التي أصدرها إلى رمسفلد.

في المقابلات قال الرئيس إنه لم يستطع أن يتذكر ما إذا كان قد تحدث مع نائب الرئيس ديك تشيني قبل تنحيه جانباً مع رمسفلد. غير أنه كان واقفاً بالتأكيد على رأي تشيني، إذ قال: «فيما بعد ٩/١١ كان نائب الرئيس يرى بوضوح أن صدام حسين كان يشكل تهديداً للسلام. وكان ثابتاً في نظرته القائلة بأن صدام حسين كان خطراً حقيقياً. ومرة أخرى- أنا أرى ديك باستمرار وعلاقتي- تذكر أنه موجود في متناول اليد نظراً لأنه ليس مشغولاً بخوض حملة لمنصب يخصه في المستقبل. وبالتالي فأنا لا أشكو من قلة رؤيتي له. ونحن نلتقي كل الوقت في الحقيقة. ولذا فأنا لا أستطيع أن أتذكر توقيت أي اجتماع محدد معه، حصولاً أو عدم حصول».

في أثناء المسيرة الطويلة المفضية إلى الحرب في العراق بقي ديك تشيني قوة حادلة وجبارة. فمنذ الهجمات الإرهابية كان قد طور اهتماماً مكثفاً بالتهديدات المتمثلة بكل من صدام حسين وشبكة القاعدة العائدة لأسامة بن لادن، تلك الجماعة المسؤولة عن ٩/١١. بدت المسألة «حُمّى» بل ونوعاً من الكابوس المزعج بنظر بعض الزملاء. أما بنظر تشيني فقد كان الاهتمام بصدام يشكل ضرورة ذات أولوية عالية.

◆ ◆ ◆

كانت الأمة مستنفرة في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١، مستمرة في الانصعاق بهجمات ٩/١١ ومقصوفة باستمرار بإنذارات قومية مرعبة تحذر من هجمات إرهابية مقبلة. رسائل مشحونة بشحن الانتراكس إلى فلوريدا، نيويورك، وواشنطن كانت قد قتلت خمسة أشخاص. غر أن الهجوم المشترك لكل من الجيش ووحدات وكالة الاستخبارات المركزية شبه العسكرية على نظام حكم الطالبان الأفغاني

وإرهابيي القاعدة كان يحقق نجاحاً غير عادي وغير متوقع بعض الشيء. باتت القوات المدعومة من الولايات المتحدة مسيطرة على نصف أفغانستان، وكانت العاصمة كابول قد أصبحت مهجورة حيث سارع الآلاف من عناصر الطالبان والقاعدة إلى الهرب جنوباً نحو الحدود الباكستانية. في استعراض فعال للتكنولوجيا الأمريكية، كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد بدت، بفضل ملايين الدولارات وسنوات الاتصالات السرية مع القبائل الأفغانية، جنباً إلى جنب مع فرق الكوماندو التابعة للقوات المسلحة الأمريكية الخاصة الموجهة للقصف الدقيق، ناجحة في تحويل اتجاه مجرى الحرب خلال أسابيع قليلة. كان زمناً مشحوناً بالخطر من ناحية وبالنشوة من ناحية أخرى بالنسبة إلى كل من بوش، مجلس وزرائه، جنرالاته، والبلاد.

لدى عودته إلى البنتاغون وهو على مسافة ميلين من البيت الأبيض عبر نهر بوتوماك في فيرجينيا، قام رمسفلد فوراً بدعوة هيئة الأركان المشتركة إلى البدء بصياغة رسالة سرية للغاية موجهة إلى الجنرال فرانكس تلتمس «تقويم أحد القادة» نظرة جديدة إلى خطة الحرب على العراق مع السؤال عن رأي فرانكس بما يمكن عمله من أجل تحسين هذه الخطة. قيل إن الجنرال كان سيقدم تقريره الرسمي إلى رمسفلد بعد نحو أسبوع.

كان فرانكس، وهو في السادسة والخمسين من العمر، قد خدم في الجيش منذ أن كان في العشرين- ممن شاركوا في حرب فيتنام وحرب الخليج (الثانية) في ١٩٩١. بقامته الفارعة التي تزيد على الأقدام الست والبوصات الثلاث مع لَكْنة تكساسية لطيفة، كان الرجل سريع الاستثارة ومعروفاً بأنه ضابط لا يتردد في تعنيف مرؤوسيه صراخاً وزعيقاً. غير أنه كان في الوقت نفسه ميالاً إلى أن يكون إصلاحياً متمرداً شاكياً أحياناً من أساليب الجيش وطرقه الرصاصية الكئيبة البعيدة عن الإبداع والمفتقرة إلى الخيال.

كانت تلك فترة ٧٢ يوماً قاسياً وثقيلاً بالنسبة إلى فرانكس. لم يكن هناك ولو هيكل عظمي لحظة حرب افغانستان، وكان الرئيس قد أراد تحركاً عسكرياً سريعاً. كان رمسفلد من أقوى أنصار إنزال القوات البرية الأمريكية، جَعْل «الأحذية الثقيلة تلامس الأرض». غير أن الأحذية الأولى التي لامست الأرض في السابع والعشرين من أيلول/ سبتمبر- بعد ١٦ يوماً فقط من الهجمات الإرهابية كانت عائدة لإحدى الفرق الخاصة التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية. أدى الأمر إلى إحراج رمسفلد وحصره في الزاوية. تطلب وصول فريق كوماندو تابع للقوات المسلحة الخاصة الأمريكية إلى أفغانستان ٢٢ يوماً آخر. وبالنسبة إلى رمسفلد كان كل يوم أشبه بشهر بل وحتى بسنة كاملة. تمثلت الأعذار بالحوامات المعطلة، بالاتصالات المشوشة، وبألوان التأخير بسبب سوء الأحوال الجوية. كان قد مارس ضغطاً شديداً على فرانكس بقدر متزايد من الضراوة.

كان رمسفلد قد عبر عن عدم معرفته للسبب الكامن وراء عدم قيامنا بالأمر. وما لبث الوزير أن سارع إلى الانحدار نحو قرارات عملياتية دنيا، مطالباً بالتفاصيل والإيضاحات.

حسب رواية فرانكس المعاصرة على مسامع آخرين فقد كان قد قال لـ رمسفلد: « كفى! يا سيادة الوزير. ليس هذا أسلوباً صحيحاً في العمل. تستطيع أن تقيلني». إما أن أكون القائد أو لا أكون، ويتعين عليك أن تثق بي وإلا فأنا أريد أن أنتقل إلى مكان آخر. قل لي الحقيقة إذن يا سيادة الوزير!»

أما رمسفلد فيروي القصة على النحو التالي: «ليس ثمة أي شك في أنه قد تعين علينا في البداية أن نهتدي إلى طريقة تمكننا من التعامل».

دار بين الرجلين نقاش حاد جداً مثقل بالعواطف، نقاش شكل منعطفاً في مسار العلاقة بينهما. كلاهما حرص على تجنب المجابهة. عبر رمسفلد، وهو مصارع

الكلية السابق، عن الإعجاب بشخص متمتع بما يكفي من الثقة التي جعلته يتراجع إلى سور الحلبة، ويتخذ وضعية الأضعف، بل وأن ينزله ويلقي به على الفراش للحظة. اتفقا على العمل كفريق. فرمسفلد كان أيضاً بحاجة إلى فرانكس وإن فكر بنوع من الاستبدال. كان من شأن إقالة الجنرال المسؤول ساعة إطلاق الحرب على الإرهاب، وهي حرب ذات مدى وتعقيد غير معروفين، في غمرة الحملة الواعدة ولكن غير المؤكدة في أفغانستان، وعند بداية ما لايعلمه أحد في العراق، أن تكون بالغة الصعوبة على الصعيد العملي.

وبعد أن بدت حملة وكالة الاستخبارات المركزية والجيش في أفغانستان ناجحة، بادر رمسفلد إلى إعلان تأييده المطلق لفرانكس. لقد ظل العسكريون على يقين دائم بأن عليهم أن يتطابقوا مع رؤوسائهم لأن لعملية التطابق علاقة وثيقة بالإذعان والنجاة. تعين على فرانكس أن يتعلم فن التكيف مرة أخرى. صحيح أن من شأن رمسفلد أن يكون قاسياً، فظاً، عديم الرحمة، غير أن فرانكس قرر الا يأخذ الأمر على أنه شخصي. ثمة أشياء كثيرة مثيرة للإعجاب في رمسفلد. فالجيش بحاجة إلى تحديث وكان كلام رمسفلد عن «التغيير» وصولاً إلى إدخال الجيش في القرن الحادي والعشرين منطوياً على معنى بنظر فرانكس. من المؤكد أن رمسفلد كان يابس الرأس عنيداً كالبغل. من المحتمل أن يكون قد مضى عشرة أعوام منذ تعرض كبار الجنرالات والأدميرالات - من هم من أمثال فرانكس نفسه- للتوبيخ أو حتى للنقاش العنيف من جانب هذا الشخص أو ذاك. فحين رفع رمسفلد صوته معلناً «أنا لست موافقاً على ذلك!» «لماذا تفعلون ذلك؟» «تعالوا نصلح الأمر!» شعر الإخوة بنوع من التحدي واستشاطوا غضباً. أما فرانكس فلم يفعل. كان عازماً على البقاء والاستمرار. ربما لم تكن تلك هي الطريقة المفضلة لديه في التعامل مع الأمور، غير أنها بدت قابلة للهضم فكرياً وثقافياً، وقرر الترحيب بلكزات رمسفلد وأسئلته

والتعامل معها كما لو كانت حوافز مطلوبة. كانت المهمات المنتصبة أمامهما كبيرة ومتناسبة مع إحساس فرانكس بالضرورة القومية. وفي مجال التعليق على التقارير المتحدثة عن فيض من التواترات المقيمة قال فرانكس بعد وقت طويل: «هراء بهراء! كان دائباً على الدفع، وأبديت أنا قدراً عظيماً من الرضى.»



في يوم أربعاء ما قبل عيد الشكر الذي قام فيه بوش بتكليف رمسفلد بالمهمة الخاصة بخطة الحرب على العراق، كان ميجر جنرال سلاح الجو فكتور أي «غينه» رينوار الابن Victor E. «Gene» Renuart Jr ، مدير العمليات عند الجنرال فرانكس في القيادة المركزية الموجودة في تامبا الفلوريدية مشغولاً جداً بتنظيم ورصد جملة التحركات والهجمات العسكرية في الحرب الأفغانية على بعد ٥٠٠٠ ميل وبفارق زمني يبلغ تسع ساعات ونصف. كان رينوار، وهو طيار مقاتل أصلع، راجح العقل في الواحدة والخمسين من العمر مع شهادة ماجستير في علم النفس رجلاً دأب على نسج جميع الخيوط مع فرانكس يداً بيد. لم يكن قد أخذ إجازة ولو ليوم واحد منذ ٩/١١، وكانت المجلدات المغلفة السميكة التي سجل فيها الملاحظات من الاجتماعات الكثيرة والقوائم الطويلة للمهمات الواجب إنجازها تتكاثر يوماً بعد يوم. وقد أطلق مساعد رينوار التنفيذي على كل جزء جديد اسم «كتاب الموت الأسود» لأن العدد المتزايد من المهمات كان قد أصبح قاتلاً.

تلقى رينوار اتصالاً هاتفياً على خط آمن من البنتاغون جاء من نظيره هناك لفتنانت جنرال المارينز غريغوري اس. نيوبولد Liet General Gregroy S.Newbold، مدير العمليات أو الجي -٣ (J-3) لدى هيئة رؤساء الأركان المشتركة. ونيوبولد هذا كان أحد كبار ضباط العمليات في البنتاغون هو ضابط الارتباط مع الوحدات المقاتلة وقناة جديرة بالتعويل لإيصال ما كان متفاعلاً.

بصوته المميز الموحي بأخذ الملاحظات قال نيوبولد : «اسمعوا، لكم عندي مشكلة عويصة حقاً. إن الوزير موشك على مطالبتكم بالشروع في معاينة خطتكم العراقية بقدر كبير من التفصيل- وتزويده بتقويم جديد من القيادة.»

رد عليه رينوار قائلاً: «يجب أن تكون مازحاً معي. فنحن شديدو الانشغال بأشياء أخرى في هذا الوقت بالذات. هل أنت متأكد؟»

«نعم، بكل تأكيد. فكونوا مستعدين إذن!»

كانت خطة الحرب العراقية، خطة العمليات رقم ١٠٠٣ مؤلفة من ٢٠٠ صفحة مع ما يزيد على ٢٠ ملحقاً مؤلفاً من ٦٠٠ صفحة عن السُّوْقيات (اللوجستيات)، الاستخبارات، وجملة العمليات الجوية، البرية، والبحرية. وحسب هذه الخطة كان من شأن الولايات المتحدة أن تكون بحاجة إلى ما يقرب من سبعة أشهر لنقل قوة مؤلفة من ٥٠٠,٠٠٠ إلى الشرق الأوسط قبل إطلاق العمليات العسكرية. هرع رينوار إلى الجنرال فرانكس الذي لم يكن قد تلقى سوى إشارة غامضة عن حصول نقاش مع واشنطن حول خطة الحرب العراقية. أما الآن فقد جاءه رينوار بالمزيد من التفاصيل.

مشيراً إلى أن تكليفاً رسمياً بإعداد تقويم قيادي كان على الطريق قال رينوار: «اسمع يا رئيس. من الأفضل، إذن، أن نبدأ بالعمل لانجاز المطلوب.»

لم يصدق فرانكس ما سمعه. كانوا في غمرة حرب أفغانستان، وها هم الآن كانوا يطلبون خطة تفصيلية لحرب أخرى في العراق؛ ما هذا؟ قال فرانكس: «يا للعنة! ما هذا الهراء العاهر الذي يتحدثون عنه؟»



1

في وقت مبكر من شهر كانون الثاني/ يناير ٢٠٠١، قبل الاحتفال بتنصيب جورج دبليو بوش، قام نائب الرئيس المنتخب ديك تشيني بتمرير رسالة إلى وزير الدفاع المنتهية ولايته، وليم اس. كوهن William S. Cohen، وهو جمهوري معتدل كان قد خدم في إدارة كلنتون الديمقراطية.

قال تشيني: « لا بد لنا بالفعل من إطلاع الرئيس المنتخب على بعض الأمور» مضيفاً أنه كان يريد «نقاشاً» جاداً «حول العراق وخيارات مختلفة.» كان لابد من العزوف عن تزويد الرئيس المنتخب بجولة حول العالم روتينية معلبة كتلك التي يجري عادة تزويد الرؤساء الجدد بها. يجب على موضوع العراق أن يحتل المرتبة ١. فتشيني كان وزيراً للدفاع في أثناء رئاسة جورج اتش. دبليو. بوش (الأب) التي اشتملت على حرب الخليج في ١٩٩١، وكان يحمل شعوراً عميقاً بوجود عمل لم يتم إنجازه بالنسبة إلى العراق. أضف إلى ذلك أن العراق كان البلد الوحيد الذي كانت الولايات المتحدة تقصفه هذه الأيام بانتظام ولو على نحو متقطع.

كان جيش الولايات المتحدة متورطاً في حرب غير معلنة متدنية المستوى مخيبة مع العراق منذ حرب الخليج التي شهدت قيام والد بوش وتحالف مدعوم من الأمم المتحدة بطرد صدام حسين وجيشه من الكويت التي كانت قد تعرضت لغزوهما. قامت الولايات المتحدة بفرض منطقتي حظر طيران، بمعنى حرمان العراقيين من حرية التحليق بالطائرات والحوامات في هاتين المنطقتين اللتين كانتا تشكلان نحو ٦٠ بالمئة من مساحة ذلك البلد. كان تشيني راغباً في ضمان تمكين بوش من فهم جملة القضايا العسكرية وغير العسكرية الكامنة في برميل البارود المحتمل هذا.

تمثل عنصر آخر بالسياسة المعتمدة الموروثة عن إدارة كلنتون. فالخطة الأساس رغم كونها مفهومة على نطاق واسع كانت خطة «تغيير نظام» واضحة. ثمة قانون أقره الكونغرس ووقعه الرئيس بل كلنتون Bill Clinton كان يقضي بمنح مساعدات عسكرية تصل قيمتها إلى ٩٧ مليوناً من الدولارات إلى قوى عراقية معارضة بهدف «الإطاحة بالنظام الذي يرئسه صدام حسين» و«الدفع باتجاه ظهور حكم ديمقراطي».

صباح يوم الأربعاء الواقع في العاشر من كانون الثاني/ يناير، قبل حفل التنصيب بعشرة أيام ذهب كل من بوش، تشيني، رمسفلد، رايس، والمرشح لتولي وزارة الخارجية كولن پاول إلى البنتاغون لمقابلة كوهن. وفيما بعد مالبث بوش وفريقه أن نزلوا إلى الدبابة أو المدرعة (Tank)، تلك الغرفة الآمنة المخصصة لاجتماعات هيئة رؤساء الأركان المشتركة.

دخل بوش ماشياً الهويني مثل لوقا الطليق ملوحاً بذراعيه قليلاً، ديكياً ولكن مع شيء من القلق في الوقت نفسه.

اثنان من الجنرالات زوداهم بتقرير موجز عن حال منطقتي حظر التحليق. فعملية العين الساهرة الشمالية كانت تفرض حظراً على الطيران فوق مساحة ١٠ بالمئة من العراق في أقصى الشمال لحماية الأقلية الكردية. نحو خمسين طائرة أمريكية وبريطانية كانت قد قامت بأعمال الدروية في المجال الجوي المحظور خلال ١٦٤ يوماً في العام السابق. وفي جل هذه الطلعات كانت هذه الطائرات قد تعرضت لإطلاق النار أو للتهديد بها من جانب منظومة الدفاع الجوي العراقية، بما فيها صواريخ سام أرض - جو. وكانت الطائرات الأمريكية قد ردت على النار بالمثل وقصفت العراقيين، ولاسيما بطاريات المدافع المضادة للطائرات بالمئات من الصواريخ والقنابل.

أما في عملية العين الساهرة الجنوبية، وهي الأكبر، فإن الولايات المتحدة كانت تتولى القيام بأعمال الدورية فوق ما يقرب من كامل النصف الجنوبي للعراق وصولاً إلى أطراف بغداد وضواحيها. كان الطيارون المكلفون بالتحليق فوق المنطقة قد اخترقوا المجال الجوي العراقي عدداً لا يصدق من المرات إذ بلغ ١٥٠,٠٠٠ مرة خلال العقد الأخير، ونحو ١٠,٠٠٠مرة في السنة السابقة. وفي مئات الهجمات لم يتعرض طيار أمريكي واحد للإسقاط أو الضياع.

اعتمد البنتاغون خمس خيارات متدرجة للرد على قيام العراقيين بإطلاق النار على الطائرات الأمريكية. كانت الضربات الجوابية آلية. أما الغارات الأكثر جدية المنطوية على ضربات متعددة موجهة ضد أهداف أو مواقع أكثر أهمية خارج منطقتي حظر الطيران فكانت تتطلب إخطار الرئيس أو موافقته المباشرة. بقيت عملية فرض حظر الطيران خطرة وباهظة التكاليف. إن طائرات نفاثة تصل قيمة الواحدة منها إلى بضع ملايين من الدولارات كانت تُعرِّض للخطر من أجل قصف مدافع مضادة عيار ٥٧ مليمتر كان لدى صدام مستودعات كاملة ملأى بمثل هذه المدافع. هل كانت إدارة بوش عازمة على الاستمرار في متابعة التحرش بصدام واستفزازه كسياسة؟ هل كانت ثمة أي استراتيجية قومية داعمة لمثل هذه السياسة، أم أن المسألة لم تكن سوى خطة واحدة بواحدة جامدة؟

إن خطة عملياتية عرفت باسم غرير الصحراء كانت هي الرد في حال تعرض أي طيار أمريكي للإسقاط. كانت العملية مصممة لتعطيل قدرة العراقيين على أسر الطيار عبر مهاجمة مقرات القيادة والتحكم لدى صدام في مدينة بغداد. كانت الخطة تشتمل على تصعيد الهجوم إذا ما وقع أي طيار أمريكي في الأسر. ثمة خطة عملياتية أخرى معروفة باسم رعد الصحراء كانت هي الرد في حال قيام العراقيين بمهاجمة الأكراد في الشمال.

كثرة من الرموز وأسماء البرامج انتشرت - وكانت بأكثريتها مألوفة لدى كل من تشيني، رمسفلد، وباول الذي كان قد قضى ٣٥ عاماً في الجيش وشغل منصب رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة من سنة ١٩٨٩ إلى سنة ١٩٩٣.

طرح الرئيس المنتخب بوش عدداً من الأسئلة العملية حول سير الأمور، غير أنه لم يَبُح برغائبه كما لم يلمِّح إلى هذه الرغائب.

كان جهاز رئاسة الأركان المشتركة قد وضع قطعة من الملبس المنكَّه بالنعنع في كل مكان. قام بوش بنزع غلاف الحبة الموضوعة أمامه ودسها في فمه. وفيما بعد نظر إلى حبة الملبس العائدة إلى كوهن وسأله إيماءً: هل تريدها؟ جاء رد كوهن بالنفي، فسارع بوش إلى التقاطها. وقبيل نهاية الإيجاز الذي دام ساعة وربع الساعة لاحظ رئيس هيئة رؤساء الأركان جنرال الجيش: «هيو» شلتون «Shelton Hugh»، أن بوش كان يرصد حبة الملبس العائدة إليه فبادر إلى دفعها نحوه.

صحيح أن تشيني كان يصغي ولكنه كان متعباً وأغمض عينيه، منتفضاً على نحو فاضح عدداً من المرات. أما رمسفلد الذي كان جالساً في الطرف الآخر من الطاولة فقد واصل الانتباه الشديد رغم التماس الصراحة أو رفع الصوت من مقدمي الإيجاز.

علق أحد رؤساء الأركان على مسمع أحد الزملاء بعد الاجتماع قائلاً: «إننا موشكون على انطلاقة عظيمة. لقد غط نائب الرئيس في النوم ووزير الدفاع أصم لا يستطيع أن يسمع.»

اعتقد كوهن الذي كان موشكاً على الرحيل عن وزارة الدفاع في غضون عشرة أيام أن من شأن الإدارة الجديدة أن تعاين واقع العراق بسرعة. لم يكن من شأنها أن تجد، إذا وجدت، أي تأييد من جانب بلدان أخرى في المنطقة أو في العالم للتحرك

ضد صدام مما كان سيعني الاضطلاع بالمهمة على نحو منفرد في حال شن أي هجوم واسع النطاق. ما الذي كان يمكن إنجازه بالضربات الجوية؟ أشياء قليلة باعتقاده. فالعراق غدار. ولدى رَوْز جميع الأمور تنبأ كوهن بأن الفريق الجديد لن يلبث، وبسرعة، أن يتراجع ويحاول الاهتداء إلى نوع من «المصالحة» مع صدام الذي كان محتوىً ومعزولاً برأي كوهن.

في مقابلات تمت بعد نحو ثلاث سنوات قال بوش عن وضع ما قبل ٩/١١ ما يلي: «لم أكن سعيداً بسياستنا.» لم تكن هذه السياسة ذات وقع ذي شأن على صعيد تغيير سلوك صدام أو الإطاحة به. «غير أن أي رئيس كان قبل ٩/١١ يستطيع أن يتحرى خطراً فيحتويه أو يتعامل معه بعدد من الطرق المتباينة دونما خوف من تجسد ذلك الخطر على أرضنا نحن.» لم يكن صدام قد أصبح أولوية أولى بعد.



وبعد بضعة أيام استمع بوش إلى إيجاز مهم آخر حول الأمن القومي. قام كل من مدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تنت ونائبه لشؤون العمليات جيمس إل. بافيت James L. Pavitt بإعطاء كل من بوش، تشيني، ورايس ما يعرف باسم تقرير الأسرار الموجز. على امتداد ساعتين ونصف الساعة استعرض الرجلان كل ماهو جيد وسيء وبشع عن العمليات السرية، جميع حالات المسح والرصد الفنيين والتقنيين، وكل ماله علاقة بهويات ومواصفات الأسماء الواردة في القائمة السرية للرواتب والتعويضات.

ولدى تفصيل جميع المعلومات الاستخباراتية وروزها وتحليلها أقر تنت وبافيت بوجود ثلاثة تهديدات رئيسية للأمن القومي الأمريكي. تمثل التهديد الأول بأسامة بن لادن وشبكته الإرهابية: القاعدة الناشطة من منطلق ملاذ آمن موجود في أفغانستان. كان إرهاب بن لادن «تهديداً هائلاً» لابد من اعتباره «مباشراً» كما

قال الرجلان. ولم يكن هناك أي شك بأن بن لادن كان عازماً على ضرب مصالح الولايات المتحدة بهذا الشكل أو ذاك. لم يكن أي من التوقيت والمكان والأسلوب واضحاً. كان الرئيس كلنتون قد فوض وكالة الاستخبارات المركزية عبر خمسة أوامر استخباراتية منفصلة بالعمل على شل القاعدة وتدميرها.

تمثل تهديد رئيسي آخر بالانتشار المتزايد لأسلحة الدمار الشامل - الكيميائية، البيولوجية والنووية. قالا إن هذا كان مبعث قلق شديد. أما التهديد الثالث فلم يكن سوى صعود الصين، وخصوصاً على الصعيد العسكري، غير أن تلك المشكلة كانت على بعد خمسة إلى خمسة عشر عاماً من الآن.

قلما تطرق الكلام إلى العراق. لم يكن لدى تنت أي جدول أعمال أو برنامج خاص بالعراق خلافاً لامتلاكه لمثل هذا البرنامج بالنسبة إلى بن لادن والقاعدة.

في اليوم السابع عشر من رئاسة بوش، وهو يوم الاثنين الواقع في الخامس من شهر شباط/ فبراير، تولت رايس رئاسة اجتماع هيئة مسؤولين كبار ضم كلاً من تشيني، پاول، ورمسفلد. حل نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية جون إي ماكلوخين John E. Mclaughlin محل تنت في هذا الاجتماع. كان الهدف هو استعراض السياسة العراقية، والنظر في وضع جملة الخيارات الدبلوماسية، العسكرية، والعمليات السرية. من المهمات الأولى الملقاة على عاتق مسؤول كبير ووزارته أو وكالته كانت معاينة ودراسة كيفية مضاعفة عمليات جمع المعلومات الاستخباراتية عن أسلحة الدمار الشامل العراقية المشتبه وجودها.

أقله على الورق، كانت الأمم المتحدة عاكفة على اتباع سياسة عقوبات اقتصادية موجهة ضد نظام صدام. أقر المسؤولون أن صداماً كان في الأساس، قد كسب حرب العلاقات العامة عبر إقناع الأسرة الدولية بأن العقوبات كانت تؤدي إلى إفقار شعبه، فضلاً عن أنها لم تكن تمنعه من إنفاق الأموال من أجل البقاء في السلطة.

سارع باول إلى القول بأن الحاجة كانت تدعو إلى جعل الأمم المتحدة تعيد النظر في العقوبات لتشديدها على المواد التي من شأنها أن تدعم برامج صدام العسكرية وتلك الخاصة بأسلحة الدمار الشامل. كان من الممكن بعد ذلك تخفيف العقوبات على السلع المدنية.

تمثلت قضية أخرى بعمليات التفتيش عن الأسلحة داخل العراق، تلك العمليات التي كانت الأمم المتحدة قد اجازتها بعد حرب الخليج للتأكد من عدم مواصلة صدام لحيازة أسلحة الدمار الشامل. كان المفتشون قد ساهموا في تفكيك جملة من برامج الأسلحة الكيميائية، البيولوجية، بل وحتى النووية المتقدمة المثيرة للاستغراب، غير أن تقارير مثيرة للشك عن ذخائر مدمرة وآليات إخفاء مدروسة بإتقان أبقت كثرة من الأسئلة بلا أجوبة. وفي ١٩٩٨ كان صدام قد طرد المفتشين من البلاد، وبات السؤال متركزاً على ما يمكن القيام به لإجباره على القبول بعودتهم. لم يقدم احد جواباً مقنعاً.

ما الأسلوب الذي ينبغي اعتماده في التعامل مع جماعات المعارضة العراقية خارج العراق وداخله؟ متى يجب تقديم الأسلحة والمساعدات القاتلة الأخرى؟ ما الجهة التي ستقدم المساعدات- وكالة الاستخبارات المركزية أم الدفاع؟ مرة أخرى لم يكن لدى الحاضرين أي جواب كامل.

اقترحت رايس وضع دراسة عن منطقتي حظر الطيران. ما الهدف منهما؟ ما كانت التكاليف والمخاطر؟ ما الفوائد؟

بوش نفسه كان مهتماً بموضوع فرض حظر الطيران. كان من شأن الاحتمال المشؤوم المتمثل بنجاح العراق في إسقاط أحد الطيارين أن ينزل به ضربة مؤلمة. وقد قال فيما بعد مستذكراً: «أمرت وزير الدفاع بالعودة والعمل على تطوير خيار أقوى

في حال أصبحنا بحاجة إلى استخدام بعض الأسلحة الجدية ضد العراق من أجل تحرير أي طيار.»

جاءت النتيجة اللاحقة على شكل عدد أقل من الطلعات الجوية مع جعلها أقل قابلية للتنبؤ لرفع مستوى سلامة الطيارين. ولدى تعرض أي طائرة للإصابة فقد كان من شأن الرد أن يأتي أكثر اتصافاً بالصفة الاستراتيجية، عبر ضرب مرافق عسكرية عراقية منطوية على أهمية خاصة بالنسبة إلى صدام.



يوم الجمعة الواقع في ١٦ شباط/ فبراير قامت دزينتان من القاذفات الأمريكية والبريطانية بضرب نحو ٢٠ مركزاً للرادار والقيادة داخل العراق، بعضها على مسافة لا تزيد على بضعة أميال عن أطراف بغداد. كان جنرال من الأركان المشتركة قد قدم تقريراً وجيزاً إلى رايس سلفاً، وكانت الأخيرة بدورها قد أبلغت الرئيس بمضمون التقرير قائلة إن صدام حسين كان موشكاً على ربط بعض مواقع القيادة والتحكم المفتاحية ببعض الكوابل الأرضية الخاصة التي يصعب ضربها. كان من الأفضل تدميرها قبل إتمامها. كان من شأن الهجمات أن تشكل جزءاً من عملية فرض حظر التحليق الروتينية. كانت تلك أكبر الضربات في عامين اثنين.

بشكل ما لم يخطر ببال أحد في البنتاغون أو البيت الأبيض أن يحاول التأكد من أن رمسفلد كان منخرطاً مئة بالمئة. في الشهر الأول كان مكتبه الأمامي لا يزال دون تنظيم- «في حالة فوضى كاملة وشاملة» حسب تعبير أحد موظفي البيت الأبيض. بقيت المناصب المدنية لنواب وزير الدافع شاغرة أو غير مؤكدة. وفي إطار البنتاغون لم يكن هناك أيضاً أي تحديد صحيح لمكان أحد المواقع القريبة من بغداد. كان صدام أو جهازه الأمني قد أصيب بالذعر ظاناً أن الولايات المتحدة كانت قد

أقدمت على شن هجوم أكبر. انطلقت صفارات الإنذار في بغداد عارضة صداماً على شاشة السي. إن إن. CNN لفترة قصيرة، ومذكّرة البيت البيض والبنتاغون بأن لصدام صوتاً في هذه الأحداث المروعة: كان قادراً على الرد أو التصعيد.

أعلن رمسفلد الغاضب أن التسلسل القيادي قد تعرض للانتهاك. فالقانون يقضي بأن الأمرالعسكري يصدر عن الرئيس إليه هو بوصفه وزيراً للدفاع ومنه إلى الجنرال فرانكس في القيادة المركزية، السنتكوم CENTCOM. أما دور الأركان المشتركة فلم يكن، بموجب القانون مرة أخرى، سوى تقديم النصح، توفير الاتصالات، وتأمين الإشراف. يجب أن يكون الشخص المسؤول عن التعامل مع البيت الأبيض ومع رئيس الجمهورية في الأمور ذات العلاقة بالعمليات. نقطة. وقد ذكّر أحدَ الضباط بهذه الحقيقة قائلاً: «أنا هو وزير الدفاع. أنا هو الرقم الثاني في التسلسل القيادي.»



في الفاتح من آذار /مارس اجتمع كبار المسؤولين ثانية وجرى تكليف پاول بمهمة وضع خطة واستراتيجية لإعادة تركيز عقوبات الأمم المتحدة الاقتصادية على مراقبة الأسلحة. كان پاول يعلم أن الفرنسيين والروس، الذين كانت لهم مصالح تجارية ذات شأن في العراق، كانوا يفعلون كل شيء ممكن لتمزيق العقوبات، لإعلان امتثال العراق، ولرفع العقوبات. في الجهة المقابلة لم يكن البنتاغون مستعداً للقبول بأي تغيير أو تخفيف. مرة بعد أخرى عبر رمسفلد وآخرون من الدفاع عن القلق بشأن أشياء ذات استعمال مزدوج. - تجهيزات قد تبدو بريئة ولكنها قابلة للاستعمال أو القلب لدعم برامج الأسلحة العراقية.

شكا رمسفلد لپاول داعياً إياه إلى معاينة الأشياء التي يعكف العراقيون على شرائها في إحدى المناسبات. إنهم يشترون هذه الشاحنات المقطورة العملاقة. وهم

يستطيعون أخذ أسطوانة الهيدروليك التي تسند الشاحنة واستخدامها أداة دفع لأي صاروخ. تريد أن تبيعهم الأسباب اللازمة لبناء صواريخ يطلقونها علينا أو على إسرائيل.

بحق السماء، قال پاول، إذا أراد أحدهم شراء أسطوانة لنصب صاروخ فهل يكون مضطراً إلى ابتياع شاحنة يصل سعرها إلى ٢٠٠٠٠٠ دولار؟!

تمثلت قضية أخرى شاغلة لرمسفلد بمسألة ناقلات المعدات الثقيلة الاتش. إي. تي (HET) المزعومة - تلك الناقلات التي كان العراقيون يشترونها. إنها القاطرات المقطورة الثقيلة القادرة على نقل الدبابات. كانت الاسخبارات قد حصلت على بعض الصور الجوية التي أظهرت العراقيين وهم يقومون بتصفيح الناقلات، فتم التوصل إلى استنتاج يقول بأن من شأن إعادة النظر بالعقوبات أن تتيح فرصة العمل السري لبناء اسطول من ناقلات الدبابات. كان رمسفلد، برأي پاول يوحي بأن الشرق الأوسط قد يتعرض للاجتياح بالدبابات العراقية.

«اتق الله يا رجل!» قال پاول الذي كان قد زاد شكاً. لقد نشب صراع محموم مالبث أن أفضى إلى بعض أكثر النقاشات التي خاضها داخل الإدارة غرابة.

وكذلك فإن رمسفلد كان يتذمر من منطقتي حظر الطيران. كان العراقيون يطلقون النار على طائراتنا على نحو روتيني. ففي أي مكان آخر سمحنا في تاريخنا للناس بإطلاق النار علينا على هذا النحو؟ «أريد جواباً».

سأله پاول: وما البديل؟ ما الذي كان يريده؟ لم يبادر أحد إلى طرح أي بديل معقول وقابل للحياة: واصل رمسفلد تعبيره عن عدم الاقتناع، معلناً أخيراً أن الإدارة كانت تلعب لعبة «الباتي- كيك» (Patty- Cake) (فطيرة اللحم المفروم).

«نحن معك، وما اللعبة التي تريد أن تلعبها» سأل پاول. تطورت المناقشات إلى حين

مطالبة الرئيس بوضع خطة عسكرية أفضل للتعامل مع احتمال إسقاط أحد الطيارين. هل كانت ثمة «عصا سحرية» من شأنها أن تردع العراق عن إطلاق النار على طيارينا؟ هل كانت ثمة أي وسيلة لممارسة تأثير استراتيجي قادر على إضعاف النظام من جهة وعلى إيصال رسالة توحي بمدى خطورة الموقف إلى صدام من جهة ثانية؟

لم يكن أي بديل رسمي بادياً في أفق المستقبل القريب.



إن العودة إلى المنصب نفسه بعد ٢٥ سنة كانت حادثة غير مسبوقة بالنسبة إلى شخص كان قد شغل منصب وزير الدفاع- أو أي منصب وزاري رفيع آخر بالمناسبة. كانت تلك فرصة لتكرار الدور مرة أخرى. كان رمسفلد عازماً على أدائه بطريقة أفضل.

لسلسلة طويلة من الأسباب - يعود تاريخ بعضها إلى ما قبل عقود ولا يزيد عمر بعضها الآخر على أشهر قليلة- كان رمسفلد سيدفع بقوة. ربما كانت كلمة الدفع مخففة. فرمسفلد لم يكن يكتفي بتفضيل الوضوح والنظام، بل كان يصر عليهما بإلحاح. كان ذلك يعني نوعاً من الاضطلاع الشخصي بإدارة العملية، من معرفة جميع التفاصيل الدقيقة، من طرح الأسئلة، من تحديد مواصفات لقاءات تقديم التقارير الموجزة والنتائج النهائية إلى رئيس الجمهورية. على الدوام كان السؤالان المنتصبان أمامه هما التاليان: ما الذي كان الرئيس بحاجة إلى أن يعرفه؟ وما الذي كان يمكن للرئيس أن يتوقع الإطلاع عليه من وزير دفاعه؟ بكلمات أخرى، كان رمسفلد يريد تحكماً شبه شامل.

في جزء منها، كانت هذه الرغبة نابعة من تجربته وخيبته الشديدة من سنة ٧٥-١٩٧٦ حين كان وزير دفاع الرئيس جيرالد فورد Gerald Ford. لم يدم شغل

رمسفلد لمنصب الوزير سوى ١٤ شهراً لأن فورد أخفق في كسب الانتخابات وحده عام ١٩٧٦. كان رمسفلد الذي لم يكن يتجاوز الرابعة والأربعين من العمر في ذلك الوقت قد وجد البنتاغون جهازاً صعباً بل ومتعذر الإدارة.

في ١٩٨٩، بعد نحو ١٢ سنة من ترك البنتاغون، توقف رمسفلد عند الاستحالات المتكررة للمنصب خلال وجبة عشاء تناولناها معاً في بيتي. كنت عاكفاً على تأليف كتاب، وكنت أواصل مقابلة جميع وزراء الدفاع السابقين وكبار القادة العسكريين الآخرين. لم يكن مصارع برنستون قد لان. كان ذلك قبل ما لايزيد على عشرة أيام فقط من تنصيب غريمه الجمهوري التاريخي العتيد جورج اتش. دبليو. بوش رئيساً للجمهورية. ففي عقدي الستينيات والسبعينيات كان رمسفلد نجماً جمهورياً، وعدد لا يستهان به من أعضاء الحزب بمن فيهم رمسفلد كانوا يتصورون بأن من الممكن أن يصبح رئيساً للجمهورية ذات يوم. كان رمسفلد يرى بوش الأب ضعيفاً، مفتقراً إلى قوة الشخصية، رجلاً كان قد حدد كيانه السياسي على أنه شخص في متناول اليد وقريب. تلك الليلة فيما كنا، كلينا، نتناول الطعام في مطبخ بيتي لم يعبر رمسفلد عن أي مرارة، وقد اكتفى ربما بالتعبير عن نوع من الشعور بأن فرصة معينة قد ضاعت. تمثلت المشكلة بوزارة الدفاع وقد بقي متمسكاً بها.

أقر رمسفلد بأن وظيفة وزير الدفاع كانت «ملتبسة» بعدم تمتع الوزارة بما هو أكثر «من قشرة رقيقة من التحكم المدني.» وقد أضاف «إنها أشبه بحمل آلة كهربائية بيد وفيش بالأخرى والجري من مكان إلى آخر بحثاً عن مكان لدسه فيه.» وقال: «لا تستطيع أن تعقد صفقة تترك أثراً. لا أحد يستطيع أن يفعل ما هو أكثر من الإدلاء بوجهة نظره العابرة.» حتى وإن كان وزيراً.

لم يتوفر قط ما يكفي من الوقت لتفهم المشكلات الكبرى واستيعابها، قال رمسفلد، ثم أضاف أن البنتاغون تأسس للتعامل مع قضايا زمن السلم، مثل القرار

السياسي الخاص بتحريك إحدى حاملات الطائرات. أما في أيام الحرب الفعلية فإن من شأن هذه الأمور أن تكون مسائل عسكرية، وتابع كلامه حتى قال إن من شأن البلاد أن تكون في حال الحرب ربما بحاجة إلى جهاز تنظيمي مختلف عن البنتاغون.

تذكر رمسفلد مجيء نحو ١٥ من كبار الموظفين المدنيين والعسكريين إلى مكتبه في البنتاغون في الساعة السادسة والنصف من مساء أحد الأيام. كانوا يريدون قراراً حول الدبابة التي يتعين على الجيش شراؤها. كان الاختيار بين تلك المجهزة بمحرك كرايزلر والأخرى المجهزة بمحرك جنرال موتورز. قالوا له: عليك أنت تقرر، فنحن لا نستطيع. ثمة كان بلاغ صحفي جاهز من ألفه إلى يائه مع فراغات يتم ملؤها بالقرار الذي يتخذه. وحسب وصفه الخاص، بدأ رمسفلد يطير طيراناً في أجواء مكتبه قائلاً للجميع بأنهم يستحقون، دونما استثناء «الشنق من ابهاماتهم وخصياتهم.» وقد صاح رافعاً نبرة صوته قائلاً: «يالكم من حمقى أغبياء وجبناء» لم يكونوا يشغّلون أدمغتهم- عرّضوا أنفسهم آخر المطاف، لخطر عدم الحصول على أي من الدبابتين من الكونغرس لأن «المبنى منقسم على نفسه!» ومن شأن الكونغرس أن يطلع بالتأكيد على خبر وجود الانقسامات. وهكذا فإنه رفض اتخاذ القرار وتم صرف النظر عن البيان الصحفي. صحيح أن الأمر تطلب وقتاً إضافياً دام ثلاثة أشهر، ولكنه أجبرهم على اتخاذ قرار «بالإجماع».

علّقَ رمسفلد قائلاً: «إذا كان المرء يجهل فن المصارعة فإنه سيتعرض للأذى. إذا كنت لا تعرف كيف تتحرك فإنك ستتلقى ضربة موجهة على عينك. يصح ذلك على الدفاع.»

◆ ◆ ◆

كان رمسفلد قد اجتهد كثيراً خلف الكواليس في أثناء حملة بوش عام ٢٠٠٠ بشأن قضايا جوهرية، واهتم أولاً بأن يصبح مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية في

إدارة جديدة، بعد التوصل إلى استنتاج يقول بأن الاستخبارات كانت الجهة التي يعوزها الإصلاح والضبط. كان قد تحدث مع مساعده السابق وصديقه كن آدلمان Ken Adelman، الذي كان رئيساً لهيئة الرقابة على التسلح في إدارة ريغان Rea-gan. لم يتردد آدلمان في مصارحة رمسفلد قائلاً: «إن وكالة الاستخبارات المركزية وظيفة غير ملائمة.» وأضاف: «إنه مكان دنيء والعاملون فيه يأكل بعضهم بعضاً.» ثانياً، أعتقد أن الفكرة غير واقعية كلياً. دعني أرسم لك صورة. تصور أنك في غرفة العمليات وستبقى جالساً هناك وتقول إن أجهزة الاستخبارات تكشف عن هذا وتلقي الضوء على ذلك ولكنني لن أتقدم بأي توصية سياسية.» يُفترض في مدير وكالة الاستخبارات المركزية أن يبقى خارج السياسة. «وبالتالي فأنت خارج الحلبة. صحيح أنك تستطيع تضليل أناس آخرين لكنك لست من يفعل ذلك، لن يحصل هذا على الإطلاق.» لابد لرمسفلد من أن يشعر بأنه مضطر لتقديم توصيته «لا أعتقد أن عليك أن تشغل وظيفة تضطرك إلى أن تلعب دوراً لست قادراً على أن تلعبه.»

حين أخفق مرشحون رئيسيون للدفاع في مقابلاتهم أو رفضوا تولي المنصب، التفت بوش وتشيني، الذي كان نائباً لرمسفلد عندما كان الأخير رئيساً لجهاز العاملين في البيت الأبيض لدى الرئيس فورد، إلى هذا الرجل رمسفلد بوصفه الاختيار المفاجئ.

من الأمثلة الدالة على طريقة عمل واشنطن أن نائب الرئيس المنتخب تشيني- وهو الذي تولى رئاسة الفريق الانتقالي - بادر في أثناء قيام بوش الابن بدراسة احتمال إعطاء حقيبة الدفاع لرمسفلد، إلى التماس رأي برنت سكوكروفت Brent Scowcroft الذي كان قد عمل مستشاراً للأمن القومي لدى كل من فورد (١٩٧٤- ١٩٧٧) وبوش الأب (١٩٨٩-١٩٩٣)، على نحو مكتوم.

قال سكوكروفت لتشيني «إنه كتوم كما تعلم.» ومع أنني لا أجد ذلك شنيعاً

بالضـرورة فـإني أرى أنه من الصـعب إن لم يكن من المسـتحيل أن تقـرأه. إنه لا يشي بشيء. يكتفي بطرح الأسئلة ونشر الشكوك. ومن النادر أن يقول: «أعتقد أنه ينبغي علينا أن نفعل هذا.»

جاء الوصف منطبقـاً أيضـاً على تشيني الذي كـان يرغب في تنصيب رئيسه السابق وزيراً للدفاع.

قبل أن يصبح رمسـفلد وزير دفاع جورج دبليو. بوش كان قد تحـدث مع الرئيس المنتخب. كان اللقاء نوعاً من الاختبار. تمثل رد فعل البلاد النمطي الطبيعي على أي تحـد أو هجوم خـلال سنوات رئاسـة كلنتـون الثـمـاني بما أطلق عليه رمـسـفلد اسم «الانسحـاب المرن». وكان هـو مؤمناً بأن على إدارة بوش الجديدة أن تعتمد، خلافاً لذلك، سياسة قائمة على «الاقتحـام» و«الاندفاع إلى الأمام»، وكان بوش قد اتفق معه في الرأي.

وبعد توليه للمنصب بثلاثة أشهر أنجز رمسـفلد صياغة مذكرة مؤلفة من ثلاث صـفحـات حملت عنوان «توجيهات لدى دراسـة تكليف القوات المسلحة الأميـركية بمهمات معينة.» اصطحب الطبعة الرابعة للمذكرة إلى الرئيس واستعرضها أمامه بالتفصيل. كانت الوثيقة سلسلة من الأسئلة الواجب طرحها: «هل التحرك المقترح ضروري حقاً؟» «هل التحرك المقترح قابل للإنجاز؟» «هل هو جدير؟»

دافع رمسفلد عن التحلي بالحصافة وبعد النظر. إحدى الفقرات كانت تنذر بمشكلات مقبلة: «تجنب الحـجج المألوفة لدى صـياغة أي بيـان واضـح عن الدوافع الكامنة وراء التحرك. قد تكون مثل تلك الحجج والأعذار مفيدة في البداية لكسب التأييد، ولكنها ستصبح قاتلة فيما بعد.» كان رمسفلد قد كتب كذلك: «يتعين على قيادة الولايات المتحـدة أن تتحلى بالاسـتقـامـة الصـارمـة والقـاسـيـة مع ذاتهـا، مع

الكونغرس، مع الجمهور، مع شركاء التحالف.» وبعد ذلك أضاف: «إن التورط في أي أمر أسهل بكثير من عملية الخروج منه!»

وجد رمسفلد أن الرئيس متجاوب، غير أنه مالبث، خلال الأشهر الأولى من فترته البنتاغونية الثانية، أن اكتشف أن المكان كان أكثر انهياراً وخراباً مما كان قد توقعه.



مع تواصل النقاش حول السياسة العراقية على المستوى الوزاري كما على مستوى الشريحة الثانية، على مستوى ما عرفت باسم لجنة نواب الوزراء، تحولت الأنظار نحو الدعم الموفر لجماعات المعارضة- تلك الموجودة خارج البلاد مثل المؤتمر الوطني العراقي الآي. إن. سي. (INC) بزعامة أحمد الجلبي المثير للجدل من جهة، أو جماعات موجودة داخل العراق من جهة ثانية. فالجلبي، وهو متخصص رياضيات دارس في أمريكا غادر بغداد في ١٩٥٨ صبياً، كان قد أصبح حبيب عدد من موظفي وزارة الدفاع الذين رأوه هو ومنظمته المنفية المتخذة لندن مقراً لها قوة حركة تمردية مسلحة محتملة. أما وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية فقد كانتا تنظران إلى الجلبي بعين الريبة - إذ وجدتاه شديد التملق، مولعاً بالصراعات والانقسامات، وبعيداً عن متناول الحياة المرعبة في ظل نظام صدام- إضافة إلى أنه كان ملاحقاً في الأردن بتهمة الاحتيال المصرفي.

داخل لجنة النواب التي ضمت كلاً من نائب وزير الدفاع بول دي. وولفو فيتز Paul D. Wolfowitz من ناحية والرجل الثاني في الخارجية ريتشارد إل. آرميتاج Richard L. Armitage، من ناحية ثانية، كان الجدل مشحوناً بالعواطف حول مدى سرعة السير مع المعارضة. عند أي نقطة ستبادر الولايات المتحدة إلى تقديم

الأسلحة؟ عند أي نقطة ستصبح مستعدة لدعم عمليات عنيفة وقاتلة داخل العراق إذا ما أرادت المعارضة أن تتسلل إلى داخل العراق وتنفذ عمليات معينة هناك؟ هل سيتم تدريب المعارضة من قبل وزارة الدفاع أم من جانب وكالة الاستخبارات المركزية؟ ومع أن آرميتاج كان قد أيد فكرة إعادة تسليح المعارضة في أفغانستان، فإنه لم يكن متحمساً بالنسبة إلى الچلبي.

يبقى آرميتاج، وهو في السادسة والخمسين من العمر، الصديق الأفضل، المستشار، والمدافع الأعلى صوتاً بالنسبة إلى پاول. لقد تخرج في الأكاديمية البحرية عام ١٩٦٧ وخدم أربع سنوات في فيتنام، منهياً حياته في سلاح البحرية عام ١٩٧٣ بعد تدريس مادة مكافحة الحركات الثورية. في عقد الثمانينيات عمل هو وپاول تحت إمرة وزير الدفاع كاسبار واينبرغر Caspar Weinberger، حيث كان آرميتاج مساعداً لوزير الدفاع في شؤون الأمن الدولي- خارجية الپنتاغون المصغرة - في حين كان پاول كبيرمساعدي واينبرغر العسكريين. كثيراً ما يتحدث الرجلان عبر الهاتف كل يوم حتى أن المعاونين يتصورونهما مراهقين مولعين ببعضهما، ملتزمين بتقاسم جميع الأشياء على نحو مطلق.

كان الهدف المشترك لدى النواب هو رفع مستوى الضغط على صدام، هو السعي إلى إحداث صدوع وخلافات في داخل النظام. غير أن المسألة مالثبت أن تركزت على كيفية ومدى المبالغة في استخدام تلك الصدوع والخلافات وتوظيفها بعد النجاح في إحداثها؟ لم يتمكن النواب من التوصل إلى أي شيء قريب من التوافق. ففي الأول من حزيران/ يونيو قام كبار المسؤولين بدعوة مجلس الأمن القومي إلى اعتماد خطة من شأنها أن تمكّن العراقيين من أن يساعدوا أنفسهم. جاء وصف الأمر على لسان أحد المشاركين على النحو التالي: «تحريك القدر ورؤية ما يحصل.»

غيـر أن الخطة أو السـياسـة الناقصـة تلك جـاءت منطوية على خطر احتـمـال مبادرة صدام إلى الرد. كان من المحتمل أن يتوغل في المناطق الكردية في الشمـال، أو يباشـر تعقب السكان الشيـعة مـرة أخرى في الجنوب. وكـان من المحتمل أن يشن هجومـاً على إحدى الدول المجـاورة- على إسـرائيل، علـى الكويت مـرة ثانيـة. أو كـان محتملاً أن يقصف كلاً من إسـرائيل والعربية السعودية والكويت بصواريخ سكود. لم يكن هناك أي أجوبة سهلة.

❖ ❖ ❖

بين الحـادي والثـلاثين من أيار/ مـايو والسـادس والعشـرين من تموز /يوليـو ٢٠٠١، قام نائب مستشارة الأمن القومي ستفن جي. هادلي Stephen J.Hadley بجمع النواب أربع مرات لصياغة الخطة أو السياسة العراقية. كان هادلي، وهو في الرابعة والخمسين من العمـر، وكيل نيـابة لامعـاً سبق له أن عـمل لدى تشيني في الدفاع واشتهر بنزعات حب العمل المرضي. وبوصفه نائباً لرايس كان يتولى رئاسـة لجنة النواب. وفي الفاتح من آب/ أغسطس قدمت الجماعة إلى كبار المسؤولين ورقة بعنوان: «استراتيجية تحرير.» اقترحت الورقة استراتيجية ممرحلة قائمة على ممارسـة الضغط على صدام وعلى تطوير الأدوات والفرص الكفيلة برفع مسـتوى الضـغط مع ابتـداع أسـاليب الإفـادة من الفـرص. وكـانت الورقـة تعـوّل كـثيـراً على المعارضة العراقية.

كانت الوثيقة مصحوبة بملاحق غائصة في تفاصيل ما يمكن عمله على الصعيد الدبلوماسي- على صعيد العقوبات الاقتصادية ومفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة، وعلى الصعيد العسكري فيما يخص منطقتي حظر الطيران واحتمالات تعرض أحد الطيارين للاسقاط، وعلى صعيد ما يمكن لوكالة الاستخبارات المركزية وغيرها من الأجهزة أن تفعله دعماً، تعزيزاً، وتقوية للمعارضة العراقية.

كانت العملية الشاملة للأجهزة قد تمخضت عن سلسلة طويلة من الاجتماعات وأكوام من الورق غير أنها لم تكن قد أفضت إلى امتلاك اي خطة أو إنجاز أي عمل باتجاه تغيير النظام. ومثل هذا الوضع مالبث أن أثار موجة من النقاشات بين كبار المسوؤلين والنواب حول الظروف التي يمكن استخدام القوات العسكرية المباشر في ظلها. أطلق پاول على الأمر اسم هجوم «افترضوا أننا اضطررنا إلى فعل هذا» على العراق للإطاحة بصدام. وعلى الرغم من جود أشياء كثيرة جارية هناك في البنتاغون لم تعرض قط على كبار المسؤولين، فإن پاول سمع ما يكفي على المستويين الرسمي وغير الرسمي من صلاته العسكرية القديمة - من الإشاعات المتداولة بين صفوف الجنرالات.

تمثل العراب الفكري وأشرس مؤيدي فكرة إسقاط صدام ببول وولفوفيتز، نائب وزير الدفاع. كانت لدى وولفوفيتز هذا، وهو حامل شهادة دكتوراه في العلوم السياسية في الثامنة والخمسين من العمر، بشعر كثيف وطويل بدأ يشيب، وبأساليب حاخامية، آراء متطرفة، صقرية. كانت الأسباب الداعية إلى الخلاص من صدام حسين هي: إن العملية كانت ضرورية وكان من شأنها أن تكون سهلة نسبياً.

كان وولفوفيتز مؤمناً بإمكانية إقحام الجيش لاجتياح واحتلال آبار النفط العراقي الجنوبية- ١٠٠٠ بئر تصل طاقتها إلى نحو ثلثي إنتاج النفط في العراق- وصولاً إلى إقامة رأس جسر أو موطئ قدم. فجميع الآبار كانت تقع داخل مسافة لا تزيد على ستين ميلاً عن الحدود الكويتية. وقد أعلن وولفوفيتز «ليس ثمة ما يمنعك من احتلال المنطقة.» حمل الاقتراح عنوان «استراتيجية الجيب». ومن الجيب كان سيتم تقديم الدعم للمعارضة المناوئة لصدام، وهي المعارضة التي كانت ستتولى مهمة استنفار وحشد باقي البلاد للإطاحة بالدكتاتور:

رأى پاول أن وولفوفيتز كان يتحدث كما لو أن ٢٥ مليوناً من العراقين كانوا

سيسارعون إلى الوقوف في صف المعارضة المدعومة من قبل الولايات المتحدة. غير أن الفكرة لم تكن، بنظر باول، إلا واحدة من أسخف الأطروحات الخاطئة استراتيجياً التي سبق له أن سمعها.

غير أن وولفوفيتز كان أشبه بطبل غير مستعد للتوقف عن إثارة الصخب. فقد كان هو وجماعته من المحافظين الجدد يطيرون حماساً لجملة الأفكار التي كانت تُطرح بوصفها «مشروعات خطط.»

وظل باول يقول وهو يهز رأسه: «ياله من جنون!». أين هو السقف؟ وهل هناك أي سقف يتم الوقوف عنده؟ وبالتالي فإن وزير الخارجية راح يقتنص فرصاً تمكّنه من التكلم مع الرئيس مباشرة.

ثم مالبث باول أن نصح بوش قائلاً: «حذار من السماح بإقحامك في أي شيء إلى أن تكون مستعداً له، أو إلى أن تقتنع بأن هناك سبباً حقيقياً للإقدام عليه. ليس الأمر بالسهولة التي يجري عرضه بها، وخذ وقتك فيما يخص هذا الموضوع. لا تدع أحداً يقحمك فيه.»

رد عليه الرئيس: «كن مطمئناً. إنه تخطيط احتمالات جيد وأنا أعرف ما هم عاكفون على إعداده ولست تواقاً للاندفاع بحثاً عن المشكلات والمصاعب.»

عاد باول الذي بقي قلقاً من احتمال انطواء مثل هذه الخطة على عواقب إلى إثارة مسألة ضربة أو اجتياح سريعين للعراق مع الرئيس. وقد قال: «ليس ثمة ما يدعو إلى تعرضك للتورط في هذا»، راجياً بوش أن يعالج الأمر ببطء.

رد الرئيس قائلاً: «لقد فهمت الموضوع. أعرفه.»

أقر بوش متذكراً بأنه لم يسبق له قط أن رأى أي خطة رسمية لضربة سريعة. وقد قال: «ربما كانت الفكرة متداولة بوصفها كتلة يحلو للناس علكها.» ومهما يكن

من أمر فإن المفهوم ونمط التفكير المهلهل الكامن وراءه كانا مصدرين لقدر متواصل ومتنام من الذعر لدى پاول.

في العاشر من آب/ أغسطس قامت النفّاثات الأمريكية والبريطانية بقصف ثلاث مواقع دفاع جوي في العراق، منزلة أكبر الضربات منذ شباط/ فبراير. غاب الخبر حتى عن الصفحات الأولى. فرواية الواشنطن بوست للقصة في اليوم التالي على الصفحة آ/١٨، اعتبرت الهجوم هجوماً «ذا مدى محدود نسبياً» وأمراً عادياً مألوفاً. قالت الجريدة «بدت ضربات الأمس استئنافاً لنمط الحقبة الكلنتونية القائمة على ضرب الدفاعات الجوية العراقية مرة كل ستة أشهر تقريباً.»

توقف جل العمل المتركز على العراق خلال الجزء الباقي من آب/ أغسطس بسبب ذهاب بوش وكبار مستشاريه إلى أمكنة قضاء إجازاتهم. لم يتم تقديم أي توصية سياسية بشأن العراق إلى الرئيس بالمطلق.

كانت الانقسامات العميقة والتوترات الشديدة في مجلس الحرب بين پاول المفاوض المعتدل ورمسفلد الحركي المتشدد تعني توقف احتمال اعتماد أي سياسة إما على تدخل الرئيس أو على دفع الأحداث باتجاه إقحامه عنوة.

ما من أحد كان يدرك تلك الحقيقة أفضل من رايس التي كانت، وهي في السادسة والأربعين، حاصلة على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية، وقد مارست التدريس الجامعي في ستانفورد حيث ارتقت إلى منصب العمادة. كانت رايس، وهي خبيرة في الشؤون الروسية، أحد أعضاء جهاز مجلس الأمن القومي في فترة رئاسة بوش الأب. كانت وهي ذات الطلعة البهية والقامة الطويلة والابتسامة العريضة، قد نسجت علاقتها بجورج دبليو بوش خلال حملة الـ ٢٠٠٠ الانتخابية حين كانت كبيرة مستشاريه في شؤون السياسة الخارجية. ليست متزوجة كما لا توجد عندها عائلة

مباشرة؛ بدا وكأنها كانت رهن إشارة الرئيس مدة ٢٤ ساعة في اليوم في مكتبها الموجود في الجناح الغربي، معه في رحلاته الخارجية، في كامب ديفد خلال العطل الأسبوعية، أو في مزرعته التكساسية. كانت تمثل النسيج اللاحم بين الرئيس وكبار المسؤولين. بقي هدفها الرئيسي متركزاً على الاهتمام بالرئيس وبأولوياته.



2

تمخضت هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، ٢٠٠١ الإرهابية في نيويورك وواشنطن التي أودت بحياة نحو ٣٠٠٠ شخص عن تغيير رئاسة بوش وتحديدها. لم يكن بوش مبالغاً حين أملى على شريط يومياته في تلك الليلة قائلاً: «إن بيرل هاربر القرن الحادي والعشرين وقع اليوم.» من نواح معينة كانت الهجمات أكثر تدميراً وإحداثاً للخراب. فبدلاً من هاواي ١٩٤١ التي لم تكن ولاية بعد، تمثلت الأهداف بمراكز قوة الوطن. وبدلاً من اليابان تمت الهجمات بأيدي عدو شبحي لا وطن له ولا جيش مرئياً عنده. وماهو أسوأ بالنسبة إلى بوش، أن مدير وكالة الاستخبارات المركزية تنت كان قد حذره صراحة منبهاً إياه إلى مدى راهنية وجدية التهديد المتمثل بابن لادن. أما بوش المتركز على القضايا الداخلية وعلى التخفيضات الضريبية الكبيرة فكان قد بالغ في إهمال مشكلة الإرهاب. وقد أقر الرئيس بذلك لاحقاً في إحدى المقابلات قائلاً: «لم أشعر بذلك القدر من الإلحاح. لم يكن دمي موشكاً على الغليان.»

◆ ◆ ◆

وجه الإرهابيون الذين ضربوا البنتاغون طائرتهم إلى المبنى الواقع في الطرف المقابل لمكتب رمسفلد، محدثين فتحة واسعة وقاتلين ١٨٤ شخصاً. وفي الساعة الثانية والدقيقة الأربعين من بعد ظهر ذلك اليوم، فيما كان يحاول الإحاطة بما كان قد حصل في أجواء مثقلة بالغبار والدخان، بادر رمسفلد وجهازه إلى طرح إمكانية الانقضاض على العراق رداً على الهجمات الإرهابية حسب ما ورد في ملاحظات

أحد معاونيه. إن صدام حسين هو ص. ح. في هذه الملاحظات واحرف أ. ب. ل. هي أسامة بن لادن. تبين الملاحظات أن رمسفلد فكر بـ «ضرب ص. ح. في الوقت نفسه وعدم الاكتفاء بـ أ. ب. ل.» وطلب من محامي البنتاغون أن يفاتح بول وولفوفيتز حول وجود «علاقة» بين العراق و«أ ب ل.». في اليوم التالي، في وزارة حرب بوش المصغرة، قام رمسفلد بطرح السؤال التالي: «ألا توفر الهجمات الإرهابية فرصة للانقضاض على العراق؟»

في نقاش مستفيض بكامب ديفد بعد أربعة أيام، لم يبادر أحد من كبار مستشاري الرئيس إلى التوصية بمهاجمة العراق كخطوة أولى في الحرب على الإرهاب- حتى نائب الرئيس تشيني الذي ربما كان يعرف اتجاهات تفكير بوش لم يفعل ذلك، بل قال: «إذا طاردنا صدام حسين فإننا نضيع مكانتنا المشروعة كطرف محب للخير.» غير أن تشيني عبَّر عن قدر عميق من القلق إزاء صدام وقال إنه ليس مستعداً لشطب احتمال مطاردته في إحدى المراحل. كان كولن باول شديد المعارضة لفكرة الهجوم على العراق رداً على أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. لم ير أي ارتباط حقيقي بين صدام و٩/١١. كان من شأن دول أعضاء في التحالف الدولي المتشكل على عجل مع بلدان أخرى أن تسارع إلى أن تنأى بنفسها عن الركب، حسب كلام باول. وأضاف وزير الخارجية بكل صراحة: «سوف ترى الأمر طمعاً وإغراء - ليس هذا ما التزمت بفعله.» كان باول حريصاً على تفعليل المكابح.

أقر رئيس جهاز العاملين في البيت الأبيض أندرو اتش. كارد AndrewH. Card بعدم جواز جعل العراق هدفاً أولياً، رئيسياً. وكذلك فإن تنت أوصى بضرورة بقاء الهدف الإرهابي الأول للجيش متمثلاً بأفغانستان، لا بالعراق.

من شأن أي حساب أن يبين أن معارضة ضرب العراق أولاً كانت متمتعة بأكثرية ٤ مقابل صفر مع امتناع رمسفلد عن الافصاح عن رأيه و٤ مقابل ١ إذا ما قرر

التعبير عن موقفه. وقد وجد پاول امتناع رمسفلد عن التصويت شديد الإثارة. وراح وزير الخارجية يتساءل: «ما الذي كان يعنيه؟» وتلك كانت طريقة رمسفلد في الإكثار من طرح الأسئلة، في إثارة طوفان كامل من الأسئلة! - مع مواصلة الامتناع عن الكشف عن موقفه الخاص.

بوصفه رئيساً سابقاً لهيئة رؤساء الأركان المشتركة، كان پاول صريحاً مع أحد خلفائه، مع جنرال الجيش هيو شلتون، في أثناء مناقشة خاصة بعد أحد اجتماعات مجلس الأمن القومي. كان پاول قد ركز نظره على شلتون، بعد أن كان رمسفلد قد طرح العراق بوصفه «فرصة».

كان پاول قد سأل شلتون: «يا للجحيم! ما هذا الهراء؟ ما الذي يفكر به هؤلاء المهرجون؟ هل تستطيع إعادة هؤلاء المجانين إلى عقولهم؟»

وعد شلتون بأنه كان يحاول. كان المؤيد القوي الوحيد لغزو العراق في الميدان هو وولفوڤيتز الذي كان يعتقد بأن من شأن الحرب في أفغانستان أن تكون نَزْدية وغير مؤكدة. كان وولفوڤيتز قلقاً بشأن بقاء ١٠٠٠٠٠ من الجنود الأمريكيين غارقين في مجاهل المناطق الجبلية الشهيرة بغدرها لستة أشهر أخرى. أما العراق فقد كان على النقيض من ذلك، نظاماً قمعياً هشاً مرشحاً للانهيار بسهولة فيه معارضة شديدة الحماس لإسقاط صدام. وقد قدر أن هناك احتمالاً يصل إلى نسبة ١٠ إلى ٥٠ بالمئة بأن لصدام علاقة بهجمات ٩/١١- ياله من استنتاج غريب عاكس لشك قوي ولكن دون أي دليل حقيقي.

بعد ظهر اليوم التالي، الأحد الواقع في ١٦ أيلول/ سپتمبر قال بوش لرايس إن الهدف الأول للحرب على الإرهاب سيكون متمثلاً بأفغانستان. ثم أضاف الرئيس : «لسنا بصدد العراق الآن. من الأنسب أن نؤجل موضوع العراق. غير أنه سوف يتعين علينا أن نعود لاحقاً إلى تلك المسألة».

في السابع عشر من أيلول/ سبتمبر وقع الرئيس أمر اللؤلؤة السرية للغاية الخاص بعمليات وكالة الاستخبارات المركزية الجديدة ضد الإرهابيين في العالم كله. كانت أفغانستان هي الأولوية الأولى. جرى توجيه رمسفلد إلى العمل لوضع خطط حربية خاصة بالعراق غير أن العراق لم يكن مرشحاً لاحتلال صدر سلم الأولويات.

في مقابلة أجريت معه بعد نحو عام واحد أقر الرئيس بوش بوجود «البعض ممن ناقشوا موضوع العراق» في أعقاب الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر مباشرة. «ذلك غير وارد في هذه المرحلة. أعني، لست بحاجة إلى أي إيجازات. كان دون- وأنا متفق معه في الرأي- يتصف بحكمة البحث عن أمكنة أخرى نستطيع من خلالها أن نبين أن الحرب على الإرهاب هي حرب كوكبية. » وكذلك فإن رمسفلد كان راغباً في إرسال قوات برية إلى أفغانستان، في عدم الاكتفاء بصواريخ كروز والقاذفات المنطلقة من أمكنة بعيدة فقط. «لقد كان الرجل المصر بإلحاح على جعل الأحذية الثقيلة تدوس الأرض لتغيير سيكولوجية الطريقة التي ينظر بها الأمريكيون إلى الحرب،» كما قال الرئيس.

كان بوش مؤمنا بأن كلنتون لم يكن ميالاً إلى المخاطرة. كان الأخير قد استخدم صواريخ كروز لمهاجمة بن لادن في أفغانستان سنة ١٩٩٨ بعد قيام القاعدة بمهاجمة سفارتين أمريكيتين في أفريقيا الشرقية. وكان في أثناء حرب كوسوفا، قد حصر التورط الأمريكي بالحملة الجوية، جراء استمرار تأثره السلبي بالمهمة الكارثية في الصومال حيث قضى ١٨ جندياً أمريكياً في معركة مدينية شرسة..

قال بوش: «وقد كان رمسفلد يريد الاطمئنان إلى أن الجيش كان فعالاً في مناطق أخرى. كنت أرى أن درجة الصعوبة كان عليها أن تكون متدنية لضمان استمرارا نجاحنا في المعركة الأولى».

❖ ❖ ❖

بعد انقضاء عامين اثنين على تاريخ ٩/١١، خلال مقابلة جرت معه بمكتبه في البيت الأبيض أعلن الرئيس بوش قائلاً: «من الواضح أن الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر أحدث تحولاً كبيراً في نمط تفكيري حول مسؤوليتي كرئيس للجمهورية. لأن الحادي عشر من أيلول سبتمبر جعل أمن الشعب الأمريكي هو الأولوية.. هو الواجب المقدس بالنسبة إلى الرئيس. إنه الواجب الأشد إلحاحاً والأكثر ضرورة بالنسبة إلى الرئيس. إذ مَنْ من الناس سيضطلع بأداء ذلك الواجب إذا لم يبادر الرئيس إلى فعل ذلك؟»

قال الرئيس إن الحدث غَيَّر موقفه من «قدرة صدام على إلحاق الأذى» ثم أضاف «مالبثت جميع سماته المرعبة أن أصبحت أكثر انطواء على التهديد. صار إبقاء صدام محصوراً في زاوية وملجوماً أمراً اقل فاقل قابلية للتنفيذ على ما بدا لي.» وقال الرئيس إن صداماً «مجنون» حقاً. «سبق له أن استخدم أسلحة الدمارالشامل في الماضي.» أوجد وضعاً مشحوناً بقدر لايصدق من الاضطراب والفوضى في المنطقة.» كان صدام قد غزا إيران في الثمانينات والكويت في التسعينيات من القرن العشرين.

أضاف بوش: «كانت الخيارات في العراق محدودة نسبياً في حالة الانخراط بلعبة الاحتواء.»

◆ ◆ ◆

كان تشيني، وهو المحافظ المتشدد البالغ إحدى وستين سنة من العمر، قد اجترح لنفسه مكانة خاصة في الإدارة وبات صاحب نفوذ كبير لدى الرئيس. كان نائب الرئيس النموذجي من قمة الرأس إلى أخمص القدم: سبق له أن شغل منصب رئيس جهاز العاملين في البيت الأبيض عند الرئيس فورد وهو في الرابعة والثلاثين

من العمر؛ وبعد عشر سنوات كان النائب الوحيد من مسقط رأسه، ولاية ويومنغ؛ وكان الرجل الثاني في قيادة كتلة المجلس الجمهورية لفترة وجيزة قبل أن يختاره والد بوش لشغل منصب وزير الدفاع في ١٩٨٩. كان تشيني الذي اعتقد عدد كبير من الجمهوريين بأنه الأفضل أهلية في حزبهم لرئاسة الجمهورية، قد فكر بالترشيح في ١٩٩٦. غير أنه وجد عمليتي جمع التبرعات وتمحيص وسائل الإعلام من الأمور غير المستساغة، فتم تعيينه مديراً تنفيذياً لشركة هاليبورتون، مؤسسة الخدمات الطاقية والنفطية الكبرى التي تتخذ تكساس مقراً لها في ١٩٩٥. خدم الشركة إلى أن اختاره بوش ليكون معه على القائمة في صيف ٢٠٠٠ قائلاً: «إذا كانت الأزمان جيدة فلن أكون بحاجة إلى مشورتك، غير أن الوضع سيكون مختلفاً إذا صارت الأزمان كئيبة.»

لم يكن مدى ملاءمة شخص على مثل هذا المستوى الرفيع من النفوذ سبق له أن كشف عن امتلاك دوافع إدارية قيادية وعادات إصدار الأوامر لإدارة بوش الجديدة واضحاً، نظراً لأن من شأنه أن يبقى، بوصفه نائباً للرئيس، دون مسؤولية عملياتية، دون وزارة، ودون وكالة. إلا أن دورين اثنين مالبثا أن برزا على السطح.

بعد الانتخاب بأصوات متقاربة، حيث لم يفز ثنائي بوش- تشيني إلا بعد ٣٦ يوماً من إعادة العد في فلوريدا وصدور حكم من المحكمة العليا، كانت الحكمة السائدة- تلك التي كان يحلو لتشيني أن يطلق عليها اسم «حكمة واشنطن المعبأة في قارورة» - ترى أن بوش كان ملزماً بأن يتحلى بالحذر. لم يكن على المستوى التقني سوى رئيس أقلية لأن آل غور AL Gore كان قد حصل على ٥٠٠,٠٠٠ صوت شعبي أكثر منه.

غير أن بوش أبلغ تشيني بأنهما لم يكونا مستعدين لأي نوع من أنواع خفض السقف أو تقليم الأشرعة، ولم يكن هو مستعداً لأن يتصرف كما لو كان رئيس أقلية.

قال تشيني مرة في إحدى جلساته الخاصة «من اليوم الأول الذي مشينا فيه في المبنى سادت فكرة نوع من رئاسة مقيدة بسبب مثل ذلك التقارب في عدد الأصوات وربما دامت ثلاثين ثانية. لم تدم الفكرة أي فترة زمنية. كان لدينا برنامجنا، خضنا الانتخابات بذلك البرنامج، وقد نجحنا في الانتخاب - إلى الأمام بالسرعة القصوى.» كان تشيني سعيداً بهذه المقاربة. فهو يمقت التعامل المتعثر والمتردد مع القضايا التي يؤمن بها إيماناً عميقاً.

تمثلت أولى القضايا بمسألة خفض ضريبي كبير. وبوصفه نائبا للرئيس كان تشيني رئيس مجلس الشيوخ ومتمتعاً، دستورياً، بحق الترجيح لدى تعادل الأصوات. وبما أن مجلس الشيوخ كان موزعاً بين الجمهوريين والديمقراطيين مناصفة، خمسين لكل منهما، كان تشيني هو المرجع عملياً. وبالتالي فإن تشيني كان عميق الانخراط في مفاوضات ما وراء الكواليس الخاصة بالخفض الضريبي الأول للرئيس بوش. في أحد الاجتماعات الجارية خلف الأبواب المغلقة، صباح الرابع من نيسان/ ابريل، ٢٠٠١، قام باختطاف واحدة من المحارم الصفراء الغامقة الصغيرة المزينة بعبارة «زعيم الأغلبية» المطبوعة من مكتب السناتور ترنت لوت Trent Lott وكتب ثلاثة اقام:

١.٦

١.٤٢٥

١.٢٥

كان اقتراح بوش الخاص بمجمل سلة الخفض الضريبي يبلغ ١.٦ تريليوناً من الدولارات، والرقم الذي كانت مجموعة من الأعضاء الديمقراطيين تورمه كان يبلغ ١.٢٥ تريليوناً من الدولارات. قام تشيني برسم دائرة كبيرة حول الرقم ١.٤٢٥ بقلم أزرق- نوع من الحل الوسط القائم على المساومة، المرة الأولى التي كانت قد شهدت تحرك الإدارة. مالبث بوش أن حصل آخر المطاف على الرقم ١.٣٥ تريليوناً من الدولارات.

ظل تشيني عنصر إدارة مفتاحياً في سلسلة من المفاوضات السرية المطولة من أجل كسب صوت سناتور فيرمونت الجمهوري جيمس جيفورد James Jefford لدى التصويت على مشروع قرار الخفض الضريبي. لم يقف الأمر عند خسارة الإدارة لصوت جيفورد بل وقد بادر الأخير إلى الاستقالة من الحزب الجمهوري، إلى التحول إلى مستقل، وصولاً آخر المطاف إلى تمكين الديمقراطيين من التحكم المؤقت بمجلس الشيوخ. لم تشكل المساومات التشريعية نقطة قوة تشيني.

اتفق بوش وتشيني أيضاً على دور آخر يضطلع به نائب الرئيس. فنظراً لخلفية تشيني في الأمن القومي وهي تعود إلى سنوات عهد فورد، إلى فترة عضويته في لجنة المجلس الاستخباراتية، وإلى زمن شغله لمنصب وزارة الدفاع، قال بوش إنه يريد لتشيني أن ينشغل بالاستخبارات كأولوية تحتل المرتبة الأولى في قائمة الأشياء التي يمكن للرجل أن يتولاها. خلال الأشهر الأولى من حياة الإدارة الجديدة قام تشيني بسلسلة جولات على أجهزة الاستخبارات - وكالة الاستخبارات المركزية، وكالة الأمن القومي المكلفة بالتقاط الاتصالات، ووكالة الاستخبارات الدفاعية العائدة للبنتاغون. كان عازماً على المسارعة إلى استيعاب كل ما استجد على امتداد السنوات الثماني منذ خروجه من الحكومة. وكذلك فإن بوش طلب من تشيني أن يدرس مدى هشاشة الأمة أمام خطر الإرهاب، ولاسيما في مواجهة التهديدات البيولوجية والكيميائية. ومع حلول صيف ٢٠٠١ كان تشيني قد استخدم أدميرالاً متقاعداً، هو ستيف آبّوت Steve-Abbot، للإشراف على برنامج خاص بأخذ موضوع الدفاع عن الوطن بقدر أكبر من الجدية.

بمعرفة الرئيس الأكيدة والكاملة وتشجيعه مالبث تشيني أن أصبح الفاحص المعين ذاتياً لسيناريوهات الحالات الأكثر سوءاً. ومع أن الأمر لم يتخذ أي صفة رسمية فقد بات مكلفاً بالنظر إلى الوجه المظلم من اللوحة، إلى جملة السيناريوهات

السيئة والمرعبة حقاً. وعلى صعيد التجربة والمزاج كانت تلك هي الوظيفة المثالية لتشيني. فقد كان يشعر أن على الناس أن يفكروا بما يتعذر التفكير به. تلك كانت إحدى طرق الاضطلاع الفعال بمهام شاغل المرتبة الثانية في الهرم القيادي - مهمة "فبركة" بضع قضايا، التحول إلى خبير في شؤونها، والمبادرة بعد ذلك إلى ممارسة الضغط على شاغل المرتبة لحمله على تبني حلولك أنت الشاغل للمرتبة الثانية.

كان تشيني يعتقد بأن إدارة كلنتون كانت قد أخفقت في ردها على الأعمال الإرهابية بدءاً بالهجوم الأول على مركز التجارة العالمية سنة ١٩٩٣، وقد ساد نمط الردود الضعيفة: لم يكن هناك أي رد فعال على تفجير ١٩٩٦ في برج الخُبر، في ذلك المرفق العسكري الأمريكي في العربية السعودية؛ لم يكن ثمة أي رد كاف على تفجير السفارات في أفريقيا الشرقية عام ١٩٩٨؛ ولم يتم الرد على ضرب يو.اس. إس. كول في ٢٠٠٠.

بعد ٩/١١ أصبح واضحاً لتشيني أن التهديد الذي يمثله الإرهاب كان قد تغير وتعاظم تعاظماً هائلاً. وبالتالي فإن أمرين كان لابد لهما من أن يتغيرا. كان لابد أولاً من خفض مستوى البرهان- لم تعد الولايات المتحدة بحاجة إلى وجود فوهة بندقية تتصاعد منها رائحة البارود أي الدليل غير القابل للدحض كيما تبادر إلى الدفاع عن نفسها. لم يكن الدفاع وحده كافياً ثانياً. كان لابد من الهجوم.

كان التهديد الأشد خطورة المواجه للولايات المتحدة الآن متمثلاً بسلاح نووي أو بيولوجي أو كيميائي بحوزة هذا الإرهابي أو ذاك الموجود داخل حدود البلاد. وقد كان من الضروري حسب رأي تشيني، فعل كل شيء من أجل وضع حد لمثل هذا التهديد.



مع حلول شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من ذلك العام، حين تنحى برمسفلد

جانباً، كان بوش قد قرر أن وقت التوجه نحو العراق قد حان. قال بوش متذكراً: «أريد أن أعرف الخيارات المتوفرة. فأي رئيس جمهورية لا يستطيع أن يقرر وأن يتخذ قرارات عقلانية مالم يدرك مدى قابلية حدوث الأمر الذي يمكن أن يقع. لذا فإن النقطة التي بقيتُ أركز عليها لدى التباحث مع دون رمسفلد بشأن هذه القضية، هي الوقوف على ما هو متوفر لديه في حال وقوع شيء ما. وسبق لنا أن كنا قد مررنا بتجربة مماثلة ذات مرة (في أفغانستان).»

أقر بوش بأن تلك كانت خطوة كبيرة وبأنها منطوية على إعداد البلاد والعالم للحرب. كان الرئيس يعرف صاحبه جيداً إذ قال: «ليست لدي فكرة عن الوقت الذي يستغرقه البنتاغون للرد على أي طلب إذ لم يسبق لي قط أن كنت هناك. أقدر أن دون رمسفلد.. كان عاكفاً على الاطمئنان إلى إنجاز المنتج وإلى عدم تعرض العملية للتعثر.»



3

بعد انفجار فرانكس الصغير في الحادي والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر حين بلغه نبأ أن رمسفلد كان يريد تقويم قائد لخطة حرب العراق، مالبث الجنرال أن هدأ قائلاً لرئيس عملياته رينوار: «سنزودهم بأفضل ما عندنا حول الأمر.» فقد كان يعلم أن الجهاز كان متعرضاً لضغوط هائلة، أن عبء العمل كان مرهقاً ومستمراً على مدار الساعة بسبب الحرب في أفغانستان. ثم أضاف فرانكس مطمئناً: «لا تبالغ في الاهتمام والقلق. لن نفعل أكثر مما نستطيع فعله. فقط لا أستطيع، يارجل، أن أتصور أن هذا شيء سنكون عاكفين على القيام به في أي وقت قريب.»

غير أن رمسفلد كان الآن مزدواً بأوامره ولم يكن مستعداً لإضاعة أي وقت. بات الرئيس متركزاً على خطة حرب العراق، وما أن يصبح الرئيس متركزاً حتى يغدو رمسفلد، هو الآخر، متركزاً. خلال جزء كبير من السنة بقي يتخبط ذات اليمين وذات الشمال، بقي يتعثر بين الحين والآخر، برأي البعض، وهو يحاول الاهتداء إلى جواب على سؤال كيفية خوض الحرب الثانية. لم تكن استراتيجيته الدفاعية المؤلفة من ٧١ صفحة المنشورة في ذلك الخريف قد وفرت، بالفعل أي جواب على ذلك السؤال. غير أن منهج رمسفلد- منهج السؤال المتمادي، الاستفهام المتواصل، وعمليات إعادة التقويم المتكررة التي لا تعرف معنى الانتهاء- كان قد أخرج من تحت الأرض فيضاً هائلاً من المشكلات. كان قد عاش أشهراً ملأى بالكنوز فيما مضى حين كان قد بدأ يتلمس أبعاد خطط الحرب والاحتمالات، جملة التفاصيل الفعلية المتصلة بخصوص حروب محددة.

بُعَيْد توليه لمنصب وزير الدفاع أمر رمسفلد: «هاتوا لي خطة الحرب على كوريا .» كثيرون كانوا يرون أن النظام المعزول، المتشدد، الوحشي، والعسكري في كوريا الشمالية برئاسة الزعيم كيم يونغ إيل Kim Jong IL هو البؤرة الساخنة المحتملة التالية والتهديد الأشد خطراً. فقد كان كيم إما صانعاً أو موشكاً على نحو خطر على إنجاز صناعة أسلحة نووية.

وهكذا فإن المخططين قدموا لرمسفلد تقريراً موجزاً عن خطة العمليات رقم ٥٠٢٧، وهي خطة محتملة سرية للغاية خاصة بخوض حرب مع كوريا الشمالية.

فيما بعد قال رمسفلد متذكراً في إحدى المقابلات: « لقد ذُهلت.» كانت (الخطة) متخلفة سنوات وسنوات، ومتركزة على آليات نقل أعداد كبيرة من القوات إلى المنطقة. كذلك لم تكن الخطة تأخذ في حسابها أن الولايات المتحدة كان لها رئيس جديد هو بوش. ووزير جديد للدفاع. كانت لدى الرجلين أفكار واستراتيجيات مختلفة. أُصيب (رمسفلد) بالدهشة.

أراد رمسفلد أن يعرف: هل كانت كوريا الشمالية تملك أسلحة نووية أم لا؟ من المؤكد كالجحيم أن من شأن ذلك أن ينطوي على فرق كبير جداً في حال نشوب حرب. هل كانوا يفترضون وجود أسلحة نوورية أم لا؟ لم تكن لدى مخططي البنتاغون وإعلامييه أي إجابة. هل كان الكوريون الشماليون على مسافة سنة واحدة من امتلاك الأسلحة النووية؟ سنتين اثنتين؟ مرة أخرى لم تكن ثمة أية إجابات حقيقية.

كانت عنده، حسبما تذكَّر، كميات إضافية من الأسئلة: « ما الذي حصل لقدراتهم العسكرية؟ هل زادت أم نقصت خلال الفترة الفاصلة؟»

اعترف نائب الأدميرال ادموند بي غيامباستياني Edmund P. Giambastia-ni، وهو خبير غواصات نووية ومساعد رمسفلد العسكري في ذلك الحين، بعدم

انطواء الخطة على أي خيارات، على أي حلول متوسطة. بقيت الخيارات محصورة، حسب رأيه، بسؤال: «هل أنت راغب في استخدام البلاغة الخطابية أم أنك مستعد لجلب ٧٥ مطرقة ثقيلة من أجل سحق تلك البعوضة وإقحامها إلى ما تحت الأرض؟» بقيت المسألة متأرجحة بين الدبلوماسية والحرب الشاملة.

تضمن توجيه رمسفلد عبارة «ما أنا راغب في فعله إن هو إلا موضوع يوم السبت القادم» - كان رمسفلد مولعاً بتجميع الناس يوم السبت- «أريد من مخططي الحرب، مخططي الاحتمالات، أن يأتوا جميعاً ويقدموا لي تقريراً موجزاً عن كل فرضيات الخطط الرئيسية المحتملة، لا عن الخطط، بل أريد رؤية الفرضيات.»

وهكذ فقد جاء ذات يوم سبت أوائل شهر آب/ أغسطس ٢٠٠١ كل من رؤساء الأركان ومدير جهاز الخطط العملياتية وجميع رؤساء الأقسام إلى مكتب رمسفلد.

من خطط الحرب الـ ٦٨ كانت اقل من ١٠ خطط كبيرة، مكتملة التطوير مثل تلك الخاصة بكوريا والعراق مع عدد قليل من البؤر الساخنة المحتملة. أما الباقية فكانت خطط احتمالات أقل شأناً وأصغر ذات علاقة بإجلاء المدنيين أو بالدفاع عن مناطق مفتاحية مثل قناة باناما. بعد قضاء ساعات في استعراض أربع أو خمس، قال الأدميرال غيامباستياني، الذي كان مكلفاً بضبط مواعيد قطار البنتاغون- أي رمسفلد: «سنظل هنا نحو أسبوع كامل إذا بقينا على هذا المستوى من السرعة. أنتم بحاجة إلى التقاط هذه.»

وقد فعل رمسفلد. كان الحل الأساسي في جل الخطط متمثلاً بتحريك جزء كبير من الآلة العسكرية الأمريكية، وجزءاً من البنية التحتية المواصلاتية والقدرات اللوجستية الأمريكية في بعض الحالات، إلى المنطقة، سواء أكانت آسيا أو الشرق الأوسط، على امتداد عدد غير قليل من الأشهر، إعداداً للحرب.

سارع رمسفلد إلى الانقضاض على إحدى النقاط عندما حاول أحدهم تسويغ ما كان مخططاً قائلاً: «حسناً، أنا لست موافقاً على ذلك التوجيه.»

قال رمسفلد متذكراً المشهد بعد عامين اثنين: «بقيت جالساً هناك، في تلك الغرفة الموجودة تحت هناك» - وأشار عبر مكتبه البنتاغوني الفسيح إلى قاعة الاجتماعات- « وهكذا فقد بقيت جالساً هناك، وهؤلاء الناس لم يستطيعوا أن يصدقوا. استغرق الأمر الجزء الأكبر من النهار. ومن ثم كان أحد العقداء سينهض وسيستعرض جملة الفرضيات وكنت أنا سأناقشها واتحدث عنها.» قال آخرون ممن كانوا موجودين إن الاجتماع كان أشبه بنوع من الشي والكي بالنار، إذ ظل رمسفلد يسلط الأضواء على أن العقداء وغيرهم لم يكونوا، بالفعل، قد فصّلوا الفرضيات ولم يكونوا يعرفون ما كانت الإدارة الجديدة تريده.» وبعد ذلك كان الشخص التالي سيبرز فنقوم باستعراض الأشخاص واحداً بعد آخر بعد ثالث.

«لم يكونوا يفعلون أكثر من تلخيض ما كان موجوداً على الرف.» وقد كان ذلك رفاً عتيقاً يغطيه الغبار ويعود إلى أربع أو خمس سنوات في بعض الحالات. فالدليل الرسمي المعتمد من قبل مخططي الحرب غالباً ما كان ينتمي إلى أواسط التسعينيات. علق رمسفلد متذكراً بازدراء: « ومع ذلك فإنه لم يكن قد أُخضع ولو لنوع من المناقشة هنا.» مشيراً إلى مكتب الوزير.

وأضاف رمسفلد: «أضف إلى ذلك أننا كنا قد حصلنا على استراتيجية دفاعية جديدة آنذاك» ملمحاً إلى مفهومه الداعي إلى ردع العدوان الموجه ضد الولايات المتحدة عن طريق إظهار نوع من المقدرة على إلحاق الهزيمة السريعة بأي هجمات. «بطبيعة الحال لم تكن الخطط القديمة لتبدو كذلك على الإطلاق في إطار ذلك السياق الجديد. وبالتالي فقد كنا ملزمين بتصويبها وإصلاحها جميعاً.»

«قلت: اسمعوا، علينا أن نفعل شيئين. نحن مدينون للوطن وللرئيس بخطط حرب، بخطط احتمالات، وبنمط تفكير يكون راهناً. والطريقة الوحيدة لبلوغ ذلك هي امتلاك القدرة على تكثيف تلك العملية على نحو درامي مثير واختزال مدَّتها من سنوات إلى دورة معقولة ما توفر إمكانية إنعاشها ورفدها بفرضيات راهنة!»

كان هناك نوع من التزاوج بين جدول أعمال رمسفلد العجول بشأن التخطيط للحرب من جهة وبين العبر المستخلصة من أحداث ٩/١١ كما رآها هو من جهة ثانية. ففي مقابلة تمت معه بعد ٩/١١ بأربعة أشهر قال رمسفلد: «تبقى الفكرة المفتاحية عن الموضوع متمثلة باستحالة الدفاع ضد الإرهاب.» كان قد أدرك ذلك حين كان قد أمضى مدة ستة أشهر في الشرق الأوسط مبعوثاً للرئيس ريغان Rea-gan بين عامي ١٩٨٣و ١٩٨٤. «فأنت لا تستطيع أن تدافع في كل مكان وزمان ضد جميع التقنيات. إنك لا تستطيع وكفى، لأنهم يواصلون تغيير تقنياتهم ومواعيدهم، ويتعين عليك أن تتعقبهم. لا بد لك من أن تنقل المعركة إليهم هم، وذلك يعني أنّك ملزم باستباقهم وقطع الطريق عليهم.»

كان هذا قبل شهر ونصف من قيام بوش رسمياً بإعلان عقيدته الاستباقية. كان رمسفلد يتصور مستقبلاً معيناً سيتعين فيه على الولايات المتحدة أن تكون مستعدة لتوجيه الضربة الأولى.

❖ ❖ ❖

كان رمسفلد عازماً على «دَوْزَنَة» آلة الحرب في كل مكان. علّق قائلاً: «ما فعلته هو أنني زرت حرفياً جميع القادة الميدانيين المسؤولين عن مختلف المناطق الجغرافية وقلت: هيا فككوها! ولنماينها! دعونا نضع سلم أولويات ونحن سنقوم بتكثيف هذه الدورة بما يمكننا من إنجاز المهمة خلال فترة زمنية أقصر بكثير». كان ذلك يعني

البدء بالفرضيات، «وهو ما لاتفعله الأكثرية. فغالبية الناس تبدأ بخطة موجودة ومن ثم يقَرْوصونها.

لم يعد ثمة أي مجال لوجود مزيد من القروصة، من خطوات التغيير الجزئية. كان عازماً على مراقبة وظائفهم المنزلية إذ قال: «قلت إننا موشكون على البدء بالفرضيات ومن ثم سنقوم بوضع سلم الأولويات وكل من القادة من الميدانيين سيباشر بعد ذلك مهمة رسم خطته الخاصة. أما الطريقة التي سيعتمدها هؤلاء في إنجاز خططهم هي أنهم سيعودون إليّ كل ستة أو ثمانية أسابيع.»

أضاف رمسفلد يقول: «بتلك الطريقة لن يتم إنجاز العمل الصعب الذي يتعين على الناس إنجازه، وهو قدر هائل من العمل، إلى حين نجاحنا في اختيار الجبهة على نحو سليم.» أما العمل الشاق فكان متمثلاً بجملة الخرائط والبرامج الخاصة بتحريك القوات، بالسوقيات اللوجستية، وبالاتصالات ذات العلاقة بحشد هذا الجيش أو ذاك وتجميعه في مكان يبعد آلاف الأميال.

علق رمسفلد قائلاً: «لا أعلم من كان الشخص، ربما (جورج) مارشال أو غيره، الذي قال إن مساعداً قادر على وضع الخطة، شرط أن تمتلك الاستراتيجية الصحيحة، شرط ان تكون مدركاً لأبعاد ما تقوم به من عمل، متأكداً من المكان الذي أنت ذاهب إليه.» والمعنى هو أنه هو: رمسفلد كان مدركاً ومتأكداً في حين لم يكن احد غيره مدركاً ومتأكداً في الحقيقة.

« تستطيع أن تقطع مسافة طويلة في الطريق الصحيح دون تشتيت الناس وإضاعة وقتهم. ومما يسحق قلبي أنني أرى أناساً رائعين، موهوبين، عاكفين على العمل بقدر كبير من الجهد والتعب من أجل إنجاز شيء ما إن تنظر إليه حتى تكتشف أنه لا يساوي شيئاً. فتقول باللعنة! ماكان يجب علينا أن نقطع كل ذلك الشوط!»

كانت طريقة رمسفلد واضحة، وكان هو دقيقاً بشأنها. «إن الطريقة الوحيدة الكفيلة بتوفير إمكانية إنجاز هذه الأمور بنجاح هي المبادرة إلى رفع مستوى المخاطرة، إلى طرح الأشياء على الطاولة ومناقشتها، بدلاً من العمل على التخفيف من وطأتها وخفض مستواها حيث لا تتوفر المقايضة أو الموازنة مع الخطر.» كان رمسفلد راغباً في الإقدام على المخاطرة عبر التخطيط لاستخدام قدر أقل من القوة، أو في التعرف على الأثمان على الأقل.

لا أحد في المستويات الدنيا، مستويات العقداء، كان مستعداً للمخاطرة فهؤلاء كانوا ميالين إلى تفضيل إضافة فرقة كاملة إلى خطة معينة ٢٠.٠٠٠ جندي، لمجرد التأكد والاطمئنان. «تلك هي طريقة التعامل حين يكون المستوى أدنى. أما إذا كان المستوى أعلى فتغدو طريقة المعالجة مختلفة كلياً.»

بعد انتهاء اجتماع المراجعة الذي عقد يوم السبت، بادر رمسفلد إلى إطلاق حكمه قائلاً: «ذلك جنون؛ إنها الحماقة عينها؛» كانت خطط الحرب مصممة بشكل غير صحيح.» إما سلام عالمي أو حرب عالمية ثالثة. إما أن يكون قاطع التيار الكهربائي مفتوحاً أو مغلقاً.» جاءت أوامره واضحة وضوح الشمس: «نحن لن نتعامل مع الأمور بتلك الطريقة.»

ومع أنه كان يحاول تصويب وإصلاح جميع خطط الحروب والاحتمالات الرئيسية، فإن رمسفلد مالبث، بعد سؤال الرئيس عن الخطة العراقية، أن تحول إلى وتيرة عالية قائلاً: «أصبح الأمر أكثر حدة في لحظة معينة فبات متمتعاً بالأولوية العليا.»

❖ ❖ ❖

في يوم الاثنين الذي تلا عيد الشكر الواقع في ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر، رحب الرئيس باثنين من ناشطي حركات المساعدة الإنسانية في حديقة البيت

الأبيض الوردية. كان هيثر ميرسر Heather Mercer ودايانا كري Dayana Cur-ry قد أنُقذا من قبل الجيش الأمريكي في أفغانستان. خلال جلسة طويلة مشحونة بالأسئلة، سأل المراسلون عن العراق وصدام.

رد بوش قائلاً: «إذا أراد أن يبرهن للعالم على أنه ليس عاكفاً على تطوير أسلحة دمار شامل، فإن عليه أن يمكّن المفتشين من العودة.»

«وإذا ولم يفعل فما العواقب التي ستترتب؟»

«إنها دعوة إلى.... » كان رد الرئيس «ما سوف يكتشفه.»

حملت الصفحة الأولى من عدد اليوم التالي لصحيفة النيويورك تايمز عنوان: «مكّنوا المفتشين من العودة! يقول الرئيس للعراقيين، وإلا، مفتوحة.»

وفي ذلك الصباح بعد مطالبة الرئيس بخطة الحرب العراقية بستة أيام، طار رمسفلد لمقابلة الجنرال فرانكس بمقر قيادة السنتكوم CENTCOM في تامبا. وبعد تحية الجميع، قام بطرد أركان فرانكس جنباً إلى جنب مع مساعديه هو من الغرفة، بل وقائلاً لمعاونه العسكري نائب الأدميرال غيامباستياني: «أريدك أن تخرج يا إد!» وما إن بقي مع فرانكس وحدهما حتى قال: «هات الخطة العراقية وابسطها! دعنا نعاين المرحلة التي وصلنا إليها.» كانت خطة الحرب العراقية، تلك الوثيقة السرية للغاية العملاقة، خطة الأوب رقم ١٠٠٣، تلخص هجوماً وغزواً للعراق مصممين للإطاحة بنظام صدام حسين. أمر رمسفلد: «لا تبدأ يا دون قبل تمكيني من الإطلاع على جملة الفرضيات التي وضعتها لأننا بحاجة إلى أن نتحدى كل شيء فعلناه على ذلك الصعيد.» تمثل تركيز إضافي آخر بما كان يعرفانه عن الحالة الراهنة للجيش العراقي. ما الذي كان ذلك الجيش قادراً على فعله؟ ماذا عن مستويات التدريب فيه؟ ما مدى استعداده للقتال دفاعاً عن صدام؟

قال رمسفلد إن الرئيس ليس، حسب ما يعلم، راغباً في الذهاب لعمل شيء الآن، غير أن من شأن البدء أن يكون حصيفاً.

كانت الخطة الموجودة خليطاً فوضوياً حقيقياً. وقد وجدها رمسفلد شوهاء؛ رآها منطوية على جميع سمات إعادة خوض حرب ١٩٩١ في الخليج من جديد. بدت متطلبة لقوات يصل حجمها إلى نحو٥٠٠,٠٠٠ جندي، بما في ذلك ست فرق من الجيش والمارينز على الأرض، ومتطلعة أساساً إلى سيناريو واحد فقط: سيناريو تحرك من قبل صدام شبيه بغزوه للكويت من شأنه أن يتطلب رداً كثيفاً ولكنه يتيح أيضاً فرصة زمنية مطولة لحشد القوات قبل البدء بأي عمل عسكري هجومي. أكدت شبكة المواعيد الزمنية المعقدة إن من شأن الأمر أن يستغرق نحو سبعة أشهر لنقل القوات إلى المنطقة وحشدها هناك قبل مهاجمة العراق. كانت الخطة، برأي فرانكس، قائمة على ذلك النوع الكلاسيكي من القوة العسكرية الجرارة ذات الأعداد الكبيرة من الدبابات والقنابل الثقيلة الموروث عن حقبة أخرى. تماماً ذلك النوع الذي أطار الصواب من رأس رمسفلد.

كانت خطة الأوب رقم ١٠٠٣ الموضوعة على الرف قد أقرت كاملة للمرة الأخيرة في ١٩٩٦ وكان نوع من الترهين للخطة قد تجاوز في ١٩٩٨ جميع مراحل الإقرار والتصديق في البنتاغون باستثناء توقيع وزير الدفاع في ذلك الوقت: وليم كوهن.

أمضى رمسفلد وفرانكس ساعة وهما يستعرضان الخطة، عملية التخطيط، جملة الافتراضات، ونمط التفكير البالي الكامن وراء ذلك كله.

«دعنا نشكل فريقاً يكون قادراً على التفكير، مجرد التفكير، بعيداً بعداً كاملاً عن الحظيرة» أمر رمسفلد. «من المؤكد أن لدينا تخطيطاً عسكرياً تقليدياً، ولكن

دعنا نتحرر قليلاً من القيود فنفكر بما يمكن لأي طريقة من طرائق حل هذه المشكلة أن تكونه.»

وبعد الاجتماع، مَثُلَ رمسفلد وفرانكس أمام وسائل الإعلام لتقديم إيجاز عن الحرب الأفغانية الجارية على قدم وساق تحت اسم عملية الحرية الباقية. بدا فرانكس، وهو أطول بمقدار رأس من رمسلفد، مهيمناً جسدياً على الأخير. غير أن الرئيس كان واضحاً وضوح الشمس. أقله في المرحلة الأولى كان النصر متحققاً من حيث الجوهر في الحرب الدائرة في أفغانستان كانت التنبؤات المنتشرة على نطاق واسع حول احتمال نشوء مستنقع على غرار المستنقع الفيتنامي قد تبددت، أقله الآن، وكان رمسفلد في مزاج مفعم بالحيوية.

قال رمسفلد «هذا رائع! حصلت على مؤشر ليزري!» معلقاً وهو يضحك على أداة الإيجاز الأخيرة. «يا له من صيد مقدس!» كان عاكفاً على مطاردة ليس الطالبان والقاعدة فقط، بل ووسائل الإعلام أيضاً، إلى حدود معينة، وهو شديد الاستمتاع بذلك.

سأل أحد المراسلين ملمحاً إلى الاختتام السريع في أفغانستان قائلاً: «ما حجم المفاجأة بصراحة؟»

رد ومسفلد: «اعتقد أن ما كان جارياً في المراحل المبكرة كان مطابقاً تماماً للخطة.» بدا كما لو أن شيئاً لم يكن يحدث. بدا، بالفعل كما لو كنا في» - وطلب من الحضور أن يردد معه قائلاً: معاً جميعاً - مستنقع!»

تطايرت نتف مبعثرة من الضحك في جو القاعة.

تحول رمسفلد بعد ذلك إلى موضوع مفضّل: المظاهر خدّاعة. «يبدو الآن كما لو كانت الأشياء تسير سيراً حسناً، ظاهرياً» ثم اضاف «تماماً كما في المرحلة الأولى

ظاهرياً كانت الأمور تبدو متعثرة وغير جيدة. وبودي أن أعترف بأن ما قلناه من البداية صحيح، أن هذه ستكون فترة بالغة الصعوبة.» فالمدن في أفغانستان لم تكن آمنة. «لم تنته العملية، سوف تتطلب بعض الوقت.» من المؤكد أن أفغانستان مضطربة. مازال بن لادن وزعيم الطالبان الملا عمر طليقين. «سيظل الناس يموتون بسبب المهالك والأخطار الموجودة هناك.»

كان رمسفلد يعلم أنهم لم يكونوا يملكون أي خطة لأفغانستان، أنهم «فبركوها» في أجواء مثقلة بالضغوط والشكوك بعد الحادي عشر من إيلول/ سبتمبر. أما العراق فسيكون مختلفاً. ما كان سيسمح بأن يبقى متخلفاً عن ركب الزمن، بعيداً عن أن يكون مستعداً ومنخرطاً.

وبعد أربعة أيام، في الأول من كانون الأول/ ديسمبر، وكان يوم سبت، أرسل رمسفلد عبر رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة أمر تخطيط سرياً للغاية إلى فرانكس طالباً منه أن ينجز تقويم القائد لإرساء الأساس المناسب لخطة حرب عراقية جدية. قال الأمر في صفحتين إن رمسفلد كان يريد أن يعرف الكيفية التي كان فرانكس سيدير بها العمليات العسكرية الرامية إلى إزاحة صدام عن السلطة، استئصال التهديد بأي أسلحة دمار شامل محتملة، وخنق دعمه المشبوه للإرهاب. كان هذا هو الأمر الرسمي الخاص بالتفكير من خارج الحظيرة.

كان من المفترض أن يبادر البنتاغون إلى إمهال فرانكس ٣٠ يوماً لإنجاز تقويمة – وهو عرض عام لمفهوم يتحدث عن شيء جديد، نوع من الصياغة الفجة الأولى. قال الجنرال البحري بيت بيس Pete Pace نائب رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة، وأحد المفضلين لدى رمسفلد متذكراً: «كان عنده شهر، وقد دام غيابنا ٢٧ يوماً.» كان فرانكس مطالبا شخصياً بأن يقدم تقريراً بعد ثلاثة أيام.

◆ ◆ ◆

هناك في وزارة الخارجية، كان نائب باول، ريتش آرميتاج، قد سمع بأن النيويورك تايمز كانت عاكفة على نسج قصة لعدد يوم السبت الواقع في الأول من شهر كانون الأول/ ديسمبر. قيل له إن قصة التايمز كانت ستعلن أن باول متهاون مع العراق في حين أن رمسفلد متشدد. كان من المحتمل أن تكون هذه إحدى تلك القصص المستندة إلى جملة التصريحات، التسريبات، والاستنتاجات المنسوبة إلى «موظفين كبار» مغفلي الأسماء «من الإدارة».

كثيراً ما تحمل أي قصة إخبارية بتلك المواصفات طابعاً شبه رسمي، غير مقرة تماماً ولكنها ليست ضد المصالح المتصورة للرئيس. إلا أن بمقدور مثل هذه القصص أن تكون باعثة على الجنون لأن من غير الواضح دائماً ما إذا كان شخص معين يتحدث من قلب البيت الأبيض أم من وزارة أو وكالة أخرى أو حتى ما تعنيه كلمة «كبار» في عبارة «موظفين كبار».

قرر آرميتاج أن يقحم نفسه، بطريقة درامية مثيرة بعض الشيء، في قصة التايمز المتفاعلة فيحمي خاصرة باول عبر الكلام الصريح والرسمي دون إغفال التوقيع. كان من شأن ذلك أن يضيف وزناً استثنائياً لا لأن اسم موظف كبيراً كان سيتم إعلانه بل لأنه كان الرجل الثاني في الوزارة وأفضل أصدقاء الرجل الأول. قام آرميتاج بإبلاغ التايمز أن الرئيس كان منخرطاً في محاولة محسوبة لاستغلال الزخم- «ضربة في أفغانستان» - في السعي إلى إجبار صدام على إعادة مفتشي الأسلحة الدوليين. فالمفتشون الذين كانوا يعملون بموجب المعاهدة الموقعة بين حرب ١٩٩١ في الخليج، كانوا قد طُردوا، عملياً، من جانب صدام في ١٩٩٨. على الدوام ظلت خارجية باول في شك حول وجود نزعات تخريبية، أقله على صعيد قطع الطريق على الجانب المعتدل أو الحمائمي لأي قعقعة سيوف، مما جعل آرميتاج يبدي حرصاً على إيضاح حقيقة أن الخارجية فهمت الرسالة. قيل على لسان

آرميتاج «لقد عادت لهجة "قال الرئيس" ذلك هو الأمر. لا أعتقد أن هناك أي شك بأن عراقاً حائزاً على أسلحة دمار شامل يشكل تهديداً لجيرانه ولنا نحن آخر المطاف، وبالتالي فنحن سنفعل كل ما يجب أن نفعله لتفادي ذلك الخطر.»

إن تعليقات آرميتاج، جنباً إلى جنب مع عدد من التعليقات العلنية الصريحة لرايس كانت القصة الافتتاحية في عدد الفاتح من كانون الأول/ ديسمبر من صحيفة النيويورك تايمز تحت عنوان العمود الواحد المتواضع: «الولايات المتحدة تضغط على العراق طالبة منه السماح بتفتيش الأمم المتحدة عن الأسلحة المحظورة». وفيما يخص آرميتاج فإن الإيحاء بأن باول كان مرناً شكل ضربة كبيرة للقصة، مؤقتاً على الأقل. ولآرميتاج الذي تجعله صلعته وصدره الواسع يبدو شخصاً جامعاً بين كل من دادي ووربكس واحد أبطال الاتحاد العالمي للمصارعة براعة حقيقية على صعيد استخدام لغة مميزة أكثر تعبيراً فيما وراء الكواليس. فقد أعلن لاحقاً في إحدى جلساته الخاصة أن القصة لم تكن سوى «انتبهي يا وزارة الخارجية! إنهم في اللعبة. يريدون إيقاع هؤلاء المخوزقين في الشرك.» كان ذلك صحيحاً في الأساس، غير أن باول وآرميتاج أرادا إنجاز المهمة فيما بعد وبطريقة تمكن من الحفاظ على التحالف الدولي المعادي لصدام الذي كان قد دعم حرب ١٩٩١ في الخليج. فرهان وزارة الخارجية هو على الدبلوماسية، مركزة جهودها على المفاوضات والمباحثات والكلام بدلاً من الحرب، سبيلاً لحل المشكلات الشبيهة بمشكلة العراق.

◆ ◆ ◆

أراد رمسفلد نفد صبره عَقْدَ جلسة التقديم الرسمية الأولى لخطة الحرب العراقية من جانب فرانكس بعد ثلاثة أيام في الرابع من كانون الأول/ ديسمبر بمبنى البنتاغون. تقرر عقد الجلسة بسرية بالغة الصرامة. سأل فرانكس عَمَّنْ يستطيع

اصطحابه إلى اجتماعاتهما. أفاد رمسفلد بأن الميجر جنرال غين رينوار، مدير عمليات فرانكس، كان يستطيع أن يحضر بل وأن يرافقهما إلى البيت الأبيض لحضور اجتماعات مجلس الأمن القومي مع الرئيس. كان رينوار قد تولى قيادة سرب مقاتلات خلال حرب الخليج وأنجز ٢٤ مهمة قتالية شخصياً. وقبل أن يصبح مدير عمليات فرانكس، كان قد أمضى عاماً كاملاً في السعودية متولياً قيادة السهر على تطبيق قرار حظر الطيران في جنوب العراق، وبالتالي فقد كان متميزاً بامتلاك المعرفة الميدانية الأكثر مباشرة عن المنطقة وعن المعلومات الاستخباراتية المتعلقة بالعراق.

«اسمع! إذا كان غين موجوداً، فإنك تستطيع أن تُدخل غين هذا في أي شيء حسب رأيي الشخصي» قال رمسفلد لفرانكس.

وهكذا فإن فرانكس وغين جاءا إلى مكتب رمسفلد البنتاغوني في الرابع من كانون الأول/ ديسمبر. بدأ فرانكس كلامه قائلاً إن كل ما استطاع فعله خلال هذه الفترة القصيرة من الزمن هو التعامل مع خطة الأوب رقم ١٠٠٢ وترقيعها من هنا وهناك. كان قد تمكن من اختزالها إلى مستوى ٤٠٠.٠٠٠ من القوات خلال ستة أشهر، مقلّصاً الخطة الأساس بمقدار ١٠٠.٠٠٠ جندي وشهر واحد.

قال فرانكس مخاطباً رمسفلد وعدداً قليلاً من المساعدين: «هذا هو حال التخطيط كما هو اليوم.» ومع أنه كان قد استعرضها في الأسبوع السابق مع رمسفلد في تامبا، فإن هذا كان هو العرض الأول أمام الآخرين. «جميعاً سنجد كثيراً من الصعوبات مع هذه الخطة.»

كان يستطيع أن يضيف «ولا أحد أكثر من رمسفلد.»

أفاد فرانكس بأن سبب أهمية الخطة كان كامناً في كونها كل ما هو متوفر لديهم. وكما هو معروف لدى الجميع فإن وضع أي خطة حربية كان من شأنه أن

يستغرق عادة سنتين أو ربما ثلاث سنوات. وبالتالي فإن من الممكن اعتماد خطة الأوب رقم ١٠٠٣ من الأطراف دون الغوص في عمقها لأن من المحتمل أن يضطروا إلى تنفيذها خلال فترة إنذار قصيرة. وأضاف فرانكس «ليس ثمة أي يقين بشأن موعد تعرض إحدى الطائرات النفاثة للإسقاط في عملية مراقبة الجنوب. ليس ثمة أي يقين بشأن احتمال اهتدائنا إلى وجود نوع من الارتباط بين القاعدة وأجهزة الاستخبارات العراقية وهذا النظام.» لا أحد كان يستطيع أن ينحّي خطة الأوب رقم ١٠٠٣ جانباً معلناً أنها غير صالحة. إذا ما استيقظ الرئيس ذات صباح - صباح الغد مثلاً- وقرر لهذا السبب أو ذاك، أن يشن حرباً على العراق فإن هذه هي الخطة الموجودة الآن بين أيدينا. «أنا لست من مؤيديها. ليست تلك هي القضية. فالقضية هي أن هذه هي المتوفرة.»

قام فرانكس ورمسسفلد بتبادل النظرات. كان قد سبق لهما أن اتفقا على أن هذه لم تكن المحطة التي سيؤولان إليها.

علق رمسفلد قائلاً: «يبدو لي أن الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً.»

«صحيح سيادة الوزير! من شأن إنجاز الأمر أن يستغرق وقتاً طويلاً».

رد رمسفلد مشيراً إلى ماكشفت عنه تلك الحرب من أسلحة ذكية متطورة مزودة بأجهزة التوجيه الليزرية، ومن تحسين على أصعدة الاستخبارات، المسح، والاستطلاع، وقال: «لست متأكداً من أن الحاجة تدعو إلى كل ذلك القدر من القوة استناداً إلى ما بتنا مطلعين عليه من معلومات واردة من أفغانستان.» فالضواري الجديدة، جملة المركبات الجوية الصغيرة غير المأهولة أو اليعاسيب الموفرة لأشرطة فيديو مباشرة، قادرة على البقاء محلّقة في الجو أربعاً وعشرين ساعة، كما على إطلاق زوجين من الصواريخ الجهنمية. ثم ألقى نظرة على الخرائط وقال: «لست واثقاً من أنه سيتعين علينا أن نفعل ذلك.»

رد عليه فرانكس قائلاً: «لن تنتزع مني اي دفاع او محاجة. انا ايضاً لا اعتقد بأن علينا أن نفعل، غير أن الواقع هو الواقع.»

قام رمسفلد بتذكير الحضور بعد معرفة الوقت الذي سيتوفر لهم من أجل حشد القوات. إنهم عاجزون عن معرفة ما قد يكمن وراء القرار الرئاسي من دافع. قامت هذه الخطة على افتراض وجود ستة أشهر. كان رمسفلد يريد بعض البدائل والخيارات، ولاسيما نمط التفكير والعمل المتحرر من القوالب، ذلك النمط الذي كان قد أمر فرانكس باعتماده. ما السبيل إلى اختزال الفترة الزمنية بين لحظة احتمال اضطرار الرئيس إلى اتخاذ قرار بشن الحرب ولحظة صيرورة العمليات العسكرية قادرة على الانطلاق إلى الحدود الدنيا؟ ماذا لو لم يكن هناك ما يكفي من الوقت لتحريك قوات كبيرة؟ ما كانت الفترة الزمنية الأقصر لإيصال ما يكفي إلى هناك من أجل بلوغ الأهداف المطلوبة؟

لم يكن فرانكس متوفراً على الإجابات. كان، بالطبع، قد استوعب مدى أهمية مقاربة الفرضيات. كان منخرطاً في عملية التأكد من أنه كان قد جددها جميعاً وسيكون في المستقبل القريب، قادراً على كشف النقاب عنها.

كانت المهمة في أي حرب عراقية واضحة كالشمس: تغيير النظام، إسقاط صدام، استئصال التهديدات المرتبطة به- أسلحة التدمير الشامل، العلاقات الإرهابية، الخطر الذي كان يمثله بالنسبة إلى البلدان المجاورة ولاسيما إسرائيل. كانت تلك القوة مؤلفة من فوج قوامه ٥٠٠ مقاتل في الكويت. ثمة معدات وتجهيزات مخزنة سلفاً كانت موجودة في المنطقة تكفي ١٠٠٠ إضافياً من الجنود. ذلك كان كل شيء. نحو ٢٠٠ طائرة كانت موجودة عادة في المنطقة- مئة طائرة تابعة لسلاح الجو موجودة في قاعدة الأمير سلطان الجوية في العربية السعودية كجزء من عملية العين الساهرة الجنوبية من جهة والعين الساهرة الشمالية في تركيا من جهة ثانية.

مع نحو مئة طائرة جائمة على ظهر ناقلة الطائرات التابعة لسلاح البحرية الموجودة في المنطقة.

كان رمسفلد راغباً في الحصول على أحدث وأفضل المعلومات الاستخباراتية عن الجيش العراقي الذي كان قد جرى تقليصه على نحو جوهري منذ حرب الخليج. ما مدى التقليص؟ ما الذي كان يعنيه؟

هذه المرة كان فرانكس قد مُنح ثمانية أيام ليعود بعدها بالمزيد، وفي الثاني عشر من كانون الأول/ديسمبر عاد هو ورينوار إلى البنتاغون لتزويد رمسفلد بتقريرهما المرهَّن. عُرف هذا بالتكرار الثاني لتقويم القائد، وقد حفظ بأكبر قدر ممكن من السرية نزولاً عند رغبة الرئيس بوش القوية في الحيلولة دون حصول أي تسريبات. تناول فرانكس سؤالين مفتاحيين: هل توجد كفاءات على صعيد تمكينهم من إيجاد قوة أكثر جبروتاً في فترة زمنية أقصر؟ هل يستطيعون استخدام قوة أصغر حجماً؟

كان جواب رمسفلد هو نعم، على كل من السؤالين، إلا أن مزيداً من الأسئلة كانت تدور في رأسه.

سأل: «هل سيكون الأمر مكشوفاً؟»، أي أجزاء من أي انتشار عسكري مصعد في منطقة الشرق الأوسط كان يمكن أن تبقى خافية عن الأنظار؟ هل ثمة أشياء، من قبيل تحريك المعدات والقوات، من شأنها أن تبقى تحت الخط، غير مرئية وغير معروفة من قبل الجمهور؟

نعم، بالطبع، كما كان كل من رمسفلد وفرانكس يعرفان.

ما الذي كانا يستطيعان فعله لزيادة الجزء غير المرئي؟ هو السؤال الذي طرحه رمسفلد. ما هي الأشياء التي كانوا يستطيعون تهريبها بعيداً عن أعين صدام؟

عبر فرانكس عن الحذر بشأن القطع الكبيرة. إذا جرى القيام بهذه الأشياء مثل تحركات القوات الكبيرة، نشر حاملات الطائرات، فإن من شأنها أن تتعرض للافتضاح على صفحات الجرائد.

ما الأجزاء التي من شأنها أن تكلف مبالغ كبيرة من المال؟ سأل رمسفلد. كان الرجل دائم الحساسية إزاء التكاليف. هل كانت ثمة أشياء لا تكلف كثيراً؟

وبعد ذلك كانت لديه فكرة أخرى: «عليكم أن تركزوا أنظاركم على أشياء تستطيعون إنجازها في مواعيد مبكرة لا تتأخر عن نيسان /ابريل أو أيار/ مايو.» اي بعد اربعة او خمسة اشهر.

أدى الاقتراح إلى قطع أنفاس رينوار. بداية كان رمسفلد قد أوحى بعدم الاستعجال، ومن ثم صار يشي بقدر كبير من العجلة. إن فكرة شن حرب ضد العراق في فصل الربيع كانت مرعبة.

رد فرانكس قائلاً: «نعم، سيدي! سنعود وسنلقي نظرة على الأمر». كان محبطاً. كان راغباً في أن يكون قادراً على المجيء. إلى كل جلسة إيجاز مصطحباً حلاً صحيحاً مئة بالمئة. ولكن ذلك كان، بطبيعة الحال، مستحيلاً، إلا انه بقي دائباً على ممارسة الضغط على رينوار وجهاز التخطيط. أرادهم أن يشكلوا الجبهة الأمامية لسيرورته الفكرية الخاصة - أن يطرحوا الأسئلة ويجيبوا عنها قبل أن يبادر رمسفلد إلى صفعه بها.

من عادة فرانكس أن يستيقظ مبكراً، إذ ينهض من سريره في الثالثة أو الرابعة صباحاً، مع أنه لم يكن يأتي إلى العمل عادة حتى السابعة. صباح ذات يوم كان يسوق بسرعة استثنائية، وقد حاول رينوار تهدئة قائده ودفعه إلى الإبطاء بنكته قائلاً: «زعيم، نحن نأتي إلى العمل في السادسة ولا نبدأ التفكير إلا بعد

ذلك، أما أنت فمنخرط في عملية تشغيل الفكر سابقاً إيانا جميعاً مدة ساعتين.»



لم يهنأ فرانكس إلا بأسبوع واحد قبل أن يستدعيه رمسفلد إلى البنتاغون مرة أخرى في التاسع عشر من كانون الأول/ ديسمبر، وكانت هذه هي عملية التكرار الثالثة. من جديد ألمح رمسفلد إلى عدم اقتناعه- «غير منجز» كانت العبارة التي يوظفها بين الحين والآخر للدلالة على شعوره بعدم الرضا.

في مكتبه البنتاغوني قال رمسفلد متذكراً خلال إحدى مقابلاته: «أميل إلى طرح الكثير من الأسئلة على أولئك الذين أعمل معهم، وأنزع إلى الإقلال من إلقاء الأوامر. فهذا المكان بالغ الضخامة وشديد التعقيد وفيه أشياء كثيرة لا أعرفها، مما يجعلني أغوص وأغوص وأحركش، وأسأل: (لماذا لم يتم فعل هذا؟ أو هل ينبغي فعل هذا؟ إلا أن هناك عموماً إشارة استفهام واضحة بعد كل تعليق.»

من المؤكد أن رمسفلد يدرك حقيقة أن سؤالاً صادراً عن أي وزير دفاع بصيغة «لماذا لم يتم فعل هذا؟» أو «ألا ينبغي إنجاز هذا؟»، أو إشارة بسيطة جداً تتم عن عدم الرضا، من شأنهما أن ينطويا على قوة أي أمر أو إيعاز وإن كانا منتهيين بإشارتي استفهام كبيرتين وصادقتين. فأسئلة رمسفلد ليست تأملات، مطروحة في إطار نوع من السياق المجرد أو التساؤل الضبابي المبهم. من غير المتحمل أن يكون قد أخطأ في قراءة سلطته ومرجعيته في الجيش؛ فالوزير هو الزعيم والريّس، نقطة. كما ليس محتملاً أنه لم يدرك مدى قوة شخصيته التي هي من النمط آ. كان سائقاً، وعملية القيادة يجب أن تتم، كما قال هو، من القمة لأن من شأن المخططين على المستويات الأدنى أن ينزعوا إلى حل المشكلات عن طريق إضافة المزيد من القوة والوقت. كان راغباً في الترحيب بالمخاطرة الزائدة للاستعداد أسرع، وبوصفه وزيراً، كان هو الشخص القادر على تحمل المسؤولية آخر المطاف فيما يخص زيادة الخطر

وتبريرها أمام الرئيس. وبعد جلسة الايجاز الأخيرة هذه قال رمسفلد لفرانكس: «يريدك الرئيس أن تأتي إلى كروفورد». كان بوش يقضي إجازته في مزرعته ذات الفدادين الـ ١٦٠٠ ببلدة كروفورد التكساسية.

علق فرانكس: «لن أذهب مالم تذهب أنت» بلهجة نصف جادة، دون نسيان حقيقة أن رمسفلد كان شرساً فيما يخص تسلسل الرتب.

رد رمسفلد قائلاً: حسناً، سوف أرى!».

فيما بعد تذكر رمسفلد أن هذا كله كان يرمي إلى هدف محدد. «لقد قرأت الكثير من كتب التاريخ في حياتي وقررت في وقت مبكر، وأنا لا أعلم ماإذا كنت قد أخذت الأمر من صفحات التاريخ، غير أنني قررت أن مما ينطوي على أهمية هائلة أن أبقى، إذا ما قُيض لي أن أصبح صلة وصل فعالة بين رئيس الولايات المتحدة والقائد القتالي، مدركاً لأبعاد علاقتي بالرئيس وواقفاً على ميوله واهتماماته وطبيعة أحاسيسه ولغة حركات جسمه لدى التعبير عن الأشياء، وكنت متأكداً من أن ذلك هو ماكان يجب إيصاله نزولاً إلى توم فرانكس ومنه إلى شعبه. وهكذا فقد بدأت أقضي وقتاً طويلاً مع توم فرانكس، ونتناول معاً طعام العشاء وأشياء أخرى، ونتحدث كثيراً عبر الهاتف. بدأنا نكثر من الكلام هنا وهناك عن هذه الأمور وتلك، وقد قررت أن ذلك كله كان ذا أهمية أساسية إذا كنا موشكين على تقاسم عملية تعريض حياة الناس للخطر. كان مهماً أن تتوفر قناة حقيقية من الرئيس إلي أنا فإليه ومنه هو إلي أنا فإلى الرئيس. كذلك بذلت جهوداً مضنية من أجل جعله على صلة بالرئيس وقد فعلت ذلك بمقدار ما استطعت من كثافة وتكرار بل وفي غيابي في بعض المناسبات.»

تحدث رمسفلد مع الرئيس ثم اتصل بفرانكس حاملاً إليه أمراً مفاجئاً إذ قال له: «يريدك الرئيس أن تحضر إلى هناك وحدك.»

4

أواخر شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، قام جهاز الاستخبارات السري البريطاني، الإم -١٦ (M16) بنقل نتيجة العملية الاستخباراتية المعقدة التي كان يديرها تحت علم زائف مزعوم في باكستان إلى واشنطن. لصالح العلم الزائف، وهو جزء من حملة سرية لمنع انتشار تكنولوجيا السلاح النووي، بدا عملاء بريطانيون على صلة بمتطرفين أو ببلد إسلامي متشدد التماساً لبناء علاقات مع جهات ناشطة في عملية الانتشار. كانت الباكستان الحائزة على أسلحة نووية مع برنامج متطور نسبياً مصدر القلق فيما يخص الانتشار إلى دول إسلامية أخرى، أو ربما إلى شبكة أسامة بن لادن، وذلك أسوأ.

كان مصمم أسلحة نووية باكستاني قد عرض بيع تصميم أولي لقنبلة إلى العلم الزائف العائد لجهاز الاستخبارات السري. مستخدمين القناع الوهمي لطمأنة العالم، تمكن البريطانيون من استخراج المزيد من المعلومات. ففي أحد المنعطفات قام العالم برسم تصميم أكثرتطوراً بما لا يقاس لسلاح نووي، وقد كان المخطط، برأي البريطانيين، مطابقاً للمعايير. جاء الأمر عاكساً لقدر عميق من فهم تعقيدات تكنولوجيا الأسلحة النووية. ثمة كانت معلومات عن بناء سلاح إشعاعي خام أو «قنبلة قذرة». وهذه القنبلة القذرة، وهي سلاح مخيف ولكنه بسيط وسهل نسبياً، كانت قابلة للتصنيع عن طريق أخذ مواد عالية الإشعاع مثل قضبان وقود المفاعلات ولفها حول قطع متفجرات تقليدية. ولدى تفجيره كان يمكن لهذا السلاح أن ينشر موجات من الإشعاع الفعال على عدد من أحياء هذه المدينة أو تلك وأن ينطوي على تأثيرات نفسية كارثية.

وتتويجاً لهذا، تحدث تقرير استخباراتي آخر عن أن بن لادن كان حاضراً أحد الاجتماعات لدى قيام أحد مرافقيه بتقديم علبة معدنية زُعم أنها مشتملة على مادة مشعة ولوح بها في الهواء مهدداً ليؤكد أن القاعدة كانت جادة بشأن امتلاك أسلحة نووية. حين كانت فرق الوحدات الخاصة التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية دائبة على تغطية أفغانستان، ملاذ بن لان الآمن، ومسحها طولاً وعرضاً، كانت هذه الفرق قد عثرت على مخطط لقنبلة قذرة مع وثائق أخرى عن أسلحة نووية. ومع أنها بدائية وذات تفاصيل غير كافية لأي سلاح نووي، فإن الوثائق كانت تشي بوجود النية. وكان بن لادن نفسه قد أبلغ إعلامياً باكستانياً مؤخراً بانه كان متوفراً على أسلحة كيميائية ونووية «أداة ردع.»

ثمة كانت لحظة مكهربة ومتوترة حين انهال هذا كله على الرئيس.

وَجَّهَ بوش كلامه إلى تنت وقال: «اسمع يا جورج ! أريدك أن تذهب إلى هناك وأن تحصل على ما أنت بحاجة إليه.» هيا استقل طائرتك وطر إلى الباكستان مباشرة. اختصر جميع المحطات!

خلال ساعات قطع تنت نصف محيط العالم. يميل تنت، وهو رجل ضخم ثقيل، ذو صوت مشحون، أجش، وخشن، إلى ملء كل المكان الذي يحتله زار رئيس جهاز الاستخبارات الباكستاني عازماً على قلب الدنيا فوق رأسه. وبعد طيران دام ١٦ ساعة كان كنت في حالة دوار. عازفاً بطبعه عن المداورة راح يتملق ويهدد.

قال تنت للمسؤول الباكستاني: «لا أستطيع أن أقول لرئيسي لا يوجد أي سلاحٍ نووي في الولايات المتحدة! وإذا كان موجوداً، وانطلق منفجراً، فإن ذلك سيكون خطؤك!»

اجتمع تنت بالرئيس الباكستاني برويز مشرف Pervez Musharraf ليبلغه الرسالة ذاتها مثيراً أكبر قدر ممكن من دهشة الجنرال الرزين، المتغرب، الناطق

باللغة الانجليزية. كانت السلطات الباكستانية قد التقطت عدداً من العلماء الباكستانيين وانتزعت عبر الاستجواب معلومات أكدت أن واحداً على الأقل كان قد اجتمع بأعضاء القاعدة.

أصر تنت على ضرورة قيام الباكستانين بإجراء تحقيقات تفصيلية دقيقة جداً في الموضوع وصولاً إلى استكشاف جميع الزوايا، تسليط الأضواء على سائر النقاط المظلمة، قلب كل حجر، ومعاينة كل عالم.

ليلة الأول من كانون الأول/ ديسمبر، كان تنت في طريق العودة جواً إلى واشنطن. كان خمسة أجهزة استخبارات أجنبية، منها السعودي، قد نُبه إلى احتمال أن يكون سلاح نووي بشكل ما، بين قنبلة قذرة ورأس حربي انشطاري كامل التطور، سائباً. سارع السعوديون إلى اتخاذ تدابير احتياطية متطرفة على حدودهم وضاعفوا من استعمال أدوات تحري المواد المشعة.

كان للاستخبارات تأثير درامي مثير على بوش. لم يكن راغباً في أن يكون رد فعله مخففاً. تم التخطيط لاستنفار إرهابي قومي جديد ليوم الاثنين مع التحذير بغموض من أن «كمية التهديدات ومستواها أعلى من المألوف» ومن أن هجوماً قد يأتي في «غضون الأسابيع القادمة.» اختفى نائب الرئيس تشيني لائذاً بمكان آمن خارج واشنطن وتعين عليه أن يعقد لقاءات مع ثمانية مسؤولين أجانب كبار عبر قنوات الفيديو.

اثنان من مراسلي الواشنطن بوست كانا قد شما رائحة خطر القنبلة القذرة أو النووية المحتملة وكانت مادة صحفية موشكة على ان تُنشر يوم الأحد الواقع في الثاني من كانون الأول/ ديسمبر، مع بعض التفاصيل. لوجود تنت خارج البلاد، بادر مسؤول كبير جداً في وكالة الاستخبارات المركزية إلى الاتصال بي في البيت قبل ساعات من إعداد المادة للطباعة وطلب تأجيل ذلك بإلحاح..

قال المسؤول عن مشرف: «اعتمدنا عليه كثيراً» ونحن دائبون على «شد البراغي.» «لقد وصلنا إلى النقطة التي سينطلق منها (الباكستانيون) للتعاون معنا. ومن شأن أي مادة صحفية أن تستثير ريبتهم معتبرينها محاولة لممارسة الضغط عليهم عبر وسائل الاعلام. أضاف المسؤول أن المعلومات ناقصة وسطحية «ما لدينا قائم على الإيحاء أكثر من اتصافه بالحسم.»

تحدث مدير البوست التنفيذي لين داوني Len Downie مع مسؤول وكالة الاستخبارات المركزية وقرر إيقاف نشر المادة.

وبعد بضعة أيام قامت البوست بنشر المادة دون إي إشارة إلى رحلة تنت. كانت المادة مقالة رئيسية في عدد يوم الثلاثاء الواقع في الرابع من كانون الأول/ ديسمبر تحت عنوان يغطي عامودين اثنين ويقول: «تخشى الولايات المتحدة من كون بن لادن قد قطع أشواطاً نووية؛ ثمة قلق بشأن وجود قنبلة قذرة، تقض مضجع الأمن.» وبعد أربعة أشهر أفاد مسؤول وكالة الاستخبارات المركزية بأن الوكالة «لم تعثر على ماكنا نخشاها في أفغانستان، ولكن هل هي موجودة في مكان آخر؟ لا أعتقد أننا وصلنا إلى قاع المسألة.» (*)

غير أن الحذف لم يتبدد قط، وقد تعين على رئيس مجلس الأمن القومي أن يتصارع مع إمكانية حصول هجوم من شأنه أن يكون على مستوى يبقي أحداث ٩/١١ مجرد هامش أو حاشية على صفحة تاريخ الحقبة. وفي هذا السياق كان من الصعب تحديد معنى المبالغة في ردود الأفعال. كان اصطدام طائرات ركاب مدنية مختطفة بالمباني كما لو كانت قذائف صاروخية لقتل الآلاف من الناس قد بدا، آخر

(*) كانت هذه بداية العملية التي ما لبثت أن توصلت في ٢٠٠٤ إلى الكشف عن صفقة بيع التكنولوجيا النووية السرية التي عقدها رئيس البرنامج النووي الباكستاني عبد القدير خان Abdul Qadeer Khan الذي اعترف لاحقاً بأنه ساعد كلاً من إيران، كوريا الشمالية، وليبيا.

المطاف، أمراً لا علاقة له بالواقع قبل ٩/١١. قال تنت إن مفتشي الأسلحة، اكتشفوا بعد حرب الخليج أنه كانت لدى صدام ثماني طرق مختلفة للحصول على سلاح نووي- بدائي وغير ملائم ولكنه مشحون بالخطر.



في الأيام التي سبقت أعياد الميلاد، حين تكون الحركة في واشنطن بطيئة عادة، كان محامي دعاوى ضئيل الجسم، مجتهد، في الحادية والخمسين من العمر عاكفاً على العمل لساعات طويلة، مضنية هناك في الأعالي في الغرفة رقم ٢٧٦ من مبنى المكتب التنفيذي القديم المقابل للبيت الأبيض. إنها غرفة مظلمة، متواضعة، مجهزة بموقد سبق له، أنه كان شاهداً على أحداث كثيرة من التاريخ، غرفة شغلها تيودور روزفلت Theodore Roosevelt حين كان وزيراً مساعداً لسلاح البحرية وشغلها من بعده فرانكلين Franklin روزفلت عندما تولى المنصب. أما شاغل الغرفة الحالي فمهتم بحفظ ملفات أنيقة وملاحظات مكتوبة بخط ينم عن الحرص والعناية، لعله طرف في خانة صغيرة من موظفي واشنطن - إنه الإنسان العزوف، ذو الحضور الدائم فيما وراء الكواليس. كان أيضاً أحد أكثر اللاعبين أهمية في جهاز الأمن القومي لدى بوش - آي . لويس ليبي الابن .I. Lewis Libby Jr . بشجاعة بقي ليبي هذا، وهو رجل وقور، ذو كرامة محتفظاً بلقب «الدراج Scooter» الذي كان الجميع يستعملونه.

كان لليبي ثلاثة عناوين رسمية، كان رئيساً لجهاز العاملين عند نائب الرئيس تشيني؛ كان أيضاً مستشار أمن قومي لنائب الرئيس تشيني؛ وكان ثالثاً وأخيراً، أحد مساعدي الرئيس بوش. لعله رهان مناصب ربما لم يسبق لشخص واحد أن شغلها من قبل. كان الدراج مركز قوة حقيقي بحد ذاته، مما جعله بالتالي عامل مضاعفة نفوذ وقوة لبرنامج تشيني وآرائه.

كان ليبي من «زُلم» بول وولفوفيتز المتمتعين برعايته، إذ عمل عنده في ثمانينيات القرن العشرين حين كان وولفوفيتز مساعداً لوزير الخارجية، ومرة أخرى في التسعينيات حين كان معاون وزير لشؤون التخطيط لدى تشيني في البنتاغون. وهنا في البنتاغون كان اختصاص ليبي هو ملف أسلحة صدام حسين الكيميائية والبيولوجية.

في دوره الراهن كان ليبي أحد شخصين اثنين فقط من غير الرؤساء وكبار المسؤولين كانا متمتعين بحق حضور اجتماعات مجلس الأمن القومي مع الرئيس واجتماعات كبار المسؤولين المنفصلة المعقودة برئاسة رايس (كان الشخص الثاني هو نائب رايس، ستفن هادلي).

من مرصده الملائم الفريد، كان ليبي يتابع ويشارك في مناقشة وتطوير خطة الأمن القومي الرئاسية. ونظراً لعدم تولي تشيني أي مسؤولية مباشرة عن الجيش، العمل الدبلوماسي، الاستخبارات - أو عن أي شيء آخر بالمناسبة - فإن كلاً من نائب الرئيس وليبي كانا بعيدين عن المعارك أو الأزمات، ما لم يقررا، بالطبع، أن يقحما نفسيهما. كلاهما كانا يستطيعان أن يحاولا الاهتمام بقضايا السياسة والتخطيط والقرارات الأكبر والأهم. في النهاية، كان ليبي يعرف أن إنتاج تشيني الوحيد هو توجيه النصح - إلى مجلس الأمن القومي، وعلى نوع بالغ الأهمية والمباشرة إلى الرئيس.

كان ليبي متمتعاً بفهم محامين جيد لقيمة الحذر، الصبر- والصمت. إن تشيني وليبي، كليهما، كانا أستاذين في فن التزام الهدوء، الهدوء المجرد، عبر التمسك بالصمت التام خلال أي نقاش أو مقابلة. من المؤكد أن الأسلوب كان قادراً على إثارة غيظ زملائهما وإبعادهما عن الركب. كذلك فإن ليبي كان خبيراً في مراوغة الأسئلة المتعلقة بآرائه الخاصة عن طريق توجيه الأسئلة المعينة من قبيل: مالذي يعنيه ذلك؟ بأي معنى تستخدم كلمة «قرار» ؟

كان ليبي قد تخرج في ييل سنة ١٩٧٢ - قبل بوش بأربع سنوات فقط وقبل موعد تخرج تشيني الافتراضي في هذه الجامعة، لو لم يتسرب منها، بتسع سنوات. خلافاً لحال رئيسيه، كان ليبي قد تخرج بامتياز كبير. كان قد كتب رواية لم تشتهر في ١٩٩٦، بعنوان المتدرب (The Apprentice)، وهي قصة مغامرات مع بعض موضوعات الإثارة الجنسية تجري أحداثها في يابان أوائل القرن العشرين امتدحتها مجلة النيويورك تايمز بوك ريفيو على «نثر رشيق ومقاطع وصفية مثيرة.»

كان ليبي يعشق الغرق في التفاصيل - أدوات زينة ومميزات قبائل مختلفة في العراق أو حتى تكتيكات عسكرية. خلال أزمة ١٩٩٠ في الخليج كان وولفو فيتز وليبي قد اقترحا إرسال فرق كوماندو عملياتية خاصة إلى داخل غرب العراق لحماية إسرائيل، ولإبقاء الأخيرة خارج الحرب. ومع أن تشيني، وزير الدفاع، كان قد أُعجب بالفكرة، فإن قائد السنتكوم (القيادة المركزية CENTCOM)، الجنرال نورمان شوارزتكوبف Norman Schwarzkopf، لم يبد اهتماماً. كثيراً ماكان ليبي يحب أن يعلق قائلاً إن الجنرال اضطر خلال الحرب أن يوظف نحو ربع قوته الجوية من أجل ضمان أمن الجزء الغربي من العراق. ليته أصغى فقط إلى ما قلناه.

في الأيام التي أعقبت هجمات ٩/١١ الإرهابية، نشرت النيويورك تايمز مادة صفحة أولى حول الجدل الدائر داخل إدارة بوش حول مدى ضرورة ملاحقة العراق في الموجة الأولى من الهجمات العسكرية من الحرب على الإرهاب. وبعنوان «مستشارو بوش ينقسمون حول مدى الانتقام»، أفادت المادة بأن پاول معارض، في حين تم إيراد اسمي وولفورفيتز وليبي بوصفهما مؤيدين لفكرة ضرب العراق بقوة. كان ذلك ظهوراً غير مألوف لاسمه في الجريدة، وقد أحسَّ بقدر قاتل من الانزعاج. لم يكن المراسلون قد اتصلوا به للتعليق، وقد شعر بأن التسريب كان «فضائحياً». حاول أن يقول للآخرين أن القصة «غير صحيحة». ولدى سؤاله عما إذا كانت «غير

صحيحة كلياً»، رد بلغة محامين كهنوتية مراوغة قائلاً: «ليست غير صحيحة كلياً، بل غير صحيحة.» لم يكن قد تحدث عن العراق في اجتماع مجلس الأمن القومي الكبير ولكنه «دردشات ومسامرات في الكواليس والهوامش قد حدثت» حسب تعبيره.

سارع ليبي إلى زيارة آرميتاج. قال له: «لا اعتراض لي على رؤية اسم پاول مطبوعاً. ولكن ما لم يعجبني هو أن أرى اسمي بجانب اسمه وخصوصاً في ذلك السياق. وليس لي أي كلب في ذلك الشجار (لاناقة لي ولا جمل في القضية).»

«تريدني أن أبلغ الوزير بذلك؟»

«أرجوك!»

«سأفعل. سأنقل كلامك بأمانة، غير أنها ليست معركة شخصية.. إن للأمر علاقة بالعمل. وإلا فكيف نتدبر شؤون الأمة بادراج؟!»

«ليست المسألة مسألة تعاطف أو عدم تعاطف مع العراق. يتعين عليها أن تكون ذات علاقة بما هو عملي وممكن وما ليس كذلك.»

كان ليبي يشعر بأن من شأن الاستمرار في التركيز على أفغانستان في البداية أن يكون حكيماً. أما وقد بدأت الأمور في أفغانستان تسير على ما يرام، فقد بات مقتنعاً بضرورة التعامل مع العراق إذا ما جرى تحديد الحرب على الإرهاب تحديداً صحيحاً وواسعاً. كان من المتعذر، حسب رأيه، التعامل بحسم مع الإرهاب، كما قال في جلساته الخاصة، «دون التصدي لقضية العراق.» على ذلك الصعيد كان له كلب كبير جداً في ذلك الشجار.

وفقاً لما هو محدد بمناصبه ونزوعه الخاص، كان الرجل يرصد الرئيس بعناية، متابعاً لغة حركات الجسم وتعابير الوجه جنباً إلى جنب مع لغة الكلام لدى صدور

أمر التخطيط للعراق، جملة الأسئلة، المواقف، واللحن. ربما لم يكن ما سمعه قرار حرب، شعر ليبي، ولكن الرئيس كان قد قرر أن المشكلة العراقية باتت مطلوبة الحل بطريقة أو أخرى. كان ليبي يعلم بأن تخطيطاً عسكرياً جدياً كان جارياً على قدم وساق. لم يكن الشعور شعور تشيني بمقدار ما كان شعوره هو، غير أنه توصل إلى استنتاج يقول بأن الرئيس قد قطع شوطاً لا يستهان به على طريق خلع صدام حسين. كانت تلك نقطة تحول وانعطاف ذات أهمية.

5

صباح الجمعة الواقع في ٢٨ كانون الأول/ ديسمبر، استيقظ الرئيس في الخامسة صباحاً بمزرعته الكروفوردية التكساسية وأمضى بعض الوقت مع زوجه، لورا. مكانهما صغير، حديث جداً، بل هو بيت مزرعة احتياطي على ضفة بحيرة اصطناعية. فيما عد زخارف الرئاسة المختلفة - الأمن وعناصر المرافقة الذين يتولون الطهي وأداء الخدمة - من شأن البيت أن يبدو استراحة نهاية أسبوع جيدة التزيين (الديكور) عائدة لزوجين من الأثرياء. كان بوش قد أنهى للتو قراءة كتاب تيودور ركس (الملك تيودور) للمؤلف أدموندموريس Edmund Morris، وهو لوحة مشرقة للرئيس تدي روزفلت ودبلوماسيته القائمة على (العصا الغليظة) أوائل القرن العشرين. كان المرء لا يستطيع حتى ولو كان قارئاً طارئاً لنص مؤلف من ٥٥٥ صفحة، ولو كان ميالاً إلى أخذ الزبدة، ربما مثل بوش، أن يبقى غافلاً عن الرسالة: لقد نجح تدي روزفلت في السيطرة على حقبته وتحديد معالمها عن طريق ممارسة السلطة الرئاسية بحسم، فاعلاً، مصراً على النتائج، ومنفذاً ذلك كله بأسلوب شخصي تميز بالتفاؤل والحيوية، بل وحتى الاطمئنان والثقة إلى درجة الاتصاف بالاستبداد والغطرسة. بصورة اعتيادية كان من المفترض أن يكون بوش قد ركض مسافة ثلاثة إلى أربعة أميال، ولكن ضيفاً كان قادماً في ساعة مبكرة.

ذهب الرئيس إلى مبنى خاص في مزرعته يحمل اسم سْكِفْ (SCIF) - مرفق المعلومات المصنفة الحساس - حيث كانت تتوفر إمكانية تزويده شخصياً بالتقارير الموجزة عبر قنوات فيديو آمنة. جاء التقرير الاستخباراتي الموجز ذلك الصباح الواقع

بين أعياد الميلاد وأعياد رأس السنة متضمناً كلمة السر نسيج التهديد / السرية للغاية، أحدث التقارير عن التهديدات والنشاطات الإرهابية. كان البند ٨ من بنود الوثيقة ذات الصفحات الـ ١٤ إلى الـ١٩ يقدم وصفاً لاتصال جرى التقاطه من منطقة في أفغانستان ما زالت، على ما يبدو، توفر مأوى لشبكة أسامة بن لادن الإرهابية، القاعدة. كان الشخص الذي تعذر التعرف عليه يقول: «ثمة أخبار سارة ستأتي في الوقت المناسب،» ويشير بأن هناك خططاً لهجمات جديدة. كان ذلك بالتحديد هو نوع التحذير الاستخباراتي الغامض ولكن الموَقِف لشعر الرأس الذي ظل يصل في الأشهر التي سبقت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر. بصرف النظر عما كان يعنيه، كان التقرير عامل إيقاظ وتنبيه وقد ساعد على رسم معالم أجواء اللقاء القادم.

مالبث الجنرال تومي فرانكس والميجر جنرال رينوار أن التحقا بالرئيس في غرفة اجتماعات الفيديو الآمنة. على الشاشات كان كل من تشيني في منتجعه الويومنغي؛ رمسفلد في استراحته الطاوزية النيومكسيكية؛ وكل من كوندي رايس، باول، وتنت في واشنطن.

حلا للرئيس أن يرى وجوه أعضاء مجلسه الحربي.

قدم فرانكس العائد لتوه من أفغانستان صورة موجزة عن العمليات الجارية هناك. منذ كسب المرحلة الأولى من الحملة الأفغانية كان الجنرال ينعم باحترام قائد مظفر لدى أعضاء مجلس الحرب. كان أحدهم، ربما من بقايا شبكة بن لادن أو نظام الطالبان المخلوع، قد أطلق على حوامته صاروخ أرض - جو ولكنه أخطأها.

قال بوش: «لعل آخر شيء أريده منك يا فرانكس هو أن تعرِّض نفسك للقتل.»

علق باول ساخراً قائلاً إن النقباء والرواد ومن هم دونهم في سلك الضباط هم الذين يفترض تعرضهم للخطر، لا جنرالات النجوم الأربع.

تحول فرانكس إلى السبب الرئيسي لاجتماع ذلك اليوم، التخطيط لحرب العراق.

قال فرانكس: «لا بد لنا، سيادة الرئيس، من أن نفعل أشياء كثيرة بشأن هذا الأمر، ولكن اسمحوا لي أن أبين لكم أين نحن من الموضوع في هذه اللحظة.» قدم للرئيس نسخة ورقية لـ ٢٦ صفحة سلايدات إيجازية. كان كل منها معلماً بعبارة بولوستب / سري للغاية التصنيفية - القسم الخاص بمعلومات خطط العمليات العسكرية. إن إمكانية الوصول إلى هذا القسم محصورة بأولئك المضطرين ضرورة مطلقة لأن يعرفوا. من بعض النواحي كان ذلك القسم الأكثر حساسية، وكانت الصفحات الـ ٢٦ تمثل بعضاً من العمل السري الأخطر الجاري تنفيذه في الحكومة. كانت نسخ قد أُرسلت عبر الكومبيوتر السري إلى كل من تشيني، باول، رايس، وتنت، وكما لو كان المقصود هو التأكيد الإضافي لموضوع السرية حملت صفحة السلايد الأولى عبارة تخطيط بالغ السرية بأحرف كبيرة.

جاءت الخطة عاكسة لعملية إعادة النظر التي كان رمسفلد قد طلبها من فرانكس بإلحاح. لم تكن أقل من مفهوم جديد لحرب مع العراق، حرب يمكن تنفيذها بوصفها ضربة استباقية. صحيح أن نمط عاصفة الصحراء للعمليات كان لا يزال على الرف تحت عنوان خطة الأوب رقم ١٠٠٣، غير أنها الآن كانت تتطلب ٤٠٠,٠٠٠ من عناصر الجيش الأمريكي وما يقرب من ستة أشهر لعملية الحشد. من غير الممكن توقع مفاجئات كثيرة.

أقر فرانكس بأنه كان في الحرب الأفغانية قد حاول وضع الخطة العسكرية الكلاسيكية القائمة على حملة قصف جوي كثيفة تعقبها عمليات برية جانباً. وكان، بدلاً من ذلك، قد طور ما أطلق عليه اسم «سلاسل عمليات» تحركات قابلة للتنفيذ على نحو مستقل، وبصورة متزامنة في الغالب. ولعدم توافر أي قواعد انطلاق في

أفغانستان أو بالقرب منها، فقد اضطر إلى التعويل بكثافة على قوات العمليات الخاصة، على وحدات الكوماندو النخبوية الصغيرة. أظهرت ساحة القتال الأفغانية أن قوات العمليات الخاصة قابلة للتعزيز، عن طريق استخدام أدوات التسديد الليزرية لتوجيه القنابل المنطلقة من طائرات سلاح الجو أو البحرية إلى أهدافها الدقيقة.

وهكذا فإن حملة جوية وأخرى برية لم تعودا واردتين، لن يكون هناك سوى حملة واحدة.

متنقلاً بين المخططات والخرائط، تابع فرانكس يقول إنه كان قد قدم كجزء من تقويم القائد الذي طلبه الوزير رمسفلد في الفاتح من كانون الأول/ ديسمبر ثلاثة عروض أمام الوزير في تواريخ الرابع، الثاني عشر، والتاسع عشر من الشهر. فتوجيه الوزير قضى بالتفكير بعيداً عن التخطيط التقليدي للحروب.

كان من شأن سلاسل العمليات أن تشكل المفتاح. وهذه كانت مكونات جملة الأشياء التي كان الجيش، وكالة الاستخبارات المركزية، بل وحتى الدبلوماسيون يستطيعون أن يفعلوه على صعيد إخضاع العراق للضغط. كانوا يحاولون إيجاد بنية لا تكون عملية عسكرية خالصة بل عملية قائمة على الإفادة من جميع عناصر القوة القومية. كان من شأن كل سلسلة عمليات أن تكون منفصلة، غير أن من شأن سلاسل العمليات لدى اجتماعها أن تتمخض عن كتلة حاسمة قادرة على اختزال كمية القوة القتالية التقليدية المطلوبة. من المؤكد أن سلاسل العمليات لم تكن أوزان متكافئة بأي شكل من الأشكال، غير انها كانت تشكل طريقة موفقة لتحديد قدرة الولايات المتحدة. قام فرانكس بتسليط الضوء على سلاسل العمليات السبع قائلاً:

١- عمليات دينامية نشطة أو «نيران عملياتية» ستكون شاملة لحملة القصف الجوي التقليدية، ولكنها ستشمل أيضاً استخدام صواريخ توماهوك العابرة المنطلقة من

السفن أو الطائرات، إضافة إلى أنظمة صواريخ أرض- أرض طويلة المدى مثل نظام الصواريخ التكتيكية عند الجيش المعروفة باسم: (TACMS)، الذي يطلق صواريخ قياس ١٢ قدم شبه عابرة إلى مسافات تتراوح بين ١٠٠ و١٨٠ ميلاً. تمثل الأمر بامتلاك الدقة في إصابة الأهداف الموجودة في عمق أرض العدو.

٢- حرب غير تقليدية قائمة على الإفادة من قوات العمليات الخاصة القادرة على تنفيذ عمليات تسلسل ناجحة إلى عمق العراق - شن غارات قاتلة مثلاً، لوقف إطلاق صواريخ سكود باتجاه إسرائيل أو العربية السعودية. مرة أخرى كانت أفغانستان. قد أبرزت جملة الإمكانيات المتسعة باطراد لعنصري السرعة والخلسة.

٣- مناورات عملياتية، جملة العمليات البرية المألوفة للقوات التقليدية منفذة من جانب فرق الجيش والمارينز.

٤- عمليات التأثير - نشر المعلومات، وطيف واسع من العمليات السيكولوجية والتضليلية أوالتمويهية.

٥- دعم جماعات المعارضة في أرجاء العراق، بما فيها الجماعات الكردية في الشمال والجماعات الشيعية الساخطة في الجنوب العراقي بل وحتى في داخل الجيش العراقي. كان من شأن ذلك كله أن يتم بالتنسيق الكامل مع وكالة الاستخبارات المركزية. كان من الممكن للدعم أن يشمل كل شيء بدءاً بالأسلحة وانتهاء بتطوير قدرة جماعات المعارضة على جمع المعلومات الاستخباراتية، وعلى الاضطلاع بمهمات الاستطلاع الاستراتيجي والتخريب.

٦- جملة الجوانب السياسية - العسكرية للعمل الدبلوماسي بما فيها عمليات مدنية - عسكرية للعمل مع السكان والأهالي بعد المعارك القتالية الكبرى أكثر الأحيان.

٧- تقديم المعونات الإنسانية إلى السكان العراقيين.

أكد فرانكس أن هذه هي الأشياء التي يمكن القيام بها، مبيناً أن هذه لم تكن سوى صياغة أولية وأن من الممكن توسيع سلاسل العمليات وتنقيتها.

غير أن ما اعتبره فرانكس اختراقاً حقيقياً كان كامناً هنا بالذات. لقد خطط الجنرال لحشد سلاسل العمليات هذه ضد ما أطلق عليها اسم «شرائح» قدرة النظام العراقي أو هشاشته. فهذه الشرائح كانت هي مراكز الثقل في حكم صدام.

في هذه المرحلة كانت لدى فرانكس تسعة منها، وهي:

١- القيادة، الحلقة الداخلية الحقيقية لصدام ولنجليه عدي وقصي.

٢- الأمن الداخلي واستخبارات النظام، بما في ذلك الحلقة الضيقة من الحراس الشخصيين في جهاز الأمن الخاص، الإس. إس. أو (SSO) ؛ شبكة القيادة، التحكم، والاتصالات.

٣- البنية التحتية لأسلحة الدمار الشامل.

٤- الصواريخ انتاجاً، صيانة، وقدرة إيصال.

٥- فرق الحرس الجمهوري، والحرس الجمهوري الخاص الحامي لبغداد.

٦- الأراضي والمواقع الموجودة داخل العراق والتي يمكن استخدامها لممارسة الضغط مثل المنطقة الكردية في الشمال المتمتعة عملياً بالحكم الذاتي.

٧- الجيش النظامي العراقي.

٨- البنية التحتية التجارية والاقتصادية العراقية؛ والبنية التحتية الدبلوماسية في الخارج التي تضم عملاء عراقيين يعملون خارج سفاراتهم.

٩- السكان المدنيون.



وبعد ذلك قدم فرانكس مخططاً على شكل رقعة مزينة بـ «شرائح» قوة النظام على امتداد المحور العلوي أو الأفقي وبـ «سلاسل العمليات» على امتداد المحور الجانبي أو العمودي. كان مجموع عدد المربعات في الرقعة يبلغ ٦٣ مربعاً - خطوط سلاسل العمليات السبع مضروبة بخطوط شرائح النظام التسع ٧ × ٩ = ٦٣.

بقع صغيرة دالة على انفجارات أو انفلاقات نجوم كانت تشير إلى الأماكن التي يمكن استعمال «سلاسل العمليات» فيها بفعالية ضد «شرائح» نقاط ضعف النظام.

كان من شأن القصف الفعال، مثلاً، أن يكون ناجحاً نجاحاً استثنائياً ضد:

١- القيادة. ٢- أجهزة الأمن الداخلي. ٥- فرق الحرس الجمهوري. ٧- الجيش النظامي العراقي، ولكن ليس بالتأكيد ضد . ٩- السكان المدنيين. أما عمليات التأثير فكان من شأنها بالمقابل، أن تفيد كثيراً على صعيد البنية التحتية التجارية، الاقتصادية، والدبلوماسية العراقية. بل وكان من الممكن توظيفها ضد القيادة والجيش النظامي بكل تأكيد، وهو جيش ليس موالياً لصدام مثل الحرس الجمهوري.

أضاف فرانكس أن هذا هو أقصى ما تستطيع فعله إذا أردتَ دفع النظام إلى السقوط. لابد لك من أن تقنع الناس بوجود حاجة طاغية إلى الخلاص من صدام. من شأن تأثير عمليات الإعلام أن يكون حاسماً.

من الممكن استخدام قوات العمليات الخاصة لاحتلال حقول النفط في الجنوب بأعداد قليلة نسبياً من القوات مع السيطرة على مناطق تكاد أن تكون متروكة بلا دفاع في الغرب العراقي للحيلولة دون إطلاق صواريخ السكود. وتستطيع قوات العمليات الخاصة أيضاً أن تتوغل في الشمال مع الأكراد، مع التسلل بدعم وكالة الاستخبارات المركزية إلى جماعات المعارضة وصولاً ربما إلى قادة الجيش العراقي الساخطين، وأن توفر ظروفاً تمكّن المعارضة الداخلية العراقية من مساندة التحرك ضد النظام.

اقر فرانكس بحاجته إلى قدْرٍ أشمل من فهم العلاقة بين جملة سلاسل هذه العمليات من جهة وشرائح نقاط ضعف العدو من الجهة المقابلة. لم تكن الفكرة إلا مفهوماً مرناً ما زال في طور التطور.

عموماً، قال فرانكس، إن من شأن هذه المقاربة أن تتجنب عملية الحشد الطويلة المرهقة القائمة على تحريك أعداد هائلة من القوات إلى المنطقة، بما يوفر إمكانية البدء بالهجوم بقوات أقل وخلال فترة إنذار أقصر، غير أن المبالغة في الاستعجال كان من شأنها أن تبقيهم مع أحجام أصغر مما ينبغي من القوات.

انبهر الرئيس بإمكانية ممارسة القوة انتقائياً وبحرص مع جملة الشرائح المختلفة. وقد وجد أن من الممكن إحداث نقاط ضعف عراقية واستغلالها بقدر أكبر من الكفاءة إذا ما تم الجمع بين القوة العسكرية وغير العسكرية بالطريقة الملائمة.

في إحدى المقابلات التي جرت معه بعد عامين اثنين تذكر بوش خصوصاً «جملة فقاعات النجوم المتفجرة» على الرقعة، وإن لم يتذكر شيئاً ذا بال عن التفاصيل.

التفت فرانكس إلى سلايد بولوستب/ السري للغاية عن دعم التمركز والانطلاق من جانب بلدان أخرى، وهو دعم سيكون ضرورياً بالنسبة إلى أي حرب. ما الذي كانوا يستطيعون، واقعياً، توقعه؟ عرض فرانكس ثلاثة خيارات - قوي، مختزل، وأحادي.

من شأن النوع الأول من الدعم، أي الدعم القوي والفعال، أن يتطلب مساندة من ثلاثة بلدان على الحدود العراقية الجنوبية والغربية - الكويت، العربية السعودية والأردن - ومن تركيا التي تتقاسم مع العراق حدوداً يصل طولها إلى ١٠٠ ميل- وأن يستدعي مساعدة من أربع دول خليجية صغيرة هي البحرين، قطر، الإمارات العربية

المتحدة، وعُمان، كما من المملكة المتحدة. لقد كانت قائمة طويلة متطلبة نوعاً من الدبلوماسية الحساسة للفوز بسلسلة الاتفاقيات الضرورية. غير أن مثل هذا المستوى الرفيع من الدعم الأجنبي القوي كان من شأنه أن يتيح لسلاسل العمليات فرصة التنفيذ على نحو متزامن.

أقر فرانكس بأنه، إذا ما توفر مثل هذا المستوى من الدعم، لن يكون بحاجة إلى أكثر من قوة أمريكية قوامها ١٠٥,٠٠٠ جندي لبدء الحرب. كان من شأن تدفق القوات أن يتواصل وفق هذا المنظور الأولي إلى مستوى نحو ٢٥٠,٠٠٠ في غضون الأيام الـ ٦٠ إلى الـ ٩٠ المقبلة.

كان من شأن أي دعم خارجي أقل أن يعني ضرب بعض شرائح نقاط الضعف على نحو متتابع مما يزيد المخاطر ويؤدي إلى إطالة الوقت المطلوب. فغياب تأييد تركيا أو العربية السعودية، مثلاً، يمكن أن ينطوي على تأثير سلبي هائل.

اضاف فرانكس أنه من أجل شن هجوم ثنائي بمشاركة المملكة المتحدة كانوا سيحتاجون إلى أربعة بلدان أخرى على الأقل لتأمين عمليات الانتشار والتحليق، وهذه البلدان هي الكويت، البحرين، قطر، وعُمان.

وفي حال القيام بعملية أحادية، بدون مشاركة قوات المملكة المتحدة، كان لا بد لهم، أيضاً، من الحصول على التسهيلات في كل من الكويت، قطر، وعُمان من الجميع باستثناء البحرين - حسب ما أشار فرانكس.

قال فرانكس: «السيد الرئيس، إذا كنا نريد القيام بشيء من هذا القبيل، فإن ما سيتعين علينا فعله هو المبادرة إلى نشر القوات وحشدها.» كان قد اتفق مع فرانكس خلال الأشهر الماضية على أن المطلوب هو «التحسين التراكمي لوضعنا»، كما قال بلغة مهذبة. للولايات المتحدة آلاف الملاكات في الشرق الأوسط ولكنهم مشغولون بمهمات أخرى.

أضاف فرانكس أنه أبقى قوة مهمات برية صغيرة في الكويت لا تزيد على ٥٠٠ جندي، فوج واحد، دعماً لعملية مراقبة فرض الحظر على المنطقة الجنوبية. كان الفوج هناك لحماية الكويت إذا ما قام صدام بغزوها ثانية، وقد كان صراحة شركاً منصوباً أيضاً - ضامناً اشتباك صدام مباشرة مع قوات أمريكية إذا ما هاجم الكويت. ذلك الفوج من القوات الخاصة مع ٥٠٠ آخرين من ملاكات الدعم الأمريكيين كانوا في الوقت نفسه يتولون تدريب الكويتيين.

على الفور أو في مستقبل قريب جداً، ينبغي أن يكون عندنا ثلاثة أضعاف ذلك الرقم في الكويت، ما مجموعه ٢٠٠٠ جندي قال فرانكس. وأضاف أن الوزير رمسفلد كان قد وافق، وأنهم كانوا سيسيرون قدماً.

«رائع» قال الرئيس: لن يبدو الأمر استفزازاً أو توريطاً للأمة. سيكون عملاً تدريبياً دورياً.

علق فرانكس قائلاً: «سنقوم بتجميع رهاناتنا.» فلانشغال الولايات المتحدة بأفغانستان، قد ينخدع صدام حسين ويخفق في ملاحظة أي حشد على صعيد القيام بشيء ما آخر دون إقحام الأمة في حرب. قال فرانكس إنه كان يريد نقل بعض معدات الجيش المخزنة سلفاً على مسافة نحو ٣٠٠ ميل في إمارة قطر الصغيرة إلى الكويت. من شأن هذا، أولاً، أن يجعل المعدات في متناول اليد على نحو مباشر؛ فالجنود يمكن نقلهم جواً بسرعة، أما المعدات فكانت مشتملة على كميات كبيرة من العتاد الذي كان من شأن نقله أن يستغرق وقتاً. قال فرانكس إن المارينز كانت عندهم أيضاً معدات مخزنة سلفاً قابلة لأن تُجلب إلى أمكنة أقرب من الكويت. بعيدة عن العين وبعيدة عن العقل. سياسياً لم يكن أحد في وضع يمكّنه من تركيز الكثير من الانتباه على تحرك الزوارق والشاحنات.

ثانياً: كانوا سينقلون المعدات من قاعدتهم في قطر، وقد قال فرانكس: «ليتني أستطيع أن أنفق مئتي مليون من الدولارات على تلك القاعدة فأحولها إلى مركز قيادة وتحكم يبدو كما لو كان حشداً من المستودعات من الخارج ولكنه يبدو مختلفاً كثيراً من الداخل!»

كان فرانكس حريصاً على تأكيد عدم حسم أي شيء حول الموضوع بسبب العبء المالي الثقيل، ولكنه أضاف أنه كان يتابع الكلام عن الأمر مع رمسفلد.

بدا الرئيس مهتماً.

كان السلايد الثاني بعنوان: «أفكار حول التوقيت.»

قال فرانكس: «سيادة الرئيس، نحن لا نعلم ما إذا كنت راغباً في الإقدام على هذا ومتى، ولكن إذا حصل وقررت وحددت الزمن، فإن أشياء معينة يجب أن تتم أولاً.»

من المؤكد أنه كان يتعين على وكالة الاستخبارات المركزية أن تكون قادرة على زرع عناصرها في أمكنتهم المحددة داخل العراق. ففي أفغانستان ظل الترابط بين فرق وكالة الاستخبارات المركزية شبه العسكرية على الأرض من جهة وقوات العمليات الخاصة التابعة للجيش أمراً حاسماً. لم تتطلب الحرب الأفغانية بداية في الحقيقة سوى نحو ١١٥ من عناصر وكالة الاستخبارات المركزية و٣٠٠ من قوات العمليات الخاصة على الأرض. أما فيما يخص العراق فإن بلوغ الوكالة مستوى النشاط الفعال في المنطقة من شأنه أن يتطلب مدة تتراوح بين ١٢٠ و١٨٠ يوماً.

لتحقيق الفعالية على صعيد عمليات التأثير لا بد لنا من البدء مباشرة، قال فرانكس، لا لنعلن أننا موشكون على غزو العراق بل لنباشر التقاط عناصر من النظام العراقي، من جهاز استخباراته، مثلاً، ومن العاملين في السفارات الموزعة في مختلف أرجاء العالم.

على الجبهة الدبلوماسية كان من شأن الذهاب إلى رؤساء الدول في الكويت وتركيا وجميع الآخرين لسؤالهم: «هل أنتم معنا أم ضدنا؟» تكراراً لعبارة الرئيس الشهيرة بعد ١١/٩ تلك العبارة التي كانت قد تحدَّتْ الدول الأخرى داعية إياها إلى الاختيار أن يستغرق ما لا يقل عن ٣٠ يوماً.

إن الجهود الرامية إلى زيادة القوة ونقل المعدات المخزنة سلفاً إلى الكويت من شأنها أن تستغرق ٦٠ يوماً، وكذلك فإن من شأن تثبيت مقر القيادة في قطر أن يستغرق ٦٠ يوماً أيضاً.

من شأن نشر ونقل فرقة المشاة الثالثة كلها، تلك الوحدة التي سبق لها أن كانت منشورة، أن يستغرق ما لا يقل عن ٩٠ يوماً وصولاً إلى إدخال كل شيء في الكويت فتصبح الفرقة جاهزة للقتال. أما إدخال السوقيات على نحو مستدام فسوف يستغرق ما يتراوح بين ٦٠ و٩٠ يوماً إذا تم بطريقة لا لبس فيها نسبياً بما يبقيه عُرْضَة لملاحظة الجميع؛ وإنجاز ذلك بخطوات صغيرة مقتطعة من شأنه أن يستغرق وقتاً أطول.

كان من شأن قراءة متمعنة لقائمة فرانكس أن يحدد تاريخاً محتملاً لبدء العمليات القتالية في غضون أربعة إلى ستة أشهر من ذلك التاريخ، أي في موعد يتأرجح بين نيسان/ إبريل وحزيران/ يونيو ٢٠٠٢.

أكد فرانكس للسيد الرئيس أن قرار الإقدام على اتخاذ مثل هذا القرار يجب أن يُترك لِلَّحْظَة الأخيرة المتوفرة لك أنت. غير انه أضاف أن هناك مشروعات قرارات قد نعرضها عليك طالبين منك اتخاذها بما يمكِّننا من إعداد الظروف الضرورية لتوفير القدرة على تنفيذ العمليات.

كانت عند فرانكس «دزينة كاملة من مشروعات القرارات هذه، وقد بسطها على النحو التالي:

١- بناء القدرة الاستخباراتية البينية (المشتركة بين الأجهزة والوكالات).

٢- الشروع بعمليات التأثير.

٣- كسب تأييد الدول المضيفة ودعمها.

٤- نقل المعدات المخزنة سلفاً ومقر قيادة السنتكون CENTCOM.

٥- دفع فرقة القيادة إلى الأمام.

٦- إيجاد خط إمداد قابل للدوام.

٧- نقل القيادة الجوية ومركز التحكم البديلين إلى داخل قطر كي لا يعودا مضطرين إلى التعويل على المركز الرئيسي في قاعدة الأمير سلطان في العربية السعودية.

٨- مركزة لواء استطلاع المارينز الذي سيشكل قوة المارينز القيادية.

٩- توفير ما هو ضروري من عملية بحث وإنقاذ حربية، وطائرات استخبار، مسح، واستطلاع في المنطقة.

١٠- إدخال مجموعة قتالية لحاملة طائرات بحرية ثالثة.

١١- جعل معدات المارينز الأخرى في متناول أيدي الوحدات الأخرى، من خارج قوة المارينز القيادية.

١٢- نشر طائرات بصورة مسبقة في أرجاء العالم حتى يكون ما يعرف باسم الجسر الجوي متوفراً لنقل القوات والمعدات.



إفرادياً كانت هذه خطوات تراكمية حصيفة، ومجتمعة كانت ترسي القاعدة اللازمة للحرب.

«سيادة الرئيس» قال فرانكس: «هذه هي افتراضاتنا حسب اعتقادنا» منفذاً

طلب رمسفلد القاضي بطرح الافتراضات على الطاولة في موعد مبكر. فقد كان حريصاً على تجديد جميع الأمور غير القابلة للتحكم أو تلك التي يتمين على كل من البنتاغون، وكالة الاستخبارات المركزية، أو وزارة الخارجية أن تحاول التحكم بها.

أضاف فرانكس أن الافتراضات الخاصة بالعراق هي التالية:

١- من شأن دول مضيفة أن تكون متوفرة بطريقة ما لتسمح أقله بالعملية الأحادية.

٢- كان العراق يمتلك أسلحة الدمار الشامل وبالتالي فقد كان سيتعين على الولايات المتحدة أن تخطط للقتال ضده في ساحة قتال من المحتمل أن تكون ملوثة.

٣- من شأن حرب عراقية أن تكون الجهد الرئيسي للولايات المتحدة وأن تتمتع بالأولوية فيما يخص الحصول على الموارد، بما فيها جلب صواريخ كروز من مسارح أخرى. أما الاحتمالات الأخرى في أنحاء العالم فيمكن التعامل معها وإن بدا تجميدها مفضلاً إذا كان ذلك متاحاً.

٤- من شأن جماعات عراقية معينة أن تدعم الجيش الأمريكي داخل العراق، أو توفّر على الأقل بعض المساعدة.

٥- قد يبادر العراق إلى مهاجمة إسرائيل وبالتالي فإن من الضروري بناء القدرة على الحيلولة دون ذلك.

٦- من شأن الحرب الأفغانية المعرفة باسم الحرية الدائمة والحرب الكوكبية على الإرهاب أن تحدثا مستوى من الصخب يستطيع أن يشكل غطاء لنقل القوات؛ فعمليات تينك الحربين لن تتضاءل.

٧- من شأن السنتكوم (القيادة المركزية CENTCOM) أن تكون متوفر على قوة لا يقل حجمها عن ١٠٥,٠٠٠جندي في المنطقة قبل بدء العمليات القتالية.

٨- من شأن وزارة الخارجية أن تدفع نحو إيجاد حكومة مؤقتة مقنعة، ذات قاعدة

عريضة كما كان قد حصل في أفغانستان من خلال مؤتمر بون في وقت سابق من الشهر. وسوف يتعين على الخارجية إشراك الأمم المتحدة أو بلدان أخرى بهذه العملية. أضاف فرانكس أن الجيش لم يبد نجاحاً كبيراً على صعيد بناء الدول.

٩- من شان دول المنطقة الا تتدخل.

١٠- من شأن السنتكوم أن يتوفر على ما يكفي من الذخائر.

١١- من شأن بلدان الناتو أن توفر قواعد ملائمة وحقوق تحليق مناسبة، وإن بدا أن هناك نوعاً من القلق إزاء احتمال أن تتخذ فرنسا، إيطاليا، ألمانيا، أو بلجيكا موقفاً رافضاً.

١٢- من شأن الأسطول المدني الاحتياطي أن يساهم في نقل القوات والمواد.



جاءت القائمة الصريحة منبهة الرئيس والآخرين إلى ما من شأنه أن يكون مطلوباً أو متوقعاً من المنطقة، من وزارة الخارجية، من وكالة الاستخبارات المركزية، من أوربا، ومن الرئيس بالذات، بدقة. في مقابلة تمت بعد نحو عامين عُرض على رمسفلد قائمة هذه الافتراضات. وافق أو تذكر أكثرها، اعترف بأنه لم يتذكر عدداً قليلاً منها، أدلى بدوله في إلقاء الضوء على العديد منها، وناقش، بالطبع، طريقة صياغة عدد غير قليل منها.

قال رمسفلد: «لقد أوردت افتراضات هي أشياء إما أنك عاجز عن التحكم بها أوهي غير قابلة للتحكم. بعبارة أخرى بعضها غير ذات علاقة بالوزارة ومن شان آخرين أن يكتشفوا أنها كذلك ثم يرون أن بعضها غير قابل للتحكم.»

كان رمسفلد يريد من الجميع أن يشاركوا في التخطيط للحرب بأقل قدر ممكن

من الأوهام إذا كان لابد من وقوعها. نبهت القائمة الرئيس إلى أن الجيش كانت لديه توقعات معينة، إلى أن نجاح أي عملية كان من شأنه أن يبقى متوقفاً على قيام جهات أخرى بتوفير تلك الشروط الواردة. كان من شأن القائمة أن تُرى، في الوقت نفسه، على أنها قائمة طلبات.

واخيراً طرح فرانكس على الصفحة ٢٦ سؤال: إلى أين نذهب من هنا؟ أو وماذا بعد؟

قال فرانكس ملتزماً جانب الحرص: «حين تصل إلى نقطة الرغبة أو الاعتقاد بأنك قد تفكر بالإقدام على فعل هذا ستضطر إلى تمكيننا من مضاعفة الفعاليات الاستخباراتية البشرية في البلد.» ثم أضاف مستعرضاً قائمة أعمال ما قبل الحرب بالتتابع: «لا بد لنا من تطوير المعارضة وإكسابها مضموناً ذا شأن داخل العراق نحن بحاجة إلى أن نبدأ عملية التأثير هذه، وبحاجة إلى أن نباشر تعزيز قوتنا البرية وقدرتنا الجوية على حد سواء تحت غطاء العملية الأفغانية وفرض منطقتي حظر الطيران. أخيراً نحن بحاجة إلى أن نبدأ الآن بنقل المعدات من أماكن تخزينها المسبق في قطر لإيجاد الأمكنة الشاغرة التي تمكّن مقر قيادة السنتكون من الانتقال.»

قال الرئيس: «لا بد لنا يا دون من أن نبدأ بتنفيذ بعض هذه الأمور.» ثم التفت إلى فرانكس قائلاً: هذا عمل جيد. واظبْ على تطويره والانشغال به.»

كان رمسفلد قد بدا راغباً في المقاطعة والاقتحام مرتين أو ثلاث خلال قيام فرانكس بالإيجاز. غير أن التكنولوجيا أبقته مجرد شخص بعيد على شاشة ملأى بآخرين. قال رمسفلد: «أمرك سيدي الرئيس، سوف نتحدث توم وأنا عن هذه الأمور.» مضيفاً، بالطبع، أنهما لم يكونا يوصيان بأي موعد لبدء مثل هذه العمليات.

ظل رمسفلد يقول: «توم وأنا سوف نناقش هذا أكثر، وسأعود إليك ببعض

التوصيات.» فيما بقي توم مواصلاً إيجازه، غير أن الأول كان صوت وزارة الدفاع.

أفاد الرئيس بأنه من الممكن أن يرى أين يستطيعون أن يتوفروا على القدرة اللازمة لتحقيق نوع من التقدم الحقيقي وعدم تعريض عدد كبير من الناس لعمليات قتالية. كانت ثمة اقتصادات مدى، قال الرئيس. ثم أضاف أنه كان أيضاً قادراً على رؤية أن الضرورة كانت تقضي بأن تكون بعض الأمور بادئة. كان شديد الاهتمام بالفقرة المتعلقة بوكالة الاستخبارات المركزية، بعد الاطلاع على علاقات الوكالة الخفية مع جماعات المعارضة والقادة في أفغانستان، ولا سيما مع تحالف الشمال، والتأكد من مدى دفعها لعجلة تلك الحرب.

سارع تنت إلى الضغط على المكابح، قائلاً: إن حالة العراق مختلفة كثيراً. لقد سبق لوكالة الاستخبارات المركزية أن كانت لها علاقات مع جماعات معارضة مختلفة في العراق - مع الأكراد في الشمال، مع الشيعة في الجنوب - على امتداد السنين حسب روايات جملة من القصص المحبوكة بمهارة فائقة. كانت العواقب كارثية لأن الجماعات والأفراد تم التخلي عنها وعنهم. وقد حصل ذلك، أضاف تنت، عدداً من المرات، وبالتالي فإن الشك هو السائد لدى الناس في العراق. لن يلتحقوا بالركب ما لم يلمسوا نوعاً من الالتزام الفعلي من جانب الولايات المتحدة. لذا فإنكم تستطيعون بناء كل هذه الأفكار، قال تنت، غير أنكم لن تحصلوا على أي ثمار حقيقية مالم ير العراقيون التزاماً ملموساً. من شأن ذلك الآن أن يكون على شكل أسلحة، أو عمليات تدريب، أو نوعاً من الحضور العسكري الأمريكي الكثيف، ولكن عليكم أن تركزوا اهتمامكم على ذلك.

قال بوش لكل من باول ورمسفلد إنه كان يتعين عليهما أن يركزا عملهما على الجزء السياسي مضيفاً: «علينا أن نقوم بإعداد دول المنطقة، بادرا إلى تزويدي باستراتيجية حول أفضل سبل تحقيق ذلك.»

طرحت رايس سؤالاً: مالذي سيحصل إذا قام صدام بسحب قواته إلى قلب بغداد لخوض معركة أخيرة، خالقاً حصناً يتعين علينا اقتحامه قتالاً؟

◆ ◆ ◆

رد فرانكس قائلاً: إن ذلك أمر سنركز عليه أكثر في تخطيطنا بهدف الحيلولة دون حدوثه.

أما تشيني فكان مشغولاً بهاجس كبير آخر إذ قال: «سيتعين علينا أن نبقى شديدي التنبه والحرص على الاهتداء إلى الطريقة التي تمكّننا من حماية أنفسنا من استخدام أسلحة الدمار الشامل، في الميدان كما في المؤخرة على حد سواء.»

«معك حق، سيدي»! أقر فرانكس ثم وجه كلامه إلى الرئيس وقال: «سنكون الآن بحاجة إلى أن نعود ونتحدث معكم حول تطوير هذه الخطة الكبيرة، أو ربط هذه الخطة الكبيرة بما هو معروف لديكم، سيادة الرئيس، باسم غرير الصحراء.» كان بوش قد استمع إلى تقرير موجز عن عملية غرير الصحراء، مما كان من شأنه أن يمكنه من الإيعاز بشن هجوم صغير في غضون أربع ساعات - إما بطائرات أمريكية أو من خلال إطلاق ٥٠ صاروخ توماهوك - كروز من سفن موجودة في الخليج الفارسي. بات الرئيس متوفراً على خيارات غير قليلة، بما فيها سلسلة ضربات عقابية موجعة موجهة إلى أهداف عراقية ذات أهمية عسكرية وصولاً إلى ومشتملاً على مواقع، يُشك بأنها لانتاج صواريخ عراقية.

قبيل الساعة العاشرة صباحاً خرج بوش في زي ريفي بسيط مؤلف من سروال جينز، قميص، وحذاء ثقيل وفرانكس منتعلاً حذاءه الميداني طويل العنق وقبعة البيرية لعقد مؤتمر صحفي موجز.

قال الرئيس: «انتهينا للتو من اجتماع عبر الكوابل لفريق الأمن القومي، اجتماع

خُصص لمناقشة رحلته (رحلة فرانكس) وللتباحث حول ما يجري في أفغانستان.» لم يأت الرئيس على ذكر الموضوع الرئيسي للاجتماع - موضوع العراق، كما أن أحداً لم يسأل. دارت الأسئلة كلها حول بن لادن، أفغانستان، والانهيار الأخير لإنرون، شركة تجارة الطاقة التكساسية.

ولدى سؤاله عن السنة الجديدة القادمة قال بوش: «آمل أن يكون ٢٠٠٢ عام سلام غير أنني واقعي في الوقت نفسه.»

مشى بوش وفرانكس إلى بيت المحافظ، تلك المضافة الصغيرة في المزرعة، حيث قام الرئيس بتوقيع قانون الصفقات الدفاعية وبتسجيل خطابه الإذاعي الاسبوعي سلفاً.

ثم قال بوش: «هيا تومي، تعال واقفز إلى سيارتي البيك آب لنقوم بجولة في المزرعة.» اصطحب بوش فرانكس في جولة طويلة بالسيارة.

توقفا بعد ذلك أمام البيت الرئيسي لزيارة لورا، فكل من فرانكس ولورا ينتميان إلى ميدلاند التكساسية وسبق لهما أن كانا في المدرسة الثانوية ذاتها غير انهما لم يكونا يعرفان بعضهما. قام الرئيس بدعوة فرانكس ورينوار إلى البقاء لتناول طعام الغداء.

اعتذر فرانكس قائلاً: «لا يا سيادة الرئيس، يتعين علي أن أعود.» فقد كان قائداً لحرب موشكة على الانتهاء في أفغانستان، وأخرى بدت موشكة على الانطلاق.

في الجو على طريق العودة إلى تامبا، شكا رينوار من عدم موافقة فرانكس على البقاء لتناول الغداء. كان جائعاً. لم يكن هناك أي طعام على الطائرة. وكان يفضل أن يتناول طعام الغداء مع رئيس الجمهورية. ثم علق قائلاً: «إنك ياريس، لا تطعمنا في طريق العودة.»

تناولا بعض المرطبات والفستق وهما يتقاسمان دهشتهما. كانا سعيدين لأن الرئيس بدا متفهماً للتعقيد ولمشكلات الوقت - لم يكن الأمر مرشحاً لأن يحدث غداً.

قال رينوار: «أعتقد أنه التقطها.»

فرد فرانكس قائلاً: «لقد بدأنا.»



في مقابلة تمت بعد عامين اثنين قال بوش مسلطاً الضوء على مقاربته لهذا الإيجاز الأول عن خطط الحرب العراقية: «أريد أن أعرف الخيارات المتاحة لي بوصفي الرئيس.» كان يعرف وزير دفاعه جيداً. ولم يكن رمسفلد مستعداً للسير قدماً إذا لم يصبح هو نفسه مقتنعاً بمستوى التقدم الحاصل. قال بوش متذكراً: «لقد أوصلوا العملية إلى نقطة يشعر معها الرجل مطمئناً إلى دفع فرانكس إلى الأمام.» وهكذا فقد كان استثنائي الاهتمام بقراءة فرانكس.

قال بوش متذكراً: «أحاول الاهتداء إلى الأسئلة التي يمكن توجيهها إلى قائد أثار إعجابي للتو في أفغانستان. أبحث عن المنطق. أتابع لغة حركات جسده باهتمام.» ثم أكد لغة الجسد، العينين، نمط السلوك. كانت تلك أكثر أهمية من بعض المضامين. ذلك أيضاً كان هو السبب الكامن وراء استدعائه لفرانكس إلى كروفورد بدلاً من مخاطبته وجهاً آخر على جدار من الشاشات.

تذكر مائلاً بكرسيه إلى الأمام ملوحاً بيده في وجهي تسليطاً للضوء على المشهد أنه طرح على فرانكس السؤال التالي: هل هذا جيد على نحو يكفي للفوز؟»

كان فرانكس قد رد أنه كذلك بالمطلق، غير أن الخطة يمكن أن تصبح أفضل.

علق الرئيس: «لم نكن جاهزين للتنفيذ آنذاك. أعني لم نكن حتى قريبين.» غير أنه خرج من اجتماع الإيجاز مشغول البال بأمرين اثنين: «صدام تهديد. هذا خيار.»

6

مع حلول بداية ٢٠٠٢ باتت أسهم مدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تنت لدى الرئيس مرتفعة. فبرنامجه السري للعمل على إرسال فرق شبه عسكرية تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية إلى داخل أفغانستان كان قد وفر صلات واستراتيجية أولية لإزاحة الطالبان عن السلطة. كان الرجل قد أدخل تحسينات درامية مثيرة على الاستخبارات الإنسانية ووضع دائرة تدريب ضباط وكالات الاستخبارات المركزية الميدانيين إلى أكثر من عشرة أضعاف، جاعلاً مثل هذه العملية السرية ممكنة.

كان تنت البالغ الثامنة والأربعين من العمر هو المسؤول الكبير الكلنتوني الوحيد الباقي في فريق الأمن القومي عند بوش. كان نجمه قد صعد في عالم الاستخبارات السرية أولاً بوصفه أحد العاملين في لجنة الاستخبارات بمجلس الشيوخ، وعضواً في مجلس الأمن القومي عند كلنتون مسؤولاً عن حسابات الاستخبارات بعد ذلك. وفي ١٩٩٥ كان كلنتون قد سماه نائباً لمدير وكالة الاستخبارات المركزية. ثم ما لبث أن عينه مديراً في ١٩٩٧.

كان ابن المهاجرين اليونانيين تنت، وهو أستاذ إيجاز ماهر، شديد التركيز، ذو موهبة استثنائية ورفيع المستوى، يدرك مدى أهمية صياغة العلاقات الشخصية ويكرس وقتاً للناس المهمين في حياته المهنية والشخصية. قال مرة: «كل شيء يتوقف على العلاقات الشخصية.» كان مطلعاً على خلفيات وعائلات رؤساء أجهزة استخبارات أجنبية مهمة، وكان يسأل عنهم بانتظام. من حين لآخر كان تنت يتناول

طعام الفطور مع كارل روف Karl Rove كبير مستشاري الرئيس السياسيين، في مطعم البيت الأبيض، ويمزح قائلاً إنه كان سيتقاسم مع روف أسراراً محظورة حتى على رايس.

لعل الأهم من كل شيء هو أنه كان قد نسج علاقة متينة مع الرئيس بوش الذي كان يقدم له شخصياً تقريراً موجزاً في المكتب البيضوي أكثر الأيام في الثامنة صباحاً. كان بوش يقول: «انا معجب به! كما انني اثق به وهذا اهم.» اما تنت فكثيراً ما كان يتحدث عن تعامله مع طرفين أو زبونين: «الرئيس أولاً. جهاز العاملين في وكالة الاستخبارات المؤلف من ١٧٠٠٠ شخص ثانياً.»

حتى قبل ٩/١١ كان تنت قد رأى أن العراق كان سيصبح مصدر قلق مهم بالنسبة إلى إدارة بوش. كان الشخص المرشح لإدارة العمليات السرية الموجهة ضد صدام ستيولى منصب رئيس جماعة العمليات العراقية الذي كان أحد مناصب وكالة الاستخبارات المركزية المفتاحية الباقية وراء الكواليس. أوضح تنت لمن هم دونه في تسلسل مراتب الوكالة أنه كان يريد شخصاً يكون من عظم الرقبة وابن كلب عنيف قولاً وفعلاً.

كان شاؤول (*) نجماً حقيقياً في جهاز وكالة الاستخبارات المركزية السري، مديرية العمليات المكلفة بتنفيذ العمليات السرية. كان هذا، وهو المائل إلى الصلع وذو لحية جيدة التقليم مع بنية جسدية شبيهة بخرطوم الماء في الثالثة والأربعين من العمر، قد شغل لسنوات طويلة مناصب سرية حساسة ضابطاً ميدانياً ومسؤول وكالة استخبارات مركزية كبيراً في عدد كبير من المحطات حول العالم. كان أبوه المولود في إحدى البلدان الكوبية الصغيرة قد تورط في إحدى أشهر إخفاقات

(*) اسم سري. فالأسماء الكاملة لضابط الوكالة السريين غير مستخدمه وتبقى مكتومة.

وخيبات وكالة الاستخبارات المركزية - فضيحة خليج الخنازير في ١٩٦١ التي كانت قد أدت إلى التخلي عن ١٢٠٠ لاجئ كوبي على الشاطئ من جانب ولي نعمتهم المتمثل بوكالة الاستخبارات المركزية. وقد قال شاؤول لزملائه في أكثر من مناسبة: «لست إلا أحد نتاجات عملية سرية فاشلة لوكالة الاستخبارات المركزية.»

أواخر التسعينيات، في محاولة لتدريب ضباط ميدانيين لوكالة الاستخبارات المركزية ورفع مستوى الصرامة في اختيار عناصر الوكالة، كان تنت قد قرر تعيين ضباط سريعي النجاح لتولي إدارة المرفق السري التابع لوكالة الاستخبارات المركزية الخاص بالتدريب والموجود في بلدة وليمزبيرغ الفيرجينية، وهو المرفق المعروف باسم المزرعة. عُين شاؤول رئيساً لدورة، وكان أيضاً يعلم بنفسه ويوزع كراريس التدريب على نحو ٢٥٠ ضابطاً: وفيما بعد، خلال ٢٠٠٠ -٢٠٠١، تمت ترقيته إلى المنصب المرموق الذي جعله مساعداً تنفيذياً لنائب تنت، جون ماكلوخلين. وهناك اطلع شاؤول على جميع الأسرار الخطيرة وقام برصد سياسة وكالة الاستخبارات المركزية من الداخل.

بعد قضاء عام واحد من الجمود في المكتب الأمامي، كان شاؤول عاكفاً على البحث عن وظيفة في مقر قيادة وكالة الاستخبارات المركزية بلانغلي. لأسباب عائلية مثل وجود عدد من الأولاد في المدرسة الثانوية تعين عليه أن يبقى في منطقة واشنطن. داخل قسم الشرق الأدنى في وكالة الاستخبارات المركزية، وهو القسم المكلف بمعالجة قضايا الشرق الأوسط، إسرائيل، أفغانستان، إيران، والعراق - بعض أصعب البلدان وأكثرها ابتلاء بأعمال العنف، كان منصب رئيس جماعة العمليات العراقية في طور الاستحداث. لم يكن هناك عدد كبير من الراغبين في شغل المنصب. وقد رآه كثيرون مدمراً للمستقبل المهني. في القسم كان يشار إلى العمليات العراقية على أنها «بيت اللعب المكسورة.» كانت العمليات مأهولة إلى حد كبير

بضباط إدارة عمليات أغرار، ضباط من أصحاب السوابق، أو أشخاص ينتظرون الإحالة على التقاعد.

طالب شاؤول بالوظيفة. كان يعتقد بأن من المحتمل أن تأخذ إدارة بوش مسألة العراق مأخذ الجد. كان قد سمع بعض اللغط. تولى رئاسة مجموعة العمليات العراقية (الآي. أو. جي IOG) يوم ٤ آب/ أغسطس، ٢٠٠١.

كان مجلس الأمن القومي قد طلب من وكالة الاستخبارات المركزية تحديد ما كانت تستطيع أن تفعله فيما يخص العراق. لم يأت الطلب بصيغة: هل تستطيعون الإحاطة بصدام، أو، هل تستطيعون دعم أي اجتياح عسكري؟ بل جاء على شكل سؤال: كيف ترون العراق؟ مالذي تستطيعون فعله؟ كيف تنظرون إلى احتمال القيام بعمليات سرية داخل العراق؟

وهكذا فإن شاؤول انغمس في استقصاء أو استعراض شامل للماضي. سارع إلى تسمية زميل له من الأساتذة المتقدمين في المزرعة كان قد تابع قضايا عراقية في إدارة العمليات (الدي. أو. DO) منذ حرب ١٩٩١ في الخليج، نائباً.

ما لبث شاؤول أن اكتشف أن بيت اللعب المكسورة كان أكثر من مشكلة أشخاص. فالعمليات السابقة لم تكن إلا سجلاً لسلسلة من الأعمال السرية الفاشلة والغبية. كان السجل كتاباً لنمط العمل المحكوم بالإخفاق، ركاماً من التقصير، من التأخير، من التردد، من غياب التخطيط، ومن الافتقار إلى الواقعية. كان المضحك مشوباً بالمبكي، الكوميدي المثير للسخرية بالمأساوي الباعث على الرعب.

خلال سني إدارة نكسون، أصبح العراق بيدقاً في الحرب الباردة. في ١٩٧٢، أقدم الرجل القوي وإن لم يكن بعد زعيماً، صدام حسين على توقيع معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي. لقطع الطريق على هذا النفوذ السوفيتي في الشرق الأوسط،

سارع الرئيس نكسون إلى توقيع أمر يقضي بمبادرة وكالة الاستخبارات المركزية إلى تزويد الأكراد سراً بمبلغ ٥ ملايين دولار. والأكراد هؤلاء يتألفون من ٤٠ قبيلة جبلية يصل تعداد أفرادها إلى نحو ٢٥ مليوناً من الناس المبعثرين بين خمسة بلدان - إيران، تركيا، سورية، ما كان يعرف باسم الاتحاد السوفييتي، والزاوية الشمالية الشرقية من العراق.

كان أكراد العراق سيحصلون على ٥ ملايين دولار لشراء المؤن والأسلحة. قامت إسرائيل، بريطانيا، وإيران (وقد كانت خاضعة لحكم الشاه محمد رضا بهلوي الصديق للولايات المتحدة) بتقديم مبلغ ٧ ملايين دولار آخر على شكل معونة سرية. مع حلول عام ١٩٧٣، أوصى وزير الخارجية هنري كيسنجر بزيادة المبالغ السرية لأن العراق كان قد أصبح العميل السوفييتي الرئيسي في الشرق الأوسط، كما أن النظام البعثي في عهد صدام كان، كما قال كيسنجر في مذاكرته، «يواصل تمويل منظمات إرهابية في أمكنة كثيرة تصل إلى باكستان» وكان قوة إعاقة لأي سلام عربي - إسرائيلي . استجاب شاه إيران ورفع دعمه المالي إلى ٣٠ مليوناً من الدولارات، واعداً بـ ٧٥ مليوناً في العام التالي.

من نواح كثيرة لم يكن دعم وكالة الاستخبارات المركزية للأكراد إلا إرضاء للشاه. تحدثت تقارير وكالة الاستخبارات المركزية عن أن الأكراد الذين كانت لديهم، حسب إحدى الروايات، قوة مؤلفة من ١٠٠,٠٠٠ كانوا يشغلون ويجمدون ثلثي الجيش العراقي - وهو إنجاز مذهل وإن لم يكن صحيحاً إلا جزئياً. كان العامل الحاسم متمثلاً بالمدفعية الثقيلة وهو إنجاز مذهل وإن لم يكن صحيحاً إلا جزئياً. كان العامل الحاسم متمثلاً بالمدفعية الثقيلة التي وفرها الشاه. غير أن الأخير ما لبث في ١٩٧٥ أن توصل إلى اتفاق مع صدام، أدار ظهره للأكراد، وأوقف شحنات الأسلحة الواردة من وكالة الاستخبارات المركزية. استغاثات الأكراد الشخصية

الموجهة إلى الوكالة وكيسنجر ذهبت أدراج الرياح. انهارت العملية السرية وقام صدام بذبح العديد من الأكراد.

بعد حرب ١٩٩١ في الخليج وقع الرئيس جورج اتش. دبليو. بوش أمراً رئاسياً يخول وكالة الاستخبارات المركزية إسقاط صدام. فهذه الوكالة كانت قد قذفت بالأموال إلى جل الجماعات المعادية لصدام بما فيها مجموعات منفيين عراقيين في المنفى بل وحتى أسرى عراقيين تم أسرهم خلال حرب الخليج كانوا قد رفضوا العودة إلى العراق. وقد قام الرئيس على الملأ بدعوة العراقيين. «إلى أخذ الأمور بأيديهم» من أجل إزاحة صدام. غير أن بوش ما لبث، حين تمرد الأكراد في الشمال والمسلمون الشيعة في الجنوب ضد صدام، أن أحجم عن توفير الدعم العسكري الأمريكي. كانت النتيجة مذبحة أخرى.

وخلال فترة إدارة كلنتون، واصلت وكالة الاستخبارات المركزية لهوها وعملها غير المركز، داعمة سلسلة من المحاولات المختلفة المناوئة لصدام. جاءت إحدى عمليات اللعب المكسورة منطوية على إسقاط منشورات تسخر من عيد ميلاد صدام على بغداد. وفي ١٩٩٦ نجح جهاز الأمن الصدامي في التسلل إلى جماعة مدعومة من الوكالة من الضباط العراقيين السابقين كانت عاكفة على تدبير انقلاب، فتعرض نحو ١٢٠ ضابطاً سابقاً للإعدام. ومع حلول عام ١٩٩٨ حين اقترحت وكالة الاستخبارات المركزية خطة سرية جديدة، رفض الكونغرس الخطة وأجاز بدلاً منها مساعدة مكشوفة بمبلغ ٩٧ مليوناً من الدولارات إلى جماعات المعارضة العراقية.

قام شاؤول بحشد مجموعة من العاملين والمحللين السريين المخضرمين من إدارة الاستخبارات (الدي. آي. DI) لمراجعة الماضي. بعض هؤلاء كان قد عمل على قضايا عراقية مدة ١٢ إلى ١٥ عاماً، وآخرون كانوا قد وضعوا خططاً سرية في البلقان. كان السؤال المركزي: كيف نرى العمل السري في العراق؟

تعج الأفلام والأساطير الحديثة التي تدور حول وكالة الاستخبارات المركزية بمحاربين عتاة متعصبين قادرين على اجتراح المعجزات وتواقين إلى اقتحام المخاطر والاضطلاع بالمهمات المستحيلة. غير أن شاؤول مالبث أن توصل إلى استنتاج مناقض لجملة الصور النمطية المقحمة على الوكالة. لخص استنتاجه قائلاً: «لن يفضي العمل السري إلى إزاحة صدام حسين.» كان يتعين على وكالة الاستخبارات المركزية أن تواجه واقع أن صداماً كان، وهو في السلطة منذ ١٩٧٩، قد بنى جهاز أمن مثالياً تقريباً لحمايته والحيلولة دون وقوع أي انقلاب. كانت منظمة الأمن الخاصة العراقية مسؤولة عن أمنه؛ كان حرس رئاسي يتولى مرافقته، وكان الحرس الجمهوري الخاص يحمي القصور الجمهورية ومبان حكومية أخرى في العاصمة. ثمة أربعة أجهزة استخباراتية كانت تدعم عمل تلك الأطراف. كانت عشرات فرق الجيش العراقي قادرة عملياً على قطع الطريق على أي ناشطين عاكفين على تدبير أي انقلاب.

كانت الحكومة العراقية مكلفة بأداء وظيفة واحدة - الحفاظ على حياة صدام وإبقاؤه في السلطة. فالتجسس الداخلي، الشك المبرمج، الأدوار والسلطات المتقاطعة، والمسؤوليات المجزأة كانت تضع صداماً في بؤرة المركز من كل شيء.

رأى شاؤول أن من شأن إزاحته أن يتطلب تركيز الحكومة الأمريكية كلها. ولدى النظر إلى السياسة الأمريكية الإجمالية اكتشف شاؤول تناقضاً صارخاً. فالولايات المتحدة كانت تسعى، من خلال الأمم المتحدة، إلى احتواء صدام وردعه بالعقوبات الاقتصادية والدبلوماسية؛ أما من خلال وكالة الاستخبارات المركزية فكانت تحاول الإطاحة به. «ياللهراء الداعر!» قال شاؤول. لم تكن الخطة الهجين ذات الوجهين القائمة على السعي إلى الاحتواء بيد وعلى العمل من أجل الاسقاط بالأخرى، مؤهلة لأن تنجح. كانت طريقة النجاح الوحيدة متمثلة بقيام وكالة الاستخبارات المركزية

بتوفير الدعم لغزو عسكري شامل للعراق. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة المفضية إلى النجاح الممكن. كانت الوكالة قد اضطلعت بدور ريادي في أفغانستان. كان سيتعين عليها أن تتولى دوراً داعماً في العراق. كانت المهمة والهدف بالغي الصعوبة والتعقيد. فاختراق السور المحيط بصدام كان شبه مستحيل دون عمليات عسكرية ودون نوع من الاجتياح.

صباح الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، ٢٠٠١، كان شاؤول وبعض أعضاء فريقه في طريقهم إلى مبنى المكتب التنفيذي القديم المجاور للبيت الأبيض لتقديم تقرير موجز أمام أعضاء جهاز العاملين في مجلس الأمن القومي حول بعض هذه الاستنتاجات. وفيما هم فوق أحد الجسور التي تصل فيرجينيا بحي كولومبيا، سمعوا تقارير عبر الراديو عن الهجمات الإرهابية وعن إخلاء مجمع البيت الأبيض. «ياللعنة!» قال شاؤول «دعونا ندور ونعود إلى البيوت!» كادوا أن يتقاطعوا مع المدير تنت الذي كان عائداً بسرعة إلى وكالة الاستخبارات المركزية من مركز مدينة واشنطن حيث كان يتناول طعام الفطور.

في الأشهر الأولى بعد ٩/١١، تراجع العراق عن مركز الضوء، على الرغم من أن نائب الرئيس تشيني طلب من وكالة الاستخبارات المركزية إيجازه (إبلاغه بإيجاز) عما كانت الوكالة تستطيع أن تفعله. في الثالث من كانون الثاني/ يناير، ٢٠٠٢، قام شاؤول، تنت، نائب رئيس قسم الشرق الأدنى، واثنان من العاملين السريين ممن كانوا قد عملوا في برامج عراقية، بزيارة نائب رئيس الجمهورية وليبي الدراح (سكوتر).

لم يحرص شاؤول على تلطيف رسالته. صارح تشيني قائلاً إن العمل السري لن يزيح صداماً. لم تكن وكالة الاستخبارات المركزية هي الحل. فالشيء الوحيد الذي كان نظام الدكتاتور منظماً لتحقيقه هو منع وقوع أي انقلاب. قال شاؤول للحاضرين. كان صدام قد استولى على السلطة بانقلاب، كان قد أحبط سلسلة من

المحاولات الانقلابية، وبالتالي فإن ابن الكلبة يعرف ما تعنيه كلمة انقلاب. إذا كنت قائد وحدة عسكرية عراقية ولديك الذخائر اللازمة لتنفيذ انقلاب، فإنك لا تملك الوقود اللازم لتحريك دباباتك. وإذا توفَّرْتَ على الوقود فستجد نفسك مفتقراً إلى الذخائر. ما من أحد يدوم في مراكز النفوذ والسلطة فترة تكفي لتدبير أي انقلاب.

إذا حاولنا تدبير انقلاب فإننا نصب الماء في طاحونة النظام، نخدمه، قال شاؤول. سيقوم صدام بتمزيق مدبري الانقلاب أشلاء - قطعة قطعة عند الضرورة. أضاف شاؤول لا شيء سوى عملية عسكرية أمريكية واجتياح قابل لأن تدعمه وكالة الاستخبارات المركزية كان من شأنه أن يوفر فرصة الإطاحة بصدام. كانت الوكالة قد درست جملة العبر المستخلصة من العمليات السرية في العراق واكتشفت، صراحة، أن صفحة وكالة الاستخبارات المركزية ملطخة. «تعاني من مشكلة مصداقية خطيرة.» فالأكراد، والشيعة، ضباط عراقيون سابقون، وربما جل الناس "المدَوْزنين" في العراق، كانوا يعرفون تاريخ قيام وكالة الاستخبارات المركزية بالتخلي عنهم والهرب. ولاستعادة المصداقية لا بد للقوى المناوئة لصدام المحتملة من أن تلمس قدراً واضحاً من الجدية الصارمة لدى الولايات المتحدة. من شأن عمليات التحضير لاجتياح عسكري واسع، ولا شيء غيرها، أن تبعث بمثل تلك الرسالة.

عرض شاؤول أمام تشيني جملة المشكلات في مواكبة الأمم المتحدة والعمل على مواصلة الكلام عن المفاوضات والاحتواء، مع المبادرة سراً في الوقت نفسه إلى إبلاغ السعوديين والأردنيين بأن الولايات المتحدة عازمة على إزاحة النظام عن طريق التآمر الخفي. لا بد من اعتماد سياسة قومية واحدة يؤيدها الجميع ويشرحونها بالطريقة نفسها.

قال شاؤول: «سوف يتعين عليكم أن تتوقعوا وقوع إصابات.»

أومأ تشيني مشيراً إلى تفهمه لذلك.

وقد أضاف شاؤول أن أخطاء قد ارتُكبت في الماضي على صعيد كيفية التعامل مع العملاء. كان على أسلوب العمل المهني - حماية المصادر، عمليات القطع، الاتصالات، دفع الأموال - أن يصبح أكثر تطوراً.

تمثل درس آخر بعجز وكالة الاستخبارات المركزية عن إدامة برنامج عمل سري معين فترة طويلة من الزمن. كان لا بد للنظام من الاهتداء إلى بعض المصادر البشرية القابلة للتجنيد فتلقي القبض عليهم. لذا فإن من الضروري التحرك بسرعة.

كان تشيني معتاداً على موجزين يأتون إلى مكتبه ليطلقوا تصريحات ووعوداً طموحة تؤكد أن وزارتهم أو وكالتهم أو إدارتهم ستكون ناجحة. إلا أن رسالة وكالة الاستخبارات المركزية جاءت مغايرة، إذ كانت مناقضة للرسائل الأخرى، متوازنة، غير عادية إلى حد كبير في حكمها بأنها لم تكن في الحقيقة قادرة على إنجاز المهمة.

وبعد ذلك قام ضباط وكالة الاستخبارات المركزية بتقديم الإيجاز نفسه إلى الرئيس.

سألهم الرئيس: « هل نستطيع القيام بالأمر عبر الوسائل السرية؟»

جاء الجواب سلبياً.

تذكر الرئيس أنه قال بينه وبين نفسه «يا للعنة!». لم يكن ثمة أي مجال للفرص على ما يبدو.

تعليقاً على رفض الوكالة لأي سياسة ذات وجهين قائمة على السير باتجاه الحرب مع الاستمرار في الوقت نفسه، في مواصلة العمل الدبلوماسي عبر الأمم المتحدة، قال بوش إن ذلك كان هو الأسلوب الذي سيبقى متبعاً.

أضـاف الرئيس: «أعلم أنني وضـعتكم في مـوقف صـعب. أعلم أن هذا صـعب، ولكن هذا هو المسـار الذي اعـتـمـدناه ونسـيـر عليـه. وسـوف نظل مـضطرين إلى الاستمرار في توظيف جميع هذه العناصر في الوقت نفسه.»

فيما يخص كوندوليزا رايس، كانت هذه إحدى المعضلات الشاقة، معضلة العمل على خطين والاضطرار إلى التـصـرف والكلام بقـوة وإقناع عن الخطين كليـهـمـا. فدبلوماسيـة القسـر كانت تعني التعايش مع التنافر وألوان عدم الاتساق، حسب رأيها. أوضحت وكالة الاستخبارات المركزية أن من شأن النجاح في تجنيد المصادر داخل العـراق أن يتطلب التـأكيـد على أن الولايات المتحدة كـانت جادة وهي آتيـة بجيشها. أوحت لغة حركات الرئيس الجسدية بأنه كان قد استوعب الرسـالة، غير انه لم يقدم أي وعود.



حين سـمع پاول بهـذا كله، استنتج أن وكالة الاسـتـخبـارات المركـزية لم تكن إلا شديدة الحرص على تجنب خازوق آخر. بالمناسـبة، حاول تنت تغليف الموضـوع قليلاً، معلناً أن فرص نجاح العمل السري لم تكن أكثر من ١٠ إلى ٢٠ بالمئة.

بدا في الحقيقة قائلاً إن الفرص هي صفر بالمئة. فوكالة الاستخبارات المركزية لم تكن تملك أي مصادر في الداخل، كما لم يكن ثمة أي طريقة للوصول إلى صدام والنيل منه ما لم يتم تجريد عملية عسكرية. أدرك پاول أن اعتراف البعض بالعجز عن القيام بعمل معين والمسارعة إلى الإعلان عن استعدادهم لدعم الآخرين، كان من شأنهما أن يحدثا ضغطاً له وزنه لصالح الحرب.



7

بعد إيجاز كروفورد في الثامن والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر للرئيس، أصدر رمسفلد أمراً إلى فرانكس قضى بأن يعود في غضون ١٠ أيام ومعه خطة قابلة للتنفيذ. تحدد اجتماع في التاسع من كانون الثاني/ يناير، ولكن الموعد ما لبث أن انزلق. تحادث رمسفلد وفرانكس عبر هاتف آمن. كان فرانكس قد ركب سماعة إضافية على جهاز هاتفه سمح لأحد كبار معاونيه، قبطان بحري، أن يسجل ملاحظات ويكتب مذكرة عن الحديث. تمخض هذا عن آلاف من صفحات مناقشات المستويات العليا السرية للغاية. أظهرت الملاحظات المأخوذة في ذلك اليوم أن رمسفلد كان يريد إجابات على الأسئلة التالية في اللقاء المقبل:

- ما الذي كان سيتم عمله إذا أقدم العراقيون على استخدام أسلحة دار شامل؟
- إلى أي مدى بدقة كان قد قُلّص الجيش العراقي منذ حرب ١٩٩١ في الخليج؟
- ما الفائدة المحددة بدقة للبلدان التي أرادها لأغراض التمركز والانطلاق؟
- ما كانت الأهداف الموجودة بالفعل الآن، على الصعيدين الاستراتيجي والتكتيكي؟
- انظر إلى رقعة سلاسل العمليات مقابل شرائح نقاط الضعف التي كانت قد استُخدمت مع الرئيس وبيِّن أولويات الاستهداف. ما كانت الأهداف ذات الشأن؟ ما المدى الذي سيستغرقه الحصول على التأثير الذي تريده في تلك الأهداف؟
- هل سيكون ثمة اختلاف في خطوط التوقيت إذا باتت الحرب غير التقليدية والجهود الاستخباراتية البشرية قادرة على تحديد الأهداف بدقة؟
- هل من شأن تدمير العشرات من الأهداف المفتاحية في وقت واحد أن يشكل

ضغطاً على النظام، يدفعه إلى التداعي والانهيار ربما يلغي الحاجة إلى حرب طويلة تتطلب قوة كبيرة؟ هل تستطيع، إذا ما توفرت لديك قاعدة البيانات الاستخباراتية المطلوبة أن تحدد بدقة جملة الأهداف الحاسمة لتسريع سقوط صدام؟

قام فرانكس بتمرير القائمة إلى عدد قليل من كبار الأركان. علق رينوار قائلاً: «عليها اللعنة يا ريّس!» «إنه مريك، مستحيل!»

رد فرانكس على رينوار والآخرين وقال: «نعم يا شباب، أوكي، نحن بحاجة لأن نفهم. هذه هي الصفقة. دعونا إذن، نتجنب خوض المعركة الخطأ. الشباب الطيبون هم نحن. فلنقاتل على الجبهة التي نحن بحاجة للذهاب إليها معاً.» بعبارة أخرى، لا تجعلوا من رمسفلد الشخص الشرير لأنه طرح كومة من الأسئلة. أوضح فرانكس أنه كان مضطراً للمرور عبر محطة رمسفلد، ومثلهم في ذلك مثله. كان لا بد لهم من التكيف مع أسلوب رمسلفد وعكسه. في كل مرة كان فرانكس يعود إليه ليقدم تقريره الموجز، كان الوزير يقلب مزيداً من الأحجار ويهتدي إلى المزيد من الأسئلة القابعة تحتها. كان الأمر محكوماً بأن يستمر.

في إحدى المقابلات عُرضت على رمسفلد قائمة الأسئلة التي كان قد طرحها. ضحك ضحكة خافتة وزعم أن القائمة لم تكن كاملة. بل «ولم تكن حتى قريبة» من نصف الأسئلة التي كانت لديه عند ذلك المنعطف، كما قال.

بما أن رمسفلد كان يعتمد ما أطلق عليه اسم «تخطيط قائم على التكرار» وكان يعني عملياً أن لا شيء يصبح ناجزاً ومنتهياً أبداً، فقد قام فرانكس بتطوير أسلوبه الخاص القائم أيضاً على التخطيط المتكرر. ففي مقر قيادته بتامبا أجرى سلسلة منتظمة من المشاورات مع رينوار و١٥ آخرين في القيادة المفتاحية. كانت لديه

بالإضافة إلى ذلك مجموعة من المخططين العسكريين الذين كان رينوار يطلق عليهم اسم «الأدمغة التي تزن كل منها ٥٠ رطلاً» من الرواد، المقدَّمين، العقداء الشباب أو القادة والقباطنة البحريين المتخصصين بالاستراتيجيا.

مجموعة من خبراء العمليات من الجي -٣ (ج-٣) واختصاصي الاستخبارات من الجي -٢ (ج-٢)، من إدارة الاستخبارات، كانت تعرف باسم: «الهَدَّافين.» كان هؤلاء يعاينون الأهداف ويحددون الأولويات. كانوا معزولين في غرفة خلفية مغلقة، ربما كي يبقوا بعيدين عن الأنظار والأسماع إلى أن يصبحوا قادرين على الإجابة عن أسئلة رمسفلد الخاصة بتحديد الأهداف.

في إحدى المراحل تصدى جهاز فرانكس لسؤال ما كان يمكن عمله بنصف القوة في نصف الوقت. جرى توسيع هذا السؤال في مسعى لحساب القدرات التي من شأنها أن تحل محل الزمن والقوة المختزلين. ما الذي كان يمكن تعزيزه؟ استخبارات أفضل، أسلحة دقيقة، مهاجمة العراق من جبهات متعددة، قوات عمليات خاصة وعمليات إعلامية كانت قد طُرحت.

أي تأثير حقيقي كان يمكن أن يترتب على العمليات الإعلامية؟ هل كانت الدعاية الفعالة قادرة حقاً على الحلول محل القوات؟ ما من أحد كان متأكداً.

كيف كانوا يستطيعون أن يزيدوا من فعالية عناصر المعارضة، وخصوصاً الأكراد في الشمال؟ ما القدرة الفعلية التي كان الأكراد قادرين على إضفائها على أي خطة حربية؟ وما التأثير السياسي الذي من شأن ذلك أن يتركه بالنسبة إلى تركيا ذات الكتلة السكانية الكبيرة الساخطة، لأن من شأن الأتراك أن ينظروا بارتياب إلى أي قوة كردية ناشئة، بل أي دولة كردية، في العراق؟

أخيراً اتفق المخططون تجريبياً على أن من شأن قوات عمليات خاصة أن تتوغل

في الجزء الشمالي من العراق، الذي كان، عملياً، مستقلاً ذاتياً عن بغداد، فتنشئ قوة مؤلفة من نحو ١٠,٠٠٠ مقاتل كردي. بدا ذلك ممكناً؛ كان أيضاً عدداً منخفضاً أقل من أن يستثير أي حساسيات سياسية تركية.

على امتداد أيام متعاقبة غرق فرانكس مع مخططيه في نوبات من جنون التفكير، نوبات محصورة ببضع ساعات في كل مرة لأن أدمغتهم كان من شأنها أن تبلى بعد فترة. كان يريد أن يتأكد من أن عدداً قليلاً جداً من الناس كانوا مطلعين على أي خط عملياتي محدد. جماعة صغيرة كانت مكلفة بالتعامل مع العمليات الإعلامية، أخرى مع النيران العملياتية، وجماعات ثالثة ورابعة. مع السلاسل والخطوط الباقية. أمر الجماعات بألا تتحدث مع بعضها .. خصص لكل جماعة قطاع سري للغاية معنون باسمه السري الخاص. فقط رينوار وعدد قليل من الآخرين وهو نفسه كانوا سيعرفون القطاعات كلها، سيكوّنون فكرة إجمالية عامة من وضع الخطة.

ومع الشروع في التقدم، بدأ فرانكس ورينوار يريان مواقع تلامس سلاسل العمليات وتساندها أو تضافرها، بين قوات العمليات الخاصة والجزء الجوي من النيران العملياتية المهاجمة للهدف نفسه مثلاً.



بدأ پاول، وهو الجنرال السابق ذو الكبرياء والذي بات الآن رئيساً للدبلوماسية، يشعر بالقلق والانزعاج إزاء ما كان يراه ويسمعه. كان قد أمضى فترة خدمة ميدانية في فيتنام ضابطاً صغيراً حيث كان قد رأى الإخفاق عن كثب. كان الجنرالات قد أخفقوا في مصارحة القيادة السياسية التي لم تكن بدورها متحلية بما يكفي من نزعة الشك والارتياب إزاء هؤلاء الجنرالات. بوصفه رئيساً لهيئة رؤساء الأركان

عشية حرب ١٩٩١ في الخليج، كان قد جلس وحده في مكتبه البنتاغوني، في الغرفة رقم ٢ إي. ٨٧٨ ، متذكراً تعليق ربرت إي لي Robert E . Lee الشهيرة: «من الخير أن الحرب هي على هذه الدرجة من إثارة الرعب، وإلا لأصبحنا مولعين بها كثيراً.» لقد كان الجنرال الاتحادي يعرف معنى أهوال الحرب جيداً. والآن في ٢٠٠١، من واشنطن والبنتاغون والبيت الأبيض، بل وحتى من وزارته هو، وزارة الخارجية، مبيدة للحشرات، وأشبه بصيد عظيم أحياناً.

كان باول يعلم بعمق وحميمية أن الحروب تخاض بالشباب، بل بالمراهقين المرشحين للموت جراء قرارات متخذة في واشنطن. كانت الشريحة العليا من إدارة بوش خالية خلواً ملحوظاً من أولئك الذين كانوا قد شهدوا معارك قتالية. فبوش كان قد خدم في الحرس القومي الجوي بتكساس ولكنه لم يكن قد شارك في أي معارك قتالية. أما تشيني فلم يكن قد سبق له أن أدى خدمة في الجيش، على الرغم من شغله منصب وزير الدفاع خلال حرب الخليج (الثانية) كان رمسفلد طياراً مقاتلاً في سلاح البحرية في الخمسينات ولكن ليس في زمن الحرب. لم تكن رايس وتنت قد أديا أي خدمة عسكرية. فقط باول سبق له أن شارك في معارك قتالية.

خلال شغله لمنصب رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة كان باول قد صاغ عقيدة باولية صياغة مهلهلة. عموماً كان يعني أن على الجيش أن يستخدم قوة طاغية ومربكة لضمان النجاح في أي استخدام للقوة أو عملية. كان يشعر بأن عقيدته قد تعرضت للتشويه والتقزيم حتى بات يبدو، من منظور العقيدة المشوهة، محارباً متردداً، عازفاً عن استغلال جميع الفرص، تواقاً إلى تجنب الاشتباكات العسكرية المحدودة. وبالفعل فإن عقيدته كانت أكثر حصافة بقليل: يتعين على الجيش أن يستخدم قوة حاسمة لبلوغ أهداف سياسية. ومع ذلك أقر باول في كتابه الأكثر رواجاً وبيعاً: رحلتي الأمريكية الصادر في ١٩٩٥ بذنب كونه محارباً متردداً،

محارباً رغماً عنه. كان قد رأى كثيرين ممن كانوا مستعدين للضغط على الزناد دون التأكد من حدوث ذلك بقوة حاسمة لتحقيق هدف سياسي ضروري، وعلى نحو متمتع بدعم الكونغرس وتأييد الجمهور.

واجهت پاول مشكلة أخرى يتصارع معها. فبعد سنة كاملة من شغله لمنصب وزير الخارجية، لم يكن قد نجح في بناء علاقة شخصية مع الرئيس بوش. لم يكن أي منهما يرتاح إلى الآخر. ثمة نوع من الشعور بالمنافسة كان يحوم في الأجواء الخلفية لعلاقتهما، نوع من التوتر ذي المستوى المتدني الحاضر على نحو شبه دائم. كانت استطلاعات الرأي تضعه في مستويات فلكية بوصفه رجل البلاد الأكثر إثارة للإعجاب. لأسباب شخصية وبعد إجراء حسابات أشارت إلى عدم وجود ضمانات في بحر السياسة الأمريكية، كان پاول قد قرر عدم خوض الانتخابات الرئاسة. غير أنه كان هو الرجل الحقيقي في الكواليس، الجنرال السابق وبطل الحرب، صاحب الصوت المعتدل الذي أبى خوض معركة الـ ٢٠٠٠ الرئاسية حين خاضها جورج دبليو بوش.

بوصفه وزيراً وجد پاول نفسه مجمداً في الغالب من جانب البيت الأبيض. موضوعاً في «الفريزر» أو «البراد» كما كان يقول، هو وآرميتاج، مازحيّن بين الحين والآخر. في الأسبوع السابق على هجمات ٩/١١، كانت مجلة تايم قد نشرت ما بدت مادة غلاف حاصلة على مباركة البيت الأبيض مصممة لتوجيه ضربة موجعة إلى پاول. كان العنوان: «إلى أين ذهبت كولن پاول؟» وجاء المقال مؤكداً أن پاول كان معزولاً، خارج سرب متشددي الإدارة العاكفين على توجيه الدفة في السياسة الخارجية.

سأل پاول ريتشارد إن هاس Richard N. Haas، وهو أحد معتدلي السياسة الخارجية الجمهوريين، وقد كان مديراً للتخطيط السياسي في الخارجية، عن رأيه بمقال التايم.

رد هاس: «إنه مديح. الشيء الوحيد الذي كان من شأنه أن يكون أسوأ هو إظهارك على أنك مسؤول ومنخرط. كان من شأن ذلك أن يشكل خازوقاً حقيقياً لك.»

أطلق پاول ضحكة مجلجلة.

حقاً، كانت سياسة الإدارة الخارجية غارقة فيما يشبه الفوضى قبل ٩/١١. كان الرئيس متركزاً على القضايا الداخلية والضريبية ولم يكن هناك أي خط واضح.

لاحظ پاول أيضاً أن بوش كان قد استمع باحترام إلى الإيجاز الشبيه بلعبة البولو في كروفورد وطرح بعض الأسئلة الواقعية العامة، غير أنه بقي ميالاً إلى العزوف عن الغوص عميقاً. لم يكن بوش، برأي پاول، دائباً على التنقيب في العمق.

مشغول البال بما كان يخطط له وكيف، أقدم پاول على الاتصال بالجنرال فرانكس. لم يكن قد تعرف على فرانكس في الجيش، نظراً لكونه أقدم بعقد من الزمن تقريباً، غير أنهما كانا، كلاهما، منتميين إلى الشبكة غير الرسمية للجنرالات السابقين والحاليين. وهكذا فإن پاول عقد عدداً غير قليل من المحادثات الهاتفية مع فرانكس. مثل هذا الاحتكاك عبر القنوات الخلفية من خارج التسلسل الرسمي للمراتب كان خطراً بالنسبة لكليهما، ولا سيما لفرانكس، الذي كان مضطراً لحماية نفسه وربما ملزماً بإطلاع رمسفلد على وجود مثل هذه المحادثات. عبر پاول الذي كان رئيساً لهيئة رؤساء الأركان المشتركة لدى وضع خطة الأوب رقم ١٠٠٢، عن قدر عميق من القلق على مسامع فرانكس من احتمال سماح الجيش بأن ينجر على اعتماد قوة أصغر مما هو ضروري.» «إياك أن تسمح بأن تصبح بالغ الهشاشة في ظل نظرية جديدة ما.» قال پاول محذراً. قد يكون التغيير - فكرة «التحويل» في قاموس رمسفلد - جيداً ولكن الواقعية هي نقطة قوة أي خطة عسكرية. أما الحديث عن الاكتفاء بإرسال قوة برية لا تزيد على١٠٥.٠٠٠، خُمس حجم خطة الأوب رقم ١٠٠٢ القديمة، فكان منافياً للمنطق، أمراً غير وارد. بدا لپاول أن التوجيه المعطى

لفرانكس هو: ليبقَ الحجم صغيراً! قلّصه إلى الحد الأدنى الذي يمكنك الفوز به!

أوضح فرانكس أنه كان ضابطاً عسكرياً قبل كل شيء، ولم يكن مستعداً لأن يخسر حرباً وهو يرى ما هو حاصل.

◆ ◆ ◆

في ١٧ كانون الثاني/ يناير، ٢٠٠٢، جاء فرانكس ورينوار لتقديم التكرار الرابع لخطتهما إلى رمسلفد .

سلفاً وبصراحة قال فرانكس إنهم وجماعة الاستخبارات كانوا قد قوّموا قوة الجيش العراقي مقارنة بحاله منذ ١٢ عاماً قبل حرب الخليج. كانت العقوبات الاقتصادية قد أحدثت بطئاً في صيانة المعدات، ومنعت العراقيين من تحديث قوتهم، مما أنزل ضربة كبيرة بقدرتهم الهجومية.

الأعداد: فيما قبل عاصفة الصحراء كانت ثمة سبع فرق حرس جمهوري، الآن ست فرق ـ انخفاض بنسبة ١٥ بالمئة. أما الجيش النظامي فكان يضم ٢٧ فرقة من قبل وأصبح الآن ١٧ فرقة انخفاض بنسبة ٣٥ بالمئة. تقلص عدد الطائرات التكتيكية من ٨٣٠ إلى ٣١٠ ـ انخفاض بنسبة ٦٠ بالمئة. أعداد كبيرة من الطائرات العراقية كانت جاثمة جثثاً هامدة بسبب افتقارها إلى قطع الغيار. كان عدد صواريخ الأرض جو قد انخفض من ١٠٠ إلى ٦٠. أما البحرية العراقية فلم تكن على الدوام سوى مزحة مؤلفة من ١٥ إلى ٢٠ قطعة. وقد أصبحت الآن قطعتين أو ثلاث قطع.

أكد فرانكس أن تأييد نظام صدام كان مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بتصور الشعب العراقي لمدى التزام الولايات المتحدة بمساعدته على الخلاص من هذا النظام. فكلما أصبحت الولايات المتحدة أكثر انخراطاً، كان من شأن شعب العراق أن يصبح أقل دعماً للنظام. وهذا الرأي المهم لم يكن مستنداً إلى معلومات استخباراتية

موثوقة مستمدة من داخل العراق بمقدار ما كان قائماً على افتراضات حول الطريقة التي ينبغي للناس أن يشعروا بها إزاء دكتاتور لا يعرف معنى الرحمة. كان شح المصادر الاستخباراتية البشرية الأمريكية داخل العراق يعني ضعف الدلائل المشيرة إلى نوعية الرأي الشعبي العراقي أو رد الفعل المحتمل على أي قوة غازية أمريكية متقدمة. كان الافتراض يقول إن العراقيين مستعدون للالتحاق بالركب إذ ما بدا أن الولايات المتحدة آتية. مهما كانت فضائله، فإن الرأي شكل دعماً لزخم الحرب ـ بدا وكأنه يوحي بأن من شأن مجرد اتخاذ الخطوات الأولى وإظهار التصميم أن يجعلا كسب الحرب سهلاً كشرب الماء. وكان من المعروف لدى الجميع أن اعتماد قوة أصغر حجماً كان أكثر جاذبية بالنسبة إلى الرئيس بوش من إبداء التصميم.

مكثِّفاً جملة استنتاجات وكالة الاستخبارات المركزية عن الاستحالة الافتراضية لقيام العمل السري بإسقاط صدام، قال فرانكس إن أياً من أطراف المعارضة وعناصرها لم يكن قادراً على التحرك بقدر من الاستقلالية يكفي للإحاطة بالنظام. كان لا بد للجيش الأمريكي من الانخراط إذا ما أراد الخلاص من صدام.

والآن، عند السلايد ١٣، قال فرانكس إن من شأن التسليم بصحة الافتراضات المتعلقة بتدهور أوضاع الجيش العراقي والإحاطة بالقدرة التي نتوفر عليها على صعيد نقل المعلومات، أن يجعلا الوقت الضروري لأي غزو قابلاً للتقليص إلى حد كبير في ظل الخطة الجديدة التي كان عاكفاً على تطويرها. ما أن يتخذ الرئيس قراره حتى يصبح قادراً، برأي فرانكس، على نشر القوة الأولية الضرورية في غضون نحو ٤٥ يوماً فقط ومن ثم ستكون هذه القوة، في غضون ٩٠ يوماً، جاهزة لبدء العمليات البرية. من شأن الحرب البرية أن تستغرق ١٥٠ يوماً حتى تنجز على نحو حاسم مهمة استبدال النظام. ثمة قوات إضافية ستتدفق في هذه المرحلة ومن شأن العدد الإجمالي للقوات أن يصل إلى نحو ٢٤٥,٠٠٠.

أضاف فرانكس أن التركيز في الخطة الجديدة سيكون على شرائح قوة النظام ـ القيادة، أدوات إيصال أسلحة الدمار الشامل، الحرس الجمهوري، الحرس الجمهوري (الرئاسي) الخاص، جهاز الأمن الداخلي.

في الخيار القديم الأكثر تفصيلاً المستند إلى خطة الأوب رقم ١٠٠٣، من شأن حشد القوة أن يستغرق ما يصل إلى نحو ستة أشهر. ومن شأن ذلك أن يفسح في المجال لعمليات جوية وبرية متزامنة. ومن ثم فإن الهجوم على النظام، عزله، وإسقاطه لن تستغرق سوى ٩٠ يوماً.

ولدى عرض السلايد رقم ٢٣، أعاد فرانكس تأكيد حاجته الماسة، في ظل أي من الخيارات، إلى كل من الكويت، قطر، عمان، والمملكة المتحدة للتمركز، وإلى العديد من البلدان الأخرى في المنطقة لأغراض التحليق.

وإلى أين من هنا؟ كان هذا السؤال المتعلق بالسلايد رقم ٢٤ الأخير. أفاد فرانكس بأنه كان يريد عرض الاعيب حرب هذه الخيارات ليؤكد أنه لم يكن يبيع رمسفلد فاتورة سلع. فأي لعبة حرب كانت مرشحة لاختبار هذه الأمور كلها. كان فرانكس يريد أيضاً توظيف العملية الجامعة للأطراف الخارجية، وكالة الاستخبارات المركزية، وغيرهما - لوضع مهمات محددة وإنجاز عمليات تخطيط ودراسة أكثر تفصيلاً لجملة الخيارات المتباينة.

طلب رمسفلد من فرانكس أن يعود إلى الرئيس في غضون نحو ثلاثة أسابيع للتحدث عن التحركات التمهيدية الواجب القيام بها.

كان بول وولفوفيتز، وهو المطلع على تفاصيل الإيجاز السرية، يعتقد بأن تمزيق النظام في نقاط مفصلية حتى قبل العمليات البرية كان من شأنه أن يكون ممكناً.

أما فرانكس ومخططوه فكانت الشكوك تساورهم. لم يكن القصف السابق قد

أوصل صدّاماً إلى الحافة، فضلاً على أنه كان يعتقد، على ما بدا، بأنه كان قادراً على التعايش مع أي حملة قصف ومقاومتها.

قال رمسفلد: «أريدك أن تطلع على بعض هذه المفاهيم.» بدا الوزير ميالاً إلى التسليم بأهمية القوة الكافية. ولكن ماذا عن نقطة الضعف الاستراتيجية في أثناء حملة طويلة، متواصلة كثيفة الاعتماد على القوات البرية؟ أولا تدعو الحاجة إلى قوة قادرة على تحقيق الأهداف بحسم خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً؟ ثمة في حال الإخفاق خطر الغرق في مستنقع آليات المبارزة لعمليات قتالية متواصلة مع مواجهة مشكلة التدهور المحتمل للتأييد الدولي.

« فترة الـ ٩٠ يوماً أطول مما ينبغي» قال فرانكس. القوة التي أوجزت الكلام عنها للتو هي الأخرى أكبر مما يجب. كان فرانكس منكباً على سلاسل العمليات للخروج بشيء أفضل. كانت الخطة موضوعة لهجوم إحادي تشنه الولايات المتحدة. لم يكن الفريق بعد قد درس الخطة أو أنجز الأعمال الميدانية للوقوف على طبيعة القوات التي يمكن لبلدان أخرى أن تساهم بها. بل ولم يكن معروفاً ما قد يكون توقعه منها معقولاً.

كانت الخطة تدعو إلى جبهة واحدة فقط، إلى اقتحام بري لجنوب العراق من الكويت، ثم التوغل شمالاً وصولاً إلى قلب بغداد. أثار فرانكس إمكانية فتح جبهة ثانية في الشمال للهجوم من تركيا.

طلب رمسفلد من فريق فرانكس متابعة العمل من منطلق جبهة الجنوب فقط، دون إهمال تزويده ببعض الأفكار عن كيفية احتمال مجيء القوات عبر تركيا.

كانت لدى فرانكس إجابة على السؤال المحير الذي كان رمسفلد قد طرحه في الشهر الماضي قائلاً:«ما الذي يمكن القيام به بسرعة، في وقت مبكر لا يتجاوز

نيسان/ إبريل أو أيار/ مايو؟» أفاد فرانكس بأن من شأن الحد الأدنى للقوة البرية اللازمة للبدء أن تبقى مؤلفة من نحو ١٠٥،٠٠٠. كان من شأن تحريك تلك القوة إلى المنطقة أن يستغرق ٣٠ إلى ٤٥ يوماً. وهكذا فإن من الضروري أن تمكنني من البدء بنقل القوات أواسط شباط/فبراير، إذا كنت تريد تنفيذ الأمر في نيسان/إبريل، أي بعد أربعة أسابيع.



وهناك في تامبا خلال هذه الفترة، أدرك فرانكس أن قضية الوقت، سواء أتطلب إيصال القوة إلى الشرق الأوسط ستة أشهر أم استدعى ثلاثة أشهر، كانت عقبة هائلة. رأى بعض المدنيين في وزارة الدفاع أن نشر القوة سراً قد يكون ممكناً. رد عليهم فرانكس مؤكداً أن ذلك من شأنه أن يتطلب خمس سنوات. لم يكن يعرف الوقت المتوفر للاستعداد؟ من المؤكد أن الوقت المتاح لم يكن بالأعوام. وهكذا فإن التحركات الكبيرة للفرق وحاملات الطائرات - وهي أمور ضرورية لأي حرب - كانت ستبقى مرئية بوضوح كبير جداً. وكجزء من عمليات التأثير قرر فرانكس أن من الممكن الانخراط في عملية تمويه مدروسة. أطلق على فكرته اسم «مسامير». كان من الممكن إرسال المزيد من القوة ولفت انتباه وسائل الإعلام واهتمامها، ثم تعود الأمور إلى حالتها، لن يحصل شيء فينغرس المسمار عميقاً.

تمثلت الفكرة بمخادعة صدام واللعب برأسه. برفع مستوى توقعات الهجوم وخفضها. كانوا سينفذون عمليات تحليق مكثفة في منطقة الحظر الشمالية. سيكونون «ناشطين» جداً كما كان يحلو لفرانكس أن يقول، ولا حرب بعد ذلك. قال فرانكس: «أردت أن يبقى جوني مستغيثاً بأعلى صوته طالباً النجدة والانقاذ من الذئب طوال الفترة الزمنية المتاحة لنا.» كان العراق هو جوني؛ كان العالم هو جوني، كان الإعلام والجمهور هما جوني.

طار رمسفلد إعجاباً بالفكرة.

كان فرانكس يرى أنّ ليس هناك أي مجال لتجنب المسامير التي لا بد لهم، إذن من استغلالها دون تردد. أراد أن يعجِّل بالإعداد قدر المستطاع. ينبغي دق المزيد من المسامير على نحو أسرع. يستطيعون، مثلاً تحريك مجموعة حاملة طائرات حربية ثانية إلى مياه الخليج الفارسي لاستعراض العضلات هناك لمدة خمسة إلى عشرة أيام، إطلاق طلعات جوية للتحليق فوق منطقة الحظر الجنوبية من الحاملتين كلتيهما، فدق مسمار مؤثر، ومن ثم جعل الحاملتين تغادران المنطقة. يمكن لهذا كله أن يمر دون أن يجر وراءه أي حرب، مع أمل أن يكون قد أبقى دماغ صدام مقلوباً رأساً على عقب.

8

جالساً في غرفته الصغيرة ذات العمود البنيوي في الوسط تماماً بالجناح الغربي، استغرق كاتب الخطب الرئاسية مايكل غيرسون Michael Gerson في تأمل مسودة خطاب حالة الاتحاد المقبل المؤلفة من ثماني صفحات التي كان قد أعطاها للرئيس قبيل عيد الميلاد.

توفرت للإدارة بعد ٩/١١، حسب اعتقاد غيرسون، ما أطلق عليه هذا الأخير اسم «لحظة مرنة، ملائمة للتعليم» - فرصة مناسبة للتثقيف والشرح، لإلقاء الدروس والمواعظ. كان العالَمُ قد تغير. كان لا بد للرئيس من أن يُطْلِع البلاد والعالم على ما كان حاصلاً، على ما كان يعتزم القيام به. يا لها من لحظة مثالية ونموذجية مناسبة لصياغة الرأي العام، قَوْلَبَتِه، وحَشْده؛ للعودة مرة أخرى إلى تأكيد حقيقة أن أمريكا كانت قد لمحت أطراف نوايا العدو؛ ولتسليط الضوء على واقع أن الإرهاب قد أصبح التهديد الماثل في الأعوام الخمسين القادمة. غير أن من شأن قوة الخطاب أن تدور حول أمور محدَّدة.

كان الرئيس قد طلب خطاباً طموحاً. كان راغباً في وضع النقاط على حروف القواعد الجديدة للُّعبة وفي الكشف عن الاتجاه الذي كان يتقدم نحوه على صعيد السياسة الخارجية. كان بوش يشعر، بحدس، أن ٩/١١ لم يكن حدثاً منعزلاً. كان طوفانُ الإنذارات وتقرير رقعة التهديد السري للغاية يشيان باحتمال أن يكون هجوم آخر وشيكاً.

لم يكن غيرسون مطلعاً على خفايا جميع أكثر المعلومات الاستخباراتية الواردة حساسية، غير أنه كان قد قضى ما يكفي من الوقت مع الرئيس في الأشهر التي

أعقبت ٩/١١ ليروز نظرته ويروزَ مزاجه. لم يكن الرئيس يكتفي بمجرد الكلام عن التصدي للتهديدات؛ كان يتحدث عن نوع من إعادة توجيه السياستين الخارجية والدفاعية الأمريكيتين. رأى غيرسون بوضوح أن هذه لم تكن مثل فترة الحرب العالمية الثانية، حين كان اي رئيس امريكي قادراً على انتظار قيام العدو بالهجوم فالرد عليه. لقد توقع بأنهما كانا قادرين على طرح هذه الصياغة بأجلى صورها للمرة الأولى في خطاب حالة الاتحاد.

إن مزاج غيرسون الودود، مع مسحة الأستاذ الجامعي العصبي، شارد الذهن، التي تحيط به، يحجب ذكاء حاداً، اذناً مستنفرة ونفّاذة في تعاملها مع العبارة الجديرة بالتذكر. كان قد تخصص في اللاهوت بكلية ويتون في ولاية إيلينوي، الكلية التي تخرج فيها الإنجيلي المعروف بيلي غراهام Billy Graham، وكان يعمل صحفياً متخصصاً في تغطية السياسة لدى يو اس. نيوز آند وورلدريبورت في نيسان/ ابريل ١٩٩٩ حين أقدم حاكم الولاية بوش حتى قبل أن كان قد أعلن ترشيحه شخصياً على تجنيده ليكون كاتب خطبه. كان بوش قد قال له: «أريدك أن تكتب خطاب إعلاني للترشح وخطاب المؤتمر وكلمتي في حفل التنصيب.» وافقه غيرسون لأنه اراد أن يساهم في تحميل الحزب الجمهوري رسالة تخص السياسة الداخلية. وهكذا فإن من المفارقات الساخرة أن غيرسون، وهو في السابعة والثلاثين من العمر الآن، قد أصبح كاتب خطب زمن حرب لرئيس زمن حرب.

إن غيرسون الذي يصف نفسه على غرار بوش بأنه مسيحي إنجيلي و «محافظ رحيم» ، معجب بعدم عزوف بوش عن غرس قناعاته الدينية واستنتاجاته الأخلاقية في الخطب. كان غيرسون قد طور أسلوباً، ما لبث أن صُقل عبر العديد من الخطب المرتبطة بالحادي عشر من أيلول/ سبتمبر التي كان قد دبجها لبوش، تميز بالتركيز على المبادئ الإنجيلية السامية والتواضع البسيط.

كان قد بذل جهداً كبيراً في كتابة مسودة خطاب حالة الاتحاد، لاماً خيوط حشد كبير من البحوث. كان قد أجرى مناقشات موسعة مع رايس ونائبها، هادلي، وأحال بعض المهمات على آخرين في جهاز كتابة الخطب في البيت الأبيض. طلب من مؤلف محافظ محترم في جهاز العاملين معه يدعى ديفيد فروم David Frum أن يبدع جملة أو اثنتين تلخصان السبب المسوّغ لمطاردة العراق.

رأى فروم أن العلاقة التي كان بوش يسعى إلى نسجها بين نظام صدام حسين و ٩/١١ كانت كامنة في رابطة الدول الراعية للإرهاب والإرهابيين غير الموالين لدولة واحدة. أطلق عليها اسم «محور الكراهية.» وقد أبرز العراق بالاسم في اقتراحه. كانت تلك عبارة لطيفة مشحونة بأصداء تعبير «قوى المحور» في الحرب العالمية الثانية.

تذكر غيرسون إنه كان، حين تم وضع اسم تشيني على البطاقة الانتخابية «مرشحاً لمنصب نائب الرئيس» صيف ٢٠٠٠، قد أثار موضوع الربط بين أسلحة الدمار الشامل والإرهاب في مناقشات داخلية أيام الحملة. كان ذلك هو المحور الحقيقي باعتقاد غيرسون. وهكذا فإنه قَلَبَ عبارة فروم من «محور الكراهية» إلى «محور الشر» موسعاً دائرة المفهوم، جاعلاً إياها أكثر نَحْساً، بل أشد شناعة. بدا كما لو أن صدّاماً كان وكيل الشيطان. وكان من شأن التزاوج بين نظامه المتوفر على أسلحة الدمار الشامل والإرهاب الدولي أن يضع العالم على طريق حرب الهرمجدون المدمرة التي لا تبقي ولا تذر.

حين قرأتْ رايس مسودة مبكرة للخطاب، سرها أن يكون الرئيس مقبلاً على إثارة الترابط بين أسلحة الدمار الشامل والإرهاب. فتلك كانت قضية كان بوش قد أرجاها في خطابه أمام الكونغرس يوم ٢٠ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، لأنه لم يرد إثارة الذعر في البلاد أكثر مما كان حاصلاً سلفاً؟ أما اعتبار الترابط «محوراً» فكان ذكياً وعده «محوراً للشر» فائق الذكاء واستثنائيه حسب رأيها.

كانت رايس ومعها هادلي على علم بالتخطيط السري للحرب على العراق، وكانا يخشيان من أن يبدو تسليط الضوء على العراق وحده بوصفه تجسيداً لترابط «محور الشر» بين أسلحة الدمار الشامل والإرهاب إعلاناً للحرب.

بقيت رايس على صلة باللعبة الداخلية المفضلة في واشنطن: متى تبدأ الحرب على العراق؟ كانت تريد حماية التخطيط السري والمتوجس الشبيه بالسير على الماء في لعبه بولو الماء للحرب على العراق، غير أنها لم تكن راغبة في العزوف عن مناقشة الخطر العام المتمثل بتزاوج الإرهاب مع أسلحة الدمار الشامل. وهكذا فإنها وهادلي اقترحا إضافة بلدان أخرى. كانت كوريا الشمالية وإيران مرشحتين واضحتين لأنهما، كلتاهما، دأبتا على دعم الإرهاب والسعي إلى حيازة أسلحة الدمار الشامل.

أعجب الرئيس بفكرة البلدان الثلاثة ـ العراق، إيران، وكوريا الشمالية.

تردد هادلي بشأن إقحام إيران. فهذا البلد قائم على بنية سياسية معقدة فيه رئيس للجمهورية منتخب ديمقراطياً، على الرغم من أن السلطة الفعلية محتكرة بأيدي المتطرفين الدينيين وآيات الله. وافقته رايس بداية وشعرت بالقلق من احتمال التعرض للنقد بسبب إخفاق الرئيس في فهم حقيقة أن إيران مختلفة، وأنها تنعم بديمقراطية ناشئة، في بداية الطريق.

اقترح رايس وهادلي حذف إيران. وقال هادلي إن من شأن الأمر أن يكون ملتهباً.

غير أن الرئيس قال: «لا! أريد إيرادها» لا بد من الإبقاء على اسم إيران في الخطاب. وفي مقابلة جرت معه لاحقاً، تذكر الرئيس أن أسباباً محددة دعته إلى ذلك، قائلاً: «من المهم جداً لأي رئيس أمريكي في هذه النقطة من التاريخ أن

يتحدث بوضوح ليس بعده وضوح عن الشرور التي يواجهها العالم. لا جدال حول ذلك، مؤكد أن كوريا الشمالية، العراق، وإيران هي التهديدات الأكبر للسلم في ذلك الوقت.» ثم أضاف «صحيح أن إيران فريدة لأن فيها حركة ناشطة مطالبة بالحرية ولأن إيران هذه منفتحة نسبياً بالمقارنة مع بلدان أخرى خاضعة لحكم متدينين، ثيوقراطيين، كما هو معروف، وذلك بفضل الانترنت، الشتات هنا من الولايات المتحدة وإيران.»

« إن قيام رئيس جمهورية الولايات المتحدة بالإعلان صراحة عن أن إيران هي مثل العراق وكوريا الشمالية تماماً - بعبارة أخرى ثمة مشكلة، نعلم أن لديكم مشكلة، نسمع بأن لديكم مشكلة - وعن أن الرئيس مستعد لوضع النقاط على الحروف، يشكل جزءاً من الأسلوب الصحيح للتعامل مع إيران. إنه الأسلوب الكفيل بأن يلهم أولئك الذين يعشقون الحرية داخل ذلك البلد.»

رداً على سؤال عن رأيه حول رد الإيرانيين المحتمل على عدهم جزءاً من محور (الشر) أجاب الرئيس: «أشك في أن يكون الطلاب والإصلاحيون ودعاة التحرير داخل إيران قد امتعضوا من ذلك. هنا بالذات يتحدث الرئيس بكثير من الوضوح عن طبيعة النظام وعن آيات القسوة والقمع التي يتعين عليهم أن يعيشوا في ظلها. الآن أنا واثق من أن القادة لم يعجبهم كلامي.»

« دعوني أطمئن على أنكم فهمتم ما قلته للتو عن دور الولايات المتحدة. أنا مؤمن بأن الولايات المتحدة هي منارة الحرية في العالم. وأنا مؤمن بأننا مسؤولون عن رفع شأن الحرية مثلما نحن مسؤولون عن حماية الشعب الأمريكي، لأن الأمرين يسيران يداً بيد. لا، من المهم جداً أن تفهموا ذلك عن رئاستي.»

ذكَّرتُه بأننا كنا، في صيف عام ٢٠٠٢، قبل حرب العراق، قد ناقشنا هذا حين قال: «سوف ألتقط فرصة تحقيق أهداف كبرى.»

رد قائلاً: «لست بصدد الضغط عليك، أقول إن الحرية ليست هدية أمريكا إلى العالم. إن الحرية هي هبة الله للجميع في العالم. أنا مؤمن بذلك. في حقيقة الأمر، كنت أنا الشخص الذي كتب ذلك السطر، أو قاله. لم أكتبه، نطقت به فقط في أحد الخطب. ثم ما لبث أن أصبح جزءاً من الكلام الدارج والمتداول. وأنا مؤمن بذلك. كما أنني مؤمن بأن علينا واجب تحرير الناس. آمل أن نتمكن من أن نفعل ذلك عسكرياً، غير أن علينا واجباً.»

سألته عن احتمال تمخض ترجمة مثل هذه القناعة إلى سياسة عن حالة قد تبدو «أبوية على نحو خطر» بنظر الناس في بلدان أخرى.

فرد قائلاً: «شريطة ألا تكون الشخص المرشح للتحرير» مضيفاً أنه كان يريد التعاون مع قادة عالميين آخرين على صعيد استراتيجية التحرير هذه، من أمثال قادة بريطانيا، اسبانيا، وأستراليا. «Tony Blair، خوزيه ماريا آزنار Jose maria Az-nar، وجون هلوارد John Howard. جميعاً يشاطروننا الحماسة نفسها للحرية. قد يبدو الأمر أبوياً لبعض النخب، ولكنه ليس أبوياً بكل تأكيد بنظر أولئك الذين نقوم بتحريرهم. فأولئك الذين يصبحون أحراراً يقدرن الحماسة. يثمنون الانفعاع العاطفي عالياً.



مع مواصلة السير قُدُماً على طريق إنتاج مسودات خطاب حالة الاتحاد، أحس غيرسون بالفرح لأنهما (هو والرئيس) كانا قد اهتديا إلى لغة قوية. تقليدياً جرت العادة على اعتبار البلدان الخطرة «أمماً مارقة» أو «دولاً مارقة». كان غيرسون يرى التعبير مفرط اللطف، ومخفّفاً للمشكلة، كما لو أن هذه الدول أو الأمم كانت فقط قد بالغت في احتساء الخمر والسكر. أما عبارة «محور الشر» فقد بدت صدى لإعلان الرئيس دونالد ريغان الاستفزازي المثير في ١٩٨٣ أن الاتحاد السوفيتي كان

«إمبراطورية شر»، عبارة حددت مسار الحرب الباردة في الثمانينيات مع بقاء ريغان مصراً على انعدام التكافؤ بين روسيا السوفيتية الشمولية والولايات المتحدة.

ظل بوش في حيرة من أمره إزاء البلدان المنتجة للايديولوجيات والناس الذين يستهدفون قتل الأمريكيين في هجمات إرهابية. ظل يتساءل عن الطريقة التي تستطيع الولايات المتحدة بها إصلاح مثل هذه المجتمعات، ويعبر عن الرغبة في تأييد عمليات تعزيز الديمقراطية وحقوق الإنسان في العالم الإسلامي. ما من رئيس كان قد قال هذا من قبل. كان ذلك جزءاً من التغيير الحاصل في تفكير الرئيس والعالم الذي كان غيرسون قد شهده منذ هجمات ٩/١١ ، وقد كان برأيه، تغييراً شبيهاً ببدايات الحرب الباردة من حيث العمق والجذرية. وهكذا فإن عبارات الدعوة إلى تعزيز الديمقراطية والقيم الإنسانية الأخرى أضيفت إلى الخطاب.

في جناح نائب الرئيس، على الطبقة الثانية من مبنى المكتب التنفيذي القديم، كان ليبي، هو الآخر، مشغولاً بمسودات مبكرة. كانت إحدى الطبعات قد أتت على ذكر العراق، ولكن دون قول شيء عن «محور كراهية» أو «محور شر». عندئذ ظهرت العبارة في مسودة تضمنت ذكراً للعراق فقط. خشي ليبي ايضاً من ان يوحي ذلك بتحرك وشيك، وَفضَّلَ إضافة دول أخرى مثل كوريا الشمالية. سوريا أيضاً، تلك التي كانت للولايات المتحدة علاقات دبلوماسية معها، غير أن رأيه لم يفد في إقناع رايس وهادلي.

كان الصراع مع اللغة الواجب استخدامها عن إيران من نصيب هادلي وغيرسون. كان من شأن إيران أن تكون جزءاً من المحور، ولكن مع الالتزام بضرورة تمييزها عن العراق. جاءت اللغة التي "فبركاها" على النحو التالي: «تتمادى إيران بعدوانية في السعي إلى حيازة هذه الأسلحة وتصدر الإرهاب، في حين تمارس أقلية غير منتخبة خنق أمل الشعب الإيراني وتطلُّعه إلى الحرية.» شعر هادلي بأن هذا كان منسجماً مع سياسة الإدارة الرامية إلى التواصل مع الإصلاحيين.

لم يضطلع كارل روف، كبير مستشاري بوش وأحد أساتذة الاستراتيجيات، بأي دور في عملية اتخاذ القرار الخاص بالتخطيط للحرب، ولكنه حضر اجتماعات إعداد الخطاب مع الرئيس. رأى أن «محور الشر» كان شعاراً، بياناً يعلن للملأ أن سياسة الولايات المتحدة الخارجية كانت قد تغيرت، أن من شأن البلد الآن أن يحمل رسالة عظيمة. اعتقد روف أن الرسالة كانت كبيرة، جديدة، ومختلفة. كانت الحرب على الإرهاب ستتسع لتشمل دولاً مارقة، وكانت القائمة ستشكل قضية السياسة الخارجية المهيمنة والطاغية زمناً طويلاً مع بقاء بوش رئيساً. تصور روف، وهو الواثق من نفسه، بل وحتى الطاووس البالغ الثانية والخمسين من العمر، أن من شأن المحور أن يكون إحدى التركات التي كان بوش سيورثها لخَلفه. صحيح أن ذلك الخلف لم يكن معروفاً، إلا أن روف كان واثقاً بأن تاريخ رحيل بوش هو ٢٠ كانون الثاني/يناير، ٢٠٠٩، بعد خدمة فترتين.

سياسياً، كان من شأن الأمر ان يعقّد حياة بوش ـ وحياة روف. تمثل السؤال الأول بالتالي: لماذا تبقى مصراً على خفض الضرائب، الا ترى أننا في حرب؟ في أي حرب أخرى قام الرئيس والكونغرس برفع الضرائب. لن يلبث بوش أن يطلب وصفة مكاسب دوائية قوية في نظام الرعاية الصحية لصالح المسنين. كيف يمكن لذلك ـ لمتابعة السياسة كما هي مألوفة ـ أن يستمر ونحن في حرب؟ بقدر كبير من الصعوبة، حسب رأي روف. اما جوابه الآخر فكان أن ٩/١١ كان قد أعطى بوش الدفع الذي كان هو بحاجة إليه في النظام السياسي.

بعيد ٩/١١ كان بوش قد قال لروف: «تماماً كما جرى استنفار جيل أبي في الحرب العالمية الثانية، يجري الآن استنفار جيلنا. ثمة سبب لوجودي هنا، وهذه هي الطريقة التي يحُكم بها علينا.»

ما يقرب من ثلثي الشعب الأمريكي رأوا أن بوش قائد قوي. قد يكونون

معترضين على أدائه كرئيس، قد يخالفون سياساته، أو قد لا يكونون معجبين به شخصياً، غير أن أي قائد قوي كان يستطيع عموماً أن يسود ببرنامجه، بأجندته، بجدول أعماله إذا ما صمد ودافع عن هذا البرنامج. إذا لعب لعبة السياسة، بعبارة أخرى. ومن المعروف أن لعبة السياسة تشتمل على تشغيل الدواليب في الحملات، في وسائل الإعلام في الكونغرس، وعلى صعيد الاتصالات.

برأي روف كان بوش يبلغ الوطن عبر بيان محور الشر رسالة تقول: «لا نستطيع أن نعود إلى النوم مرة آخرى.»

◆ ◆ ◆

قبل موعد قيام الرئيس بإلقاء الخطاب بثلاثة أو أربعة أيام، أرسل البيت الأبيض عدداً من المسودات إلى وزارة الخارجية للمراجعة. رأى پاول وآرميتاج أن الخطاب كان مفرطاً في كآبته. كانت إحدى الجمل تتحدث عن وجود ١٠٠,٠٠٠ إرهابي مدرب مازالوا طليقين. اتصل پاول برايس وقال لها إن العدد غير قابل للبرهنة. جرى تغييره إلى «عشرات الآلاف.»

قام پاول، الذي شعر أن ريفان كان ناجحاً بسبب تفاؤله واندفاعه المشجع اللذين كانا يميزان خطبه في المقام الأول، بإثارة موضوع كآبة الخطاب مع بوش في حفل عشاء نادي ألف ألف مساء السبت الواقع في ٢٦ كانون الثاني/يناير. ثم قال إن بوش كان قد أضاف بعض الفقرات المتفائلة إلى ما قبل الخاتمة.

في المسودات التي راجعها پاول وآرميتاج، كانت البلدان الثلاثة واردة في جملة «محور الشر» هَمْهَم پاول وقال لآرميتاج: «سيتعين علينا شرح هذه النقطة» غير أن العبارة لم تصدم أياً من الرجلين على أنها مشكلة. رأى پاول أنها جملة ذكية ولكنها لم تكن بمستوى عبارة «أنا برليني Ich bin ein Berliner» هل كانت منافية لما

سبق له أن سمعه صادراً عن بوش؟ لا. إنه خطاب حالة اتحاد لا أكثر، وستبقى العبارة مدفونة هناك. وهكذا فإن پاول لم يقدم أي مقترحات إضافية.

بعد نحو عامين قال رمسلفد في إحدى المقابلات إنه ربما لم يكن قد رأى الخطاب سلفاً «اظن انني لم افعل، غير اني لا اعرف يقيناً» او بانه لم يبدأ إلا في وقت متأخر من العهد بتلقي الخطب الرئاسية قبل وقت يكفي لتقديم التعليق وإبداء رد الفعل. « ثمة أسلوبان لرؤية الأشياء سلفاً. الأول هو حين يصلك جاهزاً، وتجده على الطابعة عن بعد ومطلوب منك أن تكون مستعداً للتعليق عليه. أما الثاني فهو حيث تكون أمام ٥ أو ٦ مسودات وقد يصل العدد إلى ١٥ ولديك فرصة تمكنك من أن تضيف.» ثم قال إنه لا يتذكر شيئاً عن تفاصيل مسودات محور الشر، وأضاف بغرابة، «ذلك الخطاب لم يكن عائداً لميداني انا بشكل خاص»



يبقى خطاب حالة الاتحاد أمام الاجتماع المشترك لمجلسي الكونغرس طقساً سنوياً، متلفزاً على النطاق القومي يتابعه جمهور عملاق. ما يقرب من ٥٢ مليوناً من الأمريكيين شاهدوا خطاب ساعة الذروة يوم الثلاثاء الواقع في ٢٩ كانون الثاني/ يناير، وهو الجمهور الأكثر عدداً منذ خطاب حالة اتحاد القاه كلنتون في عام ١٩٩٨ في اوج زحمة فضيحة مونيكا لوينسكي الجنسية Monica Lewinsku. وطبقاً للعادة، قام بوش بدعوة عدد من الشخصيات المرموقة التي جلست مع السيدة الأولى لورا Laura Bush بوش في الشرفة العلوية. كان بينها حميد قره ضاي Hamid karzai، زعيم أفغانستان المؤقت الجديد الذي كان قد تولى المنصب قبل خمسة أسابيع.

بدأ بوش خطابه بإطراء قره ضاي والحملة العسكرية بقيادة الولايات المتحدة التي أطاحت بالطالبان، غير أن مهمته الحقيقية تمثلت بتحديد معالم المستقبل. فأهدافه العظيمة كانت، حسب تعبيره، هي استئصال التهديدات التي يشكلها

الإرهابيون وأنظمة الحكم الدائبة على السعي لامتلاك أسلحة الدمار الشامل. كَرَّس جُمْلَة واحدة لكوريا، أخرى لإيران، وخمس جمل للعراق.

قال بوش: «مثل هذه الدول، مع حلفائها الإرهابيين، تشكل محوراً للشر، عاكفاً على التسلح لتهديد سلم العالم. وعبر سعيها إلى حيازة أسلحة الدمار الشامل تمثل هذه الأنظمة خطراً جدياً ومتنامياً.»

ثم تعهد قائلاً: «سوف لن أنتظر الأحداث فيما الأخطار تتجمع.»

بدا زَخَمُ هذه الجمل موحياً بأن العراق، إيران، وكوريا الشمالية كانت في نوع من حالة من الاتفاق المقدس ودائبة على العمل كحلف ثلاثي شبيه بالمحور الألماني - الإيطالي - الياباني في الحرب العالمية الثانية. شعر غيرسون بأن عليه أن يتحمل مسؤولية هذا الغياب للوضوح.

أما أطروحة دعم الديمقراطية، سيادة القانون، حرية التعبير والكلام، والتَّسامح الديني، وحقوق النساء في العالم الإسلامي فقد تعرضت للتمييع في الطبعة الأخيرة للخطاب، مع أن بوش تحدث بنبرة متفائلة قائلاً: «ستظل أمريكا على الدوام واقفة بثبات في صف متطلبات الكرامة الإنسانية غير القابلة للمناقشة.»

اختتم بوش خطابه قائلاً: «نواصل المسيرة متمسكين بأهدافنا. لقد عرفنا ثمن الحرية. لقد أظهرنا قوة الحرية ونفوذها. وفي هذا الصراع الكبير سوف نرى، يا إخوتي الأمريكيين، انتصار الحرية بكل تأكيد.»

كان الرئيس قد نطق بـ ٦٣ فقرة طويلة خلال ٤٨ دقيقة. كانت رايس واثقة من أن العنوان كان سيدور حول رغبة بوش في الديمقراطية والتغيير السياسي في الشرق الأوسط - أمر لم يسبق لأي رئيس جمهورية أن أكده من قبل، باعتقادها.

◆ ◆ ◆

سارعت وسائل الإعلام ووكالات الأنباء إلى الانقضاض على عبارة «محور الشر» وتلقفها. جاءت العبارة حاملة مفهوماً جديداً، خاضعاً للتفسير. هل كانت البلدان الثلاثة متشابكة بطريقة ما لم تكن معروفة من قبل؟ هل نحن أمام قائمة أهداف حرب بوش؟ كان الرئيس قد رفع الرهانات. كانت لغة راعي البقر «اذهب واقرف رقابهم!» قد وضعت ثلاثة بلدان نصب عينه، ولا سيما غريم أبيه الأكثر استفزازاً، صدام حسين. تحدث البيت الأبيض عن أن الحرب لم تكن وشيكة، وحاول دونما حماسة أن يلفت الأنظار إلى أن «المحور» لم يكن سوى الترابط بين الأسلحة والإرهاب، بعيداً عن أن يعني تشابكاً بين البلدان الثلاثة الوارد ذكرها بالاسم. غير أن قوة العبارة، وهي مشحونة بأصداء من الحرب العالمية الثانية ورونالد ريغان، طغت على كل شيء آخر.

لم يَغُصْ جورج تنت عميقاً في كلمات بوش. كَتَبَةُ الخطب يكتبون الخطب، تلك هي وظيفتهم. لم ير أي تحول حقيقي في التركيز. تابعت الوكالة تركزيها على الحرب ضد الإرهاب في أفغانستان وعلى صعيد العالم كله.

كذلك لم يكن نائب رمسفلد، وولفوفيتز، قد اطلع على الخطاب سلفاً. فوجئ به، إلا أنه رأى أن بوش كان قد دق إسفيناً في الأرض. كشف الخطاب عن أن الرئيس كان يصغي إلى بعض الأمور التي كان هو ورمسفلد يقولانها عن الصلة بين أسلحة الدمار الشامل والإرهاب. بداية كان قد تساءل عن مدى انطواء ربط البلدان الثلاثة ببعضها على معنى، إلا أن أحداً ما كان لينتبه كثيراً لولا الصورة المجازية القوية. مرة أخرى، رأى وولفوفيتز مدى أهمية اختطاف العناوين والسطو عليها، فتذكر أن الأكاديميين كثيراً ما كانوا يخفقون في هذا. إن المبالغة في التبسيط كانت مطلوبة في ظل ثقافة الرسائل الصوتية الوجيزة. سرعان ما بات وولفوفيتز يرى عبارة «محور الشر» منعطفاً حاسماً. كان بوش قد حدد المشكلة بلغة توراتية بليغة دون الالتزام أمام الملأ بأي حل خاص.

طار دان بارتلت Dan Bartlet، مـدير مكتب الاتصـالات في البـيت الأبيض، فرحـاً. يالهـا من عبـارة! خمـسة مـقاطع فقط! يا إلهي! كان بارتلت هذا، وهو في الثلاثين من العمر، قد التحق عام ١٩٩٤ بحملة بوش الانتخابية لشغل منصب حاكم ولاية تكساس، فور تخرجه في الجامعة، وبقي يعمل معه منذ ذلك التاريخ. استطاع أن يرى أن من شأن عبارة «محور الشر» أن تصبح شعاراً، عنواناً تاريخياً، متمتعاً بقدر واضح من الصراحة بل وحتى الجرأة. جاءت صرامة طرحها دونما تردد على الطاولة قادرة على اختراق الثقافة. كثيراً ما ظل كهنوت السياسة الخارجية ورهبانها يحاججون قائلين إن الدبلوماسية والسياسة كانتا تعنيان نوعاً من الصدى، نوعاً من الضجيج الذي لا معنى له، بعبارة أخرى. وظل بارتلت يسخر من هؤلاء مؤكداً أن العكس صحيح. فالحرب بين الخير والشر قائمة على قدم وساق.

فوجئ باول بالتركيز الشديد على العبارة، وسرعان ما أدرك أن من شأنها أن تتحول إلى جدول عمل إلى أمد غير قريب. ثمة كان كثير من اللغط في الأوساط الدبلوماسية؛ فالكلمات كانت نواقيس إنذار مجلجلة في سائر زوايا الأرض. وهكذا فإنه - باول - ما لبث أن أثار الموضوع في أحد اجتماعات كبار أركان الوزارة بعد يومين من الخطاب. قال باول: «إن كلمات الرئيس سياسة. تلك هي الحقيقة. سمعنا الخطاب. ليس ثمة أي شيء إضافي يمكن أن يُبحث أو يُناقش.» لم يكن يريد سماع أحد وهو يقدم تفسيره أو توصيفه، فخرج من الاجتماع قائلاً: «ما أراد الرئيس قوله هو...».

◆ ◆ ◆

بادرت البلدان الثلاثة إلى الإنكار. علق نائب الرئيس العراقي قائلاً: «إن تصريح الرئيس بوش غبي.» قرأ بوش تقريراً عن اجتماع كبار أركان باول كان يوحي بطريقة غير مباشرة، بأن الرئيس قد يتعين عليه أن يتراجع. تحدث مع رايس التي كانت ستلقي خطاباً يوم الجمعة في ذلك الأسبوع.

« اذهبي إلى هناك وكرري هذا!» قال الرئيس لرايس: «إننا جادون حول الأمر لسنا مستعدين للتخلي عن الموضوع، لن نتراجع!».

كان خطاب رايس المقرر إلقاؤه في مؤتمر الحركة السياسية المحافظة (السي. بي. إي. سي. CPAC) وهذا اجتماع سنوي كبير لقادة ونشطاء محافظين، مكتوباً من قبل، فاستدعت كتبة الخطب عندها، ولم يكن لديها سوى سويعات من الوقت، وطلبت منهم، إضافة مواد قوية عن البلدان الثلاثة جميعها.

قالت: لهم: «لابد للكلام من أن يكون واضحاً وضوحاً مطلقاً» وأوجزت باختصار ما كانت تريده. تزاحم الكتبة وانكبوا بنشاط على إعادة صياغة الخطاب، متناغمين بدقة مع ما كان بوش قد قاله مساء يوم الثلاثاء عن دول المحور.

انقضّتْ رايس على الصياغة الجديدة المعدلة وهي تستقل السيارة، واستعرضتها خلال المشوار القصير إلى آرلنغتون، فيرجينيا.

قالت: رايس: «ستقوم دولتنا بتوظيف كل ما لديها من قوة لحرمان أخطر القوى في العالم من أخطر الأسلحة في هذا العالم.» قلبت ترتيب البلدان وهي تلخص التهديدات التي كانت كل منها تمثله، تهديداً بعد آخر، واضعة كوريا الشمالية على رأس القائمة وموردة كلاً من العراق وإيران بعد ذلك.

أضافت رايس: «كما قال الرئيس يجب علينا ألا ننتظر الأحداث فيما الأخطار تتجمع، ولن نفعل.»



تمكن معلق في الواشنطن بوست يدعى تشارلز كراوتهامر، من قراءة ما بين سطور خطاب بوش، إذ سارع إلى وصف الكلمة قائلاً إنها «خطبة مذهلة بجرأتها. كان العراق هو موضوع الخطاب. إذا كان ثمة أي جدل داخلي جدي داخل الإدارة

حول ما ينبغي عمله بشأن العراق، فإن الجدل بات محسوماً. كادت الكلمة تصل إلى حد الاشتمال على إعلان للحرب.»

ثمّن الرئيس عالياً التأثير الذي أحدثته عبارة «محور الشر» كما تذكر لاحقاً. إنها مناسبة «قادرة على إحداث نوع من التناغم.» جاءت أعلى بكثير من مستوى الصوت العادي. «عندما حررتُها، أو عندما نَطَقْتُ بها، لا أذكر أن أحداً قال لي: "بالمناسبة، يا سيادة الرئيس، حين تقول محور الشر، إنما تحدد العناوين، تحتكرها، لم تكن إلا واحدة من العبارات التي أسرت.»

حققت هدفاً مزدوجاً لصالح بوش. من جهة بدت متشددة، صارمة. منذ ريغان، لم يكن أي رئيس قد لوح بالسيف بمثل هذه الوقاحة. ومن جهة أخرى، أدى الخطاب إلى طمس وجهة التركيز عن طريق إضافة كوريا الشمالية وإيران، موفراً مزيداً من الأغطية المموّهة لعملية التخطيط السري الجارية على قدم وساق من أجل تنفيذ حركة سرية، وحرب في العراق.

9

كان رمسفلد حريصاً على عدم إضاعة الوقت. ففي يوم الجمعة الواقع في الفاتح من شباط/ فبراير، بعد ثلاثة أيام من خطاب حال الاتحاد الذي اعتبره رمسفلد هذا فيما بعد «ليس في ميداني على نحو خاص» قابل فرانكس مرة أخرى في البنتاغون. كانت هذه عملية التكرار الخامس لتقويم القائد. أبلغه فرانكس بأنه بات الآن متوافراً على خطة حرب على العراق قابلة للتنفيذ بوصفها عملية اجتياح أحادية تضطلع بها الولايات المتحدة وحدها. خطة الأوب رقم ١٠٠٣ صارت تدعى الآن «خطة الإقلاع المولّد» - كان من شأن القوة اللازمة لخوض الحرب أن يتم توليدها كلها في المنطقة قبل بدء عجلة الحرب بالدوران.

من شأن خط الزمن، بَيَّنَ الجنرال، أن يكون ٣٠ يوماً لإعداد المطارات وتخزين المعدات سلفاً «عوامل التمكين في المسرح». ومن ثم كانوا سيبادرون، على امتداد الأيام الـ ٦٠ إلى نقل القوة إلى المنطقة. وبعد فترة الـ ٩٠ يوماً هذه كان من شأن مستوى حجم القوة أن يصل إلى نحو ١٦٠,٠٠٠. وبعد ذلك كانت فترة تصل إلى نحو ٢٠ يوماً من عمليات القصف الجوي العدواني ستبدأ تمهيداً لاقتحام العراق براً. كان من شأن إنجاز العمليات القتالية والانتقال إلى المرحلة الرابعة - مرحلة إشاعة استقرار عراق محتل - أن يستغرق ١٢٥ يوماً. وفي أثناء تلك المرحلة كان الجزء الباقي من القوة سيصل، بما يرفع حجمها إلى ٣٠٠,٠٠٠.

كانت هذه هي عملية الحشد الكبرى، وهي عملية نشر ذات شأن رغم أنها ذات عدد أقل من عاصفة الصحراء. ومع ذلك فإن فرانكس كان قد اختزل الفترة الزمنية

السابقة لبدء القتال إلى النصف من ١٨٠ إلى ٩٠ يوماً، محققاً تحسناً كبيراً.

أوضح فرانكس الأمر قائلاً: « ليس ذلك هو اللغز؛ ليست تلك هي المسألة.» فالسؤال الأهم كان متمثلاً بـ: في أي منعطف من مسيرة الحشد كانوا سيصبحون جاهزين لخوض الحرب؟ كان جوابه: بعد نحو ٤٥ يوماً من بدء المرحلة الثانية، فترة نقل القوة البالغة ٦٠ يوماً حيث يكون لديهم ١٠٥،٠٠٠ على الأرض، بدلاً من العدد الكامل البالغ ١٦٠،٠٠٠.

استوعبْ رياضيات ذلك كله، قال رمسفلد: ومتى يطيب لكم أن تبدؤوا؟

نبدأ؟ سأل فرانكس. مستفيداً من الدروس التي تعلمها من أستاذ الأسئلة، دار حول الطاولات ورد بسؤال: مالذي يعنيه ذلك؟

حسناً، القوة البرية، قال الوزير.

رد فرانكس قائلاً: « لا أريد للقوة البرية أن تكون الأولى التي تدخل.

لا، بوضوح، قال رمسفلد، نحن ميالون إلى استخدام القوة الجوية.

لا، سيدي، قال الجنرال، ذلك أيضاً ليس صحيحاً، كان يريد كل الأشياء متزامنة - أو متزامنة تقريباً. أفضى ذلك إلى نقاش حول من وماذا يدخل أولاً، أو ثانياً. حتى وإن كانوا يسعون إلى التحرك المتزامن.

كذلك دخلوا في نقاش حول كيفية توفير إمكانية ضغط الزمن اللازم لحشد القوة الأولي - بما يمكن من «بداية جارية» - بسبب الجهود السرية، غير المرئية الجارية على قدم وساق.

تطرقت ندوة التخطيط للحرب أيضاً إلى جملة أسئلة « وماذا إذاً...؟» - جملة الأمور السلبية التي يمكن أن تحدث، يمكن لأحد الأمور السيئة جداً أن يكون

الإخفاق في السيطرة على الجزء الغربي من العراق حيث يُفترض أن تكون صواريخ سكود سيئة السمعة منشورة. كان العراق قد أطلق عدداً من صواريخ سكود إلى داخل إسرائيل والعربية السعودية في أثناء حرب الخليج (الثانية). من شأن ذلك أن يشكل «عامل تمزيق استراتيجي» حقيقي برأي فرانكس، حدثاً بالغ الأهمية والحسم قادراً على تغيير الاستراتيجية كلها والجدول الزمني من أساسه. ماالسبيل إلى تجنب ذلك؟ من شأن أحد الأساليب أن يتمثل بالسيطرة على غرب العراق، على نحو ٢٥ بالمئة من مساحة البلاد. وأضاف الجنرال أن إحدى الأفكار تقول بجلب فوج فرسان مدرع مؤلف من نحو ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ جندي إلى الغرب عبر العقبة الأردنية، التي هي ميناء على مسافة ٢٠٠ ميل من زاوية العراق الجنوبية الغربية.

قال فرانكس إن رد فعل واحدة من وحدات كوماندو قوات العمليات الخاصة «في الطرف العالي» كما كان الجنرال يسميها، كان قد جاء على النحو التالي: انتظروا دقيقة واحدة! هاكم ما كانوا قد تعلموه في أفغانستان! ماذا لو أدخلنا قوات عمليات سرية إلى الغرب قبل أن نمكن صداماً من معرفة أن الحرب قد بدأت؟ ربما لن يصدق صدام أن الحرب قد بدأت إلا بعد انهيال صواريخ توما هوك بعيدة المدى وتفجيرها في قلب بغداد، كما كان قد حصل في ١٩٩١.

كان لدى رمسفلد خط مباشر آمن يوصله بفرانكس، كانا يتكلمان بانتظام، بل يومياً، حتى عدداً من المرات في اليوم. واصل الجنرال فلفلة الجنرال بالأسئلة، دائباً باطراد على رفع سقف التوقعات. كثيراً ما كان فرانكس يقول: «لا أعرف» أو «يتعين علي أن أدرس الأمر وأقدّر» أو يقول: «لا أعلم بعد» موحياً بأنه كان سيعلم ذات يوم، إذا لم يكن في القريب العاجل. كان رمسفلد أشبه بمثقب طبيب الأسنان الذي لا يعرف معنى التوقف.

◆ ◆ ◆

في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين من يوم الثلاثاء الواقع في ٧ شباط / فبراير، خاطب الرئيس حفل فطور الصلاة القومية في قاعة الرقص الدولية بفندق هلتون واشنطن. كان موضوع ١١ أيلول كثيف الحضور في ذهنه، قال بوش: « لا أحد يمكن أن يتمنى لكائن من كان ما حدث في ذلك اليوم. ولكن الأحزان والويلات التي تصيبنا دون استئذان، كما هي حالها في كل حياة، قد تجلب حكمة وقوة يتعذر كسبهما بأي طريقة أخرى. هذه البصيرة النافذة ركيزة أساسية في العديد من العقائد». وبكل التأكيد للعقيدة التي تكتشف الأمل والراحة في أي صليب. بمعنى من المعاني كان ٩/١١ قد أعطاه رئاستَه، وقد بدا محاججاً أن من شأن تلك المحنة المفرطة في شدتها وهَوْلها قد تنقلب إلى مصدر قوة للجميع.

«ثمة تحديات هائلة تنتظر هذه الأمة، وسوف تكون هناك صعوبات» قال الرئيس.

«وفي وقت لاحق من ذلك اليوم اجتمع الرئيس مع فريق أمنه القومي في غرفة العمليات».

قدم فرانكس خطة «الإقلاع المولَّد» الخاصة بالحرب على العراق. تلك كانت المرة الأولى التي يرى فيها بوش خطة فعلية يستطيع الإيعاز بتنفيذها.

كان فرانكس قد عدل الخطة قليلاً مقارنة مع العرض الذي كان قد قدمه لرمسفلد قبل أسبوع. بموجب هذه الخطة بقيت الحرب مرشحة لأن تستغرق ٢٢٥ يوماً. فضل فرانكس استخدام تعبير« ٩٠-٤٥-٩٠» بمعنى ٩٠ يوماً للإعداد ونقل القوة وصولاً إلى نقطة بدء الحرب، و٤٥ يوماً من القصف الجدي قبل العمليات البرية الرئيسية. كان الجنرال يطلق على هذه الفترة الوسيطة اسم «مرحلة الدك» المشحونة بالحركات النشيطة الانتقالية حيث يمكن استخدام العمليات الجوية

لتجميد صدام وقواته في أماكنها مع مواصلة الانشغال بحشد المستوى المطلوب من القوة البرية. كان من شأن مرحلة الـ «٤٥» أيضاً أن تشتمل على تنفيذ عمليات خاصة كانت القوات الخاصة ستقفز إلى الداخل وتحتل حقول النفط الجنوبية لمنع صدام من إشعالها كما سبق له أن فعل في الكويت في ١٩٩١ وفي نهاية الأيام الـ ٤٥ هذه كان من شأن القوة الكاملة أن تكون هناك نحو ٣٠٠,٠٠٠ – وكان من شأن إنجاز العمليات القتالية الحاسمة لتغيير النظام أن يتطلب ٩٠ يوماً آخر.

كانت مرحلة الـ ٩٠ يوماً الأخيرة ستشتمل على جيشين كاملين من القوات البرية – ربما ست فرق – فضلاً على وحدات إضافية بعيداً في الشمال، تدخل عبر تركيا إذا أمكن ترتيب ذلك.

ومن ثم عرض فرانكس جدولاً يحمل اسم «المواعيد» موزعاً على الأشهر – آذار/مارس، نيسان/إبريل، أيار/مايو، حزيران/ يونيو، تموز/ يوليو، آب / أغسطس، أيلول/ سبتمبر، وتشرين الأول/ أكتوبر، الذي كان الموعد الأبكر الذي يستطيع فيه، فنياً وعلى نحو مريح، بدء القتال. أدى هذا إلى جعل خط زمن العمليات التمهيدية التي كان قد أوجزها في كروفورد قبل ستة أسابيع أكثر اتصافاً بالملموسية. كان النصف العلوي من جدول «المواعيد» يحدد قضايا المستوى الاستراتيجي المطروحة للنقاش: موعد انعقاد جلسات الأمم المتحدة بذل محاولات دبلوماسية أخرى، الموعد المبرمج لعقد اجتماع الكونفرس. ما هو متوقع أن يكون جارياً في أفغانستان، مسرح عمليات فرانكس الناشطة الآخر. هذه قضايا تخصكما أيها الوزير رمسفلد وأيها الوزير باول، قال الجنرال.

أما تحت المستوى الاستراتيجي فكان ثمة برنامج فرانكس الخاص – مواعيد تحريك إحدى حاملات الطائرات؛ إعادة تخزين المعدات بعد نقلها من قطر؛ نقل مقر القيادة إلى موقع متقدم في مسرح العمليات.

كان حاجز ثالث في الأسفل يبين دورات التدريب التقليدية لجيش العراق معروضة في جدول مُضاء بالمصابيح الملونة. كان فرانكس قد استخدم جدولاً مضاء بالأحمر، الأصفر، والأخضر لبيان عملية أفغانستان. وكان الرئيس قد أُعجب به. كان اللون الأخضر يعني أن الوضع جيد بالنسبة إلى الولايات المتحدة، والأصفر أنه محايد، والأحمر أنه سيئ.

في الفترة من أيار/ مايو إلى أيلول/سبتمبر، كان من شأن العراقيين أن يقعوا في حالات أعلى من الجاهزية لانشغالهم بتدريب وحدات أكبر. جرى تقديم هذه الأشهر باللون الأحمر في الجدول. أما شهرا تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر فكانا بالأصفر، في حين كانت أشهر كانون الأول/ ديسمبر، كانون الثاني/ نوفمبر، وشباط/ فبراير باللون الأخضر لبقاء الجيش العراقي منهمكاً بالتدريب على صعيد وحدات صغيرة أو على المستوى الفردي، بدلاً من الانخراط بالعمل في وحدات كبيرة متلاحمة.

حاجز آخر على الجدول كان يبين الطقس، الذي كان أخضر في أشهر الشتاء: من كانون الأول/ ديسمبر إلى آذار/ مارس، ومن ثم أصفر في نيسان/ إبريل، وبادئاً بالتحول إلى اللون الأحمر في أيار/ مايو مع طغيان حر الصيف. كذلك كان الجدول يبين قابلية الرؤية الاعتيادية في كل شهر.

مع أن تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر كانا شُبّاكاً، فإن أفضل الأوقات كانت متمثلة بوضوح بسلسلة الأيام الممتدة من الفاتح من كانون الأول/ ديسمبر وحتى أواخر شباط/ فبراير، برأي فرانكس.

وافقه بوش. هل كان ذلك يعني تعذر القيام بالعمليات القتالية في ظل درجات الحرارة العالية؟

رد فرانكس قائلاً: «لا، بالطبع من المؤكد أننا نستطيع تنفيذ تلك العمليات أما إذا كنتم تسألونني عما أفضله، فأقول لكم إنني أميل إلى الوقت الذي يكون فيه الطقس أكثر لا أقل ملاءمة بالنسبة إلينا.» كان من الأفضل لهم مثلاً أن يتجنبوا العواصف المتوقعة في شهري آذار/ مارس، ونيسان/ إبريل، إن أمكن.

علق الرئيس: «لا نستطيع التكهن بالمواعيد دائماً، إذا ما وقع الأمر حين يمكن أن يقع. غير أنني أتفهم أين نكون بحاجة إلى تركيز الاهتمام إذا كنا متمتعين بترف استخدام برنامجنا الزمني الخاص.»

طرح رامسفلد سؤالاً عن آخر موعد لاستكمال العملية.

رد فرانكس قائلاً: «ياله من سؤال رشيق وأنيق حقاً!» غير أن الإجابة ليست كذلك. أعني يتوقف الأمر على جميع تلك الافتراضات التي نريد، أنت وأنا، أن نتحدث عنها. إذا كنت تفترض أننا سنقوم بتفعيل عدد أكبر من المسامير، بإنفاق المزيد من المال الآن والاقتراب أكثر من إلزام الأمة بالحرب، فإن من شأن التوقيت أن يتعرض للتغير.» أضاف أنه كان قد تبنى افتراضات أخرى حول المدة التي يمكن لوزارة الخارجية أن تستغرقها للحصول على تصاريح النشر، الانطلاق، والتحليق من بلدان المنطقة، جنباً إلى جنب مع بلدان في أوربا الشرقية. يمكن لذلك أن يغير التوقيت.

قال فرانكس إن أفضل الأوقات كان نظراً لما بات متاحاً لهم، متمثلاً بموعد يقع بين تشرين الثاني/ نوفمبر، كانون الأول/ ديسمبر وصولاً إلى أواخر شباط/ فبراير، أي بعد سنة.

« هل تستطيعون أن تتأخروا أكثر ؟» سأل رمسفلد.

رد فرانكس: « نستطيع أن نقوم بالعمل في أي وقت يحدده لنا رئيس الولايات المتحدة.»

« ولكن هل تستطيعون أن تبكروا أكثر؟». ألح رمسفلد.

أجاب الجنرال: « نستطيع المبادرة في أي وقت يختاره الرئيس.»

سأل الرئيس: «هل نستطيع أن نبكر أكثر، إذا ما تعين علينا ذلك؟»

أجاب الجنرال: « نستطيع أن نبكر أكثر، يا سيادة الرئيس.»

وما الذي كان من شأن ذلك أن يعنيه؟

قال فرانكس: « ما من شأنه أن يعنيه هو أن الأمر سيكون بشعاً.»

ضحك بوش، ما معنى ذلك؟

وفقاً لخط التوجه الراهن الذي نعتمده الآن لبناء القوات لتمكين خداعنا من أداء أفضل الخدمات التي نريدها فإن التوقيت المثالي هو تشرين الثاني/ نوفمبر وحتى أواخر شباط فبراير، على ما يبدو. نعم، نستطيع أن نبادر في أي وقت من الآن وحتى ذلك الحين، غير أننا إذا ما بادرنا في وقت أبكر فإن واحدة أو أكثر من سلاسل العمليات تلك لن تكون ناشطة وقوية. أعني سنبقى دون مستوى الحدى الأقصى في هذا المجال أو ذاك.

أدرك الحضور أن كلمة « بشعاً » كانت تعني شيئين: كان يمكن للحرب أن تدوم أكثر من جهة وكان من شأن معدل الإصابات أن يكون أعلى من جهة ثانية.

كذلك كان من شأن التأخر أكثر أن يتمخض عن مشكلات مثل مشكلة الطقس على سبيل المثال.

قال رمسفلد إنهم كانوا عاكفين على سيناريو آخر. أفاد بأنه كان قد كلف الجنرال فرانكس باكتشاف مدى إمكانية ممارسة قدر أكبر من الضغط على النظام وصولاً إلى تصدعه فانهياره في وقت مبكر جداً، عبر استخدام قوات طاغية ومتفوقة على صعيدي الحجم والتزامن. فضربة هائلة كهذه قد تتمخض عن ضغط

لا يطاق وتفضي إلى تحطيم النظام في الفترة الأولى من الحرب.

بدا رد الفعل المباشر في غرفة العمليات أشبه بحالة الذهول! هل كان إنجاز المهمة ممكناً بقدر أقل جوهرياً من القوة مع تجنب حرب تدوم ٢٢٥ يوماً؟

سارع فرانكس إلى الإمساك بتلك الفكرة. كان عليهم أن يتنبهوا إلى أن مطالبه كانت حقيقية. من شأن العدو أن يملك صوتاً؛ قد لا ينهار صدام بالطريقة التي نتوقعها، قال فرانكس. لم يكن بمقدورهم أن يبادروا بالاستناد إلى قوة ذات حجم أصغر. هذه كانت فكرة پاول وإن لم يقر فرانكس بذلك.

قال فرانكس: «ما زال هناك عمل كثير يجب إنجازه، ثمة قدر كبير من التنسيق بين الوكالات والوزارات كان مطلوباً لتنفيذ عمليات الاستقرار الخاصة بالمرحلة الرابعة بعد انتهاء القتال، إضافة إلى ضرورة البدء بالعمل لبناء تحالف دول إذا كان مثل هذا التحالف متاحاً ومرغوباً.»

قال الجنرال أيضاً إنهم كانوا مطالبين بتحديد هوامش التحليق المرغوبة في منطقتي الحظر الجوي الجنوبية والشمالية. كان من شأن الأمر أن يوفر فرصة مناسبة لاجتثاث بعض الأهداف وتحسين الوضع جوهرياً قبل الحرب. وأراد الجنرال أن يعرف المستوى المراد بلوغه من العدوانية. تعين عليه أيضاً أن يكثف من دراسة قوائم الأهداف في العراق وتحديد ماهيتها، مع بيان الأولويات، والأسلحة المرشحة للاستخدام مع كل هدف.

لعل الأشد إلحاحاً والأكثر مباشرة، بنظر فرانكس، هي الحاجة إلى التركيز على عدد من المهمات التمهيدية التي اعتبرها الجنرال مهمات «المرحلة صفر» - وهي مرحلة تدوم ما لا يقل عن شهر وقد تمتد ثلاثة أشهر - من أجل إعداد سلسلة من المطارات والموانئ وإيصال المعدات، الوقود، والمؤن الأخرى إلى أماكنها المحددة.

قام فرانكس أيضاً بتسليط الضوء على فكرة المسامير - فكرة إدخال مجموعة حاملة طائرات حربية ثانية، زيادة قصف منطقتي الحظر الشمالية والجنوبية، أو إجراء مناورات في الكويت لاستثارة صدام، ربما دفعه إلى الاعتقاد بأن حرباً موشكة على الاندلاع، ومن ثم التراجع. خطط فرانكس لعدد كبير وكبير جداً من من المسامير - من الألاعيب الهجومية المصممة للخداع.

عبر بوش عن إعجابه بالمسامير غير أنه تساءل عن مدى كون عدد أقل من المسامير الأكبر حجماً أكثر فعالية. كذلك كشف الرئيس عن خشيته من احتمال قيام صدام باقتراف ما يرقى إلى مستوى علة حرب من شأنها أن تضطر الولايات المتحدة إلى الرد. ما السبيل إلى اعتماد نوع من الرد القابل للإدامة عبر الزمن؟

أوضح فرانكس أنه من شأن القدرة على الرد أن تزيد عبر فترة المرحلة صفر كلها، مع القيام بالمزيد من العمل لتحسين الموقف الأمريكي.

قام رمسفلد، للمرة الأولى، بطرح مفهوم «الصدمة والرهبة» على الرئيس. عند هذا المنعطف كان المفهوم يعني حشد قوة كبيرة وتنفيذ عمليات مختلفة قائمة على دق «المسامير» والقصف على نحو مكثف جداً يصل إلى حد الإفضاء إلى حدوث تغيير في النظام.

ضحك الرئيس ضحكة خفيفة. بدا تعبير» الصدمة والرهبة» فكرة جذابة. هل كانت حيلة؟

استخدم فرانكس ٣٠ «سلايداً» في الإيجاز، مؤكداً أن الأساس كان متمثلاً بضرورة مواصلة التحركات التمهيدية. كان لا بد من إشراك بلدان المنطقة لكسب دعمها. أضاف الجنرال أنه كان من الضروري العودة والمبادرة إلى إكساء العظم بشيء من اللحم. قائلاً: «كنا، كما تعلمون يا سيادة الرئيس، عاكفين على تقديم بعض

المفاهيم. لا بد لنا من أن نكون قادرين على تكريس بعض الوقت والجهد وصولاً إلى خلق ما هو أفضل.»

بدا الرئيس في موقف معارض. لم يكن يعبر عن عدم قدرته على الانتظار الطويل، غير أنه لم يكن في الوقت نفسه يقول: «حسناً! إنه لأمر جيد؛ سوف نتصدى.»

كان الاجتماع قد دام ساعة وعشر دقائق.

مرة أخرى شعر فرانكس أنها كانت عملية إيجاز عظيمة. كان لديه بعض الوقت قبل الحرب. عبر الإلحاح على المواعيد الواقعية وحاجات القوة لم يجد نفسه مضطراً حتى لتناول سؤال رمسفلد عن مدى قدرتهم لأن يكونوا مستعدين في نيسان/ أبريل أو أيار/ مايو. من الواضح أن بوش استوعب ضخامة المشكلة، والحاجة إلى توفير قوة جبارة. لم يكن ثمة أي مجال للقيام بالعمل مقابل ثمن بخس.

◆ ◆ ◆

باول أيضاً رأى أن الإيجاز كان موفقاً. ما من احد كان مولعاً، على ما بدا، بالزناد. أحس بشيء من الراحلة إزاء عزوفهم عن مناقشة الفكرة البلهاء الخرائية الداعية إلى محاولة احتلال حقول النفط الجنوبية لإقامة معبر أو ملاذ داخل العراق بقوة يقل حجمها عن ١٠،٠٠٠ جندي.

في الثاني عشر من شباط /فبراير أدلى باول بشاهدته أمام لجنة الموازنة في مجلس الشيوخ. كان متشدداً مع صدام، قائلاً إن سياسة الولايات المتحدة ظلت من ١٩٩٨ قائمة على العمل لإحداث « تغيير نظام» في العراق. ثم أضاف: « ونحن عاكفون على دراسة سلسلة من الخيارات المختلفة التي من شأنها أن تفضي إلى تحقيق

ذلك.» وعبر صياغة استهدفت تبديد المخاوف أكد پاول أن الرئيس بوش « لا يتوفر على أي خطة فوق مكتبه الآن للدخول في حرب مع أي دولة.» لم تكن الحرب وشيكة.

في اليوم التالي قال الرئيس متحدثاً عن العراق في أحد المؤتمرات الصحفية: «سأحتفظ بجميع الخيارات التي أملكها، سأبقيها في حضني.» تلك كانت طريقة حذرة لعدم قول أي شيء، مع ترك جميع الخيارات على الطاولة ولكن دون تضليل - نوع من الحذر كان بوش سيتخلى عنه فيما بعد.

كان تشيني يرى أن تكامل خطة الحرب استغرق وقتاً أطول مما ينبغي. كان من شأن اي شيء يمنح صدّاماً وقتاً أن يعني تمكينه من نسف حقول النفط أو استخدام أسلحة التدمير الشامل - مهاجمة القوات الأمريكية بالأسلحة الكيميائية، أو قواته هو بالذات بغية اتهام الأمريكيين بالفِعْلة. أو قد يعمد صدام إلى الاحتفاظ بأسلحته غير التقليدية لاستخدامها لاحقاً. كان لابد من الإطاحة به، أو عزله كحد أدنى، بأقصى سرعة متوفرة.

استنتج آندي كارد، رئيس جهاز العاملين لدى الرئيس، الذي كان أيضاً مطلعاً على أسرار الإيجاز، أن الجيش لم يكن مستعداً. كان فرانكس مشغولاً بالكلام عن سلسلة من الأطر والأفكار، لا أكثر. لعله أفضل دليل على الحاجة إلى تغيير الجيش، تحويله، وضعه في حالة يصبح معها مستعداً. وكذلك فإن كارد كان يخشى أن يكون العراق حلم كل جنرال: ساحة قتال تقليدية، خطط عريضة، معقدة قائمة على جيوش جرارة؛ آلاف الطلعات الجوية؛ وألوية مدرعات متدحرجة بصخب عبر الصحراء. أو لم يسبق للجنرال جورج باتون George Patton وهو يعاين ميدان المعركة: «أعشقه. ليكن الحرب عوناً لي! أنا هائم في حبه؟»

كان كارد البالغ الرابعة والخمسين من العمر يضطلع بدور مهم في خدمة بوش بوصفه المحطة الخلفية ذات الحضور الدائم. كان والد الرئيس هو جواز مرور عودته

إلى البيت الأبيض. ففي ١٩٧٨، في أثناء رئاسة ريغان، كان عضواً في جهاز العاملين في البيت الأبيض حين كلفه نائب الرئيس جورج بوش بإدارة حملته الانتخابية في نيوهامباشير. أولى ولايات الانتحابات التمهيدية. مؤيدو بوش هناك كانوا منقسمين إلى ثلاث كتل متناقضة، بادر كارد، وهو من ماسا تشوستس القريبة، إلى الانتقال إلى نيوهامباشير والعيش فيها مدة سنة أنفق أجزاء من ساعات كل صباح على الاجتماع مع قادة الكتل كل على حدة، وخلال الباقي من النهار بقي شديد الحرص على تنظيم حملة قاعدية ناشطة. عندما نجح بوش في إلحاق الهزيمة بالسناتور الكنساسي بوب دول في الجولة الانتخابية التمهيدية (البرايمري) الحاسمة، رأى أكثر المراسلين والمستشارين السياسيين أن السبب كان كامناً في إتقان فن الإعلان التلفزيوني. أما بوش الأب فكان يعلم علم اليقين أن السبب هو كارد الذي ما لبث أن قربه وعينه نائباً لرئيس جهاز العاملين في البيت الأبيض، ووزيراً للنقل بعد ذلك.

خلال سني رئاسة كلنتون بقي كارد الداعية الأول المدافع عن مصالح شركات صانعي السيارات وجنرال موتورز لاحقاً. همس بوش في أذن ابنه قائلاً: «ليس هناك من هو أوفى وأصدق من كارد.» وكارد هذا مهندس تصميم منشآت اختصاصاً، متزوج من الراهبة الميثودية كاثلين Kathleene . كان كارد يعتبر نفسه ركناً مسؤولاً عن ضمان بقاء الرئيس مطمئناً إلى المعلومات التي يتلقاها وإزاء القرارات التي يتخذها.

◆ ◆ ◆

في بداية العهد، قبل ٩/١١ والكلام عن الحرب بزمن طويل، كان لكارد حديث مع بوش حول دور الرئيس بوصفه قائداً عاماً في اتخاذ قرارات الحرب، وما كان هذا الدور يعنيه.

قال كارد: «سيادة الرئيس، وحدك ستكون قادراً على اتخاذ القرار القاضي بإرسال الشبيبة، ذكوراً وإناثاً، إلى المهالك.» كان رئيس الجمهورية يستطيع ويجب عليه أن يحصل على المشورة، بل وحتى على التوصيات القوية. قد يكون هناك فريق مؤيد للحرب في البلاد، في الكونغرس، في وسائل الإعلام، أو حتى في مجلسه هو، كما وقد يكون ثمة بالمثل فريق آخر مناصر للسلم، أما في مجلس الأمن القومي فلن يكون هناك أي تصويت.

تحدث كارد إلى الرئيس عن أنه في ١٩٨٩، قبل اثنتي عشرة سنة، كان نائباً لرئيس جهاز العاملين في البيت الأبيض حين كان والد بوش قد اتخذ قراراً بغزو باناما للإحاطة بزعيمها مانويل نورييغا Manuel Noriega. حملت العملية اسم: قضية عادلة. «شاءت الصدف أن أكون في الغرفة، في المكتب البيضوي» ، قال كارد. وقد أضاف أنه كان مسؤولاً عن الحامل المستخدم لعرض خرائط الإيجاز.

كان المجتمعون في المكتب البيضوي هم وزير الخارجية جميس أي بيكر الثالث James A. Baker III، وزير الدفاع تشيني، رئيس جهاز العاملين في البيت الأبيض جون سنونو John Sununu، والجنرال كولن پاول، رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة. ثمة كانت مناقشة جدية للمضاعفات على جميع المستويات العسكرية والدبلوماسية كما تذكر كارد الذي قال: «طرح الرئيس أسئلة بالغة الصعوبة والوعورة وأتذكر أن الأمر وصل إلى، هل نذهب أم لا نذهب؟ لم يكن هناك أي افتراض مسبق لما قد يقوله كل منهم، غير أن الجميع، بمن فيهم جيم بيكر، أوصوا بالحرب. كان والد بوش وبيكر صديقين حميمين، تقاسما أشياء كثيرة، من الجيل نفسه، محاربين قديمين في عدد كبير من الحروب السياسية خلال سنوات ريغان الثماني. وقف بيكر أمام مكتب الرئيس وقال: «هذا قرار لا يستطيع أحد غيرك أن يتخذه، يا سيادة الرئيس.»

«ثم بادر الجميع إلى ترك أبيك وحده» ، قال كارد لبوش الأكثر شباباً، وبعد ذلك أضاف: «بقيت لجلب حامل الخرائط، يرفع الرئيس رأسه وتقع عيناه علي، غير أنني مقتنع بأنه لم يرني. لست متأكداً ولكنه كان يصلّي وراء مكتبه حسب اعتقادي. كان هادئاً وغارقاً في التأملات. وبعد فترة يرفع رأسه ليقول: «اتخذ قراراً سيفضي إلى فقدان أعداد من الشباب حياتهم!؟ نطق العبارة محمّلاً الكلمات والأحرف كل ما تستطيع أن تحمله من معاني عميقة. ثم ينهض من مكانه ويمشي إلى خارج الباب. بقي المشهد محفوراً في ذاكرتي.» تلك كانت هي الحالة، تلك كانت وحدة القيادة.

علق الرئيس قائلاً: «أعرف.»

10

كان الإرهاب، لا سيما تنظيم القاعدة، لا يزال مركز كون تنت - القضايا أرقام: ١، ٢، ٣، ٤ و٥. أما العراق فلم يكن إلا القضية رقم: ٦. كان رئيس عمليات العراق، شاؤول، ممسكاً بذلك الملف وعاكفاً على التعاون بشأنه مع رئيسه السابق نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية، جون ماكلوخلين، الذي هو محلل استخباراتي مخضرم لطيف المزاج كان قد نجح في الارتقاء إلى منصب الرجل الثاني في الوكالة.

كذلك كان شاؤول يخوض الجولات مع الوزراء وكبار المسؤولين. كان قد التقى رمسفلد في الأول من شباط/ فبراير لتقديم تقرير موجز عن خطة سرية لدعم جيش الولايات المتحدة في عمليات تغيير النظام في العراق، بدأت وزارة الدفاع بعقد اجتماعات أسبوعية حول العراق في ذلك الشهر.

بدأ شاؤول موشكاً على اكتشاف حقيقة أن مصادر تقارير وكالة الاستخبارات المركزية في العراق كانت قليلة إلى حد كبير.

وما كان القليل؟

قال شاؤول: «أستطيع عدها على أصابع اليد الواحدة» وصمت فترة ليتأكد من التأثير «وأستطيع في الوقت نفسه أن أمسك بأنفي.»

ثمة كان أربعة مصادر. وقد كانوا في وزارات عراقية معنية مثل وزارتي الخارجية والنفط اللتين كانتا على هامش أي تسلسل إلى حلقة صدام الداخلية. كانت الوكالة قد واجهت صعوبات حقيقية على طريق التوغل في الجيش، في الحرس الجمهوري، أو في التنظيم الأمني الخاص.

سأل تنت مشيراً إلى جهاز الاستخبارات البريطانية: ما معنى أن تكون جميع التقارير الجيدة التي تصلني صادرة عن الإس. آي. إس. SIS.»

« آسف، سوف نصلح الأمر» قال شاؤول.

بدأ شاؤول يدرك أن تجنيد أي عراقيين كان صعباً. كانت وكالة الاستخبارات المركزية قادرة على عرض راتب شهري يتراوح بين ٥٠٠٠ و ١٠,٠٠٠ دولار لأحد الأشخاص - مبلغ كبير - مقابل تشغيله جاسوساً. كانت الأخطار المحتملة تشتمل على الاعتقال، ربما رؤية الزوج والابنة مغتصبتين أمامه، اغتيال أبنائه، جرف بيته بالبلدوزر، وألوان أخرى من العذابات غير القابلة للتصور. ما قيمة الـ ١٠,٠٠٠ دولار في موازاة ذلك؟ كانت المصادر القليلة الموجودة في الداخل تبعث بالرسائل، وتقوم باتصالات سرية شديدة الكتمان. وبما أن الولايات المتحدة لم تكن لها سفارة داخل بغداد، كانت المصادر مضطرة إلى إرسال التقارير بالكمبيوتر عبر إشارات قصيرة إلى أحد الأقمار الصناعية، إشارات لا تلبث أن تنزل مباشرة إلى مقر قيادة وكالة الاستخبارات المركزية غير أن العملية كلها كانت تثير الأعصاب، وتوقف شعر الرأس.

كرر شاؤول: لن يتمكن العمل السري من تحرير العالم من صدام. فقط اجتياح عسكري شامل، مع دعم كثيف من جانب وكالة الاستخبارات المركزية، كان من شأنه تحقيق ذلك. أما الطريقة الناجحة الوحيدة لتجنيد مصادر جديدة داخل العراق فلم تكن سوى نوع من إظهار أن الولايات المتحدة كانت جادة بصورة مطلقة وأنها آتية بكل قوتها لخلع صدام مرة وإلى الأبد.

◆ ◆ ◆

بموافقة تنت، تعاون كل من شاؤول، ماكلوخلين، ونائب مدير العمليات جيم بافيت، في صياغة أمر استخباراتي سري للغاية جديد لتغيير النظام في العراق ما

لبث الرئيس بوش أن وقعه في ١٦ شباط/ فبراير. قضى الأمر بأن تبادر وكالة الاستخبارات المركزية إلى توفير الدعم للجيش الأمريكي في إسقاط صدام، وتضمن سبع صلاحيات صريحة جديدة:

١- دعم الأطراف المعارضة الراغبة في إزاحة صدام جماعات وأفراداً.

٢- تنفيذ عمليات تخريبية داخل العراق.

٣- التعاون مع بلدان ثالثة - مثل الأردن والعربية السعودية - ودعم عملياتها الاستخبارية السرية.

٤- تدبير عمليات إعلامية لنشر معلومات دقيقة عن النظام.

٥- إدارة عمليات تضليل وتمويه لتضليل صدام وقيادات النظام السياسية، الاستخباراتية، العسكرية، والأمنية.

٦- مهاجمة وتخريب موارد النظام ومصارفه ومؤسساته المالية.

٧- إحباط حيازة النظام المحظورة لمواد ذات علاقة بجيشه، وخصوصاً برامج أسلحة الدمار الشامل لديه.

قُدرت التكاليف بـ ٢٠٠ مليون من الدولارات في السنة ولمدة سنتين. تم إبلاغ رئيس لجنتي الاستخبارات في مجلسي الشيوخ والنواب. بعد جولة من الصراعات في الكونغرس جرى خفض الموازنة إلى ١٨٩ مليوناً من الدولارات في العام الأول.

كان من شأن شاؤول أن يصبح قادراً على إدارة ما أطلق عليها اسم عمليات «مكافحة الاستخبارات الهجومية» لمنع جهاز أمن صدام من اكتشاف مصادر وكالة الاستخبارات المركزية. ولكن الأهم من كل شيء هو أن وكالة الاستخبارات المركزية لا تلبث عندئذ أن تغدو قادرة على التعاون الفعال مع قوات المعارضة المناوئة لصدام داخل العراق وعلى تسيير عمليات شبه عسكرية داخل البلاد.

نظراً لفوران موجة عمليات مكافحة الإرهاب العالمية التي كانت جارية على قدم وساق في ٦٠ بلداً بما فيها أفغانستان، فإن إدارة عمليات وكالة الاستخبارات المركزية كانت تُكلف بما هو فوق طاقتها إضافة إلى بقاء رصيد المواهب فيها ضعيفاً.

كان شاؤول بحاجة إلى ٥٠ ضابطاً على الفور، وقد قدر أن الرقم من شأنه أن يرتفع إلى ١٥٠ في غضون ستة أشهر وإلى نحو ٢٦٠ في الميدان ومقر القيادة لدى اندلاع الاشتباكات. أصدر نداءات التماساً لمتطوعين، تطوع ما لا يقل عن جهاز محطة كامل من الرئيس إلى المستوى الأدنى. ظل العراق مطباً للوكالة منذ سنوات وكان العديد من الضباط - لا جميعهم بأي من الأحوال - راغبين في مد يد المساعدة.

كانت أفغانستان قد بينت أهمية امتلاك فرق شبه عسكرية داخل البلد. إن العمليات الاستخباراتية الميدانية الصعبة ونظيرتها التدميرية القاتلة الفعالة لم تكن قابلة للتنفيذ وراء الكواليس (أو بأسلوب حرب النظارات). ومع أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت متوفرة على جهود كبيرة جارية على قدم وساق على جميع الحدود العراقية، فإنها ظلت بحاجة إلى أن تكون في الداخل.

في ٢٠ شباط/ فبراير، بعد توقيع الأمر بأربعة أيام، دخل فريق مسح تابع لوكالة الاستخبارات المركزية إلى المنطقة الكردية من شمال العراق تمهيداً لنشر فرق شبه عسكرية تابعة للوكالة كانت ستحمل اسم نايل NILE المؤلف من الأحرف الأولى لعبارة عناصر ارتباط شمال العراق باللغة الإنكليزية.

◆ ◆ ◆

يوم الخميس الواقع في ٢٨ شباط/ فبراير وصل فرانكس إلى مكتب رمسفلد في البنتاغون مصطحباً ملفين سريين للغاية، كل منهما بحجم دليل هاتف مانهاتن،

فيهما ما يقرب من ٤٠٠٠ هدف في العراق، وهذه الأهداف، وهي منتقاة حصراً من أحدث صور الأقمار الصناعية الملتقطة من الأعالي، متدرجة من مراكز تجمع قيادات جدية، أمنية وعسكرية، نزولاً إلى مجمعات مناورة عراقية من وحدات المشاة والمدرعات ووحدات الدفاع الجوي في الميدان.

شكل تحديد الأهداف لأي حملة جوية أمريكية قفزة إلى الأمام مقارنة بالتخطيط الجدي المجرد الذي كان معتمداً منذ بضعة أشهر. كان الملفان يشتملان على تفاصيل شرائح فرانكس الممثلة لنقاط ضعف النظام مترجمة من لغة النجوم المتفجرة على الورق إلى لغة أسلحة مولفة على سلسلة من المباني والأشخاص.

فوجئ رمسفلد بالعدد الكبير كما شعر بالسعادة. فقبل حملة القصف الأفغانية وفي أثنائها منذ أشهر، كان قد شكا بانتظام في اجتماعات مجلس الأمن القومي من قلة عدد الأهداف الجديرة بالضرب في ذلك البلد البدائي. في الكثير من الأحيان لم يكن التعرف على أكثر من بضع عشرات من الأهداف ممكناً. ففي اليوم الثالث من القصف في أفغانستان كان قد أطلق تصريحه الشهير والجدير بالتذكر الذي قال فيه: «لسنا نحن، بل أفغانستان، من باتت جعبتها خالية من الأهداف!» خلال أحد إيجازاته الصحفية.

أما العراق فقد كان منجم ذهب زاخر بالأهداف. أراد رمسفلد ترتيبها حسب مستوى أولوياتها. فما نوع الهجوم وحملة القصف الذي يمكن أن يترك أكبر الأثر في النظام؟ ما لذي يستطيع أن يدفع النظام إلى الانهيار؟ نوقشت رزم الأهداف - أهداف التحكم والقيادة، أهدف الاتصالات، بؤر قيادية محددة مثل قصور صدام الزائدة على الخمسين، جملة قوات النظام شبه العسكرية، بما فيها تنظيم الأمن الخاص (إس. إس. أو. SSO) والحرس الجمهوري الخاص. أين يمكن أن تتم ممارسة الضغط السريع جداً والعاجل استثنائياً في وقت مبكر بما يفضي إلى

حدوث الانهيار؟ أدرك الوزير أن الأمر سيأخذ وقتاً؛ أراد أن يتحدث ويرى كيف كان فرانكس وأركانه سيدرسون كل هذه الأهداف ويصنفونها في أبواب ورزم أهداف مدققة.

تحول النقاش إلى المهمات التمهيدية المطلوبة لتحسين المرافق العسكرية الموجودة في المنطقة. تساءل رمسفلد عن مصائر الاتفاقيات القائمة مع مختلف البلدان المضيفة، وهي اتفاقيات تبدو روتينية، ولا يُنظر إليها على أنها تشير إلى الحرب. كذلك أراد قائمة رغبات متضمنة جميع المشروعات التي قد يكون فرانكس بحاجة إليها.

أنفق الاجتماع بعض الوقت على الكلام عن إمكانية إطلاق عمليات إعلامية ناجحة. كيف يمكن، مثلاً، إيصال الرسائل الداعية للامتناع عن القتال، عن تدمير حقول النفط، وعن إطلاق الصواريخ؟

تحدث فرانكس عن ضرورة إشراك هيئة الأركان المشتركة ومجلس الأمن القومي، وعن الحاجة إلى أن يكون شخص على مستوى رفيع في البيت الأبيض صاحب العمليات الإعلامية لأن من شأنها أن تنطوي على تصريحات سياسية وتحدد أسباب الحرب. كان لا بد للعمليات الإعلامية (آي. أو.IO) من أن تكون متواكبة مع ومرتبطة بكل ما قد يقوله كبار المسؤولين بمن فيهم رئيس الجمهورية.

اقر رمسفلد أن على جميع الرسائل أن تكون منسقة. وعد بمفاتحة رايس وآخرين. هل ينبغي للعملية أن تكون في مجلس الأمن القومي أم في وزارة الدفاع ؟

❖ ❖ ❖

قام نائب الرئيس تشيني بإبلاغ الجنرال فرانكس أنه كان يخطط لرحلة إلى الشرق الأوسط في آذار/ مارس وسأل عن البلدان التي يجب أن يزورها. اي منها

سيكون ناضجاً للإغواء، للضغط، من أجل دفعه إلى تقديم المساعدة في أي حرب على العراق؟ اتفقا على ما لا يقل عن عشرة بلدان محتملة - مصر، عُمان، الإمارات العربية المتحدة، العربية السعودية، اليمن، البحرين، قطر، الأردن، إسرائيل، وتركيا.

في ٦ آذار/ مارس قدم فرانكس إلى تشيني في واشنطن تقريراً موجزاً. كانت لدى الجنرال ورقة سرية للغاية كان قد أعدها مع رمسفلد عما هو مطلوب من كل بلد. كان من شأن هذا المطلوب أن يكون المساعدة، ربما حتى إرسال القوات، الطائرات، أو عملاء الأجهزة الاستخباراتية، في بعض الحالات، وكان من شأنه في حالات أخرى أن يبقى مقتصراً على توفير القواعد، مواقع الانطلاق، المرور، أو السماح للطائرات العسكرية الأمريكية بالتحليق في الأجواء الخاصة لهذا البلد أو ذاك. كان من شأن جميع هذه البلدان العربية أو المسلمة أن تبقى، في العلن، ضد أي حرب، غير أنها كانت جميعاً راغبة، في السر، في الخلاص من صدام. كان لا بد من إبقاء مساعدتها سرية إلى هذه الدرجة أو تلك. قام فرانكس بتزويد تشيني بملف عن كل زعيم وكل رئيس استخبارات، كان فرانكس وتنت قد فاتحا سعد خير Saad Khair رئيس جهاز الاستخبارات الأردنية (الغيد GID) في الأردن حيث كان تنت يحصل على تعاون استثنائي، مثلاً. وكانا أيضاً قد فاتحا رئيس اليمن، علي عبدالله صالح.

تمثلت مهمة تشيني برفع مستوى الضغط في كل بلد، باستكشاف مشاعر قادة هذه البلدان إزاء العراق، ولكن دون إقرار أو حل أي تفاصيل بشأن أي قواعد، قوات، طائرات، سفن، إلخ. بالضرورة. كانت رسالته إلى الزعماء تقول بأن عليهم أن يأخذوا مسألة احتمال استخدام الولايات المتحدة للقوة مأخذ الجد.

كان تشيني محظوظاً في الأردن حيث كان تنت قد وصل إلى ما يشبه شراء رئيس المخابرات، أقل حظاً في مصر، حيث كان الرئيس حسني مبارك معارضاً. في

١٥ آذار/ مارس، طار تشيني إلى حاملة الطائرة يو. أس. إس جون سي ستنس المتمركزة في البحر العربي وعلى متنها ٥٠٠٠ بحار. كانت النفاثات تُقذف من مدرج ظهرها العملاق لتنفيذ عمليات القصف التي كانت لا تزال مستمرة في أفغانستان.

تحدث نائب الرئيس أمام آلاف البحارة، من النساء والرجال، المرحبين به عما يفكر به قائلاً: «يتمثل هدفنا التالي بمنع الإرهابيين، والأنظمة التي ترعى الإرهاب، من تهديد أمريكا أو أصدقائنا وحلفائنا بأسلحة التدمير الشامل. إننا ننظر إلى هذا التهديد بقدر كبير من الجدية. ذلك هو واجبنا بوصفنا أصحاب مناصب مسؤولين في الحكومة الأمريكية. إن الولايات المتحدة لن تسمح لقوى الإرهاب بالحصول على أدوات الإبادة.»

تضمنت إحدى قوائم جولة تشيني زيارة ثلاثة بلدان في يوم واحد، منها قطر، وهي حليفة أساسية كانت ستوفر قاعدة انطلاق ومقراً للقيادة. كانت الزيارة ضبابية، شاقة تناولت لين تشيني Lynne Cheney، زوج النائب الرئيس، وجبة غداء دامت ساعتين مع زوج أمير قطر المفضلة.

سألت السيدة تشيني عن تاريخ بدء الأطفال بالذهاب إلى المدرسة هنا في البحرين. ردت زوج الأمير قائلة: « ليست هذه هي البحرين.»



كانت الرحلة أشبه بنوع من جرس الإيقاظ بالنسبة إلى نائب الرئيس. فالقادة ألحوا عليه، ليس عن العراق، أو عن التهديد الذي يمثله صدام حسين، أو عن الإرهاب، بل عن عملية السلام في الشرق الأوسط. مرة بعد أخرى سمع أن من الأفضل للرئيس أن يهتم بالمنطقة، ينخرط فيها، ويلقي بثقله من أجل وضع المنطقة على مسار ما من شأنه أن يفضي إلى حل الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني. هذه

بالذات كانت هي الرسالة التي كان يحاول دائباً على توجيهها إلى البيت الأبيض دون انقطاع. كان فرانكس متفقاً معه. جاء استنتاج تشيني الآخر متمثلاً بحقيقة أن الشرق الأوسط لم يكن يسير في الاتجاه الصحيح. لم يكن السلام طويل الأمد ممكناً إذا بقي ياسر عرفات زعيماً للفلسطينيين.

تناول نائب الرئيس طعام فطور مبكر مع الرئيس في ٢١ آذار/ مارس. في الساعة الثامنة والربع بدأ بتلقي الأسئلة من المراسلين في المكتب البيضوي. سأل أحدهم عما قاله الزعماء العرب عن دعم التحرك القوي ضد العراق.

تمسك تشيني بقصة الغطاء. قال: «ذهبت لأتشاور معهم، لألتمس نصائحهم وآراءهم، فأكون قادراً على تقديم تقرير إلى الرئيس بعد العودة.»

تدخل بوش قائلاً: «أعتقد أن شيئاً آخر فعله نائب الرئيس، وهو شيء جيد، هو أنه سلط الضوء على حقيقة أن هذه الإدارة تعني ما تقوله حين تقول إنها ستفعل شيئاً؛ إننا عازمون على خوض الحرب ضد الإرهاب، إن هذه ليست استراتيجية قصيرة الأمد بنظرنا؛ إننا نتفهم وندرك أن التاريخ قد دعانا إلى العمل، وإننا لن نفوت هذه الفرصة السانحة لجعل العالم أكثر سلاماً وأوفر حرية. قام نائب الرئيس بإبلاغ تلك الرسالة. وأنا مدين له بالشكر لأنه فعل ذلك. من المهم جداً بالنسبة إلى هؤلاء القادة أن يفهموا ويستوعبوا طبيعة هذه الإدارة حتى لا يراودهم أي شك حول أننا حين نتكلم إنما نعني ما نقوله، ولا نمارس أي نوع من أنواع التمثيل. نحن لا نلوذ بحزمة من استطلاعات الرأي وطائفة من جماعات الضغط ملتمسين المشورة حول ما ينبغي أن نفعله في العالم وكيف.»

في ذلك اليوم، ٢١ آذار/ مارس، واليوم الذي كان بعده، قام فرانكس بجمع قادة الأسلحة المؤلّفة للقوات المسلحة - الجيش، البحرية، الطيران، والمارينز في قاعدة

رامشتاين الجوية بألمانيا، وهي منشأة جوية أمريكية وناتوية كبيرة. كان هؤلاء هم القادة الميدانيين المرشحين للاضطلاع بمهمة خوض الحرب. ضُم إلى الاجتماع قائد العمليات الخاصة البريغادير جنرال غاري هاريل Gary Harrell. إضافة إلى ذلك، جرى تشكيل قوة مهمات سرية خاصة تحت اسم: «قوة مهمات ٢٠» ، بقيادة الميجر جنرال دل ديلي Del Dailey.

كان فرانكس مستعداً للحرب. بدا مقتنعاً بأن الإدارة كانت ستفي بما وعدت به وبكلمة «الوفاء» كان فرانكس يعني: إذا لم يسارع صدام وعائلته إلى الرحيل وتسليم البلد، فإن الرئيس سيشن الحرب، هل كان صدام وأفراد عائلته سيرحلون؟ استنتج فرانكس أن الجواب كان «لا» على الصعيد العملي.

«ثمة لص في البيت يا شباب!» قال فرانكس لقادته في جلسة مغلقة. كانت تلك عبارة عمليات خاصة تعني: إذا كنت طياراً يتعين عليك أن تعود إلى البيت وتتأكد من أنك شخصياً مطلع على قوائم الأهداف والتوقيت، إذا كنت على الأرض لا بد لك من أن تكون واثقاً ثقة مطلقة من أنك حين تقوم إنك تستطيع أن توصل مقدار س من القوات في يوم ع، ستكون وسائط النقل قادرة فعلاً على توفير فرصة تحقيق ذلك على الأرض، من أن المواعيد التي تعلن عنها هي مواعيد أنت قادر على الالتزام بها. بعبارة أخرى، لم يكن هذا تدريباً مجرداً في مجال التخطيط. أوحى بقدر غير قليل من الشعور بالإلحاح والسرعة. إياكم أن تعلنوا شيئاً لستم قادرين على تنفيذه! هيا إلى العمل الآن!» كان لا بد من تنفيذ المهمة بطريقة أو أخرى.» احذركم من أن تقنعوا أنفسكم بأن هذا لن يحصل.»

كذلك قام فرانكس بعرض رؤيته للعملية المرجوة - أصغر، أخف، أسرع. قال إنه كان يأمل بخطة ٩٠-٤٥-٩٠، بحرب لا تدوم سوى ٢٢٥ يوماً. قام بتلخيص سلاسل العمليات السبع وشرائح قوة النظام التسع.

لم يكن فرانكس مقتنعاً بأهمية إطلاع قادته على جميع اتصالاته مع رمسفلد. غير أن العمل مع الرئيس كان حاسماً لتأكيد حقيقة أن ما كان مطروحاً هو أمر له وزنه لدى القائد العام. كان من شأن ذلك أن يضاعف من مستوى الجدية، مما دفع فرانكس إلى تقديم وصف تفصيلي لكل من لقاءات الإيجاز التي كان قد أجراها مع بوش، بما فيها جلسة ما قبل عيد الميلاد في كروفورد، والإيجاز الذي دام ساعة وعشر دقائق في الشهر السابق. بعبارة أخرى، كان قائدهم العام داعماً لخطته من جهة ومنخرطاً في أدق التفاصيل من جهة ثانية. إلى حدود معينة لم يكن اللص الساطي على البيت سوى جورج دبليو بوش.



بعد يوم واحد، في ٢٣ آذار/ مارس، بدأت هيئة الأركان المشتركة جولة مناورات تحت اسم مطرقة مرفوعة، مناورة مكتبية ورقية إذا جاز التعبير دون أي تحريك فعلي للقوات، تمثل الهدف بتقويم مدى قابلية تنفيذ خطة الأوب رقم ١٠٠٢ الكبرى. إذا ما تم تطبيقها فهل كانت خطة النقل والشحن ناجحة؟ ما تأثير ذلك المحتمل في القوات الأمريكية على مستوى العالم؟ ما لصدى الذي كان سيحدثه في كوريا حيث تحتفظ الولايات المتحدة بقوات يبلغ تعداد أفرادها ٣٧,٠٠٠؟ ما التأثير المحتمل في الحرب على الإرهاب؟ في الأمن الداخلي للوطن الأمريكي، الولايات المتحدة؟

لم يرشح أي شيء عن المناورات في ذلك الوقت، غير أن النيويورك تايمز تحدثت بعد شهرين عن العبر المستخلصة من التدريبات قائلة إن «من شأن» أي حرب على العراق «أن ترتب ضغوطاً كبيرة على الملاكات وتتسبب في حدوث نقص كبير على صعيد جملة معينة من الأسلحة الحساسة والحاسمة.»

◆ ◆ ◆

خلال هذه الفترة ذهب شاؤول إلى تامبا لإطلاع فرانكس على برنامج العمل السري الذي كانت وكالة الاستخبارات المركزية عاكفة على الاضطلاع به ضد العراق.

« أنا قاتلت هؤلاء الناس من قبل، كما تعلم» قال فرانكس الذي كان وهو برتبة بريغادير جنرال، قد اضطلع بمهمة معاون قائد فرقة في فرقة الفرسان الأولى في حرب الخليج. ثم أضاف : «لقد عرفت مستواهم، لست قلقاً.»

رد شاؤول: «أوكي (حسناً) أنت تعرف شغلك، ذلك هو ما يجعلهم يعطونك راتباً.»

في لقاء آخر مع قادة القوات المشاركة، حثهم فرانكس قائلاً: «هذه اللعينة جدية، هذا الخازوق حقيقي! يخطىء من يتوهم بأن هذا لن يحصل، عليكم أن تحركوا مؤخراتكم.»



11

في آذار/ مارس التقى تنت سراً بشخصين كانا سيتخذان مواقف انتقادية من العمل السري في العراق: مسعود البرزاني وجلال الطالباني، زعيمي الفصيليين الكرديين الرئيسيين في شمال العراق. كان الرجلان يتحكمان بقطاعين منفصلين في منطقة كردية تقارب مساحتها مساحة ولاية مين Maine . كان القطاعان شبه مستقلين عن نظام بغداد الصّدامي، غير أن وحدات من الجيش العراقي كانت متمركزة على بعد أميال قليلة من المواقع الكردية الحصينة وكان صدام قادراً بسهولة أن يوجهها إلى محاربة الأكراد وذبحهم كما سبق له أن فعل بعد حرب الخليج حين كانوا قد انتفضوا متوقعين حماية الولايات المتحدة. كان صدام قد سحقهم بهمجية، قاتلاً الآلاف ودافعاً ما يزيد على المليون من اللاجئين إلى الفرار نحو إيران وتركيا المجاورتين. كانت للأكراد علاقة شديدة العداء مع الحكومة التركية الدائبة، تاريخياً، على عدم الاعتراف بالأقلية الكردية الكبيرة أو بلغتها.

نقل تنت رسالة واضحة إلى البرزاني والطالباني: كانت الولايات المتحدة جادة، كان الجيش ووكالة الاستخبارات المركزية قادمين. كان الوضع مختلفاً هذه المرة. لم تكن وكالة الاستخبارات المركزية ستضطلع بالمهمة وحدها. كان الجيش سيهاجم. كان الرئيس بوش يعني ما يقوله. كانت هذه حقبة جديدة. كان صدام محكوماً بالسقوط. بالطبع لم يكن تنت يعرف ما إذا كان ما يقوله صحيحاً، ما إذا كانت الحرب موشكة على الوقوع. إلا أنّه مضطراً لرفع توقعات الأكراد لكسب تعاونهم والتزامهم. كان موشكاً على إرسال بعض ضباطه الميدانيين وشبه العسكريين إلى داخل بيئة بالغة الخطر. كان موقفه بوصفه مديراً لوكالة الاستخبارات (بوصفه دي.

سي. آي. :DCI) كان يريد بيع شـاي مـغـشـوش لأناس من الصـين في سـبـيل تـوفـيـر الحماية لضباطه.

كان مستحيلاً على أي شخص، ولاسيما إذا كان واحداً من الزعماء القبليين والعشائريين، أن يتحاشى الوقوع في شباك غرام شخصية تنت. فهي شخصية ضخمة، عاطفية، سريعة الاشتعال. هو فنان في ارتداء الأقنعة. تلك بالذات عادة شبه قبلية. كان تنت يعرف أن الجميع في هذا الجزء من العالم كانوا يبيعون أشياء معينة: ما من أحد إلا وعاكف على الترويج لبضاعة ما. لن يفاجؤوا إذا وجدوه هو الآخر بياعاً أو بائعاً. ياله من عالم زاخر بالمبالغات الهوجاء! كان تنت بحاجة إلى حمايات، ضمانات، والتزامات، وكان يعرض البضاعة ذاتها. إنها مسألة بقاء، مسألة حياة أو موت. كانت هذه معضلة أخرى من فيض المعضلات التي كان يواجهها- معضلة تقديم وعود قد لا يتم الالتزام بها. وكما كان قد سبق لأسلافه أن تعلموا وكثيراً ما قالوا، إن الوكالة لا تلعب وفقاً لقوانين نبيل كوينز بري الذي كان قد درج على تقديم القفازات وتحديد المواعيد للمتلاكمين في القرن التاسع عشر. فعمليات وكالة الاستخبارات المركزية الخفية كانت الضفة القذرة للحلبة. غير أن تنت كان متوفراً على عَتَلة عملاقة: عتلة المال. كان قادراً على دفع الملايين، عشرات الملايين من الدولارات على شكل رزم من فئة الـ ١٠٠ دولار أمريكي. إذا قام مدنيو أو ضباط وزارة الدفاع، أو دبلوماسيو وزارة الخارجية بدفع المال من أجل دفع هذا الشخص أو ذاك للقيام بعمل أو لتغيير سياسة محددة، فإن من شأن ذلك أن يكون رشوة غير مشروعة. أما وكالة الاستخبارات المركزية فقد كانت الجهة الوحيدة في الحكومة الأمريكية المخولة برشوة الناس.

كان تنت قد أبلغ بوش أن بعض المال كان سيُدفع توخياً لإقامة سلسلة من العلاقات ولإظهار قدر مقنع من الجدية. وقد لا يبدو أن كل ما يجري إنفاقه قد

أنفق على نحو سليم. كان المشهد أشبه ببركة ملأى بأعداد كبيرة من قطع السمك المفروم الصغيرة المبعثرة فوق سطح الماء بهدف اجتذاب فراخ السمك الكبيرة. في الاستخبارات، تعين على المرء أكثر الأحيان أن ينشر طعم السمك المفروم على نطاق واسع. كان هذا موضوعاً آخر تطابقت بشأنه وجهتا نظر الرئيس وتنت. فبوش، أحد أكبر جامعي التبرعات السياسية في التاريخ، وتنت، فارس أموال الحكومة الأمريكية السرية، كانا متأكدين من مدى قدرة المال على صنع المعجزات. لذا فإن تنت كان يطلب الكثير ويعرض فرق وكالة الاستخبارات المركزية، وأكياس المال».



في ٢٩ آذار/ مارس توغل الجنرال فرانكس في أرض معادية - الدبابة، فضاء الاجتماع الآمن لرؤساء الأركان المشتركة، رؤساء كل من الأسلحة الأربعة. من نواح كثيرة تبقى عبارة هيئة الرؤساء المشتركة إحدى المفارقات التاريخية. وفقاً لقانون الولايات المتحدة الذي يحمل عنوان آكس (X)، هذا القانون الذي يعالج موضوع الجيش، يتولى الرؤساء الأربعة - رئيس أركان الجيش (القوات البرية)، رئيس العمليات البحرية، رئيس أركان سلاح الطيران، وقائد جيوش المارينز (مشاة البحرية) - مسؤولية تجهيز، تدريب، وتجهيز أسلحتهم. غير أن هؤلاء الرؤساء لا يتولون قيادة أي قوات على أرض المعركة. فالقوات توضع تحت إمرة قادة ميدانيين مثل فرانكس نفسه.

بما أن فرانكس كان يقدم تقاريره إلى وزير الدفاع مباشرة، فإن رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة لم يكن رئيسه، كما لم يكن رؤساء الأسلحة، عليهم اللعنة، رؤساءه - على الرغم من أنهم جميعاً كانوا أعلى رتبة منه بمعايير القدم التكتيكية المعروفة. وبالفعل فإن فرانكس بدا قريباً من أن يعتبر نفسه خارج الجيش. كان مقاتلاً حربياً خليطاً. ذات مرة قال: « أنا قرمزي مطلق»، باعتبار اللون القرمزي

هو اللون الذي يمكن أن ينشأ إذا وضعت زياً رسمياً من كل سلاح في خلاّط.

كان التوتر بين فرانكس والرؤساء ظاهراً للعيان. في السنة السابقة، خلال ذروة الحملة الأفغانية كان الرؤساء، انسجاماً مع نزعتهم المعروفة، يطالبون بإشراك المزيد من قواتهم الخاصة في الحرب- كان رئيس العمليات البحرية يطالب بإرسال حاملة طائرات أخرى، ورئيس أركان الجيش بدفع لواء آخر، ورئيس أركان سلاح الطيران بنقل سرب إضافي.

في أحد الأيام انفجر فرانكس نصف مازح في وجوه الرؤساء قائلاً: « انتم يا جماعة العنوان اكس X، يامن يفعلونها بأمهاتهم اسمحوا لي أن أقول لكم شيئاً. آخر المطاف سنتولى نحن، أعني القائدين الميدانيين، أعني أنا والريّس الذي أعمل لديه (رمسفلد) مهمة صياغة عملية مشتركة ومركبة هنا، وهي عملية لن تحمل لمسة واحدة من أي من أسلحتكم.»

عدد غير قليل من الرؤساء يتذكر تفجر فرانكس على أنه كان أقرب إلى المزاح منه إلى المجابهة والاستفزاز، رغم عدم قدرتهم على نسيان اعتبارهم: « جماعة العنوان اكس X ممن يفعلونها بأمهاتهم.»

تعين على فرانكس الآن أن يطلعهم على ما استجد في خطته العراقية. كانت جلسة إيجاز طويلة مع ما يزيد على ٧٠ سلايداً. حاول تقديم الصورة كما لو كانت مفهوم عمليات في المقام الأول؛ تقديم آخر ما استجد بشأن الاقلاع المولد- ربما ١٨٠,٠٠٠ إلى ٢٠٠,٠٠٠ جندي نصف حجم قوات عاصفة الصحراء.

قال فرانكس إن لديه ستة أشهر حتى يكون جاهزاً للتنفيذ في الفاتح من تشرين الأول/ اكتوبر إذا ما أمر الرئيس بذلك. ولكن ليس في موعد أبكر من ١ تشرين الأول/ اكتوبر.

رأى أحد الرؤساء أن تقدير مدى جدية هذا النقاش كان صعباً للغاية. فجزء منه بدا كما لو كان نوعاً من التدرب على إثارة الرعب في قلب صدام. ثمة كانت أطنان من الأسئلة.

في إحدى المراحل، كان فرانكس قد استخدم خمس حاملات طائرات تابعة لسلاح البحرية في عملية أفغانستان، فما العدد الذي كان من شأنه أن يكون مطلوباً للعراق؟ كيف تنعش هذه القوة أو تطبق عليها أسلوب التناوب في حرب طويلة؟ ماذا عن أسلحة التدمير الشامل المفترضة؟ كيف سيكون الرد العراقي؟ ما الذي يمكن لإسرائيل أن تفعله في حال تعرضها للهجوم؟ كيف يتم احتلال بغداد، العاصمة، ذات الكتلة السكانية المؤلفة من ٥ ملايين نسمة؟

عبر رئيس الجيش، الجنرال ارك-كي شينسكي Eric K. Shinseki عن القلق بشأن الدعم اللوجستي لعملية اجتياح كبيرة لبلد بحجم العراق. ما السبيل إلى إعالة وإدامة القوات الموجودة على الأرض؟ ما حجم القوة التي من شأنها أن تكون مطلوبة لضمان النجاح؟

كان وولفوفيتز، ومعه حشد من العاملين في مجال التخطيط السياسي، يرى أن من شأن الحرب مع العراق أن تكون سهلة نسبياً، كما أفاد أحد الرؤساء. هل كان فرانكس متفقاً معهم في الرأي؟

تمثل سؤال آخر بما يلي: ما العمل بالقوة بين الآن وذلك الوقت؟

حاول فرانكس الإجابة على أسئلتهم، غير أن الرؤساء لم يبدوا سعداء. كانت «جماعة العنوان X ممن يفعلونها بأمهاتهم» قد هُمشوا منذ إصلاح غولدووتر-نيكولز التشريعي في ١٩٨٦، ذلك الإصلاح الذي أعطى جل السلطة الاستشارية المهمة إلى رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة.

◆ ◆ ◆

قام الزوجان بوش باستضافة رئيس الوزراء البريطاني وعائلته في مزرعتهما بكروفورد خلال نهاية الأسبوع الواقعة يومي ٦و٧ نيسان/ ابريل. وفي مقابلة مع شبكة آي. تي. في ITV البريطانية، حاصر المراسل تريفور ماكدونالد Trevor Mc Donald رئيس الجمهورية بسؤال عن العراق، فرد عليه الأخير قائلاً: « قررت أن صداماً يجب أن يرحل ذلك هو كل ما أريد تقاسمه معك!»

سأله ماكدونالد: « إذن يجب على صدام أن يرحل؟»

رد بوش بشيء من النزق: «ذلك هو ما قلته للتو. تقضي سياسة حكومتي بأن عليه أن يرحل.»

«يرى الناس أنه ليست لصدام حسين أي علاقات بشبكة القاعدة، وأتساءل عن السبب الذي جعلكم...»

« إن أسوأ ما يمكن أن يحدث هو السماح لدولة مثل العراق، يحكمها صدام حسين، بتطوير أسلحة تدمير شامل، والتوافق بعد ذلك مع منظمات إرهابية وصولاً إلى تمكين هؤلاء- صدام والمنظمات الإرهابية - من ابتزاز العالم. لن أسمح لذلك بأن يحدث.»

« وكيف ستحقق هذا، سيادة الرئيس؟»

« انتظر لترى!»

سأله ماكدونالد عن مفتشي الأسلحة. أفاد بوش برغبته في عودتهم إلى العراق مضيفاً: « ولكن هذه ليست قضية مفتشين. إنها قضية التزام (صدام) بالعهد الذي قطعه بشأن الامتناع عن تطوير أسلحة تدمير شامل.»

سأل ماكدونالد: « وهكذا فإنه على قائمة المعرضين للهجوم سواء أسمح للمفتشين بالعودة أم لم يفعل؟ إنه الهدف التالي؟»

«تحاول أن تدور وتلف و ...» قال بوش، ثم استأنف جملته «أنت أحد هؤلاء المراسلين الأذكياء الذين لا يملون من السعي إلى وضع كلمات في فمي.»

«بعيد أنا كل البعد عن ذلك، يا سيادة الرئيس.»

«حسناً، أخشى أنك كذلك، يا حضرة الصحفي. ولكنك، ومهما يكن من أمر، قد حصلت على إجابتي بشأن هذا الموضوع.» أدى الضغط والحصار إلى إيصال بوش إلى منطقة خطرة إذ قال: «وأنا ليست لدي خطط للهجوم على مكتبي.» ورغم أن الكلام صحيح تكتيكياً، فقد ألقى بظلال الغموض على الطابع المباشر والشخصي لانخراطه في عملية التخطيط للحرب.



قام فرانكس بإطلاع رمسفلد على ما استجد في ١١ نيسان/ ابريل عبر قناة فيديو آمنة، مركزاً على الاستعدادات الحربية المحددة التي كان من الممكن القيام بها دون لفت أنظار الجمهور كثيراً. ولأن المفهوم كان يدعو إلى هجوم أحادي من جانب الولايات المتحدة من جهة الجنوب عبر الكويت فقد تعين عليهم أن يبذلوا جهوداً لتحسين أحوال مطارات مختلفة في البلدان الخليجية مثل عُمان، الإمارات العربية المتحدة، والكويت نفسها. كميات متزايدة باطراد من المعدات المخزنة سلفاً والمؤن كانت تصل، متطلبة إنشاء منصات خرسانية للتخزين.

أضف إلى ذلك أن الحاجة كانت ستدعو إلى توفير كميات هائلة من المحروقات مع بدء القوات لاحقاً بالتقدم من الكويت إلى قلب العراق. كيف كانت الولايات المتحدة ستتمكن من توظيف خطوط محروقات موجودة مدعومة من جانب الكويتيين ولكنها غير معروفة من قبل الدول الأخرى؟

مثل هذه الاستعدادات - وقد كانت البداية فقط - كان من شأنها أن تكلف

مبلغاً يتراوح ربما بين ٢٠٠ و٤٠٠ مليون من الدولارات الأمريكية. ورداً على الصدمة الموجعة تساءل رمسفلد بصوت مرتفع عن توفر طريقة ما لجعل بلدان أخرى تسدد قيمة هذه الفاتورة؟ قال الوزير إنه كان يريد أن يتطلع إلى الأمام. ثم سأل، معيداً صياغة سؤال الرئيس الأبكر: كيف كانوا سيردون إذا أقدم صدام على عمل مفرط في طيشه؟

ما لبث هذا أن تطور إلى عملية العين الساهرة الجنوبية التي كانت، مع بدء القصف الأمريكي في أفغانستان قبل ستة أشهر، قد وُضعت على نوع من أنواع رف الانتظار. مع أنها كانت مهيأة للرد على الاستفزازات، بقي هدفها الحقيقي متمثلاً بجمع المعلومات الاستخباراتية ومراقبة مناطق حظر التحليق. هل بات التحلي بقدر أكبر من العدوانية في مجال جمع المعلومات الاستخباراتية أمراً ممكناً بعد الآن؟ هل أصبح التحليق ضرورياً أكثر؟ هل كان من شأن مثل هذه العمليات أن تشكل أسافين تحسِّن وضع الولايات المتحدة قبل الحرب تراكمياً؟



بعد ما يزيد على أسبوع فقط، في ٢٠ نيسان/ابريل، قدم فرانكس تقريراً موجزاً إلى الرئيس في اجتماع يوم سبت بكامب ديفد.

قال فرانكس: « أشعر أنني أكثر ميلاً إلى المفهوم الصغير، الأخف، المسرَّع أكثر. يبدو أن المفهوم بدأ يتكامل. ربما سأصبح قادراً

يا سيادة الرئيس، على اختزال الوقت بمقدار الثلث تقريباً قياساً لما كنت أفكر به في البداية.» في نهاية تلك الفترة كانت الحاجة ستدعو إلى نشر نحو ١٨٠،٠٠٠ جندي. وفي حال عدم تحقق النجاح مباشرة، كان من شأن حجم القوة أن ينمو إلى نحو ٢٥٠،٠٠٠ مع انتهاء المرحلة الثالثة، العمليات القتالية الحاسمة.

أضاف فرانكس « لست مقتنعاً بهذا بعد» ثمة دراسات وتدريبات للوقوف على أبعاد مشكلتي الزمن والبعد . « لا تأخذوا هذه الأرقام، يا سيادة الرئيس، على أنها المرشحة للتنفيذ . ليست هذه بالمناسبة، إلا الصورة التي توصلنا إليها الآن بالتحديد .»

علق بوش قائلاً : « مهم حقاً بالنسبة إلينا الا نترك أنفسنا مكشوفين في المنطقة .» كان من شأن إطالة أمد العمليات القتالية أكثر أن تفضي، برأي الرئيس، إلى زيادة احتمالات تعرض الولايات المتحدة لتأثير التفاعلات السياسية في المنطقة وديناميكيات هذه التفاعلات. كان الرئيس يريد إنجاز المهمة بأكبر قدر ممكن من الكفاءة وخلال أقصر فترة زمنية ممكنة . وفي الوقت نفسه قال الرئيس لفرانكس إن عليه الا يدع النقاش أو حرصه على اعتماد طرق تؤدي إلى تكثيف البرامج الزمنية والعمليات القتالية يقودانه إلى الاعتقاد بأن أحداً كان يستطيع أن ينجز هذا بأي شيء أقل مما كان مطلوباً .

أضاف الرئيس: «تحدثي، يا تومي، عما هو مطلوب للقيام بهذا . ومن الواضح انني أريد الاطمئنان إلى إنجازنا لهذا العمل بشكل صحيح وبسرعة .»

انتبه فرانكس إلى المشكلة . قد لا يكون «صحيح» و «سريع» الشيء ذاته بالطبع . فالسرعة قد تقود في الحقيقة إلى الخطأ . أطلق على الأمر اسم «الإشارة الرئاسية» وبقي شديد الارتياب إزاءه .

قال الجنرال: «سأقوم بِرَوْز الخطر قبل أن أقول لكم إن عندي خطة أنا جاهز لتنفيذها .»

أما السؤالان المفتاحيان فكانا، برأيه، هما : « ما حجم القوة الواجب حشدها وخلال أي فترة زمنية كي لا تدوم العملية طويلاً بعد إطلاقها؟» و «ما طول الوقت الذي سيمضي قبل أن تصبحوا حاسمين وعازمين على الإنجاز؟»

علق الرئيس بشيء من الانبهار «صحيح تماماً. انت خبيري يا تومي. عليك انت أن تحدثني عما هو مطلوب لإنجاز الأمر. ستحصل على كل ما انت بحاجة إليه.»

وفي محطة أخرى أضاف بوش: « إذا دام هذا طويلاً، فإن المنطقة، يقول ديك تشيني، سوف... سنواجه مشكلة.» يالها من كلمة لطيفة لوصف الكارثة! إشارة رئاسية أخرى. ثم أضاف الرئيس: « سيتعين علي أن أخوضها مهما استغرقت من وقت، غير انني فكرت فقط ان اقول ذلك.»



تذكر بوش لاحقاً أنه كان يحاول بالفعل إرسال الإشارات. «مهم جداً لأي رئيس جمهورية أن ينأى بنفسه عن اعتماد أسلوب الإدارة الجزئية لأي خطة حربية عبر تمزيقها إلى صفحة أولى خاصة بالسياسة الداخلية وصفحة ثانية متركزة على السياسية الدولية. ومن جهة ثانية أردت، كما خطط فرانكس، أن يستوعب الأخير بعض الظلال والنزعات، أو أن يتفهم القضايا بطريقة متناغمة ومتوازنة. لعل أسوأ شيء يمكن لأي رئيس جمهورية أن يفعله هو أن يقول: «يا إلهي، لا، ينبغي لخطة الحرب أن تتوافق مع برنامج زمني سياسي محدد».

«من الحساس جداً بالنسبة إلى أي رئيس جمهورية أن يتعامل مع جنرالاته. يجب عليه أن يتحلى بقدر كبير من الحذر. يتلقفون كل شيء-» قال الرئيس، ثم استأنف الكلام مؤكداً « إنه تسلسل قيادة حيث يتم أخذ أي شيء يقوله الرئيس بقدر استثنائي من الجدية من قبل الجميع على مختلف المستويات العليا والدنيا من تسلسل المراتب القيادية. لذا أجدني منتبها إلى ذلك.» وهكذا فإنه كان يصدر إشارات دون «تعريض» ما كان فرانكس راغباً في القيام به «لأي خطر». «تذكروا ما

يلي: إذا حاول رئيس للجمهورية أن يصمم خطة حربية، فإنه يعرض جنوده للخطر، لأنني مصمم خطط حرب مقمّل».



في ٢٤ نيسان/ ابريل تشاجر فرانكس ثانية مع مرؤسيه الرئيسيين من القادة، في الدوحة القَطَرية، هذه المرة. بدا عدد المهمات التمهيدية لا نهائياً، مع حشد هائل من التفاصيل الصغيرة ظاهرياً التي من شأنها، في حال عدم معالجتها، أن تؤخر أي عملية أو حتى تعطلها جزئياً او كلياً.

كان الجنرال قد استنتج أن هناك طريقتين لإنجاز المهمات بوصفه قائداً ميدانياً: ١- مطالبة واشنطن بتنفيذ ما هو ضروري أو تركه هو يفعل ذلك، أو ٢- المبادرة إلى التنفيذ دون تردد.

من الواضح أن بوش كان قد منحه صلاحيات استثنائية، حين أعلن أن التكلفة كانت قابلة لأن تصل إلى أي رقم.

طلب فرانكس من مرؤوسيه القادة أن يُعْلموه بما هم بحاجة إليه، لأنهم لم يعودوا مضطرين لتقديم طلبات مالية إلى واشنطن. إذا شعروا بحاجة إلى تعديل مركبة ميدانية في الكويت بتكاليف قد تصل إلى عدد من ملايين الدولارات، فما عليهم إلا أن يبادروا دون تردد. الشيء نفسه صحيح بالنسبة إلى توسيع وزيادة طول أحد المدارج في عُمان، أو صب أرضيات خرسانية في الأردن. هيا افعلوا دون انتظار!

فيما بعد قدم فرانكس تقريراً إلى رمسفلد الذي علق قائلاً: «الفواتير آتية. الأموال بحوزة مراقب حسابات البنتاغون. هيا إلى الأمام!»

◆ ◆ ◆

في ٩ أيار/ مايو طلب فرانكس رسمياً من مرؤوسيه القادة وضع خطة لخيار فتح جبهة ثانية أو شمالية لشن هجوم إلى داخل العراق عبر تركيا. لم يكن مقتنعاً بأن تركيا كانت ستلتحق بالركب، مما أبقى كل التخطيط متركزاً على الهجوم من الجنوب أو من الكويت فقط. ولكن نظراً لأن التعاون مع تركيا كان محتملاً على الأقل، فقد أراد فرانكس معاينة الأمر. في حال صيرورته قابلاً للتنفيذ كان من شأن الحدود العراقية - التركية الممتدة مئة ميل أن تُستخدم لإدخال قوة بحجم فرقة مؤلفة من نحو ١٥,٠٠٠ إلى ٢٠,٠٠٠ جندي. ومع إضافة جميع عناصر الدعم قدر فرانكس مبدئياً أن أقدام ٢٥,٠٠٠ إلى ٣٠,٠٠٠ جندي ستطأ أرض تركيا. من المؤكد أن الأتراك كانوا سيُبدّون قدراً من الحساسية إزاء ذلك. غير أن فرانكس رأى أن الموضوع كان جديراً بأن يحاول.



في اليوم التالي، ١٠ أيار/ مايو قام فرانكس بإيجاز هذه المناقشات على مسامع رمسفلد. كان الوزير مشغولاً بالبحث عن صياغة رشيقة. ما كانت الزوايا كلها؟ ما الذي كان من شأنه أن يفاجئهم؟ ما الذي كانوا قد أغفلوه، أخفقوا في توقعه؟ ثمة كانت جملة واسعة من المتغيرات والمجاهيل. ما الذي لم يكونوا يرونه وهو أمام أعينهم؟ كان نزوع صدام إلى الاستفزاز وقدرته عليه على نحو رئيسي أحد «المجاهيل المعروفة». ما كان أشد إثارة للقلق هو موضوع «المجاهيل غير المعروفة» الذي كثيراً ما كان رمسفلد يتحدث عنه، موضوع الأشياء الباقية في الظلام الكامل.

تمثل السؤال المعلق الباقي دون إجابة بالتالي: ماذا لو نجح صدام في إجبار الولايات المتحدة على دخول الحرب قبل أن تصبح مستعدة؟

ما كان متوفراً كنوع من الرد، حتى اللحظة، هو طائرات سلاح الجو والبحرية الموجودة أساساً. فعمليات مراقبة الحظر الجنوبية والشمالية كانت مشتملة على

مجموعة حاملة طائرات قتالية فيها ما يزيد على ٧٠ طائرة إضافة إلى ١٢٠ طائرة موجودة في قواعد برية تابعة لسلاح الطيران. كان العدد الإجمالي نحو ٢٠٠ طائرة. أطلقوا على هذه الخطة اسم الخطة الزرقاء - ما كان يمكن توفيره في غضون أربع إلى ست ساعات رداً على إيعاز: تعال كما أنت كسباً للوقت!

كيف يمكن زيادة ذلك العنصر الجوي وصولاً إلى سلسلة متدرجة من العمليات الجوية التي من شأنها أن تتيح ما يكفي من الوقت لتدفق القوات البرية على المنطقة لشن هجوم بري؟

كانت الحسابات الأولية بأن المستوى الأبيض من الطائرات - نحو ٤٥٠ طائرة - من شأنه أن يتوفر في المنطقة في غضون سبعة أيام بعد حصول أي استفزاز. وبعد ذلك خلال أسبوعين آخرين كان من الممكن بناء ما عُرفت باسم الخطة الحمراء القائمة على نحو ٧٥٠ إلى ٨٠٠ طائرة.

بقي هذا نحو نصف القوة القتالية الجوية لعملية عاصفة الصحراء في ١٩٩١.

في وقت متأخر من اليوم نفسه، انكب فرانكس على إيجازه المتعلق بآخر ما استجد على صعيد خطة الانطلاق المولد أمام كبار مسؤولي مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض. في هذا الإيجاز الذي غاب عنه رئيس الجمهورية، قام فرانكس بعرض خريطة للعراق والدول المجاورة المحيطة به. استعرض المرحلة التي تم الوصول إليها على صعيد أشكال التفاهم المختلفة مع كل بلد - أين كان الحصول على المساعدة ممكناً برأيه، وأين كان ذلك موضع شك؟

نظراً لأن الخطة الأخيرة، خطة ٩٠-٤٥-٩٠، كانت تتطلب ٢٢٥ يوماً للحشد والحرب، فقد سألت رايس عن مدى توفر أي طريقة أسرع لإنجاز المهمة، تقليص النهاية الأمامية. كان عامل الزمن هو موطن الضعف والهشاشة.

أفاد فرانكس بأنه كان عاكفاً على ذلك. أطلع الحضور على الخطط الزرقاء، البيضاء، والحمراء الخاصة بالعمليات الجوية إذا ما أقدم صدام على الاستفزاز.

طرح پاول طوفاناً من الأسئلة عن الدعم الذي يمكن، واقعياً، توقعه من بعض البلدان التي كانت تحترف الاضطلاع بأدوار مزدوجة- علنية من ناحية وسرية من ناحية ثانية. كانت المضاعفات بالنسبة إلى المنطقة غير قابلة للتخمين، مما كان يدفع هذه البلدان إلى أن تبقى حريصة على أن تنأى بنفسها. أراد پاول أن يطرح عدداً من المسائل الإضافية على النقاش. ناظراً إلى الخريطة أشار إلى أن هناك ميناء بحرياً واحداً فقط يمكن أن تتدفق عبره سيول الوحدات القتالية والمؤن. في عاصفة الصحراء كان قد سبق أن توفر لهم عدد غير قليل من الموانئ.

أضاف پاول: « أعرف يا تومي أنك خبير في هذا الآن، وأنا لست خبيراً، غير أنني منطلقاً مما أفهمه..» ثم أطرى عملية التخطيط، اللعبة التكتيكية المحتملة. «هل فكرت بالأمور اللوجستية؟ هل تستطيع عملية الثروبوت¬ عبارة لوجستبه تعني نقطة العبور تعمد پاول استخدامها- «أن تتعامل مع هذا؟ وهل عندك ما أنت بحاجة إليه وتستطيع الحصول على ما تفتقر إليه عبر ذلك الميناء الوحيد؟»

كان فرانكس يعتبر پاول «صديقاً إلى حد متواضع»، وكان الجنرال القائد الممسك بزمام الأمر يرى الجنرال السابق مسرفاً في تأنقه. كان السؤال معقولاً، ثم طرحه سعياً وراء هدفين: إطلاع الآخرين، والرئيس آخر المطاف، على الحقيقة أولاً؛ تنبيه فرانكس بحصافة إلى ضرورة الاهتمام الجدي بالأمور اللوجستية ثانياً.

جاء رد فرانكس مفعماً بالثقة ولكنه أصر، كما هي عادته مع سائر الأشياء الأخرى، على أن العمل كان جارياً على نحو جدي وأن جميع الأجوبة لم تكن متوفرة، حتى ولا قريبة من التوفر، بل ولا حتى جميع الأسئلة.

أضف إلى ذلك أن فرانكس ظن أن پاول كانت لديه مخاوف لم يتم الافصاح عنها. لم يكن فرانكس عاكفاً على تصميم عملية قوة طاغية من النوعية التي كان پاول قد استخدمها في حرب الخليج، بل كان يسير باتجاه خطة أخف، أسرع متميزة بقدر أكبر من التعقيد، مع كثرة من الأجزاء المتحركة. ربما أحس پاول بوجود قدر أكبر مما ينبغي من الخطر.

كان پاول يؤمن بالحد الأقصى من القوة العسكرية عند لحظة القرار وكان عازماً على طرح أسئلة وتقديم تعليقات سواء أُطلب منه ذلك أم لا. سأل: «ماذا عن مدى كفاية القوات المشاركة؟»

أفاد فرانكس بأنه كان يسعى نحو توفير العدد المناسب.

ماذا عن التكاليف؟

قال فرانكس إن الكلفة العملياتية الإجمالية لم تكن معروفة عند هذا المنعطف لأنه كان لا يزال مستمراً في التفكير بحجم القوة ودائباً على تعديل هذا الحجم وتشكيله.

في يوم السبت الواقع في ١١ أيار/ مايو اصطحب فرانكس خرائطه وملخصاته إلى كامب ديفد لعقد جلسة مطولة مع الرئيس. قام بعرض خطة الهجوم بطريقة مغايرة، قائلاً إن من شأنها أن تتألف من خمس جبهات. ثمة كانت أولاً جبهة غربية حيث كان سيرسل قوات عمليات خاصة للحيلولة دون إطلاق صواريخ سكود. وهناك كانت، ثانياً، جبهة جنوبية- جادةُ الهجوم الرئيسية الممتدة من العراق؛ كان من شأن هذه الجبهة أن تتألف من أكثر من فرقتين من القوات البرية مع نحو فرقتي مارينز. أما الجبهة الثالثة فكانت ستتشكل من جميع العمليات الإعلامية. وكانت الجبهة الرابعة هجوماً راسياً متوغلاً في قلب بغداد. وثمة كانت جبهته خامسة مرشحة لأن تمر عبر تركيا إذا تم كسب موافقة الأتراك.

قام فرانكس بوصف حجم قوة العدو. في الشمال كانت لدى صدام ١١ فرقة برية نظامية وفرقتا حرس جمهوري. وفي الجنوب كانت عنده ٥ فرق برية نظامية مع الأعداد الباقية من فرق الحرس الجمهوري الخاص حول بغداد.

عبرت رايس وكارد عن القلق بشأن سيناريو «قلعة بغدادية حصينة» مع نزول صدام إلى ما تحت الأرض وقيامه بفرض حرب شوارع مدينية بشعة مرشحة لأن تستمر طويلاً.

الرئيس أيضاً طرح جملة من الأسئلة عن بغداد القلعة. ظن فرانكس أن الرئيس كان يردد صدى قلق آخرين، أنه كان قد تعرض لما يشبه التلقين حتى يسأل عن المدينة.

رد فرانكس مؤكداً على استحالة الاستباق وقطع الطريق على قيام هذا الرجل بتجميع كل ما لديه من قوة في بغداد إذا ما اختار المقاومة بهذه الطريقة نظراً لأن مسافة ٣٠٠ ميل تفصل المدينة عن الحدود الكويتية، التركية، والأردنية. وخصوصاً، أضاف الجنرال، إذا قررت الولايات المتحدة أن تهاجم بقوة أصغر وأن تفعل ذلك بسرعة فائقة. كان صدام سيجد ما يكفي من الوقت للانتقال إلى داخل بغداد إذا أراد.« إذا اختار أن يفعل ذلك فإن المسألة ستكون صعبة علينا، ولكننا سوف نربح في نهاية المطاف.»



12

«كفى إزعاجاً!» قال الرئيس لكارل روف يوم السبت الواقع في ١١ أيار/ مايو. كان الأخير قد لفت نظر الرئيس إلى مادة كانت النيويورك تايمز عاكفة على إعدادها عن إقحام روف المتزايد في قرارت السياسة الخارجية. كان الأفضل على الدوام هو إبقاء بوش بعيداً عن التعرض المفاجئ لأنباء قصص حول حروب داخلية. أكد روف بالحاح أنه لم يكن قد حرض على نشر القصة كما لم يكن متعاوناً مع المراسلين. قال الرئيس: «لا تبال بالأمر، إنه قطاع كوندي. فهي امرأة» أضاف الرئيس مازحاً.

رد روف ساخراً «ذلك تعليق جنسي مثير يا سيادة الرئيس.»

كانت شجارات روف الأخيرة مع باول، أحد الأكثر قرباً، بدلاً من أن تكون مع رايس. كان مكتب روف دائباً على معاينة جميع موظفي الإدارة، وفي ثلاث مناسبات حديثة كانت وزارة الخارجية قد حاولت تعيين أشخاص محترفين في مناصب مخصصة لموظفين سياسيين. وهؤلاء الأخيرون كانوا سند روف ومصدر نفوذه في داخل الوزارة. كان يتابعهم مثل صقر. تركزت محاولات باول الثلاث الأخيرة للالتفاف على النظام بما يلي: ملء شاغر غير احترافي في وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية (يو. إس. إيد USAID) بشخص محترف؛ ترقية آخر إلى منصب سفير كامل الصلاحيات؛ وجاءت المحاولة الثالثة على شكل تعيين ديمقراطي منسق برامج مواعيد في مكتب آرميتاج. رد روف بالرسالة التالية: «لن نقول لك لا أبداً.. ما الذي ستفعله من أجلنا؟»

غيـر أن التـايمز لم تكن تتطرق إلى أي من هذه الأمـور. كـان روف قـد رفض المقـابلة ورد عبـر البـريد الالكتروني قـائلاً: «لست عميق الانخـراط في السيـاسـة الخارجية!»

يوم الأحد اتصل الرئيس بروف لاستشارته قائلاً: « لا أرى أنها قصة عنك». في اليوم التالي، الاثنين الواقع في ١٢ أيار/ مايو كان عنوان المادة على الصفحة الأولى: «بعضهم في الإدارة يغمغمون متذمرين من دور المساعد المتعاظم على ما يبدو.» أكدت المقالة أن باول «أطفئ» جراء تأكيد روف أن الحرب في أفغانستان يجب توظيفها لخدمة بوش سياسياً. غير أنها لم تتضمن إلا القليل من التفاصيل المحددة، كما لم تَشِ بأن روف كان في صراع مع رايس.

كان روف في مكتب الجناح الغربي المخصص له على الطبقة الثانية الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين تقريباً صباح يوم الاثنين حين اتصل باول عبر الهاتف.

قال وزير الخارجية: «إنها كومة زبل من روث الخيل. نحن صديقان. بقيت على الدوام أشعر بأنه بيننا علاقة جيدة.» إذا كان ثمة أحد يتفهم وجود تشعبات سياسية بحاجة إلى الروز في كل شيء فإن هذا لم يكن سوى باول.» وأنت مستشار الرئيس السياسي ويفترض فيك أن تنصحه.»

«حسنا، شكراً» رد روف.» أقدر لك هذا يا سيادة الوزير!»

قدر روف أن الخارجية - أو باول - كانت راغبة في الرد على البيت الأبيض، وكانت الطريقة الفضلى لفعل ذلك هي إضفاء الصفة السياسية على كل شيء، السعي إلى تعديل أي خط متشدد.

لم يكن، كما شعر، سوى ضرر جانبي، رغم ادعائه عدم الاطلاع على سبب القصة وإعلانه عدم الاهتمام صراحة.

حين رأى الرئيس، الذي كـان مطلعـاً على التـوتر، روف في وقت لاحق من ذلك اليـوم، قال لـه بشيء من التحبب إلى مستشاره السياسي الأول، «كيف حالك اليوم، سيادة الوزير؟»



من جـانبه كان تشيني يعرف أن صراع السياسة الخارجيـة الحقيقي داخل الإدارة لم يكن حول روف بل بشأن پاول. في إحدى الأماسي علق في جلسة خاصة، أن الإدارة تورطت في هذه المناقشات الحادة حول طرفي الحكومة الإيرانية، طرف الرئيس المنتخب ديمقراطياً، محمد خاتمي من جهة، وطرف الزعيم الديني الثيوقراطي القوي آية الله علي خامنئي من الجهة المقابلة. «يدور الجدل حول ما إذا كان هناك وجهان للحكومة نفسها أم نحن بصدد حكومتين منفصلتين» قال تشيني عن إيران، ثم أضاف مازحاً: « ينطبق السؤال نفسه على دون رمسفلد وكولن پاول.»

تركَّزَ أحد الاختلافات الجوهرية بين رمسفلد وپاول على قضية الهجمات الاستباقية. فمنذ ٩/١١ كان رمسفلد مصراً على القول بأن الدفاع لم يكن كافياً، وبأن على الولايات المتحدة أن تتخذ موقفاً هجومياً. كان لابد من نقل المعركة إلى الإرهابيين؛ كان لابد من مهاجمتهم، استئصالهم استباقياً. أما فيما يخص پاول فإن أي نقاش لموضوع استخدام الجيش بموجب هذه الذريعة أو تلك، ودون حصول تهديد مباشر لأمن الويات المتحدة القومي كان يثير أعصابه على نحو استثنائي.

في ٢٩ أيار/ مايو، ألقى وزير الخارجية الأسبق في إدارة ريغان، جورج بي. شولتز George p. Shultz، الذي كان الآن في مؤسسة هوفر، وهي مركز أبحاث (ثنك تانك) صقرية (متشددة) سخية التمويل بجامعة ستانفورد، خطاباً متشدداً بمناسبة حفل تكريس مركز تدريب السياسة الخارجية القومي الذي أطلق عليه اسمه. أطرى شولتز تعليقات حديثة صادرة عن رمسفلد قال فيها إن على المعركة أن

تُقل إلى الإرهابيين. وأضاف أن حق استباق التهديدات الإرهابية كان يتسع ليشمل التهديدات داخل حدود أي بلد آخر. ثم أكد أن هذا كان يعني ليس فقط ما أطلق عليه اسم مطاردة ساخنة، بل و «استباق ساخن» .

قال تشيني لزوجه معلقاً: «إنه شولتز في» أفضل حالاته وأكثرها حكمة.»



في الأسبوع نفسه، كان الرئيس بوش قد طار إلى أوربا للقاء المستشار الألماني غيرهارد شرويدر Gerhard Schroeder في ٢٣ أيار/مايو والرئيس الفرنسي جاك شيراك Jacques Chirac في ٢٦ أيار/مايو. وفي مؤتمرين صحفيين عُقدا في كل من العاصمتين، قال الرئيس للحليفتين الرئيسيتين في القارة الأوربية: « ليست لدي أي خطط حربية على مكتبي.» كان بوش قد استخدم هذه الصياغة حتى الآن ثلاث مرات على الملأ. لم يكن ملزماً بالكشف عن الجهود الموسعة الجارية على قدم وساق تخطيطاً للحرب، وكان من شأن الإقدام على مثل هذا الكشف أن يكون مفتقراً إلى الحكمة لأنه كان سيفضي إلى إطلاق طوفان من التخمينات وعمليات السبر والاستقصاء من جانب المراسلين. غير أن النظرة إلى الوراء تشير بوضوح لا لبس فيه إلى أنه كان من الأفضل لبوش أن يكون قد كرر بكل بساطة تلك الحملة التي سبق له أن أطلقها قبل ثلاثة أشهر قائلاً: «سأبقى محتفظاً بجميع الخيارات المتوفرة لدي، سأبقى محتضناً هذه الخيارات كلها.»

ذلك الأسبوع، قطع الجنرال فرانكس شوطاً أبعد، إذا أطلق تصريحاً عاماً مضللاً. رداً على سؤال طُرح عليه في تامبا يوم ٢١ أيار/ مايو حول حجم القوة المقدرة لغزو العراق والوقت الذي من شأن ذلك أن يستغرقه، قال قائد القيادة المركزية، السنتكوم : CENTCOM «ذلك سؤال كبير، وليس عندي جواب عليه لأن

رئيسي لم يطلب مني بعد أن أرسم خطة للقيام بذلك.» ثم أضاف: «غير أن رؤسائي، بعيداً عن التقولات والتخمينات التي أقرؤها في الصحافة، لم يطلبوا مني أن أرسم أي شيء بعد، وهكذا فإنهم لم يسألوني عن مثل ذلك النوع من الأرقام».

كان مراسلو البنتاغون ذوو الصلات الجيدة متأكدين من أن التخطيط للحرب على العراق كان جارياً على قدم وساق بهذه الطريقة أو تلك، غير أن مصادر في البنتاغون، ولاسيما ممن لم يكونوا مطلعين على أسرار جلسات رمسفلد- فرانكس، قالوا للمراسلين إن عمل فرانكس لم يكن يتجاوز وضع «مفهوم عمليات» ودون أن يشكل «خطة». غير أن النيويورك تايمز أصرت بقوة على متابعة قصة التخطيط للحرب على العراق. ثمة مادة صفحة أولى في ذلك الربيع، يوم الأحد الواقع في ٢٨ نيسان/ابريل كانت تقول تحت العنوان النبوئي المتبصر «لدى الولايات المتحدة مشروع خطة بشأن العراق يتضمن اجتياحاً كبيراً في السنة المقبلة». إن العمل كان تجريبياً وإن بوش «لم يقم بعد بإصدار أي أمر إلى البنتاغون بشأن تعبئة القوات، وليس هناك اليوم أي خطة حربية رسمية.»

في الوقت نفسه، كان فرانكس عاكفاً على تحسين وضعه بعيداً عن أعين الرادارات، موشكاً على بلوغ مرحلة كان من شأنها أن تمكّنه قريباً من توفير لوائين على الأرض في الكويت مع معدات مخزنة سلفاً تكفي أربعة ألوية. وفي منأى عن أنظار المراسلين وأسماعهم، كان فرانكس قد أبلغ الرئيس إن الخطة الكبرى، خطة الأوب ١٠٠٣، كانت قابلة للتنفيذ في أي وقت، ربما عبر تحويلها إلى الخطة «الرسمية»، مع أنه كان لايزال عاكفاً على اختبار أفكار جديدة، متصارعاً مع طيف واسع من مستويات القوة، دون أن يطلب أو يوصي بأي شكل من الأشكال إقرار تلك الأفكار أو اعتمادها.

◆ ◆ ◆

في الصباح الباكر من يوم السبت الواقع في ١ حزيران/ يونيو رافق كبير كتبة الخطب مايكل غيرسون الرئيس على متن حوامة المارينز رقم واحد فوق نهر هدسون إلى وست بوينت، نيويورك، حين كان بوش سيلقي خطاب افتتاح في أكاديمية الولايات المتحدة العسكرية. عادة لم يكن غيرسون يحضر خطب الرئيس، مفضلاً متابعتها على شاشة التلفزيون من البيت، عبر الطريقة التي كانت أكثرية الناس تتبعها في سماع تلك الخطب ورؤيتها. غير أن غيرسون كان يعتقد أن هذا كان أكثر الخطب التي سبق له أن صاغها واشتغل عليها أهمية، فأراد أن يكون هناك.

كان غيرسون قد أنفق كمية غير عادية من الوقت على الخطاب، بما في ذلك رحلة جوية طويلة على متن طائرة سلاح الجو رقم واحد مع الرئيس. تصوره الرجلان استمراراً لأطروحة خطاب حال الاتحاد المتضمن عبارة محور الشر لبوش في كانون الثاني/ يناير: أطروحة أن الولايات المتحدة كانت ملتزمة بتحسين العالم، جعله، كما قالت رايس «آمن وأفضل.» خرج الخطاب من رحم هدف جليل تقريباً كان بوش قد حدده لرئاسته منذ ٩/١١. رأى غيرسون وظيفته متمثلة بترجمة ذلك الإحساس بالهدف إلى رؤيا واضحة.

أدرك غيرسون التردد الأمريكي المتجذر، بل تمنُّعَها المتطرف، إزاء الانخراط بالعالم. ولتغيير ذلك كان لابد من إقناع البلد بأن مصالحه الأمنية من جهة ومثله العليا من جهة ثانية كانت معرضة للخطر. فالجدل الأزلي في السياسة الخارجية بين واقعية «العصا الغليظة». لدى تدي روزفلت وهدف «جعل العالم مكاناً آمناً للديمقراطية» المثالي عند وودرو وِلسُن Wood row Wilson كان عقيماً بنظر غيرسون. فأي رئيس للجمهورية كان بحاجة إلى كل من الواقعية والمثالية على حد سواء، وقد اعتقد غيرسون أن بوش كان بحاجة إلى الاثنتين كلتيهما وإلى أن يكون قادراً على أن يقول، عملياً، إننا ننظر إلى السلطة نظرة جدية، ونأخذ المثل العليا مأخذ الجد.

في استقصائه كان غيرسون قد عاد إلى خطاب الرئيس ترومان Truman في ١٩٤٧، ذلك الخطاب المتضمن إعلان مبدأ ترومان القاضي بمساعدة أحرار اليونان وتركيا في نضالهم ضد الشيوعية. فوجئ إذ اكتشف أن ترومان لم يكن أستاذاً استثنائياً في البيان والشرح. فخطاب عقيدة ترومان ذات الدقائق الثماني عشرة كانت تبعث حقاً على الملل. وبرأي غيرسون لم يكن أي من ترومان أو آيزنهاور Ei-senhower هو الذي سلط الضوء على ضرورة محاربة الشيوعية بل جون كندي John Kennedy بوصفه أحد ديمقراطيي الحرب الباردة في خطاب تنصيبه عام ١٩٦١ حين أعلن: «عبء صراع مع فترة انحطاط طويلة». بدا بوش متمتعاً بدوافع واضحة، وأراد غيرسون أن يلبسها ثوباً من شأنه أن يبرز أهميتها التاريخية. لم يكن الهدف أقل من تغيير نمط التفكير الأمريكي بنفس الطريقة التي كانت قد اعتُمدت عند بداية الحرب الباردة.

كان خطاب المحور قد حدد البلدان القابلة للاستهداف. كان بوش هذه المرة سيحدد الوسيلة - «الاستباق». كان المنطق يقول: إذا تلكأت الولايات المتحدة، أبدت تردداً في ضرب أولئك الذين يشكلون تهديداً، فإن العواقب قد لا تأتي على نحو مباشر. غير أن احتمال فقدان نصف سكان إحدى المدن الأمريكية كان شديد الإثارة للرعب إلى درجة أنه فرض واجباً ملحاً.

كان تشيني دائباً على طرح هذه الأسئلة حول التهديد المتحمل الكامن في حيازة الإهاربيين لأسلحة الدمار الشامل منذ حملة ٢٠٠٠، حسب معلومات غيرسون. ومنذ ٩/١١ كان الاحتمال قد أصبح كابوس تشيني الذي ظل يؤكد أن هذا كان التهديد الأول لأمن أمريكا القومي على امتداد عقود بل وحتى أجيال مقبلة. لم يكن العراق سوى أكبر الأطراف المرشحة للمزاوجة بين مثل هذه الأسلحة والإرهاب.

تصدياً لهذا التحدي كان لابد من إعلان عقيدة جديدة عريضة وجريئة لعمل

أمريكا في العالم دون لبس أو غموض. أبلغ الرئيسُ غيرسونَ أنه لم يكن يريد أن يلعب ما أطلق عليه اسم «كرة صغيرة.» كان قد صمم أن أمريكا كانت في المستقبل ستضرب التهديدات استباقياً بدلاً من التعويل على الاحتواء أو الردع.

أمام نحو ١,٠٠٠ من خريجي الأكاديمية العسكرية الجدد وأسرهم في ستاد ميتشي بوست بوينت قال بوش: «لن يتم كسب الحرب على الإرهاب دفاعياً. علينا أن ننقل المعركة إلى العدو، أن نحبط مخططاته، وأن نتصدى لأسوأ التهديدات قبل انبثاقها.»

أكد الرئيس أن الطريقة الوحيدة إلى الأمان كانت متمثلة بالحركة، مضيفاً: «وهذه الأمة ستتحرك.» ثم دعّم اللغة العدوانية بدعوة إلى نشر القيم الأمريكية قائلاً: «إن قضية أمتنا كانت على الدوام أكبر من دفاع أمتنا. أمامنا فرصة عظيمة لنشر سلام عادل عبر إحلال الأمل بيوم أفضل محل الفقر، الاضطهاد، والاستياء في سائر أرجاء العالم. لم يكن الهدف نوعاً من غياب الحرب فقط، بل «سلاماً عادلاً» منطوياً على جملة من الأغراض الأخلاقية- المعنوية، على الديمقراطية، على الأسواق الحرة، وعلى حقوق النساء.

فيما بعد قال غيرسون لأحد المراسلين: «تعلم أن هذا الخطاب سيظل يُقتبس مدة طويلة من الزمن. عليك أن تولي هذا قدراً كبيراً من الاهتمام.»

رد عليه المراسل: «ليس ثمة أي خبر في ذلك الخطاب. لا تستخدمون كلمة العراق.»

أصيب غيرسون بالذهول. كان بوش قد أرسى أساس استراتيجية على صعيدي الأمن القومي والسياسة الخارجية.

كان الخطاب المادة الرئيسية في صحيفتي النيويورك تايمز والواشنطن بوست

في اليوم التالي غير أنه أخفق في استثارة سيل واسع من التعليق والتمحيص. قالت التايمز في أحد تعليقاتها إن عقيدة بوش الاستباقية مثلت «تحولاً ذا مضاعفات عميقة» وإن الولايات المتحدة كان يتعين عليها أن تتحلى بالحذر وتبتعد عن تشكيل مثال خطر أو التورط «في عملية الاجتياح الأحادي لبلدان أخرى أو الإطاحة بحكومات أخرى..»

لم يجد رمسفلد في الخطاب أي جديد ذي شأن. فقد كان يتحدث علناً عن الاستباق منذ ٢٩/١١، ومن المؤكد أن الحرب في أفغانستان والحرب السرية ضد الإرهاب على المستوى العالمي كانتا استباقيتين إلى هذه الدرجة أو تلك. كانت تلك عقيدة ذات جذور ممتدة قروناً من الزمن، ذكّره أحد الأصدقاء. ففي القرن السادس عشر تحدث السير توماس مور Sir Thomas More عن الاستباق في اليوتوبيا (المدينة الفاضلة)، عن الفكرة التي تقول بأن عليك ألا تكتفي بالانتظار حين تعلم بأن هجوماً سيقع عليك صادراً عن أحد الجيران، عليك أن تبادر إلى فعل شيء. بدت المسألة بديهية تماماً. أما ما كان بحاجة إلى مناقشة فتمثل براي رمسفلد، بموضوع الاستخبار الكامن عن التهديد الآتي من بلد آخر، موضوع قوة ونوعية المعلومات. ما طبيعة ودرجة يقينية المعلومات المطلوبة لإطلاق أي هجوم استباقي؟



تدفق فيض من الأوامر الصادرة عن البنتاغون بشأن العراق. ففي ٢٠ أيار/ مايو كان رمسفلد قد أرسل إلى فرانكس أمر تخطيط فرعي بعنوان «تحرير بغداد.» كان ذلك يعني أن عليه أن يضع خطة أكثر تركيزاً لمواجهة أو معالجة موضوع بغداد القلعة، وهو موضوع كان يشكل مصدر قلق عميق في البيت الأبيض، ولاسيما لدى رايس وكارد. وبعد أربعة أيام أمر رمسفلد، عبر هيئة رؤساء الأركان المشتركة، بالتخطيط للمرحلة الرابعة المتضمنة عمليات إشاعة الاستقرار في العراق بعد العمليات القتالية.

في حوار رمسفلد وفرانكس المتواصل دون توقف ظل الرجلان يعودان مرة بعد أخرى إلى فكرة أصغر وأسرع. صحيح أن خطة الانطلاق المولد ذات الـ ٩٠-٤٥-٩٠ كانت في الجعبة، غير أن أياً منهما لم يكن معجباً بها. لم تكن سوى خطة احتياطية. بدلاً من التشذيب والتقليم والتكثيف، كما كانا يفعلان على امتداد ستة أشهر، ربما كانا بحاجة إلى شيء جديد كلياً، إلى بداية بكر، بداية غير مثقلة بما هو موجود على الرف. كان رمسفلد مغرماً بإعادة النظر في المشكلات، مولعاً ولعاً يصل إلى درجة العبادة بتناول صفحة ورقة بيضاء أو آلة الإملاء والبدء من جديد.

تعين عليهما أن يعالجا ليس فقط احتمال قيام صدام بعمل استفزازي، بل وافتراض تعبير الرئيس (بوش)، لسبب أو آخر، عن الرغبة في منع العراق من الإقدام على عمل معين، في وضع عقيدته الاستباقية موضع التطبيق العملي، وفي اعتماد خيار سريع. غداً مثلاً؟ أو في الشهر المقبل؟ كان رمسفلد حاد الإدراك لحقيقة أن الخطب الرئاسية كانت سياسة. ماذا لو دعت الضرورة إلى بدء عمليات جوية - زرقاء، بيضاء، حمراء - مع العمل في الوقت نفسه على دفع قوات برية إلى أرض المعركة بسرعة قصوى رداً على اي وضع محتمل؟

في ٢ حزيران/ يونيو، قدم فرانكس، عبر قناة فيديو آمنة، إلى رمسفلد ما أطلق عليه اسم «البداية الجارية» - بدء الحرب قبل أن تصبح القوات الأمريكية كلها في المنطقة وجاهزة. كان من شأن العناصر المفتاحية أن تتألف من توظيف البرنامج الجوي الأزرق/ الأبيض/ الأحمر لجَسْر حركة القوات البرية. كانت الأسئلة دائرة حول كمية، مواعيد، تركيبة، ووسائط نقل تلك القوات البرية.

عادا ثانية إلى سؤال ما قد يفضي إلى حرب لجهل ما كان يدور في رأس صدام حسين. ذلك كان «المجهول المعروف» الأول. تمثل الرد الوحيد بالبقاء على أهبة الاستعداد.

أعجب رمسفلد بمفهوم «بداية جارية» ووجه طالباً متابعته. كان من شأن المفهوم أن يعتمد على أسلوب كلاسيكي أكثر تسلسلاً- الجو أولاً والبر بعد ذلك، غير أنه قد يكون ضرورياً. وكلمة «جارية» كانت رشيقة الإيحاء بالعالم المتدفق الذي يتم فيه العمل، بالعالم المفعم بالمفاجآت المحتملة وما كان الوزير يراه ضرورة البقاء على استعداد لمواجهة جميع الاحتمالات.

عبر خط الفيديو الآمن قدم فرانكس مفهوماً جديداً للتعامل مع بغداد القلعة. أطلق عليه اسم «من الداخل إلى الخارج» بمعنى احتمال قيام قواته بشن هجوم عنيف واجتثاث مركز القيادة والتحكم الصدّامي، مع الانقضاض في الوقت نفسه على الفرق العراقية الأقرب من المدينة. كان من شأن هذا أن يتم من أجل منع أعداد كبيرة من القوات العراقية من التكتل مباشرة في قلب بغداد. وبعد ذلك كانت قوات فرانكس ستنطلق من الداخل إلى باقي أجزاء البلاد. كان من شأن هذا أن يقطع الطريق على فرق الجيش النظامية وفرق الحرس الجمهوري - ويمنعها من العودة إلى داخل المدينة.

في ١٩/ حزيران يونيو قدم فرانكس الخطة الأجد إلى بوش. أطْلَعَهُ بسرعة على ما استجد حول الانطلاق المولد. قال الجنرال إن الرئيس لفت نظره إلى توفر فرصة مدتها ٩٠ يوماً، إلى أنه سيكون مرتاحاً إذا ما بدأت خطة الحرب الكبيرة. إذا كان لديك وقت، سيادة الرئيس، وبادرنا نحن إلى استغلال ذلك الوقت، فإننا نستطيع أن نولد موعدنا الخاص بغزو جوي واسع النطاق وهجوم بري كبير متزامنين إلى حد كبير- خطة الـ ٩٠-٤٥-٩٠ التي من شأنها أن تعني حرباً تدوم ٢٢٥ يوماً لإنهاء النظام.

أكد للرئيس أن الفوز مضمون بهذه الخطة.

أضاف فرانكس لعل الأهم هو أنه مع رمسفلد كانا، نتيجة الاطلاع على المزيد من أسئلة ماذا لو..؟ قد توصلا إلى خيار رد مرن جديد، إلى نوع من بداية جارية. ذلك كان خيار الإنذار قصير المدى الذي كانا يتلمسان الطريق إليه- خيار فترة زمنية أقصر بين قرار الرئيس القاضي بالهجوم والهجوم نفسه، الوقت الفاصل « بين القرار والتحرك». كان قد ابتكر بداية متدحرجة قابلة لأن تبدأ بالعمليات الجوية الزرقاء، البيضاء، أو الحمراء. أقر فرانكس بقدرته على كسب الوقت عن طريق هذه العمليات الجوية، التي كانت ستتصاعد مع مرور الوقت؛ كان من شأنها أن تقطع شوطاً كبيراً على طريق اختزال بعض قدرات صدام في بغداد وحولها وأن تبقي العراقيين في أوضاع حرجة.

بات عند فرانكس لواءان على الأرض في الكويت. ومن شأن إيصال لواءين إضافيين إلى هناك أن يستغرق نحو ثلاثة أسابيع. وبما مجموعه أربعة ألوية (ما يزيد على فرقة)، مع وحدة اقتحام المارينز القريبة، كان سيتوفر لدى فرانكس قوة برية يصل تعدادها إلى ٥٠,٠٠٠- مجرد حد أدنى لاقتحام الحدود العراقية كقوة اجتياح. ونظراً لأنه كان سيبدأ بنشر مزيد من القوات لحظة إيعاز الرئيس بتنفيذ عمليات جوية، فإنه كان يستطيع إدخال فرقتين إلى الكويت في غضون أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع.

كان ذلك يعني أنه كان سيتمكن من امتلاك ما يزيد قليلاً على ١٠٠,٠٠٠ للقيام بهجوم بري في غضون نحو ٣٠ يوماً.

جاء رد بوش محايداً. بدا موافقاً على منطق خيار آخر. طلب من فرانكس أن يجتهد ويكثف العمل من أجل وضع خطط مناسبة للرد إذا ما أقدم صدام على استخدام أسلحة دمار شامل إما ضد جيرانه أو ضد القوات الأمريكية. كيف كان الجنرال مجهزاً للحيلولة دون وقوع ذلك أو الدفاع ضده، أو العمل في بيئة ملوثة،

وهو أسوأ الاحتمالات؟ كان الرئيس متشدداً مع رمسفلد وفرانكس في مطالبتهما بالسير قدماً في إنجاز التساند والتنسيق بين الوزارات والإدارات والوكالات وصولاً إلى الاطمئنان إلى استكمال المهمات التمهيدية المتعلقة بالمؤن، القواعد، والوقود في المنطقة. بدا موحياً بنوع من الاستعجال.



اجتمع فرانكس في بلدة رامشتاين الألمانية بمرؤسيه القياديين مرة أخرى يومي ٢٧ و٢٨ حزيران/ يونيو. أوعز إليهم بتحويل أولويات التخطيط عن خطة الإقلاع المولد نحو مفهوم البداية الجارية.

في ١٧ تموز/ يوليو رفع فرانكس تقريراً موجزاً إلى رمسفلد عما استجد بشأن المهمات التمهيدية والتحضيرية في المنطقة. كان حريصاً على تقديم قائمة مدروسة لكلفة كل منها وما ينطوي عليه الإخفاق في الالتزام بالمواعيد التي حددت تاريخ الإتمام بيوم ١ كانون الأول/ ديسمبر من خطر على العملية. الكلفة الاجمالية: نحو ٧٠٠ مليون من الدولارات.

كانت المطارات وبُنَى الوقود التحتية في الكويت حيث كان برنامج أشغال عامة سرية بالغ الضخامة جارياً على قدم وساق منذ بعض الوقت هي المشروعات المتطلبة لهز الأكتاف (لتحريك العضلات الكبيرة). منذ سنوات كانت لدى جيش الولايات المتحدة خطة مشتركة مع الكويتيين لتحسين مطارات الكويت. في البداية وافق الكويتيون على تمويل هذه المشروعات، ولكنهم ما لبثوا أن تخلفوا عند الدفع. وهكذا فإن فرانكس كان قادراً على استخدام العقود ومخططات الإنشاءات الموجودة، ولكن شرط تسديد تكاليفها من الصناديق الأمريكية، دون أن يظهر أن هناك ما هو جديد في الأعمال، مع الإيحاء بأن ما هو حاصل إن هو إلا نوع من تسريع دوران عجلات

الخطة القديمة. مساحات واسعة من فضاءات التخزين رُصفت في قاعدتي آل جابر وعلي آل سالم الجويتين بالكويت، فضاءات صالحة للاستخدام كمدارج طائرات، كمرائب، وكمستودعات ذخائر.

تمثل أحد الهواجس الأولية بالمشكلة اللوجستية الخاصة بنقل الوقود من المصافي الكويتية إلى الحدود العراقية لتوفير ما يكفي من الكميات لنقل اجتياح عملاق ودعمه. بادر قادة فرانكس الميدانيون إلى إجراء سلسلة من الاتصالات مع وزارة النفط الكويتية لتنظيف بعض الأنابيب الموجودة وإيجاد قدرة توزيع وقود جديدة تكون أقرب إلى الثكنات التي بدأت عمليات إنشائها.

بقي هذا كله بعيداً تماماً عن أعين الرادارات الراصدة حتى أن الكويتيين، بل العراقيين، بدوا غافلين كلياً عما كان يجري.

فيما بعد أطرى الرئيس كلاً من رمسفلد وفرانكس على هذه الاستراتيجية الخاصة بتحريك القوات إلى الميدان وتوسيع البنية التحتية. قال بوش: « كانت، حسب ما أرى، توصية ذكية جداً من جانب دون وتومي أن يتم إنجاز عناصر معينة قابلة لأن تزال بسرعة مهما كان الشكل الذي تعين على خطة الحرب أن تأخذه في النهاية.» ثم أضاف بحذر: « إن النشر المسبق للقوات يجب ألا ينظر إليه على أنه التزام من جانبي باستخدام الجيش». وعبر عن الشكر بعبارة «صح ياشباب!» قصيرة، مقراً بأن الحرب الأفغانية والحرب على الإرهاب وفرتا الذريعة، بأن المهمة نُفذت في السر، وبأنها كانت باهظة التكاليف.

كان من شأن بعض التمويل أن يأتي من قانون الحيازات التكميلية الجاري إعداده في الكونغرس بشأن الحرب الأفغانية والحرب العامة على الإرهاب. وكان الباقي سيؤخذ من مخصصات قديمة.

مع حلول نهاية/ تموز يوليو كان بوش قد وافق على ٣٠ مشروعاً كانت ستكلف آخر المطاف ٧٠٠ مليوناً من الدولارات. ناقش الموضوع مع نيكولاس إي. كاليو Nich- olas E. Calio، رئيس مكتب البيت الأبيض للعلاقات مع الكونفرس. وهذا الأخير الذي يفترض فيه أن يتحكم بمفاتيح الخزنة، لم يكن في الحقيقة، مطلعاً أو منخرطاً، بل ولم يكن قد تلقى أي إشعار حول اعتزام البنتاغون تعديل برنامج إنفاق الأموال.



في ٢٨-٢٩ تموز/ يوليو كانت جريدتا الواشنطن بوست والنيويورك تايمز قد حملتا قصتي صفحة أولى عن التخطيط للحرب على العراق. قالت البوست إن عدداً كبيراً من كبار الضباط في الجيش كانوا يفضلون الاحتواء، وقالت التايمز إن أحد الخيارات المطروحة للدراسة هو هجوم «من الداخل إلى الخارج» أولاً على بغداد. ولأن هذه كانت طبعة غير مكتملة لمفهوم فرانكس القاضي بتجنب بغداد القلعة الذي كان قد قدمه في حزيران/ يونيو، فإن بوش كان قادراً على أن يتخذ موقفاً معارضاً للتقارير حين سئل عنها في اجتماع وزاري عُقد يوم ٣١ تموز/ يوليو.

قال الرئيس: « إن المهمة المطروحة هي مهمة تغيير نظام. ولكن هذا الكلام كله من أربعة أشخاص قياديين كبار... ﴿أنهم﴾ يتحدثون عن أشياء لا يعرفون شيئاً عنها. نحن جادون في تصميمنا. ليس ثمة أي خطط حرب على مكتبي. أعتقد أن هناك أسباب تسوّغ الحرب، وأن عقيدة الاستباق واردة. لن نفعل شيئاً على الصعيد العسكري ما لم نكن واثقين من النجاح. وما النجاح إلا إزاحة صدام.»

خاطب رمسفلد مجلس الوزراء قائلاً: «إذا بدا غير رشيق في الصحافة، فإنه كذلك. يشكل الاستباق موضوعاً بالغ الأهيمة جديراً بالمناقشة. لعل المشكلة هي في إصرار البعض على حصر عملية الاستباق بالعراق.»

في حديث جانبي خاص مع الرئيس قالت رايس إن التسريبات في الصحافة- مع خطة جديدة مختلفة كل يوم تقريباً- قد أصبحت مثيرة لقدر كبير من «السخرية» حتى باتت مفيدة.

ثم أضافت: «أحد الأمور الجيدة حول هذا هو أنني متأكدة من أن صدأماً بات الآن مشوَّشاً كلياً.»



13

مع إجازة الأمـر الرئاسي للعمل السـري وتخصـيص الأموال، صـار تنت جاهزاً لإرسـال فـريقين شبـه عسكريين صـغيـرين تابعين لوكالة الاستخبارات المركزية إلى داخل شمـال العراق. شـعر بالتشجيع جراء نجاح الوكالة في الحـرب الأفغانيـة، ولكن العراق لم يكن، كما جرى تذكيره عدداً من المرات المتكررة، أفغانستـان. تعين على فريقيه أن يمرا عبر تركيا ويتوغلا سراً في المنطقة الخاضعة للسيطرة الكردية من شمـال العراق الجبلي. كان الأتراك والأكراد، على حد سواء، يشكلون خطراً لا يقل شأناً عن خطر صدام.

ومع ذلك فإن فريق مسح كان قد أوفد إلى الداخل خلال شهر شباط/ فبراير لتقويم الوضع الأمني قال إن الأمر كان ممكناً، قابلاً للتنفيذ. وكان تنت متوفراً على المال الضروري، على ما لا يقل عن ١٨٩ مليوناً من الدولارات. كان هذا تحولاً كبيراً مقارنة بأيامه مديراً للاستخبارات المركزية (دي. سي. آي. DCI) في ظل إدارة كلنتون. كان تنت يشعر بأن كلنتون قد دأب باستمرار على «خوزقة» الوكالة فيما يخص المال، وبأن وكالة المخابرات بدت على الدوام في المرتبة الدنيا من سلم الأولويات. مرة تعين عليه أن يذهب شخصياً إلى مكتب كلنتون للإدارة والميزانية للحصول على مبلغ ٢٠,٠٠٠ دولار لشراء تجهيزات ومعدات اتصالات لسد حاجة عناصره العاملين ميدانياً.

تمثل العامل الجديد بغياب الشك في القمة. فبوش لم يبد أي تردد أو شك. قد يكون الاستعداد لنقص القرارات السابقة، للتراجع خطوة، ومناقشة الفضائل

حصيفاً، ولكن بوش لم يكن متحلياً بمثل هذا الاستعداد. بدأ تنت يكتشف أن المرء يدفع ثمناً باهظاً حين يكون مسكوناً بالشك. ثمة في الغالب مئة سبب وسبب للعزوف عن العمل. ثمة أناس غرقوا في بحار من المشكلات وقاموا بسوق عشرات الأسباب المتباينة التي تحول دون حلها، مخفقين في الوصول إلى أي نتيجة مرضية. أما إذا لم تكن خائفاً مما يتعين عليك أن تفعله، فإنك، عندئذ، ستجد نفسك ناجحاً تماماً في شق طريقك عبر غابة المشكلات.

حين كان يطرح مشكلات معينة على بوش، كان الرئيس يسأل: «حسناً»، ما الحل؟ كيف تقوم بتصويب الخطأ؟ كيف تصلح الأمور؟ ما سبيلك إلى تحقيق الخطوة التالية؟ كيف تراوغ هذه المسألة وتلتف عليها؟ يالها من روح جديدة بالنسبة إلى العمل الاستخباراتي! فجأة بدا وكأن من يقدم على المخاطرة ويقع في الخطأ ليس معرضاً للقصاص؟

إذن فليُقْدِمْ! وليضرب ضربته!

◆ ◆ ◆

«إنه الغرب المتوحش!» كانت فكرة تيم Tim (اسم سري) الأولى في الأسبوع الثاني من تموز ٢٠٠٢ لدى قيامه مع سبعة آخرين من نشطاء وكالة الاستخبارات المركزية برحلة الساعات العشر من تركيا إلى داخل العراق في قافلة سيارات اللاندكرويزر والجيب مع سيارة شحن واحدة. كان تيم في أواخر العقد الرابع من العمر، طويل القامة، أسود الشعر، طفولياً، ذا ابتسامة جذابة بل وشبيهة بابتسامات نجوم السينما. صحيح أنه كان النائب في الفريق، ولكنه كان موشكاً على تولي منصب رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية في السليمانية الواقعة في المنطقة الجبلية الكائنة في بقعة وسط تقريباً بين بغداد والحدود الشمالية. كانت محطته أو قاعدته على بعد ١٢٥ ميلاً عن الحدود التركية، وعلى مسافة بضعة أميال من

الحدود الإيرانية. كانت قيادة وكالة الاستخبارات المركزية قد سحبته من إحدى المحطات الموجودة في المنطقة لتكليفه بهذه المهمة. كان تيم، وهو الطليق باللغة العربية، ضابط بحرية احتياط سابق. وإذا عدنا أجيالاً إلى الوراء فإن أجداده كانوا أدميرالات. أما هو فلم يطق سلاح البحرية وتركه ليلتحق بما شعر بأن من شأنه أن يكون العمل الحقيقي فأصبح ضابط استخبارات مركزية. مبدئياً تمثلت أولى وظائفه بتجنيد الجواسيس. دخل ما مجموعهم ثمانية عنصر من عناصر وكالة الاستخبارات المركزية، أربعة في فريق تيم وأربعة توجهوا إلى محطة أخرى أقرب إلى الحدود التركية.

تطلب الحصول على الإذن بالمرور من الأتراك نصف كذبة. أبلغت الوكالة الأتراك بأن الفريقين كانا مؤلفين أساساً من عناصر متخصصة بمكافحة الإرهاب، عازمين على رصد التهديد المتمثل بأنصار الإسلام، التي هي جماعة إرهابية متطرفة شديدة العداء للأحزاب العلمانية الكردية ومشبوهة بتشغيل مخابر لإنتاج السموم في إحدى القرى القريبة من الحدود الإيرانية. وقد كانت للجماعة ارتباطات بالقاعدة.

أقام فريق تيم معسكر محطته في مكان قريب، كانوا على مسافة ٤٥ ثانية بطائرة الهليكوبتر من الخطوط الأمامية لوحدات صدام العسكرية في مدينته الحصينة كركوك.

كانت ظروف الحياة صعبة. لم يكن لدى الفريق أي دعم جوي أو قابلية إخلاء طبية. كان من شأن ترحيل أي منهم أن يتطلب إخطاراً قبل ٢٤ ساعة. كانت لتيم زوج وأطفال صغار. ولم يكن واضحاً ما إذا كان الفريق سيغيب أسابيع، أشهراً، أم لفترات أطول.

كان مرفق أنصار الإسلام المزعوم في سارغات، على بعد نحو ٢٥ ميلاً عن القاعدة أو المحطة. كان اسم المكان لدى الجيش الأمريكي هو خورمال، وهي المدينة

الأكبر على الخارطة بعد سارغات. كانت لوكالة الاستخبارات المركزية علاقات عريقة ولكنها متوترة مع الجماعة الكردية، المعروفة باسم الاتحاد الوطني الكردستاني (البوك PUK)، والتي كانت تسيطر على المنطقة، وزعيم البوك، جلال الطالباني، كان على رأس ١.٢ مليوناً من الأكراد المفقّرين ولكن الراغبين في إسقاط صدام. أما الجماعة الكردية الثانية، الحزب الديمقراطي الكردستاني (الكي. دي. بي. KDP)، فكانت تتحكم بتدفق الشاحنات من عراق صدام إلى تركيا وتحصل أموالاً طائلة. لم يكن الحزب الديمقراطي الكردستاني تواقاً مئة بالمئة إلى تغيير النظام.

كان لدى بوك الطالباني عشرة سجناء من سارغات توفرت لفريق تيم فرصة استجوابهم. وفي أثناء عمليات التحقيق، قدم ثلاثة سجناء ما بدت معلومات مقنعة حول وجود روابط مع شبكة القاعدة البن لادنية، وقد تأكدت أن الثلاثة كانوا قد دُربوا في معسكرات بأفغانستان، مرسخين صلة واضحة إلى حد كبير مع القاعدة.

أشاع تيم أن فريقه مستعد لدفع المال نقداً، لدفع زوجين من فئة المئة دولار مقابل عينات من السموم المصنعة في سارغات ما لبث الفريق أن تعرض لعملية إغراق حقيقية بطوفان من السكان المحليين الآتين ومعهم القوارير، العلب، الأواني، الأباريق الخزفية وأنابيب الاختبارات. جاء أحدهم بسائل شفاف. رغم أنه شديد السمّية، ولكنه حين سكبه على جسده، ضحك الجميع. «هيا انقلعوا!» قال تيم. لم يحصلوا ولو على عينة واحدة من السم الحقيقي.

قام تيم بتجنيد الطّباخ وأخيه في مرفق سارغات. قدم العميلان المأجوران مخططات لجميع مباني المجمع. جرى التأكد من أنها صحيحة لاحقاً عبر الصور التي التقطتها الأقمار الصناعية من الأعالي.

تمثلت مهمة تيم الجوهرية بالشروع في تطوير قاعدة عملياتية للعمل السري الهادف إلى الإطاحة بصدام، فشاؤول، رئيس العمليات العراقية، كان قد أصدر

توجيهات شفهية: أريد اختراق جيش صدام، أريد التسلل إلى جهاز الاستخبارات، أريد النفاذ إلى قلب جهاز الأمن، أريد شبكات قَبَلية داخل العراق مستعدة لتنفيذ خدمات لصالحنا - خدمات شبه عسكرية، تخريبية، استخبارات أرضية. طوّروا العلاقات مع الأكراد. تحروا مدى إمكانية تدريبهم وتسليحهم حتى يصبحوا قادرين على تجميد قوات صدام في الشمال.

ثمة كانت سلسلة طويلة من العقبات الجدية على الأرض في العراق. أصر الأتراك على حراس ومرافقين بعدد أعضاء الفريق، مما أدى إلى حشر تيم ورجال وكالة الاستخبارات المركزية الثلاثة الآخرين في بيت صغير مع أربعة أتراك أصروا أيضاً على العيش هناك، وإلا فقد كانوا سيرافقون تيم وفريقه في كل تحركاتهم. ومما زاد المشكلة تعقيداً أن الأتراك كانوا يكرهون الأكراد الذين كانوا أيضاً يبادلونهم الشعور العدائي نفسه. كان الأتراك سيطنبون اليوم في الكلام عن مدى دناءة الأكراد الذين لا يقيمون، حسب زعم الأتراك، أي وزن للحياة الإنسانية. وفي مساء اليوم نفسه كان الأكراد سيقولون الأشياء ذاتها عن الأتراك. كان هناك نوع من القتال حول كل شيء. قال تيم إن الفريق كان يريد إجراء مقابلة الأسرى الذين اعتقلهم البوك فوراً. لا، مستحيل، نعم. أوكي، لا، أبداً، أوكي. كان كل شيء خاضعاً لنوع مرير من التفاوض والمساومة. كذلك كان المرافقون الأتراك يتجسسون على تيم وفريقه الذين كانوا يعملون ١٨ ساعة في اليوم. لدى عدم انشغالهم بتعطيل عمل الفريق، كان الأتراك يدخنون ويشاهدون شرائط فيديو تركية إباحية في غرفهم المزدحمة. كان المشهد نصف مزرعة حيوانات من جهة ونصف ما كان تيم يأمل في أن يكون جيمس بوند جاد.

بعد انقضاء عدد من الأسابيع على العيش في المحنة، تلقى الأتراك اتصالاً من رئيسهم الذي أبلغهم أن الأمريكيين كانوا سيقصفون سارغات. كانت تركيا ستبدو

متواطئة، وكان الأكراد سيصابون بجنون الغضب، كانت تركيا ستتعرض للإدانة على الصعيد العالمي. كان الأمريكيون الهمجيون - المارقون عازمين على إشعال نار الحرب. ليرحل الجميع! وهكذا فإن المكلفين بعَدّ الأنفاس رحلوا، وصار تيم وفريقه قادرين على البدء بالعمل من أجل الإعداد لعملية تغيير النظام. راحوا يستجوبون اللاجئين والفارين من نظام صدام ممن لاذوا بالمنطقة الكردية.

اثنان من هؤلاء كانا منطويين على أهمية استثنائية، أحدهما كان ضابطاً عاملاً في الجيش العراقي سبق له أن قاد طائرات عراقية من طراز ميراج الفرنسي. وكان آخر عاملاً فنياً متخصصاً بطائرات ميغ ٢٩. كانت لدى الأخير بيانات مستفيضة عن انهيار سلاح الجو العراقي، الذي لم يعد قادراً إلا على تنفيذ مهمات الكاميكازا الانتحارية. كان الطيارون يتمارضون في الأيام التي يفترض فيهم أن يطيروا فيها لخوفهم الشديد من احتمال تحطم الطائرات المفتقرة إلى الحدود الدنيا من الصيانة.

كانت قناة اتصال تيم الوحيدة خطاً آمناً يربطه بشاؤول هنا في مقر القيادة. قال شاؤول قد تبقى ستة أشهر. طالما أصبحت في الداخل فمن غير الحكمة إخراجك. رفض الأتراك أي تموين جديد، وبدت الظروف كئيبة. تيار كهربائي غير مضمون، ضغط ماء غير مضمون، كان البيت على ارتفاع ٦,٠٠٠ قدم بين الجبال الكردية حيث سيكون فصل الشتاء مريراً. كانت بيئة معادية ومحرومة من الأصدقاء من جميع الجهات - ثمة كان الأتراك، الأكراد، الإيرانيون، والعراقيون في الجوار.

ظل تيم يغوص في أعماق المرتدين الهاربين، اللاجئين وقادة البي. يو. كي. PUK سعياً إلى جمع المعلومات الاستخباراتية والتأكد ممن قد يساعد وكيف. كان البي. يو. كي. بؤرة حزازات وغيرة وبازاراً (سوقاً) للاتجار بالولاءات. بقي الفائز هو من يدفع أكثر. كان تيم يوزع كميات كبيرة من المعونات المالية وكان الجميع يخطبون وده ويتقربون منه. قال أحدهم إنه كان في منظمة صدام الأمنية الخاصة، غير أن

كلامه ما لبث أن تبين أنه غير صحيح. وقال مرتد مزعوم هارب آخر إن شقيق ابن عمه رأى تلة تُخبأ تحتها جميع أسلحة الدمار الشامل.

تأكد لفريق تيم أن العراقيين كانوا يرسلون أعداداً من العملاء إلى المنطقة الكردية للعثور على رجال وكالة الاستخبارات المركزية وقتلهم. أفاد أحد عملائه المتسللين إلى صفوف أنصار الإسلام بأن الجماعة كانت دائبة على تمشيط المنطقة بحثاً عن الأمريكيين الذين يمكن إيقاعهم في كمائن على الطرق.

ظل تيم يرقص، يهدد، يستجوب، يتوسل، يتملق، يكذب، يحث، ويحاول تمييز الغث عن السمين، الصدق عن الكذب. في الوقت نفسه دأب الفريق على «فبركة» العشرات بل المئات من التقارير المستندة إلى ما كانوا يعتبرونه المعلومات الاستخباراتية الأفضل ويبثونها إلى شاؤول في القيادة. تعين على قائد الفريق تيم أن يضع نظاماً للتصنيف. من الذي كان سيتحدث معه؟ كيف سيمضي وقته؟ من الذي كان سيدفع له؟ ما السبيل إلى اختبار المصادر؟ بدأ يستخدم بعض الأكراد ويكلفهم بالذهاب نيابة عنه للاجتماع بمصادر محتملة.

ذات يوم قبيل نهاية آب/ أغسطس، اتصل كردي له علاقات وثيقة جداً وقابلة للبرهنة مع الحلقة الداخلية للبوك (البي. يو. كي PUK) مع تيم. قال الكردي: «إن البوك لا يعاملني كما ينبغي أن يفعل، وأريد في الحقيقة أن أساعدكم يا شباب!.»

نظراً لموقع الشخص وظف تيم قليلاً من الوقت الشخصي، تمّت معاينة قصص الارتباطات عبر علاقات القرابة والمصاهرة. برزت على السطح صورة شبه كاملة. بدأ تيم يتعامل مع الرجل، مستمعاً، مستجوباً.

قال الكردي : «هناك كما تعلم هذه الجماعة الدينية الكبيرة وهي تريد مد يد المساعدة.» كان يتحدث عن جماعة سبق لها أن تعرضت لصنوف استثنائية من القمع والاضطهاد الهمجيين على يد صدام على امتداد العراق - شمالاً، جنوباً، غرباً، على

امتداد الحدود، في بغداد. كانت الجماعة غريبة بل ومتصعبة. غير أن أفرادها كانوا متعطشين للسلطة. كان صدام قد سجن بعض أفرادها المهمين. ثمة كان زعيم متمتع بمرجعية هائلة وبنفوذ يكاد لا يصدق لدى الآلاف من أفراد الجماعة ممن كانوا يشغلون مواقع في الجيش وأجهزة الأمن. قال الرجل «إن الجماعة تريد مكافأة مجزية، تريد تطمينات. تريد ضمانات.»

بدا الأمر منافياً للعقل بنظر تيم. من جهة تفوح من القصة رائحة البيئة الكلاسيكية. ومن الجهة الأخرى بدت الحالة حلماً بالنسبة إلى أي ضابط استخبارات ميداني، كنزاً حقيقياً تعين عليه أن يخطو الخطوة التالية، مهما بدت مثيرة للسخرية. قام تيم بشرح أسلوب العمل قائلاً: «أوكي! هاك الطريقة التي سنتبعها في هذه المسألة، قبل أن أجتمع معهم قل لي ما لذي يستطيعون فعله. أعطني قائمة بأسماء أتباعهم، مع تحديد مواقعهم.»

وعد الرجل. كان سيفي، وكان تيم سيرى. غير أن الأتراك ما لبثوا، بعد عدد من الأيام، قبيل نهاية آب/ أغسطس، أن ضربوا بمطرقتهم ضربة عنيفة. جرى طرد تيم وفريقه مع فريق وكالة الاستخبارات المركزية الآخر.

فيما كان تيم عاكفاً على تسلق الجبال الوعرة والخطرة بمركبته السوف SUV على ما كانت تشبه الطرق ولو من بعيد، لم يكن ليستطيع أن يتوقع عودة مبكرة ويتصور أنه كان قد أطلق مسلسلاً من الأحداث كان مرشحاً لأن يفضي، مع مرور الزمن، إلى التمخض عن تقارير استخباراتية غير مسبوقة مثيرة للجدل كانت ستصل آخر المطاف إلى يد جورج دبليو. بوش في المكتب البيضوي، كما لم يكن ليتصور أن تقارير عملاء معنونة بعبارة: دي. بي. روكستارز D.B. ROCKSTARS الصادرة عن وكالة الاستخبارات المركزية ستشكل الحدث الضاغط على الزناد الذي دفع بوش إلى شن الحرب.

14

مصطحباً ١١٠ سلايدات عن خطة مشية بولو الحربية السرية للغاية، وجاراً وراءه رينوار مع كتاب الموت الأسود الخاص، وصل فرانكس إلى غرفة عمليات البيت الأبيض لتقديم تقرير موجز إلى الرئيس ومجلس الأمن القومي، في الساعة ٤ والدقيقة ٣٠ من بعد ظهر يوم الإثنين.

هاكم جدول الأعمال: ١- نظرة عامة سريعة جداً إلى خطة الانطلاق المولد، ٢- آخر مستجدات البداية الجارية، ٣- تقديم مفهوم جديد يحمل اسم هجين، نوع من المزاوجة بين المولد والجارية، ٤- إدارة الخطر الاستراتيجي، و٥- دليل استهداف العراق.

أفاد فرانكس بأن خطة الانطلاق المولد كانت لا تزال هي الـ ٩٠-٤٥-٩٠، بمعنى ٩٠ يوماً لإيصال القوات إلى هناك قبل الشروع بالعمليات القتالية الهجومية. كانوا قد تجاوزوا مفهوم نمط حرب الخليج هذا كثيراً. غير أن الخطة بقيت الوحيدة المتوفرة.

أما مع البداية الجارية البديلة فسيكون، قال فرانكس، ممكناً امتلاك نسخة جديدة مدروسة أكثر أعطاها اسم ٤٥- ٩٠- ٩٠، لأن من شأن الاستعدادات العسكرية الجارية على قدم وساق أن تكسبهم وقتاً في المقام الأول. فعمليات نقل القوات والقصف كان من شأنها أن تبدأ مباشرة وعلى نحو متزامن عند بداية فترة الـ ٤٥ يوماً لتحديد معالم وشكل ساحة القتال. ثم كان من شأن تنفيذ «عمليات هجومية حاسمة»، أن يستغرق ٩٠ يوماً إضافياً، فضلاً عن ٩٠ يوماً من أجل «تدمير

النظام تدميراً كاملاً.»

في اي حـالة طارئة، كـان من شـأن بداية جارية دون إنذار أن تنطوي على بدء العمليات الجوية فوراً عبر تطبيق العمليات الزرقاء /البيضاء/ الحمراء البالغة تدريجياً نحو ٨٠٠ طائرة خلال أسبوع ونصف. وبفضل الوضعية الحالية للقوة، كان فرانكس قد اختزل هذا الوقت إلى النصف منذ مفاتحته الأولى لرمسفلد في أيار/ مايو. فبعد ٢٠ إلى ٢٥ يوماً كان لواءان قادرين على احتلال حقول النفط الجنوبية.

التفت فرانكس إلى السلايد ١٦، مفهومه الهجين الجديد. كانت تلك محاولة هادفة إلى اعتماد أفضل ما في كل من الانطلاق المولد والبداية الجارية، وإضفاء ذلك على جملة التحركات التمهيدية التي كان قد أقدم عليها حتى تلك اللحظة. فالخطة الهجينة قلصت النهاية الأمامية على نحو درامي مثير، أي قلصت الوقت المكرس لنقل القوات قبل الشروع بالعمليات العسكرية الهجومية.

قامت الهجين على أربع مراحل هي:

المرحلة الأولى: خمسة أيام لبناء الجسر الجوي، المتضمن التجنيد الإجباري لجميع الطائرات التجارية الأمريكية الضرورية لتعزيز النقل الجوي العسكري إلى المنطقة. ثم ١١ يوماً لنقل القوات الأولية.

المرحلة الثانية: ١٦ يوماً من الهجمات الجوية وعمليات القوات الخاصة.

المرحلة الثالثة: ١٢٥ يوماً من العمليات القتالية الحاسمة. في بداية الـ ١٢٥ يوماً، كانوا سيحاولون إدخال فرقة إلى العراق، وفي غضون أسبوع فرقة قوات برية أخرى.

المرحلة الرابعة: عمليات إشاعة استقرار مجهولة المدة.



بيّن رمسفلد وفرانكس أن بداية نشر القوة المؤلفة من ١١ يوماً لم تكن نقطة لا عودة، بل إن التدفق كان سيبقى منظوراً ومعروفاً، وقابلاً لاستثارة نوع من التحرك من جانب صدام.

عارضاً سلايداً آخر، قام فرانكس بوصف حسنات المفهوم الهجين. ثمة كانت فرصة إفادة قصوى من الزمن، إذ كان من شأن الانتشار الأسرع للقوات أن يحسن قدرات المدى القصير في المنطقة، كما كان من شأن الضغط المتزايد على النظام العراقي أن يشد من أزر العمل الدبلوماسي - كما قال فرانكس.

وهكذا فإن الهجين كانت خطة ٥-١١-١٦-١٢٥ يوماً. لاحظ رينوار أن حركات بوش الجسدية، جملة الإيماءات مع الانتباه المائل إلى الأمام، كانت تشي بأنه كان مسروراً. علق الرئيس قائلاً:

«أنا معجب بالمفهوم!».

سجل رينوار في كتاب الموت الأسود عبارة: «الأكثر رواجاً».

تحدث الرئيس عن الحاجة إلى تقديم المعونات الإنسانية على أرض المعركة منذ اليوم الأول.

كان السلايد ٢٥ يحمل عنوان: «معاينة الأمور التي من شأنها أن تتعثر: المخاطر الاستراتيجية». تمثل أحد الأخطار بهجوم صاروخي يشنه صدام على الكويت. وكان أسلوب التخفيف من ذلك هو ضمان حيازة الكويت لبعض القدرات المضادة للصواريخ البالستية، مثل صواريخ باتريوت. كان لا بد من بذل المزيد من الجهد لحماية إسرائيل.

وتحدث فرانكس عن احتمال النجاح المبكر بوصفه خطراً آخر، ماذا لو فر صدام هارباً، فيما تكون مئات الآلاف من القوات الأمريكية دائبة على التدفق إلى

قلب المنطقة؟ هل ثمة أي سند شرعي لاحتلال البلد؟ ماذا لو أقدم صدام على لم أذياله منسحباً مع حرسه الجمهوري إلى بغداد، وراح «يدوّر العربات»؟

مرة أخرى عبر بوش عن اهتمام خاص بهذا الاحتمال. ثمة ما يزيد على ٥ ملايين نسمة في بغداد.

سارع فرانكس إلى تذكير الحضور بأنه كان قد قدم تقارير وجيزة إلى الرئيس ثلاث مرات حول الأمر وبأنه كان لا يزال عاكفاً على معالجة المشكلة.

«صحيح» قال الرئيس «أعلم بذلك، غير أن بعض شبابنا ما زالوا قلقين.»

أيضاً تحت عنوان «إدارة الخطر الاستراتيجي»، ما لذي كان صدام يستطيع فعله لإفساد عملية الاستعداد؟ كان يستطيع وقف تدفق النفط إلى البلدان المجاورة للعراق، ولا سيما إلى تركيا، سورية، والأردن.

وافق پاول على مقاربة الأمر ومفاتحة السعوديين بشأن توفير النفط، وخصوصاً للأردن. ضمت قائمة أسئلة أخرى بلا أجوبة ما يلي: ماذا إذا أقدمت سورية على مهاجمة إسرائيل؟ ماذا إن تفجر العراق من الداخل ونجح أحدهم في قتل صدام؟ ما لذي كان من شأن الولايات المتحدة أن تفعله في مثل هذه الحالة؟

تم التوصل إلى ما يشبه الاتفاق على أن الولايات المتحدة كانت ستبقى مضطرة لدخول العراق مع الجيش لأنها لن تكون متأكدة من هوية الزعيم العراقي المحتمل. هل كانت الولايات المتحدة مستعدة لوضع ثقتها بشخص جديد؟ ربما لا. هل كانت راغبة في التعامل مع الفوضى؟ كان سيتعين عليها أن تواصل إرسال القوات ونشر قوة عسكرية حفاظاً على الاستقرار.

وثمة سؤال آخر طُرح على الطاولة: متى يتعين على الولايات المتحدة أن تذهب إلى تركيا التماساً لالتزام ثابت بأن بعض القوات الأمريكية قادرة على العبور؟

لقد تأخرنا، قال فرانكس، نحن بحاجة إلى أن تكون تركيا ملتزمة. غير أن من شأن الأتراك، وهم على أبواب الانتخابات العامة، الا يتخذوا قراراً. هل يجب علينا أن نبادر ونطلب في كل الأحوال مخاطرين باحتمال الرفض؟ تم تأجيل القرار.

ثم ما لبث النقاش أن تحول نحو عمليات إشاعة الاستقرار في المرحلة الرابعة بعد استكمال الأعمال القتالية، لا إستراتجية أو فلسفة احتلال عراق ما بعد صدام، بل أعداد القوات التي ستكون مطلوبة. لاحظ فرانكس أن الأمر قد يتطلب قوة مؤلفة من نحو ٢٦٥٠٠٠ في حال اعتماد أسلوب الهجوم العسكري. وكان سيتعين عليه أن يقلص الرقم مع الزمن وصولاً إلى نحو ٥٠,٠٠٠. سيبقى الموضوع خاضعاً لسير الأحداث في العراق، غير أنه توقع أن من شأن التقليص أنه يتم في غضون ١٨ شهراً بعد انتهاء القتال.

أخيراً قدم فرانكس كراساً بعنوان «دليل استهداف العراق.» جاءت الشروط متضمنة ما يلي: ١- أهمية الهدف، ٢- وصف الهدف ومعه أي عناصر حاسمة، ٣- احتمال وقوع أضرار جانبية مفضية ربما إلى مقتل مدنيين، ٤- نوعية الأسلحة القابلة للاستعمال.

مستخدماً إحدى صور الأقمار الصناعية الملتقطة من الأعالي لمقر قيادة حزب البعث في بغداد مثالاً، قال فرانكس شارحاً: ١- تمثلت أهمية المقر بكونه مركزاً للقيادة وبدأب صدام على استخدام الحزب أداة من أدوات التحكم، ٢- المقر مبنى متعدد الطبقات مزود بأجهزة اتصالات وأمن واسعة، ٣- هناك مرفق سكني قريب يمكن أن يتعرض للخراب، ٤- أي أعداد من الأسلحة يمكن استخدامها، بما فيها صواريخ كروز وقنابل موجهة بالليزر.

❖ ❖ ❖

بدا پاول شديد الانفعال والتوتر. فالمناقشات المتعلقة بالعراق بدأت تتركز. على نحو متزايد. على التخطيط العسكري. على سلسلة متواصلة ومتصاعدة من الأفكار. المفاهيم. السلاسل التفصيلية. السيناريوهات. والمخاوف. ظلت خدمة السلايدات السرية للغاية تتعاظم مع كل من إيجازات رمسفلد وفرانكس. مثل أي ناظر في مدرسة إعدادية للصبيان. كان رمسفلد يوزع رزم السلايدات أو الصفحات ذوات الألوان المتعددة ثم يلمها بعد الجلسة. في الغالب كانت رزمة الرئيس تضم قدراً أكبر من المواد المؤيدة. كان رمسفلد يحظر على الحضور تسجيل الملاحظات. كان يحرص على استعادة جميع النسخ واصطحابها إلى البنتاغون حيث يقوم مساعده العسكري بوضعها في خزنة مقفولة. داخل جناح مكاتب وزير الدفاع.

على امتداد الأشهر الـ ١٦ الأولى من الإدارة. بقي پاول «في البراد» أو فيما هو أسوأ من ذلك. كما كان هو وأرمتياج يصفان عَزْلَه المتكرر. كان پاول يتأثر كثيراً من ظهور القصص في الصحافة وهي توحي بأنه موشك على الاستقالة، ما أطلق عليه في جلساته الخاصة اسم «نمط پاول سائر ثانية على طريق الخروج.» كان آرمتياج يضغط بقوة لدفع پاول إلى طلب عقد جلسات خاصة مع الرئيس من أجل بناء علاقة شخصية. كان رمسفلد يعقد مثل هذه الجلسات على نحو دوري منتظم.

قبل عدد من الأشهر كان پاول قد طلب وحصل على مواعيد خاصة مع بوش. مع أن رايس كانت تبقى خلال جلسات المكتب البيضوي التي كانت كل منها تدوم ٢٠ إلى ٣٠ دقيقة. في إحدى المرات قام الرئيس بدعوة پاول إلى الداخل وحده وأمضى الرجلان معاً نحو ٣٠ دقيقة. فيما بعد تحدث پاول عن الاجتماع إلى آرمتياج قائلاً: «أعتقد أننا نحقق بعض التقدم في العلاقة أعلم أننا متواصلان حقاً.»

قبل قيام فرانكس بتقديم إيجازه الأخير كاشفاً النقاب عن المفهوم الهجين بعدد من الأيام. كان پاول قد زار آسيا ونفذ برنامجه. بدا كما لو كان يسمع قرع طبول

الحرب عبر المحيط. قدر كبير من الزخم كان دائباً على الاحتشاد. في رحلة عودته الطويلة كان پاول قد بدأ تجميع أفكاره حول العراق. كان برنت سكوكروفت. الذي سبق له أن شغل منصب مستشار الأمن القومي لدى والد بوش خلال حرب الخليج. قد أعلن في برنامج حديث صباحي ذات يوم أحد. أن من شأن أي هجوم على العراق أن يقلب منطقة الشرق الأوسط كلها إلى «مرجل ويؤدي بالتالي إلى تخريب الحرب على الإرهاب.»

كان پاول متفقاً من حيث الأساس مع ذلك التحذير الفظ. تذكر أنه لم يكن قد قام بعرض تحليله الخاص أمام الرئيس مباشرة وبقوة. أقله كان مديناً لبوش بفهمه وآرائه حول جميع عواقب الحرب المحتملة.

تحدث پاول مع رايس. شكا من استحالة إجراء مناقشة سياسية كاملة حول العراق في أثناء اجتماع مخصص أساساً لإيجاز عسكري. ثم قال مؤكداً: «أنا بحاجة في الحقيقة إلى بعض الوقت الخاص معه لاستعراض بعض القضايا التي لا أعتقد أنه استعرضها مع أحد.»

قام بوش بدعوة پاول ورايس إلى مقر الإقامة مساء إيجاز فرانكس الهجين يوم ٥ آب/ آغسطس. طال الاجتماع ليشمل عشاء في غرفة طعام العائلة ثم استؤنف في مكتب الرئيس بمقر الإقامة.

ملأت ملاحظات پاول ثلاث أو أربع صفحات. كان من شأن الحرب أن تزعزع استقرار أنظمة صديقة في العربية السعودية. مصر. والأردن. كان من شأنها أن تحول الطاقة عن جل الأشياء الأخرى. ليس فقط عن الحرب على الإرهاب. وأن تؤثر تأثيراً دراماً مثيراً في عرض النفط وسعره.

سأل پاول: «ماذا عن صورة جنرال أمريكي مضطلع بإدارة بلد عربي. ماك آرثر

جديد في بغداد؟.» ما كان أحد ليستطيع. برأيه. تحديد المدة الزمنية التي كان سيستغرقها الأمر. «ما سبيل تحديد معنى القدرة على الوصول؟» كان من شأن الحرب أن تسقط صداماً «فتصبح أنت الحكومة إلى أن تتشكل حكومة جديدة.»

مع دخولهم إلى مكتب الرئيس. بدأ پاول جولة من القصف.

قال للرئيس: «ستكون المالك المتكبِّر لـ ٢٥ مليوناً من البشر. ستصبح مالكاً لآمالهم، تطلعاتهم، ومشكلاتهم. ستصبح مالكاً لذلك كله.» في الجلسات السرية كان پاول وأرمتياج يطلقون على العملية اسم قاعدة مخزن الخزف: تكسره، إذن تملكه.

تابع الوزير كلامه قائلاً: «إنها ستمص الأكسجين من كل شيء.» ثم أضاف توخياً لعدم الانحراف عن سياسة الموضوع: «ستصبح هذه الفترة الرئاسية الأولى.» تمثل المعنى الواضح بما يلي: هل كان الرئيس راغباً في أن يتحدد على هذا النحو؟ هل كان يريد أن يخوض معركة إعادة الانتخابات من منطلق حرب على العراق؟.

ظن پاول أنه كان يسجل أهدافاً. تابع كلامه قائلاً: «إن للعراق تاريخاً يتسم بقدر غير قليل من التعقيد. لم يسبق للعراقيين أن ذاقوا طعم الديمقراطية قط. وبالتالي فإن على المرء أن يتفهم بأن الأمر لن يكون مشواراً في الغابة.»

أضاف: «جميل أن نقول إننا قادرون على القيام بالعمل أحادياً، اللهم إلا أنك لا تستطيع. ثمة بقعة جغرافية مترامية الأطراف، هائلة. سبق للجنرال فرانكس أن قال إنه من الضروري أن يكون قادراً على استخدام قواعد ومرافق عائدة لبلدان حليفة في المنطقة وخارجها.» كان پاول فظاً فظاظة استثنائية: «أحذركم من الوقوع في وهم أن الأمر هو مجرد التقاط لسماعة الهاتف ونفخ في البوق. فتسير الأمور على ما يرام - لا، أنت بحاجة إلى حلفاء، أنت بحاجة إلى إمكانية وصول. أنت بحاجة إلى أشياء كثيرة وكثيرة جداً. يتعين عليك أن تفهم ليس فقط نوعاً من البرنامج

الزمني. بل والأشياء الأخرى التي ستواجهك.» لم يكن شاعراً بأن الجوانب السلبية قد أثيرت بما يكفي من التفصيل المثير.

بدا صدام فاقداً عقله تماماً وقد يبادر في لحظة يأس أخيرة إلى إطلاق رشقة من أسلحة الدمار الشامل. ولعل الأسوأ من ذلك هو أن الولايات المتحدة كانت. ربما في أكبر وأوسع مطاردة بشرية في التاريخ. قد أخفقت في العثور على أسامة بن لادن. يتوفر صدام على ما هو أكثر. تحت تصرفه دولة بكاملها. ما من أحد كان يريد عملية مطاردة منظمة أخرى قد تكون متواصلة. بلا جدوى. وفوق كل هذا. من شأن حرب كهذه. قال پاول. أن تشغل الجزء الأكبر من الجيش الأمريكي وتجمده.

بقي الرئيس مصغياً. طرح بعض الأسئلة ولكنه لم يصر على المحاججة كثيراً. وأخيراً نظر إلى پاول وقال: «ما الذي يجب أن أفعله؟ هل ثمة أي شيء آخر أستطيع فعله؟»

أدرك پاول أن عليه أن يعرض حلاً. فقال: «ما زلت قادراً على شن حملة لتمكين تحرك تحالفي أو دولي من القيام بما ينبغي القيام به.» لم تكن الأمم المتحدة سوى إحدى الطرق. غير أن طريقة ما لا بد من الاهتداء إليها لتجنيد الحلفاء. لتدويل المشكلة.

قال بوش إنه كان قد هام حباً ببناء تحالف دولي للحرب في أفغانستان. ما الذي كان من شأن الروس والفرنسيين أن يفعلوه؟

عبر پاول عن قناعته القائلة بأن الولايات المتحدة قادرة على اجتذاب أكثرية البلدان إلى صفها. ثم أضاف: «ثمة اعتبار إضافي. إذا نقلت المسألة إلى الأمم المتحدة. فإن عليك أن تقر بأن من شأن هذه المنظمة أن تكون قادرة على حلها. وعندئذ لا تكون هناك أي حرب قد يعني ذلك حلاً غير نظيف تماماً وناجز كاملاً مثل

اقتحام البلد واقتلاع الرجل.» وحول الحاجة إلى الغطاء الدولي وضرورة التماسه. قال پاول: «من شأن الغطاء الدولي أن يتمخض أيضاً عن حصيلة مغايرة.» ومع أن الحوار اتسم بالحدة والتوتر عدداً من المرات. فإن پاول شعر بأنه لم يترك شيئاً دون بوح. لم يكن هناك أي شكل من أشكال التكلف والتصنع. شكره الرئيس بعد ساعتين. وهي فترة زمنية غير عادية خُصصت لپاول دون أي تشويش من تشيني ورمسفلد.

اعتقدت رايس أن عنوان النشرة المسائية ستكون: «پاول يدافع عن التحالف بوصفه الأسلوب الوحيد لضمان النجاح.»

في الحقيقة كان پاول قد حاول أن يقول المزيد. أن يحذر من احتمال الوقوع في أخطاء كثيرة جداً. كان المحارب العزوف داعياً بإلحاح إلى التحلي بضبط النفس، غير أنه لم يكن قد وضع قلبه على الطاولة بحسم. لم يكن قد قال: «لا تُقْدموا على هذا!». كان من شأن نقاط وجهة نظره، إذا ما جُمعت في بوتقة واحدة. أن تتفاعل فيما بينها وصولاً إلى ذلك الاستنتاج. كان پاول ميالاً إلى تبني مثل هذا الموقف. غير أنه كان قد تعلم خلال ٣٥ سنة في الجيش، وأمكنة أخرى، أن عليه أن يساير الريِّس ويتحدث عن المنهج. كان الكلام داخل الحدود الأولية التي رسمها الريِّس فقط سلوكاً ممتازاً. ربما كان جباناً أكثر مما ينبغي.

عبر اتصال هاتفي في اليوم التالي قالت له رايس: «كانت بالغة الروعة. كم نحن بحاجة إلى المزيد؟!»

اتصل آندي كارد بپاول ودعاه إلى المجيء واستعراض المسألة كلها. الملاحظات وجميع الأشياء.

شعر پاول أنه كان قد وضع الأمور في نصابها. غير أنه لم يكن في الوقت نفسه. واثقاً من أن يكون الرئيس قد استوعب المعنى استيعاباً كاملاً. قد أدرك

عواقب الذهاب إلى الحرب بوضوح. بعد ستة عشر شهراً . في المكتب الذي كان پاول قد أدلى فيه بدلوه. سألتُ الرئيس عن رأي پاول القائل بأن أي حل عسكري كان من شأنه أن يعني امتلاكك للعراق.

أجاب الرئيس قائلاً: «قال ذلك بالتأكيد. نعم فعل.»

«ورد فعلك أنت؟» سألتُه متوقعاً منه أن يتوقف عند نوع من الفهم للرأي المناوئ للحرب.

أجاب الرئيس: «ورد فعلي على ذلك هو، هو أن وظيفتي هي حماية أمريكا. وانني ايضاً أؤمن أن الحرية شيء يتطلع إليه الناس. يعشقونه. وأن العراقيين لن يتأخروا مع مرور الوقت، إذا ما مُنحوا فرصة. عن الإمساك باللحظة. عقلي. نمط تفكيري. متركز على ما قلته لك. على واجب حماية أمريكا المقدس.»

جلستُ هناك مرتبكاً بعض الشيء فيما واصل الرئيس مناقشة قضيتي الحرية والأمن اللتين كانتا شديدتي البعد عن النقاط التي كان پاول قد طرحها. بدأت بطرح سؤال: «غير أنه يتحدث عن تكتيكات معينة.»

أجاب بوش: «تلك وظيفته، مهمته هي التكتكة. وظيفتي أنا هي أن أكون استراتيجياً. ما كان يقوله، أساساً، كان أن من الأفضل أن نمتلك فهماً قوياً لما ما من شأنه أن تتطلبه إعادة بناء العراق. إذا ما تم بالفعل إسقاط صدام بـ (الغزو) العسكري.»

من المؤكد أن ذلك كان صحيحاً، وأنه كان جزءاً من رسالة پاول، غير أنني ما لبثت، وأنا أصغي، أن لمحت ما كان پاول قد رآه بوضوح – عدم اليقين من أن الرئيس قد استوعب كلياً جملة العواقب المحتملة. كانت الأحداث قد جعلت عدداً من مخاوف پاول غير ذات شأن مع حلول شهر كانون الأول/ديسمبر٢٠٠٢ حين قابلت

رئيس الجمهورية- فمصر، الأردن. والعربية السعودية بدت مستقرة. أسعار النفط لم تطر إلى السماء. والولايات المتحدة كانت قد اهتدت إلى حلفاء مستعدين لتقديم القواعد في المنطقة. غير أن پاول كان على صواب إذ قال إن الحرب كانت مرشحة للطفيان على رئاسة بوش. وإنه لم يكن واضحاً بعد ما إذا كان العراق قادراً على أن يصبح بلداً ديمقراطياً مستقراً وما إذا كانت القوات الأمريكية قادرة على العودة إلى الوطن. وفي أي وقت. تلك الحقائق كانت من صلب عمل الرئيس اليومي بعد أن كان پاول قد أثارها بـ ١٦ شهراً.

عن فترة آب/أغسطس ٢٠٠٢ قال الرئيس أيضاً: «كنا لا نزال عاكفين على تطوير استراتيجيتنا الدبلوماسية. كان ثمة أناس في الإدارة بقوا آملين في قدرتنا على حل هذه المشكلة دبلوماسياً. وقد ظل البعض يقول. أساساً. إننا لا نستطيع حلها دبلوماسياً. إذن فلنتحلَّ بالواقعية!.»

ثم أضاف بوش: «كان كولن شديد النزوع إلى التسليم بأن الأمم المتحدة كانت هي الطريق السليمة. وبعض من في الإدارة كانوا قد رأوا مدى ما كانت الأمم المتحدة قد أبدته من هزال وعجز فيما يخص هذه القضية فكانوا غير واثقين من مدى قدرة الأمم المتحدة على إنجاز المهمة». وقد اعترف الرئيس أن أحد أولئك كان هو نائب الرئيس.



في اليوم الذي أعقب عشاء بوش مع پاول ورايس. في ٦ آب/ أغسطس، أصدر فرانكس أمراً لمرؤوسيه القادة طالبهم فيه بالانتقال من البداية الجارية إلى خطتهم الأكثر رواجاً - إلى المفهوم الهجين - مفهوم حرب أسرع.

عصر ذلك اليوم غادر الرئيس العاصمة متوجهاً إلى مزرعته الكروفوردية لقضاء إجازة مدتها شهر تقريباً.

15

يوم الأربعاء الواقع في ١٤ آب/أغسطس. تولت رايس رئاسة اجتماع كبار المسؤولين في غياب رئيس الجمهورية الذي كان في كروفورد. كان أمام المجتمعين مسودة نص توجيه أمن قومي رئاسي. أو إن. إس . بي . دي،NSPD، كانت قد أقرت من قبل النواب. كانت الوثيقة بعنوان: «العراق: أهداف. أغراض. واستراتيجية.»

لوجود الرئيس في إجازة أتيحت لكبار المسؤولين فرصة دراسة التوجيه ومراجعته سطراً سطراً وإدخال التعديلات التي تمكنهم من تحقيق الإجماع الكامل تمهيداً لرفع الوثيقة إلى رئيس الجمهورية للتوقيع. من المؤكد ان اي توجيه أمن قومي رئاسي، (اي NSPD)، ليس هو نص الوصايا العشر، وإن شَعَرَتْ رايس بأن من المناسب والأفضل التأكد من أن الجميع كانوا ينطلقون في عملهم من التعليمات.

اجتمعوا في الثامنة صباحاً واشتغلوا لبعض الوقت مراجعين الوثيقة سطراً سطراً. كانت الوثيقة السرية للغاية التي أقروها تقول:

«هدف الولايات المتحدة: تحرير العراق من أجل إزالة أسلحة الدمار الشامل، وسائل إيصالها، والبرامج ذات العلاقة، لمنع العراق من الإفلات من الاحتواء والتحول إلى تهديد أخطر بالنسبة إلى المنطقة وخارجها.

«وضع حد لتهديدات العراق لجيرانه، منع الحكومة العراقية من اضطهاد شعبها بالأساليب الاستبدادية، قطع ارتباطات العراق مع الإرهاب الدولي ووقف رعايته له، الحفاظ على سلامة العراق ووحدته الإقليمية. وتحرير الشعب العراقي من الاستبداد ومساعدته في خلق مجتمع قائم على الاعتدال، التعددية، والديمقراطية.»

وفي القسم التالي أوردت الوثيقة ما يلي: «الأغراض: ممارسة السياسة بطريقة تختزل فرص شن هجوم بأسلحة الدمار الشامل على الولايات المتحدة. وعلى القوات الأمريكية الميدانية. على حلفائنا وأصدقائنا. إلى الحدود الدنيا. تقليص خطر الاضطرابات الإقليمية إلى الحدود الدنيا. ردع إيران وسورية عن مساعدة العراق. واختزال احتمالات تعرض أسواق النفط الدولية للانهيار إلى الحدود الدنيا.»

قالت الوثيقة إن عناصر الاستراتجية ستتضمن «استخدام جميع أسباب القوة القومية لتحرير العراق،» بما فيها الأساليب الدبلوماسية. العسكرية. الاستخباراتية. إضافة إلى العقوبات الاقتصادية.

على صعيد العمل لتغيير النظام من شأن الولايات المتحدة أن «تسعى إلى تحقيق أهدافنا وأغراضنا مع تحالف لبلدان ملتزمة. إن أمكن. ولكن بالعمل منفردة إذا دعت الضرورة،»

إذا ما عدنا عقوداً إلى الوراء فإننا نكتشف أن رؤساء جمهورية أمريكيين كانوا. على نحو روتيني أو منهجي. قد تبنوا مثل هذا الموقف من ضمان مصالح الأمن القومي. نوع من استراتيجية التحالف إن أمكن والانفراد عند الضرورة. غير أن انقساماً عميقاً داخل أي فريق أمن قومي كهذا الانقسام الحاصل بين تشيني وپاول نادراً ما وُجد. فقد كان لدى كل منهما تحديدٌ مختلف جذرياً عما هو ممكن. وما هو ضروري.

تمثل عنصر آخر من عناصر الاستراتيجية بـ «العمل مع المعارضة العراقية للتدليل على أننا عاكفون على تحرير العراق لا اجتياحه. وإعطاء المعارضة دوراً في عملية بناء عراق تعددي وديمقراطي. بما في ذلك إعداد دستور جديد.» وثمة غرض آخر كان «تشكيل حكومة ديمقراطية ذات قاعدة عريضة ملتزمة بالقانون الدولي وباحترام المعايير الدولية. بعيدة عن تهديد البلدان المجاورة. حريصة على احترام

الحقوق الأساسية لجميع العراقيين بمن فيهم النساء والأقليات. ملتزمة بسيادة القانون. بما فيها حرية التعبير والعبادة.»

كان العنصر الأخير للاستراتيجية هو: «إظهار أن الولايات المتحدة مستعدة للاضطلاع بدور متواصل ودؤوب في عملية إعادة بناء عراق ما بعد صدام بالاستناد إلى مساهمات الأسرة الدولية ومشاركتها وصولاً إلى إطلاق عملية إعادة بناء البلاد بسرعة. عملية تحافظ على ولكنها تصلح الجهاز البيرقراطي العراقي الراهن. وتتولى إصلاح الجيش العراقي ومؤسسات الأمن.»

يمكن للحفاظ على شيء ما أن يكون مختلفاً جداً عن إصلاحه. ما الذي يتم استبقاؤه؟ ما الذي يجري تغييره؟ عُقدت آمال عريضة على افتراض كون العراقيين راغبين في الديمقراطية والتغيير. غير أنهم (فرسان مجلس الأمن القومي) أوردوا المفهومين كليهما في الوثيقة لأن أحداً لم يكن يعرف ما سيتم العثور عليه في العراق بعد صدام.

ثم قال باول إن عليهم أن يفكروا بكيفية بناء نوع من التحالف. بالحصول على نوع من الغطاء الدولي على الأقل. أضاف باول: صحيح أن البريطانيين سيكونون معنا ولكن من شأن دعمهم أن يتعثر في غياب نوع من التحالف الدولي أو المرحب به من جانب الأمم المتحدة. أما باقي أوربا فلم يكن مضموناً مثله مثل أصدقاء الولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

جاءت فرصة المستوى الرفيع الأولى لقيام الرئيس بتناول الوضع العراقي رسمياً مع خطاب بُرمج إلقاؤه أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة بعد أقل من شهر. في ١٢ أيلول/سبتمبر. كان غيرسون قد زود الرئيس بمسودة خطاب عن القيم الأمريكية. عن الديمقراطية. وعن برامج المساعدات الإنسانية - عن الوجه الأنعم لجدول أعمال بوش. غير أن العراق كان قد أصبح الموضوع (آ) واشنطن كما في

البلاد طولاً وعرضاً. فكل مستشار أمن قومي سابق أو وزير خارجية سابق. على قيد الحياة. قادر على رفع القلم والكتابة على الورق أو النسخ على لوحة المفاتيح كان قد أدلى بدلوه وطرح جملة آرائه وانتقاداته.

أكد پاول أن على الرئيس أن يتحدث في الأمم المتحدة عن العراق قائلاً: «لا أستطيع أن أتصوره ذاهباً إلى هناك وعازفاً عن الكلام عن هذا.»

ورايس. التي لم تكن من قبل مؤيدة لفكرة إلقاء خطاب عنيف عن العراق في الأمم المتحدة. وافقت على ما قاله پاول. ففي أجواء الجدل والمزايدة المتواصلة على الصعيدين الشعبي والإعلامي. كان من شأن العزوف عن مقاربة موضوع العراق أن يشي بأن الرئيس لم يكن جاداً حول التهديد. أو بأنه كان يعمل بسرية مطلقة. أضف إلى ذلك أن بوش كان مولعاً بتقديم التفسيرات العلنية. أقله بالمعنى العام. وبإحداث الضجيج الإعلامي حول سياساته وخططه الخاصة.

ظن پاول أنه كان قد حصر تشيني، ورمسفلد، ولو إلى درجة أقل. في الزاوية. أكد أن من المتعذر الذهاب إلى الحرب دون اختبار نوع من الحل الدبلوماسي حتى وإن وُجد من يرى بأن الحرب هي الحل الوحيد. كانت تلك الخطوة الأولى الضرورية ضرورة مطلقة. فبدون بذل مثل هذه المحاولة لن يكون أحد في صفهم. لن يكون هناك لا بريطانيون. لا قواعد. لا اتفاقيات مرور أو تحليق. ولا حلفاء أوربيون وشرق أوسطيون على الضفة الأخرى. توهم پاول أنه أفحمهم. مع أنه أحس بأن تشيني «أصيب بالذعر» لأن الطريقة الدبلوماسية قد تنجح لحظة اعتمادها. غير أن منطق المحاولة كان معصوماً. برأي پلول. فالإمكانية كانت الآن قد أصبحت ضرورة.

ألقى تشيني محاضرة عن الأمم المتحدة. كان من شأن الذهاب إلى الأمم المتحدة أن يطلق سيرورة لا تنتهي من الجدل. من المساومات. ومن التأخير والتسويف. كلام دون فعل.

أصغى پاول. وهو يكاد يضحك بينه وبين نفسه. كان تشيني شديد الرغبة في عدم السير في تلك الطريق. شديد التوق إلى إغلاقها. غير أنه لم يستطع.

قال نائب الرئيس: «أعتقد أن الخطاب في الأمم المتحدة ينبغي أن يكون عن العراق» ولكن مع عنصر إضافي واحد. كان لا بد من جعل الأمم المتحدة نفسها هي القضية لأنها كانت قد أخفقت على امتداد ما يزيد على عقد كامل، قد بقيت عاجزة عن، وغير مستعدة لفرض قراراتها الخاصة الملزمة لصدام بتدمير أسلحة الدمار الشامل عنده والسماح بعمل مفتشي الأسلحة داخل العراق. كان لا بد من تحدي الأمم المتحدة «لنقل لهم ليس العيب فينا نحن. إنه فيكِ أنتِ. أنتِ لستِ مهمة.» كانت الأمم المتحدة تخاطر بأن تصبح عديمة الشأن وأضحوكة. قال نائب الرئيس.

رايس أُعجبت بذلك. فلنضع «السعدان» على ظهر الأمم المتحدة «لننقل المشكلة إلى الأمم المتحدة.» كانت هذه المنظمة قد أصبحت شديدة الشبه بعصبة أمم ما بعد الحرب العالمية الأولى – ندوة مناقشات بلا أنياب.

على المدى القصير اتفق كبار المسؤولين جميعاً على رفع توصية تقضي بأن يتحدث الرئيس عن العراق في الأمم المتحدة. من المؤكد أن من غير الجائز أن يطالبها بأي إعلان حرب. تم رفع ذلك الموضوع عن الطاولة. ولكن اتفاقاً حول ما يجب أن يقوله لم يكن موجوداً.

❖ ❖ ❖

في وقت لاحق من ذلك اليوم. يوم ١٤ أغسطس. سار فرانكس ورينوار في الطريق المفضية إلى مكتب رمسفلد التي باتت مطروقة إلى درجة الاهتراء. كان الهدف هو تقديم ما استجد على صعيد التخطيط للخيار الهجين. غير أن الوزير كان في الحقيقة. يريد الوقوف عند الاستهداف. كان مبهوراً بالعملية. تواقاً لفهم

العلاقة بين القيمة العسكرية لهدف معين وبين الاستعداد أو عدم الاستعداد لقبول الأضرار الجانبية اللاحقة بالمدنيين.

كان لرينوار. وهو خبير حروب جوية. نصيب وافر من الكلام. أساساً لابد لكل هدف ممكن من أن يقوّم استخباراتياً من حيث قيمته العملياتية. برأي رينوار. فأي مرفق اتصالات عراقي ينطوي. مثلاً. على أنماط من الاستخدام: إنه مركز إيصال المعلومات إلى القوات العسكرية العراقية في الميدان. أولاً. وسيلة بث الدعايات والمعلومات إلى العالم. ثانياً؛ وأداة ارتباط بالسفارات العراقية التي ينشط من خلالها عناصر الاستخبارات العراقية والمنتشرة في طول العالم وعرضه. ثالثاً. وهكذا فإن من شأن مثل هذا المرفق أن يشكل هدفاً واضحاً. إلا أن من شأن تكاليف ضرب الهدف أن تشتمل على تقدير عدد المدنيين العراقيين الذين يعملون هناك. هل هم مدنيون فعلاً. أم أنهم مرتبطون بإحدى بنى النظام؟ ماذا عن الروتين اليومي؟ من المحتمل أن يكون عدد المدنيين في المكان أقل في الليل.

«حسناً» قال رمسفلد. ثم سأل: «كيف تعرفون عدد الناس الموجودين في ذلك المبنى؟» طرح فرانكس ورينوار قصة افتراضية كانا قد تحريا فيها صور مبنى عشر طبقات مع مرآبه. كان التحليل يشير إلى وجود ١٠ مكاتب على كل طبقة. ثلاثة أشخاص في كل منها. وبالتالي فإن العدد المحتمل للناس في أي يوم خلال ساعات العمل الاعتيادية هو ٣٠٠ تقريباً. أما في الليل فإن العدد قد ينخفض إلى مستوى وضعية المناوبة. إلى نحو ٥٠ شخصاً أو أقل - مع الإيحاء بجعل الضربة ليلية إذا كان المستهدف هو المرفق. لا ملاك العاملين.

إجمالاً، كان ثمة، الآن، نحو ١٣٠ هدفاً محتملاً مرشحاً للانطواء على أضرار جانبية. حُددت باحتمال قتل ٣٠ مدنياً أو أكثر.

«إلى أي مدى نحن واثقون بدقة الاستخبارات وصحة التحليل؟» سأل رمسفلد.

«يختلف الوضع بين حالة وأخرى.»

«عودا وراجعا الأمر وقوّماه ثانية!» أمر رمسفلد. كان يريد خفض الأضرار الجانبية إلى الحدود الدنيا. كان يريدهم أن يقدموا على ذلك. إذا كان تجنبه متعذراً. وعيونهم مفتوحة.

حاول فرانكس أن يشرح أن العملية كانت عملية تصويب وتنقية متواصلة. وأن عدد أهداف الأضرار الجانبية كان مرشحاً لأن يتضاءل.

أراد رمسفلد إجراء مراجعة كاملة. وضع كل شيء تحت المجهر مرة أخرى. «إنعاش» حسب تعبيره.

أفاد الجنرالان بأن من شأن تدمير ٤٠٠٠ هدف محتمل أن يتطلب نحو ١٢,٠٠٠ إلى ١٣,٠٠٠سلاح منفصل. قد يؤوي مبنى أو مجمع كبير ٤ إلى ١٢ «نقط استهداف» منفردة لأسلحة منفردة - قنابل أو صواريخ.

طلب رمسفلد من الجنرالين أن يتعاونا مع معشر الاستخبارات لضمان التحسين المطرد لعمليات جمع الأهداف وتحليلها. في الذاكرة كانت الكارثة التي وقعت خلال حرب كوسوفا في ١٩٩٩ حين قُصفت السفارة الصينية ببلغراد لأن الخارطة الموجودة بحوزة أحد عناصر وكالة الاستخبارات المركزية كانت قديمة. تابع فرانكس ورينوار إيجازهما على مسامع وزير الدفاع عدداً غير قليل من الساعات.



من مكتبه على الشارع الـ ١٧ بمركز مدينة واشنطن. على مسافة ثلاثة «بلوكات» عن البيت الأبيض كان برنت سكوكروفت مستشار الأمن القومي لدى الرئيس جورج إتش. دبليو. بوش ورئيس رايس عندما كانت تعمل في جهاز مجلس الأمن القومي.

يلتقط نتفاً من المعلومات الاستخباراتية عن الجدل الدائر حول العراق داخل الإدارة. ومع أنه كان يعمل مستشاراً خاصاً. فإن قليلين ممن هم خارج الحلبة كانوا مثل سكوكروفت قرباً من اللاعبين الرئيسيين في إدارة بوش الراهنة.

كان سكوكروفت مشوشاً لاعتقاده بأن التهديد الحقيقي للولايات المتحدة لم يكن صادراً عن صدام بل عن القاعدة. أزعجه تركيز تشيني ورمسفلد الشديد على صدام. كان قد علق قائلاً: «لعل الشيء الوحيد المشترك بين أسامة وصدام حسين هو كره الولايات المتحدة. صدام اشتراكي معاد لرجال الدين. مع كل قدرات صدام الهائلة لم يكن هناك إلا القليل جداً من الآثار الإرهابية» اقترح أحد المعارف كتابة تعليق في إحدى صفحات الرأي.

كتب سكوكروفت أن حلم صدام بالهيمنة على المنطقة كان متناقضاً مع مصالح الولايات المتحدة، غير أنه تابع يقول: «ليس ثمة ما يؤكد ارتباط صدام بأي منظمة إرهابية، بله بهجمات ١١ ايلول/سبتمبر. ليس لأهداف صدام أي علاقة ذات شأن بالإرهابيين الذين يهددوننا. وليس ثمة أي سبب قوي يدفعه إلى التحالف معهم.»

حذر سكوكروفت قائلاً: «ثمة إجماع شبه كامل في العالم على معارضة أي هجوم ضد العراق في هذا الوقت. وطوال بقاء ذلك مطرداً فإن من شأن الولايات المتحدة أن تظل مضطرة إلى اتباع استراتيجية شبه أحادية ضد العراق. مما يجعل العمليات العسكرية بالمقابل أصعب وأبهظ ثمناً.» قضت توصيته بضرورة سعي بوش إلى تمكين فرق المراقبة الدولية من العودة لإجراء عمليات تفتيش صارمة. مباغتة.

لا أحد كان يضاهيه التصاقاً ببوش الأب رفيقاً. نصيراً. وصديق روح في السياسة الخارجية. كان سكو كروفت قد شارك في تأليف مذكرات الرئيس السابق. أرسل إليه سلفاً نسخة من المقال ولم يتلق أي رد فعل. كان ذلك يعني أن المقال «أوكي.»

نشرت جريدة الوول ستريت جورنال مقال سكو كروفت في ١٥ آب/أغسطس تحت عنوان «لا تهاجموا صدام!» الاستفزازي.

تلقى سكو كروفت اتصالين مهمين.

قال پاول: «شكراً لقد وفَّرْتَ لي هامشاً أتحرك فيه.» كان سكو - كروفت يعرف أن پاول كان حريصاً على عدم استثارة الجمهوريين اليمينيين. الذين لم يكونوا. على أي حال. يعتقدون بأنه جمهوري. وهكذا فقد بقي پاول مضطراً على الدوام إلى الانقضاض على العراق دون دعم الحرب. ها هو ذا الآن بادئاً تحركه. آملاً في التحلي بالحذر ولكن مع قدرة على الإقناع. أفشى وزير الخارجية بالسر قائلاً: «إنها فرصتي. لا بد لي من أن أكون منظماً!.»

كذلك قامت رايس بمهاتفة سكوكروفت وتبادلا كلمات قاسية. أوحى تصريح سكوكروفت بأن والد الرئيس مؤيد لما قيل. في الحدود الدنيا كانت هذه صفعة للرئيس.

رد سكوكروفت قائلاً إن المقال لم يكن مختلفاً عما سبق له أن قاله على شاشة التلفزيون قبل ١٠ أيام ولم يبادر أحد إلى الشكوى. ثم أضاف معتذراً إذا كان قد ترك الانطباع الذي تحدثت عنه رايس قائلاً: «لا أريد القطيعة مع الإدارة.»

ثمة كان قلق أكثر عمقاً. أدرك سكوكروفت أن بوش الأب لم يكن يريد أن يترك أي انطباع لدى الجمهور أو عند ابنه بأنه كان يتجسس عليه. من شأن ذلك أن يسيء إلى سمعة الابن، أن يقلص احترام الجمهور ودعمه له، بل وأن يقوض الرئاسة. وكانت المسألة شخصية جداً كما كان سكو كروفت يعرف جيداً.

لم يكن أي من سكوكروفت او بوش الأب راغباً في جرح ثقة الابن بنفسه. وبالتالي فإن سكوكروفت التزم الصمت مع الجمهور أكثر الأحيان. رغم أنه لم يغير نظرته.

◆ ◆ ◆

في الجـمـعـة الثـانيـة من إجـازته الكروفـوردية. أي في ١٦ آب/أغـسطس، عـقـد الرئيس اجتمـاعـاً مع مجلس الأمن القـومي عـبر قنوات فـيـديو آمنة. كان غـرض پاول الوحـيـد هـو إطلاق دعـوتـه بشـأن الـذهـاب إلى الأمم المتحـدة. وقـد كـرر پاول جـمـيـع حججه.

طلب الرئيس تعليقـات من كل من كبار المسؤولين أعضـاء المجلس؟ كان هنـاك نوع من التأييد لإطراء الأمم المتحدة، أقله في الخطاب المقبل، حتى من جانب تشيني.

«رائع!.» قـال بوش أخيـراً مقـرأ الفكرة العامة المتعلقـة بخطاب في الأمم المتحدة عن العـراق. حـذَّرَهُـم قـائلاً ينبغي ألا يكون بالغ الحـدة أو كثيـر التطلب من العـراق تجنباً للظهور بمظهر من ليس جاداً.

قبيل الظهـر قـام الرئيس بزيارة نادى كروفـورد الاجتمـاعي ورد على عدد غيـر قليل من أسئلة المراسلين. اقر بانه كان «مدركاً لحقيقة ان اناساً اذكياء جداً دائبون على التعبير عن آرائهم حول صدام حسين والعراق. وأنا أصغي بعناية إلى ما عندهم من كـلام.» وقال بعناية وحذر أيضـاً إن صدّامـاً «راغب في امتـلاك أسلحة الدمار الشامل،» دون أن يوحي بأنه حائز عليها.

اتصل الرئيس بغـيـرسـون. مع إبقـاء رايس على الخط. حـول خطاب الأمم المتحدة. وأمـره: «سنفـعل شيـئاً مـختلفاً قليـلاً. سنبلغ الأمم المتحـدة أن عليهـا أن تتصدى لهذه المشكلة وإلا فستحكم على نفسها بالتفاهة «أوكي»؟»

باشر غيرسون العمل.

◆ ◆ ◆

كان پاول قـد غـادر اجتمـاع مـجلس الأمن القـومي الفـيـديوي الآمن شـاعـراً بأنه حاصل على صفقة. أفحمهم. أقله تشيني ورمسفلد، وربما حتى الرئيس. ذهب إلى

هامتونز بلونغ آيلاند. نيويورك، لقضاء إجازة. هناك اجتمع سراً مع وزير الخارجية البريطاني جاك ستروJack Straw ، الذي كان قد أبدى رغبة في القيام بزيارة ليوم واحد لأن موضوع العراق بدا متمادياً في التفاعل. بات متزايد الوضوح لرئيس الوزراء جراء حوارات بلير مع بوش، أن الأخير كان شديد الالتزام بالتحرك والفعل. وكان سترو يشاطر باول بعض هواجسه. من حيث الجوهر، كانت رسالته تقول: «إذا كنتم تفكرون حقاً بالحرب وتريدون أن يضطلع البريطانيون بدور، فإننا لن نستطيع أن نفعل ذلك ما لم تذهبوا إلى الأمم المتحدة.»

كان باول يعرف أن من شأن هذا أن يزيد من الضغط على بوش الذي كان مضطراً. ضرورة مطلقة. إشراك بلير في العملية.



في ٢٠ آب/ اغسطس. أجريت مقابلة مع الرئيس في كروفور دامت ساعتين و٢٥ دقيقة حول الرد على ٩/١١ والحرب في أفغانستان لصالح كتاب بوش محارباً BUSH AT WAR. تحدث الرئيس بعبارات كاسحة. بل وحتى جليلة عن إعادة صياغة العالم. قال: «سأنتهز الفرصة لبلوغ أهداف كبيرة. وكان يتعين على كل تحرك أن يأتي متناغماً مع الهدف الإجمالي الشامل المتمثل بتحسين العالم. بجعله مسالماً. حسب زعمه. أضاف متطوعاً: «إنه مثل العراق كما ترى. ليس ذلك إلا موضوعاً جانبياً - سنرى ما إذا كان الأمر سيتمخض عن شيء - من الواضح أن هناك مضاعفات استراتيجية لإحداث نوع من تغيير النظام في العراق إذا تقدمنا. غير أن هناك شيئا تحت ذلك. بمقدار ما أنا مهتم به. وهو أن هناك قدراً هائلاً من المعاناة.» كان صدام يقتل شعبه جوعاً في المناطق الشعبية النائية. ثم أضاف: «ثمة وضع إنساني يجب علينا أن نقلق بشأنه. حين نفكر بالعراق. قد نهاجمه وقد لا نهاجمه. ليست لدي أي فكرة بعد. غير أن التحرك لن يستهدف سوى جعل العالم

أوفـر سلمـاً.» لـم يـأت الرئيس علـى ذكـر أسلحـة الدمـار الشـامـل. أو أي تهديـد يمثله صدام حسين بالنسبة إلى الولايات المتحدة.

وبعـد ذلك قـال بوش مـوحيـاً بقـوة بأن أي تحـالف دولي أو أي عـمل من جـانب الأمم المتـحـدة لـم يكن مـؤهـلاً لحل مـشكلة الـدول المارقـة: «حـسنـاً، لن نصل قط إلى مستوى جعل الناس جميعاً يتوافقون فيما بينهم حول القوة واستخدام القوة. إلا أن الفعل، الفعل الواثق المؤهل للتمخض عن نتائج إيجابية يوفر نوعاً من الطرح المزاح الذي تستطيع الدول والقيادات المترددة أن تسير وراءه فتكتشف ـ أؤكد لك ـ أن شيئاً إيجابياً قد حدث، أن شوطاً قد قُطع باتجاه السلام.»

أنعم عليَّ الرئيس بجولة في مزرعته على متن سيارته البيك آب. ولدى قيامنا بمشوار تطرق الرئيس إلى العراق. في ذلك الوقت لم تكن لدي فكرة عن المدى الذي قطعه التخطيط العسكري السري، عن سلسلة الإيجازات، وعن الخيارات المختلفة ـ الانطلاق المولد، البداية الجارية، الهجين. إلا أنه قال مؤكداً إنه لم يكن قد رأى أي خطة عسكرية ناجحة بشأن العراق، ورحنا نناقش ما ينطوي عليه الصبر من أهمية. في اليوم التالي قال بوش للمراسلين إنه «رجل صبور» مستعد لروز خيارات بلوغ هدف تغيير النظام بعناية وحذر.



صـار تشـيني يرى أن البسـاط بدأ ينسحب من تحـتـه. فـالحديث عن الأمم المتحدة، عن الدبلوماسية. وعن الصبر الآن كان خطأ بنظره. لا شيء كان يستطيع عملياً أن يبطئ الاندفاع إلى الحرب ـ وهي حرب قرر أنها ضرورية. كانت. بنظره. هي المخرج الوحيد ـ سارع زملاؤه السابقون من إدارتي فورد وبوش إلى اقتحام الساحة والإدلاء بدلائهم مطلقين عاصفة قوية من التعليقات ـ سكوكروفت برسالته

الخدرة. المناوئة للحرب. وزير الخارجية الأسبق جيمس بيكر الذي أكد على ضرورة تجنب العمل الأحادي. أما هنري كيسنجر. عميد السياسة الخارجية الواقعية. فقد كان في ١٢ آب/أغسطس قد نشر مقالاً طويلاً. التفافياً بعض الشيء. في الواشنطن بوست. أيد فيه بوش في تشدده مع قضية صدام. منبهاً في الوقت نفسه إلى أهمية الحصول على دعم الجمهور والعالم.

كانت النيويورك تايمز قد جعلت موقفي سكو كروفت وكيسنجر المقال الرئيسي على صفحتها الأولى في ١٦آب/ أغسطس بعنوان: «جمهوريون كبار يختلفون مع بوش حول استراتيجية العراق.» كان ثمة تفسير خاطئ لملاحظات كيسنجر. التي كانت داعمة لبوش إلى هذا الحد أو ذاك. ثم ما لبثت التايمز أن نشرت تصحيحاً. غير أن تشيني ونائبه سكوتر (الدراج) ليبي. وجد المقال استثنائياً في استفزازه. فالتصحيح لم يكن قط قادراً على اللحاق بعنوان الصفحة الأولى. فضلاً على أن معارضة سكوكروفت كانت واضحة وضوح الشمس ولا تقبل النقاش إضافة إلى أنها كانت أقوى. بدا كما لو أن الاندفاع نحو الحرب قد أوقف.

قرر تشيني أن الجميع كانوا يطرحون آراءهم باستثناء الإدارة. لم يكن ثمة أي موقف معلن للإدارة. فأراد ان يعرض موقفاً كهذا. أن يلقي محاضرة كبرى إذا دعت الضرورة. كان من غير المألوف كلياً أن يبادر نائب الرئيس إلى الحديث عن مثل هذه القضية الكبرى قبل الرئيس. الذي كان سيلقي كلمة في الأمم المتحدة عن العراق يوم ١٢ أيلول/سبتمبر. إلا أن تشيني لم يكن يطيق الانتظار. فالطبيعة والنقاشات السياسية الواشنطنية تمقتان الفراغ بشدة. لم يكن مستعداً للتخلي عن ساحة المعركة لسكوكروفت. لبيكر. لكيسنجر تَمَّتْ إساءة تفسير كلامه. أو باول. فاتح الرئيس الذي أعطى موافقته دون دراسة تفاصيل ما كان يمكن لتشيني أن يقوله. في إحدى الجلسات المغلقة.

ففي أحد اجتماعات مجلس الأمن القومي بادر تشيني الرئيس قائلاً: «حسناً. سوف ألقي تلك المحاضرة.»

قال بوش نصف مازح: «حذار من توريطي!»

التوريط بالذات هو ما كان شاغلاً بال تشيني.

قال العنوان العريض في النيويورك تايمز صباح يوم ٢٧ آب/ أغسطس «يقول تشيني إن خطر عراق نووي يسوغ الهجوم.» أصيب پاول بالذهول. كان نائب الرئيس قد ألقى خطاباً متشدداً أمام مؤتمر قدماء محاربي الحروب الخارجية في ناشفيل ودعا أساساً إلى اعتبار التفتيش عن الأسلحة عبثاً. كان تشيني قد قال عن صدام: «ليس من شأن عودة المفتشين أن يوفر أي ضمان يؤكد التزامه بقرارات الأمم المتحدة. العكس هو الصحيح؛ ثمة خطر كبير في احتمال أن يؤدي الأمر إلى توفير اطمئنان زائف جراء خلق نوع من الوهم بأن صداماً. قد عاد إلى الحظيرة!»

كذلك قام نائب الرئيس بإعلان تقويمه الاستخباراتي القومي الخاص لصدام قائلاً: «بكلام بسيط ليس ثمة أي شك أن صدام حسين يملك الآن أسلحة دمار الشامل (و) ليس هناك أي شك بأنه يراكمها لاستخدامها ضد أصدقائنا. ضد حلفائنا وضدنا نحن: قبل عشرة أيام كان الرئيس نفسه قد قال فقط إن صداماً «راغب» في امتلاك هذه الأسلحة. لم يكن بوش أو وكالة الاستخبارات المركزية قد أصدرا أي تأكيد شبيه بتأكيد تشيني.

وقال تشيني كذلك إن أسلحة الدمار الشامل هذه بحوزة «دكتاتور قاتل» تشكل «أكبر تهديد يمكن تصوره. تبقى أخطار القعود عن الفعل أكبر بكثير من خطر الإقدام على الفعل.»

هذه الملاحظات التي تكاد أن تصل إلى مستوى إعلان الحرب فسَّرتها أوساط

واسعة على أنها تعبير عن سياسة الإدارة. أصيب باول بالدهشة. كان هذا نوعاً من الهجوم الاستباقي على ما كان الرئيس قد وافق عليه قبل عشرة أيام. جاء خطاب تشيني لينسف كل ما تم الاتفاق عليه. الآن شعر باول بأنه محصور في الزاوية. ولزيادة طين مشكلته بلة. بدأت هيئة الإذاعة البريطانية. البي بي س BBC ببث مقتطفات من مقابلة كانت قد حصلت عليها من باول قبل خطاب تشيني مؤكداً أن «الرئيس كان واضحاً بشأن إيمانه بضرورة عودة مفتشي الأسلحة.» بدأ سيل من المقالات المؤكدة لإصرار باول على تكذيب تشيني بالظهور، اتُهم الرجل بعدم الولاء والغدر. وقد أحصى سبع افتتاحيات داعية إلى إقالته أو تلمح إلى ضرورة تركه للوزارة. تساءل باول: «كيف يمكن أن أكون عديم الولاء وأنا ملتزم بالتعبير عن موقف الرئيس المعلن؟»

رأى كن آدلمان. وهو أحد أصدقاء تشيني ومساعد سابق لرمسفلد حين كان وزيراً للدفاع في سبعينيات القرن العشرين. أن بوش كان حقاً يبالغ في تأخير موعد الإطاحة بصدام.

فبعد يومين من خطاب تشيني بادر آدلمان إلى اقتحام الساحة بمقال افتتاحي ملتهب في الوول ستريت جورنال. كتب يقول إن صدّاماً خطر أكبر من القاعدة لأن لديه بلداً، ملايين الدولارات من الموارد النفطية، جيشاً، وعشرات المخابر العلمية. ومئات المنشآت الصناعية المنتجة لأسلحة الدمار الشامل.»

أضاف آدلمان مؤكداً استحالة حل المشكلة عبر عمليات تفتيش دولية جديدة. «ليس كل يوم يُحّجم فيه السيد بوش عن تحرير العراق إلا يوماً آخر من أيام تعريض أمريكا للخطر. حين يرتدي ثوب» (رجل صبور) «إنما يخاطر بهجوم كارثي. إذا ما حصل مثل ذلك الهجوم وجرى ربطه بأحد مرافق أسلحة الدمار الشامل العراقية، فإن مصير هذا الرئيس هو مزبلة التاريخ.»

يا لها من مادة عنيفة! لم يكن تشيني يتصل مباشرة مع آدلمان حول مثل هذه الموضوعات بل كان يمرر رسائل عبر صديق مشترك اتصل به بعد ظهور مقاله مباشرة ليبلغه برد فعل نائب الرئيس. زعم الصديق أن نائب الرئيس قال إن «كَنْ كان عوناً كبيراً جداً في هذه المعركة كلها، وأنا أثمن عالياً في الحقيقة ما فعله، وقد كان عظيماً.»

بعد يوم واحد. في ٢٩ آب / أغسطس تحدث تشيني أمام قدماء محاربي الحرب الكورية في سان أنطونيو. كان الخطاب نفسه مع فروق لافتة. أسقط تأكيده لاحتمال توفير عمليات التفتيش عن الأسلحة «اطمئنان زائف.» وخفف من انتقاده قائلاً إن «عمليات التفتيش ليست غاية بذاتها.»

بدلا من التأكيد، كما كان قد فعل في الطبعة الأولى من الخطاب على أننا «بتنا نعرف أن صداماً قد استأنف محاولاته الرامية إلى حيازة أسلحة الدمار الشامل.» اكتفى بقول إن صداماً كان يعتمد «برنامج أسلحة نووية عدوانياً.» ثمة عبارات أخرى تعرضت للتعديل عن طريق حذف كلمة «جداً» مثلاً، إضافة شطب ثماني فقرات من الخطاب.

بعد ما يزيد على سنة كاملة، أشار بوش إلى هذه الفترة واصفاً إياها بعبارة «شهر آب/أغسطس البائس.» ثم قام بتسليط الضوء على السبب قائلاً: «أتذكر الخروج من آب/أغسطس العام الثاني بعد الألفين ٢٠٠٢. كانت ثمة المسيرة باتجاه الحرب. جميعنا - كنا بالفعل في حالة دفاع. لأننا لم نكن قريبين من بعضنا البعض.» كان هو في تكساس وكان كبار المسؤولين الآخرين مبعثرين وموزعين على منتجعات مختلفة، أمكنة اصطياف وراحة متباينة. «كل كلمة كانت تُلتقط وحدها. ألقى تشيني محاضرة أمام الفي.إف. دبليو.VFW (قدماء محاربي الحروب الخارجية)، وهو شيء سيتساءل المؤرخون لدى النظر إليه في المستقبل عما كان

ينطوي عليه الخطاب من كلام كبير ولن يهتدوا إلى جواب حسب اعتقادي. ومع ذلك فإن الخطاب أثار ضجة كبيرة.»

قلت: «انزعج پاول.»

«لا» قال الرئيس، «لا علم لي بذلك كيف لي أن أعرف أنه (كان) منزعجاً؟ كنت في كروفورد.»

16

عـاد الرئيس من كـروفـورد إلى البـيت الأبيض يوم الأحـد، الفـاتح من أيلول/سبتمبر. كان پاول حزيناً قد طلب اجتماعاً خاصاً مع بوش، وجاء في اليوم التـالي، يوم العـمـال، إلى البـيت الأبيض لتناول طعـام الغـداء، ثم مـا لبثت رايس، كالعادة، أن التحقت بالركب.

سأل الوزير: «ألم يكن موقف الرئيس قائماً على ضرورة عودة مفتشي الأسلحة إلى العراق؟»

«نعم» قال الرئيس. على الرغم من أنه كان متشككاً من نجاح عمليات التفتيش، فقد أعاد تأكيد التزامه بالذهاب إلى الأمم المتحدة والتماس التأييد. وعلى الصعيد العملي فإن ذلك كان يعني التماس قرار جديد. مقتنعاً وراضياً بما سمع غادر پاول البلاد ليحضر مؤتمراً في جنوب إفريقيا. مؤقتاً بدا تدخل تشيني عبر خطابَي قدماء المحاربين متعرضاً للتحييد.

قام الرئيس بإبلاغ كبار المسؤولين رغبته في الذهاب إلى الكونغرس التماساً لقرار يؤيد العمل العسكري ضد صدام. ومع أن محامي البيت الأبيض كانوا قد أكدوا له امتلاكه للسلطة الدستورية التي تمكّنه من التحرك وحده بوصفه قائداً عاماً. فإن الرئيس كان راغباً في الحصول على تفويض الكونغرس.

بعد قضاء الجزء الأفضل من الشهر جاهداً لفرز وتصنيف جملة القضايا الدولية وتلك الخاصة بالأمم المتحدة التي كانت لا تزال تنتظر الحلول. لم يكن فريق بوش بحاجة إلا إلى اجتماع كبار مسؤولين واحد للاطلاع على وضع السياسة

الداخلية. في المناقشة كان هناك قدر كبير من الاحترام لتشيني الذي سبق له أن خدم في الكونغرس وكان رئيساً لمجلس الشيوخ.

تمهيداً لحرب ١٩٩١ في الخليج. كان والد بوش قد ذهب أولاً إلى الأمم المتحدة لاستصدار قرار يمكنه من استخدام القوة. وقبل الحرب بـ ٤٥ يوماً فقط كان القرار قد اعتمد بأكثرية ١٢ مقابل ٢ بمعارضة اليمن وكوبا وامتناع الصين عن التصويت. وبعد ذلك. قبل الحرب بثلاثة أيام فقط. اعتمد الكونغرس قراره الخاص بما يشبه التعادل ٥٢ مقابل ٤٧ في مجلس الشيوخ. ٢٥٠ مقابل ١٨٣ في مجلس النواب.

أما هذه المرة فقد اقترح تشيني الذهاب إلى الكونغرس أولاً لأن الدور الذي كان من شأن الأمم المتحدة أن تضطلع به. إذا كانت ستضطلع بأي دور أساساً. لم يكن واضحاً. قال إن الأمر كان سهلاً في سنة الانتخابات مع بقاء مجلس النواب كله وثلث مجلس الشيوخ في إجازة. كان يتعين على الرئيس أن يطلب إقراراً سريعاً لقرار معين بحيث يتمكن الناخبون من معرفة الموقف الذي اتخذه كل نائب وكل سناتور من صدام حسين ونظامه الخطر قبل الانتخابات.

وافقت رايس على الفكرة بقوة. فالسياسة على التلة (الكابتول هيل - مبنى الكونغرس) كانت ناضجة وكان التيار الرئيسي من الديمقراطيين مستعداً، على ما بدا لها لتأييد أي قرار. مما وفر للرئيس حداً أقصى من النفوذ. كان من شأن أي قرار برلماني أن يقوي موقف الإدارة في الأمم المتحدة ويضع الولايات المتحدة في موقف الطرف المتحدث بصوت واحد. قالت رايس إن الذهاب إلى الكونغرس أولاً بدا أمراً بديهياً. ثم سألت : «ما مقدار النقاش المطلوب؟»

❖ ❖ ❖

في ٣ ايلول/سبتمبر ظهراً. يوم الثلاثاء بعد عيد العمال حين يجري استئناف العمل رسمياً في واشنطن. قام كارد بجمع طائفة من كبار الرسميين بمن فيهم رايس.

هادلي، ليبي الدراج، دان بارتلت وآخرون كثر في غرفة العمليات. عُرف الاجتماع باسم «اجتماع البيت الأبيض لتنسيق موضوع العراق،» الذي كان سيتغير لاحقاً إلى فريق البيت الأبيض الخاص بالعراق (WHIG) (الويغ. WHITE HOUSE IRAQ GROUP) كان بين الحضور مدير الشؤون التشريعية في البيت الأبيض نيك كاليو. ذلك المحامي والمروّج المتأنق الذي بدأ الشيب يراوغ شعره وهو في الـ ٤٩ من العمر والذي يبقى وجهه الجاد مخبئاً وراءه تاجراً مرحاً. كان كاليو قد شغل المنصب نفسه عند والد بوش في ١٩٩٢-١٩٩٣- مروّجاً شخصياً لبضاعة الرئيس أساساً على التلة (في الكونغرس). كانت عملية الترويج لبضاعة تغيير النظام في العراق موشكة على البدء.

قال كارد إن خطة اللعبة قضت بمطالبة الكونغرس بالتصويت على قرار رسمي يجيز استخدام القوة العسكرية في العراق قبل الانتخابات النصفية. عاشت الإدارة شهراً صاخباً وفوضوياً إلى حد كبير في آب/أغسطس. أوضح كارد أن شهري ايلول/سبتمبر وتشرين الأول/اكتوبر كانا سيكونان منظمين، منسقين، ومتسمين بالتركيز.

عن احتمال فرص تغيير للنظام وحتى إطلاق حرب على العراق قال كارد: «يتفهم الرئيس مدى ثقل هذا القرار الخطير جداً. إنه يريد إشراك الكونغرس لأنه راغب في قدر أكبر من السلطة المعنوية في التحرك إلى الأمام.»

كان كاليو قد شم رائحة الأمر في وقت مبكر يعود إلى أواخر أيار/مايو أو أوائل حزيران/ يونيو حين طلبت منه رايس أن يبادر بحذر إلى جس نبض بعض أعضاء الكونغرس المفتاحيين وقياس درجة حرارة كل منهم فيما يخص العراق. كان قد درس الطريقة التي كان الأعضاء قد صوتوا بها بشأن القضايا العراقية منذ قرار حرب الخليج في ١٩٩١. أما في الخريف الآن فإن توجيهات الرئيس كانت أكثر مباشرة: «تدبرا أمر الأصوات يانيك!»

انطلاقاً من تعليقات بوش الجانبية وحركاته الجسدية. استنتج كاليو أن مسألة العراق لم تكن إذا بل متى ستكون هناك حرب.

صباح اليوم التالي. ٤ ايلول/سبتمبر. قام بوش بدعوة ١٨ عضواً من مجلسي الكونغرس إلى البيت الأبيض.

أعلن الرئيس: «العراق شاغل لبال عدد كبير من الناس لأن (صدامـاً) تهديد جدي للولايات المتحدة ولجيرانه ولمواطنيه بالذات.» ذكّر واضعي القوانين بأن الكونغرس كان قد قرر في ١٩٩٨ باكثرية ساحقة أن تغيير النظام ضروري. «إن إدارتي تتبنى تلك الخطة أو السياسة حتى بقدر أكبر من القوة في ضوء ٩/١١. وبالتالي فأنا أريد نقاشاً، أريد حواراً نشطاً ومسؤولاً في أمريكا من خلال الكونغرس.» ومتبنياً خط تشيني أضاف « ليس القعود عن فعل أي شيء خياراً.»

«هناك الآن اختلافات. حين يتم اتخاذ القرار سنأتي إلى الكونغرس طلباً لقرار محدد. أتوقع من الكونغرس أن يكون طرفاً في أي قرار.» ثم عبر عن رغبته في سماع مقترحاتهم وآرائهم وعن استعداده لتناول أي تحفظات قد تكون لديهم.

بادر زعيم الأغلبية الديمقراطية في مجلس الشيوخ توم داشل TOM DASCH-LE، الذي ربما جعله منصبه أكثر أصوات المعارضة المحتملة أهمية، إلى طرح عدد من الأسئلة حول تسويغ الرئيس للحرب. ما الجديد؟ أين هي الأدلة الملموسة؟ بمن نلوذ لوجستياً دونما دعم من المنطقة؟ أضاف داشل «من شأن هذه الأسئلة كلها أن تقطع شوطاً طويلاً إذا ما استطعنا مقاربتها.»

أما زعيم الأقلية في مجلس النواب ديك غيبهاردت DICk GEPHARDT. وهو ديمقراطي من ميزوري. فقال: «اقدّر تلخيصك. اشاطرك قلقك بشأن صدام حسين.» ثم أضاف إن من الضروري تبصير الشعب الأمريكي بالخطر الذي يواجهه.

«يتعلق الأمر بوصول أسلحة الدمار الشامل إلى أيدي خطأ. لا يراه الشعب. علينا أن نفعل كل ما نستطيع فعله للحيلولة دون انطلاق أسلحة الدمار الشامل. لا بد لنا من إبراز الصورة بوضوح.»

أضاف غيبهاردت أنه وداشل كانا قد تحدثا حول هذا وأن على الرئيس أن ينخرط بفعالية واندفاع إذا ما أراد لقرار محدد أن يمر.

سأل بوش مازحاً: «هل تلمح إلى أن نيك كاليو مخفق في عمله؟.»

تحول النقاش إلى قرار الكونغرس الخاص بحرب الخليج في ١٩٩١ زمن الرئيس بوش الأول.

كان كاليو يأمل في اتخاذ قرار ١٩٩١ نموذجاً.

سأل السوط الديمقراطي، عضو مجلس الشيوخ دون نيكلز: «هل تريدنا، سيادة الرئيس، أن نصوت قبل أن نسافر، إذا كنا سنعلق العمل في ١١ تشرين الأول/اكتوبر هذه السنة، وليس لدينا سوى خمسة أسابيع؟»

«نعم» رد بوش «اريدكم أن تجروا نقاشاً. القضية ملحة. لا تستطيعون تسويفها.»

طرح عضو مجلس الشيوخ الديمقراطي الميتشيغاني كارل ليفن CARL LEVIN، وهو رئيس لجنة القوات المسلحة، سؤالاً عما إذا كان صدام حسين قابلاً للردع، للاحتواء، مضيفاً: «لدى الجيش هواجس عميقة» موحياً بأن عدداً كبيراً من كبار الضباط كانوا مترددين.

رد عليه بوش بغضب واضح قائلاً: «يحسنون صنعاً لو عبروا عن تحفظاتهم على مسامع الرئيس بدلاً من مفاتحة مجرد شخص ما في مجلس الشيوخ.»

عصر ذلك اليوم، قدم رمسفلد تقريراً موجزاً إلى أعضاء مجلس الشيوخ حول العراق في جلسة سرية عُقدت وراء أبواب مغلقة حضرها ما يزيد على ثلثي الأعضاء -

نسبة عالية غير مألوفة. سرعان ما حصل كاليو على أنباء أكدت أن الأمور لم تسر على ما يرام، وأن زعيم الجمهوريين في مجلس الشيوخ ترنت لوت لم يكن سعيداً.

كان كاليو يدير ورشته - دكانته ذات الـ ٢٥ شخصاً مثل وكالة استخبارات جزئياً. فمساعده التنفيذي كان يعكف على وضع «ملاحظة ليلية» مطولة يلخص فيها تقارير النهار المرفوعة من أعضاء الجهاز الذين كانوا يتولون رصد كل شيء على التلة (في الكونغرس). بما في ذلك اجتماعات الإيجاز المعقودة خلف الأبواب المغلقة.

في «ملاحظة ليلة ٤ ايلول/سبتمبر» تحدثت المحامية الشابة المكلفة بتغطية مجلس الشيوخ لمصلحة كاليو كرستين إم. كيكون Christine M . CIccone ، عن إيجاز رمسفلد الذي دام ساعة ونصف الساعة. «لقد سمعتم أنها كانت كارثة ويعتبرها لوت تدميراً لكل النوايا الطيبة والإنجازات التمهيدية التي حققها الرئيس في اجتماعه هذا الصباح. وجدتني أغالب نفسي كي لا أضحك قهقهة، خصوصاً حين جعل الوزير رمسفلد من نفسه أضحوكة وهو يقول: «نحن نعرف ما نعرفه، نعرف أن هناك أشياء لا نعرفها، ونعرف أن هناك أشياء نعرف أننا لا نعرفها ولا نعرف أشياء لا تعرفها!»

قالت المحامية الشابة أن أعضاء مجلس الشيوخ كانوا قد توقعوا من الإيجاز، وقد جاء في أعقاب اجتماع الرئيس ذلك الصباح، أن يطلق عملية طرح وجهة نظر الإدارة والدعوة إلى تبنيها. «إلا أن الوزير رمسفلد لم يكن، على النقيض من ذلك، مستعداً لمناقشة أي قضايا عراقية، بل كان رافضاً لتقاسم حتى أكثر المعلومات الاستخباراتية أساسية، ولم يكن يمضي يوماً سعيداً.. ثمة قدر كبير من أعمال التنظيف هنا.»

أما عضوة مجلس الشيوخ الديمقراطية الكاليفورنية ديانا فاينشتاين Dianna Feinstein التي كانت أحد أعضاء لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، فقد قالت

في الجلسة إنها كانت قد انشغلت خلال عطلة الكونفرس بقضايا الاستخبارات واستمعت إلى العديد من التقارير الموجزة. قالت كيكون: «إنها راسخة الإيمان، استناداً إلى تلك التقارير الموجزة، بعدم وجود أي دليل جديد يثبت امتلاك صدام لأسلحة نووية، وهي ترى أن ليس هناك أي تهديد وشيك.» وحسب ما جاء في الملاحظة فإن فاينشتاين «لا تعتقد أننا مستعدون لقتل أناس أبرياء وهو أمر يكون تجنبه مستحيلاً لأننا سنذهب من جامع إلى جامع بحثاً عن الإرهابيين. إلخ..»

ربما كان التسرب أكثر سوءاً. تحدثت كيكون عن أن عضوي مجلس الشيوخ الديمقراطي الواشنطني باتي موراي Patty Murray. والجمهوري التكساسي كي بيلي هاتشيسون Kay Bailay Hutchison كانا قد انتظرا فاينشتاين عند الباب. فغادروا معاً، وأن ديمقراطياً من داكوتا يدعى كنت كونراد Kent Gonrad كان قد وقف ووافق على كل شيء قالته فاينشتاين. أما السيناتور الديمقراطي الفلوريدي ورئيس لجنة الاستخبارات بوب غراهام Bob Graham، فقد قال للواشنطن بوست: «لم اتلق أي معلومات جديدة» وما لبث السوط الجمهوري نيكلز، الذي لم يكن صقراً فيما يخص العراق، أن استغل مناسبة حفل استقبال في مقر إقامة البيت الأبيض ذلك المساء لرفع الشكوى مباشرة إلى كل من نائب الرئيس تشيني والرئيس.



اجتمع فريق كارد مرة أخرى في غرفة العمليات يومي الخميس والجمعة من ذلك الأسبوع، يومي ٥ و ٦ ايلول/ سبتمبر. كان فريق البيت الأبيض الخاص بالعراق عاكفاً على تنسيق النشرة اليومية حول العراق و«الصدى» - الجهد المبذول لتعزيز ودعم أطروحات الرئيس وآرائه بسلسة من البيانات والمقابلات الإعلامية من جانب رسميين في الإدارة وأعضاء ودودين في الكونفرس.

كان كارد يعتقد أن عليه، بوصفه رئيساً لجهاز العاملين في البيت الأبيض، ثلاثة واجبات. تمثل الواجب الأول بما أطلق عليه اسم «رعاية الرئيس وإطعامه» الذي كان الواجب الأصعب لأنه كان شاملاً لمتابعة حاجات بوش ورغباته، برمجته بطريقة عاكسة لأولوياته، الحصول على أجوبة ذات مرجعية، ودعوة الناس الملائمين إلى زيارة بوش، واستبعاد غير الملائمين. وكان الواجب الثاني هو «وضع الخطة.» والثالث «البيع والترويج.»

في مقابلة مع إليزابث بوميلر Elisabeth Bumiller، وهي مراسلة للنيويورك تايمز في البيت الأبيض، أفاد كارد بأن البيت الأبيض كان قد ترك فوضى آب/ أغسطس تأخذ مداها لأن «المرء لا يبادر، من وجهة النظر التسويقية أو الترويجية، إلى عرض منتجات جديدة في آب/أغسطس.»

احتلت المقابلة مكاناً لها على الصفحة الأولى في اليوم التالي تحت عنوان: «مساعدو بوش عاكفون على وضع استراتيجية لبيع سياسة خاصة بالعراق.» أثارت لغة كارد المستمدة من شارع ماديسون والقائمة على عبارات «التسويق» و«المنتجات الجديدة» طوفاناً من الانتقادات الغاضبة التي اتهمت البيت الأبيض ببيع الحرب كما لو كانت ألواح صابون وكان قد انتظر التحايل على، والالتفاف حول التهديد العراقي إلى ما بعد شهري الجلبة الانتخابية أملاً في توظيف تهديد الأمن القومي لخدمة الجمهوريين.



يوم الجمعة الواقع في ٦ أيلول سبتمبر قدم فرانكس ورمسفلد تقريراً موجزاً على الرئيس ومجلس الأمن القومي حول ما استجد في مجال التخطيط للحرب. تضمن الإيجاز ترهيناً وجيزاً لوضع الخطة الهجين. كذلك قدم فرانكس الخطة

المتعلقة بتعطيل صواريخ سكود التي يمكن لصدام أن يكون حائزاً لها. كان من شأن إرسال فرق وحدات قوات خاصة إلى مناطق في داخل العراق حيث يشتبه بأن تكون صواريخ سكود فيها - إلى الجنوب القريب من الكويت والغرب القريب من إسرائيل في المقام الأول، وهما منطقتان جرى إطلاق هذه الصواريخ منهما في حرب ١٩٩٠- أن ينطوي على عمل عدواني.

غير أن الجنرال فرانكس كان لديه أمر بالغ الأهمية ليضيفه إذ قال: «سيادة الرئيس، ظللنا دائبين على البحث عن صواريخ سكود وعن أسلحة دمار شامل أخرى منذ عشر سنوات ولم نعثر بعد على أي شيء، وبالتالي فأنا لا أستطيع أن أقول لك إني أعرف أن هناك أي أسلحة محددة في أي مكان. لم أر صاروخ سكود واحداً.»

اعتقد بعض من حضروا اجتماع مجلس الأمن القومي أن هذه كانت طريقة فرانكس للشكوى من عدم امتلاك معلومات استهدافية ملائمة - مواقع محددة تخزن فيها أسلحة أو صواريخ سكود مما حرمه من إمكانية مهاجمة أو قصف أمكنة محددة. ظنوا أن فرانكس كان يزعم بأنه كان بحاجة إلى امتلاك معلومات استخباراتية مؤكدة عن المواقع، ويشكو من عدم امتلاكه لمثل هذه المعلومات لم يكن يستطيع أو يريد أن يقصف بالانطلاق من مجرد التخمين.

غير أن من الممكن والواجب أن يكون إخفاق الاستخبارات في تحديد أهداف القصف دليلاً أيضاً على عدم صلاحيتها الكافية لتسويغ التأكيد الأوسع على الملأ أو في الوثائق الاستخباراتية الرسمية، لعدم وجود «أي شك» حول امتلاك صدام لأسلحة دمار شامل. وإذا لم يكن هناك أي شك. فأين كانت تلك الأسلحة إذن؟

كان فرانكس يعتقد، وهو على صواب، أن صداماً كان يملك أسلحة دمار شامل، تحديداً مواد كيماوية جرى تحويلها إلى أسلحة. ثمة رسميو مخابرات من بلدان

أخرى كانوا قد أكدوا له إيمانهم بامتلاك صدام لمواد بيولوجية تم تحويلها إلى أسلحة. فعلى امتداد السنوات كان فرانكس قد اطلع على آلاف التقارير الاستخباراتية المشيرة إلى امتلاك الرجل لقدرة مرعبة على صعيد أسلحة الدمار الشامل. رأى فرانكس أن من شأن صدام أن يستخدم هذه الأسلحة في حال إقدام الجيش الأمريكي على الغزو، وكان عاكفاً على إعداد خطط وألبسة واقية من الأسلحة الكيميائية ـ البيولوجية لقواته مصراً على توقع أسوأ الاحتمالات. قال فرانكس: «ذلك بالتحديد هو ما تفعله عندما تكون جنرالاً وقائداً ميدانياً.» ثمة كانت سلسلة من مواقع أسلحة الدمار الشامل المشبوهة التي كانت مرافق عسكرية والتي كان سيستهدفها غير أن الشك يبقى دون المعرفة.

ظل رمسفلد على الدوام مسكوناً بالشك إزاء الاستخبارات. كانت تجربته تشير إلى أنها ميالة عموماً إلى الاستخفاف بالمشكلات. إلى العزوف في الغالب عن تحري الأمور السلبية لسنوات. فيما بعد قال وزير الدفاع إن جنرالاته «أدركوا أن الاستخبارات البشرية المتوافرة لدينا كانت متواضعة، وأدركوا أيضاً أن الاستخبارات غير البشرية كانت تتعامل مع هدف بالغ الصعوبة متمتع بقدر كبير من القدرات السرية المخبوءة تحت الأرض، مع أستاذ في فن الخداع متمتع بقدر كبير من الخبرة في التضليل.» ثم أضاف «ثمة كانت أشياء كنا نعرف عنها أشياء لا يستهان بها وأشياء كثيرة لا نعرف عنها إلا القليل.» كان مطمئنا إلى تركيزهم على الأجزاء الكبيرة من العراق الخاضعة للمراقبة بفضل عمليتي العين الساهرة الشمالية والجنوبية، ولكن دون مزيد ذي شأن. وعمليات حظر الطيران لم تكن قد اكتشفت أمكنة أي سلاح دمار شامل معين.

تمثل البند الثاني في جدول أعمال ذلك الصباح ببغداد القلعة وخطة فرانكس الجارية على قدم وساق لقطع الطريق على، والتصدي عند الضرورة، لأي صمود من

جانب قوات صدام في العاصمة العراقية. فرايس وكارد بقيا شديدي القلق إزاء مثل هذا الاحتمال. من شأن ذلك أن يكون كارثة عسكرية مرشحة لأن تتحول إلى حرب طويلة مثقلة بأعداد كبيرة من الإصابات. فيما بعد قال رمسفلد إن الرئيس لم يكن هو المصر على الموضوع. إذ أكد متذكراً أن: «الرئيس كان مهتماً. ذلك صحيح، ولكن ليس على نحو متكرر. التقطه في المرتين أو الثلاث الأولى. أما الآخرون فاعتقد أنهم كانوا. كما تعلم. قلقين بشأنه قلقاً يمكن فهمه.» ثم أضاف: «بدأت أرسل عناصر إيجاز وكل من كان راغباً في الحصول على التقارير الموجزة كان يحصل عليها. لا يساورني أي قلق، لقد سمعت ذلك عدداً كبيراً جداً من المرات.»



ذلك المساء اجتمع كبار المسؤولين في كامب ديفيد دون الرئيس لاستعراض قضايا الأمم المتحدة قبل اجتماع مجلس الأمن القومي المبرمج صباح السبت مع الرئيس وقمة بعد الظهر مع رئيس الوزراء البريطاني توني بلير.

واصل تشيني تأكيده على أن من شأن التماس قرار جديد أن يعيدهم إلى الحساء الميئوس منه المتمثل بعملية الأمم المتحدة. فكل ما كان يتعين على بوش قوله في خطابه هو أن صداماً شرير، منتهِك متعمِّد لسلسلة من قرارات الأمم المتحدة، وأن الرئيس يحتفظ بحق العمل أحادياً.

رد عليه باول قائلاً: «غير أن ذلك لن يكون التماساً لتأييد الأمم المتحدة.» لا يعقل أن تسارع الأمم المتحدة إلى الحسم، إلى إدانة صدام، وإلى إجازة الحرب. لم تكن تلك المقاربة قابلة للتسويق. كان الرئيس قد قرر منح الأمم المتحدة فرصة، والطريقة العملية الوحيدة لتنفيذ ذلك كان متمثلاً بالسعي إلى استصدار قرار جديد.

لاحظ باول نوعاً من الحمى في تشيني. لم يكن تلك الصخرة الراسخة. الخالية من العواطف التي كان قد عرفها قبل ما يقرب من اثني عشر عاماً في أثناء الإعداد لحرب الخليج. فنائب الرئيس كان شديد التوق للتحرك ضد صدام. بدا وكأن أي شيء آخر لم يكن موجوداً. حاول باول إيجاز عواقب أي تحرك أحادي. في نقاش شعر بأنه كان ناجحاً. أضاف بُعْداً جديداً قائلاً إن من شأن رد الفعل الدولي أن يكون شديد السلبية إلى درجة يضطر معها إلى إغلاق عدد من السفارات الأمريكية في أمكنة مختلفة من العالم إذا ما أقدمنا على خوض الحرب وحدنا.

قال تشيني: «ليست تلك هي القضية. فالقضية هي صدام والتهديد الواضح.»

«قد يتكشف لاحقاً أن الأمر لم يكن كما يتصوره نائب الرئيس» قال باول. فمن شأن الحرب أن تتمخض عن سلسلة طويلة ومتنوعة من العواقب غير المتوقعة وغير المقصودة. بما فيها عواقب لم يكن بمقدور أحد منهم، بمن فيهم هو نفسه، أن يتصورها.

«ليست تلك هي القضية» كرر تشيني.

انفجر الحوار منقلباً إلى جدل بالغ القسوة والصخب بين الرجلين اللذين كانا يرقصان عند حافة اللباقة والأدب ولكنهما لم يغادرا هامش الاحترام الرسمي الذي كان كل منهما يبديه عموماً في تعامله مع الآخر. غير أن النقاش بقي حاداً، مريراً، ولاذعاً. وكان كل منهما أستاذاً في تسجيل النقاط الحوارية وهما يعريان الخيوط الأخيرة المهترئة لما كان قد شكل جسراً بينهما على امتداد سنوات طويلة جداً. بدا باول منطوياً على غيظ عميق الجذور رغم أنه كان ممسكاً بالدفة هذه المرة. كان قد ظل على الدوام أدنى بدرجة من تشيني على سلم الرتب. على امتداد ثلاثة عقود كان باول قد عمل بجد وتمكن من شق طريقه حتى أصبح العسكري الأول، رئيس

هيئة رؤساء الأركان. ولكنه بقي ملزماً بتقديم التقارير إلى تشيني، الذي كان اختياراً غير محتمل وزير دفاع لدى بوش الأب حين أصر أعضاء مجلس الشيوخ على رفض تعيين زميلهم السيناتور جون تارو John Tauer وبعد أن أصبح وزيراً للخارجية. شاغلاً منصباً وزارياً رفيعاً، وجد پاول نفسه، مرة أخرى، في مرتبة دون مرتبة تشيني على السلم لا لشيء إلا لأن الأقدار شاءت على نحو غير متوقع أن يتم اختيار الأخير نائباً لرئيس الجمهورية. في اجتماعات مجلس الأمن القومي كان تشيني يجلس إلى يمين بوش، وپاول إلى يساره.

ما أكثر ما كان تشيني يغيظ پاول ويربكه! فقبل سنوات، حين كان عاكفاً على تأليف كتاب مذكراته الأكثر رواجاً، ظل پاول يحاول تحديد المدى الدقيق لبعد الرجل وكان قد كتب وأعاد كتابة الفقرة التي تتحدث عن تشيني عدداً من المرات، باعثاً بالصياغات المتعاقبة إلى آرميتاج الذي كان يرد قائلاً: «ليس تماماً بعد.» أخيراً قام پاول بإبلاغ آرميتاج أنه كان قد اكتشف طريقة تمكنه من أن يكون «صادقاً نسبياً ولكن دون أذى.» ففي الصياغة الخيرة والنهائية لكتاب رحلتي الأمريكية الصادر في ١٩٩٥، كتب پاول عن تشيني يقول: «على امتداد أربع سنوات كاملة لم نمض هو وأنا، معاً ولو ساعة اجتماعية خالصة واحدة» وتحدث پاول عن يوم تشيني الأخير وزيراً للدفاع. حين كان قد ذهب إلى جناح مكاتب تشيني في البنتاغون وسأل: «أين هو الوزير؟» قيل له إن تشيني كان قد رحل قبل ساعات، قائلاً: «أحبطني ذلك. بل أهانني. غير أنني لم أفاجأ. فراعي البقر المولع بالعزلة سرعان ما تلاشى ذائباً في سحر الغروب دون أن يتفوه ولو بعبارة خاطرك!»

صباح السبت في ٧ أيلول/سبتمبر اجتمع بوش مع مجلس الأمن القومي وما لبث الجدل أن استؤنف. قال پاول إن عليهم أن يطرحوا خطة تقضي بإعادة المفتشين كجزء من أي إعادة. تشارك مع الأمم المتحدة فيما يخص العراق ولو من

أجل الحفاظ على مصداقية الولايات المتحدة فقط. والطريقة الوحيدة للقيام بذلك - على الصعيد الإجرائي - كانت تمر بالتماس قرارات جديدة.

بعد ذلك أورد تشيني قائمة جميع الأسباب التي قد تمكن عمليات التفتيش من تمريغهم في مستنقع من الوحل، بل في بركة من الزفت. أولاً، لن يكون المفتشون أمريكيين، بل محامين وخبراء من أرجاء العالم أقل توجساً من صدّام وأقل شكاً وارتياباً بسلوكه. ثانياً، سيبقى هؤلاء المفتشون - مثل من سبقوهم - أكثر نزوعاً لقبول ما تقوله لهم السلطات العراقية. أقل استعداداً للتحدي، أكثر هشاشة أمام أساليب الخداع والتضليل أو الاستهبال. فتكون المحصّلة النهائية - برأي تشيني - سلسلة طويلة من الدراسات أو التأملات أو التقارير المفتوحة دون نتائج حاسمة. وبالتالي فإن من شأن عمليات التفتيش أن تجعل التوصل إلى قرار يقضي فعلاً بإزاحة صدام أمراً أكثر صعوبة بما لا يقاس.

«شكراً جزيلاً» قال الرئيس. ووعد بأن يفكر بما قيل.



ذلك الصباح غادر توني بلير لندن على متن إحدى طائرات الخطوط العابرة للأطلسي لزيارة بوش في كامب ديفيد. كان الرئيس قد دعاه إلى حديث حول العراق وغداء خلال ثلاث ساعات. كان بلير سيبقى على الأرض فترة من الوقت لا يزيد مجموع ساعاتها على الست.. فترة قصيرة على نحو غير مألوف.

كان أسلوب رئيس الوزراء البريطاني قائماً على إجراء حوارات متواصلة مع نفسه وحلقته الضيقة من المستشارين، مختبراً، باحثاً، متقصياً، «وازناً الأمور،» كما قال أحد مستشاريه المقربين. وحول العراق كان بلير قد قام بعدد من الجولات. مرة بعد مرة أخرى كان يقول لمستشاريه: «اسمعوا، لو لم يكن بوش قد تدرب على

التعامل مع هذه القضايا بعد ٩/١١، لبقيت شاعراً بالقلق إزاءها، وقد بحثتها معه قبل ٩/١١ وهذه القضايا كانت قضية الإرهاب من جهة، وقضية أسلحة الدمار الشامل من جهة ثانية، وقضية العراق من جهة ثالثة. لسنوات ظل بلير دائباً على التحذير من التهديد المتمثل بصدام.

حين ألقى بوش خطاب (محور الشر) في وقت مبكر من السنة، شعر بلير بالارتياح إذ رأى الرئيس الأمريكي ساعياً لأن يكون جاداً في التعامل مع مشكلة الدول المارقة. ومع ذلك فإن احتمال قيام بلير باستخدام عنوان محور الشر لم يكن وارداً قط، قال هذا المستشار المقرب. فبين البلدان الثلاثة كان شديد القلق بشأن كوريا الشمالية. كما كان واثقاً من أن إيران كانت عاكفة على تطوير ترسانة أسلحة دمار شامل خطرة. أما العراق فكان في أسفل قائمة المحور بنظر رئيس الوزراء. كما زعم المستشار. موحياً بأن بلير لم يكن في هذه المرحلة كثير التشدد ضد صدام مثل بوش.

أضاف ذلك المستشار يقول: «إن العراق مسألة أمريكية. ليس مسألة بريطانية. ومن المتعذر أن يكون مسألة بالنسبة إلى أي طرف آخر، لأن أحداً آخر لا يتوفر على القدرة المطلوبة.» من نافل القول إن بريطانيا لم تكن تضع جدول الأعمال العسكرية. لم يكن احتمال أن تُقْدم بريطانيا على العملية وحدها وارداً على الإطلاق. «لم نكن قادرين على غزو العراق.»

إلا أن بوش كان دائباً على الضغط بقوة مفرطة. تمثل السؤال المباشر، برأي بلير، بما يلي: «هل كانت الأمم المتحدة ستستخدم؟» كان شاعراً بحدة أن السؤال المباشر في بريطانيا كان هو التالي: «هل يؤمن بلير بالأمم المتحدة؟» كان من الحاسم بالنسبة إلى رئيس الوزراء، على الصعيد الداخلي، أن يظهر لحزبه، حزب العمال بالذات، وهو حزب محب للسلام في العمق، معارض للحرب من حيث المبدأ، أنه كان

قد سار في طريق الأمم المتحدة. فالرأي العام في بريطانيا العظمى بقي مفضلاً أسلوب السعي إلى تمكين المؤسسات الدولية من العمل قبل اللجوء إلى القوة. كان من شأن الذهاب عبر الأمم المتحدة أن يشكل نقطة إيجابية كبيرة ومطلوبة بإلحاح.



رد بلير وبوش على أسئلة المراسلين. أكدا التزامهما بوضع حد لتهديد صدام مرة وإلى الأبد. أما كيف ومتى فبقيا معلقين. أكد بوش دون لبس إن «صدام حسين يمتلك أسلحة دمار شامل.»

جلس الزعيمان مع تشيني وجرى حديث خاص. لم يكن ثمة أي تخطيط حربي محدد. كانت الاستراتيجية السياسية هي القضية.

أقر بلير باضطراره لأن يكون قادراً على إظهار أنه كان قد حاول طرق باب الأمم المتحدة. ومما قاله بوش متذكراً: «إن هناك سعياً وراء استصدار قرار.» قال لبلير إنه كان قد قرر الذهاب إلى الأمم المتحدة، وكان سيسعى إلى استصدار قرار، على ما بدا.

أحس بلير بالراحة والاطمئنان.

نظر بوش إلى بلير محدقاً وقال: «إن صدام حسين تهديد. ويجب علينا أن نتعاون للتعامل مع هذا التهديد ومعالجته، وسيكون العالم أفضل حالاً بدونه.» تذكر بوش أنه كان «يسبر غور» رئيس الوزراء و«يحضه.» قائلاً إن الأمر قد ينطوي على الحرب، قد يتطلب حرباً. قد يغدو بلير ملزماً بإرسال قوات بريطانية.

رد رئيس الوزراء: «أنا معك» ناظراً نظرة جوابية إلى حدقة عينه، ملتزماً صراحة بإرسال قوة عسكرية بريطانية إذا دعت الضرورة، مقدماً الوعد الحاسم الذي كان بوش ينتظره بشغف.

قال الرئيس الأمريكي لرئيس الوزراء البريطاني: «نريدكم أن تكونوا طرفاً في هذه العملية.»

كان تصميم بلير قد ترك أثراً حقيقاً. كما تذكر بوش.

بعد الاجتماع مشى بوش إلى داخل قاعة المؤتمرات حيث كان الاستير كامبيل Alastair Campbell، مدير اتصالات رئيس الوزراء، وطائفة من مساعدي بلير الآخرين ينتظرون.

«أنت يا رجل عندك كوجونس» قال الرئيس مستخدما الكلمة العامية الاسبانية الدالة على الخصيتين.

ويقول الرئيس متذكراً: «وبالطبع فإن هؤلاء البريطانيين لا يعرفون معنى الكوجونس (الخصيتين بالاسبانية العامية).» وقال إنه كان سيطلق على دورة كامب ديفيد مع بلير عنوان «اجتماع الكوجونس.»

على الصعيد العملي، كان بوش، حين وافق على الذهاب إلى الأمم المتحدة التماساً لقرار جديد، مستجيباً لإلحاح كل من بلير وباول، قد حسّن موقفه مباشرة. كان ذلك يعني أنه لن يبقى معرضاً لخطر الذهاب إلى الحرب وحده، مهما حدث، طوال بقاء بلير ملتزماً بوعده.



صباح اليوم لتالي، يوم الأحد ٨ أيلول/سبتمبر نشرت النيويورك تايمز مادة على صفحتها الأولى تحت عنوان «الولايات المتحدة تقول إن حسين يكثف من جهوده الرامية إلى امتلاك قنبلة ذرية.» كانت المادة تتحدث عن أن العراق كان حاول - حسب مزاعم الزاعمين - شراء آلاف من أنابيب الألمنيوم المتين المصممة خصيصاً القابلة للاستخدام في مماخض معدة لإخصاب اليورانيوم لصنع القنابل. كانت تلك

تهمة صادرة عن الإدارة مرشحة لأن تصبح أكثر إثارة للجدل على نحو لافت. وفي ذلك اليوم قامت الإدارة بتغطية شاشة التلفزيون خلال البرامج الصباحية التي انشغلت بكل من تشيني، پاول، رمسفلد، ورايس. قام كل منهم بتسليط الأضواء على الخطر المتمثل بصدام، مع حصول تشيني على قصب السبق إذ بقي ملتزماً بالخط الأكثر تشدداً.

بعد جميع السنوات التي قضتها وهي تقرأ أو تنربل قصص الاستخبارات وأجهزتها، كانت رايس قد توصلت إلى الاستنتاج الذي توصل إليه رمسفلد نفسه: عموماً درجت الاستخبارات على الاستخفاف بالتهديدات، نادراً ما بالغت بتقدير حجمها. فقد قالت على شاشة السي. إن. إن CNN: : «لا نريد للبندقية المدخنة لأن تصبح ضباب فطر.»



تحدث روف مع بوش عن الذهاب إلى الأمم المتحدة. صحيح أن القاعدة اليمينية للحزب الجمهوري كانت تنفر من الذهاب إلى الأمم المتحدة، ولكن روف وافق على أن المحاولة كانت ضرورية. لم يكن ممكناً أن يبدو كما لو كان انجراراً متردداً إلى الحرب. تمثلت المشكلة السياسية الحقيقية بتأثير كلام الحرب القوي والمؤلم في الاقتصاد. كانوا قد استضافوا أفواجاً من رجال الأعمال في غرفة روزفلت، غرفة المؤتمرات الرئاسية الكبيرة القريبة من المكتب البيضوي، والرسالة التي كان هؤلاء الضيوف يسمعونها بدت بسيطة: الأعمال ليست على ما يرام لأن الناس كانوا مرعوبين حتى الموت من جملة أشكال اللايقين المحيطة بالحرب. وفي جولته عبر البلاد اكتشف روف أن القلق كان ملموساً.



17

غاص كاتب الخطب مايك غيرسون في أعماق الرئيس متحرياً ما كان يريد قوله تحديداً وبدقة للأمم المتحدة. لم يكن بوش يشاطر تشيني نظرته الكلبية المتشائمة القائلة بأن من شأن عمليات التفتيش أن تبقى دون جدوى. إلا أنه لم يقترب في الوقت نفسه، من مشاطرة پاول اطمئنانه إلى الأمم المتحدة. أكد بوش أنه يريد نتيجة ـ رحيل صدام وإزالة أسلحة الدمار الشامل. كان ذلك هو الهدف؟ كان ذلك هو الالتزام. لم تكن عملية الأمم المتحدة موضوع الالتزام. ظل الهائمون بحب الأمم المتحدة يتوهمون بأن الأمور تكون رائعة إذا بقيت عملية الأمم المتحدة مستمرة. لا. قال الرئيس، كان لا بد من حصوله على النتيجة التي كان يريدها.

قامت رايس بإطلاع الرئيس على الأسلوب الذي اتبعته جنوب إفريقيا في إزالة أسلحة الدمار الشامل الموجودة بحوزتها وإخضاع نفسها لعملية تفتيش صارمة، مرحّبة بنوع شامل من البحث في مرافقها، دافنة المواد في المرائب، مشرِّعة أبواب المخابر، ومنجزة أكواماً من السجلات التفصيلية. ثمة، إذن، كان نموذج لنزع السلاح قابل للتطبيق.

رائع، قال بوش. كان الأمر ممكناً. لم يصدق ما سمعه، ولم يكن مستعداً للتخلي عن هدفه المتمثل بتغيير النظام، غير أنه كان سيحاول.

في أثناء إعداد مسودة الخطاب، واصل تشيني ورمسفلد انتقاداتهما لفكرة التماس قرار جديد المركزية. وعازفين على أوتار نفور بوش من أي حل إجرائي متدرج، أصرا على وجهة نظرهما القائلة بأن من شأن مجرد تقديم الطلب أن يؤدي

إلى إغراقهما في متاهة من عمليات تشكيل اللجان، إجراء المناقشات، معالجة الترددات، حك الرؤوس، - من العمليات الإجرائية المتدرجة بعبارة أخرى - في الأمم المتحدة. كان من شأن هذا أن يتيح لصدام فرصة التفاوض مع الأمم المتحدة. ولو حصل ذلك، لانتهوا. كان صدام سيقول كل ما هو ضروري لجعل العملية تبدو كما لو كانت جارية على قدم وساق؛ وحين يصل الأمر إلى بلوغ عمليات التفتيش نقطة الانعطاف الحاسمة، كان سيبادر إلى صفع الجميع وممارسة القسوة معهم.

رداً على سؤال طُرح عليه عن موقفه من الأمم المتحدة بعدما يزيد على سنة، قال رمسفلد «نحن لا نصوّت» في مجلس الأمن القومي وأضاف رؤيا ثاقبة لنظرته إلى الحوارات الداخلية في الإدارة قائلاً: «ما يحدث هو أن نقاشاً يجري، دراسة تتم للإيجابيات والسلبيات، ونحن نشارك في كل من النقاش والدراسة. وبعد ذلك يبدأ الرئيس بالانحياز إلى طرف. (عندئذ) يقول الناس: حسناً، ذلك هو الاتجاه، أنت بحاجة إلى فهم حقيقة أن الاتجاه البديل ينطوي على هذه الجملة من الحسنات والسيئات وأن الاتجاه الذي تميل إليه يتميز بهذه الحسنة والسيئة، فتبدأ بتوقع المشكلات التي يمكنها أن تتراكم .»

جراء الإلحاح عليه طلباً لنظرته الشخصية، رد رمسفلد قائلاً: «ليست ذاكراتي في مثل هذه الأشياء جيدة وأنا لا أتذكر ما إذا كنت قد سجلت ملاحظات حول الأمر أم اكتفيت بمجرد الخربشة في الاجتماعات خصوصاً. من الواضح أن الذهاب كان ينطوي على حسنات، كما كانت ثمة سيئات أو سلبيات محتملة في الذهاب. انطباعي شخصياً هو أن الذهاب، استعادياً، كان هو التصرف السليم وأن الإيجابيات قد تحققت بأكثريتها وأن السلبيات قد تم تجنب القسم الأكبر منها .»

نظراً لأن بوش كان سيقول للأمم المتحدة: «إما أن تبادري إلى حل مشكلة صدام أو أن الولايات المتحدة ستفعل، فقد طَرَحْتُ السؤال التالي على رمسفلد: لم تكن

العملية سوى نوع من عبور العتبة في الحقيقة؛ أليس كذلك؟»

وافق رمسفلد قائلاً: «نعم كانت، نعم كانت بالتأكيد» غير أنه أضاف «لم تكن تلك العتبة الحقيقة. فالعتبة الحقيقية بنظري كانت عندما بدأ الآخرون - بدأت بلدان أخرى - يعرضون أنفسهم للخطر نيابة عنك.»



تذكر الرئيس فيما بعد أن خياراً لخطاب الأمم المتحدة فكرت رايس أن عليهم أن يعاينوه تمثل بإصدار إنذار: إما أن يتجرد صدام من سلاحه في غضون ٣٠ يوماً أو تبادر الولايات المتحدة إلى الاضطلاع بقيادة الهجوم. كان من شأن ذلك أن يشكل إعلاناً افتراضياً للحرب. إلا أن بوش كان ميالاً بقوة إلى المطالبة بقرار دولي. ومع ذلك فإن اجتماعات إعداد مسودة خطاب الأمم المتحدة تواصلت أياماً. عند أحد المنعطفات خرج طلب لقرارات جديدة من رحم المسودة الأخيرة. تضمن الخطاب هجوماً على الأمم المتحدة لإخفاقها في فرض قرارات الأسلحة السابقة ولا سيما على امتداد السنوات الأربع منذ قيام صدام بطرد المفتشين.

عبر باول عن رأيه قائلاً: «لا تستطيع أن تقول هذا كله دون مطالبتهم بفعل شيء ليس هناك أي فعل في هذا الخطاب .» كان يعلم أن من شأن التماس الفعل أن يحدث صدى قوياً لدى بوش. «يقول الخطاب، هاكم ما قد فعله، هاكم ما يتعين عليه فعله ليصلح نفسه، وكفى؟ » سأل باول مندهشاً. ثم أضاف: «لا بد لكم من أن تطلبوا شيئاً .»

تصارع كبار المسؤولين إذن، حول ما ينبغي طلبه. كيف ينبغي لـ «المهمة» أن تبدو؟ أخيراً توصلوا إلى إجماع على مطالبة الأمم المتحدة بالتحرك.

باول الذي كان قد بات مرتبكاً ومرهفاً وافق على ذلك. كان يعلم أن الطريقة

الوحيدة لتحرك الأمم الوحيدة تمثلت بالعمل من خلال ذراعها الحركية، مجلس الأمن، وأن الوسيلة الوحيدة تمثلت بالقرارات. كان من شأن الدعوة الصريحة إلى إصدار قرار أن تحسم الأمر، ولكن الدعوة إلى «التحرك» كانت بنظر پاول، أفضل بكثير من إنذار لمدة ٣٠ يوماً أو الحرب.

في ١٠ ايلول/سپتمبر، قبل الخطاب بيومين، حطّت المسودة رقم ٢١ على مكتب پاول مغطاة تماماً بختمي عيون فقط وعاجل. لم يكن ثمة أي دعوة للأمم المتحدة بالتحرك. اجتمعت لجنة كبار المسؤولين. كرر تشيني معارضته لأي قرار. أعلن نائب الرئيس أن المسألة إن هي إلا مسألة تكتيكات ومصداقية رئاسية. ماذا لو أن الرئيس طلب من مجلس الأمن قراراً جديداً، ورفض المجلس تلبية طلبه؟ أين كان سيكون مصيرهم عندئذ؟ إذا ما أقدم صدام على استخدام أسلحة الدمار الشامل الموجودة بحوزته، ولا سيما على نطاق واسع، فإن العالم لم يكن، برأيه، سيغفر لهم قعودهم عن التحرك والاستسلام لدافع الإنشغال بنوع من الجدل اللفظي (البيزنطي) حول قرارات دولية.

دعا رمسفلد إلى الثبات على المبدأ، ولكنه طرح سلسلة من الأسئلة البلاغية، ولم يكن عنيفاً في انتقاد اللغة.

كادت كأس پاول تطفح مع أسلوب رمسفلد المألوف في الكلام، ذلك الأسلوب الذي كان پاول يصفه في جلساته الخاصة بالأسلوب القائم على «صيغة ضمير الغائب والفعل المبني للمجهول.» كان رمسفلد يقول أشياء من قبيل: «قد يرى المرء» أو «يمكن لأي شخص أن يتصور» أو «للمرء أن يتوقع» أو «من شأن البعض أن يقولوا» مرة بعد ثانية وثالثة إلى ما لا نهاية. ولم يسبق لأحد، بمن في ذلك پاول، أن نبهه. فقط لم يكونوا قادرين على إجراء ذلك النوع من الحوارات المفضية إلى أجوبة مباشرة عما كان رمسفلد يريده فعلاً. كان تقدير رمسفلد لوزارة الخارجية متدنياً

ودائباً على الانحدار أكثر. أما بنظر پاول فإن رمسفلد بدا كما لو كان مرتدياً قفازتين مطاطيتين حرصاً منه على عدم ترك أي بصمات على التوصيات السياسية.

وهكذا فإن پاول وتشيني اشتبكا مرة أخرى في جدل ملتهب.

مشيراً إلى دعوة الأمم المتحدة إلى التحرك، قال پاول لآرميتاج: «لا أعلم ما إذا كنا قد حصلنا عليها أم لا.»

مساء اليوم الذي سبق يوم الخطاب، أبلغ بوش كلاً من پاول ورايس بأنه كان سيلتمس قرارات جديدة. كان مولعاً بخروج العناوين السياسية منه هو مباشرة، فوجه إلى وضع عبارة تتضمن معنى مطالبة الأمم المتحدة بالـ «قرارات» الضرورية في مكان قريب من قمة الصفحة الثامنة من المسودة الأخيرة ذات الرقم ٢٤.

قال الرئيس فيما بعد متذكراً: «وقع اختياري على خيار القرار. وقد كان لبلير دور كبير في ذلك.» أضاف معترفاً. وبعد ذلك أقر بأنه بادر، قبل خطابه في الأمم المتحدة إلى مفاتحة رئيس الوزراء الاسترالي جون هوارد، الذي قال: «أنا معك. نحن بحاجة إلى قرار.» تذكر بوش أن التوصية ذاتها جاءته من رئيس الوزراء الإسباني، خوسيه ماريا آزنار.



على المنصة في قائمة الجمعية العمومية يوم ١٢ أيلول/سبتمبر، وصل بوش في خطابه إلى النقطة التي كان سيطلب عندها قرارات جديدة. غير أن التعديل لم يكن قد أُدخل على النسخة المبثوثة عن بُعد، فاضطر إلى قراءة الجملة القديمة التي كانت تقول: «إن أمتي ستتعاون مع مجلس الأمن الدولي في التصدي لتحدينا المشترك.»

كاد قلب پاول أن يتوقف وهو يقرأ المسودة رقم ٢٤، مشيراً بالقلم الرصاص إلى

ما قد يحدثه الرئيس من إضافة أو شطب في الدقيقة الأخيرة. كانت جملة القرارات قد تلاشت بطريقة ما . لم يكن الرئيس قد نطق بها ـ كانت هي الجملة الحاسمة!

إلا أن بوش ما لبث، وهو يقرأ الجملة القديمة، أن أدرك أن ثمرة جدل مجلسه الحربي المحموم كانت مفقودة. وبما لم يكن أكثر من حرج لطيف، أضاف بوش، بعد جملتين اثنتين، العبارة التالية: «سنتعاون مع مجلس الأمن الدولي لاستصدار القرارات الضرورية.»

عاد قلب باول إلى الخفقان.

قال الرئيس بعد خمسة عشر شهراً متذكراً: «كان خطاباً عظيماً. أنا خارج من الذكرى السنوية لـ ٩/١١» قبل يوم واحد. «كنا في حالة دفاع. إلا أن هذا الخطاب ما لبث أن بدأ يبين للشعب الأمريكي، أولاً وقبل كل شيء، ما كانوا يقرؤون عنه» فيما يخص التخطيط العسكري واستراتيجيات أخرى للتعامل مع العراق. من قبل لم يكن هو والإدارة قد بلغا «وضوحاً» حول ما كانا متوجهين إليه، كما قال. ثم أضاف: «والشيء الآخر عن هذه الإدارة هو أننا كنا قادرين على تحديد جدول للأعمال، أجندا. قد لا يحظى ذلك الآن بإعجاب الناس، غير أننا كنا ناجحين في تحديد جدول الأعمال لتمكين الناس من فهم الموقف.أدى هذا الخطاب تلك المهمة. وقد كان له وقع كبير في أمريكا.

«حين مشيتُ إلى المنصة ووقفت أمام تلك الجماعة، ليس ثمة أي تعابير بالمناسبة.» واصل بوش كلامه. كان المندوبون جالسين خرساً، في صمت يكاد أن يصل إلى مستوى الوقاحة. «كان هدوءاً كاملاً كصمت القبور. أستطيع أن أتذكر أنني ازددت حماسة في الدفاع عن القضية كلما زادوا من جدية نظراتهم إلي. لم

أكن عاطفياً على نحو مكشوف، بل ازددت صرامة في طرح القضية. لقد كان خطاباً استمتعت حقاً بإلقائه .»

أما السبب الذي مكنه من إنذار الأمم المتحدة بعبارة، إذا لم تبادري أنت فسوف نبادر نحن إلى التحدي، فقد تمثل، كما قال، بالعمل والتخطيط للحرب اللذين كان كل من فرانكس ورمسفلد قد أنجزاه. «لو لم نكن قد فعلنا ذلك، لو لم نكن قد خططنا، لو لم يكن ذلك الخيار متوفراً، لما استطعت أن ألقي ذلك الخطاب.» كان يؤمن بأن التهديد العسكري كان شرطاً ضرورياً من شروط جعل الدبلوماسية ممكنة.

على العموم شكل الخطاب اختراقاً. لاحظ الرئيس: «كان له وقع كبير حول العالم أيضاً .» نال إعجاب المعتدلين لأن الرئيس كان يحاول كسب التأييد الدولي ودعم الأمم المتحدة. وأحبه المتشددون لأنه بدا متشدداً وقوياً.

بقي پاول في نيويورك لحشد التأييد للسياسة، خصوصاً من روسيا وفرنسا القادرتين بوصفهما من أعضاء مجلس الأمن الدائمين على نقض القرار بالفيتو.

لاحقاً قال بوش: «وسأقول لك إن أوقاتاً مرت كنت فيها شاعراً بأننا لن نحصل على أي قرار.» قدم وعداً التزم فيه بأن تبادر الولايات المتحدة إلى العمل، إذا لم تفعل الأمم المتحدة. «إذن أنا جالس هناك وأقول لنفسي: "هل أنت مستعد للإقدام؟" كما تعلم»



عموماً درج روف على لقاء بوش في الصباح بعد إيجازه الاستخباراتي، اجتماع مجلس الأمن القومي، أو اتصالاته مع قادة أجانب. وكان اللقاء يحضره عادة كل من كارد، بارتلت، السكرتير الصحفي، وبعض الآخرين. بين الحين والآخر كان يحظى

ببضع دقائق وحده مع الرئيس، الذي كان من شأنه أن يبوح بشيء ما موجزاً. حرص روف على تذكير الرئيس بأن الكلام الصاخب والكثيف الدائر حول الحرب كان يؤدي إلى إغراق أشياء أخرى، ودون أن يكون ذلك في خدمة مصلحتهم السياسية بالضرورة.

أبلغ الرئيس بأن القضية الأولى الرابحة كانت، مع اقتراب موعد الانتخابات النصفية متمثلة بقانون أمن الوطن الذي كان من شأنه أن يؤدي إلى استحداث وزارة جديدة بوصفها عملية إعادة التنظيم الكبرى للحكومة الاتحادية منذ استحداث وزارة الدفاع. لم يكن الديمقراطيون حريصين على تأخير صدور القانون إلا لأنهم كانوا راغبين في ضمان تمتع العاملين في الحكومة بحق التنظيم النقابي. كان الرئيس يطالب بسلطة اعتماد استثناءات معينة جراء هواجس تتعلق بالأمن القومي، سلطة زعم أن كل رئيس، منذ جون كندي، كان حاصلاً عليها. رفع صوته وشن حملة قوية قائلاً إنه كان يريد أن يدافع عن الوطن وكان الديمقراطيون يريدون أن يدافعوا عن شيوخ النقابات وزعمائها. كان روف مقتنعاً بأن قضية أمن الوطن وتلكؤ مجلس الشيوخ في التصويت على، أو تثبيت تعيينات بوش القضائية الاتحادية من شأنهما أن يفيدا الجمهوريين في الانتخابات.



عدداً من المرات في الأسبوع كان نيك كاليو قد عقد للنواب أو الشيوخ جلسات إيجاز استخباراتية أو حلقات فرق عمل طارئة صغيرة، إما على تلة الكابيتول - الكونغرس أو في البيت الأبيض، بل وحتى في غرفة العمليات الدافئة. كانت منابر الترويج أمام جماعات صغيرة أكثر جدوى وأنجع من جلسات الترويج الواسعة. كانت إحدى الساعات الجدارية الحمراء الثلاث الدالة على الوقت في أماكن العالم المختلفة معيرة على التوقيت «العراقي» تحسباً لاحتمال أن يكون أحد الحضور بحاجة إلى تقديم أدلة.

إحدى أولى جلسات الإيجاز تولى أمرها نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية جون ماكلوخلين، الرجل الثاني بعد تنت. وبعد ذلك ألح كاليو على تنت طالباً منه أن يتولى بنفسه إدارة جلسات الإيجاز. قال كاليو: «يكاد جون أن يُرْعب الناس بتوازنه المفرط .» كانوا بحاجة إلى الترويج لبضاعتهم، وكان ماكلوخلين، أكثر برودأ مما ينبغي. كانوا بحاجة إلى كرة نارية، مما أدى على حضور تنت للمزيد والمزيد من جلسات الإيجاز.

في الوقت نفسه كان قانون أمن الوطن يتعرض للعرقلة في مجلس الشيوخ بفعل أحد المتمردين. قام كاليو بإبلاغ الرئيس عن أنهم باتوا موشكين على «شل حركة» المتمرد.

«ما هذا الشيء اللعين الذي تتحدث عنه يا نيكي حين تقول (شل حركة) ؟ «سأل بوش. تساءل تشيني أيضاً وبصوت مرتفع عن معنى "شل حركة."

في اليوم التالي جاء كاليو مصطحباً منشوراً من صفحتين عليهما تعريفات مأخوذة من قاموس وبسترز وامريكان هريتيج تؤكد أن العبارة كانت تعني التعطيل أو إلغاء الفعالية. فيما بعد تولى البيت الأبيض القيام بذلك مئة بالمئة، مؤمناً الأصوات الستين المطلوبة لوضع حد للجدل وصولاً إلى تمرير القانون.

في ١٩ أيلول/سبتمبر التقى الرئيس ١١ عضواً من مجلس النواب في غرفة مجلس الوزراء.

بدأ بوش الكلام قائلاً: «الحرب على الإرهاب سائرة على ما يرام، أوكي، نقوم باصطياد أفراد القاعدة وإيقاعهم في الفخ فرداً فرداً. أما التهديد الأكبر فيبقى متمثلاً بصدام حسين وأسلحة الدمار الشامل الموجودة بحوزته. يستطيع صدام أن يفجر إسرائيل ومن شأن ذلك إن يقدح زناد صراع دولي.»

غائصاً في ثنايا عناصر خطة الحرب قال بوش للجماعة: «سوف نضع أيدينا على

حقول النفط في وقت مبكر. وسنخفف من شدة الصدمة النفطية.» ثم أضاف مقاطعاً نفسه ليقحم في سياق الكلام تحذيراً صارماً: «لا حاجة لأن يبوح أحد لأحد بهذا.»

كذلك قام بوش بالكشف عن بشرى إما من إيجاز الرئيس اليومي الحساس أو إيجاز تنت الشفهي اليومي قائلاً: «هذا الصباح اكتشفت في تقريري الاستخباراتي الوجيز أن لدى وكالة الاستخبارات المركزية استطلاعاً للرأي يشير بأن ٧١ بالمئة من السكان في فرنسا يعتبرون صداماً تهديداً حقيقياً لسلام العالم.»

لم يسأل أحد عن سبب قيام وكالة الاستخبارات المركزية بإطلاع رئيس لجمهورية على نتائج استطلاعات الرأي الفرنسية. ومع أن رد الفعل السياسي في فرنسا على أي قرار دولي حول التفتيش عن أسلحة عراقية كان موضوع اهتمام نظراً لأن الرئيس كان يسعى إلى كسب التأييد الدولي، فإن الأمر ربما لم يكن يتطلب نشاطاً استخباراتياً سرياً. ثمة استطلاع رأي حديث أجرته إحدى الصحف الفرنسية قد بين أن ٦٥ بالمئة كانوا معارضين لأي حرب في العراق ولو بتأييد الأمم المتحدة.

بادر جمهوري من نورث كارولاينا يدعى ريتشارد بر Richard Burr إلى القول بأن على الرئيس أن يواظب في خطبه على تأكيد حقيقة قيام صدام باستخدام الغازات السامة ضد شعبه بالذات.

«نعم أنا أعرف ذلك جيداً» قال بوش، ثم أضاف «لقد حاول أن يقتل البابا» في إشارة إلى معلومات استخباراتية عائدة إلى المراحل الأولى من إدارة كلنتون تحدثت عن أن عملاء عراقيين كانوا قد خططوا لاغتيال بوش الأب في جولة له قام بها على الشرق الأوسط في ١٩٩٣. ورداً على المؤامرة كان كلنتون قد أمر بشن هجوم بصواريخ كروز على بغداد.

تابع بوش كلامه قائلاً: «إن أجهزة جمع المعلومات عندنا قوية. لابد لنا من

الاهتداء إلى قناة حوار مع حرس صدام حسين. الاضطرابات في العراق ستساهم في عملية إعادة البناء. من شأن عمليات التفتيش المتشددة أن تؤدي إلى استثارة الشعب العراقي .»

غادر بوش الاجتماع تاركاً أمر لَمِّ الخيوط لكاليو. ظل يؤكد: «سنعمل من منطلق إشراك الحزبين، غير أننا نريد حداً أقصى من المرونة، ونتطلع إليكم جميعاً راجين مساعدتكم. تذكروا أيضاً أن من الضروري أن ترفعوا أصواتكم وتعترضوا حين يبادر آخرون إلى قول أشياء محبطة.»

بعد بضع ساعات أطلق الرئيس اللغة المقترحة لقرار بمنحه سلطة «استخدام جميع الوسائل التي يراها مناسبة، بما فيها القوة» للتعامل مع التهديد الذي يمثله العراق. مادة صفحة أولى في جريدة الواشنطن بوست قالت في اليوم التالي إن «هزيمة» الرئيس بوش «لديمقراطيي الكونغرس باتت شبه كاملة» مع استصدار القرار.

في ذلك اليوم، يوم ٢٠ أيلول/سبتمبر، أدلى الوزير پاول بشهادته أمام لجنة العلاقات الدولية بمجلس النواب دعماً للقرار. قال پاول: «معروف أنا بوصفي معارضاً للحرب، وهو أمر لا يزعجني. غير أن على التهديد بالحرب أن يكون موجوداً.» كانت تلك حجة لم يتأخر عدد كبير من الديمقراطيين الذين ربما كانوا ميالين إلى التصويت ضد أي قرار برلماني عن تبنيها. فردع الاتحاد السوفيتي واحتواؤه خلال الحرب الباردة كانا قد أقيما على أساس التهديد بانتقام تقليدي ونووي هائلين. كانت تلك سياسة قد نجحت وشكلت النموذج الرائع لتجنب الحرب. لم يكن بوش طالباً السماح بشن حرب على العراق بالضرورة. فقط كان يطلب دعماً من الكونغرس وهو يهدد بالحرب. لم تكن تلك سوى صيغة رايسية «نسبة إلى رايس» من صيغ دبلوماسية الإكراه أو القسر.

◆ ◆ ◆

يوم السبت، ٢١ أيلول/سبتمبر، تحدثت النيويورك تايمز في مقالتها الرئيسية عن تلقي الرئيس مؤخراً حزمة بالغة التفصيل لخطط حربية تخص العراق من الجنرال فرانكس. وفي مؤتمر صحفي عقده في الكويت حيث كان للاجتماع مع قياداته الميدانية، اعترف فرانكس بـ «إننا مستعدون للإقدام على أي نشاطات والمبادرة إلى أي أفعال قد نؤمر بها من قبل أمتنا، دولتنا، ثم أضاف «إن رئيسنا لم يتخذ قراراً بشن الحرب .»

في مقابلة حول مقالة التايمز خالف الناطق الصحفي باسم البيت الأبيض آري فلايشر Ari Fleischer، على نحو لافت، ما جاء في تصريحات سابقة على امتداد فصلي الربيع والصيف مؤكدة لعدم امتلاك الرئيس خططاً حربية جاهزة، قائلاً:

«أنا لا أقول بعدم وجود خطة على مكتبه.»



قام بوش باستدعاء ١٨ عضواً آخر من مجلس النواب إلى غرفة مجلس الوزراء يوم الخميس الواقع في ٢٦ أيلول/سبتمبر. افتتح الجلسة مؤكداً أن آخر شيء كان يريده هو تعريض القوات المسلحة للخطر. «صدقوني، لست مغرماً بمعانقة الأرامل!»

مقتحماً ميدان إدانة مألوفة للزعيم العراقي قال بوش: «صدام حسين شخص مرعب، شخص دائب على التآمر مع القاعدة. إنه يعذب شعبه بالذات ويكره إسرائيل .»

كانت المادة الرئيسية في وسائل الإعلام القومية ذلك اليوم حرباً كلامية متفجرة بين بوش وزعيم الأكثرية في مجلس الشيوخ داشل، حيث كان كل منهما يتهم الآخر بتسييس موضوع العراق وقضايا الأمن القومي.

«إن واشنطن مدينة بشعة، نتنة .» قال بوش للمجتمعين. «أنا مدرك لهذه الحقيقة إدراكاً جيداً. غير أن علينا أن نؤدي واجبنا .»

ثم أضاف الرئيس: «إذا استخدمنا القوة، فإن المعركة ستكون شرسة وسريعة وعاجلة. أولاً، أعدكم بخطة محكمة، جيدة. دأبت على النظر إلى حدقات عيون جميع الجنرالات طالباً منهم إحاطتي علماً عما إذا كانوا يجدون أي خطأ في سياسة تغيير النظام أم لا. لا يجدون .»

قال الرئيس: «لا شيء يمكن أن يكون أسوأ من الوضع الحالي.» وزعم أن صداماً أمر بقتل اثنين من حراسه الأمنيين لإرسال رسالة إلى حلقته الداخلية. ثم أعلن ملقياً المسؤولية الأصعب على كاهل الاستخبارات قائلاً: «من الواضح أن لديه أسلحة دمار شامل. أنتراكس، في إكس. V.X ؛ مازال مفتقراً إلى البلوتونيوم ولم يخجل من السعي للعثور عليه. في غضون فترة زمنية لا تزيد على ستة أشهر، سيكون العراق مالكاً سلاحاً نووياً إذا استطاع الحصول على ما يكفي من البلوتونيوم أو اليورانيوم المخصب. إنها إحدى أصعب المهمات.

«الناس يعشقون الشجار، أي شجار، خصوصاً في واشنطن» قال بوش، ثم أضاف «فقصة يوم أمس في الواشنطن بوست قامت على خطأ في الاقتباس .» كانت مقالة الصفحة الأولى قد قالت: «لقد ألمح بوش أربع مرات في اليومين السابقين الأخيرين إلى أن الديمقراطيين لا يبالون بالأمن القومي .»

علق بوش: «أنا لا أستخدم كلمة ديمقراطيين على الإطلاق في أي خطاب ألقيه .»

سأله النائب الديمقراطي من تنيسي بوب كلمنت : Bob Clement «هل عدلتم عن اللجوء إلى الأمم المتحدة؟» مضيفاً على الهامش «الاقتصاد هو الآخر ينهار بلفت مؤشرات سوق الأسهم والسندات أدنى مستوى لها منذ ست سنوات .»

رد عليه بوش «منذ أربع سنوات أنت الصادق» مستثيراً ضحك الحضور.

«أنا لم أعدل عن اللجوء إلى الأمم المتحدة، غير أن من شأنها أحياناً أن تكون

مستقعاً دبلوماسياً. أنا أفهم الدبلوماسية» قال بوش وطمأنهم إلى أنه لن يدخل في شجار حول القرار الدولي.

قال نائب جمهوري للمرة الثامنة من ولاية كونتيكت يدعى كريس شيز Chris Shays : «جعلتني بعض التقارير الموجزة أقل ثقة من ذي قبل.»

نُقل الاجتماع إلى الحديقة الوردية حيث أدلى بوش، بحركة مدبرة سلفاً هادفة إلى تسليط الأضواء على التلاحم بين الحزبين، بتصريح موجز فيما كان الأعضاء واقفين وراءه.

قال بوش: «يبقى أمن الوطن واجب الحزبين السياسيين كليهما ومسؤولية فرعي الحكم المنتخَبَيْنْ» مبدداً ضباب الاشتباك مع داشل ولكن دونما تراجع.

مكرراً الاتهام الجديد الذي لا يحتمل اللبس حول برامج العراق الخاص بأسلحة الدمار الشامل، ذلك الاتهام الذي كان قد اعتمده قبل ثلاثة أسابيع، قال بوش: «يمتلك النظام العراقي أسلحة بيولوجية وكيميائية. وهو عاكف على بناء المرافق والمنشآت الضرورية لإنتاج المزيد.» وعازفاً على وتر آخر أضاف: «وتبعاً لما تقوله الحكومة البريطانية، يستطيع النظام العراقي أن يشن هجوماً بيولوجياً أو كيميائياً خلال ما لا يزيد على ٤٥ دقيقة بعد إصدار الأمر.»

كان تنت ووكالة الاستخبارات المركزية قد حذرا البريطانيين من توجيه مثل ذلك الاتهام الذي قام على مصدر مشبوه، وأشار على نحو شبه مؤكد إلى أسلحة ميدانية - لا أسلحة يمكن للعراق أن تضرب بلداناً مجاورة بل مدناً أمريكية. أشار تنت إلى هذا في جلسة خاصة بعبارة «علكه "قادر على الهجوم في ٤٥ دقيقة الخرائية".»

يوم الثلاثاء، يوم ١ تشرين الأول/أكتوبر، التقى بوش وتشيني ما يزيد على العشر

من أعضاء لجنة العلاقات الدولية النيابية في غرفة مجلس وزراء البيت الأبيض.

مدافعاً عن موقفه المؤيد للتحرك قال بوش: «لا نستطيع أن نترك التاريخ يحاكمنا ويقول أين كان جورج دبليو. بوش وديك تشيني.»

وقال تشيني: «لعل الأشياء المفتاحية هي أننا ظللنا على الدوام نستخف بهذا المخلوق. يملك الكثير من المال المتدفق من الاحتياطات النفطية.»

سأل نائب ديمقراطي من نيفادا يدعى شلي بيركلي Shelley Berkley عما يمكن عمله بشأن استهداف صدام لإسرائيل.

«تبقى صواريخ باتريوت المتطورة جداً أحد الاحتمالات. لدينا أسلحة متقدمة كثيراً تكنولوجياً» قال بوش «ما المسموح لي قوله؟»

«ليس كثيراً جداً» قال تشيني. «ثمة منصات إطلاق في العراق. نستطيع إرسال كواسر (طائرات بلا طيار من طراز الكاسر: بريداتور Predakor) لاستباق الضربات.»

ومن ثم انقض على صدام قائلاً: «إنه كذاب. يضحك من الأسرة الدولية ويعتبرها حمقاء. إنه أشبه بمستنقع دولي. تقف استراليا، سلوفاكيا، جمهورية التشيك، انجلترا - تقف هذه البلدان جميعاً في صفنا. تقرؤون عن المانيا وعن فوز هذا المخلوق في الانتخابات عن طريق جعلي أبدو مهرجاً.» مشيراً إلى المستشار غيرهارد شرويدر وخطابه المعادي للحرب على العراق خلال حملة إعادة انتخابه.

ثم قام بوش بإبلاغ الفريق أنه «لم يكن ثمة أي تعابير وجه. كان المشهد أشبه بأحد أفلام وودي آلن Woody Allen حين كان قد تحدث أمام الأمم المتحدة. ضحك الحضور.

تابع بوش كلامه: «الناس هناك يقولون لا تستطيعون أن تقاتلوا في أفغانستان وتنتصروا في العراق. فإلحاق الهزيمة بعدوين اثنين بالغ الصعوبة، غير أننا سنفعل.»

18

قبل ستة أشهر. في ٩ أيار/ مايو. ٢٠٠٢، تناولت طعام العشاء مع السناتور بوب غراهام. وهو ديمقراطي من فلوريدا تولى رئاسة لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، بمنزله المديني في الكابيتول هيل. أنا جلبت العشاء وقام هو بتوفير الأواني الفضية والأطباق. كانت هذه وجبة العشاء الثانية التي كنا نتناولها منذ ٩/١١.

في عالم وكالة الاستخبارات المركزية. عالم الاستخبارات السرية والأعمال الخفية، كانت لجان الاستخبارات البرلمانية الجهة المراقبة الخارجية الوحيدة. كانت وظيفة هذه اللجان الإشرافية مقررة بالقانون. وكان من المفروض إبلاغ رؤساء حزب الأقلية وكبار أعضائه بأي نشاط استخباراتي ذي شأن، بأي إخفاق، أو بأي عمل سري. أحياناً كانت اللجان كلاب شرسة متمردة، وأحياناً أخرى كلاب أحضان مدللة. لقد سبق للسناتور الأريزوني الجمهوري الراحل باري غولدووتر أن كان قد تولى رئاسة اللجنة في فترة حرجة خلال عهد مدير وكالة الاستخبارات المركزية وليم جي. كيسي William J. Csey، في الثمانينيات، وكنت أنا قد وجدت غولدووتر مصدراً جيداً لمعلومات جديرة بالثقة.

كان غراهام، وهو رجل ضئيل الجسم بشوش ولكنه حازم في الخامسة والستين من العمر، قد شغل منصب حاكم ولاية فلوريدا لثماني سنوات، وكان الآن في فترته السداسية الثالثة في مجلس الشيوخ. كان لغراهام علاقة عائلية مع الواشنطن بوست حيث أعمل، فأخوه غير الشقيق كان الراحل فيليب غراهام Philip Graham، ناشر البوست حتى عام ١٩٦٣، وزوج كاثرين غراهام KatharineGraham.

أما ابن فيليب غراهام، دون غراهام Don Graham. فهو أحد المدراء التنفيذيين في شركة البوست. وبالتالي فإن السناتور غراهام وجد أن الحل الأمثل هو حظر الكلام الصريح المسجل بكتابي دون تسريب ما يريد قوله عبر الجريدة، لقد سجلت حواراتنا العشائية الطويلة بموافقته.

أراد غراهام أن يتحدث عن العراق وقد كان عميق الاضطراب. أفاد بأنه كان قد حصل على تقرير موجز عن الخطة السرية. ولكنه أحجم عن إعطاء التفاصيل. شكلت ملابسات الإيجازات وظروفها - وقد جرت في مكتب تشيني - مصدر إزعاج استثنائي بالنسبة إليه. ففيما يخص العمليات السرية الأكثر حساسية، كان ثمة نوع من الاتفاق الراسخ والقديم بين البيت الأبيض والكونغرس بشأن حصر عملية الاطلاع بثمانية فقط من أعضاء الكونغرس، بذلك الفريق المعروف باسم عصابة الثمانية، وهم زعيما الأغلبية والأقلية في مجلس الشيوخ. رئيس مجلس النواب، وزعيم الأقلية في مجلس النواب، مع رئيس وأحد كبار أعضاء كل من لجنتي الاستخبارات في مجلسي الشيوخ والنواب.

قال غراهام: «تمثلت نظرية هذه الخطة الجديدة بأننا قد أخفقنا في بلوغ هدف تغيير نظام معين، وبأن أحد أسباب ذلك الإخفاق الرئيسة هو أننا عوّلنا على الاستخبارات في إنجاز المهمة في حين أن الأمر كان يتطلب ما هو أكثر من العمل الاستخباراتي المجرد وحده. سوف يتطلب إنجاز العمل قليلاً من العمل الدبلوماسي، قليلاً من الضغط الاقتصادي وربما كثيراً من العمل العسكري.»

رد فعله؟

«حسناً، لست مقتنعاً بأن اجتياح العراق هو الشيء الصحيح الذي يجب عمله في المستقبل المباشر.» قال غراهام « وسأحدد المستقبل المباشر على أنه السنتان أو

الثلاث القادمة. أعتقد أن متابعة هذه الحرب على الإرهاب هدف بالغ الأهمية وقد يكون هذا هو المستنقع الذي من شأنه أن يمنعنا من بلوغ ذلك الهدف.»

«ليس إرهابي الحلقة الأولى إلا شخصاً إما كان متورطاً في أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، أو آوى ووفر ملاذاً آمناً لأناس متورطين. وليس ثمة أي دليل على أن العراق واقع في أي من تلك الخانتين. وبالتالي فأنا أظن أن اعتبار شن حرب على العراق فصل آخر من الحرب على الإرهاب توسيع للدائرة.

«هل العراق دولة موشكة على امتلاك أسلحة دمار شامل قابلة للاستخدام عسكرياً؟» سأل بوب. «مرة أخرى، إن الجواب هو أن من شأن أكثرية التحليلات أن تقول: لا بد من مرور بعض الوقت، نحو خمس سنوات، قبل أن يصل العراقيون إلى تلك المرحلة ما لم يحصلوا على مساعدة ذات شأن من الخارج.»

قال غراهام: «إن علينا أن نراقب العراق حتى نبادر إذا ما بدت تلك الأرقام متقلصة بسرعة، إلى رفع اسم العراق إلى مرتبة أعلى في القائمة. ويكون تصرفنا مشروعاً.» ثم أفاد بأنه لم يكن قد فاتح بوش عن العراق. ولكنه كان قد تحدث مع تشيني «يبدو الرجل منزلقاً فوق الإرهاب ومزاوجاً (بينه وبين) أسلحة الدمار الشامل، ميال إلى القول إن الحرب التي نحن الآن عاكفون على خوضها ليست ضد الإرهاب فقط، إنها حرب على الإرهاب كما على تلك الدول المتوفرة على قدرة تزويد الإرهابيين بالأسلحة التي يستطيعون توظيفها لرفع مستوى طبيعة عنفهم.»

قال محدثي: «إن أحد هذه الاستنتاجات أكثر كتماناً من استنتاجات عصابة الثمانية،» لأن أياً من عناصر الجهاز لم يكن مخولاً بالاطلاع عليه. «جميع جلسات الإيجاز الخاصة بذلك تتم في البيت الأبيض، وتلك التي شاركت فيها كانت في المقام الأول. بمكتب (تشيني).»

صحيح أن تنت كان حاضراً. غير أن تشيني هو الذي قال معظم الكلام. كان نائب الرئيس شديد التركيز على العراق. إذ ظل يقول: «لابد لنا من أن نُقْدم على مهاجمته لأنه حصيلة التزاوج بين الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل.»

أكد غراهام أن إدارة بوش، بوش على الأقل، كانت قد غيرت تعريف الحرب على الإرهاب. «الآن نضفي عنوان دولة إرهابية على تلك الدولة التي قد تكون متوفرة على قابلية تزويد أطراف أخرى بأسلحة تدمير شامل وإن لم تكن هي نفسها منخرطة في نشاطات إرهابية أو دائبة على توفير الملاذات الآمنة للإرهابيين.»



لم تكن وكالة الاستخبارات المركزية - بالمطلق - قد أعلنت عن اعتقادها بامتلاك صدام لأسلحة الدمار الشامل. فتقويم الاستخبارات القومية الرسمي لعام ٢٠٠٠ توصل إلى استنتاج يقول إن صداماً «احتفظ بمخزون احتياطي صغير» من أسلحة الحرب الكيميائية - لا رؤوس حربية فعلية - قد يصل إلى نحو مئة طن متري. وقد يكون متوفراً على ما يكفي لإنتاج ٢٠٠ طن متري إضافي من المواد الأولية. جرى استخلاص هذا الاستنتاج إلى حد كبير من فروق الحسابات بين ما كان العراق قد اعترف لمفتشي الأسلحة الدوليين بامتلاكه من جهة، وما بينت السجلات أنه قد دُمر من جهة ثانية.

وكذلك فإن التقويم الاستخباراتي القومي السري الصادر في كانون الأول/ ديسمبر. ٢٠٠٠ بشأن الأسلحة البيولوجية استنتج أن العراق «استمر» يعمل على تطويرها وبات قريباً من امتلاكها، ولكنه لم يصبح بعد حائزاً عليها.

من اللافت أن تنت لم يكن، في شهادة علنية له أمام لجنة غراهام يوم ٦ شباط/ فبراير ٢٠٠٢، حول التهديدات العالمية، قد أتى على ذكر العراق حتى

الصفحة ١٠ من شهادته المؤلفة من ١٨ صفحة، مكرساً ثلاث فقرات فقط لموضوع العراق، قال: «يستمر العراق في بناء وتوسيع بنية تحتية قادرة على إنتاج أسلحة دمار شامل.» كانت صناعته الكيميائية متوسعة «بطرق تمكنها من التحول بسرعة إلى إنتاج أسلحة كيميائية، ونعتقد أنه يواصل أيضاً برنامج أسلحة بيولوجية فعال وقادر.»

«نؤمن أن صداماً لم يتخل قط عن برامج أسلحة النووية،» قال تنت، ولكنه لم يشر إلى أن صداماً كان موشكاً على بناء قنبلة. «يبقى قلقنا على المدى القصير متمثلاً باحتمال وصول صدام إلى مواد انشطارية.»

بعد رؤيتي له. مارس غراهام ومعه ديمقراطيون آخرون في مجلس الشيوخ ضغطاً على الإدارة مطالبين بتقرير أو تقويم استخباراتي جديد أوسع عن العراق. وقد أراد غراهام خصوصاً الاطلاع على العلاقة المحتملة بين خطة وكالة الاستخبارات السرية من جهة والخطط العسكرية. العمل الدبلوماسي، والحرب الكوكبية على الإرهاب من جهة ثانية. ما كانت الطبيعة المحددة بدقة لتهديد العراق؟ بأي نوع من أنواع الأسلحة أو الإرهاب؟ ما مدى راهنية ذلك التهديد؟ ما لذي كان من شأن الحرب أن يعنيه للمنطقة، وما مشهد ما بعد الحرب القابل لأن ينشأ؟ صيغت هذه الأسئلة رسمياً في رسالة سرية موجهة إلى تنت يوم ١١ أيلول/ سبتمبر، ٢٠٠٢، قبل خطاب بوش في الأمم المتحدة بيوم واحد.

رفض تنت الطلب من منطلق أن غراهام أراد تقويماً لاستراتيجية الولايات المتحدة وخطها السياسي. لم يكن ذلك من صلاحيات تنت، فوكالة الاستخبارات المركزية كانت تضع تقويمات وتقديرات استخبارات قومية رسمية عن حكومات أجنبية، لا عن حكومتها هي. غير أن تنت ما لبث أن وافق فعلاً، ولو على مضض. على وضع تقويم استخبارات قومية عاجل لقدرة العراق على صعيد أسلحة الدمار

الشامل. وقد تم هذا العمل الاستخباراتي في أعقاب استنتاجات بوش وتشيني رفيعة المستوى حول الموضوع - تصريح نائب الرئيس في ٢٦ آب/ أغسطس القائل: «ببساطة. ليس هناك أي شك أن صدام حسين يملك الآن أسلحة دمار شامل.» وتعليق الرئيس بعد شهر قائلاً: «إن النظام العراقي حائز على أسلحة بيولوجية وكيميائية.»

بدأ مجلس الأمن القومي، وهو فريق مؤلف من ممثلي أجهزة الاستخبارات المفتاحية، غربلة، تصنيف، وتقويم المواد الاستخبارية الأولية. يضم مجلس الأمن القومي كلاً من وكالة الاستخبارات المركزية، وكالة الأمن القومي، التي تتولى مهمة اعتراض الاتصالات، وكالة استخبارات الدفاع في البنتاغون، ومكتب استخبارات وزراة الخارجية، ذراع استخبارات وزارة الطاقة؛ والوكالة القومية للتصوير ووضع الخرائط، التي تتولى أعمال الاستطلاع عبر الأقمار الصناعية وغيرها من الوسائل الجوية.

كان الفريق متوفراً على كميات كبيرة من المواد، كثير منها قديم وغير جدير بالاعتماد. كان العراق لا يزال واحداً من أصعب الأهداف الاستخباراتية. كان صدام قد حسّن أساليبه في الخداع. وإخفاء برنامج الأسلحة عنده - بصرف النظر عن نوعها - تحت الأرض. كانت الاستخبارات البشرية داخل العراق لا تزال ضعيفة، والفرق شبه العسكرية الشبيهة بتلك التي كانت بقيادة تيم في شمال العراق لم تكن بعد قد عثرت على أي شيء.

وأي تقويم أو تقدير استخبارات قومية إن هو إلا اسماً على مسمى، إن هو إلا تخميناً في النهاية. خلال الحرب الباردة أصبح التقويم الوثيقة المفضلة لأنه كان مصمماً بحيث يعطي الرئيس وفريق الأمن القومي عنده صورة تقديرية إجمالية عن قدرة ونوايا تهديدات فعلية مثل الاتحاد السوفييتي والصين، وتقديرات الاستخبارات

القومية (NIEs) كثيراً ما تشتمل على تخمينات لمدى قابلية دام حكم العقيد القذافي في ليبيا، التوجه السائد في البلقان، المجاعة في إفريقيا، فرص اندلاع حرب في شبه الجزيرة الكورية، أو إمكانية حصول تبادل نووي بين الهند وباكستان، مثلاً.

إن القالب مصمم لخدمة صانعي القرار السياسي الغارقين في العمل. فأي تقويم استخباراتي قومي مؤلف من ٥٠ إلى ١٠٠ صفحة يتضمن نوعاً من الخلاصة التنفيذية على الصفحة الأولى تحت عنوان «أحكام مفتاحية». يحاول محللو الاستخبارات من خلالها تقديم جواب حد أدنى. هل سيطاح بكاسترو؟ هل ستُقْدِم سورية على مهاجمة إسرائيل؟ هل سينتصر الشيوعيون في نيكاراغوا؟ على امتداد العقود تعرضت تقويمات الاستخبارات القومية لفيض من الانتقادات الصادرة عن صانعي القرار السياسي – والرؤساء – لأن المؤلفين يمفصلون، ولأن تقارير "من جهة، ومن الجهة الأخرى" زاخرة بتوصيفات ونعوت تطيِّر العقل. مهما حصل، فإن بوسع المرء أن يهتدي إلى جملة أو عبارة في تقويم الاستخبارات القومية كانت قد غطت احتمالاً مماثلاً.»

كان ستو كوهن Stu Cohen. وهو عنصر استخباراتي محترف منذ ٢٠ سنة، يعمل رئيساً لمجلس الاستخبارات القومية حين كان إعداد تقويم أسلحة الدمار الشامل العراقية جارياً. أسر لأحد الزملاء أنه كان يريد تجنب الغموض إن أمكن. إذا بقيت الأحكام المفتاحية قائمة على استخدام كلمات مثل «ربما» أو «قد» أو «من المحتمل» فإن من شان التقويم أن يبقى «إشكالاتياً» (بابلوماً) حسب تعبيره. تبقى الأدلة المدرعة التي لا يأتيها الباطل من أي جهة في العمل الاستخباراتي نادرة ويبقى المحللون مطالبين بأن يكونوا قادرين على إصدار أحكام تتجاوز الدروع. برأي كوهن. صحيح أن الأدلة جوهرية، غير أنها عرضية؛ لم يكن أحد يتوفر على برهان يؤكد

وجود أدوات أو أسلحة بيولوجية نافذة، أو مرجل تنبعث منه سحب دخان أدوات حرب كيميائية. إلا أن الاستنتاج مضافاً إلى البرهان غير القابل للجدل على أن صداماً كان متوفراً على أسلحة الدمار الشامل من قبل - مفتشو الأسلحة الدوليون في التسعينيات كانوا قد عثروا عليها، اختبروها، وأتلفوها - بدا واضحاً.

كانت وجهة النظر البديلة أنْ ليس لدى صدام أي أسلحة دمار شامل. لا أحد كان يريد أن يقول ذلك لأن من شأن ذلك أن يقضي بإغفال كل هذا القدر الكبير من المعلومات الاستخباراتية. تمثل الجواب الواقعي والأمثل بـ «ربما» كان حائزاً على أسلحة دمار شامل. غير أن أي برهان ليس موجوداً وقد كانت القضية ظرفية.» ونظراً لتوفر مخرج إصدار «حكم» لا يعدو كونه، حسب التعريف المعجمي، «رأياً» مجرد «رأي»، فإن المجلس كان متجهاً نحو إصدار بيان قوي، بيان بعيد عن أن يكون «إشكالاتياً» (پابلوماً).

كان المحللون في وكالة الاستخبارات المركزية قد عكفوا طويلاً على مناقشة مسألة تجنب الغموض أو اللبس. أحياناً. كان كثيرون، بمن فيهم جون ماكلوخلين، يشعرون بأن عليهم أن يمتلكوا جراة ارتكاب الخطأ حتى يصبحوا أكثر وضوحاً في أحكامهم. في صيف ذلك العام كان ماكلوخلين قد أبلغ كبار مسؤولي مجلس الأمن القومي أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تميل بقوة إلى تأكيد امتلاك صدام لأسلحة دمار شامل، ولكن آخرين كان من شأنهم أن يطالبوا ببرهان أكثر مباشرة. فوكالة الاستخبارات المركزية لم تكن متوفرة على عينة من مادة الانتراكس، كما لم تكن بيدها أي عينة أسلحة كيميائية.

عكف محللو الاستخبارات وموظفوها مدة ثلاثة أسابيع على إعداد التقويم. وفي يوم ١ تشرين الأول/ أكتوبر، ترأس تنت المجلس القومي للاستخبارات الخارجية، رؤساء جميع الأجهزة الاستخباراتية التي كانت تصدر تقويمات الاستخبارات القومية.

لم يعترض أحد على الاستنتاجات المركزية، شعر تنت بأن لديه فريق من الأذكياء حول الطاولة وأنهم قادرون على توظيف التقويم توظيفاً سليماً.

كانت الوثيقة السرية جداً المؤلفة من ٩٢ صفحة تقول تحت عنوان احكام مفتاحية. دونما توصيف. إن «بغداد تملك أسلحة كيميائية وبيولوجية» ومن ذلك التأكيد اللافت يعود التقويم إلى الانحدار والتخفيف عبر اعتماد عدد من المراوغات الخرساء ولكن الواضحة، تمثلت إحدى الإشارات المثيرة للريبة وعدم اليقين بالفقرة الثانية من الأحكام المفتاحية: «نقدر أننا لا نرى إلا جزءاً من الجهود العراقية الخاصة بأسلحة الدمار الشامل.» إنه ذلك النوع من البيانات التي يمكن إيرادها في أي تقرير استخباراتي - ومن قال إن ما هو أكثر من جزء من أي شيء يمكن أن يرى في أي وقت!؟ ختاماً. تمخضت عمليات الربط والتردد والمداورة عن طوفان من الشك.

كان التقويم يقول إن أجهزة الاستخبارات «تقدر أن بغداد قد استأنفت إنتاج غازات الخردل، السارين، السيكلوسارين، والفي. إكس. (VX)» ولكنه لم يقل إن لدى العراق أياً من هذه الغازات فعلاً. أو إن لديها مصادر رأتها. بقيت الأدلة الداعمة ضعيفة. ثمة كانت تقارير سرية زاعمة أن العراق «قد حصل سراً على انماط وكميات المواد الكيميائية والمعدات الكافية للسماح بإنتاج أداة حرب كيميائية محدودة.» وبما أن لعدد كبير من هذه المواد الكيميائية استعمالاً مزدوجاً - لأغراض مشروعة لا علاقة لها بالأسلحة من جهة ولصنع الأسلحة من جهة ثانية - فإن الاستنتاج لم يكن إلا استنتاجاً قائماً على التخمين. موحياً بوجود صعوبة مع إيراد الأرقام قال التقويم: «مع أننا لا نتوفر إلا على القليل من المعلومات عن مخزون العراق من الأسلحة الكيميائية، فإن من المحتمل أن يكون صدام قد خَزَّن ما لا يقل عن ١٠٠ طن متري وما قد يصل إلى ٥٠٠ طن متري من عناصر الأسلحة الكيميائية - تمت إضافة جزء كبير منها في السنة الأخيرة.»

لم يكن الحديث عن الأسلحة البيولوجية مختلفاً كثيراً. فبعض المعلومات الاستخباراتية والاستنتاجات تكاد أن تتناقض مع التأكيدات الواردة على صفحة الأحكام المفتاحية. قال التقويم مثلاً: «نقرر أن جميع الجوانب المفتاحية - جوانب البحث والتطوير، الإنتاج، والتحويل إلى سلاح لبرنامج العراق الخاص بالأسلحة البيولوجية الهجومية، فعّالة.» والعناصر الفعالة لأي برنامج لا تعني بالضرورة أن أسلحة فعلية قد صُنعت. وإن كانت توحي بها بقوة. وعلى الرغم من توافر أدلة قوية وظرفية مقلقة فإن التقويم لم يؤكد أن صداماً «يملك» الأسلحة. «نقرر أن العراق متوفر على بعض الأسلحة البيولوجية القاتلة والشالة، وهو قادر بسرعة على إنتاج سلسلة متنوعة من هذه الأدوات وتحويلها إلى أسلحة.» مرة أخرى لم يقل التقويم إن العراق متوفر فعلاً على أسلحة.

بدا تقويم الاستخبارات القومية أشبه بنشرة جوية عن موضوعات معينة. «ثمة احتمالات أن يكون حتى الجدري جزءاً من البرنامج العراقي الخاص بالأسلحة البيولوجية الهجومية.» كما جاء في التقويم.

تزايدت النزعة التجريبية مع الانتقال إلى قطاعات التقويم الأعمق. إذ قيل: «ثقتنا ضعيفة بأن نكون قادرين على تقدير الموعد الذي يمكن لصدام أن يستخدم فيه أسلحة الدمار الشامل.» مع سلسلة من التوصيفات والاشتراطات - يمكن، قد، ربما، من المحتمل، ومن الممكن أكثر مرة أخرى - قام تقويم الاستخبارات القومية بوضع سيناريوهات هجمات كيميائية أو بيولوجية على القوات الأمريكية، على الأصدقاء، وعلى الحلفاء.

بعد حزمة ثلاثية من الاشتراطات قارب التقويم كابوس تشيني - قيام صدام بمساعدة القاعدة وتمكينها من شن هجوم بأسلحة دمار شامل.

«في حال بلوغه درجة كافية من اليأس، قد يقرر صدام أن لا طرف سوى منظمة مثل القاعدة - ذات انتشار عالمي وبنية تحتية إرهابية واسعة منخرطة في صراع حياة أو موت مع الولايات المتحدة - من شأنه أن يقترف ذلك النمط من الهجوم الإرهابي الذي قد يكون حالماً بشنه. وفي ظل مثل هذه الظروف قد يقرر أن الخطوة المتطرفة المتمثلة بمساعدة الإرهابيين الإسلاميين على تفنيذ هجوم بالأسلحة الكيميائية والبيولوجية ضد الولايات المتحدة من شأنها أن تشكل فرصته الأخيرة للانتقام عبر الإجهاز على عدد كبير من الضحايا معه.»

وفي مكان أبعد من التقويم ثمة الإعلان الذي يقول بـ «ضعف الثقة» بالتقديرات. وقد جاء هذا بعد البيان الذي يقول: «لا نملك أي معلومات استخباراتية محددة عن قيام نظام صدام بتوجيه هجمات ضد الأراضي الأمريكية.»

أما عن قضية الأسلحة النووية فقد قال التقويم بقدر «متواضع من الثقة» إن العراق لم يصبح بعد حائزاً على أي سلاح نووي أو ما يكفي من المواد لتصنيع مثل هذا السلاح. ولكن من المحتمل أن يمتلك سلاحاً كهذا مع حلول عام ٢٠٠٧ إلى ٢٠٠٩.»

قام مكتب استخبارات وزارة الخارجية بتسويد ملحق مؤلف من ١١ صفحة يلخص اعتراضاته وأوجه اختلافه مع تقويم الاستخبارات القومية. ولا سيما فيما يخص الأسلحة النووية. قائلاً إن الأدلة لم تتضافر لتشكل «حجة مقنعة» مؤكدة لامتلاك العراق «مقاربة متكاملة وشاملة لعملية امتلاك أسلحة نووية.»

لدى عرض التقويم على لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ يوم الأربعاء الواقع في ٢ تشرين الأول/ أكتوبر، ركز بعض الشيوخ على المسائل الأكبر التي لم تكن وكالة الاستخبارات المركزية قد تناولتها، أرادوا أن يعرفوا علاقة العمل السري

في العراق بالتخطيط العسكري، بالعمل الدبلوماسي، وباحتمال تمخض أي هجوم على العراق عن رد إرهابي ضد الولايات المتحدة أو التسبب بحدوث اضطرابات في الشرق الأوسط. ما من شيخ كان لديه ما يكفي من الصورة - تفاصيل التخطيط العسكري لم تكن قد أُرسلت إلى التلة (البرلمان) وخطط وكالة الاستخبارات المركزية كانت على درجة عالية من السرية - حتى يتمكن من صياغة نقد فعال وناجح. أما الروايات شبه اليومية لقصة مساعي پاول الرامية إلى ضمان استصدار قرار جديد من مجلس الأمن الدولي فكانت قد حولت تركيزها نحو اندفاعة بوش الدبلوماسية.

في ذلك الأسبوع راح بعض الشيوخ يومِّون اقتراحات بديلة حول قرار برلماني كان من شأنه أن يعطي بوش ما هو أقل من شيك مفتوح. في منتصف الأسبوع أشاع كاليو في أجواء الكونغرس. أن «اليوم هو يوم الحسم - إما أن نبادر إلى تسوية جميع خلافاتنا اليوم أو نتقدم بدونكم!» لم يُقْدِم داعية الرئيس الأول على هذا إلا بعد أن صار متمتعاً بأكثرية مريحة. على امتداد عدد من الساعات بعد ظهر ومساء ذلك اليوم، عكف بوش وكاليو على التوصل إلى تسوية توفيقية أخيرة بشأن اللغة. تحدث بوش مع ديك غيبهاردت الذي كان يسعى إلى بضعة تغييرات ولكنه كان - على العموم - مؤيداً لخط الرئيس، عبر الهاتف. كان كسب كبير زعماء الديمقراطيين في مجلس النواب إلى صفهما أمراً ذا أهمية.

اضطلع روف بعدد من المهمات على صعيد المساهمة في الفوز بقرار برلماني. تحدث مع بعض جمهوريي مجلس النواب وتولى وظيفة الرسول لدى بعض من أرادوا إيصال رسائل إلى بوش. تمثلت إحدى المهمات بمفاتحة السناتور تشاك هاغل Chuck Hagel، وهو جمهوري من نبراسكا ذو نزعة استقلالية ومن منتقدي بوش بين الحين والآخر. كانت حجة روف تقول إن العراق جبهة ذات أهمية في الحرب على الإرهاب. كان الرئيس بحاجة إلى هذا القرار التماساً للحد الأقصى من النفوذ لحل

المشكلة سلمياً. ولامتلاك الدعم اللازم لتوجيه ضربة عسكرية إذا تعذر الحل السلمي.

في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة عشرة من بعد ظهر يوم ٢ تشرين الأول/ أكتوبر ظَهَر بوش ومعه عشرات المشرّعين، بمن فيهم غيبهاردت ولكن دون داشل، في الحديقة الوردية لإعلان اتفاق على قرار مدعوم من الحزبين كليهما. كان يقف إلى جانبه أيضاً شخصيتان مفتاحيتان من صراع الـ ٢٠٠٠ الرئاسي: السناتور جون ماكين John Macain، ذلك الجمهوري المخضرم الذي كان غريم بوش الأول، والسناتور جوزيف ليبرمن Joseph Lieberman، ديمقراطي من كنتيكت كان على قائمة أل غور ضد بوش.

أكد الرئيس أن الدعم من جانب الكونغرس «سوف يبين لكل من الأصدقاء والأعداء على حد سواء مدى تصميم الولايات المتحدة.» ومعلناً «أن النظام العراقي يشكل. بنهجه الحالي، تهديداً فريداً في إلحاحه.» قال بوش: «إن الدكتاتور تلميذ لستالين.»

إن القضية مطروحة الآن أمام كونغرس الولايات المتحدة. إن الشعب الأمريكي سيتابع النقاش عن كثب، وهذا النقاش سيبقى حياً في ذاكرة التاريخ.

«أشدد على دعوة جميع أعضاء الكونغرس إلى دراسة هذا القرار بأكبر قدر من العناية والاهتمام، لا شيء يمكن أن يكون أخطر من الخيار المطروح أمامهم.»



وعلى طريق الجهد المبذول لكسب دعم كل من الكونغرس والجمهور، قرر الرئيس أن يلقي خطاب ساعة ذروة يفصِّل فيه التهم الموجهة ضد صدام. تقرر إلقاء الخطاب في قاعة المتحف المستديرة الكبرى الكائنة في محطة الاتحاد بسينسيناتي، يوم ٧ تشرين الأول/ أكتوبر.

راحت المسوَّدات تتطاير على نحو محموم. قبل يومين، كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد أرسلت مذكرة مؤلفة من ثلاث صفحات ونصف إلى ستيف هادلي ومايك غير سون توصي بـ ٢٢ تعديلاً في المسودة رقم: ٦. بعض التغييرات المقترحة كانت تقول إن من شأن التصريحات الواردة أن تتعزز؛ واقتراحات أخرى أوصت باختصار بيانات معينة أو حذفها كلياً.

قالت المسوَّدة، مثلاً، إن العراق اعترف بعد ١٩٩٥ بإنتاج ٢٥,٠٠٠ لتر من الانتراكس وغيره من العناصر البيولوجية القاتلة. علقت وكالة الاستخبارات المركزية قائلة. إنه من الممكن رفع الرقم ٣٠,٠٠٠ - وهو الرقم الذي كان الرئيس سيستخدمه.

قالت المسوَّدة أيضاً إن أفضل المعلومات الاستخباراية كانت - قبل حرب الخليج في ١٩٩١ - قد أشارت إلى قدرة العراق على تطوير سلاح نووي في غضون خمس إلى سبع سنوات. أوصت وكالة الاستخبارات المركزية بتغيير الفترة وجعلها ٨ إلى ١٠ سنوات الأكثر دقة - وهما الرقمان اللذان كان بوش سيستخدمها في الخطاب. وكذلك فإن المسوَّدة رقم: ٦ كانت تقول إن مفتشي الأسلحة الدوليين كانوا، بعد حرب الخليج، قد اكتشفوا أن العراق كان قاطعاً شوطاً أبعد بكثير في برنامجه النووي، وكان قادراً على امتلاك سلاح نووي في غضون ١٨ شهراً حسب التقديرات. وبالتالي فقد أوصت مذكرة وكالة الاستخبارات المركزية بتغيير الإطار الزمني إلى عامين أو ثلاثة. أما بوش فقد استقر على عبارة «ليس أبعد من ١٩٩٣» نحو عامين اثنين بعد الاكتشاف.

تضمنت المسوَّدة رقم ٦ أيضاً جملة تقول: «وقد ضُبط النظام وهو يحاول شراء ٥٠٠ طن متري من أكسيد اليورانيوم من مصادر إفريقية، وهو عنصر في عملية التخصيب.» كان أساس ذلك تقريراً غير مدعوم بالبراهين صدر عن الاستخبارات

البريطانية زاعماً أن العراق كان قد حاول مؤخراً ابتياع أكسيد اليورانيوم المعروف باسم «الكعلك الأصفر.» من النايجر. لم تكن وكالة الاستخبارات المركزية واثقة من صحة النبأ لعدد من الأسباب، وكانت قد تقاسمت هواجسها مع البريطانيين. كان سفير سابق يدعى جوزيف ولسن الرابع Joseph Wilson IV قد أُوفد إلى النايجر لتحري مدى دقة التقرير، وكان السفير قد أخفق في التوصل إلى أي شيء يؤيد صحة ما جاء فيه. أوصت مذكرة وكالة الاستخبارات المركزية بعدم إيراد أي إشارة في خطاب سينسيناتي. ونُفذت التوصية.

كانت المسوَّدة تقول: «ثمة خصوم قُطعت رؤوسهم بموجب أوامر صادرة عن صدام حسين.» وأفادت وكالة الاستخبارات المركزية بأن الأدلة كانت تشير إلى أن الخصوم تعرضوا للإعدام، لا لقطع الرأس، غير أن عبارة قطع الرأس بقيت في نص الخطاب النهائي.

صحيح أن خطاب سينسيناتي الممتد ٢٦ دقيقة لم يُنقل عبر شبكات البث الرئيسية الثلاث، غير أن نحو ١٧ مليوناً من جمهور مشاهدي فوكس، وقنوات الأخبار بالكوابل السي-إن-إن CNN، الأم، إس. إن. بي. سي MSNBC، وفوكس نيوز، تابعوا لخطاب.

قامت حجة بوش الجوهرية على القول بأن العراق «دائب على تجميع أشد أخطار عصرنا هولاً في مكان واحد» وأن «الخطر بات ملموساً ولا يزيد إلا سوءاً مع مرور الوقت.»

لم يكن ثمة أي اعتراف بالحاجة إلى توفير دليل ملموس. إلى «فوهة بندقية تفوح منها رائحة البارود». أوحى بوش، بدلاً من ذلك، بخطر أكبر، بخطر كانت رايس أثارته على الملأ قبل شهر، قائلاً: «في مواجهة دليل واضح على الخطر، لا نستطيع

أن ننتظر البرهان النهائي، فوهة البندقية المدخنة، التي من شأنها أن تأتي على شكل ضاب فطر.»

ضماناً لعدم إخفاق أحد في فهم المقصود، حرص بوش على التذكير بأزمة الصواريخ الكوبية في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٢ حين كان الاتحاد السوفيتي قد نصب صواريخ هجومية متوسطة المدى في كوبا. قام بوش باقتباس كلام الرئيس جون إف. كندي قائلاً: «لا تستطيع الولايات المتحدة وأسرة الدول العالمية أن تطيق الخداع المتعمد والتهديدات الهجومية من جانب أي دولة أو أمة، كبيرة كانت أم صغيرة. لم نعد نعيش في عالم يمثل فيه الإطلاق الفعلي لنيران الأسلحة فقط تحدياً كافياً لأمن أمة بعينها جاعلاً إياه حداً أقصى من الخطر.»

◆ ◆ ◆

بعد يوم واحد، في ٨ تشرين الأول، جرى إما إيجاز أو عرض مجمل تقويم الاستخبارات القومية مع حكمه المفتاحي القائل إن العراق. «حائز على أسلحة كيميائية وبيولوجية.» أمام ما لا يقل عن ٤٧ شيخاً (عضواً في مجلس الشيوخ). تحدث پاول مع عضو مجلس الشيوخ الجمهورية المعتدلة سوزان كولنز Susan Collins من مين لمدة ١٥ دقيقة. مدعياً بقوة.» كما قالت لاحقاً للوس انجلوس تايمز. أن «مجلس الأمن سوف يجد مخرجاً للتهرب من الموضوع. ما لم يبادر الكونغرس إلى إقرار التفويض باستخدام القوة». ثم أضافت: «أعتقد أنها حجة قوية.»

في ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر قام كاليو بوضع برنامج عمل للعاملين في جهازه قضى بإحصاء العدد الإجمالي للأعضاء الذين كانوا قد تمت مفاتحتهم حول العراق. كان راغباً في إجراء حساب دقيق قبل التصويت. الذي بدا محتملاً في ذلك

اليوم. جرى إعداد صورة تفصيلية مؤلفة من ١١ صفحة مزدوجة لسلسة من الدعوات واللقاءات بينت أنه كان قد دعا ١٩٥ عضواً من أعضاء مجلس النواب وجميع أعضاء مجلس الشيوخ الـ ١٠٠ إلى واحدة أو أكثر من جلسات إيجاز البيت الأبيض حول العراق. سجل جهاز العاملين عند كاليو أن ٧١ شيخاً و ١٦١ نائباً كانوا قد لبوا الدعوة.

بعد ظهر ذلك اليوم، بعد يومين من الجدل، أقر مجلس النواب قراراً يفوض الرئيس باستخدام القوات المسلحة الأمريكية في العراق «إذا رأى ذلك ضرورياً ومناسباً.» جاءت نتائج التصويت مريحة إذ كانت ٢٩٦ مقابل ١٣٣ - أكثر بـ ٤٦ صوتاً من عدد الأصوات التي كان أبوه قد حصل عليها في ١٩٩١.

أما في مجلس الشيوخ فقد أطلق الديمقراطي الماساتشوستسي إدوارد إم. كندي Edward M.Kennedy دعوة مفعمة بالحماسة إلى رفض القرار.

قال كندي: «لم تقم الإدارة بسوق قضية مقنعة تثبت أننا في مواجهة تهديد وشيك لأمننا القومي على نحو يجعل ضربة أمريكية استباقية، أحادية، وحرباً مباشرة ضروريتين. كذلك لم تقدم الإدارة أي كشف حساب لتكاليف هذه العملية من الدماء والأموال.» وقد أضاف لاحقاً أن عقيدة بوش الاستباقية كانت بمثابة «دعوة إلى إمبريالية أمريكية في القرن العشرين لا تستطيع أي أمة أخرى أن تقبل بها كما لا يجوز أن تفعل.»

أما السناتور (الشيخ) جون إف. كيري John F.Kerry. وهو ديمقراطي من ماسا تشوستس لن يلبث، بعد قليل، أن يصبح مرشحاً للرئاسة، فقال في خطاب من على منصة مجلس الشيوخ إنه كان سيصوت لصالح قرار استخدام القوة لتجريد صدام من السلاح لأن «ترسانة قاتلة من أسلحة الدمار الشامل بين يديه تهديد، وتهديد جدي، لأمننا.» ولدى إعلان دعمه صرح كيري انه كان يتوقع من الرئيس «أن

يفي بالالتزامات التي قطعها على نفسه أمام الشعب الأمريكي في الأيام الأخيرة - أن يتعاون مع مجلس الأمن الدولي وصولاً إلى تبني قرار جديد.. وأن يتحرك مع حلفاء يقفون في صفنا إذا ما توجب علينا تجريد صدام من السلاح بالقوة.»

غير أن اي ديمقراطي أو منتقد آخر لم يكن قادراً على كسب تأييد ذي شأن في مواجهة بيانات الرئيس المتكررة حول التهديد المتمثل بصدام، وتقديرات وكالة الاستخبارات المركزية المؤكدة أن صداماً حائز على أسلحة دمار شامل وقد يكون موشكاً على أن يصبح قوة نووية.

جاء تصويت مجلس الشيوخ في ١١ تشرين الأول/ أكتوبر مؤيداً للقرار بأكثرية ٧٧ مقابل ٢٣. صوّتَ الشيخ الفلوريدي غراهام ضد القرار من منطلق أنه كان «أجبن مما ينبغي» و«أضعف مما يجب.» كان يريد منح الرئيس تفويضاً ليس فقط بمهاجمة العراق. بل وبـ «استخدام القوة ضد سائر الجماعات الإرهابية الدولية التي من شأنها أن تفكر بضرب الولايات المتحدة مع انهيار نظام صدام حسين.»

أما الشيخان داشل وفاينشتاين اللذان كانا من المنتقدين الأعلى صوتاً في البداية. فما لبثا. آخر المطاف. أن صوّتا لصالح القرار الذي أكد قدرة الرئيس على استخدام الجيش تحت شعار « ما هو ضروري ومناسب.» للدفاع عن الوطن ضد «التهديد المتواصل المتمثل بالعراق.» لقد كان القرار شيكاً أبيض.



19

ظل رمسفلد دائباً على صقل وتطوير تفاصيل خطة الحرب، دافعاً الخطة الهجين نحو ما هو أقرب فأقرب من شيء قابل للتنفيذ، وقادر على تغطية جميع القواعد. واصل الدأب المجهد ضامناً إطلاع بوش على أدق التفاصيل.

في ٤ تشرين الأول/ أكتوبر قام فرانكس بإطلاع بوش على موجز لمفاهيم الاستهداف، على إيجاز أكثر كمالاً عن بغداد القلعة، وعلى ترهين أخير لخطة التعامل مع صواريخ سكود. عرض فرانكس أيضاً بعض الأفكار حول استخدام قوات عمليات خاصة دعماً لجماعات المعارضة داخل العراق. ثمة كانت جلسات إيجاز للرئيس حول ضمان أمن وإصلاح البنية التحتية النفطية العراقية، حول تقديرات الأضرار الجانبية التي قد تنطوي عليها المنشآت المحصنة والموجودة تحت الأرض في العراق، وحول الهيدرولوجيا (المائيات) - احتمالات لجوء صدام إلى استخدام السدود وإحداث الفيضانات لتدمير مناطق حساسة من بلده ولعرقلة تقدم القوات الأمريكية.

في اجتماع لمجلس الأمن القومي خلال هذه الفترة، فكر رمسفلد بالأخطاء المحتملة راح «يخربش» قائمة ما لبثت أن صارت تشتمل على ١٥ بنداً.

«انظروا» دعا الآخرين. بمن فيهم الرئيس «نحسن صنعاً إذ تذكرنا هذا.» ثم قام باستعراض البنود الـ ١٥ جميعاً.

عاد إلى البنتاغون نَسَخها جميعاً، ثم وزعها على كبار مستشاريه الأربعة، فبادر كل منهم إلى إضافة بندين اثنين.

في ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر قام رمسفلد بتلخيص ذلك كله في مذكرة سرية للغاية مؤلفة من ثلاث صفحات. قال فيما بعد متذكراً: «إنه لقرار عظيم.» «لا يقدم المرء على خوض الحرب - على الانخراط فيها بخفة، لقد كانت مسألة أنت مضطر لأن تفكر بها، وتفكر بها، وتفكر بها، وعند نقطة معينة، وأنت تعلم أن القرار ليس قرارك، أو حتى من توصياتك، كان تركيزي على الأمر أقل من تركيزي على التأكد من أننا قد فعلنا كل ما هو ممكن إنسانياً لإعداده من أجل تمكينه من التصدي لما قد يقع من خطأ، تمهيداً لجعل الأمور تسير بشكل صحيح.»

أرسل رمسفلد المذكرة إلى الرئيس، واستعرضها معه فيما بعد. بدأت المذكرة على النحو التالي: «ما يلي تسلسل توضيحي لأنماط المشكلات المحتمل نشوؤها جراء اي صراع مع العراق. يجري تقديمه بوصفه مسلسلاً اختبارياً بسيطاً ليشكل جزءاً من التأملات.»

هاكم بعضاً من البنود:

- قد تحاول دولة أخرى استغلال تورط الولايات المتحدة في العراق وانشغالها به.
- من شأن انقطاع النفط أن يتمخض عن موجات صدمات دولية.
- قد تبادر أجهزة الاستخبارات العراقية، وهي ذات حضور دولي بما فيه داخل الولايات المتحدة، إلى ضرب الولايات المتحدة، حلفائنا، أو قوات منتشرة أخرى بطرق غير تقليدية.
- من الممكن أن تقع أضرار جانبية أكبر مما هو متوقع.
- من شأن بغداد القلعة أن تثبت أنها عملية طويلة وغير سارة بالنسبة إلى الجميع.
- قد يعيش العراق صراعاً عرقياً (اثنياً، طائفياً، عرقياً) بين السنة، الشيعة، والأكراد كما سبق أن حصل من قبل.

◆ من الممكن أن يبادر العراق إلى استخدام أسلحة كيميائية ضد الشيعة وإلقاء المسؤولية أو اللوم على الولايات المتحدة.

◆ قد ينجح العراق في التفوق على الولايات المتحدة على صعيد العلاقات العامة ويقنع العالم بأنها كانت حرباً ضد المسلمين.



كانت القائمة قد تعاظمت حتى أصبحت ٢٩ بنداً. في النهاية قالت المذكرة: «ملاحظة: ممكن، بالطبع، إعداد قائمة توضيحية مشابهة لجميع المشكلات المحتملة التي تدعو الحاجة إلى دراستها إذا لم يحصل تغيير للنظام في العراق.» كانت هذه فكرة تشيني المكررة كثيراً والقائمة على افتراض انطواء القعود عن التحرك على خطر.



لدى اطلاعهما على حقيقة أن بعض كبار الضباط كانوا غير راضين عن خطة الحرب، بل وحتى عن فكرة الحرب على العراق، قرر الرئيس ورمسفلد أن الوقت قد حان لإشراك رؤساء هيئة الأركان المشتركة. فهؤلاء قد فوتحوا وجرى إطلاعهم على ما كان يجري بإيجاز. دعاهم بوش إلى البيت الأبيض في تشرين الأول/ أكتوبر.

كان رمسفلد يريد حصر لقاء الرؤساء (رؤساء الأركان) بالرئيس وحده في غياب فرانكس. وكذلك فإن كلاً من وولفرفيتز، هادلي، وليبي قد استبعدوا، رغم حضور كل من تشيني، رايس، وكارد.

سأل الرئيس رؤساء الأسلحة الأربعة عن آرائهم الصادقة. ماذا عن الخطة؟ هل كان كل سلاح قادراً على تنفيذ ما طُلب منه؟

أفاد رئيس أركان سلاح الطيران الجنرال جون بي. جمبر John P.Jumper

بأن الخطة جديرة بالتأييد. كان التغلب على نظام الدفاع الجوي الصدّامي ممكناً، رغم تخوفه من احتمال امتلاك العراقيين القدرة على التشويش على نظام الموضعة الكوكبية الذي كانت الولايات المتحدة كثيفة التعويل عليه لتعقب القوات، للاستهداف، ولإصابة الأهداف بدقة. ثم قال إن من شأن نظام النقل الجوي لإيصال القوات، المعدات، والمؤن أن يطول، ولكنه كان قادراً على إنجاز المهمة باعتقاده. عَبَّرَ الجنرال جمپر عن القلق إزاء احتمال توفر ذخائر موجهة بدقة؛ كان لا بد من إدامة القدرة الصناعية على إنتاج المزيد بوتيرة مدعومة ومن استخدام القنابل الذكية انتقائياً.

كان رئيس العمليات البحرية، الأدميرال ڤيرن كلارك Vern Clark، متخوفاً هو الآخر من وتيرة إنتاج نظام الأسلحة. وحسب العمليات الجارية على قدم وساق في أفغانستان كان قلقاً أيضاً، حسب كلامه إزاء استخدام الطيران البحري وحاملات الطائرات لأن من شأن العراق أن يصبح جبهة ثانية، غير أن أياً من هذه الأمور لم يكن عائقاً قادراً على التعطيل برأيه.

كان رئيس أركان الجيش (القوات البرية) الجنرال أرك شنسكي أول من عبر عن القلق من احتمال أن يكون حجم القوة البرية المهاجمة أصغر مما ينبغي. كانت الخطة تدعو إلى تقدم سريع نحو بغداد. تساءل عما إذا كان نظام الإمداد على درجة كافية من الخفة والسرعة لمواكبة التحرك العاجل والعاصف. كان من شأن الجيش أن يُنشر على امتداد مئات الكيلومترات. كان من شأن الحفاظ على خطوط الإمداد وصيانتها أمراً بالغ الصعوبة. أعلن شنسكي عن تأييده للخطة رغم ما قاله.

أما قائد المارينز الجنرال جيمس ال. جونز James L.Jones فقد قال إن قوات المارينز في حالة جيدة ولديه تخوفان. لم تكن هذه القوات معتادة على القتال في أجواء ملوثة إذا ما أقدم العراقيون على استخدام أسلحة كيميائية أو بيولوجية. صحيح أن ألبسة واقية من الأسلحة الكيميائية والبيولوجية كانت متوفرة بكميات

تكفي لعناصر القوات. غير أن أي كميات إضافية لأي مدنيين عراقيين لم تكن متوفرة. وكان من المحتمل لمثل هذا النقص أن يشكل صعوبة، ثانياً. كانت حرب المدن صعبة. من المؤكد أن صداماً كان سيتخلى عن الصحراء للقوات الأمريكية القادرة على التعامل مع أي شيء يلقيه عليها هناك. غير أن البيئة المدنيية في بغداد كان من شأنها أن تبقى مختلفة على نحو استثنائي.

سأل الرئيس: «ما لذي تفكر به بخصوص خطة بغداد؟»

لم يكن جونز قد اطلع على الخطة فراح يراوغ.

كرر بوش سؤاله ملحاً: «ما لذي تفكر به بخصوص خطة بغداد؟»

رد جونز: «لم أر التفاصيل بعد. ولكنها قيد الإنجاز كما فهمت.»

بعد الاجتماع، كانت رايس ستكثف أسئلتها حول مدى توفر الذخائر، خطوط الإمداد، الوقاية من التلوث بالنسبة إلى المدنيين، وحرب المدن.

في ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر. عاد فرانكس مرة أخرى ليرفع تقريراً موجزاً إلى الرئيس. اشتملت الجلسة على ترهين آخر حول وسائل الرد على إقدام صدام على استخدام أسلحة دمار شامل خلال الاجتياح. دعم العمليات المدنية العسكرية، وإدارة وقع أسلحة الدمار الشامل المحتملة على البلدان المجاورة.



لا، وألف لا كانت الحكومة التركية قد قالت على امتداد ذلك الخريف لوكالة الاستخبارات المركزية. لم تكن تركيا مستعدة للسماح للفرق الخاصة شبه العسكرية بالمرور عبر أراضيها إلى داخل الشمال العراقي مرة ثانية. مورس ما يكفي من الضغط وقُدم ما يكفي من الضمانات حتى وافق الأتراك أخيراً. ولكن مع مرافقين أتراك فقط مرة أخرى. قام شاؤول بإيصال نبأ الضوء الأخضر إلى تيم الذي كان

مسروراً. بات قادراً على انتقاء فريقه الخاص المؤلف من عشرة بيده - ستة ضباط ميدانيين، بعض أفضل الناطقين باللغة العربية في الوكالة، ثلاثة ضباط قوات خاصة مجربين واختصاصي اتصالات. كان الفريق زبدة الزبدة. ثلاثة ضباط صف مخضرمون من الوحدة العاشرة للقوات الخاصة من قلعة كارسون جرى فرزهم المرافقة فرقة تيم الملقبة بنايل NILE للذهاب من أجل العمل مع اليوك PUK (الاتحاد الوطني الكردستاني). فريق آخر كُلف بالعمل مع الفصيل الكردي الثاني. الكي. دي. بي. (RDP) الحزب الديمقراطي الكردستاني.

قام شاؤول بتوجيه تيم إلى جمع المعلومات الاستخباراتية وتجنيد العملاء داخل النظام، إلى مساعدة جماعات المعارضة، وإلى الإعداد لعمليات تخريبية ولكن دون البدء بتنفيذها. اجمعوا معلومات استخباراتية عن أسلحة الدمار الشامل، إن أمكن. قيل للفريق اهتدوا إلى نقاط ضعف النظام واضغطوا. إن الحرب قادمة!

طار تيم وقائد الفريق الثاني إلى العاصمة التركية أنقره ومَثُلا أمام هيئة الأركان العامة التركية. نقسم. قال تيم لضباط الأركان العامة، إننا سنفعل كل ما بوسعنا لإبقائكم على اطلاع. سوف تحصلون على كل معلومة استخباراتية نتمكن من التقاطها. شراكتكم كاملة. مئة بالمئة. في هذه المهمة - مهمة جمع المعلومات الاستخباراتية. مهمة مكافحة الإرهاب. لسنا بصدد عملية سرية لتغيير النظام. إنه وقت الرقص النقري. فكر تيم، بوصفه ضابطاً ميدانياً متدرباً على تجنيد العملاء ودفعهم إلى العمل ضد بلدانهم. لم يكن الكذب على الجنرالات يعني شيئاً. اعتقد تيم الطويل، المنتصب، الأمريكي من قمة الرأس إلى أخمص القدم وزميله قائد الفريق الآخر الذي كان قد مُنح لقب مدير العام من قبل نظرائه في إدارة العمليات أنهما كانا قد أقنعا الجنرالات بأنهما جادان وصادقان.

طار تيم وفريقه المؤلف من ١٣ عنصراً، بعد ذلك، إلى ديار بكر الواقعة في

الزاوية الجنوبية الشرقية من تركيا، وهي قاعدة عمليات تركية لمحاربة الأكراد على مسافة نحو خمس ساعات بالسيارة من حدود العراق الشمالية. انحشروا في سيارات لاند كروزر وجيبات تشيروكي، متبوعة بشاحنة محملة بمعظم معداتهم. توجهت القافلة إلى قلعة چوالان، وهي قرية صغيرة كانت مخبأ زعيم البوك (PUK) جلال الطالباني في أثناء الحرب مع العراق. كانت القرية واقعة إلى الشمال من العاصمة الإقليمية المعروفة باسم السليمانية.

كانوا يحملون عشرات الملايين من الدولارات الأمريكية من فئة الـ ١٠٠ دولار مخزنة في حقائب سوداء من طراز بليكان وعلب كرتونية ثقيلة ذات علاّقات كتلك التي تُباع في مخازن السفن. تعين على تيم أن يوقع إقراراً باستلام حصته. في النهاية جرى تسليفه مبلغ ٣٢ مليوناً من الدولارات. وكان عليه أن يقدم إيصالات ووثائق لتغطية المبلغ كله. كان يأمل بأن تكون الظروف البريدية الصفراء المربعة: ٣ بوصات × ٣ بوصات الموقعة من قبل العملاء المستلمين للمبالغ، كافية. حين غابت مركبة تيم عن أنظار الآخرين، مازح هؤلاء بعضهم البعض قائلين ربما توجه إلى الريفييرا (نقطة مشهورة بكازينوهات القمار فيها) . كان تيم قد اكتشف أن مبلغ مليون واحد من الدولارات من فئة الـ ١٠٠ دولار يزن ٤٤ رطلاً ويملأ حقيبة ظهر خفيفة.

في القاعدة بقرية قلعة چوالان أقنع تيم الأتراك بعدم الإقامة معهم. لم يكن مستعداً على الإطلاق لتمكين الأتراك أو أي شخص آخر من الوصول إلى العملاء من العناصر البشرية الذين كان يعقد الآمال على تشغيل أعداد منهم. استقر فريقه في مبنى مطلي بالكلس الأخضر ما لبثوا أن عمّدوه مطلقين عليه اسم «الفستق (الحلبي)».

سارع تيم إلى الاتصال والتشابك مع الرجل المنتمي إلى حلقة البوك الداخلية

الذي كان في نهاية آب/ أغسطس قد أفاد بأن أعضاء جماعة دينية مضطهدة كانوا راغبين في مساعدة وكالة الاستخبارات المركزية والولايات المتحدة. قام هذا الرجل بتقديم تيم إلى أخوين كان أبوهما هو زعيم الجماعة، والمتمتع بمكانة تكاد توازي مكانة البابا عند الكاثوليك. بعد سلسلة من اللقاءات نجح تيم في تجنيد الأخوين، ولكنه بقي في شك من أمرهما. كان الأخوان يريدان التزاماً بأن يكون الرئيس بوش جاداً ومستعداً لإرسال الجيش الأمريكي للإطاحة بصدام. «يقرر جورج بوش ألا يفعل هذا»، قال أحد الأخوين «فنبقى نحن هناك وحدنا ويتعرض جميع أقاربنا للقتل ومعهم جميع أتباعنا. إذا سُمعت كلمة واحدة عن أننا نساعدكم فإن جميع مؤيدينا سيُذبحون». لم يكونوا مجتمع تقيه قائماً على الكتمان، وقوى صدام الأمنية كانت تعرفهم وتعرف حركاتهم وتتعقبها.

قال تيم: «أؤكد لكما بأنني سأدعمكما، سأذهب إلى القمر من أجلكما ولكن عليكما أن تجلبا لي ضباط عاملين من الجيش العراقي وعندئذ أقرر ما إذا كنتما صادقين أم لا.» كان لا بد من روز الصدق والإخلاص بالملموس ومعاملتهما بالمثل. «سأقرر ما إذا كان يتعين علينا أن ندعمكما أم لا.»

«أوكي» قال الأخوان موافقين. ذات يوم في الساعة الثانية من بعد منتصف الليل جاءا مصطحبين رجلاً كان قد هُرب إلى إقليم اليوك PUK لمقابلة تيم. كان الرجل برتبة بريغادير جنرال. رئيس أركان طيران جيش عراقي في إحدى القواعد الجوية الرئيسية. قام تيم وضابط ميدان آخر باستجواب الجنرال لمدة ساعتين أو ثلاث في قلب الليل قبل إعادة إخراجه بسرعة من المنطقة الكردية. لم يعرف شيئاً عن الحوامات ولكنهما سألاه عن قطع الغيار، الواقع، المزاج، الجاهزية، الوقود، التدريب، الاتصالات، وأشياء أخرى، وسجلا جميع الأجوبة وأرسلاها إلى مقر قيادة وكالة الاستخبارات المركزية حيث كان يمكن اختبار مدى مطابقتها للواقع.

بعد سؤال حساس، نظر الجنرال إلى الأخ الأكبر وسأله: «هل يتعين علي أن أبوح بهذا؟» فأمره الأخ: «قل لهما الآن!»

علق تيم: «ستسير الأمرو سيراً حسناً. اليس كذلك؟»

بعد نحو ثلاث ساعات قال الأخوان إن عليهما أن يعيدا الجنرال تهريباً إلى منشأته القريبة من بغداد.

«أوكي» قال تيم «غير أنني لم أقتنع بعد بالفعل. لنر المزيد!»

بعد عدد من الليالي، جاء الأخوان مصطحبين رئيس بطارية مضادة للطيران من صواريخ رولاند فرنسية الصنع كان يعمل في إحدى وحدات الحرس الجمهوري. تحت إلحاح الأخوين، تحدث عن توزيع القوة، أدلى بأسماء الضباط وبمعلومات خاصة أخرى.

لم يكن تيم مصدقاً. من قبل ربما كان أفضل مصادر وكالة الاستخبارات المركزية لاجئاً إلى السفارة الأمريكية في أحد البلدان الأمريكية اللاتينية قال إن له عماً أو خالاً يعمل جنرالاً في الجيش وهو من الساخطين، إن الاتصال المباشر بضباط عاملين كان أمراً غير مسبوق على نحو شبه مطلق، كان الأخوان يهربان الضباط تحت السجاجيد في شاحنات عابرة للصحراء ومتسلقة للجبال ومعابرها. قالا إنهما لن يكونا قادرين على معرفة الآتي لأنهما كانا قد أرسلا توجيهاً لأعضاء موثوقين من الجماعة الدينية طلبا فيه إيفاد ضباط عاملين من الجيش. ولم يكن الضباط يبلغون بما كانوا يفعلونه بالضبط إلى حين وصولهم وتعرضهم للاستجواب من قبل تيم وفريقه.

ثم ما لبث الأخوان أن جاءا مصطحبين ضابطاً عراقياً كان قد نفذ خططاً حربية مؤلفة من ١٠٣ صفحات لصالح وحدات الحرس الجمهوري إلى الشمال من

بغداد . قام الضابط بوصف لعبة حرب سرية بقيادة قُصي، نجل صدام. كانت الخطة تبين أماكن انتشار الوحدات في حال التعرض لغزو القوات المظلية الأمريكية.

كانت حياة باردة، وضيعة، وقذرة بالنسبة إلى الفريق. غير أن الأكراد والعراقيين كانوا شديدي الاهتمام بالمظاهر مما جعل تيم يناضل خارجاً من فراشه لعقد الاجتماعات في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، لافاً جسده بعباءة فضفاضة فوق ملابسه الداخلية الطويلة. ظل حليق الذقن، ولم يترك لحيته تطول، غير أن القذارة كانت تملأ المكان كما أن حذاءه كان مغلفاً بطبقة سميكة من الوحل.

لم يطلب الأخوان وأبوهما، البابا، مالاً مقابل كل جلسة من جلسات الاستجواب، ولكنهم كانوا يريدون الحصول على مركبات ومبالغ كبيرة من المال كل شهر. رأى تيم انهم أضفوا ثوباً جديداً على الجشع.

من مقر القيادة، قال شاؤول إن المال لم يكن ليشكل عائقاً. «كن مطمئناً إلى أنك قادر على مواصلة تشجيع هذا التدفق وعلى ضمان إخراج هؤلاء الناس من هناك. يمكنك أن تطلب منهم ما تريده لتأمين تعاونهم المستمر.»

وافق تيم مبدئياً على أن يدفع للأخوين وأبيهما ١٣٥,٠٠٠ دولار في الشهر. ومع أنهم ظلو يضغطون طلباً للمزيد من المال ويرفعون من رهاناتهم، سألهم تيم: «ما لذي تريدونه بحق السماء؟ ما هو سقفكم؟ سقف طلباتكم؟»

«مقعد على الطاولة حين يتم تشكيل حكومة ما بعد صدام الجديدة.» ذلك هو ما كانوا يريدونه كما أفصحوا عما بداخلهم أخيراً.

«سوف تحصلون على مقعد كهذا»، وعد تيم «وماذا أيضاً؟ وهل عندكم أناس آخرون؟»

قدم الأخوان قائمة أسماء ومناصب ارسلها تيم برقياً إلى شاؤول في وكالة

الاستخبارات المركزية. أصيب شاؤول الجالس في مكتبه الكائن على الطبقة السادسة بإدارة العمليات بالذهول حين استعرض القائمة. لم يبق الأمر عند ورود أسماء المزيد والمزيد من شاغلي المناصب العسكرية المهمة في الجيش، في الحرس الجمهوري، وأماكن أخرى، بل وقد زعمت الجماعة أن لديها أشخاصاً ومناصرين في وحدات فدائيي صدام، تلك الجماعة شبه العسكرية المؤلفة من الأوغاد بزعامة نجل صدام الأكبر عُدي، وفي جهاز الاستخبارات العراقية والتنظيم الأمني الخاص - جميعاً في قلب الجهاز الذي كان يجعل نظام صدام ممكناً، بل ومحصناً حتى الآن.

«يا للشيطان الرجيم!» غمغم شاؤول. «لو ألقينا بـ ٥٠ بالمئة مما قيل في حاوية القمامة، فإن ما يبقى عندنا هو منجم ذهب حقيقي.»

20

ثمة كانت عبارة تحذير صغيرة ولكنها شديدة الغرابة في زاوية الصورة التلفزيونية على الشاشة: سري للغاية.

كان الرجل الجالس إلى الطاولة في الاستوديو يوم ١٨ تشرين الأول/ اكتوبر. أمام مايكروفون عتيق على طريقة لاري كنغ، قصير القامة. قطع شوطاً ملحوظاً على طريق الصَّلَع، برأس صخم ونظارات مؤطرة بإطار عريض- بعيد بالتأكيد كل البعد عن القالب المألوف لإجراء حديث تلفزيوني أو عسكري برتبة جنرال. إلا أنه كان مزيناً بثلاث نجوم، أي رتبة لفتنانت جنرال، وكان يتحدث بصوت ملحاح، عالي النبرة، بدا راجح العقل من جهة وواثقاً من جهة أخرى. كانت لافتة كبيرة منشورة خلفه تحمل عبارة «حديث مع الان. اس. اي. NSA.» وهذه الأحرف الأولى تشير إلى وكالة الأمن القومي National Security Agency. الحرم الداخلي للأسرار الاستخباراتية. التي تتولى اعتراض والتقاط الاتصالات في الخارج مع الحرص على حماية الرموز الأمريكية وفك نظيرتها الأجنبية.

تقوم وكالة الإن. إس. اي. NSA هذه، ولعلها الذراع الأكثر سرية والأفضل تمويلاً في جهاز التجسس الأمريكي العملاق- إذ تبلغ حصتها نحو ٦ بلايين من كتلة البلايين الـ ٣٠ من الدولارات الأمريكية التي هي الميزانية السنوية الاجمالية المخصصة لأجهزة الاستخبارات الأمريكية - تقوم هذه الوكالة باستهداف الهواتف، الراديوهات، الكمبيوترات، المبادلات المصرفية، وجل الالكترونات (الجزيئات) المتحركة. وغرض الوكالة هو التنصت إلى أكثر الاتصالات أهمية في الخارج، دون

علم أولئك الذين يستخدمون موجات الأثير، خطوط الهاتف، محطات بث المايكروويف، الأقمار الصناعية، الكوابل الممدودة في قاع البحار، شبكات الكمبيوتر، أو أي وسيلة أو طريقة اتصال أخرى. يُعرف هذا كله باسم تحري الرموز (signals intelligence) المختصر إلى سيغنْتْ SIGINT في عالم الجاسوسية.

مع أنها غير معروفة في العالم الخارجي، فإن لوكالة الأمن القومي (NSA) برنامجها التلفزيوني، حديثها السري الخاص على الشاشات التلفزيونية تحت عنوان «توك إن. إس. اي. (Talk NSA)». وهو برنامج يُبث عبر دارة تلفزيونية مُغْلَقة سرية للغاية موجه إلى نحو ٣٢,٠٠٠ من موظفي الوكالة دون غيرهم.

كان المتحدث في ذلك اليوم اللفتانت جنرال الجوي مايكل في. هايدن Michael V.Hayden مدير وكالة الأمن القومي (NSA)، الذي كان قد أمضى ٣٢ سنة ضابط استخبارات في أوربا، آسيا، وعبر المحيط الهادي. تعرضت ساحات قتال السيغنت (SIGINT) للتغيير مع التكنولوجيا الحديثة، كما بدأ يشرح أمام الكاميرا. إنها الآن شبكة الانترنت والهواتف الخليوية المستعملة من قبل الجميع من أجهزة الاستخبارات الأجنبية إلى تجار المخدرات والإرهابيين.

راح الجنرال يتساءل عن مدى قدرته على أن يكشف بشكل سليم لجميع الـ٣٢,٠٠٠ عنصر أسرار عمليات الإبهار الشديد الدالة على قدرة الوكالة على تعقب الناس. بقيت الوكالة مقطعة إلى أقسام منفصلة ولم يكن يتسرب إلا القليل جداً من الأسرار إلى ما بعد وحدات أو فروع صغيرة. واصفاً نوعاً من المزاوجة بين النظريات الرياضية، علم الفيزياء، فن التصغير، الكمبيوترات ذوات السرعة الفائقة، عبقرية اللغة، والجرأة، قدم الجنرال عدداً من الأمثلة عن أحدث الفنون والتكنولوجيات.

ملتفتاً إلى الحرب المحتملة مع العراق. كان هايدن قد قرر مخاطبة قوة العمل

عنده، قائلاً شيئاً يتعذر إعلانه على الملأ. ومما قاله الجنرال: «أي وكالة متخصصة بتحري الرموز لا تستطيع أن تنتظر القرار السياسي.» ومع أن قراراً رسمياً بالذهاب إلى الحرب مع العراق لم يكن قد صدر بعد، فإن غرائزه وخبراته كلها كانت توحي إليه بأن الحرب قادمة. تعين عليه تحريك الموارد. لم يكن قادراً على الانتظار إلى أن يبادر الرئيس بوش إلى اتخاذ القرار. ثمة أشياء كثيرة جداً يجب أن تُنجز. لم يكن البقاء في حالة من السلبية أمراً مقبولاً. تعين عليه أن يُعد الوكالة، وهذا بالذات ما كان دائباً على القيام به منذ أشهر. انطلاقاً من طبيعة الطقس في العراق وضرورة قيام أفراد القوات الأمريكية بارتداء كمامات واقية من السموم الكيميائية قال هايدن: «لا تستطيع أن تشعل حرباً في العراق بعد شهر آذار/مارس» بمعنى أن الفترة المتاحة أقل من ستة أشهر. «لابد لك من أن تفعل ذلك في كانون الثاني/ يناير، شباط/ فبراير، أو آذار/ مارس.»

لو تسرب تصريح الجنرال إلى وسائل الإعلام لأحدث قدراً كبيراً من الإثارة والحساسية. غير أنه، كغيره من جل أسرار الوكالة، بقي مكتوماً ولم يتسرب منه شيء.

◆ ◆ ◆

كان هايدن شديد الحرص على الا يُباغَت وهو ناقص الجاهزية كما حصل قبل ٩/١١. من جوانب ذات أهمية، كان هذا عاماً بالغ السوء بالنسبة إلى وكالة الأمن القومي (NSA). ثمة كان نوع من التوقع السائد في الولايات المتحدة، وهو توقع محرض من وسائل الإعلام، من الكونغرس، بل وحتى من ثقافة التلفزيون والسينما، يشي بأن من شأن تفوق البلد على صعيد التكنولوجيا المتقدمة العالية وحرصه على التوظيف في أجهزته الاستخباراتية أن يوفروا إنذاراً حول أي هجوم، حتى لو كان هذا الهجوم ضربة إرهابية مثل ضربة ٩/١١.

قبل يوم واحد من ظهوره على شاشة الدارة المغلقة. كان هايدن قد زود الكونغرس والجمهور بكشف حصيف عن واقع الحال في شهادة أدلى بها أمام لجان الكونغرس المشتركة حول وضع الاستخبارات قبل ٩/١١.

قال الجنرال: «من المحزن أن وكالة الأمن القومي (NSA) لم تتلق أي إشارة رمزية، أي إشارة سيغنت (SIGINT) موحية بأن القاعدة كانت عاكفة، بالتحديد، على استهداف نيويورك وواشنطن، العاصمة، أو حتى على التخطيط لمهاجمة التراب الأمريكي حقاً، لم تكن الوكالة، قبل الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، تعلم بوجود أي من المهاجمين في الولايات المتحدة.»

وبعد معاينة أكوام الملفات والمخزونات الكمبيوترية تبين أن الوكالة كانت قد اكتشفت رسالتين باللغة الأجنبية ملتقطتين في ١٠ أيلول/ سبتمبر، ٢٠٠١، قال فيهما إرهابيون مشبوهون: «المباراة موشكة على البدء» و «غداً ساعة الصفر.»

هاتان الرسالتان لم تُترجما حتى يوم ١٢ أيلول/ سبتمبر. غير أن «هذه المعلومة لم تكن» على دراميتها المثيرة لدى النظر إليها استعادياً، برأي هايدن في شهادته أمام لجان الكونغرس المشتركة «تشي تحديداً باحتمال حدوث هجوم في ذلك اليوم. لم تتضمن أية تفاصيل عن زمن، مكان، أو طبيعة ما يمكن أن يحصل. كما لم تتضمن أي إشارة إلى إمكانية استخدام الطائرات كأسلحة.» ولاحظ الجنرال أيضاً أن ما يزيد على ٣٠ إنذاراً أو بياناً سرياً قد التُقطت في الأشهر السابقة على ٩/١١ ولم تكن متبوعة بأي هجوم إرهابي.

أفاد هايدن في شهادته بأن حفنة العاملين في فريق عمل بن لادن في وحدة مكافحة الإرهاب في الوكالة «انسحقت عاطفياً» يوم ٩/١١. لم يقل على الملأ إنهم شعروا بأنهم كانوا قد خذلوا الأمة. وربما غرقوا في بحر من الدموع. كذلك لم يقل

إن لديه الآن عشرة أضعاف العدد من العاملين في الوكالة في وحدة بن لادن مقارنة بالعدد الذي كان قبل الهجمات.

باتت الوكالة مجهزة بما يمكّنها من توفير الإنذار المبكر. فمركز عمليات الأمن القومي (الان- إس. أو. سي. NSOC) تعمل بطاقتها الكاملة ٢٤ ساعة في اليوم، سبعة أيام في الأسبوع، بنحو ٣٠ عنصراً. يتمثل غرض المركز الوحيد برصد الرموز الاستخباراتية، السيغنت

SIGINT. من أجل امتلاك القدرة على إصدار رسالة وميضية واخزة وتوجيهها إلى رئيس الجمهورية لتوفير إنذار أو إعلام استخباراتي أساسي في غضون الدقائق العشر اللازمة للمعالجة.

إن الأدلة، ربما حتى الأجوبة، متوافرة في كل مكان عبر ملايين الاتصالات الإلكترونية، على أن وكالة الأمن القومي تقوم بعمليات الاعتراض والالتقاط كل ساعة. من المؤكد أن تفسير جملة الاتصالات الجارية، تصنيفها، وإيصالها ناجزة إلى الرئيس. أو إلى الجيش، أو إلى وكالة الاستخبارات المركزية بغية تمكين هذه الأطراف من التحرك وفقاً لها. مهمة بالغة الصعوبة وشديدة الإرباك.

ظل هايدن دائباً على التهيؤ للتعامل مع موضوع العراق خلال الجزء الأكبر من السنة. لم يكن الرجل من المهتمين بالكسب السهل. كان قد تلقى الإنذار الأول عبر خطاب محور الشر الذي ألقاه الرئيس في وقت سابق من العام. كان هايدن قد عمل، وهو برتبة كولونيل، في جهاز مجلس الأمن القومي NSC في عهد بوش الأب، وكان قد ساهم في كتابة الخطب الرئاسية. كان يعلم أن الخطب، التي كانت صياغات أولية أو مسودات لها تُوزع على الوكالات والأجهزة المختلفة، كانت إحدى طرق اختزال التفاصيل وبلوغ الإجماع. كان هايدن يصغي إليها ويقرؤها بكثير من الأناة والتنبه. فالسياسة كانت تصاغ عبر الخطب، وبالنسبة إلى شخص مثل جورج

دبليو. بوش، معروف بالصراحة، كانت هذه الخطب منطوية على قدر أكبر من الأهمية. رأى هايدن أن إعلان محور للشر كان دليل صراحة غير عادية بل ومنطوياً ربما على معنى الحرب.

وفي كلامه مع مرؤوسيه كان الرجل قد ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ قال: «انطلاقاً من خبرتي الممتدة أكثر من ٣٠ سنة أقول إن حُكمي هو أنني لم يسبق لي أن رأيت وضعاً مماثلاً لم يتمخض عن حرب. إننا ذاهبون إلى الحرب.»

في ٢١ تموز/ يوليو كلف هايدن وكالة الأمن القومي (NSA) بإجراء «مناورة حجارة» عبارة عسكرية قديمة كانت تُستخدم حين كانت عملية التخطيط قائمة على تحريك كتل حجرية على الخريطة باعتبارها تشكيلات قوات متنقلة. قام بجمع جميع منتجي الرموز الاستخباراتية المتولين إدارة المستمعين وطرح الأسئلة حول أسلوب التعامل مع العراق بوصفه هدفاً في زمن الحرب. كانت تلك نظرة فنية وتقنية جداً إلى العراق مع أكوام من الخرائط وعليها أهداف اتصالاتية. دون إهمال مطابقتها مع قدرات الاعتراض، مناهجه، وتجهيزاته، المتدرجة بين أقمار السيغنت SIGINT الصناعية، وأدوات الاستشعار عن بعد المرشحة لأن تتثبَّت خلسة على حدود البلد أو في داخله. كان سيحصل على قائمة أهداف حربية بمئات النسخ - بمعنى أن الوكالة لم تكن ستقتصر على اعتراض والتقاط اتصالات القيادات المدنية والعسكرية العراقية العليا، بل كانت ستغوص عميقاً لسبر أغوار سلسلة طويلة من الوحدات العسكرية، الاستخباراتية، والأمنية الأصغر.

أصدر هايدن توجيهاً إلى جهاز العاملين في وكالة الأمن القومي طالبهم فيه بإعداد خارطة ذات بقع ضوئية لنوعية رموز السيغنت

SIGINT على الأصناف المتباينة من الأهداف. كانت المصابيح الخضراء تعني الجودة، والصفراء الاعتدال، والحمراء التواضع. ما الذي كان الجيش الأمريكي

يفعله في العقد الأخير؟ العين الساهرة في الشمال ونظيرتها في الجنوب. وبالتالي فقد كانت ثمة رموز سيغنت

SIGINT خضراء على العمليات الجوية العراقية، على الدفاع الجوي، وعلى مراكز القيادة والتحكم الجويين. كان اللون الأصفر، ولو لم يكن فاقماً، يشير إلى الحرس الجمهوري والجيش النظامي العراقي. أما الأضواء الدالة على صدام و القيادة السياسية فقد كانت حمراء. قرمزية أيضاً كانت تلك الرامزة إلى تنظيم الأمن الخاص والحرس الجمهوري الخاص.

الخلاصة: لقد كانت الرسائل الاستخباراتية (السيغنت SIGINT) الخارجة من العراق غير ذات شأن على صعيدي الكيف والكم.

في شهادته أمام الكونغرس، كان هايدن قد قال إنه كان قد أخفق في توجيه ٢٠٠ مليون دولار من ميزانية وكالة الأمن القومي إلى «عصر رموز جديد» لأن ذلك كان سيؤدي إلى تدهور حال التغطية في مجالات أخرى. لن يتكرر ذلك على الإطلاق. على مسؤوليته الشخصية كان قد أمر بإعادة تخصيص ٣٠٠ إلى ٤٠٠ مليون دلار من موازنة الوكالة لتمويل عمليات وأهداف «عراقية فريدة.» مئات من العناصر كانوا أيضاً سيعاد توزيعهم وتكليفهم بمهمات في إطار عمليات عراقية. إنها إحدى صلاحيات مدير وكالة الأمن القومي. كان لدى العراق أسلوب تشفير ناجح إلى درجة معقولة بالنسبة إلى بعض داراته، وهو أسلوب التشفير السوفييتي القديم الذي كانت الوكالة تعرفه جيداً وتستطيع تفكيك رموزه دون صعوبة. كان هايدن يدرك أن تحري الرموز (السيغنت SIGINT) لم يتحسن مع مرور الزمن بل صار أسوأ، وما لبث أن بات - آخر المطاف - عديم الجدوى. كانت القيمة تكمن في المباشرة، وكان عازماً على ضمان تزويد الناس به وهم على أرض المعركة.

قرر أنه كان للمرة الأولى سيفتح ما أطلق عليه اسم «السراديب القومية» - عنصر تحري الرموز الأشد حساسة - مع القادة الميدانيين. كان من شأن متطوع مخضرم في سيارته الهمفي على أرض المعركة أن يصبح متصلاً بمنظومة سيغنت SIGINT كوكبية عبر قمر صناعي سري للغاية. كان هايدن عازماً على تغطية الجيش العراقي كله بما يمكّن الرجل القابع في الهمفي من الاطلاع المباشر على أماكن وجود العراقيين على نحو أفضل منهم أنفسهم. كان يريد استحداث غرفة عمليات كمبيوترية بالغة السرية تكون قادرة على شبك مشغلي أجهزة وكالة الأمن القومي، جمهور المستمعين، غيرهم من كوادر الأجهزة الاستخباراتية، والوحدات العسكرية، شبكاً مباشراً. أطلق على الغرفة اسم زيركون تشات (Zircon Chat) (غرفة دردشات الزيركون). كان من شأن الشبكة أن تكون قادر ة على التعامل مع ما يصل إلى ٢٠٠٠ شخص موصولين مباشرة. بما يجعل الحديث الملتقط لعقيد عراقي مثلاً، مكشوفاً للجيش العراقي في ساحة المعركة. من الممكن استخدام المعلومة لتعقب الوحدة العراقية أو لمهاجمة العقيد.

كانت مرشحة لأن تكون حرباً قائمة على أساس المعرفة. وكان من شأن ذلك أن يجعل الاستخبارات اكثر أهمية من اي وقت مضى. بقي هايدن مدركاً لحقيقة أن الأمر كان يلقي عبئاً ثقيلاً جداً على مرؤوسيه.

كانت نظرة هايدن إلى العالم متشائمة. لم يكن يؤمن بإمكانية الحفاظ على الولايات المتحدة بوصفها دولة مجتمع حر كما عرفوها عبر الاكتفاء بموقف الدفاع المتحفظ والمحاذر كل الوقت. كان لابد للأمريكيين من الانتقال إلى مواقع الهجوم. كان هايدن قد تلقى تعليماً كاثوليكياً في شبابه وكان مهتماً بدراسة العقائد الكنسية. ووفقاً للمبادئ المستمدة من تعليمه. وخصوصاً من دراسته للقديس توما الاكويني St.Thomas Aquinas. والقديس أوغسطين St.Augustine، وهما اثنان من كبار

فلاسفة مفهوم «الحرب العادلة»، فإن الولايات المتحدة كانت تستطيع أن تضرب عسكرياً تبعاً لما أطلق عليه اسم توجيه «الرد النسبي القائم على الأدلة المتوفرة في اللحظة المعنية.» كان لابد للأهداف من أن تكون ذات أوزان تسوغ الفقدان المحتمل لأرواح بريئة.

هنا بالذات كان تحري الرموز، السيغنت SIGINT. قد تحسن حسب تقدير هايدن. فقبل ما لا يزيد على ١٥ سنة كانت الثقة بمثل هذا التحري وجعلها أساس العمل والتحرك من شأنها أن تبقى ضرباً من المراهنة على الإيمان بالمجهول. أما الآن فلديه خبراء لغة، علماء لسانيات - جيش من الراصدين المزودين بالسماعات - دائبون على تعقب أهداف معينة أشهراً، بل سنوات، تصل أحياناً إلى خمسة أعوام. كان المتصنت يوشك أن يصبح واحداً من أفراد العائلة. بات قادراً على تمييز الأصوات مباشرة وقراءة المعنى، اللحن، الحركات، العواطف، مجمل العملية الاستقلابية، فوراً؛ لذا لن يقف الأمر عند واقعية الكلمات الحرفية. بل من شأنه أن يكون مصحوباً بالتحليل وصولاً إلى المعنى الحقيقي بل والنوايا في كثير من الأحيان.

قد يقول أحد اللغويين: «لم يسبق لي أن سمعت العقيد تكريتي وهو على هذه الدرجة من الرعب... أن يتفكك... ذلك هو ما ألمسه حاصلاً.»

لم تكن اللهجة العراقية سوى واحدة من اللهجات العربية السبع، مما دفعه إلى تنظيم دورات قصيرة لمدد تتراوح بين أربعة وستة أسابيع لعدد كبير من لغويي وكالة الأمن القومي.

كان هايدن قد استعرض محصلة الوكالة الجوهرية من العمل في العراق بشأن أسلحة الدمار الشامل لدى صدام، جملة الأدلة المتراكمة ذات العلاقة بالبرامج وعمليات الإخفاء. استنتج هايدن أنها: «كثيرة ولكنها استدلالية أو استنتاجية.» لعل

التباين المنظوري الجامع لكل نقاط البيان هو الاستنتاج القائل إن صداماً كان متوفراً على برنامج أسلحة دمار شامل. غير أن ذلك لم يكن يقيناً . بقيت مناقشة التقويم الاستخباراتي القومي الأخير لأسلحة الدمار الشامل العراقية مفتقرة إلى النقطة الحاسمة المتمثلة بأن هذه لم تكن معلومات يقينية مطلقة ومؤكدة بل ظلت تخمينات وتقديرات مثقلة بالأحكام والتقويمات.



21

أدرك باول أنه – ومعه الرئيس وربما باقي العالم – كانوا على طريق لا بد لها من أن تصل إلى مفترق. كان من شأن أحد الاتجاهين أن يسير نحو قرار دولي جديد، عمليات تفتيش عن أسلحة، ولا حرب. وكان من شأن الاتجاه الآخر أن يفضي إلى حرب. بدا الوضع كما لو كان على هذه الدرجة من البساطة تقريباً.

كان تفاوض الوزير الأول بعد خطاب بوش في الأمم المتحدة بتاريخ ١٢ أيلول/سبتمبر مع زملائه في مجلس الأمن القومي. جرى نوع من النقاش حول السعي لاستصدار قرارات ليس فقط حول عمليات تفتيش عن أسلحة دمار شامل، بل وحول ارتباطات صدام مع الإرهاب ودعمه له – كما عن سجله المخزي والأسود على صعيد حقوق الإنسان. كان من الواضح أن قلة ضئيلة من البلدان الأخرى كانت ستؤيد مثل هذا المسعى. فقضية الإرهاب بدت ضعيفة أو غير قابلة للإثبات، وقضية العمل على تغيير النظام لأن صداماً دكتاتور أو هو حاكم مستبد على نحو استثنائي، لم تكونا مرشحتين لاحتلال مرتبة ذات شأن على سلم الأولويات. كان من شأن القضيتين، كلتيهما، أن تتعرضا لنوع من السخرية الصامتة في الأمم المتحدة المتمتعة بقسطها الوافر من البلدان ذوات الأنظمة القائمة على حكم الفرد الواحد. كانت مسألة أسلحة الدمار الشامل هي المسألة الوحيدة المتمتعة بأي قدر من المصداقية، الواقفة على أي «ساقين» حسب تعبير رايس؛ لأن ما لا يقل عن دزّينة كاملة من القرارات ذات العلاقة بأسلحة الدمار الشامل العراقية كانت قد أقرت حتى اللحظة وتعرضت لتجاهل صدام إلى هذا الحد أو ذاك.

لذا فإن النقاش الجدي تركز على ما يمكن المطالبة بإضافته إلى بنود القرار الجديد الخاص بالتفتيش عن الأسلحة. شن تشيني ورمسفلد حملة - ناجحة في البداية - هادفة إلى إضافة مطالب متشددة. كانت الصياغة الأقوى تدعو إلى خلق مناطق حظر جوي بل وبري مفروضة أمريكياً أو دولياً على امتداد الطرق التي كان مفتشو الأمم المتحدة سيسافرون عليها في العراق. كان من شأن ذلك أن يضاف إلى منطقتي الحظر الجوي المفروضتين بعمليتي العين الساهرة الشمالية ونظيرتها الجنوبية. أضف إلى ذلك أن المشروع كان سيعطي الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن صلاحية إيفاد مفتشيهم الخاصين جنباً إلى جنب مع فريق الأمم المتحدة. وعلاوة، كان من شأن مشروع القرار أن يلغي جميع الاستثناءات السابقة من التفتيش التي كانت شاملة لمجمعات صدام الرئاسية والمواقع الحساسة المزعومة.

كان من شأن ضبط صدام «في حالة انتهاك مادي» - لغة الأمم المتحدة للدلالة على الانتهاك الجدي والملموس- لأي جزء من أجزاء القرار الجديد أن يفضي إلى التفويض الآلي باستخدام «جميع الوسائل الضرورية» من جانب الولايات المتحدة وأطراف أخرى لبلوغ هدف الإذعان لما هو مطلوب في بنود هذا القرار. وعبارة «جميع الوسائل الضرورية» ليست في قاموس الأمم المتحدة سوى الحرب، وقد كانت هي اللغة الفضفاضة في قرار الأمم المتحدة الذي أجاز استخدام القوة في حرب الخليج عام ١٩٩١. كان هذا كله سيُنجز في قرار واحد.

تلك المقاربة أطلق عليها باول اسم مقاربة «الحد الأقصى.» كان تشيني ورمسفلد يأملان بأن يعلق بضعة بنود حين يقوم باول بتقديم المشروع إلى مجلس الأمن الدولي. في لحظاته الأكثر تشاؤماً كان باول يعتقد بأنه متشدد أكثر مما ينبغي وقد صُمم لضمان تعريضه للإخفاق. وعندما قدم الصياغة الأولى، عارضاً إياها على أعضاء مجلس الأمن الأربعة عشر، لم يبد اي منهم تأييده لها. حتى

البريطانيين والإسبان والرومان - أفضل حلفاء الولايات المتحدة لم يكونوا مؤيدين. أدرك پاول أنه لو جرى التصويت لجاءت النتيجة ١ مقابل ١٤.

قام پاول بعرض الشكاوى على مجلس الأمن القومي. ففي ٢٣ تشرين الأول / أكتوبر، وزع مسوَّدة جديدة كان قد وافق عليها الرئيس. جاءت متساهلة في آلية الضغط على الزناد، لم تعد ثمة صيغة تفويض بـ «جميع الأساليب الضرورية» - الحرب - جراء إقدام العراق على الانتهاك. كانت الانتهاكات ستُعرض، بدلاً من ذلك، ثانية على مجلس الأمن لـ «دراسة» الوضع - بعبارة كانت غامضة.

للفوز بقرار جديد وفقاً لأنظمة الأمم المتحدة، تعين على پاول أن يفوز بأصوات ٩ من أعضاء مجلس الأمن الـ ١٥. وكذلك فإن أياً من الأعضاء الدائمين الآخرين الأربعة في مجلس الأمن - روسيا، الصين، فرنسا، أو بريطانيا- كان قادراً على نقض القرار (إسقاطه باستخدام حق الفيتو). كان لابد لپاول من الحصول على أصواتهم أو إقناعهم بالامتناع عن التصويت. في أي تفاوض مشابه كان بلد واحد يبرز عموماً كما لو كان في الطرف المقابل. ونظراً لأن ألمانيا لم تكن في مجلس الأمن بات على الفور واضحاً لپاول أن الطرف المقابل سيتمثل بفرنسا. فلكل من فرنسا وروسيا والصين كانت ثمة علاقات تجارية وثيقة مع العراق، وكانت قد أعلنت معارضتها لأي تحرك أمريكي أحادي للإطاحة بصدام.

فيما كان پاول دائباً على الاجتماع بنظرائه وإشعال النار بخطوط الهاتف. اكتشف أن وزير الخارجية الفرنسي دومينيك دوفيلپان Dominique de Villepin. وهو دبلوماسي- شاعر ارستقراطي. طويل القامة سبق له أن كان قد كتب سيرة إطرائية لنابليون، كان يحمل أعمق المشاعر المعادية للحرب. بدا وكأن دوفيلپان ورئيسه، رئيس الجمهورية الفرنسي جاك شيراك، أدركا فجأة، ويا للهول! أننا أصبحنا ممسكين بمقبض السوط «الكرباج»، بتفويض من الجميع. كان پاول يعتقد

أن الفرنسيين والروس كانوا متواطئين في الأمر، مع مواظبة فرنسا على مضاعفة معارضتها الصاخبة لمحاولة باول.

أصَرَّ دوفيلبان على عملية ذات مرحلتين. قرار لجولة جديدة من عمليات التفتيش، أولاً. وأي مخالفة أو «انتهاك مادي» يتم اكتشافه من قبل المفتشين يُعْرَض على مجلس الأمن للمناقشة. وبعد ذلك كان لابد من إصدار قرار ثان لإجازة استخدام القوة.

في الوقت نفسه بقي تشيني مصراً على أن يطلب القرار من صدام تقديم «بيان» تفصيلي بعد صدور القرار. كان سيتعين على العراق أن يقدم كشف حساب شامل عن جميع البرامج الخاصة بتطوير الأسلحة الكيميائية، البيولوجية، والنووية. كان صدام سيُمْنَح فترة ٣٠ يوماً للقيام بذلك حسب اقتراح تشيني. صُمم المشروع كما لو كان فخاً لصدام إلى هذا الحد أو ذاك. كان سيزعم عدم امتلاك أسلحة الدمار الشامل، وكان ذلك الكذب سيشكل أساساً للحرب. أو كان صدام سيعترف بامتلاك أسلحة دمار شامل، مثبتاً أنه ظل يكذب على امتداد ١٢ عاماً. وكما قال تشيني فإن «من شأن ذلك أن يكون سبباً كافياً للقول إنه كان يكذب مرة أخرى، لم يصبح نظيفاً، فتهدي إلى انتهاك مادي وتندفع إلى الأمام، هيا!»

رأت رايس والآخرون أنها كانت فكرة ممتازة، وطُلب من باول أن يسوّقها لدى الفرنسيين، الذين ما لبثوا أن وافقوا على تضمين القرار مطالبة ببيان كهذا. غير أن دوفيلبان واصل الإصرار على ضرورة استصدار قرار ثان للتفويض بالحرب.

اعتبر بوش وتشيني ذلك مرفوضاً، كان من شأنه أن يضمن نوعاً من التأخير، فضلاً على أن أي قرار ثان كان من شأن الحصول عليه أن يبقى أصعب من استصدار ما كانوا بصدد التفاوض حوله.

لدفع الفـرنسـيين إلى الكف عن الإصـرار على قـرار ثان، قـرر باول التظاهر بالإقدام على عقد صفقة. باتت الصياغة والصياغة البديلة، وإعادة الصياغة للصياغة البديلة متطايرة في الأجواء. بما أن دوفيلبان كان قد وافق على أن أي بيانات زائفة، غير سليمة في إعلان الأسلحة الجديد من جانب العراق كان سيُعتبر انتهاكاً مادياً، فإن باول دفع باتجاه إضافة لغة واسعة تقول إن إخفاق العراق في أي وقت من الأوقات في «التعاون الكامل مع عملية تطبيق هذا القرار يجب أن يشكل انتهاكاً مادياً إضافياً.» ومع أن هذا كان ينبغي عرضه على مجلس الأمن لـ «التقويم» فإن باول اعتبره كميناً ناجحاً للفرنسيين. كانت الصياغة تعني أن أي شيء بدا بنظرهم خطأ اقترفه صدام كان سيُعتبر انتهاكاً مادياً. وكان من شأن ذلك، حسب قراءة باول، أن يشكل سبباً كافياً لإجازة ترتيب «عواقب وخيمة» اللغة الجديدة الدالة على الفعل.

بات الأمر شديد الضيق وعالي التوتر إلى حد أن الاختلاف الأخير تمحور حول استخدام كلمة واحدة. ظل باول ودوفيلبان يتجادلان طوال ما يقرب من خمسة أيام. وكما يتذكر المشاركون. وتشير السجلات، فإن الموقف الفرنسي قام على القول بأن من شأن إعلان زائف «و» إخفاق عام في التعاون أن يشكل انتهاكاً مادياً. وحرف العطف «و» كان يعني أن صداماً كان ينبغي أن يسقط في اختبارين اثنين. أما مشروع باول فكان يقول إعلان زائف «أو» إخفاق عام في التعاون من شأنه أن يشكل انتهاكاً مادياً.

دونما قناعة راسخة راح باول يحاجج دوفيلبان قائلاً: «ما نريده أفضل لأغراضكم. هلا نظرت إلى هاتين الكلمتين؟! انظر. أرجوك! إنهما متماهيتان تقريباً من حيث المعنى وأستطيع التأكيد على أن صياغتنا تخدمكم أكثر.»

ما كان دوفيلبان ليتزحزح عن موقفه.

◆ ◆ ◆

في الفـاتح من تشـرين الثـاني/ نوفـمبـر. قـام پاول بدعـوة الرجلين اللذين كـانا سيتوليان رئاسـة فـرق التفـتيش عن الأسلحة التابعة للأمم المتحدة إلى مقـابلة بوش وتشـيني. حضـر اللقـاء أيضـاً كل من رايس وولفو فيـتـز. كـان الرجـلان همـا مـحـام ودوبلومـاسـي سـويدي مـرح في الرابعـة والسـبـعين من العـمـر يضع نظارتين مؤطرتين بإطار داكن تغطيان وجهه، يدعى هانس بلكس Hans Blix، ومدير مـصـري الجنسيـة لوكالة الطاقة الذرية الدولية التي تتخذ من فيينا مقراً لها، والتي تتولى التحقيق من الانتشـار النووي، في السـيتن من العمـر، يدعى مـحـمـد البـرادعـي. كانت وجهـة نظر المتشـددين بمن فيهم وولفوفيتز، تقول إن بلكس ضعيف ومعرض للانخداع بصـدام.

قـال بوش: «عليك أن تفهم يا سيـد بلكس أن وراءك قـوة الولايات المتـحدة. وأنا مـسـتـعـد لاسـتـخـدامـهـا من أجل فـرض هذا القـرار.» ثم أضـاف الرئيس: «إن قـرار الذهـاب إلى الحـرب سيكون قـراري أنـا. إياكم أن تشـعـروا بأن من شـأن مـا تقـولونه أن يصنع القرار.»

رد بلكس، الذي كـان قـد تولى إدارة هيئـة تفتيش الأسلحـة العـراقيـة في ٢٠٠٠ وكان من قبل قـد تراس وكالة الطاقة الذرية الدولية طوال ١٧ عـامـاً، قائلاً إنه كـان يريد عمليات تفـتيش صارمة، وكان يعرف ألاعيب صدام. كمـا كان مصـمـمـاً هـذه المرة على الوصول إلى القاع.

بدا بوش مقتنعاً بعض الشـيء، رغم بقاء تشـيني متخوفاً من أن يميل بلكس، وهو الآتي من السـويد المسالمة تقليدياً، إلى عدم التحلي بما يكفي من الحزم والتشـدد.

◆ ◆ ◆

بدأ پاول يتـنـازل حـول القـرار عن أمـور صـغـيـرة. كـامنة في الأعـمـاق البـعـيـدة للمـسـوّدة. أمور اعـتـبـرهـا غيـر ذات أهـمـيـة. بات مـحـصـوراً في زاويـة ضيـقـة وكـان

يستطيع أن يرى أن الرئيس بدا متضايقاً. قال لبوش ومجلس الأمن القومي إن «هذا لا يغير شيئاً» دعوني أتول حل الأمر «ملمِّحاً إلى أنه قادر على إنجاز المهمة إذا ما تُرك وحده.

كثيراً ما تبقى لغة الأمم المتحدة شديدة الغموض، بالغة التورم، وافرة الصعوبة، وكثيرة التكرار، بما يتيح، على المستوى العملي، لكل بلد ذي سيادة هامشاً لتفسير القرارات على النحو الذي يروق له. أدرك پاول أن ما كان مهماً حقاً كان هو وضع العنوان في صيغة معينة: تتفق الدول على قرار العراق. قليلون كانوا سيقرؤون نص القرار الفعلي وسيفهمونه. ما كان يهم هو الفعل أو غياب الفعل الذي يقرره كل بلد. غير أن ذلك كان بعد البدء بالسير في الطريق.

فوجئ پاول بالتشدد الفرنسي. حتى في يوم السبت الذي كان يوم زفاف ابنته. وقبل عشرين دقيقة من زفها على امتداد ممشى الكنيسة، اضطر إلى الاشتباك مع دوفيلپان عبر اتصال هاتفي.

غالباً ما يكون فن التفاوض الناجح كامناً في الاهتداء إلى مرحلة ختامية للعبة حيث يتم اختزالها بقضية واحدة. هي في هذه الحالة مسألة الاختيار بين «و» و «أو» - فالاستسلام. تحدث پاول مع رايس وقال لها إنه مؤمن بقدرته على الحصول على ١٤ صوتاً من أصوات مجلس الأمن الـ ١٥، بل ربما حتى على ١٥ صوتاً إذا استطاع أن يتنازل للفرنسيين بشأن حرف العطف «و.» أضاف پاول أن اللغة لن تحدث أي تغيير ذي شأن، غير أن من شأن الإجماع أو شبه الإجماع أن يجعل الأمر انتصاراً.

أجرت رايس سيلاً من الاتصالات ذات اليمين وذات الشمال وتحدثت مع كل من كبار المسؤولين والرئيس. بقي الجميع مصرين على التمسك بحرف العطف «أو» ليبقى إعلان صدام حول أسلحة الدمار الشامل كل ما سيكونون بحاجة إليه للمبادرة إلى الحرب.

في النهاية قالت رايس لا يستحق الموضوع كل هذا الجدل. مهما كانت لغة القرار فإنهم سيظلون في مجلس الأمن دائبين على مواصلة الجدل حول إعلان صدام حول الأسلحة في جميع الأحوال. «دعونا نكف عن التمسك. بالطقوس في هذا!»

بداية كانوا قد توهموا أنهم قادرون على استصدار قرار دولي في غضون بضعة أسابيع. غير أن الأسبوع السابع من المفاوضات المتواصلة قد حل والجميع محبطون ومرهقون. في النهاية بادر الرئيس والآخرون إلى إعطاء مواقفهم، قائلين: «أوكي!» إذا كان باول واثقاً. كان الرئيس مولعاً ولعاً استثنائياً بالحصول على شيء، أي شيء، يمكن أن يحمل عنوان «انتصار.»

في لحظة معينة خلال ليلة ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر أو صباح ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر الباكر تلقى باول أخيراً عبارة «أوكي» نهائية من رايس. سارع باول إلى الاتصال بدوفيلبان الذي كان على متن إحدى الطائرات برفقة شيراك.

«نستطيع يادومينيك، أن نسلّم بحرف العطف (و) ولكن شرط أن يكون هذا حسماً للمسألة. ليس ثمة أي شيء آخر للمناقشة. انتهى الموضوع. لا بد لي من الحصول على موافقتك على الأمر جنباً إلى جنب مع موافقة رئيسك.»

رد دفيلبان قائلاً: «الرئيس جالس هنا معي. سأسأله. أعتقد أنه حصل.»

انتظر باول تشاورهما. أعتقد أن دوفيلبان بدا منفرجاً إلى درجة أن أياً من القرارين كان من شأنه أن يكون مقبولاً.

«نعم» قال دوفيلبان أخيراً. «نعم.»

«رائع» رد باول «إنها لصفقة معك!»

على الفور بادر إلى الاتصال بوزير الخارجية الروسي، إيغور إيفانوف Igor Iva-nov وقال له: «للتو عقدت صفقة مع دومينيك. وحرف العطف سيكون (و).»

رد إيفانوف: «إنه لاختراق كبير، يا للروعة! لابد لي من قطع المكالمة والذهاب لرؤية الرئيس مباشرة.» من الواضح أنه انطلق مسرعاً لإبلاغ فلاديمير بوتن Vladimir Putin.

عاود ايفانوف الاتصال بعد نصف ساعة . وافق بوتن. «إنه رائع! إنه اختراق!»

لا، كان پاول مدركاً لحقيقة أنه لم يكن رائعاً ولا اختراقاً. لم تكن المساومة الشكلية إلا نوعاً من تحرير الجميع من الصنّارة أو المصيدة. ولكن «انتبه يا رجل!» «خذ بالك!» قال بينه وبين نفسه، «لا تنسَ أن المرء يوصل الأمر إلى حيث يستطيع.»

في ٨ تشرين الثاني نوفمبر صوّت ١٥ ممثلاً جالسين حول الطاولة الدائرية المسرحية، بالموافقة على قرار مجلس الأمن الدولي رقم ١٤٤١. كان القرار يقول إن صداماً كان سيواجه «عواقب وخيمة» - وهي العبارة الضبابية التي كان بوش قد سعى إلى إقحامها لتحل محل عبارة «جميع الوسائل الضرورية» - إذا ما واصل الإخلال بالتزاماته المتعلقة بالتجرد من السلاح.

الأيدي كلها ارتفعت. كانت المفاجأة الكبرى هي سورية. لم يتصور پاول قط أن سورية، بوصفها البلد العربي الوحيد في مجلس الأمن في ذلك الوقت، كانت ستصوت بالموافقة على القرار. ومع ذلك فقد تبين أنه لم يكن ثمة أي مودة مفقودة بين السوريين والعراقيين، ومن الواضح أن السوريين لم يكونوا يريدون أن يتعرضوا للعزل. قرئ الموقف على أنه دليل مهم على الاستياء العربي من صدام.

في اتصال هاتفي مع پاول قال بوش: «أحسنت! أحسنت!» وفي وقت لاحق من ذلك اليوم ظهر پاول وحده إلى جانب بوش في الحديقة الوردية حين قام الرئيس بإطرائه على إجادته في «القيادة، في العمل، وفي التصميم.»

كان التصويت بـ ١٥ مقابل صفر تطوراً مذهلاً براي آرميتاج - إجماع على قرار بدا بالغ الصعوبة والتعقيد، بما يشي بقدر غير قليل من الجدية على الصعيد

الدبلوماسي من جانب إدارة بوش، وهي جدية دبلوماسية لم تكن واضحة من قبل.

كان باول يعلم أنه كان قد حقق انتصاراً كبيراً. كان قد نجح في جعل الدبلوماسية قضية ذات شأن. بات كل من هو مضطلع بمسؤوليات عملياتية – الرئيس، باول، وكالة الاستخبارات المركزية، والجيش– متمتعاً بقدر أكبر من الوقت. راح الوزير يتابع عن كثب جملة الاستهدافات والشائعات والقصص الإخبارية السلبية عن دبلوماسيته – ما من يوم كان يمر دون أن يشهد تلفيق شيء ما، حكاية معينة. عن باول، يقال إن باول مخَوْزَق. ثمة حرب بين البنتاغون وباول. وهناك صراع بين تشيني وباول. الدبلوماسية في مأزق!

كان باول يتصور أن من شأن التصويت بـ ١٥ مقابل صفر أن يضع حداً لقصص وهمسات أن باول موشك على الرحيل، تلك القصص والهمسات المتداولة منذ ما يقرب من الشهر.

شعر بأنه نجح في خداع الفرنسيين. فمع أنهم كانوا قد فازوا باللغة، كان هو قد جعلهم يصوِّتون لصالح قرار ينص على ترتب «عواقب وخيمة.» لم ير أن موعد تسديد الثمن قد يأتي.

لأغراضه النهائية الأكبر المتمثلة بتجنب الحرب ربما كان قد حقق، في جميع الأحوال، قدراً غير قليل من النجاح مع استصدار القرار.



فيما بعد تذكر الرئيس بوش أن الأوقات كانت عصيبة، بالغة الصعوبة. كان قد شعر بالقلق إزاء «استراتيجية التفاوض. شعرت كما لو أن الفرنسيين بدؤوا يمسكون بزمام الأمر، يحصلون على قصب السبق. في النهاية حصلنا على قرار عظيم. والفضل يعود إلى كولن.»

تذكر موقفه: «إنني محبط جداً بسيرورة القرار. تجري الحملة في الوقت نفسه.» كانت الانتخابات النصفية في ٥ تشرين الثاني/ نوفمبر. تاريخياً، درجت العادة على أن يخسر الحزب الموجود في السلطة أعداداً من المقاعد في مجلس النواب والشيوخ - وتكون أعداداً لا يستهان بها في الغالب. غير أن الجمهوريين كسبوا مقعدين في مجلس الشيوخ مما أعادهم إلى وضعية الأكثرية، وأضافوا ستة إلى رصيد مقاعدهم في مجلس النواب. تذكر بوش: «نفوز في الانتخابات وننجح في استصدار القرار» غير أنه أقر بأن لديه هدفاً أكثر طموحاً الا وهو «نظام تفتيش بالغ الصرامة والحزم كنا، بلير وأنا، آملين في أن يفضي إلى إحداث انهيار في النظام.»

22

يوم الجمعة، ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر. جاء السفير السعودي الأمير بندر بن سلطان إلى المكتب البيضوي لمقابلة الرئيس. تشيني ورايس أيضاً حضرا اللقاء. كان بندر قد خدم خلال عهود أربعة رؤساء أمريكيين. وقد كان بندر البالغ الـ ٥٣ من العمر سلطة خامسة تقريباً في واشنطن، مضاعفاً النفوذ والثراء السعوديين. بقي مصراً على التعامل المباشر مع الرؤساء ويكاد أن يكون فرداً من أفراد عائلة بوش الأب. وقد ظل محافظاً على حظوته الخاصة في المكتب البيضوي في ظل الرئيس الحالي بوش.

تمثل أحد الأهداف المفتاحية الواردة في المذكرة السرية للغاية «العراق: أهداف، أغراض، واستراتيجية» التي كان الرئيس قد وقعها أخيراً في ٢٩ آب/ أغسطس، بـ «اختزال الخلل في أسواق النفط العالمية إلى الحدود الدنيا.» وبامتلاكهم لأكبر الاحتياطيات النفطية المؤكدة في العالم يبقى السعوديون ركناً من أركان الأسواق النفطية. فهم يستطيعون زيادة أو تقليص الإنتاج بملايين البراميل في اليوم، مزلزلين الأسعار هبوطاً أو صعوداً. تظل أسعار النفط المنخفضة، المستقرة عنصراً أساسياً لتحقيق انعطافة في الاقتصاد الأمريكي الذي كان في حالة ركود، في حين كان من شأن ارتفاع بمعدل ٥ إلى ١٠ دولارات للبرميل الواحد أن يحدث تأثيراً مدمراً.

لم يكن أحد من الأمريكيين الثلاثة في الغرفة، ولا بندر، غافلين عن الدور الذي يضطلع به الاقتصاد في الانتخابات الرئاسية. وهذا كله يضفي على السعوديين قدراً لا يصدق من النفوذ.

قام بندر بتسليم الرئيس رسالة خاصة من ولي العهد السعودي الأمير عبد الله مكتوبة باليد باللغة العربية مرفقاً إياها بترجمة إنجليزية.

«صديقي العزيز جورج بوش: لم تتم بيننا أي اتصالات منذ بعض الوقت. بداية يسعدني أن أهنئك على النتيجة التي حققها الحزب الجمهوري في ظل قيادتك، كما بفضل جهودك العظيمة على طريق بلوغ قرار مجلس أمن متفق عليه. ثمة أشياء كثيرة أرغب أن تتاح لنا فرصة لمناقشتها وجهاً لوجه. غير أنني طلبت من سفيري الذي كان غائباً عن واشنطن منذ بعض الوقت أن يبحث أهمها معك. آمل أن تعاقبه أنت كما عاقبته أنا.» كان بندر قد عانى من وعكة وغاب عن واشنطن أشهراً. «راجياً أن تتقبل أفضل تقديراتي الشخصية وأن تنقل تحياتي أيضاً إلى زوجك اللطيفة كما إلى أبويك العزيزين.»

تنفيذاً للتوجيهات، قال بندر بعد ذلك رسمياً: «منذ عام ١٩٩٤، كنا على اتصال وتماس متواصل معكم على أعلى المستويات فيما يخص ما يجب عمله مع العراق والنظام العراقي. وعلى امتداد هذه الفترة كنا نفتقد الجدية التي كان لابد من إبدائها على صعيد التعاون لصياغة خطة بين الحكومتين للخلاص من صدام من جانبكم.»

في ١٩٩٤ كان الملك فهد قد اقترح على الرئيس كلنتون عملية أمريكية - سعودية مشتركة للإطاحة بصدام، وكان ولي العهد الأمير عبد الله قد اقترح في نيسان/ أبريل ٢٠٠٢ على بوش إنفاق ما يصل إلى مليار واحد من الدولارات الأمريكية على مثل هذه العمليات المشتركة مع وكالة الاستخبارات الأمريكية. «كلما التقينا نفاجأ بالمطالبة من قبل الولايات المتحدة بعرض انطباعاتنا عما يمكن عمله بشأن صدام حسين» قال بندر، ملمّحاً إلى أن الطلبات المتكررة دفعتهم إلى «أن يبدؤوا يشكون بمدى جدية أمريكا حول قضية تغيير النظام.

«الآن، يا سيادة الرئيس، نريد أن نسمع منك مباشرة عن تصميمكم الجدي فيما يخص هذا الموضوع حتى نتمكن في التكيف والتنسيق وصولاً إلى اتخاذ القرار السياسي السليم.» أقر بندر أن اتخاذ قرار بشأن قضية حساسة كهذه أمر بالغ الصعوبة، «ولكننا سنتخذ، آخر المطاف، القرار الصائب القائم على صداقاتنا ومصالحنا.»

مؤكداً هذه النقطة أضاف بندر : «إذا كنتم جادين، فسوف نبادر إلى اتخاذ القرار الصحيح القاضي بتوفير الدعم المناسب.»

«قل لنا الآن ما الذي تريدون أن تفعلوه؟» قرأ بندر. «إذا كنتم مصممين تصميماً جدياً، فإننا لن نتردد في تزويدكم بالمرافق المناسبة التي يمكن لمسؤولِّينا العسكريِّين تطبيقها ومناقشتها في سبيل دعم الحركة أو الحملة العسكرية الأمريكية.»

«سيؤدي هذا إلى جعل العربية السعودية حليفة رئيسية للولايات المتحدة. ومن شأنه، في الوقت نفسه، أن يثير فيضاً من الصعوبات التي أنا واثق من أنك واع لها تماماً.»

«نحن واثقون، كما تعلم، من وضعنا الداخلي. غير أن الوضع في (العالم) العربي والإسلامي شديد الاضطراب بما يجعله قادراً على تهديد مصالحنا ومصالحكم.

«لذا، وسعياً إلى حماية تلك المصالح المشتركة، نريدك في هذا الوضع الصعب أن تؤكد لنا بأنك ستكون منخرطاً بجدية في حل مشكلة الشرق الأوسط. ونتوقع أيضاً أن تضطلع العربية السعودية بدور رئيسي في صياغة النظام الذي سيبرز ليس فقط في العراق بل في المنطقة بعد سقوط صدام حسين.»

رد عليه بوش: «شكراً على هذه. اقدر دائماً آراء ولي العهد. أعتبره صديقاً جيداً. اعتبره حليفاً جيداً، حليفاً عظيماً.

«إذا ما قررت التعامل عسكرياً مع الوضع في العراق، فإن ذلك سيعني انتهاء النظام الراهن- لا شيء أقل من ذلك.» وقال الرئيس: إنه كان يريد إيجاد حكومة عراقية جديدة ممثلة لجميع الأطراف والفرقاء الدينية والعرقية المختلفة في العراق. «ليس الهدف الرئيسي في الحقيقة هو إرجاع المفتشين إلى العراق، بل الاطمئنان إلى خلو العراق من أسلحة الدمار الشامل التي من شأنها أن تشكل تهديداً للمملكة و/أو إسرائيل.» ثم أضاف بوش إنه حين يكون قد اتخذ قراره حول الخيار العسكري سيتصل بولي العهد قبل قراره النهائي.

قام بندر بعد ذلك بتذكير الرئيس بأن أباه والملك فهد كانا قد اتخذا خطوتين تاريخيتين معاً: تحرير الكويت في حرب ١٩٩١ الخليجية وإعادة تحريك عملية السلام الشرق أوسطية. غير ان أياً منهما لم تُستكمل، ومن المتعين الآن على ولي العهد والرئيس أن ينجزا هاتين الخطوتين التاريخيتين بالخلاص من صدام وإنجاز العملية السلمية.

أفاد بوش بأنه كان قد ناقش هذا قبل يوم واحد مع مستشاريه ويسره أن يكرر التزام حكومته بعملية السلام، بصرف النظر عما قد يقوله رئيس وزراء إسرائيل ومن هم حوله عن نظرة الأمريكيين أو موقفهم. وقال أيضاً إنه ملتزم تماماً بكل شيء كان قد قاله لولي العهد في مزرعته في الربيع. «قل للأمير، إنني أعده!» ثم راح بوش ينتقد ياسر عرفات، قائلاً إن القيادة الفلسطينية الحالية غير مجدية، لا فائدة فيها. وأضاف أن الحاجة تدعو إلى إيجاد قيادة بديلة. ومن شأن مثل هذه القيادة أن تبرز إذا مُنح الشعب الفلسطيني فرصة. كذلك انتقد القيادة الإسرائيلية. قال إن شارون.. ثور والبدائل أسوأ منه.»

ثم أضاف الرئيس: «ستتمخض التغييرات في العراق عن تغير نهج معالجة الأمور، ليس في العراق فقط. بل وحتى في إيران.»

عبر بندر عن الانزعاج لأن البعض في الحكومة الأمريكية، ولاسيما في وزارة الدفاع، كانوا قد حاولوا الاتصال بأعضاء جماعات معارضة سعودية. وعد الرئيس بالنظر في الموضوع.

سأل تشيني عما يريد السعوديون قوله على الملأ.

«بودنا أن يبقى كل شيء حميمياً وسرياً بيننا إلى حين» رد بندر، قائلاً إن السعوديين بحاجة إلى معرفة التفاصيل الدقيقة للخطة العسكرية. وقد ذكر تشيني بأنهما، حين كان وزيراً للدفاع وكان پاول رئيس هيئة رؤساء الأركان. كانا قد أطلعاه على الخطط العسكرية السرية لحرب الخليج للدلالة على أن الولايات المتحدة كانت جادة بشأن تحرير الكويت.

ثم طلب بوش أن يرى بندر وحده، واجتمعا في غياب الآخرين لمدة ١٥ دقيقة.

يوم الثلاثاء في ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر، قبل عيد الشكر بيومين، أرسل الجنرال فرانكس وثيقة المودِّبس MODEPS. الخاصة بعمليات النشر التعبوية للقوات العسكرية الأمريكية استعداداً للحرب. أطلق فرانكس على الوثيقة اسم «أم جميع أوامر الانتشار» (The Mother of All Deployment Orders) لأنها كانت طلبية عملاقة. قبل نحو سنة كان الرئيس قد طلب من رمسفلد الشروع بالعمل الجدي لإنجاز خطة الحرب العراقية. كانت هذه خطوة كبيرة أولى على طريق تطبيق ما كانوا قد أنجزوه.

كان فرانكس يلتمس من رمسفلد البدء بنشر ٢٠٠,٠٠٠ رجل وامرأة. لن يكون الجميع مطلوبين مباشرة، وقد لا تدعو الحاجة إلى العديد منهم في أي وقت من الأوقات. كانت القوات سترسل إلى المنطقة، على مراحل من ذلك الوقت وحتى أواخر الربيع القادم. كان رقماً كبيراً، بما فيه أعداد الاحتياطيين، وبموجب إجراء

البنتاغون حاولوا إبلاغ جميع الوحدات في أبكر موعد ممكن. قال فرانكس للرئيس إن ذلك هو ما كان سيحتاج إليه إذا ما كان الأخير راغباً في اختيار موعد بدء الحرب بين أشهر كانون الثاني /يناير، شباط/ فبراير، وآذار/مارس.

كان الجنرال دائباً، تراكمياً، على تحسين موقعه في المنطقة بوحدات صغيرة، ببضع قطع بحرية وطائرات. مثلاً كان لديه الآن لواءان مدرعان من القوات البرية في الكويت قوامهما أكثر من ٩,٠٠٠ عنصر و١٥٠ دبابة. في الحد الأقصى كان ثمة ٦٠,٠٠٠ عنصر عسكري في المنطقة. غير أن جزءاً كبيراً من هؤلاء لم يكونوا قوة قتال حقيقية على الأرض. كان العدد يضم نحو ٢٠,٠٠٠ عنصر من البحرية، على ظهر البواخر بما فيها اثنتان من حاملات الطائرات، بأكثريتهم. أما الباقي فكانوا وحدات مبعثرة بأعداد لا تزيد الواحدة منها على ٥,٠٠٠، باستثناء اللوائين المدرعين في الكويت. فأسطول البحرية الخامس في البحرين، مثلاً، كان يضم نحو ٤,٠٠٠، وسلاح الجو نحو٥,٠٠٠ في السعودية، وهي أعداد ليست مناسبة لأي اجتياح.

غير أن فرانكس كان يتعين عليه أن يبلغ ٣٠٠,٠٠٠ عنصر- ما قد يكون بحاجة إليه وفقاً لما توقعته الخطة الهجين للأيام الـ ٢٢٥ من بداية العمليات القتالية الحاسمة إلى نهايتها.

وبعد التعتيم، قال رمسفلد: «لا نستطيع أن نقوم بالعمل بهذه الطريقة.» اكتشف مشكلة كبرى. وما لبث أن سارع إلى التشاور مع الرئيس، مثيراً شيئاً من اللغط. إن إبلاغ الوحدات العسكرية المختلفة، وإن بقيت عمليات انتشارها مؤجلة أشهراً، من شأنه أن يتمخض عن برقيات تتحدث عن انتقال ٣٠٠,٠٠٠ عنصر من الجيش الأمريكي إلى الشرق الأوسط بحراً أو جواً. ستكون الدبلوماسية قد انتهت.

أوضح بوش أنه لم يكن يريد لأي انتشار أن يقيد خياراته.

أمر بوش: «ليكن هناك فصل بين انتشار أو حشد من جهة، وبين ما يقوم به كولن على الجبهة الدبلوماسية من جهة ثانية!» كان العراق قد وافق على عمليات تفتيش أسلحة جديدة كانت ستبدأ في اليوم التالي. صحيح أنه كان متزايد الشكوك، غير أنه لم يستطع أن يبدو ساحباً «الفيش.» حذار من جعل الأمر يبدو كما لو كنت لا أملك سوى خيار الغزو! قال الرئيس.

في البنتاغون، وبعد تلقي هذا التوجيه الواضح والصريح من الرئيس، انكب رمسفلد على العمل. كان نظام التعبئة والانتشار، المعروف رسمياً باسم (تيب - فيد) (TPFDD) الخاص ببيان القوة والانتشار المرحل زمنياً، متركزاً على إبلاغ الوحدات وتوفير ما يكفي من السفن والطائرات لإيصال تلك الوحدات إلى ميدان المعركة. بسبب بعد الشرق الأوسط، حجم القوة، والكتلة الكبيرة للإمدادات، الذخائر، المواد الغذائية، والأدوية الضرورية، تمثلت المشكلة بموضوع النقل.

غير أن عمليات الإخطار، تجميع السفن والطائرات، تحريك القوات المبدئية كان من شأنها أن تشكل برقيات إخبارية مثيرة بالنسبة إلى المراسلين والعالم من بعدهم مباشرة، برقيات إخبارية تنبئ الجميع بأن الحرب على الأبواب.

قال رمسفلد إن عليهم أن يجدوا طريقة أخرى لبدء العملية، لإصدار الإخطارات الضرورية ولكن دون استخدام الرقم ٣٠٠,٠٠٠ أو أي رقم قريب منه. قال لفرانكس وحلقته الداخلية بلهجته المؤنبة: « بالمناسبة. هل لاحظتم أن العطل آتية؟ إننا سنؤثر في حيوات ٣٠٠,٠٠٠ شخص، يبدو لي أن أحداً لم يفكر بذلك.»

كان رمسفلد يعتقد بأنه كان رافعاً صخرة كبيرة ومواجهاً مشكلة إجرائية كبيرة مع كل الوزارة التي كانت بحاجة إلى إصلاح وهي في وضعية التحليق في الجو.

كانت خطط الانتشار مصممة على غرار مفتاح كهربائي متأرجح بين «اون On: مفتوح» و«أوف off: مغلق.» ليس ثمة ما هو بين بين. «سوف نقوم بتسريب الأمر على مهل، بما يبقي ما يكفي من الضغط لخدمة العمل الدبلوماسي ولكن دون أن يصل إلى مستوى نسف مصداقية هذه الدبلوماسية.» لم يكن يريد أن يمكّن أحداً من أن يقول: «حسناً، لقد اتخذتم قراركم وانتهى.» إذن كانت الدبلوماسية، لا مسألة النقل، هي القضية.

أفاد فرانكس بأن من شأن الحرب أن تنتهي أسرع إذا استطاع إيصال القوات إلى هناك بسرعة. وأضاف الجنرال: «إذا تم تحديد هويات العناصر في هذه اللحظة فإنني أستطيع حقاً أن أضمن أننا، أنت وأنا، نستطيع ضغط مرحلة القتال الرئيسية.»

رفض رمسفلد احتمال أن يتم الأمر بتلك الطريقة. اقترح تقطيع الانتشار إلى جزيئات أو قطع. سرعان ما عكف على معاينة التيب - فيد TPFDD، غائصاً في العمق وعائماً على السطح، مهتدياً إلى القطع أو الوحدات المطلوبة. كان عازماً على إعادة تصميم المفتاح، تحويله إلى شيء أشبه بمفتاح أكثر عتمة، مع عمليات نشر متدرجة أقل لفتاً للأنظار.

استغرق الأمر نحو أسبوعين، وما لبث أمر الانتشار الرئيسي الأول أن صدر في ٦ كانون الأول/ ديسمبر، كان مقرراً أن يبقى بطيئاً، ومطلوباً من رمسفلد تصديق كل أمر انتشار؛ ربما أمران اثنان في الأسبوع لفترة طويلة من الزمن. كان هذا يعني أن وحدات عاملة وأخرى احتياطية معينة تلقت إخطاراتها قبل أقل من أسبوع واحد من تفعيلها أو نشرها، بدلاً من المدة الاعتيادية ذات الأيام الثلاثين أو أكثر. ثمة كان كثير من الغمغمة والتذمر، ولاسيما من بعض جنرالات الجيش (القوات البرية).

قال رمسفلد لاحقاً وهو يتذكر: «تعرض بعض جوانبه للانتقاد. إن حقيقة كونه قد عزل عملية الانتشار وتوزيعها دعماً للعمل الدبلوماسي لم يُفهم قط هناك. وأنا لم أرغب في أن أقول إن هذا ما كنا نفعله فبقينا جالسين مكتوفي الأيدي ونحن نتلقى الضربات.»



في الإيجاز الصحفي يوم الإثنين الواقع في ٢ كانون الأول/ ديسمبر، قام آري فلايشر بكشف النقاب عن أسباب اعتقاد الإدارة بأن صداماً كان هو الطرف الخاسر. «إذا اعترف صدام حسين بامتلاك أسلحة الدمار الشامل وبأنه دائب على مخالفة قرارات الأمم المتحدة، فإننا سنتأكد من أن صدام حسين قد خدع العالم مرة أخرى. إذا أعلن أنه لا يتوفر على شيء منها. فسنعرف. إذن، أن صدام حسين عاكف، من جديد، على تضليل العالم.» وذلك لأننا، قال رمسفلد بثقة، «نملك معلومات استخباراتية عما هو موجود بحوزة صدام حسين.»

بدت الحكمة في الإصرار على إرغام صدام على إصدار بيان أسلحة شامل ومبكر بعد ٣٠ يوماً من صدور قرار الأمم المتحدة واضحة. لقد حُصر في الزاوية على ما بدا.

كانت عمليات التفتيش عن الأسلحة على الأرض في العراق قد بدأت أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر حيث راحت فرق الأمم المتحدة تجوب أطراف بغداد بمركباتهم البيضاء. لم يُعثر على شيء حتى في تفتيش مباغت دام ساعة ونصف الساعة لأحد قصور صدام الرئاسية.

في ٧ كانون الأول/ ديسمبر قدم العراق بيان أسلحة مؤلف من ١١,٨٠٧ صفحات زاعماً أنه يبين ويبرهن على أنه لم يكن يملك أي أسلحة تدمير شامل.

اقترح تشيني على مجلس الأمن القومي أن يبادر الرئيس إلى اعتبار البيان انتهاكاً مادياً، نظراً لأن هذا البيان كان زائفاً بوضوح، وكان يثبت أن صداماً كان قد كذب مرة أخرى. أضاف تشيني أن البيان يجب أن يشكل تسويغاً للحرب. ما الداعي إلى منح صدام فرصة أخرى. ما كفى قد كفى (لقد طفح الكيل).

كان الذهاب إلى الأمم المتحدة التماساً لجولة جديدة من عمليات التفتيش عن الأسلحة يُعتبر من قبل البعض، برأي تشيني، سبيلاً لتجنب الحرب. وهذا البعض كان يضم فيمن يضم الأمين العام للأمم المتحدة، كوفي آنان Kofi Annan ، كبير المفتشين بليكس، عدداً من الحلفاء المحتملين، بعض البلدان الأعضاء في مجلس الأمن، وأشخاصاً معينين في وزارة الخارجية، بمن فيهم الوزير باول. لخص تشيني ساخراً موقف هؤلاء الدبلوماسيين المحترفين أو محترفي العمل الدبلوماسي قائلاً: «احزموا كل شيء بحزام أحمر كما جرى قبل ١٢ عاماً، أصدروا قراراً آخر، انعتوه بأنه قرار جيد، ليذهب كل إلى بيته، ودون حصول أي شيء.»

لا أحد من كبار المسؤولين الآخرين بمن فيهم رمسفلد ورايس بدا موافقاً على أن البيان كان من حيث الشكل أساساً كافياً لنبذ عمليات التفتيش والشروع في الحرب، وكان الرئيس يرى رأيهم. كان سيتعين عليهم دراسة نحو ١٢,٠٠٠ صفحة. كان قرار الأمم المتحدة يتطلب بياناً زائفاً أو كاذباً «و» - حرف العطف الذي أجازه باول للفرنسيين كي يدخلوه في نص القرار الأخير- وإخفاقاً في التعاون. ظاهرياً بدا صدام متعاوناً.

ذلك بالضبط ما كان تشيني يخشاه. باتوا غارقين في متاهة التفتيش.



23

كانت استراتيجية رمسفلد القائمة على تسريب عمليات نشر القوات جارية على قدم وساق، متمخضة عن مواد إخبارية صغيرة وبعض الفضول، ولكن مع بقعة كبيرة من الرشرشة. تمثل المبدأ العملياتي: تخفَّ في مرأى سهل! كانت حاملة طائرات رابعة هي يو. إس.إس. هاري إس ترومان. قد تلقت أمراً بالتوجه إلى المنطقة. مثلاً - مسمار في القوة الجوية المتوفرة ولكن ليس أمراً غير عادي يشد الكثير من الأنظار.

وكعادته. واصل رمسفلد توظيف إيجازاته الصحفية لتقديم صورة مختصرة ضبابية عما كان بصدده دون تسليط أي ضوء على غرضه المحدد بدقة. كان فناناً في التحلي بالصدق دون مبالغة. خلال الأسبوع الأول من كانون الأول/ ديسمبر، مثلاً. قال للمراسلين: «كنا عاكفين على تحريك قوات حول العالم. بات لنا قدر أعلى - بعض الشيء - من الوجود في منطقة القيادة الوسطى مقارنة بما كان عليه وضعنا قبل أسبوع أو في الأسبوع الذي قبله.»

أما خطط عمليات الانتشار الكبيرة بزيادات تصل إلى ٢٥,٠٠٠ و٣٥,٠٠٠ التي كانت ستتم بعد أعياد الميلاد مثلها مثل الدعوة الأولى لـ ٢٠,٠٠٠ من الاحتياطيين فقد مرت بصمت دون أن تلفت أي انتباه.

في الوقت نفسه، كان الجنرال فرانكس مثابراً بدأب على تحسين موقفه من خلال عمليات انتشار أصغر مؤلَّفة عموماً من مئات فقط. ففي أوائل كانون الأول/ ديسمبر دشن مقر قيادة عامل بكل طاقته في قطر مع ٦٠٠ عنصر كانوا قد أوفدوا حديثاً من مقر قيادته في تامبا. ومستودع المعدات المخزنة سلفاً الذي كان قد أتى

على ذكره أمام الرئيس في إيجاز كروفورد قبل عام واحد كان الآن قد تحول إلى غرفة حرب تكنولوجيا عالية. في زيه الصحراوي المموه رافق المراسلين في جولة على المرفق. أكد هو ومساعدوه أنه كان قادراً على إدارة أي حرب بالطريقة التي كان يمكنه أن يعتمدها من تامبا.

في قطر. أشرف فرانكس على لعبة حرب كمبيوترات واتصالات معروفة باسم نظرة داخلية أُعلنت على الملأ ووُصفت بإيجاز. قال أحد كبار المسؤولين للمراسلين في إيجاز تمهيدي: «ليست هذه تجربة جديدة. فلعبة النظرة الداخلية عُقدت في ١٩٩٠، ١٩٩٦، ٢٠٠٠». غير أن لعبة الحرب كانت في الحقيقة هي الإعادة التدريبية الأولى لمهمة اجتياح العراق باستخدام الخطة الهجين لفرانكس. كان ما يزيد على ٢٠٠ مراقب ومدرب عسكري قد وصلوا من الولايات المتحدة للتأكد من أن الاتصالات وقرارات القيادة كانت متحركة بما يكفي من السرعة في أي محاكاة كمبيوترية لعملية اجتياح معينة.

بعد المناورة ذات الأيام الأربعة. أدرك فرانكس أنه مطالب بالمزيد من العمل، ولا سيما مع هجوم بري عبر الكويت. كان يريد للغزو أن يتحرك أسرع بكثير، بليتز كريغ (حرب عاصفة) حديثة مصممة لإغراق العراقيين في حالة من الاختلال ولتشويش قيادة صدام وتحكمه وآلياته الداخلية. في المناورة - الاختبار كان فريق المراقبين والمدربين قد أقحموا سلسلة متنوعة من المشكلات مثل الهجمات المعاكسة، عمليات المقاومة، وحالات انقطاع الاتصالات. استنتج فرانكس أن لم يكن هناك ما يكفي من المرونة - ما يطلق عليه الجيش اسم «التخطيط المتكيف» الذي يمكّن قادة مستويات أدنى من تغيير الإشارات بسرعة لأن خيارات قد أُدخلت في خططهم.

لم يكن الهجوم البري عبر الكويت متحلياً بما يكفي من السرعة أو/ و التنسيق، وأعلن فرانكس عن اعتزامه إجراء «بروفة» ثانية إذا سمح الوقت بذلك.

◆ ◆ ◆

عبـر دوره بوصفـه مـعـايناً خـاصـاً عين نفسـه بنفسـه لسـيناريوهات أسوأ الاحتمالات، كان تشيني قد أنفق مدة لا يستهان بها من الوقت منذ ٩/١١، عاكفاً على النظر في التهديد المحتمل بالسلاح البيولوجي للولايات المتحدة وللقوات الأمريكية فيما وراء البحار. كان أحد الاقتراحات يقضي بتشكيل نوع من «ناسا طبية،» دائرة حكومية شبيهة بوكالة الفضاء القومية NASA تستطيع إجراء البحوث على اللقاحات وإنتاجها. رأى تشيني أن حماية برنامج كهذا ينطوي على أهمية فائقة تجعل الإدارة ملزمة باقتراح طريقة لتوفير التمويل بما يحول دون قيام الكونغرس بإلغائه في سنوات لاحقة.

كان الجدري هاجساً كبيراً. ثمة كانت معلومات استخباراتية مشيرة إلى احتمال إقدام صدام على استخدام هذا المرض القاتل سلاحاً. كان تقويم تشرين الأول/ أكتوبر للاستخبارات القومية (إلإن. آي. إي. NIE) قد استنتج أن ٥٠ بالمئة من الاحتمالات ترجّح كون الجدري جزءاً من برنامج الحرب البيولوجية الهجومية للعراق.

جهد كبير، شارك فيه نواب، كبار مسؤولين وشمل عدداً غير قليل من اللقاءات مع الرئيس، تم بذله للتوصل إلى وضع خطة. أظهرت الدراسات أن من شأن هجوم بالجدري في الولايات المتحدة أن يودي بحياة الآلاف أو أكثر وأن يدمر الاقتصاد. إن الجدري مرعب على نحو استثنائي بالنسبة إلى سكان غير محصنين. منذ عام ١٩٧٢، بات خطر الإصابة شديد الضآلة حتى جرى وقف عمليات التلقيح النظامية. كان ستيف هادلي وآخرون يرون أي هجوم بالجدري هجوماً «دافعه الهشاشة.» وغياب برنامج التلقيح كان يعني أن الولايات المتحدة غير محصنة. إن برنامجاً جديداً، نشطاً لن يكون باهظ التكاليف. وقد رأى تشيني أن الإدارة مسؤولة أخلاقياً، وعليها أن تفعل شيئاً. إذا حصل أي هجوم بالجدري كان ممكن المنع أو التخفيف، ولم تفعل الإدارة شيئاً، فإن من شأن ذلك أن يشكل عبئاً ثقيلاً على أرواح مسؤولي الإدارة.

في ١٢ كانون الأول/ ديسمبر، في خطاب موجه إلى الجمهور دام سبع دقائق، قال الرئيس بوش إن عناصر الجيش الأمريكي ومدنيين أساسيين في مناطق درجة خطورة عالية من العالم يجري تلقيحهم ضد الجدري. وبوصفه قائداً عاماً كان هو الآخر سيحصل على اللقاح. مضيفاً: «إن اللقاحات هي للاحتياط فقط، وليست رداً على أي معلومات ذات علاقة بخطر وشيك.»

ما لم يقله بوش هو أن نحو ٢٠ مليون جرعة من اللقاح ستوضع جانباً مخزوناً احتياطياً لشركاء التحالف في أي حرب مع العراق. شعر تشيني بقدر استثنائي من القلق إزاء احتمال إقدام صدام، في حال نشوب حرب، وتيقنه من أنه هالك مئة بالمئة. على استخدام الجدري سلاحاً ضد سكان مدنيين في بلدان تؤوي (تستضيف) قوات أمريكية. قيل إن من شأن إخفاق الولايات المتحدة في طمأنة الحلفاء إلى أنها قادرة على التعامل مع الجدري أن يجعل أمر إبقائهم في التحالف صعباً.

ثمة كان كثير من حك الرؤوس وخض الأدمغة حول مدى اتساع اللقاح، نظراً للتأثيرات الجانبية الخطرة المحتملة للقاح وقضايا خطر الإصابة بالجدري. إن مفهوم إقامة برنامج تلقيح جديد على قابلية الإصابة في المقام الأول شغل بال عدد كبير من مختصي الصحة، غير أن قول كلمة «لا» لتشيني كان صعباً بالنسبة إلى الجميع، بمن فيهم رئيس الجمهورية. إذا ما حصل أي هجوم كهذا (لا سمح الله!) فإن نائب الرئيس سيُعلن نبياً. كذلك فاز تشيني بموافقة بوش على طلب ٦ مليارات دولار لتمويل مشروع بحث وإنتاج جديد، مشروع يحمل عنوان بيوشيلد (الدرع البيولوجية) لإنتاج اللقاحات والعلاجات اللازمة للتعامل مع تأثيرات أسلحة بيولوجية أخرى.

◆ ◆ ◆

كان هناك إشكال آخر مع عمليات التفتيش عن الأسلحة بالنسبة إلى فريق بوش. كان بليكس راغباً في استبعاد وكالة الاستخبارات المركزية. قامت الوكالة بتزويد بليكس بالمعلومات عن المواقع المحتملة لتخزين أسلحة الدمار الشامل داخل العراق لجعل عمليات التفتيش أكثر كفاءة، ولزيادة احتمالات اهتداء المفتشين إلى هذه الأسلحة. غير أن التدفق بقي ذا اتجاه واحد (حب من طرف واحد). فوكالة الاستخبارات المركزية لم تكن قد استطاعت الاطلاع المباشر على ما كان بليكس يعثر عليه، وما كان يعجز عن العثور عليه. كان بليكس قد عبر عن الرغبة في أن يكون ودوداً مع العراقيين، بعيداً عن التشدد والمجابهة. لم يكن يريد ما أطلق عليه اسم عمليات تفتيش «غاضبة وعدوانية». ظل موظفون عراقيون يرافقون المفتشين حيثما ذهبوا داخل العراق.

وبالتالي فإن الاستخبارات الأمريكية كانت ستبقى عمياء إلى حد كبير فيما يخص ما كان يجري بالفعل. لا تكتفي وكالة الاستخبارات المركزية بالتجسس على الأعداء المحتملين أو الدول غير الصديقة. بل وتتجسس أيضاً على الدول الصديقة للاطلاع على خططها، قدراتها، ونواياها الحقيقية. فشعار العراب القائل: «ليبق الأصدقاء قريبين ولكن الأعداء أقرب!» ينطبق على العمل الاستخباراتي. بما أن الأصداق يمكن أن يتحولو إلى أعداء، والأعداء إلى أصدقاء، فإن الممارسة الحصيفة هي التجسس حيثما أمكن، بما في ذلك موظفو الأمم المتحدة. ثمة تغطية استخباراتية أمريكية حساسة كانت تمارس مع بليكس ومفتشي الأسلحة في العراق لأن امتلاك الإدارة لأفضل وأدق المعلومات عما كان يقوم به المفتشون كان ينطوي على أهمية حاسمة بالنسبة إلى الأمن القومي. فقرار الذهاب إلى الحرب قد يبقى متوقفاً على سلوك المفتشين وما تتمخض عنه عمليات التفتيش من نتائج.

ربما كان أي رئيس، جمهوري أو ديمقراطي، سيقر مثل هذا المسح، وإن بقي بالغ

الحساسية ومحفوفاً بمخاطر محتملة. وقد كان التجسس على موظفي الأمم المتحدة ومندوبيها، ولا سيما من جانب بلدان معادية، ممارسة ذات تاريخ طويل. في الحالات ذات العلاقة بأخطر القرارات التي يمكن لأي رئيس أن يتخذها، ثمة ميل لتوظيف جميع الوسائل الضرورية والمشروعة للحصول على المعلومات. كان بليكس والمفتشون الآخرون مواطنين أجانب وغير خاضعين لبنود حظر التنصت التي تحمي أكثرية مواطني الولايات المتحدة.

أشارت الاستخبارات إلى أن بليكس لم يكن يبين كل شيء كما لم يكن يقوم بجميع الأعمال التي كان يدّعي القيام بها. بات بعض كبار المسؤولين يعتقدون أن بليكس كذاب. مهما يكن بدا كما لو أن جهود التفتيش لم تكن متصفة بما يكفي من نزعة الإقدام والجرأة، كما لو أنها ستستغرق أشهراً أو أكثر، ومحكومة ربما بالإخفاق.

◆ ◆ ◆

صباح الأربعاء، يوم ١٨ كانون الأول/ ديسمبر، كان للرئيس بوش لقاء خاص مع رئيس الوزراء الإسباني خوسيه ماريا آرنار المؤيد لأي مجابهة عسكرية مع العراق.

مع أزنار، سخر بوش ببيان الأسلحة العراقي. قائلاً: «البيان لا شيء، فارغ، إنه نكتة، إلا أننا سنتعرض للامتحان في الرد.» ثم أورد الرئيس فكرته الخاصة المنطوية على نوع من الغموض حول ما كان عازماً على فعله مع صدام: «عند إحدى المنعطفات، سنتوصل إلى استنتاج يقول: "ما كفى قد كفى!" وسنخلعه من مكانه. إنه كذاب ولا ينوي أن يتجرد من السلاح.»

تحول بوش إلى عملية الأمم المتحدة. ومحاضر الاجتماع مع آزنار تبين أنه لم يكن كامل الإعجاب ببقاء القرار ١٤٤١ خاضعاً للتفسير، وقد قال بوش: «إذا اتُّخذ

قرار بالذهاب إلى الحرب، فسوف نعود إلى مجلس الأمن. لن نلتمس إذناً، سنطلب دعماً. كان ذلك هو الاتفاق مع أعضاء مجلس الأمن. لن يمارس مجلس الأمن أي فيتو. ولكن كثرة عدد البلدان من شأنها أن تيسر عملية بلوغ أي هدف دبلوماسي.»

في حقيقة الأمر، يتمتع أعضاء مجلس الأمن الدائمين الخمسة على الدوام بحق الفيتو. والفرنسيون على نحو خاص لم يكونوا يعتقدون أنهم كانوا قد أبرموا اتفاقاً يمكن القرار ١٤٤١ من سجنهم داخل دائرة الحرب.

أضاف بوش: «الحرب خياري الأخير. يقوم صدام حسين باستخدام ما لديه من مال لتدريب القاعدة وتجهيزها بالأسلحة الكيميائية، وهو يؤوي الإرهابيين.»

ملتفتاً إلى الشرق الأوسط أكد بوش أهمية السير قدماً على طريق عملية السلام. ثم قال الرئيس: «يقول شيراك إن شارون يضع حجاباً على عيني. يضللني. يا له من «تورو» (ثور إسباني). أحياناً كان الرئيس يضفي على شارون لقب «الثور.»

قاطعه المترجم قائلاً: «سيادة الرئيس ثمة معنيان لكلمة تورو بالإنجليزية مشيراً إلى أنها تعني "فحل" ذلك الحيوان المعروف حرفياً من جهة. أو "فحل" بمعنى روث البقر. تافه. نتن. من جهة ثانية.

بدا آزنار مستوعباً النكتة.

قال بوش موجهاً كلامه إلى آزنار والمترجم: «لعل ترجمة كلمة "تورّو" هي واحدة من اللحظات العظيمة في (تاريخ) الدبلوماسية.



في مقر قيادة وكالة الاستخبارات المركزية كان شاؤول صاحب الاتصال اليومي بالناشطين الميدانيين، بمن فيهم تيم داخل العراق متزايد القلق بشأن الرسالة الملتبسة التي كانت تطلقها الإدارة. من جهة كان تيم وضباط ميدانيون آخرون لا

يزالون على الجبهة، عاكفين على تجنيد المصادر (العملاء) عن طريق تقديم الوعد بأن العمل العسكري آتٍ قريباً، ومن جهة أخرى، كان رئيس الجمهورية منخرطاً في السعي إلى حلول دبلوماسية عبر الأمم المتحدة وعمليات التفتيش عن الأسلحة. راح بعض مصادر الأخبار (المخبرين) عناصر وأجهزة الاستخبارات الأجنبية يقولون: «ما هذا؟! أنتم مقبلون على التفاوض؟! إنكم ستغدرون بنا مرة أخرى!» في كل مرة كان بوش يعلن فيها أن الحرب هي خياره الأخير كان جميع عملاء الوكالة ومخبريها يفقدون جزءاً من حماستهم. كانت الحرب خيارهم الأول. بل والخيار الوحيد بنظر البعض مع تزايد مستوى التزامهم.

كان شاؤول يبعث برسائل دورية منتظمة إلى الطبقة السابعة حيث كان يقيم كل من تنت، ماكلوخلين، وكبار الموظفين الآخرين. قال في إحدى المراحل، «نستطيع إدامة هذا إلى نهاية شباط. فمع نهاية شباط سنبدأ بتكبد الخسائر لأن النظام سيباشر اكتشاف أمور معينة.» لم يكونوا قادرين على حفظ أكثر مما بحوزتهم من الأسرار. أجهزة صدام الأمنية والاستخباراتية حاضرة وناظرة على نحو كلي، ومدى ضراوة ردهم على الخونة معروف جيداً. لا بد من لملمة المخبرين والعملاء بسرعة. شباط كان الموعد الأخير. قال شاؤل: «إذا دفعتم هذا إلى موعد أبعد من ذلك، فإننا سنكون سبباً في مقتل كثيرين.»

وأضاف في الوقت نفسه: «لا نستطيع أن ننسحب، أن نتراجع، إذا أدرنا ظهورنا وانسحبنا، فإننا لن نبقى متمتعين بأي مصداقية.»

كذلك فريقا شاؤول شبه العسكريين داخل العراق كانا يتساءلان مرتبكين. كان أعضاء الفريقين في أكثر الأوضاع سوءاً وبعثاً على الإحباط في العالم. إذ كانوا هناك على أسنة الحراب، وهم لا يعرفون ما إذا كانت هذه الحرب ستبدأ أو متى. قال شاؤول لتيم إن عليه مع فريقه أن يخرج من العراق طلباً للراحة والاسترخاء مدة

اسـبـوعين خـلال أعـيـاد المـيـلاد. اذهـب إلـى الوطن عـائداً إلى القـاعـدة أوائل كـانون الثـانـي/ يناير. وأضـاف شـاؤول أن البـادي هـو احـتـمـال بدء الحـرب منتـصـف كـانون الثاني/ يناير، وبكل التـأكيد، قسماً بالرب، في شباط/فبراير. هـرب تيم وفـريقه لمدة أسبوعين خلال الأعياد.

في الحقيقة لم يكن شاؤول يعرف شيئاً عن موعد بدء الحرب.



عـقـد بوش في اليـوم الذي التـقـى فـيـه رئيس الوزراء الإسـبـاني، يوم ١٨ كـانون الأول/ ديسـمـبـر، اجـتـمـاعـاً مع مـجلس الأمن القـومي. أرادت وكـالة الاسـتـخـبـارات المركزية إبراز المشكلات التي كانت تواجهها على نحو أكثر إثارة ومسرحية في تجنيد المخبرين والعملاء واستبقائهم داخل العراق. ترك تنت مكانه على الطاولة لأحد كبار الناشطين السريين. بوب (اسم سري)، وهو مدير بعثة العراق الذي كان يتولى تنسيق عمل شـاؤول ونشطائه مع العمل التحليلي الجـاري على قدم وسـاق. كـان بوب رئيس مـحطة وكالة الاستخبارات المركزية في باكستـان خلال الحـرب الأفغـانية. قـام بوب، وهو رجل ضـئـيل الجـسم، أنيق الملبس ذو مـزاح مـتـواضـع ونزعـة ثقـافـيـة/ فـكرية. بتقـديم بيـان وضع عن شـبكة العـمـلاء المتطورة داخل العـراق. بات عنـدهـم الآن نحـو اثني عشر عميلاً جيداً، غيـر أن بوب لم يغص في التفاصيل مع الرئيس أو مـجلس الأمن القـومي، بل اكـتـفـى بدلاً من ذلك، ببـيـان واقع أن عـدد العـمـلاء والعـمـلاء الفـرعيين كان يتنامى تنامياً ملحوظاً وكانت معلوماتهم الاستخباراتيـة تتحسن. ومع ذلك فقد كان هناك بعض الصعوبات.

قـال بوب: «سـيـادة الرئيس، نحـاول أن نقدم رسـالتين مـتناقـضتين لجـمـهـورين متناقضين في وقت واحد. من المحتم أن يحصل بعض التسرب. لا نستطيع فصل أحد الجمهورين فصلاً كاملاً، مهما فعلنا، عن الآخـر. ففي الوقت الذي نكون دائبين

فيه على الانخراط الفعال في حملة دعائية من شأنها أن تقنع الناس الذين نعوّل تعويلاً مطلقاً على تعاونهم بأن الحرب حتمية. نسعى أيضاً، في الوقت نفسه، إلى إقناع، لا تضليل واستخفاف بعقول، آخرين بأن الرئيس جاد تماماً، فيما يخص الدبلوماسية، الأمم المتحدة، وعمليات التفتيش عن الأسلحة.

«نعم» قال بوش.

اضاف بوب أن هناك أناساً خارج العراق وداخله كانت وكالة الاستخبارات المركزية في حوار متواصل معهم. كانوا يقولون: نسمعكم، نفهم ما يقال وسوف نتعاون إلى نقطة معينة، ولكننا لن نسير إلى ما هو أبعد ما لم نقتنع أكثر، ما لم تتوفر أدلة أكثر، وهكذا فإن سياسة الخطين كانت تخلق مشكلة.

اقر بوش قائلاً: «أعلم أنني وضعتكم في موقف صعب. أعرف أن هذا عسير، غير أن هذا هو المسار الذي نعتمده. وسوف يتعين علينا أن نواصل تفعيل كل هذه العناصر في الوقت نفسه.»

وهي تصغي جالسة إلى الطاولة، رأت رايس أن هذا لم يكن إلا جزءاً من دبلوماسية قسر أو إكراه - التهديد المقنع بالقوة لتحقيق نتيجة دبلوماسية. ثمة كان قدر من التنافر حقاً، غير أن اعتماد دبلوماسية القسر كان يعني التعايش مع التناقضات.

أدرك نائب مدير الاستخبارات المركزية (الدي. دي. سي. آي. DDCI) ماكلوخلين أن ذلك كان وضعاً صعباً بالنسبة إلى الوكالة. فهذه الوكالة، وكالة الاستخبارات المركزية، كانت قد أطلقت عملية سرية لخدمة سياسة لم تكن قد حُسمت، ومع ذلك كان يتعين على عناصرها أن يواصلوا العمليات وتجنيد مصادر المعلومات وكأن كل شيء بات محسوماً.

◆ ◆ ◆

ذلك المســاء. مساء ١٨ كـانون الأول/ ديسمبـر حضـرتُ مع زوجي إلزا والش Elsa Walsh حـفلة عيد مـيـلاد كبيـرة فـي البيت الأبيض أقامها الرئيس وزوجه على شرف وسـائل الإعلام. ظل الزوجـان بوش واقفين لسـاعات في صف استقبال فيـما كـان أحـد المصـورين مشغولاً بـأخـذ اللقـطات للزوجين الأولين. حين وصلنا إلى مـقـدمـة الصف، بادرنا الرئيس قـائلاً إن كـتـابي بوش مـحـارباً يحـقق رواجـاً جيداً.

اضـاف «إنه يحـتل صـدور الجـداول» ثم سـأل: «هل انت عـازم على تأليف كتاب آخر؟» وبعد ذلك نشـر ذراعيه وعبّر بلغة جسده عن احتمال وجود قصة في الأجواء، لابد من روايتها.

كان ردي: «ربما ستحمل القصة عنوان. مزيد من بوش في غمرة الحرب.»

علقت لورا بوش: «لنأمل أن لا» بنبرة قريبة من الحزن.

بعـد سنة سـألت الرئيس عن تعليق السيـدة بوش فـرد: «نعم، كـان ذلك يعكس نظرتهـا. فلورا تتفهم معنى الذهـاب لتعزية أفـراد العوائل بمن فقدوهم. إنهـا تتفهم الحـزن والأسى اللذين يعاني منهمـا الأحبة جـراء الموت في سـاحـة المعركة. الموت في أي مكان بالمناسبة. لا فرق.

«ولكن الموت في أرض المعـركة خصـوصـاً» أضـاف الرئيس «وثمة علاقـة مـبـاشـرة بين مـبـادرة زوجهـا إلى اتخـاذ القـرار وبين الموت. إنهـا تـعـرف ذلك وتعلم أنه شـاق. وكذلك فإنها كانت تتوقع الصراخ، الضجيج، الاحتجاج.»

سـألته: «هل فاتحتك بذلك؟»

«لا؛ في الواقع. إنهـا فـاتَحَتْك انت. وربما كـانت تفـاتحني عبـر توجههـا بالكلام إليك.» قـال الرئيس وهو يحـدق بتـركيـز: «إن لورا تثق برأيي وقد تحـدثنا قليـلاً عن

الموضوع. ولكنها لم تكن، بالطبع، تريد الذهاب إلى الحرب أنا أيضاً لم أكن راغباً في ذلك، بالمناسبة.»

◆ ◆ ◆

قدم الجنرال فرانكس تقريراً موجزاً إلى الرئيس في اليوم التالي، يوم ١٩ كانون الأول/ ديسمبر، تحدث فيه عن «بروفة» النظرة الداخلية والصرعة الأخيرة لخطة الحرب.

«حدثني ثانية عن التوقيت!» قال الرئيس. بدا لفرانكس أن بوش كان يركز على تنفيذ وشيك رغم جهود الأمم المتحدة غير أنه لم يكن محدداً.

غطى مزيداً من موضوعات «ماذا لو؟»، تلك الأمور التي قد تتعثر من قائمة رمسفلد. ماذا لو أقدم العراقيون على تدمير بنيتهم التحتية النفطية أو شبكتهم المائية أو محطات الطاقة عندهم؟ عرض فرانكس مزيداً من التفاصيل حول خطته لمهاجمة مرافق صدام الموجودة تحت الأرض وغيرها من الأهداف المحصنة.

فيما بعد، سألتْ رايس كلاً من تنت وماكلوخلين عن مدى قوة الحجة بشأن أسلحة الدمار الشامل وعما كان يمكن قوله على الملأ.

كان تقويم الوكالة القومي الصادر في تشرين الأول/ أكتوبر الذي كان قد استنتج أن صداماً متوفر على أسلحة كيميائية وبيولوجية، قد أصبح متداولاً منذ ما يزيد على شهرين؛ قرارا الكونغرس المؤيدان للحرب كانا قد مرا بهامش يقرب من ٣ إلى ١؛ ومجلس الأمن الدولي، حيث كان قرار خاص بالتفتيش عن الأسلحة قد اعتمد بإجماع ١٥ إلى صفر، كان منخرطاً في عملية تفتيش فعالة داخل العراق. ومع ذلك كله فإن شيئاً ما بقي مفتقداً.

حتى بول وولفوفيتز كان قد علق مؤخراً على الطبيعة اللانهائية للأحكام المتعلقة بأسلحة الدمار الشامل عند صدام. وفقاً لما جاء في مقالة ظهرت على

صفحات الواشنطن بوست كان وولفوفيتز قد قال أمام اجتماع عُقد خلف أبواب مغلقة لسفراء الدول أعضاء الناتو

«إن الأمر أشبه بما قاله القاضي عن الصور الإباحية. لا أستطيع تحديد معالمه. ولكنني سأعرفه إذا رأيته.»

كان ماكلوخلين قد سحب القشة القصيرة في القرعة فأصبح يحمل عبء التحدث أمام الرئيس وكبار المسؤولين. كان الرجل، وهو محلل حذر، مستند إلى خبرة مدتها ٣٠ سنة في الوكالة، واعياً لحقيقة أن خَطَّيْ معلومات أسلحة الدمار الشامل الموجودين لدى وكالة الاستخبارات المركزية كانا شديدي الاختلاف. تمثل أحد الخطين، وهو خط لا تجوز المبالغة بأهميته حسب رأيه، بما كان مفتشو الأمم المتحدة قد طوروه بين ١٩٩١، بعد انتهاء حرب الخليج، و ١٩٩٨. حين كان صدام قد دفع المفتشين إلى الانسحاب. خلال فترة الأعوام السبعة تلك بقي المفتشون قادرين على التواصل المادي داخل العراق. ومع أن أحداً لم يعترف قط، فإن وكالة الاستخبارات المركزية شاركت سراً في عمليات التفتيش. قدمت هدايا (رشاوى) ومعلومات، تلقت إيجازات كاملة من مفتشين، وتولت تزويدهم بالنصائح حول أساليب تحديد مواقع الأسلحة وتدميرها. كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد حصلت على حقائق ميدانية من أناس على علاقة مباشرة. أضف إلى ذلك أن وكالة الاستخبارات المركزية طبقت القاعدة الريغانية القديمة التي تقول: «ثق ولكن تحقق!» متجسسة على المفتشين للاطلاع على المزيد من المعلومات والاطمئنان إلى أن الاستخبارات الأمريكية كانت تحصل على أكمل صورة ممكنة.

خلال تلك الفترة، كان المفتشون قد كشفوا النقاب عن أسلحة دمار شامل أكثر بكثير مما كانوا قد توقعوا. وهربُ رئيس برامج أسلحة الدمار الشامل السرية في النظام. صهر صدام حسين، حسين كامل في ١٩٩٥، كان قد أطلق ما بدا تدفقاً

طوعـيـاً لمزيد من المعلومـات والوثائق من العـراق. أضف إلى ذلك، أن بيـانات عن واردات ومـعـامـلات تجارية أخـرى أظهـرت وجود مئات، بل آلاف الأطنان من المواد الكيـميائيـة وغيـرها من المواد الخام التي قال العـراقيـون إنهـا لإنتاج أسلحـة دمـار شامل. كان المفتشون قد أتلفوا كميات هائلة من معدات ومواد أسلحة دمار شامل أو ذات علاقة، في إطار عملية التفتيش.

أما خط المعلومات الثاني المتشكل منذ عام ١٩٩٨ فقد جاء مشتمـلاً على ما شعر ماكلوخلين بأنه مستوى أعلى على نحو درامي مثير من الاستدلال والاستنتاج. وكما كان قد سبق له أن أبلغ كبار المسؤولين، فإن وكالة الاستخبارات المركزية لم تكن متوفرة على أي عينات أنتراكس أو أسلحة كيميائية لتقديمها أدلة إثبات.

استعداداً للظهور أمام الرئيس قام ماكلوخلين بمعاينة أكوام كبيرة من المواد. ثمة كـان حـوار مـذهل بين شـخـصين عـلى عـلاقـة بالقـاعدة كـانا ينـاقـشـان مـوضـوع سم الريسين عـالي السـمية. جرى التقـاطه. تحدث الشـخصـان عن اختـبار العينة على حمار كان قد نفق ثم تفسخ متحولاً إلى ضحكة متجمدة. جهاز استخبارات أجنبي قام بالالتقاط تخوف من احتمال نشر النبأ. أجهزة أخرى أبدت قلقاً إزاء احتمال تمخض النشـر عن زرع الرعب في قلوب الناس. لم يكن مـاكلوخلين متـأكداً مما كان ذلك يلقي الضـوء عليـه. رأى أنه بدا منطوياً على شيء من «الشـؤم» فـقـرر الا يستخدمه في العرض الذي كان سيقدمه أمام الرئيس.

ثمة ملف استخباراتي آخر بالغ السرية أوحى لماكلوخلين بوجود محاولة عراقية خبيثة للحصول على خرائط طبغرافية للولايات المتحدة الـ ٥٠. كانت عملية سرية مرافقة من جانب وكالة الاستخبارات المركزية قد تعقبت عراقياً سبق له أن عمل في برنامج المركبات الجوية غير المأهولة ببلده، وكان يعيش الآن في أستراليا. فالمركبات الجـوية غيـر المأهولة الرخيصـة كـانت مـرشـحـة للاسـتـخـدام من أجل شن هجـوم

كيميائي أو بيولوجي على أي مكان في العالم. عاكفاً بحماسة على الربط بين هذه النقاط كان وولفو فيتز يضخّم هذه المعلومات الاستخباراتية السرية على أنها «اختراق مدهش لشبكة حيازة بالغة الخطورة» و«مرعبة جداً.»

كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد حاولت تجنيد العراقي الذي كان يعيش في أستراليا. كان الرجل قد رفض التعاون ما لم يتم ترحيل ٢١ من أعضاء عائلته الموسعة بأمان إلى خارج العراق. ومع غوص الوكالة أعمق في المسألة أصبح غامضاً ما إذا كانت الخرائط الطبغرافية قد جرى الحصول عليها عمداً أم مصادفة دونما قصد. كان بمقدور أي شخص أن يبتاعها من أيّ مخزن خرائط، أو عبر الأنترنت ببطاقة اعتماد. فالأقراص المدمجة الطبغرافية لم تكن معقدة. تمثل الحدث المهم الوحيد - حسب استنتاج ماكلوخلين - بقيام عميل شراء في العراق بوضع إشارة على مربع «نعم» حين اتيحت له فرصة شراء القرص المدمج.

كان لدى ماكلوخلين ما يكفي من الأسئلة التي لم يكن يريد إيرادها في عرضه.

انصعق وولفوفيتز بما كان قد اكتشفه وراح يصرخ: «ما هذا العقل الذي يقول بأن علينا ألا نقلق إزاء برنامج مركبات جوية غير مأهولة عراقي ينتج طائرات صغيرة الحجم يمكن شحنها داخل حاوية وكبيرة بحيث تستطيع إسقاط غالون واحد من الأنتراكس على واشنطن، العاصمة، لا لشيء إلا لأن صاحب البرنامج لم يكن راغباً حقاً في الحصول على الخارطة؟» وقد رأى أيضاً أن رفض العراقي للكلام ما لم يُمكَّن من إخراج أقاربه كان فرصة نموذجية لرئيس مفتشي الأمم المتحدة هانس بليكس؛ فالقرار الدولي رقم ١٤٤١ أعطى بليكس صلاحيات واسعة لمقابلة أي شخص و«تيسير سفر أولئك المستجوبين وأفراد أسرهم إلى خارج العراق.» غير أن بليكس لم يكن، على ما يبدو، قد فعل شيئاً.

◆ ◆ ◆

ذهب تنت وماكلوخلين إلى المكتب البيضوي في صباح السبت الواقع في ٢١ كانون الأول/ ديسمبر. كان الغرض من الاجتماع تقديم «القضية» الخاصة بأسلحة الدمار الشامل بصيغتها القابلة للعرض على هيئة محلفين مخولة بالاطلاع على ما هو سري للغاية. ثمة كانت توقعات كبيرة. حضر الاجتماع، إضافة إلى الرئيس، كل من تشيني، رايس، وآندي كارد.

بشيء من الجلبة تقدم ماكلوخلين ليبدأ الإيجاز بالاستناد إلى سلسلة من الرسوم التوضيحية، ملمّحاً إلى أن هذه لم تكن إلا نسخة أولية بالغة السرية وغير متاحة بعد للجمهور. كانت وكالة الاستخبارات المركزية تريد أن تتحفظ على ما قد يكشف عنه لحماية المصادر وأساليب التحري إذا لم يحصل صراع عسكري.

أوضح ماكلوخلين أنه ليس هناك ما يشير إلى ما آلت إليه جمله من مكوّنات أسلحة بيولوجية، مثلها مثل ٣,٢٠٠ طن من المواد الأولية القابلة للاستخدام في إنتاج أسلحة كيميائية. كذلك بقيت مصائر نحو ٦,٠٠٠ قذيفة تعود إلى الحرب الإيرانية - العراقية في الثمانينيات. مجهولة.

ثم ما لبث أن انتقل إلى صورة أقمار صناعية كبيرة لمحطة اختبار محركات الصواريخ. من الواضح أن المحطة كانت، كما كانوا يستطيعون أن يروا، أكبر مما هو مطلوب لتصنيع المحركات الصغيرة الخاصة بالصواريخ المسموح بها والتي لا يتجاوز مداها الـ١٥٠ كيلو متراً.

بينت صورة جوية أخرى ثلماً في الأرض في مرفق اعتبرته الوثائق منشأة إنتاج أسلحة كيميائية. «بدا» الثلم كما لو كان نتاج مسعى لإخفاء الآثار بعد نقل أو سفح مواد كيميائية، كما قال ماكلوخلين.

ثم انتقل إلى صورة تخطيطية لمركبة جوية غير مأهولة محلقة تحليق نمط عمليات التعقب. كان التجميع الفني قد أثبت بـ «يقين مطلق» وهو تعبير لا يكثر من

استخدامه، أن المركبة كانت قد حلقت داخل الدوائر الحمراء المعلمة في الصورة مسافة إجمالية بلغت ٥٠٠ كيلو متر. وفي بيانه عن الأسلحة، كان العراق، قبل أسبوعين، قد قال إن مدى مركبته الجوية غير المأهولة، هو ٨٠ كيلو متراً. كانت الأمم المتحدة قد حددت المدى المسموح به بـ ١٥٠ كيلو متراً. والمركبة الجوية غير المأهولة هذه كانت قابلة للإطلاق من مؤخرة أي شاحنة ومزودة بطيار آلي. ومدى الـ ٥٠٠ كيلو متر كان كافياً لبلوغ أراضي بلدان مجاورة.

كان ماكلوخلين متنبهاً إلى احتمال أن تكون الصورة أقرب إلى التشويش والإرباك غير أنها بقيت مثيرة تماماً لمحللي الاستخبارات؛ لأن مسار التحليق كان قابلاً للتحديد بالكيلومتر الواحد. كذلك أوحى طول زمن الطيران بأن العراقيين كانوا واثقين إلى حد كبير بمنظومة التوجيه الآلية عندهم.

كان هذا انتهاكاً واضحاً على صعيد الأسلحة. بقي السؤال متركزاً حول الدافع إلى الاهتمام بمثل هذه المركبة الآلية. صحيح أن قدراتها على الإيصال كانت منذرة بالشؤم، غير أن أي برهان على ما كانوا يعتزمون القيام به غير متوفر.

وبعد ذلك قام ماكلوخلين باستعراض روايات مأخوذة من عدد من المصادر البصرية والمنشقين الهاربين عن مقطورات عملاقة متحركة زعمت هذه المصادر أنها منشآت إنتاج أسلحة بيولوجية قادرة على التحرك الدائم لمراوغة المفتشين.

في هذا المثال الأشد إثارة، قدم ماكلوخلين تفريغاً لنص حوار إذاعي ملتقط جرى بين اثنين من ضباط الحرس الجمهوري بيَّنهُ في رسومه التخطيطية.

«رحِّلْ!» قال الضابط الأول.

«رحِّلْ!» كرر الثاني.

«غاز أعصاب..»

«كلما ظهرت..»

شرح ماكلوخلين أن الضابط الأول كان يريد التأكد من إزالة أي إشارة إلى «غاز أعصاب» في التوجيهات الإذاعية. إذا لم يكن العراق متوفراً على مواد بيولوجية، أسلحة بيولوجية، أو غاز أعصاب، فلماذا كان ضابطا الحرس الجمهوري هذان يناقشانها؟

حول الأسلحة النووية، تحدث ماكلوخلين عن قيام صدام بعقد اجتماعات لفريق من علماء الذرة الرئيسيين في العراق، فريق عرف باسم «المافيا النووية» كثيراً ما تكررت وكان يتحدث فيها إلى العلماء بلغة «توحي» بوجود استعدادات لاستئناف البحوث الخاصة بالأسلحة النووية.

أيضاً قدم ماكلوخلين حواراً ملتقطاً آخر كان فيه ضابطان قد تحدثا عن إخفاء مركبة معدلة في شركة الكندي، وهي منشأة أسلحة دمار شامل معروفة، من الواضح أنها كانت مبعث قلق لأن المفتشين كانوا موشكين على الوصول إلى المكان.

لدى اختتام ماكلوخلين لعرضه، بدا على وجه الرئيس تعبير يقول: ما هذا؟ ثم سادت فترة صمت قصيرة.

«محاولة لطيفة» قال بوش «لا أظن أن هذا ... تماماً - ليس شيئاً يمكن لجو بيليك (رجل الشارع) أن يفهمه. أو يضع فيه كثيراً من ثقته.»

كارد أيضاً بقي قليل الحماسة. كان العرض مرتبكاً، مثقلاً بالتخبط. وبلغة الترويج في السوق، كانت الأمثلة عاجزة عن الإثارة، المخططات عاجزة عن لفت الأنظار، الصور عاجزة عن الإبهار، الحوارات الملتقطة دون مستوى الإقناع.

نظر بوش إلى تنت وقال: «قيل لي إن هذا هو كل ما يتوفر لدينا من معلومات استخباراتية عن امتلاكهم لأسلحة دمار شامل، وهل هذا هو أفضل ماعندنا؟»

عن نهاية إحدى الأرائك الموجودة في المكتب البيضوي. هب تنت واقفاً، نشر

ذراعيه في الهواء قائلاً: «إنها قضية ضربة مجلجلة!» بوصفه مدير الاستخبارات المركزية، الدي. سي. آي. DCI.

ألح عليه بوش: « إلى أي حد أنت واثق ياجورج ؟ »

قال تنت، وهو مهووس بكرة السلة يشاهد أكبر عدد ممكن من المباريات في جامعة جورجتاون التي درس فيها، إلى الأمام وقذف ذراعيه إلى الأعلى ثانية قائلاً: «لا تقلق! إنها ضربة مجلجلة!»

لم يكن من المألوف أن يبدو تنت على مثل هذه الدرجة من اليقين. من عرض ماكلوخلين كان كارد متوجساً من احتمال عدم وجود «هناك هناك،» ولكن تأكيد تنت المزدوج لعبارة (الضربة المجلجلة) كان جديراً بالتذكر من ناحية ومريحاً من ناحية ثانية.

لم ير تشيني أي سبب للتشكيك بتأكيد تنت. إنه رئيس وكالة الاستخبارات المركزية. آخر المطاف. ولابد له من أن يكون الأكثر اطلاعاً. فيما بعد تذكر الرئيس أن عرض ماكلوخلين «ما كان ليصمد أمام اختبار الزمن» ولكن تأكيد تنت المتكرر «كان بالغ الأهمية.»

قال بوش موجهاً كلامه إلى كارد ورايس: «ثمة حاجة إلى الكثير من العمل. دعونا نبحث عن أناس نجحوا فعلاً في صياغة قضية جديرة بأن تقنع أي هيئة محلفين.» كان يريد بعض المحامين، بعض وكلاء النيابة والمدعين العامين إذا دعت الحاجة. كان سيتعين عليهم أن يخرجوا إلى الملأ. إلى الجمهور بشيء ما.

قال الرئيس موجهاً كلامه لتنت: «حذار من تطاول أحد لاختطاف قضيتنا!» عدداً من المرات.

◆ ◆ ◆

لاحظ روف أن الرئيس كان «مشحوناً» فيما يخص بليكس. وكان الرئيس يعرف موقف روف من السويديين . بوصفه الأمريكي ذو الأصل النرويجي الأعلى مرتبة في البيت الأبيض - والوحيد ربما - كان روف راسخ الاقتناع بالازدواجية التاريخية للسويديين الذين كانوا قد اجتاحوا النروج في ١٨١٤ وحكموا البلاد حتى عام ١٩٠٥ . ثمة كانت ضغينة عميقة الجذور بين الطرفين، وقد شكلت وسيلة تندر دائمة بين الرئيس وروف.

في تاريخ متأخر من شهر كانون الأول / ديسمبر، قامت رايس بإطلاع الرئيس على تحقيق آخر عن بليكس. كان العمل متعثراً، بطيئاً . كان المفتشون يفتحون مستودعات سبق لها أن ظهرت، كما بدا واضحاً. زد على ذلك أن المفتشين كانوا يأخذون إجازات في أعياد الميلاد وأيام العطل الأخرى. لقد بينت التغطية الاستخباراتية الحساسة أن بليكس وفريقه لم يكونوا عاكفين على إجراء عمليات التفتيش الصارمة التي لا تعرف معنى الحواجز والتي كان بوش يحلم بها .

كان غضب بوش من العملية يتزايد باطراد . راح يقول: «إنه يزداد سوءاً يوماً بعد يوم.» بدا تكتيك الضغط على صدام مثيراً للشك. قال الرئيس: «لست واثقاً من أن هذا الأسلوب سينجح.» جرى اعتماد نظام التفتيش أملاً في إلقاء مسؤولية البرهان على صدام. كان على الزعيم العراقي أن يعلن عن أسلحته، يفصِّل أسباب اقتنائها، تسليمها، والبرهنة على أنه تجرد منها . أدى هذا إلى إيقاف مفهوم العدالة الأمريكي على رأسه - صار المتهم ملزماً بإثبات براءته - لم يكن العالم مستعداً لشراء هذه البضاعة. ربما كانت الحرب هي البديل الوحيد .

سأل الرئيس رايس: «ما رأيك؟ هل يتعين علينا أن نُقْدم على هذه؟» كان يعني الحرب. لم يكن قد سبق له قط أن ألح عليها طالباً الجواب.

ردت رايس: «نعم. ليست مصداقية أمريكا وحدها بل ومصداقية الجميع مهددة إذا ما بقي هذا القرصان الوغد قادراً مرة أخرى على إلحاق الهزيمة بالنظام الدولي.» ثم أضافت «غير أن المصداقية. على أهميتها، يجب ألا تدفعك إلى فعل شيء ينبغي ألا تفعله.» إلا إن هذا كان شيئاً أكبر، شيئاً لابد من الإقدام عليه، كما نَصَحَتْ. «إن من شأن السماح لهذا التهديد في هذا الجزء من العالم بأن يمارس لعبة الكرة الطائرة مع الأسرة الدولية بهذه الطريقة سوف يرتد علينا بلاء ذات يوم. ذلك هو السبب الكامن وراء الإقدام على الفعل.»

بقي بوش صامتاً.



بعد سنة قال الرئيس متذكراً: «كنت شديد القلق بشأن العملية، إزاء احتمال انغماسنا في عملية تقضي إلى تمكين صدام حسين من أن يصبح أقوى. كنت أخشى أن يصبح الناس متركزين لا على صدام، لا على الخطر الذي يمثله، لا على الخداع الذي يمارسه، بل على العملية فيغدو صدام قادراً على الإفلات، على نوع من الانزلاق والعبور خلسة مرة أخرى... كان سيفلت من الفخ مرة ثانية. كان من شأنه أن يصبح حتى أقوى. إذن كان ثمة قلق حقيقي إزاء ذلك.» كان الرئيس مصمماً على التعامل مع صدام وعدم السماح له بتضليلهم مرة أخرى.

قال بوش متذكراً: «كنت أتحدث مع كوندي باستمرار.» كان يحصل على ما كان يستجد بشأن أحدث عمليات التفتيش وبشأن بليكس. «على الدوام أنا على الهاتف قائلاً، في الأوقات المختلفة، أؤكد لك: "ما الذي يجري بحق الشيطان؟"

«كان ثمة بحر من الضغوط» أضاف الرئيس «أيوه. شعرت بالإرهاق الشديد.» وكل حفلات الأعياد في البيت الأبيض ضاعفت من وطأة الصعوبات نهاية عام

٢٠٠٢. «باتت عضلات فكي متجمدة، ليس فقط لأنني كنت أواصل الابتسام وأصافح هذا العدد الكبير من الأيدي. ثمة كان قدر كبير من التوتر خلال موسم الأعياد الأخير ذاك.»

اقر الرئيس بأنه لم يكن بحاجة إلى سؤال أي من كبار المسؤولين، باستثناء رايس، عما إذا كانوا يرون أن عليهم أن يقدموا على الحرب. كان يعرف سلفاً رأي تشيني. وقرر الا يسأل اياً من پاول او رمسفلد «كنت أستطيع تخمين رأييهما.» تذكر الرئيس. لم أكن بحاجة إلى التماس رأييهما بصدام حسين أو بكيفة التعامل مع صدام حسين. لو كنتَ جالساً حيث أجلس انا. لرايت كل شيء بوضوح كبير. اعتقد أن لدينا بيئة يشعر الناس فيها بأنهم أحرار في التعبير عما يدور في خلدهم.»

سألته: «هل سألت پاول ولو مرة؟ هل سبق لك أن قلت: «هل كنت تفعل هذا لو كنت جالساً هنا؟»

«لا» أجاب الرئيس.

كانت الشخصية الوحيدة الغائبة هي كارين هيوز Karen Hughes، إحدى كبار مستشاري بوش ومديرة اتصالاته لفترة طويلة من الزمن. ربما لم تكن هيوز هذه، التي كانت قد استقالت في الصيف الماضي للعودة إلى تكساس، أقل من أي شخص آخر دراية بطريقة بوش في التفكير والكلام. قال الرئيس متذكراً: «سألت كارين فأجابت: "إذا اخترت الذهاب إلى الحرب، فاستنفد جميع فرص بلوغ (هدف تغيير النظام) سلمياً" وكانت على صواب. نجحَتّ بالفعل في التقاط عواطفي الخاصة.»



24

ذهبت رايس إلى عمتها (خالتها) في عيد الميلاد، ومن هناك إلى مزرعة الرئيس في كروفورد، إلى ذلك السهل التكساسي القاحل حيث بدا أنها قد أمضت جزءاً مهماً من حياتها في الفترة الأخيرة. راودها إحساس بأن الأمور كانت دائبة على التغير، بأن بوش كان يزداد اقتناعاً بأن نقاط الضغط - الدبلوماسية، العمل السري، الخطب - لن تجدي نفعاً. لم يكن أي شيء مباشراً، وهي لم تلح عليه؛ لأنها كانت قد أوصت سلفاً بالسير في طريق الحرب.

ثم ما لبثت رايس، إما يوم الخميس أو يوم الجمعة بعد رأس السنة، أن حصلت على لقاء خاص مع الرئيس للحظة.

قال لها الرئيس: «إن هذا الضغط لا يبقى متماسكاً». لم يكن الجهد المبذول لوضع عمليات التفتيش الدولية على مسار متشدد لدفع صدام نحو الانهيار يؤتي أي ثمار. كان صدام يصبح أكثر ذكاء على صعيد كيفية التعامل مع بليكس. كان التوافق الدولي الإجماعي المتمثل بقرار تشرين الثاني/ نوفمبر بادئاً بالتآكل والاهتراء.

كانت الرسائل الصحفية المدعومة بصور عراقيين نشروا ابتسامات عريضة على وجوههم يرافقون المفتشين إلى مختلف الأمكنة ويفتحون أبواب المباني وهم يقولون: «انظروا، لا يوجد أي شيء هنا! تطيّر الصواب من رأس بوش، الذي كان يتحول بعد ذلك إلى قراءة التقارير الاستخباراتية الدائبة على تسليط الضوء على عراقيين مشغولين بنقل أشياء وإخفائها. ما كان يجري نقله لم يكن واضحاً، غير أن ما بدا مؤكداً هو أن صداماً كان قد عاد إلى الاعيبه القديمة وبات موشكاً على تضليل

العالم واستحماقه مرة أخرى. لاحظ بوش أن مظاهرات الاحتجاج المناوئة للحرب في المدن الأوروبية كما في الولايات المتحدة من شأنها أن تشد من أزر صدام وأن تجعله يتوهم بأن الولايات المتحدة لن تقدم قط على الغزو. قال بوش: «كيف يحصل هذا؟ إن صداماً سيصبح أقوى.»

كان بليكس قد قال لرايس: «لم أشكُ قط من ضغطكم العسكري. أعتقد أن هذا أمر جيد.» قامت رايس بإيصال ذلك إلى الرئيس.

سأل بوش: «إلى متى هو يعتقد بأنني سأستطيع فعل هذا؟ سنة؟ لا أستطيع. لا تستطيع الولايات المتحدة أن تبقى في هذه الحالة في حين يواصل صدام الاعيبه مع المفتشين.»

قالت رايس: «عليك أن تنفذ تهديدك. إذا كنت عازماً على اعتماد دبلوماسية القسر أو الإكراه، فإن عليك أن ترتفع إلى مستوى ذلك القرار.»

أبدى الرئيس قلقاً إزاء تأكيد وكالة الاستخبارات المركزية لخبر احتمال طي صفحة مصادر المعلومات والعمليات إذا ما حصل تأخير يفوق الحد المعقول. كان الحشد العسكري جارياً بكل زخمه، على نحو تراكمي ولكن فعلي. لم يكن إبقاء كل تلك القوات منتشرة إلى ما لا نهاية ممكناً. فالمعنويات وأشكال الدعم اللوجستي الجيدة كان من المتعذر إبقاؤها عالية. ليس هناك زمن لا نهائي. كان يحاول قراءة صدام. راح يقول بينه وبين نفسه: «يغدو أكثر، لا أقل. ثقة. يستطيع استغلال النظام الدولي مرة أخرى. نحن لا نكسب.

«ليس الزمن في صفنا هنا» قال بوش «ربما سيتعين علينا، سنكون ملزمين بالذهاب إلى الحرب.»

برأي رايس، كان هذا هو قرار بوش بشأن الحرب. كان قد وصل إلى نقطة اللا

عودة. أسئلة كثيرة بقيت معلقة، منها من وكيف يجب فرض حركة «كش ملك!» حاسمة؟

صار بوش سجين نوع من التناقض: بينه وبين نفسه كان قد قرر خوض الحرب، أما على الملأ وأمام الجمهور فكان عاكفاً على مواصلة العمل الدبلوماسي. إننا في عالم زاخر بالكثير من المآزق، من التنافر، ومن التشابك والتشارط.

❖ ❖ ❖

روف أيضاً نُقل جواً إلى كروفورد لقضاء جزء من عطلة الأعياد هناك. كان عاكفاً بهدوء على وضع الخطة السرية لحملة إعادة انتخاب بوش في ٢٠٠٤. حقاً كان روف قد كرس وقته وطاقته لهذا المشروع منذ لحظة إعلان فوز بوش في عام ٢٠٠٠. كان روف مؤمناً بجدوى التعلم من التاريخ وقد ظل دائباً على إجراء دراسات معمقة للأساليب التي اعتمدها رؤساء الجمهورية الجمهوريون الأخيرون في حملاتهم الرامية إلى إعادة الانتخاب. مكّنته نانسي ريغان Nancy Reagan من الاطلاع على دفاتر ريغان. أرسل روف موظفين موثوقين إلى مكتبة فورد لتحري ما كان قد فعله في ١٩٧٦. قام والد بوش بفتح بعض العلب لفريق عمل روف، أما جيم بيكر، الذي كان مدير حملة بوش الأب في ١٩٩٢ فقد زود أعضاء الفريق بأوراقه الشخصية.

جاء روف مصطحباً لوحة عرض نقاط قوة عن الاستراتيجية، الموضوعات البرنامج الزمني، وخطة إجمالية لكسب معركة إعادة الانتخاب. تمثل جوهر الرسالة بالنسبة إلى الرئيس بعبارة: انتبه يا رجل. إنها آتية!

حظي ببعض الوقت وحده مع الرئيس لتقديم تقريره الوجيز في البيت الريفي. كانت لورا بوش على الأريكة عاكفة على قراءة كتاب، متظاهرة بعدم الانتباه. كان

روف قادراً على رؤية أنها كانت آذاناً صاغية، منتبهة مئة بالمئة.

فتح كمبيوتره المحمول وعرض على بوش بأحرف كبيرة على خلفية زرقاء داكنة ما يلي:

على الصفحة الأولى:

الشخصية

زعيم قوي /تحرك جريء/ أفكار كبيرة/ سلام في العالم/ أمريكا أكثر تحلياً بالرأفة/ يهتم بأناس مثلي/

يقود فريقاً قوياً

على الصفحة الثانية:

القيم

الرحمة/ الوضوح المعنوي- الأخلاقي/ المسؤولية

الفرصة/ التملك

على الصفحة الثالثة:

القضايا

في المرتبة الأولى: الحرب على الإرهاب (ووت WOT = War on Terrorism) /الوطن/

الاقتصاد دائماً

في المرتبة الثانية: التعليم/ جدول أعمال (أجندة)

الرحمة/ الصحة/

الفرصة/ البيئة

قال روف إنه كان يتوقع أن تكون النتائج متقاربة كما كانت في ٢٠٠٠، نظراً لأن البلاد ما زالت تعاني من المستوى نفسه من الانقسام الذي كان سائداً آنذاك.

«متى تحب أن تبدأ إذا بقيت الأمور على حالها؟» سأل الرئيس.

لاحظ روف أن بوش كان قد ترشح في حملته الأولى يوم ٨ آذار/ مارس، ١٩٩٩، وكان بلوغ الهدف المحدد للموازنة صعباً، وإن تمكنوا من تحقيقه. بمعنى عملي لم يكونوا قد بدؤوا حتى حزيران ١٩٩٩ قال روف إنه كان يريد من الرئيس أن يبدأ في شباط /فبراير أو آذار/ مارس من هذا العام والشروع في عملية جمع التبرعات، ربما ٢٠٠ مليون من الدولارات. كان لديه برنامج زمني. كان سيتم عقد ما بين ١٢ و١٦ اجتماع جمع تبرعات في أشهر شباط/ فبراير، آذار/ مارس، ونيسان/ ابريل.

«نحن مقبلون على حرب» قام بوش بإبلاغ روف صراحة، مضيفاً «ولن يبقى أمامك إلا الانتظار.» كان الرجل قد قرر. إنها صيغة الرئيس لنصيحة: انتبه يا هذا! إنها آتية! كانت الحرب هي الخيار الوحيد. قال: «اللحظة آتية». صحيح أن الرئيس لم يحدد تاريخاً ولكنه ترك الانطباع الذي أوحى لروف باحتمال كونه في كانون الثاني / يناير، أو شباط / فبراير، أو آذار / مارس، حداً أقصى.

«تذكَّرْ مشكلة حملة أبيك! » علق روف منبهاً. ثم أضاف «كثيرون قالوا إنه تأخر كثيراً في إطلاق الحملة.»

رد عليه بوش: «أفهم». كان موجوداً. غير أن هذا قد تقرر وكانت هذه هي الطريقة التي ستُعتمد. وبالتالي فإن حملة جمع التبرعات المبكرة لم تعد واردة. ما كان ليستطيع الانخراط في حملة وهو عاكف على الاستعداد للحرب. كان لابد لخطط روف من أن تبقى مرنة. «سأبلغك متى سأكون مرتاحاً مع بدئك.»

«لا، وألف لا! يا إلهي!» قال روف لنفسه. غير أنه كان يعلم أنه كان عاجزاً عن

فعل أي شيء. مع احتمال مجيء الحرب لم يكن ثمة أي مجال للسعي إلى إقناع بوش بضرورة الذهاب إلى اجتماع جمع تبرعات في آلتونا أو أي مكان آخر بالمناسبة.



عائداً إلى واشنطن. التقى الرئيس مجلس وزرائه، في الاجتماع الوزاري الـ ١٥ خلال عامين اثنين. في الساعة ٢:٣٠ بعد الظهر من يوم ٦ كانون الثاني / يناير. لم يكن هذا هو الفريق الذي كان سيتخذ قرارات مهمة بشأن الحرب. قال الرئيس للفريق: «إذا لم يكن لدينا قضية نطرحها، فلن أرسل أي قوات.» وفيما بعد في حوار علني مع مراسلين أبدى نزوعاً تصالحياً فيما يخص صداماً، إذ قال: «حتى الآن يبدو كما لو أنه قد أخفق في الامتثال. غير أنه يملك وقتاً، ونحن نواصل دعوة صدام حسين إلى الإصغاء إلى ما يقوله العالم.»

بعد يومين اثنين التقى الرئيس زعماء الكونغرس من الحزبين كليهما. قال: « أحياناً يتطلب الأمر شيئاً من القوة، قليلاً من عرض العضلات، لضمان الدبلوماسية الجيدة. قبل أن أتخذ قراراً سأجعل ذلك السبب معروفاً لدى الكونغرس كما لدى كل شخص في أمريكا.»

لاحقاً، في الساعة ٥:٢٠ مساء. التقى في مقر الإقامة القادة الجمهوريين فقط، واتسم بأكبر قدر ممكن من الصراحة، إذ قال: «ثمة احتمال قوي أن أضطر إلى مخاطبة الأمة وإقحام الجيش في حرب. من الواضح أن صدام حسين لا يتجرد من السلاح. أريد للعملية أن تنجح قبل أن أطلق عنان الضوضاء.»

في ٩ كانون الثاني / يناير، جاء فرانكس إلى واشنطن لإطلاع الرئيس على آخر المستجدات المتعلقة بخطة الحرب. كان البند الرئيسي هو تركيا التي واصلت تخبطها حول السماح بانطلاق قوات قتال أمريكية من أراضيها. كان التأخير يعني رفع جبهة فرانكس الشمالية عن الطاولة.

كذلك أعرب الجنرال عن تخوفه من الفقدان المحتمل للتأييد من جانب الأردن والسعودية. فالملك الأردني عبد الله كان التقى في ذلك الأسبوع قادة تركيا، مصر، وسورية لتنسيق الجهود سعياً إلى الحؤول دون وقوع الحرب، مع أن الملك ملتزم سراً بدعم المجهود الحربي. كانت لتنت علاقة وثيقة مع الملك. فوكالة الاستخبارات المركزية كانت تسند جهاز المخابرات الأردنية بملايين الدولارات في السنة. غير أن الأكثرية من سكان المملكة فلسطينيون ومؤيدون لصدام في غالبيتهم الساحقة. الجزء الأكبر من نفط الأردن يأتي من العراق. وقد بقي الأردن زاخراً بعملاء العراق الناشطين بفعالية. بدا عبد الله في وضع خطر، وقد قرر، برأي تنت، الاضطلاع بحمل عبء القرن بموافقته على دعم أي حرب.

سأل بوش فرانكس عما كان يمكنه عمله بالتحديد الدقيق إذا ما أقدم صدام على اقتراف عمل استفزازي ما غداً.

جاء الجواب: هجوم جوي شبه مباشر باستخدام ما يقرب من ٤٠٠ طائرة في المنطقة، و١٥،٠٠٠ جندي أمريكي على الأرض في الكويت.

لدى مراجعته لنشرة القرار الخاص بالخطة الهجين، قال فرانكس إن يوم: ج (Day–C) كان هو اليوم الذي كان الرئيس سيقرر فيه نشر القوات. غير أنهم، لشروعهم منذ بعض الوقت في عمليات الانتشار، كانوا قد تجاوزوا بعض نقاط العلاّم الرئيسية على الطريق. كان من شأن عمليات الانتشار تلك أن تتواصل. ولم يكن الرئيس مضطراً للدخول في عمليات قتالية.

« أين هي محطة قراري الأخيرة؟» سأل بوش، مضيفاً «المحطة التي أقرر فيها الانخراط؟»

«لحظة تضع فيها القوات الخاصة الأمريكية على الأرض داخل العراق لتنفيذ

عمليات هجومية» رد فرانكس. وكان من شأن هذه العمليات أن تكون هي العمليات المخطط لها لاتقاء صواريخ سكود ولحماية حقول النفط العراقية الجنوبية والشمالية.

أفاد فرانكس بأنه سيكون جاهزاً للتنفيذ خلال نحو ثلاثة أسابيع قائلاً: «سأكون جاهزاً أوائل شباط / فبراير. غير أنني أميل في الواقع إلى الأول من آذار / مارس.»



في الساعة ٢:١٥ من بعد ظهر يوم ١٠ كانون الثاني / يناير اجتمع بوش وتشيني سراً مع ثلاثة معارضين عراقيين في المكتب البيضوي. كان الرئيس فظاً. قال: « أنا مؤمن بالحرية والسلام. أنا مؤمن بأن صدام حسين تهديد لأمريكا ولدول الجوار. عليه أن يتجرد من السلاح ولكنه لن يفعل، مما سيضطرنا إلى الإطاحة به وإزاحته عن السلطة. نحن عاجزون عن إرغامه على تغيير قلبه. قلبه منحوت من الصخر.»

كان ذلك قريباً من إعلان الحرب.

تدخل رند فرانكه Rend Francke وهو مدير صناديق دعم حقوق الإنسان والديمقراطية في العراق، قائلاً: « أعتقد أن الشعب العراقي قادر على ممارسة الديمقراطية إذا ما أتيحت له الفرصة.»

عبر الرئيس عن اهتمامه بقصص المعارضين العراقيين الشخصية.

بادر حاتم مخلص، وهو من تكريت أصلاً، إلى الكلام قائلاً: «صدام قتل أبي. عائلتي منخرطة في السياسة العراقية منذ عشرينيات القرن العشرين. أنا طبيب. جميع العراقيين مستعدون للخلاص من صدام حسين. الخوف هو مما سيأتي بعد

ذلك. يكمن الفرق في مشاركة الشعب العراقي. ذقت طعم الديمقراطية في خمسينيات القرن العشرين. عملي هو إنقاذ حياة الناس. لأنني أستطيع إنقاذ أرواح عراقية وأمريكية. أنتسب إلى الشعبين كليهما.»

سأله بوش «هل يحمل المواطن العراقي في العرق كرهاً لإسرائيل؟»

«لا» أجاب الطبيب «إن العراقيين شديدو الانطواء على الذات، مشغولون كلياً بأنفسهم.»

أما الكاتب كنعان مكية، الذي ألف كتاب جمهورية الخوف، الرواية الأكثر مصداقية لقصة التعذيب وللطبيعة السادية لحزب البعث وصعوده إلى السلطة، فقال إنه الآن عاكف على دراسة جرائم الحرب المقترفة من قبل النظام: «إنكم ستكسرون القالب. إنكم ستغيرون صورة الولايات المتحدة في المنطقة. الديمقراطية ممكنة فعلاً في العراق. من الممكن تحويل قوة التدمير إلى قوة بناء. العراقيون قادرون تقنياً. إنهم متعلمون يعيشون في قرى مكهربة.»

«إننا نخطط لأسوأ الأشياء» قال بوش.

علق أحدهم: «الناس سيستقبلون الجنود بالورود والحلوى.»

« وما يدريك؟ » سأل بوش.

جميعاً قالوا إن المعلومات آتية من أناس موجودين داخل العراق.

عن صدام، قال أحدهم: «أعتقد أن العراقيين أنفسهم سيمسكون به ويحاكمونه.» علق آخر ملقياً ظلاً من الشك: «من المحتمل أن يعثروا عليه. غير أن ذلك ليس مؤكداً.»

سألهم بوش: «ما الذي سيكون الشعب العراقي بحاجة إليه في المستقبل؟»

أتوا على ذكر النقد، المرافق الطبية، والإغاثة الإنسانية الفورية.

« هل هناك مجاعة؟» سأل بوش.

لا، ثمة كان سوء تغذية.

أفاد أحدهم بأن الشقاق بين الأقلية السنية الحاكمة والأكثرية الشيعية لم يكن عنيفاً كما يظن أناس موجودون خارج العراق عموماً. قام منهج صدام على مبدأ فرق تسد!

سألهم بوش: «مانوع النخبة؟ هل هم جيدو التعليم؟ هل بقي منهم عدد كبير أم جرى تطهيرهم كما حصل في الصين؟» ثم أضاف: «لنفترض أن صداماً قد رحل. ثمة فراغ. ما تصوركم؟»

تدخل تشيني الذي بقي مقلاً كعادته، قائلاً: « نحن بحاجة إلى يد خفيفة في مرحلة ما بعد الحرب.»

وافقه العراقيون على أهمية الاهتداء إلى الناس المناسبين الآن لملء الفراغ.

مشيراً إلى العراقيين الموجودين في الخارج، سألهم بوش: «هل سيعود من هم في الشتات؟»

«بلى» قال أحد المنفيين.

أكد الرئيس أن « إشاعة الديمقراطية في العراق ستكون أيسر إذا سارع العراقيون الذين يفهمون الديمقراطية وعاشوا في ظلها إلى العودة. كم من الوقت سيبقى الجيش مضطراً للبقاء؟»

قدر أحدهم المدة المطلوبة بسنتين أو ثلاث.

«كيف نتعامل مع "انطباع الولايات المتحدة تعين قائداً وتفرض علينا إرادتها؟"»

لم يكن لديهم أي جواب.

ثمة خدمات هيئة الإذاعة البريطانية، البي. بي. سي BBC . وصوت أمريكا الفي .أو.إي. VOA . فيما وراء البحار. قال أحدهم. أما خدمات الإنترنت فهي خدمات بيد الحكومة، وكل من يحاول الحصول على خط إنترنت للاطلاع على أخبار هذه الجماعة المعارضة أو تلك يعرض نفسه للقتل.

قال أحد المنفيين إنهم بحاجة إلى زعيم عراقي من طراز حميد قره ضاي في أفغانستان، ومجلس حكم من نوع ما، إضافة إلى الإنترنت، أسباب الترفيه، والطعام.

« لم نصل إلى أي نتائج» أبلغهم الرئيس منهياً الاجتماع. أعتبركم أنتم والشتات شركاء. وظيفتكم هي جمع الناس الراغبين في مد يد العون والاندفاع بقلوبهم وأرواحهم. أما وظيفتي أنا فهي حشد العالم وكسب الحرب. لست واثقاً من أن وظيفتي هي اختيار زعيم جديد للعراق. «أعتقد بصدق أن من شأن هذا أن يتمخض عن سلام بين إسرائيل والفلسطينيين. ربما بعد عام واحد من الآن سنكون رافعين أنخاب الانتصار ومنخرطين في الكلام عن عملية الانتقال إلى الحرية.»



لم يكن رمسفلد يريد أن يدخل يوماً إلى المكتب البيضوي ويقول للرئيس: «حسناً، اليوم هو اليوم(بلغ السيل الزبى). من الآن وصاعداً باتت مصداقية بلدنا معرضة للخطر ونحن نعرض الناس لهذا الخطر.» وبالتالي فقد ظل حريصاً على أن يضع نفسه في موقف الرئيس، ساعياً إلى الاطمئنان إلى أن بوش لم يذهب بعيداً على صعيد الكلمات، لغة الجسد، أو الحالة الذهنية إلى درجة يتعذر عليه معها أن يتراجع عن قرار يقضي بالذهاب إلى الحرب. من جهة أخرى، كان رمسفلد يشعر بأن هناك وقتاً يتمين فيه على الرئيس الا يكون راغباً في التراجع، وقادراً عليه في

الحقيقة. من شأن ذلك الوقت أن يحل قبل اضطرار بوش إلى اتخاذ قرار إدخال قوات عمليات خاصة إلى قلب العراق. نقطة اللاعودة حسب تعبير فرانكس، بمدة معقولة. قال رمسفلد متذكراً: « أستطيع أن أتذكر نفسي محاولاً إعطاءه أبكر إشارة ممكنة آتية على الطريق.»

ثم أضاف: « كما هي الحال في جميع هذه الأمور تأتي لحظة ننظر فيها إلى حدقة عين بلد مجاور ونفهمه بأن عليه أن يتخذ قراراً يعرضه للخطر. في تلك اللحظة لابد للرئيس من أن يكون مطلعاً على ذلك.» مع انشغال الولايات المتحدة بتحريك القوات بوتائر متنامية، ومع مبادرة وكالة الاستخبارات المركزية إلى استغلال المزيد من الفرص، باتت البلدان المجاورة - ولاسيما الأردن والعربية السعودية - في خطر على نحو متزايد باطراد.

قال رمسفلد للرئيس: «ثمة خطر تعرض وطننا وعلاقاتنا للعقاب وثمة احتمال تعريض أرواح بعض الناس للخطر إذا ما اتخذت قراراً يقضي بعدم السير قدماً.» ثم أضاف إن الطريقة الوحيدة للتخفيف من الأضرار تكمن في احتمال «توفر سبب شديد الوضوح لعدم السير قدماً، مثل استسلام صدام حسين أو مغادرته أو شيء من هذا القبيل.» كان الرئيس يتقدم بسرعة نحو نقطة فقدان خيار عدم الذهاب إلى الحرب. حسب زعم رمسفلد. فالعتبة الحقيقية للحرب كانت حين يبادر الناس والبلدان إلى تعريض أنفسهم للخطر بهذه الطريقة كرمى لعين الولايات المتحدة. كانت البلدان الأجنبية المنخرطة في عملية توفير المساعدات الخفية للولايات المتحدة في المنطقة موشكة على اتخاذ قرارات من شأنها أن تعرضها لقدر متزايد من الخطر. قال رمسفلد. مزيد من الأرواح ستكون في خطر. نقطة اللاعودة آتية.

أخذه الرئيس جانباً ذات يوم من أيام أوائل كانون الثاني / يناير وقال له : «اسمع أخشى أن نصبح مضطرين إلى الإقدام على هذا.» فصدام يضحك منهم،

يسخر بهم. لا أدري كيف سنتمكن من وضعه في موقف يقدم فيه على شيء بطريقة متناغمة مع مطالب الأمم المتحدة، ولابد لنا من أن نفترض أنه لن يفعل.»

كان هذا كافياً كقرار بالنسبة إلى رمسفلد. طلب إشراك بعض اللاعبين المفتاحيين الأجانب.

أعطى الرئيس موافقته، ولكنه ألح على رمسفلد ثانية: « أين هي محطتي الأخيرة لاتخاذ القرار؟ «لحظة تنظر إلى عيون أبناء شعبك ياسيادة الرئيس وتقول لهم: أنتم ذاهبون.»

25

عبر حواراتهما شبه اليومية كان تشيني قد أدرك أن الرئيس كان قد اتخذ قراره. اعتقد نائب الرئيس أن حكومات أخرى كانت ستبقى غير راغبة في التصعيد إلى أن يتم إقناعها بأن الولايات المتحدة كانت تعني التحرك العملي. اتفق في الرأي مع رمسفلد القائل بالنظر إلى حدقات عيون الناس والقول: إن هذا سيحصل! لم يكن ممكناً تركها على الرف بعد أن قامت الولايات المتحدة بقلب الأمور رأساً على عقب لا شيء إلا للانسحاب والتراجع متخلية عنها وتاركة إياها بجوار لاعب هو الشر عينه.

شعر تشيني بأن من شأن تخلفهم عن الركب، بعد قيام الرئيس بالإعلان عن هدفه المتمثل بتغيير النظام، بإطلاق عمليات نشر القوات وفعاليات وكالة الاستخبارات المركزية، أن يضعهم في موقف شبيه بموقف كلينتون. فيض من الكلام الجريء وغيض من التحرك العملي، جعجعة بلا طحن.

تمثل أحد البلدان الواجب إخطارها واجتذابها إلى الصف بالعربية السعودية. فاحتمال فقدان تأييدها، وهو احتمال كان فرانكس قد أثاره، وقبل بضعة أيام، كان شديد الإرباك. إن العربية السعودية متمتعة بوضع بالغ الحساسية والدقة في العالم الإسلامي. كان بن لادن قد أطلق حركته القاعدة عبر اتهام الملك السعودي، المعروف في العالم الإسلامي، رسمياً وروحياً، بلقب حامي الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، باستقدام الكفار، أفراد الجيش الأمريكي قبل حرب الخليج في ١٩٩١، في أثنائها، وبعدها. وقد كان تعاونها (تعاون السعودية) المتواصل مع الأمريكيين يصب

الماء في طاحونة الحركة الأصولية المتطرفة. والمشاركة السعودية في أي حرب خليجية ثانية (ثالثة بنظر البعض بعد الحرب الإيرانية - العراقية وحرب تحرير الكويت في ١٩٩١) ضد صدام، ولا سيما إذا ما أخفقت في وضع حد لحكمه. كانت بالغة الخطورة.

أراد تشيني أن يتولى شخصياً مهمة إيصال قرار محدد إلى السعوديين، وهو صاحب سابقة مازالت في الذاكرة على هذا الصعيد. فقبل ما يزيد على «دزينة» كاملة من الأعوام، ذات يوم جمعة وقع في ٣ آب/ أغسطس، ١٩٩٠- بعيد قيام صدام باجتياح الكويت والبدء بإطلاق التهديدات المتضخمة باقتحام العربية السعودية، كان تشيني، وهو وزير الدفاع عند والد بوش، قد استدعى السفير السعودي بندر ابن سلطان إلى مكتبه في البنتاغون. وما لبث أن التحق بهما كل من باول، رئيس هيئة رؤوساء الأركان المشتركة آنذاك. وبول وولفوفيتز، معاون وزير الدفاع لشؤون السياسة والتخطيط عندئذ.

كان الرئيس جورج إتش. دبليو. بوش قد أمر تشيني بإطلاع بندر على خطة الولايات المتحدة الحربية لحماية العربية السعودية وطرد صدام من الكويت. مع تزاحم الفريق حول الطاولة الصغيرة في مكتب الوزير بمبنى البنتاغون، قال تشيني للأمير إن الإدارة جادة. عرض نسخاً لصور عالية الوضوح بالغة السرية لفرق عراقية متخذة وضعية التوجه نحو العربية السعودية. قام باول بتلخيص خطة الولايات المتحدة الحربية، التي كانت ستمثل على ما يزيد على أربع فرق، ثلاث حاملات طائرات، إضافة إلى عدد غير قليل من أسراب سلاح الجو. قوة مؤلفة من ١٠٠,٠٠٠ إلى ٢٠٠,٠٠٠ في البداية. علق بندر قائلاً: «حسناً، إن هذا على الأقل يثبت أنكم جادون.» طلب تشيني وباول إذناً بنشر القوات عبر العربية السعودية، وتعهد بندر بأن يكون مؤيداً للفكرة في كلامه مع الملك فهد.

بعد مغادرة بندر، اقترح وولفوفيتز الشروع في استنفار قوات الولايات المتحدة.

«إنه ينفخ الدخان» قال پاول، طالباً الانتظار بإلحاح.

سرعان ما جرى نشر القوات الأمريكية داخل العربية السعودية.



هذه المرة قام تشيني بدعوة بندر إلى مكتبة في الجناح الغربي يوم السبت الواقع في ١١ كانون الثاني/ يناير، ٢٠٠٢ وكل من رمسفلد ورئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة الجنرال ريتشارد بي ميرز

Richard B. Meyers أيضاً كانا أيضاً هناك.

كان بندر يعتبر رمسفلد أقوى وأصلب وزراء الدفاع الذين سبق للولايات المتحدة أن عرفتهم بمن فيهم حتى تشيني بالذات. كان السبب يعود، حسب تقديرات بندر، إلى أن رمسفلد لم يكن يملك شيئاً يخسره. كان أكبر سناً، وزيراً للمرة الثانية، ومحققاً أشياء كثيرة. ثمة كان نوع من الثقة، بل الثقة المفرطة والمبالغ بها، مما جعله «القبضاي» النموذجي المؤهل لتولي قيادة عملية الاقتحام.

تمثل أحد أغراض اللقاء بإقناع بندر بأن من شأن إرسال القوات الأمريكية إلى العراق أن يتم عبر الأراضي السعودية ومنها. عمليات الإسناد والدعم في مجالات الإنقاذ، الاتصالات، وإعادة التزود بالوقود لن تعود كافية. من البلدان الخمس الأخرى المتاخمة للحدود العراقية فقط الكويت والمملكة الأردنية كانت مؤيدتين لفكرة القيام بعمل عسكري. بالتالي فإن الحدود السعودية - العراقية الممتدة ٥٠٠ ميل كانت حاسمة. إذ بدونها ستكون هناك فجوة عملاقة في الوسط بين حدود الكويت القصيرة ذات الـ ١٥٠ ميلاً والأردنية حتى الأقصر من ذلك إذ لا تزيد على ١٠٠ ميل.

جالساً على حافة الطاولة أخرج ميرز من حقيبته خارطة كبيرة معنونة بعبارة نوفورن FOFORN سري للغاية. ونوفورن هذه كانت تعني محظر على الأجانب. مادة سرية لا يجوز إطلاع أي مواطن أجنبي عليها.

اوضح ميرز أن الجزء الأول من خطة المعركة كان سيتألف من حملة قصف جوي مكثف على امتداد بضعة أيام كان من شأنه أن يستخدم ثلاثة إلى أربعة أضعاف المتفجرات التي استُخدمت في الأيام الـ ٤٢ من حرب الخليج الأولى (الثانية بعد العراقية ـ الإيرانية). أما الأهداف الرئيسية فكانت ستتألف من فرق الحرس الجمهوري، من الأجهزة الأمنية، ومن مراكز قيادة صدام وتحكمه بقواته. كان من شأن هجوم بري أن يتبع عبر الكويت، إضافة إلى جبهة شمالية عبر تركيا بفرقة المشاة الرابعة إذا ما وافقت تركيا على ذلك. تضمنت الخطة استخداماً كثيفاً لقوات خاصة ولوحدات استخبارات شبه عسكرية لتأمين كل مكان في العراق يمكن لصدام أن يطلق منه صواريخ أو طائرات ضد السعودية، الأردن، أو إسرائيل.

مشيراً إلى فرق وكالة الاستخبارات المركزية شبه العسكرية قال ميرز: «أؤكد لك يا أمير، أن عندنا مواقع في الداخل من الآن.»

اجابه بندر: «نعم، لقد جرى إطلاعي.»

كانت القوات الخاصة ونشطاء الاستخبارات ستوزع مبلغ ٣٠٠ مليون دولار أمريكي على زعماء عشائر عراقية، على قيادات دينية، وعلى عناصر من القوات المسلحة العراقية.

فقدنا عنصر المفاجأة الاستراتيجية بعد التورط في عملية الأمم المتحدة، وموشكون على فقدان عنصر المفاجأة التكتيكية، زعم ميرز. غير أن الجنرال فرانكس تمكن من اجتراح باقة من الأفكار التي ستجعل المباغتة أو المفاجأة أمراً غير ذي شأن إلى حد كبير.

كان لا بد من تغطية الحدود السعودية – العراقية الممتدة ٥٠٠ ميل. كان لابد من إطلاق الوحدات الخاصة، فرق الاستخبارات، وأدوات الضرب الأخرى من هناك، لو كانت ثمة أي بدائل ـ أكد ميرز ـ لما طلبوا هذا من السعوديين.

كان بندر يعلم أن بلده قادر على توفير غطاء لوصول قوات الولايات المتحدة عبر إغلاق مطار الجوف المدني في الصحراء الشمالية، مطيِّراً حوامات سعودية ليلاً ونهاراً بوصفها دوريات حدود روتينية لمدة أسبوع، والانسحاب بعد ذلك. تستطيع القوات الخاصة الأمريكية إقامة قاعدة هناك لا تكون لافتة لكثير من الأنظار.

محدقاً بانتباه في الخارطة السرية للغاية بطول ٣ أقدام وعرض قدمين سأل بندر، وهو طيار سعودي سابق، بضعة أسئلة عن العمليات الجوية. هل كان يستطيع الحصول على نسخة من الخارطة الكبيرة ليستند إليها وهو يرفع تقريره الوجيز إلى ولي العهد؟

«ذلك فوق مستوى مرتبتي» قال ميرز.

تدخل رمسفلد وقال: «سنزودك بكل المعلومات التي تريدها. أما فيما يخص الخريطة فأفضل الا أزودك بها، غير أنك تستطيع أن تسجل ملاحظات إذا أردت.»

«لا. ليس الأمر مهماً. دعني فقط ألقي نظرة» قال بندر. حاول استيعاب الخارطة كلها، – الأسهم البرية الكبيرة، مواقع القوات الخاصة أو فرق الاستخبارات، وهي مبينة على الخارطة.

بنظر بندر، لم يكن ثمة أي مجال يجعل السعوديين قادرين على الانخراط المباشر في الحرب إذا كانت هذه عملية عرض عضلات مجردة أملاً في دفع صدام إلى الرحيل أو التفاوض على تسوية سلمية. سوف يتكبد السعوديون خسارة هائلة إذا ما نجا صدام وبقي في الحكم. أما إذا كان رأس صدام هو المطلوب فهم

مستعدون للالتحاق بالركب. تذكر بندر جملة قالها الرئيس الأسبق لندون جونسون Lyndon Johnson. الا وهي: لا تقل لأي شخص "اذهب إلى الجحيم!؟" إلا إذا كنت عازماً بالفعل على إرساله إلى هناك.

نظر رمسفلد إلى بندر نظرة ذات مغزى وقال: «يمكنك الاعتماد على هذه.» ثم أضاف وهو يشير إلى الخارطة «يمكنك إعادتها إلى البنك. إن العملية ستتم.»

سأل بندر: «ما فرص نجاة صدام من هذه العملية؟» وعبر عن اعتقاده بأن صداماً كان عازماً على قتل من له علاقة على مستوى رفيع بحرب الخليج في ١٩٩١، بمن فيهم هو نفسه.

أحجم رمسفلد وميرز عن الإجابة.

سأل بندراً متشككاً: «صدام، هذه المرة. سيزاح نقطة!؟ ما الذي سيحدث له؟»

رد تشيني الذي طال سكوته كالعادة قائلاً: «تأكد يا أمير بندر أن صداماً سيصبح قطعة خبز محمصة لحظة ننطلق».

فيما يهم بالمغادرة قال بندر موجهاً كلامه لتشيني: «يذكرني هذا باجتماعنا. انت وأنا وكولن.»

ضحك تشيني.

«ولكن ليس ثمة أي دخان هذه المرة، سيادة نائب الرئيس» قال بندر متذكراً، على ما يبدو، تعليق باول الواخز الذي كُشف عنه فيما بعد.

ضحك تشيني ضحكة مكتومة مرة أخرى.

«أصبحت الآن مقتنعاً بأن هذا شيئاً أستطيع نقله إلى أميري عبدالله، وأعتقد أنني أستطيع إقناعه. غير أنني لا أستطيع أن أذهب وأقول له إن ميرز ورمسفلد

وأنت قلتم لي إن علي أن أنقل رسالة من الرئيس.»

«سأعود إليك، لن أتركك» رد نائب الرئيس.

غادر بندر وهو متأكد دون أدنى شك أنهم قد تعهدوا أمامه بأن الحرب آتية، ولكنه كان قد سمع وعوداً كبيرة من قبل لم تتحقق. كان يريد ضماناً يريد سماع التعهد من بوش مباشرة.

هناك في مكتب تشيني، عبر رمسفلد عن بعض القلق بشأن تعليق نائب الرئيس الذي وردت فيه عبارة «قطعة خبز محمصة.» قال: «بحق يسوع المسيح، عمَّ كان ذلك كله يا ديك؟»

«أردت أن أطرد كل الشكوك من رأسه حول ما نخطط لفعله» قال تشيني. أراد أن يكون بندر واثقاً مئة بالمئة غير أنه لم يكن يخطط للتحلي بالقدر نفسه من المباشرة مع أي شخص آخر. ألم يكن يعرف بندر منذ زمن طويل آخر المطاف؟!.

في سيارته «خربش» بندر تفاصيل معينة مما كان قد رآه على الخارطة. وحين وصل إلى البيت أخرج خارطة صماء كبيرة للمنطقة التي كان قد حصل عليها من وكالة الاستخبارات المركزية وراح يعيد تركيب الخطة قطعة قطعة.

في اليوم التالي، يوم الأحد، اتصلت رايس ببندر لتدعوه إلى لقاء الرئيس في اليوم التالي، يوم الإثنين، ١٢ كانون الثاني/ يناير. كان الأوربيون و«إعاقتهم» شديدي الحضور في ذهنَيْ كل من بوش وبندر. كانت فرنسا، ألمانيا، وروسيا منخرطة في لعبة كرة طائرة في الأمم المتحدة، مجادلة معنى عمليات التفتيش عن الأسلحة، آفاقها، وتوقيتها. كانت الدول الثلاث جميعاً تلح مطالبة بمنح بليكس مزيداً من الوقت.

قال بندر لبوش: «أولئك الناس لا يستطيعون أن ينفعوا ولا يستطيعون أن يضروا .» إنهم يحاولون أن يلعبوا لعبة أكبر منهم.

كان التقويم لحناً جميلاً دغدغ أذني بوش وأطربهما. غير أن الرئيس قال إنه كان يتلقى نصائح وتقارير من بعض أركان إدارته تؤكد بأنه مرشح في حال وقوع الحرب للاضطرار إلى التصارع مع ردود أفعال عربية وإسلامية هائلة قد تعرض المصالح الأمريكية للخطر.

«تفترض، يا سيادة الرئيس، أنك تهاجم العربية السعودية، وتحاول أسر الملك فهد. إن هذا هو صدام حسين. لن يذرف الناس أي دموع على صدام حسين، أما إذا هوجم مرة أخرى من جانب الأمريكيين ونجا، فإنه سيصبح أكبر من الحياة «بطلاً أسطورياً .» إذا نجا وبقي في السلطة بعد إنجازكم لهذه المهمة، مهما كانت، فإن الجميع سيبادرون، يقيناً، إلى إطاعة أوامره. إذا قال لهم هاجموا السفارة الأمريكية، فإنهم سيسارعون على مهاجمتها .»

دعا بندر رئيس الجمهورية إلى تذكر ما حدث قبل حرب ١٩٩١ في الخليج قائلاً: «تذكر ما قيل لأبيك - قيل إن العالم العربي سيهب من المحيط إلى الخليج.» ولكن ذلك لم يحصل في ذلك الوقت، وليس من شأنه أن يحصل هذه المرة، كما قال بندر. ستتمثل المشكلة بنجاة صدام. كان السعوديون بحاجة إلى تأكيد أن صداماً سيتحول إلى قطعة خبز محمصة.

سأله الرئيس: «حصلت على الإيجاز من ديك. رَمي. والجنرال ميرز؟»

«بلى».

«وهل من أسئلة لي أنا؟»

«لا، سيادة الرئيس.»

«تلك هي الرسالة التي أريدك إيصالها مني إلى ولي العهد» قال بوش. «إن الرسالة التي تحملها هي رسالتي. يا بندر.»

«هذا رائع، سيادة الرئيس.»

اعتقد بندر أن ذلك بالتحديد الدقيق هو ما كان تشيني قد لقنه.

«أي شيء آخر لي أنا؟»

«لا. سيادة الرئيس»

بات بندر قادراً على العودة إلى العربية السعودية وإطلاع ولي العهد على كل شيء كان قد رآه وسمعه من تشيني ورمسفلد كما لو كان صادراً مباشرة عن الرئيس. على الفور رُتبت لبندر جلسة خاصة مع ولي العهد وجرى عرض التفاصيل والخارطة .

كان ولي العهد عبد الله، وهو الأخ غير الشقيق البالغ الـ ٧٩ عاماً من العمر للملك فهد، هو صانع القرار الحقيقي في العربية السعودية. فحالة فهد الصحية لا تجعله مسؤولاً مباشراً. كان عبد الله يتلقى نصائح وتوصيات متضاربة من وزراء الدفاع، الأمن، والخارجية عنده - وما أشبهه ببوش في ذلك! كان يريد التوجه مباشرة إلى بندر. كان شديد التوق، مهووساً تقريباً، للحصول على الحد الأدنى من الالتزام، الحد الأدنى من المخاطرة. كيف كان الملك سيعالج هذا؟ كيف كان سيتعامل مع هذا الرئيس الأمريكي الشاب؟ ما نوع المزاج السائد في أمريكا؟ ما كانت الفرص؟ هل ثمة أي يقينيات هنا؟

حاول بندر أن يلتزم بالحقائق.

علق ولي العهد قائلاً: «الصمت هو المطلوب. لا تخبر أحداً بأي شيء إلى أن نقرر ما سنفعله»

لم يكن آندي كارد يرى أن قرار الذهاب إلى الحرب كان قراراً لا رجعة عنه لا لشيء إلا لأن تعهداً كان قد قُطع أمام دولة حليفة مثل السعودية. فبوش كان يمكن أن يتراجع. من المؤكد أن من شأن ذلك أن يجر عواقب معينة، ربما كبرى وخطيرة. أما إذا ما بات ضرورياً، إذا تبين أن القرار هو القرار الصائب، فقد كانوا قادرين على التعامل مع العواقب، وعلى دفع الثمن بصرف النظر عن مدى فداحته سياسياً. سبق للسعوديين ومعهم آخرون أن أُحبطوا وخُذلوا من قبل. لم تكن الإدارة محصورة في الزاوية. غير أن كارد لم تتح له أي فرصة لإطلاع الرئيس على رأيه.



فيما كان بوش مجتمعاً مع بندر كان اللفتنانت جنرال ما يكل هايدن، مدير وكالة الأمن القومي. الإن. إس. اي NAS، مجتمعاً مع كبار موظفي الوكالة في قاعة فريدمان بمقر قيادة وكالة الأمن القومي في «جلسة مدينية» بالغة السرية. كان يقول للحضور إن عمليات الاعتراض الأكثر حساسية وكتماناً كانت ستنزل إلى الميدان. وعلى الرغم من أنه كان دائباً على العمل في المشروع منذ أربعة أشهر، فقد أصدر رسمياً ما عُرف باسم «بيان نوايا المدير» بشأن الحرب على العراق. ومما جاء في البيان «إذا أُمرتُ، اعتزم إدارة عملية تأمين الإشارات الرمزية (السيغنت SIGINT) والمعلومات (حماية اتصالات أمريكية آمنة) ستكون ملبية لأغراض القائد الميداني المتمثلة بالصدمة، السرعة، والرهبة، مع تزويد صانعي القرار السياسي أيضاً بمعلومات يمكنها أن تشكل أساساً للعمل وراهنة.»

كان من شأن السرعة والرشاقة أن يتم بلوغهما عن طريق «التوزيع اللامركزي» قال هايدن، قاصداً ذهاب الرسائل الملتقطة مباشرة إلى ميدان المعركة. وكان هذا سيتم من خلال غرفة «دردشة» الزيكرون حيث ستكون العمليات الاستخباراتية والعسكرية موصولة. لن يكون ثمة أي «تراتب هرمي تقليدي» بل «تقاسم» وتعاون

داخل وكالة الأمن القومي (NSA). بين جملة المرافق الاستخباراتية القومية الكبيرة والاستخبارات التكتيكية الواردة من مسرح العمليات، مع أجهزة الاستخبارات الأمريكية الأخرى، مع قوات ميدانية حليفة، ومع أجهزة استخبارات أجنبية.

«سنقوم بدفع العمل الاستخباراتي إلى تلك الأمكنة التي ينبغي أن تكون فيها؛ أتوقع من القادة على جميع المستويات أن يبادروا بنشاط إلى إزالة العقبات الواقفة في طريق الانتشار». إحدى مشكلات ما قبل ٩/١١. أراد هايدن أن يطمئن على أنهم كانوا منظمين بطريقة تمكن المستمعين والمحللين «من الحفاظ على إيقاع ميداني قابل للدوام.»



كانت إحدى وظائف رايس، كما وصفتها هي، «قراءة الوزيرين» - پول ورمسفلد. طالما أن الرئيس كان قد فاتح رمسفلد عن قراره الخاص بالذهاب إلى الحرب. فقد كان من الأفضل أن يفاتح پاول. وبسرعة. فپاول كان قريباً من بندر الذي بات الآن مطلعاً على القرار.

قالت رايس: «سيادة الرئيس. إذا كنت متوجهاً إلى حيث تعتقد أن من شأن هذا أن يحدث حقاً، فإن عليك أن تستقبل كولن وتفاتحه.» فقد كان پاول مضطلعاً بالمهمة الأصعب المتمثلة بإبقاء المسار الدبلوماسية سالكاً.

وهكذا فإن پاول وبوش اجتمعا في المكتب البيضوي يوم الإثنين الواقع في ١٣ كانون الثاني/ يناير. كان الرئيس جالساً في كرسيه المألوف أمام الموقد وكان الوزير في الكرسي المحجوز للضيف الزائر أو أكبر موظفي الولايات المتحدة. ولو لمرة واحدة، لم يكن أي من تشيني أو رايس محوّماً.

أثنى بوش على پاول مطرياً عمله الشاق على المسار الدبلوماسي. «لا تقوم

عمليات التفتيش بإيصالنا إلى هناك» قال الرئيس، فاتحاً باب العمل. لم تكن عمليات التفتيش الدولية إلا نوعاً من التسكع الفارغ من هنا إلى هناك، كما لم يكن صدام مبدياً أيمانية لامتثال حقيقي. «حقاً أعتقد أنني سأضطر لفعل هذا.» قال الرئيس إنه كان قد اتخذ قراره القاضي بشن الحرب. لا بد للولايات المتحدة من أن تخوض الحرب.

«أمتأكد أنت؟» سأل پاول.

بلى. كان ذلك هو بوش الواثق، المقتنع، جاءت لغة جسده المحكم، المندفع إلى الأمام، مفتول العضلات، مؤكدة لكلماته. لقد كان بوش الأيام التي أعقبت تاريخ ٩/١١.

بصيغة نصف استفهامية قال پاول: «أنت متفهم للعواقب.» على امتداد ما يقرب من ستة أشهر دأب على طرق الأطروحة نفسها- كانت الولايات المتحدة ستتورط في عملية إسقاط النظام، ستضطر إلى حكم العراق، ولن تكون الآثار الارتدادية في الشرق الأوسط والعالم قابلة للتنبؤ. كان الاندفاع نحو الحرب قد أجهز على جل الأوكسجين من كل قضية أخرى في العلاقات الخارجية. ولن تلبث الحرب أن تحتكر بالتأكيد كل الهواء والانتباه.

«نعم، أنا متفهم» أجاب الرئيس.

«أتعلم أنك ستكون مالكاً لهذا المكان؟» قال پاول. مذكراً بوش بما كان قد قال له في أثناء عشائهما يوم ٥ آب/ أغسطس. كان من شأن أي اجتياح أن يعني تولي المسؤولية عن آمال العراق، تطلعاته، ومشكلاته كلها. لم يكن پاول واثقاً من استيعاب بوش الكامل لمعنى الملكية الكاملة وعواقبها.

«غير أنني أعتقد أن علي أن أفعل هذا» قال الرئيس.

«صحيح» قال پاول.

علق بوش قائلاً: «أردت فقط أن أعلمك بذلك» موضحاً أن ما جرى لم يكن نقاشاً، بل قياماً للرئيس بإبلاغ أحد أعضاء مجلس وزرائه قراره. كان مفترق الطرق قد تم الوصول إليه وكان بوش قد اختار طريق الحرب.

بوصفه الوحيد في حلقة بوش الداخلية الذي كان يلح بصدق وفعالية على المطالبة باعتماد المسار الدبلوماسي، أدرك پاول أن الرئيس أراد أن يتأكد من أنه ـ پاول ـ كان سيؤيد الحرب. بطريقة ما كانت العملية اختباراً للشجاعة، غير أن پاول لم يشعر قط أن الرئيس كان يجري اختبار ولاء. ما من شيء على أرض الرب كان يستطيع أن يجعله يطيق ذلك. كان من شأن الأمر أن يكون سلوك عدم وفاء يتعذر تصوره للرئيس، لشرف پاول العسكري بالذات، لجيش الولايات المتحدة، ولا سيما لبضع مئات الآلاف الموشكين على الانخراط في الحرب. ظل پاول يذكر نفسه أن الشباب الصغار هم الذين كانوا يقاتلون.

كان بوش قد استغرق وقتاً طويلاً ليصل إلى هذه المحطة. كانت اللحظة قد أتت بعد ١٢ عاماً من ألاعيب صدام عقب حرب الخليج الأولى ﴿الثانية﴾، بعد سنة كاملة من التخطيط الحربي، بعد أربعة أشهر من دبلوماسية الأمم المتحدة المضنية. مضى أكثر من ١٥ شهراً منذ ٩/١١. وبالتالي فإن الأمر قد يبدو أشبه بنوع من الدراسة لموضوع الصبر وضبط النفس. لم يكن سهلاً على پاول شراء ذلك الصبر. كان قد تعين عليه أن ينخرط في المعمعة ويبتاعه كل يوم. أن يبتاعه مع جهاز الأمن القومي الواسع المحيط برئيس للجمهورية ولا سيما تشيني، رمسفلد، والشباب هناك في الدفاع.

سأله الرئيس الآن: «هل أنت معي في هذا الأمر؟» أعتقد أن علي أن أفعله. أريدك معي.»

كانت تلك لحظة غير عادية. كان الرئيس يرجو، يكاد يتوسل وزير خارجيته، أكبر أعضاء مجلس وزرائه والشخصية الأكثر بروزاً في الإدارة باستثنائه هو. لم يكن ثمة أي مجال للمساومة، مجرد سؤال: نعم أم لا، طرة أم نقش.

أجاب باول قائلاً: «سأفعل افضل ما أستطيعه، نعم. سيدي، سأدعمك. أنا معك، يا سيادة الرئيس!»

قال الرئيس للجنرال السابق: «آن أوان ارتداء زيك الحربي» صحيح إنه كان قادراً على الاستمرار في اعتمار قبعته الدبلوماسية، ولكن الأمور كانت قد تغيرت.

«إنه سيقْدم عليها» قال باول لنفسه وهو يغادر المكان. كانت لحظة حاسمة. كان قد جاء ليتأكد من أن هذا الرئيس لم يكن من النوع المتردد. لم يكن يتذكر أن بوش أعاد النظر بقراراته، كرر مناقشة الموضوعات، قام بروز الآراء والحجج. يجب عليه أن يفعل، حسب قناعته. كان باول يفعله على الدوام، ربما في ساعة متأخرة من الليل، خطر ببال باول. ربما لم يكن يفعل ذلك على الإطلاق؛ هل كان الأمر ممكناً؟ بدا الرئيس شديد الثقة بالنفس وهو يتكلم.

أدرك باول أن مهمته تمثلت بمواصلة المسار الدبلوماسي وإيصاله إلى نهايته. كان استنتاج الرئيس واضحاً: لم يكن ثمة أي مجال لتجنب الحرب. غير أن أساس ذلك كان هو إيمان بوش بأن مفاوضات الأمم المتحدة وعمليات التفتيش كانت تتزلق جنوباً. «قد يكون ثمة أسلوب لتجنب هذا» قال باول لنفسه. متصوراً أنه لا يزال يملك وقتاً. على الرغم من أن بوش كان قد عبر النهر. كان باول يعرف أن من شأن الجهود الدبلوماسية أن تسبب للرئيس مشكلة لأنها كانت ربما قادرة على جعله يخوض النهر عائداً إلى الضفة التي انطلق منها. سارت محاكمة باول المنطقية على النحو التالي: لم يكن هدفه «فك براغي» القرار الرئاسي، بل لعب الورقة

الدبلوماسية التي كانت بيده. وحسب رأيه. لم يكن يفعل هذا ضد تمنيات رئيسه، بل ضد غرائزه فقط. تلك الغرائز الدائبة على الإيحاء بتعذر نجاح العمل الدبلوماسي.

عملية التمييز بين التمنيات من جهة والغرائز من جهة أخرى هذه كانت لعبة حساسة وخطرة، ومع ذلك فإن الرئيس لم يكن قد بادر - ولو لمرة واحدة - في أثناء جميع النقاشات، الاجتماعات الدردشات، وجلسات الأخذ والعطاء، إلى طرح السؤال التالي على پاول: «هل ستفعل هذا؟ ما نصيحتك الإجمالية؟ ما الخلاصة الجوهرية؟»

ربما كان الرئيس خائفاً من الإجابة. ربما كان پاول خائفاً من تقديمها. كان من شأنها أن تشكل، آخر المطاف، فرصة للإقرار بأنهما مختلفان. غير أنهما لم يكونا قد وصلا إلى ذلك السؤال الجوهري، ولم يكن پاول مستعداً للدفع. لم يكن راغباً في اقتحام ذلك الغطاء الرئاسي الأكثر خصوصية والتطفل عليه. ذلك الغطاء الذي كان الرئيس يتخذ فيه قرارات الحرب والسلم. ما لم يكن مدعواً ومرحباً به. لم يكن قد تلقى أي دعوة.

كان پاول يرى أن احتواء صدام ممكن وأنه لن يلبث أن ينطفئ مع مرور الزمن. وقد يذوي بسرعة أكبر في ظل جملة الضغوط المتواصلة. الدبلوماسية، الاقتصادية، العسكرية، والاستخباراتية المدبرة من قبل وكالة الاستخبارات المركزية. وعلى النقيض مما كان الرئيس يقوله فإن الوقت ربما كان في صفهم. فصدام كان قد عُزل عزلة شبه كاملة وبقي بلا أصدقاء في الأسرة الدولية بعد صدور قرار ١٤٤١ الدولي في تشرين الثاني/ نوفمبر. كانت تلك لحظة حد أقصى من الضغط، غير أن الضغوط الدبلوماسية كانت قد بدأت تخمد.

احياناً كان باول. مع اقرب اصدقائه، شبه قانط. فرئيسه ووطنه كانا مندفعين نحو حرب كان هو يرى أن من الممكن تجنبها، رغم أنه هو نفسه لم يكن مستعداً لإدارة الظهر. كان يعلم أن من شأن الأمر أن يصبح ما أطلق عليه اسم: «دورية طويلة» حين كان الرئيس قد أقدم على تحدي صدام حسين في الأمم المتحدة يوم ١٢أيلول/سبتمبر، ٢٠٠٢. لم يكن باول مستعداً لأن يتخلى عن الرئيس عند مفترق الطرق. كان سيفعل ذلك فقط إذا رأى جميع حجج تسويغ الحرب كانت باطلة مئة بالمئة. وهي لم تكن كذلك. لم يكن اقل من اي شخص آخر رغبة في رحيل الوغد (ابن الحرام).

ثمة اعتبار آخر تمثل بالتساؤل عما إذا كانت الحرب لا أخلاقية. هنا أيضاً بقي باول عاجزاً عن حل اللغز. من الواضح أن الرئيس كان مقتنعاً ١٠٠ بالمئة أنها صحيحة وأخلاقية على حد سواء.

لم يكن قد تلقى أي توجيه بقطع المسار الدلوماسي. ظل باول يحاكم: ما زال هناك احتمال أن يوفَّق في إخراج أرنب من القبعة (اجتراح معجزة) في الأمم المتحدة. كان من شأن ذلك، برأيه، أن يريح بوش ولكن دون أن يفرحه. يريحه لأن جميع الأشياء التي كان باول قد حذره منها لم تكن لتحدث، ولا يفرحه لأن ابن الحرام كان سيبقى حيث هو.

كان من شأن العمل الدبلوماسي الآن أن يأخذ مواصفات أي استعراض. أو الحركات الإيمائية التشكيلية المنمطة لقصة الكابوكي اليابانية التي كثيراً ما كان باول يستشهد بها.

لم يكن قد استخف بمدى تصميم الرئيس على أن تمكين ابن الحرام من البقاء لم يعد واحداً من الخيارات. إلا أنه ربما كان قد قلل من شأن مدى فائدته الخاصة

وجدواه بالنسبة إلى رئيس ونائب رئيس مصممين على الحرب.

بعد اجتماعه مع پاول، قام الرئيس بإطلاع آندي كارد على المحصلة. قال بوش: «قلت لپاول إنه سيتعين علينا، على ما يبدو، أن نفعل هذا، وأنا عازم على فعله. وقال هو إنه سيكون معي.»

كان كارد يعتقد أن آخرين، ولا سيما پاول، كان يراودهم أمل زائف باحتمال الاهتداء إلى حل دبلوماسي. أما الرئيس، المضطر الآن لإبلاغ الآخرين بأن عليهم أن يوافقوا على إطلاق العملية، فلا وألف لا.

من جهة أخرى، كان من شأن الاجتماع أن يفضي. وقد تعين على رئيس جهاز العاملين أن يفكر على الدوام بالبديل، تلك كانت وظيفته. إلى جعل پاول يتحلى بقدر أكبر ولو قليلاً من الإبداع والنشاط في السعي إلى إيجاد منفذ يعيد إلى الطريق الدبلوماسية.

أحياناً، كان كارد يتصور الرئيس فارس سيرك بقدم على جواد «دبلوماسي» وأخرى على جواد «الحرب» ممسكاً بالمقودين كليهما، مندفعاً في طريق مفضية إلى تغيير النظام. وعلى عيني كل من الجوادين غمامة. بات من الواضح الآن أن الدبلوماسية لم تكن مؤهلة لتمكينه من بلوغ هدفه، فقرر بوش أن يترك حبل ذلك الجواد الدبلوماسي على الغارب ويبقى واقفاً فوق جواد الحرب فقط.

بعد نحو عام، أمضيتُ ما يقرب من عشر دقائق مستعرضاً مع الرئيس حواره مع پاول، في مسعى لجلاء جملة الذكريات المختلفة. أخيراً قال الرئيس: «يبدو كما لو كنت قد استوعبت الأمر استيعاباً صحيحاً.». «لقد كان زمناً مشحوناً بالتوتر» قال الرئيس، ثم أضاف «كان ذلك حواراً ودياً جداً. أميل إلى نعته بالود. كنت جالساً هنا،» قال الرئيس وهو يربت على كرسيه في المكتب البيضوي ربتة خفيفة، «وكان هو

هنا. مشيراً إلى كرسي كبار المسؤولين الرئيسي. «لم يكن حواراً طويلاً. أعتقد أن الجذع (كتلة الحطب الضخمة) سيبين أنه كان قصيراً نسبياً.» كان الرئيس على صواب. فسجلات البيت الأبيض تبين أنه قد كان اجتماع ١٢- دقيقة. «لم يكن ثمة جدل كثير: يبدو كما لو كنا مندفعين نحو الحرب.»



26

وكذلك فإن الرئيس قد أكد قائلاً: «لم أكن بحاجة إلى أذن منه» على الرغم من أنه كان قد رجا باول طالباً منه أن يقف إلى جانبه وأن يدعمه.

قبل لقاء كان مقرراً عقده مع الرئيس البولوني ألكسندر كواسنيوسلي في اليوم التالي، صباح يوم الثلاثاء الواقع في ١٤ كانون الثاني/ يناير، تجلى إحباط بوش مرة أخرى أمام الملأ حين غير موقفه من الوقت المتبقي لصدام. ففي حين أنه كان قد قال على مسامع الجمهور قبل ثمانية أيام إن صداماً «يملك وقتاً» أفاد المراسلين في صباح ذلك اليوم قائلاً: «وقت صدام موشك على النفاد».

كان بوش مدركاً لحقيقة عدم امتلاكه صديقاً في القارة الأوربية أفضل من الرئيس البولوني ذي الشعبية الواسعة في فترته الرئاسية الثانية الذي كان قد وافق على إرسال قوات إلى الحرب. كان الزوجان بوش قد استضافا كلاً من كواسنيوسكي البالغ الـ٤٧ من العمر وزوجه على مائدة عشاء رسمية نادرة الحدوث.

علق كواسنيوسكي خلال لقائهما الخاص قائلاً: «إن مستوى نزعة العداء لأمريكا عالية جداً.» كان الرئيس البولوني يعاني كثيراً جراء دعمه لبوش.

رد عليه بوش «من شأن النجاح أن يساعد على تغيير الرأي العام، إذا أدخلنا قوات، فإننا سنطعم الشعب العراقي»، قال الرئيس كما لو أن من شأن مثل تلك اللفتة الإنسانية أن تؤثر في الرأي العام ببولونيا. أضاف إن هناك بروتوكولاً يمكن لأي بلد أن يتبعه لإقناع العالم بأنه عاكف على التحرر من الأسلحة غير التقليدية - بروتوكولاً كانت جنوب إفريقيا قد اتبعته، عاكفة علناً ودونما تردد على فتح

السجلات والمرافق أمام المفتشين. أما صدام فلم يفعل. ثم قال بوش «حسبما أرى أن أوان التحرك بسرعة غير أننا لن نتصرف بتهور.» مضيفاً: «إلا أن الوقت ينفد، من الأفضل عاجلاً بدلاً من آجلاً.»

قال الرئيس البولوني: «سوف ننتصر»، ولكنه أضاف بادياً مثل كولن باول، بشيء من الحزن والكآبة، «ولكن ماذا عن العواقب؟»، سكت لحظة ثم استأنف يقول: «ثمة حاجة إلى تأييد دولي واسع وعريض، نحن معكم، كونوا مطمئنين، لعل الخطر هو أن تنهار الأمم المتحدة، ما الذي سيحل محلها؟»

كانت هذه أسئلة عويصة راوغها بوش مكتفياً بقول: «نحن نؤمن أن الإسلام، مثل المسيحية، يمكن أن ينمو بطريقة حرة وديمقراطية.»

بنظر بوش كان الأمران المهمان هما أن بولونيا كانت ستقف معه أولاً وأنها سوف ترسل قوات مسلحة ثانياً.



في اليوم التالي، يوم ١٥ كانون الثاني/ يناير التقى بوش مجلس وزراء الحرب لسماع تفاصيل برامج الإغاثة الغذائية وغيرها من الأعمال الخيرية المخططة. لعل هذه هي عملية الإغاثة الإنسانية الأفضل التي سبق لأي إنسان أن خطط لها قال مدير شؤون الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي إليوت آبرامز Elliot Ab-rams للرئيس والآخرين، وآبرامز هذا موظف خارجية محافظ متشدد في إدارة ريغان، كان قد اعترف بذنب إخفاء معلومات عن الكونغرس في قضية إيران - كونترا، ثم ما لبث أن حصل على عفو من بوش الأب في ١٩٩٢، وهو في الخامسة والخمسين من العمر، ذا شخصية مثيرة للجدل، غير أن رايس وهادلي كانا يثمنانه عالياً بوصفه حصان (حمار) شغل مكتب جلوداً، كان قد ساهم في التخطيط لأعمال

الإغاثة في الحرب الأفغانية.

قام آبرامز بإبلاغ الرئيس أن العراق كان سلفاً يعاني من النقص في الغذاء. ثمة كان ٨٠٠,٠٠٠ نسمة من النازحين الداخليين و ٧٤٠,٠٠٠ نسمة من اللاجئين. بعض الغذاء كان يُقدم عبر برنامج النفط من أجل الغذاء لدى الأمم المتحدة الذي كان يبيح البيع المشروع لكميات محدودة من النفط العراقي لشراء المواد الغذائية. نحو ٦٠ بالمئة من العراقيين كانوا معتمدين كلياً على البرنامج، ونسبة أعلى من ذلك على نحو جزئي. لقد قُدر أن الحرب قد تتمخض عن تشريد مليونين إضافيين. كانت الولايات المتحدة عاكفة على تخزين الأطعمة، الخيم، والماء لمليون من الناس، كما كانت دائبة على تمويل وكالات دولية أخرى ومنظمات غير حكومية مختلفة منخرطة بعمليات توزيع المعونات لتخزين ما يكفي لمليون آخر.

قام أبرامز وروبن كليفلاند Robin Cleveland، وهو احد مختصي الأمن القومي في مكتب الموازنة لدى بوش، بإبلاغ الرئيس أن أموالاً تعين نقلها بهدوء تام إلى هذه المنظمات غير الحكومية - بتمويه المبالغ على أنها تبرعات ومساهمات عامة في بعض الحالات - لأن عدداً كبيراً من هذه الجماعات لم ترغب في الظهور بمظهر جهات مؤيدة للحرب. كان من شأن ذلك كله أن يكون ناجزاً مع حلول نهاية شهر شباط/ فبراير. فرمسفلد كان يمارس الضغط على الجميع دافعاً إياهم إلى إعداد تقويمات حول حاجات أعمال إعادة البناء وتكاليفها، حتى تكون الإدارة قادرة على تقديم طلب الميزانية التكميلية إلى الكونغرس في أول أيام الحرب والشروع في التعاقد على تلزيم الأعمال والمشروعات.

وقد قام أبرامز بإلقاء الضوء على أن العدد الدقيق للاجئين والنازحين سيتوقف على التوازنات الإثنية - البينية، أعمال الانتقام، والفزع من أسلحة الدمار الشامل، جنباً إلى جنب مع مدى القتال وحدته، إضافة إلى القدرة على إيصال المعونات إلى

الأهالي حيث يكونون كي لا يبادروا إلى الرحيل. كان الهدف هو الدخول بسرعة مع وقوع المناطق تحت سيطرة الولايات المتحدة.

وقدم آبرامز وكليفلاند إلى بوش صورة إجمالية للعمليات - أين كانت مراكز العمليات المدنية العسكرية وفرق المساعدة في الكوارث الأمريكية ستتوزع؟ ما لذي كانت ستفعله هيئة الأمم المتحدة للاجئين واللجنة الدولية للصليب الأحمر؟ ما الوقت الذي كان سيتطلبه استعادة برنامج النفط من أجل الغذاء وتفعيله ثانية؟ ومع أن استئناف برنامج النفط من أجل الغذاء كان سبباً لإثارة الفزع والذعر فإن آبرامز أكد أن الاستنتاج المستخلص تمثل بضرورة مواصلة العمل بما هو متوفر عند البداية على الأقل.

عبر الرئيس عن موافقته على الرأي.

تمثل جانب آخر بحماية البنية التحتية للأعمال الخيرية الإنسانية داخل العراق وإبقاء المستشفيات وشبكات الصرف الصحي بمنأى عن القصف. أعضاء على مستوى من المسؤولية في أجهزة التخطيط لدى مجلس الأمن القومي، وزارة الدفاع، ووكالة التنمية الدولية (اليو. إس. إيد USAID)، كانوا قد ذهبوا إلى قيادة فرانكس المركزية في تشرين الثاني/ نوفمبر، كما أفاد آبرامز، ليدلوا بدلائهم فيما يخص الخطة العسكرية وليحددوا قائمة المواقع المحظر قصفها مثل المستوصفات الطبية، مشروعات المياه، والشبكات الكهربائية. بدءاً بأواخر ٢٠٠٢، كانوا قد وزعوا رقم هاتف وعنوان موقع على شبكة الإنترنت على وكالات الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية المؤهلة للترشح لكسب حق الإدراج على قائمة الأمكنة المحظور قصفها. تنامت القائمة وأصبحت تضم آلاف العناوين وسارع فرانكس وأركانه إلى إدخال الأطراف المرشحة للوقاية من الضرب في جداول الاستهداف.

استعرض آبرامز بسرعة البرق عدداً غير قليل من الصفحات والسلايدات عن جهود إعادة البناء، عن الرعاية الصحية، عن المدارس، عن الماء، عن الصرف الصحي، وعن الكهرباء. ثمة كان ٢٥٠ مستشفى في العراق، ٥ مشافي طبية جامعية، و٢٠ مشفى عسكري عام، ثمة كان ٣٢،٠٠٠ سرير استشفاء، ٩،٤٠٠ طبيب، قال آبرامز. سلايد آخر تضمن قائمة أمور من شأنها إحباط جهود الإغاثة، مثل القتال العراقي - البيني، أو قيام صدام بنسف السدود.

علق الرئيس قائلاً: «إنها فرصة لتغيير صورة الولايات المتحدة. علينا أن نوظف جهود المساعدات الإنسانية هذه إلى الحدود القصوى في دبلوماسيتنا الشعبية. أريد بناء قدرات إنقاذ، أريد توفير بواخر ملأى جاهزة لتوفير الطعام ومواد الإغاثة حتى نتمكن من التدخل فوراً، صحيح أن أشياء كثيرة يمكن أن تتعثر، ولكن ليس بسبب الافتقار إلى التخطيط».



في نهاية الأسبوع، يوم الجمعة، ١٧ كانون الثاني/ يناير، قرر الرئيس أن يذهب إلى مركز والتر ريد الطبي التابع للجيش لزيارة بعض الجرحى المصابين في أفغانستان. كان ذلك أقصى ما يمكن أن يصل إليه على صعيد الاقتراب من التفاصيل الجزئية البشعة للحرب.

مصحوباً بلورا سافر الرئيس إلى والتر ريد، على بعد خمسة أميال إلى الشمال المباشر من البيت الأبيض. توقفا أولاً في غرفة جندي على كرسي متحرك.

فاتحه بوش: «شكراً على خدمتك وتضحيتك! هل أنت من كاليفورنيا؟» وقف مع الجندي لالتقاط بعض الصور «نحن نقدرك، نحن فخورون بك، باركك الرب!»

في الغرفة التالية، جندي سبق له أن فقد ساقه إلى فوق الركبة في انفجار لغم

كان راقداً في السرير. كان ابنه معه على السرير وأمه واقفة جانباً. عدد من أصابع الجندي كانت قد بُترت.

روى بوش للجندي قصة أحد مساعديه في تكساس، كان الرجل قد فقد ساقه وكان عداءً ما لبث أن أتقن الجري على ساقه الاصطناعية. أضاف بوش «إنهم يستطيعون أن يجعلوها على درجة عالية من الجودة هذه الأيام، ستكون قادراً على الركض مرة أخرى.»

أحد مساعدي الرئيس رأى تعبيراً على وجه الجندي أفاد بأنه لم يصدق أن من شأن زعم القائد العام أن سيعدو ثانية أن يكون صحيحاً.

قال الرئيس: «تؤسفني إصابتك، تابع النضال! قدّم نفسك لقيادتك!». «روجر، سيادة الرئيس.»

أكد الرئيس للجندي أنه كان حاصلاً على الرعاية الفضلى وطرح عليه بعض الأسئلة: متى جئت إلى هنا؟ أين كنت حين تلقيت إصابتك؟

واصل بوش إصراره قائلاً: «وعد مني، ستكون هناك، ستعود إلى الركض ثانية.»

بقي تعبير متجهم مفعم بعدم التصديق يغطي وجه الجندي.

قالت لورا بوش مواسية: «ليباركك الرب!»

أضاف الرئيس: «"شكراً على خدمتك".»

بعد ذلك كانت غرفة رقيب من أصول لاتينية / إسبانية. وقد كان مشبوكاً بمضخة من نوعية ما. كانت أمه واقفة بصمت.

«نحن فخورون بابنك البطل» قال بوش للأم. «إنه يخدم وطنك. سيتعافى؛ سيكون على ما يرام. إنه رجل قوي»، قدم الرئيس إلى الرقيب نجمة برونزية، ثم

انحنى عليه وطبع قبلة على رأسه، متلمساً شيئاً يصافحه، أمسك الرئيس بإبهام الرجل الأيسر. كان الرقيب يجد صعوبة في الكلام، غير أنه نطق أخيراً عبارة: «ليتني أقف احتراماً لك سيدي!» «لا حاجة لذلك، لست أنت من ينبغي أن يقف احتراماً، أنا أقف احتراماً لك. أتطلع إلى رؤيتك بعد عام من الآن، ستكون عظيماً.»

كان الرقيب من هيوستن حيث يعيش أبو الرئيس. التفت بوش إلى الأم وقال: «إذا رأيت أمي وأبي بلغيهما تحياتي!»

يبقى والتر ريد أحد أفضل المشافي، ذائع الشهرة من حيث توفير العلاج الشافي والرعاية المفعمة بالرحمة. جرى تصفية عذاب أرض المعركة حيث كثيراً ما كان الأطباء يضطرون إلى تحديد أولويات المعالجة استناداً إلى مستوى الأمل وفرص النجاة. إن المستوى الرفيع من العناية والتغذية كان مطمئناً للزوجين بوش. بعد نحو ٤٠ دقيقة كانا في بهو الطبقة الثانية من المستشفى متحدثين إلى المراسلين.

قال بوش: «قابلنا، لورا وأنا، للتو خمسة جنود شجعان شجاعة لا تُصدق، خمسة من أروع مواطني أمريكا ممن أُصيبوا بجروح وإصابات قاسية وبليغة في أثناء أدائهم للواجب» ثم حدثهم عن أنه شكرهم على خدمتهم - «يالهم من نبلاء وأقوياء وطيبين» وبعد وصف «الرعاية الفضلى الممكنة» قال الرئيس: «استمتعوا بنهاية أسبوع عظيمة!» وانطلق الزوجان بوش إلى كامب ديفيد، في حين احتشد في واشنطن نهاية ذلك الأسبوع عشرة آلاف شخص على المول في أكبر تظاهرة احتجاج مناوئة للحرب منذ الحقبة الفيتنامية.

بعد نحو عام، سألتُ الرئيس عن هذه الزيارة وتوقيتها، مباشرة بعد قرار الذهاب إلى الحرب.

قال: «من واجبي أن أزور أولئك الجنود.»

«هل تحاول تذكير نفسك بعواقب الحرب؟»

«لا» قال بحزم، «علي أن أذهب، لا، لا على الإطلاق!، الأمر أعمق من ذلك، يقع على كاهلي واجب بوصفي القائد العام أن أذهب وأشكرهم على خدمتهم، أواسيهم، أطمئن إلى أنهم يحصلون على ما هم بحاجة إليه» كذلك كان من شأن اهتمامه الشخصي أن يؤدي إلى نشر رسالة عبر المستشفى فتصل، كما قال، إلى الآخرين الموجودين هناك.

علقت: «جاءت في لحظة بالغة الإثارة من سيرورة قرارك!»

«صحيح» رد الرئيس «غير أنني لستُ بحاجة إلى أن أسقي نفسي وأصلّبها كالفولاذ بنار الأسى، أعني لست بحاجة إلى أن أذكّر نفسي بما ينطوي عليه الحزن من مغزى. لقد عشت الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر غارقاً في بحر من الأسى مع الأمة. أنا رئيس سبق له أن عاش سلسلة طويلة من لحظات الحزن والكرب، لقد شاركت أرامل أفغانستان حزنهن.. رأيت هؤلاء الأطفال بعد عام وهم ما زالوا شديدي الافتقاد لأمهاتهم أو آبائهم. لم أذهب لأتعلم درساً في مادة الحزن.»

ثم أضاف: «تطلب من مواطنيك أن يتحلوا بالشجاعة أيضاً، وأن تدفع بهم إلى ما بين أشداق الخطر والأذى. علي واجب المواساة بأفضل الصيغ الممكنة، لا أستطيع مواساة الجميع، إلا أني أستطيع مواساة عدد يكفي لإعلام الآخرين برغبتي في مواساتهم.»

◆ ◆ ◆

على امتداد نحو شهرين، منذ تشرين الثاني/ نوفمبر كان ستيف هادلي قد عكف على العمل عبر لجنة النواب - آرمتياج من الخارجية، وولفوفيتز من الدفاع، ماكلوخلين من وكالة الاستخبارات المركزية، ليبي من مكتب نائب رئيس الجمهورية - بحثاً عما قد تكونه السلطة الانتقالية في عراق ما بعد صدام مع انتهاء العمليات القتالية الكبرى.

كان فرانكس والعسكريون قد أطلقوا على هذه المرحلة اسم مرحلة «عمليات الاستقرار» الرابعة. نظر إليها هادلي من زاوية أوسع، لم تكن المسألة مسألة بلوغ استقرار فقط - استقرار سياسي أو غير سياسي. كان الرئيس راغباً في تحقيق الديمقراطية؛ لذا فإن هادلي كان يدرك مدى الحاجة إلى خطة شاملة لما بعد الحرب. وما أطول المسافة بين الاستقرار والديمقراطية!

حول بداية العام جاء دوغلاس فايث Douglas Feith، معاون الوزير لشؤون السياسية والتخطيط في البنتاغون، وأحد مدللي رمسفلد، لزيارة هادلي في البيت الأبيض. وخريج هارفارد مع إجازة في القانون من جورجتاون البالغ الـ ٤٩ من العمر، فايث هذا هو أحد مريدي موظف دفاع ريغاني سابق وشاغل الآن منصب أحد أعضاء مجلس التخطيط للدفاع لدى رمسفلد الذي هو فريق استشاري، يدعى ريتشارد بيرل Richard Perle، وقد كان هذا الأخير، فايث، هو الأعلى صوتاً دعوة على الملأ إلى الحرب مع العراق. وهو يتمتع بصوت عالي النبرة، ملحاح، إنه بارع في التعبير وقد أتقن فن توظيف لغة العبارات الإدارية الاستشارية، القصيرة، البليغة التي درج على تسميتها «أفكار كبيرة.» إنه مولع بإلقاء المحاضرات على أركان إدارته مع آخرين في البنتاغون، متوقفاً عند علاقته مع رمسفلد، الذي هو مفكر استراتيجي منهجي مع شيء من الأصالة برأي فايث. كان رمسفلد، مثلاً، نصيراً لما أطلق عليه اسم «مقاربة صندوق العدّة، للمشكلات»، ملاحظاً أنك ترى كل مشكلة كما لو كانت مسماراً إذا كانت الأداة الوحيدة المتوفرة لديك هي المطرقة، وبالتالي فقد كان من الجوهري أن تمتنع بالمطلق، التزاماً بما اعتبره فايث نمط تفكير رمسفلد، عن مقاربة المشكلات بالمطرقة وحدها؛ لأن الحياة مركبة ومعقدة وليست المشكلات كلها مسامير.

لم يكن فايث ذا شعبية لدى العسكريين. بدا واضعاً إشارة المساواة بين التخطيط أو السياسة والورق. بقيت ادراجه وملفاته ملأى بمصنفات ذات أوراق

سائبة محتوية على ما بدا كل «الكسفات الثلجية» - العبارة مأخوذة من مذكرات رمسفلد القصيرة الموجزة - التي كان قد تلقاها، وكل شيء كان فايث وورشة تخطيطه السياسي قد أشبعاه خضاً على سبيل الرد.

حاول فرانكس تجاهل فايث، رغم أن ذلك لم يكن سهلاً. ذات مرة باح الجنرال لعدد من زملائه عن فايث شاكياً: «يتعين علي أن أتعامل مع أغبى وأسفل مخلوق على وجه الأرض على نحو شبه يومي.»

كان مجيء فايث إلى مكتب هادلي مهماً لأنه كان يحمل فكرة عن عراق ما بعد صدام. اقترح استحداث خلية تخطيط في الدفاع مكلفة بتطبيق الخط السياسي على الأرض في العراق بعد الحرب. ولعل الأسلوب الأمثل، برأيه، هو تركيز هذه الخلية في الدفاع لأن من شأن فرانكس والقيادة المركزية أن يضطلعا بدور كبير في فترة ما بعد الصراع، غير أن على الخلية أن تبقى متعددة الانتماءات الوزارية والإدارية من البداية. كان سيشغل أناساً قادرين على العمل ٢٤ ساعة في اليوم، سبعة أيام في الأسبوع. كان هؤلاء سيتولون نقل التوجيه على المستوى التخطيطي من النواب إلى كبار المسؤولين (الوزراء والمدراء) ومن ثم المبادرة إلى تطبيق الخطة في العراق. غير أن الخلية لم تكن لتكتفي بمجرد التخطيط، كما قال فايث، بل وكانت ستغدو بعثة ميدانية. كان هؤلاء سيبادرون، باسم الكفاءة، إلى الذهاب فعلاً إلى العراق بعد أن يكون الوضع العسكري قد سمح بذلك والمباشرة بوضع الخطط موضع التنفيذ العملي على الأرض.

قام فايث بنقل الفكرة إلى رمسفلد، الذي وافق، ثم ما لبث أن عاد إلى البيت الأبيض زاعماً أن فكرة كهذه مدعومة بقوة من جانب رمسفلد. راح فايث يقول إن جهود ما بعد الحرب كان مشوشة، مفتقرة إلى الإتقان من قبل، وإن هذه هي الطريقة المثلى لتصويبها.

كانت تلك طريقة مختلفة لتناول الأمور، أولاً لأن المخططين كان من شأنهم أن يكونوا هم المنفذين، ثانياً لأن وزارة الخارجية كانت ستبقى تابعة تبعية مباشرة للدفاع. كانت الخارجية عاكفة على العمل منذ نحو سنة لإنجاز ما أُطلق عليه اسم مشروع «مستقبل العراق»، الذي كان قد راكم آلاف الصفحات من التقارير والتوصيات الصادرة عن طيف واسع من الخبراء في شؤون الحكم، النفط، القانون الجنائي، والزراعة في العراق.

حين جرى عرض فكرة إعطاء سلطة التخطيط والتنفيذ في عراق ما بعد صدام إلى الدفاع على كبار المسؤولين، ظن باول أنها منطقية. في أعقاب الحرب مباشرة، وحدها وزارة الدفاع كانت متوفرة على القوة البشرية المؤلفة من آلاف الأشخاص، الأموال، والموارد اللازمة. أما هو فلم يكن لديه، بالتأكيد، شيء من ذلك في وزارة الخارجية، رغم كونه محظوظاً ببعض الخبراء الحقيقيين. كان الدفاع والجيش من شأنهما أن يبقيا القوة المحررة، الفاتحة، المحتلة. مع وجود جيش أمريكي عملاق دائب على التحرك من مكان إلى آخر فوق أرض المعركة كان من الضروري تحويل المهمة، حسب اعتقاده، إلى الدفاع. لم يخطر بباله قط أن هذا كان خروجاً على المألوف والطبيعي. ألم يكن ذلك بالتحديد الدقيق هو ما حصل بعد الحرب العالمية الثانية في ألمانيا واليابان؟!

ثمة كان نوع من الشعور بالإلحاح على السرعة، وكانت لدى هادلي وأركان مجلس الأمن القومي مهلة لا تزيد على أسبوع واحد لإنجاز وثيقة جاهزة لتوقيع الرئيس. كانت مهمة مستعجلة. قضت الوثيقة السرية، توجيه مجلس الأمن القومي الرئاسي رقم ٢٤، باستحداث مكتب إعادة البناء والمساعدات الإنسانية (أورها ORHA) في وزارة الدفاع، ووقعها الرئيس في ٢٠ كانون الثاني/ يناير. كانت الوثيقة تقول إن من شأن المكتب الجديد أن يتولى، إذا ما تعين على التحالف الخاضع لقيادة الولايات

المتحدة تحرير العراق، كلاً من رسم وتنفيذ تلك الخطط الشاملة لكل طيف القضايا التي من شأن حكومة الولايات المتحدة أن تواجهها على صعيد إدارة عراق ما بعد الحرب، بما في ذلك الغوث الإنساني، تفكيك أسلحة الدمار الشامل، دحر الإرهابيين والإفادة من المعلومات الاستخباراتية المحصلة منهم، حماية الموارد الطبيعية والبنى التحتية، إعادة بناء الاقتصاد، واستعادة الخدمات المدنية المفتاحية مثل الغذاء، الماء، الكهرباء، والرعاية الصحية. كان من شأن السلطة الانتقالية أن تتولى مهمة إعادة تشكيل الجيش العراقي عن طريق استحداث قوات مسلحة تم إصلاحها وخاضعة للتحكم المدني، إعادة تشكيل أجهزة أمن داخلي أخرى، ودعم عملية الانتقال إلى سلطة يقودها عراقيون مع مرور الوقت. قضت الوثيقة بإحالة جميع الأعمال ذات الانتماءات الإدارية والوزارية البينية الموكلة إلى وزارة الخارجية وأطراف أخرى إلى الأورها ORHA (مكتب إعادة البناء والمساعدات الإنسانية).

وقع اختيار رمسفلد وفايث على لفتنانت جنرال الجيش المتقاعد جي إم غارنر Jay M. Garner لرئاسة مكتب الأورها ORHA. كان غارنر هذا قد أشرف على مساعدة العراقيين في شمال العراق بعد حرب ١٩٩١ في الخليج. أما بول وآرمتياج فلم يكونا، في الحقيقة، يعرفان الرجل.

أرسل باول دراسة «مستقبل العراق» وأسماء نحو ٧٥ خبير شؤون عربية في وزارة الخارجية كانوا قد وضعوا الدراسة أو كان من الممكن ضمهم إلى الطليعة الموفدة إلى العراق وعلى رأس ذلك الفريق كان توماس واريك Thomas Warrick، الذي كان قد أشرف على الدراسة، دميغان أوسليفان Meghan OSullivan المتمتع بإعجاب باول الشديد، وهو أحد خبراء العقوبات.

فيما بعد علم بلول أن رمسفلد كان قد طرد واريك وأوسليفان من وزارة الدفاع آمراً إياهما بالغروب مع غروب الشمس.

في مخابرة هاتفية قال پاول لرمسفلد: «ما لذي يجري بحق الجحيم؟»

رد رمسفلد مؤكداً أن العمل كان ينبغي أن يتم، بعد بلوغ مرحلة التخطيط لما بعد الحرب، بأيدي أولئك الذين وضعوا أرواحهم على أكفهم وشاركوا حقاً بالعملية وهم مؤيدون ومناصرون للتغيير، لا بأيدي أولئك الذين كتبوا أو قالوا أشياء لم تكن داعمة.

بنظر پاول كان ذلك يعني أن موظفي وزارته لم يدعموا منفيين من طراز الچلبي، ومهما يكن فإن پاول ورمسفلد انخرطا في صراع بالغ الضخامة إلى أن علم باول أخيراً بنبأ أن سلطة أعلى في البيت الأبيض - بوش أو تشيني - كانت قد قررت تمكين أوساليفان من العودة إلى العمل مع غارنر، ولكن دون تمكين واريك من الشيء نفسه.

توجس باول من احتمال تزايد الأمور بؤساً وشؤماً، حدد سبعة موظفي خارجية كبار أراد إرسالهم للعمل مع غارنر، غير أن فايث أصر إلى الاستعانة بأناس من خارج الوزارة. أحياناً كان فايث ينتقد وزارة الخارجية في جلساته الخاصة على أنها حمائمية، مطلقاً عليها اسم «وزارة النايس (اللطيف)»، علق پاول على ذلك قال: «هذا كلام فارغ إنه روث أبقار!» وهكذا فإنه ما لبث أن تورط هو ورمسفلد في شجار آخر. وهذه المرة تطلبت التسوية أسبوعاً كاملاً من الوقت. جرى آخر المطاف، تعيين خمسة من السبعة. بقي باول عاجزاً عن فهم السُّخف والتفاهة.

فيما يخص تشيني كان ثمة سؤال أكبر. فرؤية الرئيس التي اعتبرها تشيني جزئية، كانت تقوم على القول بعدم الاكتفاء بالخلاص من صدام، بل تدعو إلى إبدال نظامه بنظام ديمقراطي. كانت تلك مهمة بالغة الخطورة والصعوبة. وكان تشيني يرى أن هناك عدداً يفوق الحد من الأشخاص في وزارة الخارجية، بمن فيهم الوزير،

ممن لا يتعاطفون ولا يؤيدون هدف الرئيس المتمثل بإشاعة الديمقراطية في العراق من جهة والسعي لتغيير المنطقة من جهة ثانية. فهؤلاء الناس كانوا قد قالوا إن الديمقراطية هي عملية تغيير كاسحة جداً، صعبة للغاية، لم يسبق للعراق أن تذوقها قط، جسراً ما زال بعيداً بعداً يفوق التصور.

في النقاشات الدائرة حول الطاولة في غرفة العمليات كان نائب الرئيس قد قال: «نحن ملزمون؛ علينا واجب إقامة نظام ديمقراطي. لا نستطيع أن ننصّب جنرالاً (عراقياً) سابقاً مسؤولاً قائلين: أوكي. أنت الدكتاتور في العراق!، لابد لنا من إحداث تغيير جذري وأساسي للمكان، ويتعين علينا أن نمنح الشعب العراقي فرصة تمكنه من تذوق تلك القيم الأساسية والأصلية التي نؤمن بها.»



يوم ٢٠ كانون الثاني/ يناير حضر باول اجتماعاً لمجلس الأمن الدولي كان من المفترض أن يتركز على بحث موضوع الإرهاب. كان كل من تشيني ورمسفلد قد حاججا قائلين بأن عليه ألا يحضر. غير أن باول أبى أن يتعالى على المنظمة الدولية. وفي مؤتمر صحفي عُقد بعد الجلسة أعلن وزير الخارجية الفرنسي دوفيليان: «لا شيء لا شيء!» كان يمكنه أن يسوغ الحرب.

استشاط باول غضباً وكان يتعذر ضبطه. اي ضغط على صدام كان مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالتهديد بالحرب، واقتصر عمل الفرنسيين على مجرد رفع التهديد عن طاولة الأمم المتحدة. لم يستطع باول أن يصدق إمكانية وجود مثل هذا الغباء. كان دوفيليان موشكاً على جعل الأمم المتحدة منظمة غير ذات شأن.

قال الرئيس متذكراً: «ما إن كان دوفيلبان يفتح فمه، حتى كنت أدرك أن صدّاماً كان سيحاول أن يروغ ويناور أكثر فأكثر لوجود أناس كانوا يدعمونه دون علمهم.»

رأى بعضهم أنها كانت لحظة تحرير بالنسبة إلى الولايات المتحدة، بل وأكثر من ذلك بالنسبة إلى رئيس الوزراء بلير. إذا ما أقدم الفرنسيون، وهم متمتعون بحق النقض (الفيتو)، على اتخاذ قرار يقضي بعدم كون الحرب خياراً، فإن عملية الأمم المتحدة كلها تغدو بلا أمل. كان بوسع بوش وبلير أن يقولا إنهما كانا قد ذهبا إلى الأمم المتحدة، وتعرضا للخذلان من جانب الفرنسيين.

في أعقاب لقاء مع اقتصاديين في اليوم التالي، يوم ٢١ كانون الثاني/ يناير، ترك بوش كيل إحباطه يطفح. قال الرئيس إن صداماً لم يكن يتجرد من السلاح وأضاف: «إنني مؤمن، باسم السلام، بأن عليه أن يتجرد من السلاح، ونحن سنقود تحالفاً لأمم راغبة ومستعدة لتجريده من السلاح. لا يخطئن أحد حول ذلك! سيتم حتماً، تجريده من السلاح.»

«متى؟» سأل أحد المراسلين، على نحو مباغت: «كيف تقرر متى تدق ساعة تصبح بحاجة إلى إصدار حكم؟»

رد بوش: «سأخبركم حين تدق الساعة، حين تأتي اللحظة.» كان ثمة ضحك. من الواضح أنه لم يكن يعلن الحرب، ليس بعد.

27

في وزارة الخارجية، تلقى آرمتياج اتصالاً من مكتب اتصالات البيت الأبيض قيل فيه إن المكتب كان قد أعد وثيقة مؤلفة من ٣٢ صفحة بعنوان: «جهاز أكاذيب» عن الجهاز الدعائي الصدامي. طلب من آرمتياج أن يكشف النقاب عن الوثيقة أمام الملأ. كان فريق كارد المتخصص بالعراق في البيت الأبيض عاكفاً على التخطيط لسلسلة طويلة من الخطب والوثائق لمجابهة صدام والحركة الدولية المعادية للحرب.

قام آرمتياج باستعراض الوثيقة وقال لنفسه: يا للهراء! يالروث البقر! كانت بغالبيتها قصصاً عتيقة عن أكاذيب صدّامية مستمدة من فترة حرب ١٩٩١ في الخليج، دون أي منطق واضح حول أسباب احتمال إقدام الإدارة على خوض الحرب في ٢٠٠٣. لو كانت الولايات المتحدة ستحارب كل نظام يكذب، لعمّتْ الحرب ولاستحال وجود أي شيء غير الحرب.

قال آرمتياج للبيت الأبيض: «هذه مرعبة. لن أمسها.»

«سيتعين عليكم أن تلقوا خطاباً» قال أحد المعاونين العاملين في البيت الأبيض

«لماذا؟».

دقت الساعة، كان الأمر قد تقرر، كانوا بحاجة إليه هنا، كذلك كان وولفوفيتز سيلقي خطاباً، وافق آرمتياج في النهاية «الثمن الذي أريده مقابل إلقائي للخطاب هو عدم التدخل فيه أو الرقابة عليه» قال آرمتياج. لم يكن البيت الأبيض سيطلع عليه سلفاً؛ لم يكن يريد سيلاً من الحرتقات والاقتراحات الغبية. كان يواجه قدراً متزايداً من الصعوبة في مقاومة الذوبان في بوتقة جهاز البيت الأبيض الدعائي.

في ٢١ كانون الثاني/ يناير تحدث آرمتياج أمام معهد السلام الأمريكي، فريق غير حزبي أوجده الكونغرس لدفع مساعي السلام وتمويلها. كان قد بذل جهداً كبيراً لتحقيق التوازن بين التشدد والاعتدال، بين القسوة والنعومة. «يجب الا نسمح للامتناع العاقل عن القتال بدفعنا إلى العراق في أحلام اليقظة.» أبلغ الحضور أنه كان مؤخراً قد خاطب ٤٠٠٠ طالب ضابط بحري في أكاديمية الولايات المتحدة الأمريكية البحرية، وهي الأكاديمية التي تخرج فيها، قائلاً: «آمل مخلصاً الا يتم إرسال أي واحد من هؤلاء الشباب والشابات - أو أي عنصر آخر من عناصر الخدمة - إلى حيث احتمال الخطر والأذى في العراق. ذلك هو ما نحن في وزارة الخارجية - بل في الحكومة كلها بالفعل - دائبون على السعي الجاد لتجنبه.» كان من شأن الأسابيع القليلة المقبلة أن تروي القصة: «ليتني كنت قد جئت إلى هنا لأعلن أمامكم انني متفائل!» ثم اتى على ذكر جميع الأسلحة الموجودة بحوزة صدام ولم يتم الإبلاغ عن مصائرها. أشار إشارة عابرة إلى أن وثيقة بعنوان «جهاز أكاذيب» موجودة في مؤخرة الغرفة «أوصيكم بها بمقدار ما يشكل الماضي استهلالاً.»

❖ ❖ ❖

يوم الجمعة الواقع في ٢٤ كانون الثاني/ يناير رفع فرانكس خطته الحربية الأخيرة خطة الـ الأيام الـ٥-١١-١٦-١٢٥ الهجين، إلى كل من رمسفلد والجنرال ميرز، قائلاً هذه هي الخطة. كان قد توقف عن التخطيط مع أن تغييرات معينة كانت ستتم.

كانت المرحلة الأولى المركبة ذات الـ ١٦ يوماً لبناء الجسر الجوي ونشر القوات الـ ١٥ والـ ١١ قد تجاوزتها الأحداث. كان رمسفلد قد أعطى الموافقات للشروع في بناء الجسر الجوي، وعمليات الانتشار التراكمية لـ ١٠,٠٠٠، ١٥,٠٠٠، و٢٠,٠٠٠ جندي كانت جارية على قدم وساق منذ بعض الوقت. فمع حلول منتصف شباط/

فبراير كان المستوى الإجمالي لحجم القوة الأمريكية في المنطقة قد وصل إلى ١٤٠,٠٠٠، منها ٧٨,٠٠٠ قوات برية - جيش، مارينز، وقوات عمليات خاصة.

لأن رمسفلد كان الوحيد المتحدث بانتظام مع بوش من دائرة التخطيط للحرب، فإنه كان قد طور خطوطاً زمانية للرئيس حاولت أن تبين على صفحة واحدة من الوقت ما يحتمل أن يكون حاصلاً على الجبهتين الدبلوماسية والعسكرية. ثمة برنامج زمني سري للغاية يحمل تاريخ ٢٩ كانون الثاني/ يناير أورد يوم قرار الرئيس، تحت اسم يوم الإبلاغ أو يوم (Day-N) وإطلاق عملية تدفق القوة كانت ستتبع، بالطبع. كانت عمليات الانتشار قد بدأت فيما كان الرئيس لا يزال مشغولاً، ظاهرياً، باتخاذ القرار، وكان رمسفلد يعلم، بالطبع، أن قرار بوش كان متخذاً سلفاً.



بعد إخفاق عرض ماكلوخلين عن الدلائل المؤكدة لوجود أسلحة دمار شامل في اقناعهما كان بوش ورايس قد طلبا من وكالة الاستخبارات المركزية جمع أفضل المعلومات في وثيقة مكتوبة - قضية «الضربة المجلجلة» التي كان تنت قد وعد بها. كان تنت وماكلوخين قد بينا أنهما لم يكونا راغبين في كتابة كلمة أو خطاب لموظف سياسي أو لمسؤول منتخب. كان من شأن ذلك أن يشكل تجاوزاً للخط. دبجا الخطب لإيراد الحقائق. كذلك لم يكونا راغبين في كتابة وثيقة منطوية على أي عنصر تسويقي أو ترويجي. وهكذا فإن النتيجة كانت الرواية الأكثر جفافاً ورصانة، مع هوامش كاشفة للمصادر. جرى إرسال النص، وهو مؤلف من ٤٠ صفحة، إلى البيت الأبيض يوم ٢٢ كانون الثاني/ يناير مع بيان أنه كان لا يزال سرياً للغاية.

كان الرئيس عازماً على إحالة الأدلة على محامين أصحاب خبرة قادرين على الإفادة منها من أجل تنظيم أفضل مرافعة حقوقية ممكنة. جرت إحالة الوثيقة على

ستيف هادلي (خريج حقوق ييل ٧٢) وليبي الدراج (سكوتر ليبي) (خريج حقوق كولومبيا، ٧٥). قاما بزيارة وكالة الاستخبارات المركزية وطرحا سلسلة من الأسئلة التي ردت الوكالة عليها كتابة.

فيما يخص ليبي، كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد ادعت امتلاك صدام حسين لأسلحة دمار شامل وعلاقات إرهابية لا يستهان بها. ووكالة الاستخبارات المركزية هذه كانت دائبة على جمع المعلومات عن أسلحة الدمار الشامل العراقية منذ عقود. لم يكن ثمة أي شك في المكان الذي تقف الوكالة فيه: فتقويم تشرين الثاني/ نوفمبر الاستخباراتي القومي، الإن آي.إي. NIE، كان قد قال إن صدّاماً حائز على أسلحة كيميائية وبيولوجية، وكان المدير تنت قد أعلن أن القضية «ضربة مجلجلة». كان ليبي مقتنعاً بأن الوكالة، وهي المضطلعة بوظيفة غربلة وتصنيف وتقويم أكوام هائلة من المعلومات، اغفلت أو تغافلت عن مواد قد تكون ذات أهمية، معلومات استخباراتية قد لا تكون حاسمة، ولكن من شأنها أن تشكل إضافة إلى اللوحة الفسيفسائية.

كانت أشياء كثيرة قد قيلت في الصحافة عما عرف باسم مكتب الخطط الخاصة الذي كان دوغ فايث قد استحدثه في ورشته السياسية بالبنتاغون. كان الأمر بنظر ليبي، مثيراً للسخرية، صادراً عن أناس لم يفهموا العملية. لم يكن المكتب أساساً سوى شخصين مكلفين بقراءة كل المعلومات الاستخباراتية الحساسة. كانا قد اكتشفا بضعة أشياء وكان فايث قد لخص تلك الاكتشافات على مسامع ليبي. لم يجر تقديمها لا إلى الرئيس ولا إلى نائبه. وما الداعي بحق المسيح، إلى ذلك؟ تساءل ليبي طالما أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت كل مطلع شمس تختار نصف دزينة أو أكثر من البنود الاستخباراتية لتقديمها إلى الرئيس في الإيجاز الرئاسي اليومي، البي دي بي. PDB. لم تكن ورقة واحدة صادرة عن فايث أو مكتب الخطط

الخاصة قادرة، ربما، على تلويث العملية الاستخباراتية. أما اللغز الثاني، فتمثل، حسب وجهة نظر ليبي، بامتلاك الزعيم العراقي المنفي الجلبي قناة مباشرة لتحرير معلومات استخبارتية المركزية، وكانت الأخيرة حرة في أن تستخدمها أو لا تستخدمها.

يوم السبت الواقع في ٢٥ كانون الثاني/ يناير، قدم ليبي عرضاً مطولاً في غرفة العمليات أمام كل من رايس، هادلي، أرمتياج، وولفوفيتز، دان بارتلت، ومايكل غيرسون، ومع أنها كانت رسمياً قد تركت العمل في البيت الأبيض، فإن كارين هيوز كانت هناك. أما كارل روف فقد كان داخل الاجتماع وخارجه.

رافعاً حزمة من الورق، قام ليبي بتلخيص الطبعة الأحدث للدعوى المثارة ضد صدام. بدأ بمقطع طويل عن معلومات فضائية، اعتراضية، وبشرية دالة على مساعي الإخفاء والتمويه والخداع. ثمة أشياء كانت تستخرج من تحت الأرض، تُنقل، ثم تُدفن من جديد. لم يكن أحد يعرف يقيناً ما كان يجري بدقة، غير أن المواقع وأساليب الخلسة كانت تشي بنمط ما من أنماط إخفاء أسلحة دمار شامل. كان يبدأ كل مقطع باستنتاجات صارخة: صدام متوفر على أسلحة كيميائية وبيولوجية، دائب على إخفائها، ارتباطاته بابن لادن وشبكة القاعدة كثيرة وقوية.

قام ليبي بتوظيف الاتصال الملتقط بين إرهابيين مشبوهين ساخرين بقتل حمار بمادة الرايسين ذلك الاتصال الذي كان ماكلوخلين قد رفضه باعتباره غير جدير بالتعويل عليه. قال إن محمد عطا، قائد هجمات الـ ٩/١١، كان يُظن أنه قد التقى في براغ ضابط استخبارات عراقي، وأورد معلومات استخباراتية عن حصول ما لا يقل عن أربعة اجتماعات. كان الآخرون يعرفون أنه لدى وكالة الاستخبارات المركزية شواهد ربما على اجتماعين، وأن ليس هناك ما يؤكد يقيناً المهمة التي كان يقوم بها عطا في براغ، أو ما إذا كان قد اجتمع مع الموظف العراقي. دام كلام ليبي نحو ساعة.

أصيب آرمتياج بالجزع والرعب إزاء ما اعتبره إسرافاً في المبالغة والغلو. فليبي لم يكن يستخلص سوى أسوأ الاستنتاجات من أكوام النتف وخيوط الحرير.

أما وولفوفيتز، وهو المقتنع منذ سنوات بتورط العراق في أعمال إرهابية معادية لأمريكا، فقد رأى أن ليبي قد قدم مرافعة قوية. كان متبنياً فكرة رمسفلد القائلة بأن غياب الدليل لا يعني عدم وجود الشيء. كان مقتنعاً باحتمال وجود علاقات بين العراق والقاعدة. إن غياب الدليل القاطع كان أمراً متوقعاً لأن لدى القاعدة أمناً عملياتياً محكماً، أمناً بالغ الجودة حتى إن بعض رؤساء الدول كانوا قد تساءلوا على مسمع من وولفوفيتز عما إذا لم يكن ضباط كي جي بي KGB سابقين مضطلعين بمهمة تدريب القاعدة. بعض القادة العرب عبروا عن الشك بأن الموساد الإسرائيلي هو الذي يتولى تدريب عناصر القاعدة. ولطالما دأب وولفوفيتز على دفع وكالة الاستخبارات المركزية باتجاه التحقيق فيما إذا كانت أجهزة الأمن الألمانية الشرقية السابقة متورطة، ومما هو أكثر من مصادفة محضة أن تكون القاعدة، التي بقيت مجمدة نسبياً منذ ٩/١١، قد استأنفت نشاطها بعد ذهاب الرئيس إلى الأمم المتحدة وتهديده بالعمل الأحادي ضد العراق. ومن هذا النشاط تفجير النادي الليلي في بالي ليلة ١٢ تشرين الأول/ أكتوبر الذي أودى بحياة ٢٠٢، إطلاق الرصاص على عنصري مارينز في الكويت، وهجوم على ناقلة نفط فرنسية قرب الشواطئ اليمنية في غضون أسبوع واحد.

جاء أكثر الردود أهمية من كارين هيوز. قالت لم تكن القضية ناجحة كممارسة اتصالات، فالاستنتاجات الكاسحة في صدر كل مقطع كانت مفرطة في المبالغة، كان الرئيس يريدها، كما قالت، أن تكون مثل مسلسل دراغنت Dragnet (شبكة الصيد) القديم، «الحقائق فقط»،- دعوا الناس يستخلصون استنتاجاتهم الخاصة.

رأى روف المتمع بالإجازات الأمنية المشفرة والسرية للغاية أن عرض ليبي كان

مقنعاً جداً وقوياً جداً - ومرعباً إلى حد لا يصدق. صُعق خصوصاً بالشواهد الدالة على امتلاك صدام لمئات الدولارات، ربما بضع بلايين أو مليارات، من الموارد النفطية غير الشرعية القابلة للاستخدام من أجل شراء أسلحة الدمار الشامل. كان ذلك، بنظر روف، تركيباً قوياً مميتاً - تاريخاً زاخراً بأسلحة دمار شامل، برغبة في الحصول على المزيد، بعلماء متمتعين بالخبرة المطلوبة، بدولة بوليسية مغلقة، وبتلال هائلة من المال. بُهر روف إذ رأى أوجه التباين بين ليبي صاحب العقل الحقوقي الخاص بالمحامين من جهة وهيوز صاحبة العقل الإعلامي المميز لمحترفي التواصل. بقي هو في صف هيوز. كانت هذه مشكلة اتصالات، لا مشكلة حقوق. حتى أفضل صيغ الموافقة المؤيدة كانت منطوية على تقديم الحقائق وتمكين الناس من التوصل إلى استنتاجاتهم الخاصة. وبوصفه واحداً من هؤلاء فقد بات مقتنعاً.

إذن مَنْذا الذي يجب أن يعرض القضية العامة؟ رايس وهادلي أخذا يتفكران. كان من شأن القضية أن يتوجب عرضها على الأمم المتحدة، مما جعل رأس الدبلوماسية، پاول، الخيار المنطقي. ولتحقيق أكبر قدر ممكن من المصداقية كان من شأن الأسلوب الأمثل أن يتمثل بالتصدي للنمط وكان الجميع يعرفون أن پاول كان مرناً مع العراق، أنه كان الشخص الذي لم يكن راغباً في الذهاب إلى الحرب، هذا أولاً، وكان باول، ثانياً، واعياً لمصداقيته، كما لسمعته الحسنة. كان من شأنه أن يماين المعلومات الاستخباراتية بعناية. أما ثالثاً فإن باول كان ناجحاً جداً في الإقناع شرط أن يكون مستعداً.

قال بوش لوزير الخارجية: «أريدك أنت أن تتولى المهمة. فأنت تتوفر على المصداقية اللازمة لذلك» أحس باول بالتملق إذ طُلب منه أن يقوم بعمل لم يكن أحد سواه قادراً عليه.

بادرت رايس ومعها هيوز إلى إبلاغ پاول أن عليه أن يخصص ثلاثة أيام لعملية

العرض على مجلس الأمن: يوم لكل من أسلحة الدمار الشامل، الإرهاب، وانتهاكات حقوق الإنسان. بدوا متصورين مسرحية درامية مماثلة لأزمة الصواريخ الكوبية في ١٩٦٢، عندما تولى سفير الولايات المتحدة في الأمم المتحدة أدلاي ستيفنسون Ad-lai Stevenson مهمة عرض صور الأقمار الصناعية التي كانت تظهر الصواريخ النووية منصوبة في كوبا من جانب الاتحاد السوفييتي. ففي إحدى أكثر لحظات الحرب الباردة توتراً وحساسية، كان ستيفنسون قد سأل السفير السوفييتي عما إذا كان بلده قد نصب صواريخ هناك، قائلاً: «نعم أم لا؟ لا تنتظر الترجمة!.. أنا مستعد لانتظار جوابي إلى أن يتحول الجحيم إلى كتلة جليد.»

«اسمعوا» قال پاول «أنا لا أستطيع أن أذهب إلى هناك وأحبس أنفاس العالم لمدة ثلاثة أيام. لم يكن لدى أدلاي ســتــيــفنســون أســبــوع. كــانت عنده لحظة ستيفنسونية. لا أستطيع أن أفعل هذا إلا مرة واحدة.»

«وما رأيك بساعتين كل يوم لكل قضية؟» كان اقتراح رايس وهيوز. فقد كانا شديدي الحرص على جعل العملية متسمة بأكبر قدر ممكن من الطول، التفصيل، وإثارة الملل بغية تسليط الضوء على عمق القضية.

«مستحيل» قال باول «سأفعلها دفعة واحدة.»

أوكي!

قد تدوم المرافعة ثلاث أو أربع ساعات.

«لا، لن تدوم!» ألح باول «لا تستطيعون حبس هذه المخلوقات مدة ثلاث إلى أربع ساعات.» سيغطون في النوم، في الأمم المتحدة كان لا بد من منح الجميع فرصة الرد. انتزع پاول موافقة مجادلية على ترك قرار طول المرافعة ومضمونها له هو وحده.

◆ ◆ ◆

فيما كان پاول عاكفاً على إعداد مرافعته، اتصل تشيني.

«اسمع ياكولن!» قال نائب الرئيس «أمعن النظر في قضية الإرهاب التي أعدها الدراج (سكوتر). عاينْها جيداً!»

«اطمئن ياديك!» رد باول، عموماً كان يستخدم اسم نائب الرئيس الأول عندما يكونان وحدهما، فتشيني لم يكن يأمره أو يحاول توجيهه. لم يكن الأمر أكثر من التماس نظرة جدية.

قام پاول بمعاينة المسألة. أربعة لقاءات لمحمد عطا في براغ. كان ذلك أسوأ من مضحك. هوَّل الأمر.

رأى پاول أن تشيني أصيب بالحمّى. ظل نائب الرئيس وولفوفيتز دائبين على البحث عن الصلة بين صدام و٩/١١. كانت تلك هناك أشبه بحكومة مصغرة منفصلة - ثمة كان كل من وولفوفيتز، ليبي، فايث، و«مكتب غستابو» فايث، كما كان باول يقول في جلساته الخاصة. رأى في تشيني تحولاً محزناً. إن المسؤول المتمتع بالأعصاب الباردة الذي كان في حرب الخليج الأولى (الثانية) لم يعد موجوداً، فص ملح وذاب. بات تشيني الآن متركزاً تركزاً مرضياً مهووساً. ما من مناسبة نقاش أو إشارة إلا وعاد فيها إلى القاعدة محاولاً تأكيد الصلة مع العراق. كثيراً ما كان يتبنى هذه المعلومة الاستخباراتية الضبابية أو تلك. رأى پاول أن تشيني كان يتلقى المعلومة الاستخباراتية فيسارع إلى قلب الشك والغموض إلى حقيقة. لعله التغيير الأسوأ الذي كان يمكن لپاول أن يتحراه في نائب الرئيس. غير أنه كان موجوداً. كان تشيني مستعداً للإمساك بأي مخابرة ملتقطة والإصرار على أنها تبين أن شخصاً تحدث مع آخر قائلاً إن شيئاً قد يكون حاصلاً. كان من شأن أي حوار أن يشي بأن شيئاً ما ربما كان موشكاً على الوقوع، وكان تشيني مستعداً لقلب ذلك إلى موضوع يبدأ بعبارة «نحن نعلم». غير أن باول استنتج أننا لم نكن نعلم وما من أحد كان يعلم.

فيما بعد سألت الرئيس عما إذا أحس بوجود حمى لدى تشيني. قال بوش: «لا! إن تشيني شخص هادئ بارد الأعصاب. ليس محموماً. الحمى بنظري هي هذا النوع الهذياني من ....إنه منضبط. إذن، لا. شعرت بوجود قناعة. ولكن لا، لعل الحمى هي الكلمة الخطأ. من قال ذلك، كائناً من يكون، لا يعرفه كما أعرفه أنا، أو ربما يعرفه بطريقة أخرى.»



يوم الإثنين، في ٢٧ كانون الثاني/ يناير، قدم هانس بليكس تقريراً وعراً ولكنه متوازن إلى مجلس الأمن الدولي غطى فيه الشهرين الأولين من عمليات التفتيش.

«حتى هذا اليوم، لم يقدّم العراق، على ما يبدو، على التسليم الصادق بنزع السلاح الذي طُلب منه والذي يتعين عليه تنفيذه لكسب ثقة العالم وللعيش بسلام » قال رئيس المفتشين وعلى الرغم من أن التعاون كان جيداً عموماً فإن بليكس قد اقر بأن لديه مؤشرات قوية دالة على أن العراق كان قد انتج كمية أكبر مما كان قد أعلنها من الانتراكس «ربما لا يزال الانتراكس موجوداً.»

كذلك كان لدى بليكس أسئلة حول مواد كيميائية مستخدمة لإنتاج غاز الأعصاب المعروف بفي إكس (X . V). وكمثال لكابوس تقديم المعلومات والكشوف، لاحظ أن وثيقة صادرة عن سلاح الجو العراقي أشار إلى أن ١٣,٠٠٠ قنبلة كيميائية جرى إسقاطها بين عامي ١٩٨٣، و١٩٨٨ خلال الحرب الإيرانية - العراقية، في حين أن العراق كان قد أبلغ الأمم المتحدة بأن ١٩,٥٠٠ جرى استهلاكها خلال تلك الفترة. «ثمة، إذن فرق يبلغ ٦,٥٠٠ قنبلة.» ثم لاحظ بحرص أن الافتراضات، السلبية منها أو الإيجابية - المجرِّمة أو المبرِّئة - لم تكن مؤهلة لحل المسألة وما من شيء «يمكن أن يساعد» سوى «الدليل والشفافية الكاملة.»

وقال المدير العام لوكالة الطاقة الذرية الدولية، محمد البرادعي: «إننا حتى الآن لم نكتشف أي دليل على أن العراق أحيا برامج الأسلحة النووية عنده منذ قيامه بإزالة البرنامج في التسعينيات.» لاحظ أن عمله كان في منتصف الطريق، ولكنه تنبأ: «لا بد من أن نتمكن في غضون الأشهر القليلة المقبلة من توفير تأكيد مقنع أن العراق ليس لديه برنامج نووي.»

بعد استيعاب هذا كله، رأت رايس أنهم ربما حصروا صداماً في الزاوية، قد يتعرض لقدر محسوس من التصدع. هل نحن أمام مشهد شبيه بما حصل في ١٩٩٥، بعد هرب صهره، واعتراف صدام المفاجئ بامتلاك برنامج أسلحة بيولوجية؟ كان تشيني ممن قالوا: «لا!.» لم يصدق ولو للحظة واحدة أن صداماً كان سينكسر، سينهار. والأهم من ذلك أن التجسس الحساس على بليكس كان يشي ببعض التناقضات. عدد غير قليل من كبار المسؤولين رأوا أن ذلك قد اظهر أن بليكس كان يجانب الصدق، بل ويكذب مرة أخرى. قامت المعلومات الاستخباراتية بإلقاء الضوء على أن بليكس لم يكن يريد أن يجعل من مفتشيه سبباً للحرب، وكان يخشى من أن يكون العرض الذي قدمه يوم ٢٧ كانون الثاني/ يناير قد وفر للولايات المتحدة ما قد يرقى إلى مستوى مسوغ الحرب أو على الحرب casus belli. ونتيجة لذلك كله فإن بليكس كان عازماً على التراجع في تقريره التالي.

أعربت رايس للرئيس عن عدم اقتناعها بأن بليكس كان يكذب بالضرورة. كان فقط مشوشاً ومتناقضاً بعمق.

وهذا كله لم يفد إلا في جعل بوش أكثر تصميماً على الحرب. كانت نبوءات تشيني حول الأمم المتحدة كلها تتحقق.

◆ ◆ ◆

في هذه الأثناء كنتُ قد سمعت أن باول كان سيزود الأمم المتحدة بمعلومات استخباراتية، جزئياً لدحض ما كانت الإدارة قد توقعت صدوره عن بليكس في ٢٧ كانون الثاني/ يناير. ومع أن تقرير بليكس جاء متشدداً وقاسياً نسبياً، فإن الإدارة كانت لا تزال عازمة على طرح شيء. كتبتُ مادة للواشنطن بوست صدرت يوم ٢٨ كانون الثاني/ يناير تحت عنوان: «الولايات المتحدة عازمة على الكشف عن معلومات استخباراتية حول العراق؛ أدلة على إخفاء الأسلحة ستعُرض سعياً إلى رفع مستوى التأييد للحرب.» تحدثت عما كان بعض رسميي الإدارة يرونه معلومات استخباراتية «مقنعة» و«لا لبس فيها» مؤكدة لقيام العراق بإخفاء الأسلحة. غير أنني أضفت أن« المصادر قالت إن وكالات الاستخبارات الأمريكية لم تتمكن من تعقب أو تثبيت مكان أي مخبأ كبير لأسلحة محظورة أو لعناصر أولية مستخدمة لتصنيع أسلحة كيميائية أو بيولوجية. وقد أضافت تلك المصادر أن حكومة الولايات المتحدة لا تزال مفتقرة إلى وضع اليد على بندقية تفوح من فوهتها رائحة البارود.»

ذلك المساء، كرس الرئيس بوش الثلث الأخير من خطاب حالة الاتحاد لشن هجوم عنيف على صدام. بالغ في التشديد على الأسلحة التي لم يجر الاعتراف بوجودها في بيانات صدام السابقة - ٢٥,٠٠٠ ليتر من الانتراكس، مواد تكفي لصنع ما يزيد على ٣٨,٠٠٠ ليتر من سم البوتولينوم، «كمية كافية لتعريض ملايين البشر لخطر الموت جراء إخفاق التنفس»، وكذلك غاز السارين، وغاز في. إكس.V.X للأعصاب، مع مختبرات أسلحة بيولوجية متنقلة.

ثم نطق بوش ١٨ كلمة (عدد الكلمات بالإنجليزية هو ١٦ ولكنه ١٨ في الترجمة العربية) كانت ستصبح سيئة السمعة هي: «علمت الحكومة البريطانية أن صدام حسين سعى مؤخراً إلى الحصول على كميات ذات شأن من اليورانيوم من إفريقيا.» كان ذلك أحد اتهاماته الأكثر خلواً من الأذى، وقد كان على صواب في نسب الدعوى

إلى البريطانيين. غير أن تنت كان، هو ووكالة الاستخبارات المركزية، قد حرصا، قبل أقل من أربعة أشهر، على استئصال الجملة من خطاب الرئيس في سينسيناتي لتعذر إثبات الزعم، إضافة إلى أنه اعتُبر زعماً مهزوزاً.

لم يكن تنت قد اطلع على خطاب حالة الاتحاد، وكان هادلي قد نسي تحذير وكالة الاستخبارات المركزية السابق.

موظفون كبار شاغلون لمواقع حساسة في الإدراة كانوا متشككين بشأن المعلومات الاستخباراتية ذات العلاقة بأسلحة الدمار الشامل الواردة في التقارير المتحدثة عن العراق - ومن هؤلاء: آرميتاج، بعض كبار الضباط في الجيش، بل وحتى الناطق باسم وكالة الاستخبارات المركزية، بيل هارلو Bil Harlow، الذي دأب على تحذير المراسلين مرة بعد أخرى من أن أجهزة الاستخبارات كانت مقتنعة بامتلاك صدام لأسلحة دمار شامل ولكنها ظلت مفتقرة إلى «بندقية تفوح من فوهتها رائحة البارود.» يبدو أن نزعة الشك هذه لم تصل إلى الرئيس بأي صيغة مقنعة. وما لبثت البيانات الخالية من اللبس الصادرة عن أصحاب الأوزان الثقيلة: تنت، تشيني، ورمسلفد أن سادت وطغت.

28

في جلسة خاصة مع رئيس الوزراء الإيطالي سيلفيو بيرلوسكوني Silvio Berlusconi يوم ٣٠ كانون الثاني/ يناير قدم الرئيس تتصله المألوف القائم على الزعم بعدم اتخاذ أي قرار يقضي بالقيام بعمل عسكري. غير أنه ما لبث بعد ذلك أن أعلن مساره الحقيقي. كان لا بد من تجريد العراق ومن منع صدام من البقاء في السلطة. «لقد جيشنا جيشاً جراراً قادراً على زرع الهلاك وسوف نركل مؤخرته. سنتخذ جميع الإجراءات اللازمة لتجنب المدنيين.» ثم عاد بوش إلى التوصيف والتقييد قائلاً «إذا تطلب الأمر قوات فسأكون على اتصال معكم. لن يكون ثمة أي مفاجآت.» وبعد ذلك أسمع رئيس الوزراء كلامه المفعم بالحيوية: «لا بد لهذا من أن يتغير، سوف يتغير. راقب، إن الرأي العام سيتغير. نحن نقود جماهيرنا، لا نستطيع أن نتبع هذه الجماهير.»

يوم الجمعة الواقع في ٣١ كانون الثاني/ يناير، كان مبرمجاً لبوش أن يلتقي توني بلير مجدداً في كامب ديفد غير أن هطلاً مطرياً وثلجياً مختلطاً أبقاهما في البيت الأبيض.

قام بلير بإبلاغ بوش عن حاجته إلى استصدار قرار دولي ثان. كان قد وعد حزبه السياسي في بريطانيا، وكان واثقاً من أنهما، بوش وهو سوياً، قادران على حشد الأمم المتحدة والأسرة الدولية.

كان بوش معبأ ضد أي قرار ثان. كانت هذه إحدى المسائل النادرة التي اتفق حولها تشيني وباول. كلاهما كانا ضد العملية. فالقرار الأول كان قد استغرق سبعة

أسابيع وكان من شأن هذا القرار الجديد أن يكون أصعب بكثير. لم يكن باول يرى أنه ضروري. وقد كان مقتنعاً بأن من شأن أي قاض أن يحكم بكفاية القرار ١٤٤١ للتحرك دون أي قرار ثان.

ثمة كان التباس آخر. كان القرار الأول قد مر بإجماع ١٥ مقابل صفر، وكان من شأن ذلك أن يشكل القاعدة. ومن الطبيعي أن ذلك لم يكن هو القاعدة بل الاستثناء المسرحي المثير. ففي ١٩٩٠، كان قرار الأمم المتحدة حول حرب الخليج قد اتُّخذ بأكثرية ١٢ إلى ٢ إذ عارضت اليمن وكوبا وامتنعت الصين عن التصويت. أما الآن فقد كان من شأن عدم الحصول على نتيجة ١٥ مقابل صفر أن يعد أداء ضعيفاً.

غير أن بلير كان ممسكاً بالحجة الأقوى. كان الأمر ضرورياً بالنسبة إليه سياسياً. لم تكن المسألة أكثر تعقيداً من ذلك؛ ضرورة سياسية مطلقة. أقر بلير بحاجته إلى نجدة، مساعدة. كان يلتمس خدمة؛ يرجو.

تلك لغة كان بوش يفهمها. قال لبلير: «إذا كان ذلك ما أنت بحاجة إليه فسوف لن نتردد في المبادرة إلى تمكينك من الحصول عليه.» كذلك لم يكن بوش يريد أن يدخل الحرب منفرداً، وفي غياب بريطانيا كان سيبدو قريباً من الانفراد الكامل. كان الرئيس، ومعه الإدارة، متخوفاً من الاضطرار إلى اعتماد ما أطلق عليه ستيف هادلي اسم «الخيار الامبريالي.»

وهكذا فقد عادوا إلى حقل الشوك برأي تشيني.

قال بوش متذكراً فيما بعد: «تعين على بلير أن يتعامل مع برلمانه، مع شعبه، ولكنه مضطر أيضاً أن يأخذ في اعتباره موضوع العلاقات الفرنسية - البريطانية وسياقها في الإطار الأوربي. إذن، فعليه تحمل عبء مهمة بالغة الصعوبة. أصعب بكثير، بالمناسبة، من المهمة التي يواجهها الرئيس الأمريكي من بعض النواحي. تلك

كانت المرحلة التي أصبح فيها الفرنسيون، ببطء ولكن بثبات وتأكيد، المشكلة داخل بريطانيا.»

أطلق بوش على الاجتماع اسم «اجتماع القرار الثاني الشهير.» وقال إن بلير قد التمس النجدة «بالتأكيد المطلق».



تعين على باول أن يحدد بدقة ما كان سيقوله في الأمم المتحدة. زوده ليبي بنشرة عن القضية مؤلفة من ٦٠ صفحة - أكبر من ورقة وكالة الاستخبارات المركزية بنحو ٥٠ بالمئة - اعتبرها أشبه بقائمة أطعمة مطعم صيني يمكن لباول أن يختار منها. كانت النشرة خالية من الهوامش، غير أن ليبي كان قد وفر ملفات مؤيدة صادرة عن أركان مجلس الأمن القومي ومكتب تشيني.

اكتشف باول أن جزءاً كبيراً من المعلومات الاستخباراتية ضبابي ومشوش. أراد أن يرفع سماعة الهاتف، أو ينظر في عين هذا الشخص أو ذاك، وجلاء الأمر مع أولئك المتوفرين على الحقائق أو المعرفة المباشرة والقادرين على اتخاذ القرارات. كثيراً ما كان آرميتاج يقول للناس في الحكومة: «قدموا علفاً للوحش!» بمعنى وفروا بعض المعلومات الجيدة أو ثرثرات القنوات الخلفية الموثوقة التي كان يستطيع تمريرها إلى باول. غير أن الاتصالات الملتقطة وصور الأقمار الصناعية لم تكن مناسبة لذوق الوحش نفسه على نحو استثنائي. فالعمل والحياة ليسا، بنظر باول، إلا اثنتين من رياضات التواصل. هو مولع بأن يضع يده على واقع القضية أو الناس مهما كان هذا الواقع. لم يكن ثمة أي مجال للتحقيق مع إحدى الصور الملتقطة بالقمر الصناعي. قل لي يا هذا... ما الذي يعنيه ذلك الشيء هناك في الحقيقة؟ ماذا يوجد على ظهر تلك الشاحنة؟ أو الغوص إلى قاع معنى الكلمات المترجمة في هذه المكالمة الملتقطة أو تلك.

وكلما زاد باول غوصاً زاد إدراكاً لحقيقة أن المصادر البشرية كانت قليلة ومتباعدة فيما يخص أسلحة الدمار الشامل العراقية. لم تكن صورة مريحة وباعثة على الفرح. غير أنه بقي مع ذلك، مثله مثل بوش وأعضاء مجلس الحرب الآخرين، شديد التأثر بسلوك صدام السابق. فالدكتاتور كان قد استخدم أسلحة دمار شامل في ثمانينيات القرن العشرين، كان قد أخفاها في تسعينيات القرن، وإذا لم يكن خافياً أي شيء الآن، فإن كل ما تعين عليه كان متمثلاً بأن يتنظف. اتفق باول في الرأي مع تشيني الذي كان يقول: «ما الذي كان يجعله يعرِّض نفسه، على امتداد كل تلك السنوات، لعقوبات الأمم المتحدة ولخسارة ما قدر بـ ١٠٠ مليار من الدولارات النفطية على شكل موارد نفطية؟ أمر غير معقول!».

كان بعض محللي وكالة الاستخبارات المركزية ومعهم ديفد جي نيوتن David G. newton، سفير الولايات المتحدة إلى العراق بين عامي ١٩٨٤و ١٩٨٨، قد حذروا من الوقوع ضحية «متاهة الإنسان العقلاني»، عبر إسقاط ما يعتبره الأمريكيون سلوكاً عقلانياً على صدام، الذي كان في الماضي قد بدا أستاذاً كبيراً في احتراف اللاعقلانية. كان باول ميالاً سلفاً إلى الاعتقاد بأن هناك أسلحة مخبأة، وقد حصل على تقارير موجزة عن أن أكثرية أجهزة الاستخبارات الجادة في العالم كانت أيضاً قد توصلت إلى استنتاج يؤكد امتلاك صدام لأسلحة دمار شامل.

راح الجمهور يعلق آمالاً كبيرة على عرض باول. باتت مقالات الصحف وبرامج المحطات التلفزيونية الكوابلية مشغولة بالموضوع: هل سيقوم باول بتوجيه ضربة قاضية؟ ما الذي يملكه من أدلة؟ ما الأسرار التي سيتم إخراجها أخيراً من العلبة (من جراب الحاوي)؟ هل سيتم فضح صدام؟ هل سيعيش باول لحظة آدلاي ستيفنسونية؟ هل سينحني صدام؟ هل سينحني باول؟

كان باول عميق الإدراك لحقيقة أن مصداقية الولايات المتحدة، مصداقية

الرئيس، ومصداقيته هو بالذات، كانت ستبقى موضع اختبار في قاعة مجلس الأمن في ذلك اليوم الذي تحدد الآن أنه سيكون الخامس من شباط/ فبراير. ما كان يشغله أكثر من أي شيء آخر هو التعرض لطعنة عراقية جديدة في اليوم التالي إذا ما بالغ في أي شيء أو طرح شيئاً مهزوزاً وعاجزاً عن الإقناع. لم يكن قادراً على إبقاء أي ثغرة مكشوفة.

يوم السبت الواقع في الأول من شباط/ فبراير ذهب باول إلى مقر قيادة وكالة الاستخبارات المركزية وأمضى معظم الوقت عاكفاً على غربلة المعلومات الاستخباراتية بما فيها المكالمات الملتقطة الأولية (غير المفسَّرة) تمثل أسهل جوانب المسألة بتحديد ما ينبغي استبعاده. كان ثمة بحر من المواد التافهة الجديرة بالاستبعاد. بقي هناك إلى ساعة متأخرة من المساء. صباح اليوم التالي اتصل بآرميتاج قائلاً: «ماذا تفعل؟»

رد آرميتاج: «عدت للتو من الرياضة.»

«بمن أنت مشغول بعد ظهر اليوم؟.»

«أقدر أنني معك.»

«أرجوك» قال باول.

انقضّا مرة أخرى على وكالة الاستخبارات المركزية. ظل كل من تنت، ماكلوخين، وغيرهما من المحللين والخبراء يدخلون ويخرجون. أفاد باول بأن المشكلة تمثلت بأنه لم يعد قادراً على تعقب أي شيء لأنه كان قد تعرض «لكثير من المضغ والعجن هناك في البيت الأبيض حتى باتت الصور غير متراكبة مع الكلمات.» لا أحد كان يعرف مكان المصادر التي أُخذت منها تصريحات محددة وبيانات معينة. إذن، كان مضطراً للبدء من نقطة الصفر.

بقي آرميتاج مسكوناً بالشك. من المؤكد أن صداماً كان قد استخدم أسلحة كيميائية على نطاق واسع في الحرب الإيرانية ـ العراقية. شكل ذلك برهاناً على امتلاكه لها في الثمانينيات. ربما هو حائز عليها الآن، ولكن أين هو الدليل الساطع والصامد صمود الجبال؟ زد على ذلك أن المعلومات الاستخباراتية عن الأسلحة البيولوجية والنووية بدت مشروطة بألف شرط وشرط، ملأى بالجمل التي يتصدرها حرف الشرط «إذا».

ما أفضل الأشياء المتوفرة لهما؟ عكف پاول وآرميتاج على دراسة حديث ملتقط جرى بين ضابطين كبيرين من ضباط الحرس الجمهوري كان ماكلوخلين قد استخدمه في عرضه التجريبي في كانون الأول/ ديسمبر. كان الحديث، وقد التقط قبل بدء عمليات التفتيش في تشرين الثاني/ نوفمبر بيوم واحد، يبين عقيداً يبلغ لواءً أن لديه مركبة معدلة من شركة الكندي، المتورطة سابقاً في إنتاج أسلحة دمار شامل. ثم ما لبث العقيد أن ناقض نفسه قائلاً: «لقد رحّلنا كل شيء. لم يبق عندنا أي شيء.» كانت المكالمة موحية، بل ربما مجرّمة، ولكن ما كان الحديث دائراً حوله لم يكن واضحاً. ما من أحد كان يستطيع أن يتوصل إلى الحقيقة من هذه المكالمة الملتقطة أو أي معلومة استخباراتية أخرى. تمثل تفسيراً بديلاً بأن العقيد واللواء كانا يريدان أن يتأكدا من أنهما قد امتثلا. قرر پاول استخدام المحادثة لأنها دارت بين ضابطين كبيرين وكلمة «رحّلنا» المقتبسة بدت قوية.

كانت محادثة ملتقطة جيدة عائدة إلى ما قبل أسبوع واحد أظهرت قيام ضابط من الحرس الجمهوري من مقر القيادة، بتوجيه ضابط ميداني بشأن «ذخائر ممنوعة». مرة أخرى بقيت المحادثة موحية فقط، غير أن پاول قرر استخدامها أيضاً.

ثمة مكالمة ملتقطة ثالثة، استخدمها ماكلوخلين أيضاً، كانت بين عقيد ونقيب حيث كان الأول يأمر الثاني بشطب تعبير «غاز الأعصاب» من توجيهات اللاسلكي،

موحياً بقوة بانه كان قلقاً من ان يكون احد مستمعاً. قرر باول استخدامها رغم احتمال كون الضابطين عاكفين على تنظيف كرّاس التوجيهات لأن غاز الأعصاب كان قد انتهى، مهما كان مثل هذا الاحتمال بعيداً.



بقي تشيني وليبي شديدي الإصرار على الصلة العراقية المزعومة بالقاعدة، وربما بأحداث الـ ٩/١١. ببساطة لم ير باول مثل هذه الصلة. كان من شأن تلك القضية أن تصل آخر المطاف إلى الرئيس.

قال تنت لسنا بحاجة إلى مط الإرهاب متذكراً توجيهات الرئيس. ثمة كانت ادلة قوي ة على ان فلسطينياً يدعى ابو مصعب الزرقاوي، وهو متمتع بعلاقات متينة مع القاعدة، كان متورطاً في مركز السموم المزعوم في شمال العراق حيث كان فريق تيم شبه العسكري التابع لوكالة الاستخبارات المركزية ناشطاً.

كان الزرقاوي قد ذهب إلى بغداد في ربيع ٢٠٠٢ لتلقي المعالجة الطبية وقد ظُن انه اقام قاعدة عمليات هناك. فقاتلُ لورنس فولي Laurence Faley، وهو موظف وزارة خارجية قُتل في الأردن في الخريف، المعتقل كان قد افاد بأن خليته تلقت أموالاً وأسلحة من الزرقاوي لتنفيذ عملية الاغتيال. إذن، كانت شبكة الزرقاوي كبيرة وخطرة.

غير أن ثمة، مع ذلك كانت مشكلة كبيرة. «لن استطيع أن أوصلكم إلى سلطة، أمر، وتحكم.» قال تنت مشيراً إلى معياره لجعل أي قضية قضية مقنعة وقوية. كان ذلك يعني عدم وجود أي إثبات يؤكد اضطلاع صدام أو المخابرات العراقية بمهمة إدارة الأمور. كان ليبي قد أصر على أن التحكم العملياتي لم يكن هو الاختيار الوحيد.

فالطالبان في أفغانستان لم يكونوا يتولون إدارة بن لادن. ومعيار الرئيس تمثل

بأن يكون المرء دائباً على توفير الملاذ لإرهابيين. كانت وكالة الاستخبارات المركزية تستطيع أن ترفع قضية تتهم فيها صداماً بإيواء الزرقاوي مانحاً إياه نوعاً من الملاذ الآمن. والزرقاوي كان ينشط في أماكن وأساليب ما كان نظام صدام ليسمح بها لو لا رغبته فيها. وهكذا فإن النظام كان عملياً يؤوي إرهابيين. ظل ليبي يدعو إلى التمسك بالنواة الوحيدة التي بدت صلبة.

أدرك تنت أن تشيني كان مسكوناً بالقاعدة.

أخيراً قام بوش بتأييد تنت ١٠٠ بالمئة حول هذه المسألة في مواجهة ضغط تشيني.

قرر باول الإتيان على ذكر ارتباطات الزرقاوي في عرضه وتوصل إلى لغة توافقية. فبعد قضية أسلحة الدمار الشامل التي كانت ستستغرق نحو ٧٥ بالمئة من وقته، كان سيقول ثمة كان ارتباط «أكثر شؤماً بما لا يقاس حسب أقوى الاحتمالات» بين العراق والقاعدة. كان سيعرض جميع صلات الزرقاوي مع ما يزيد على مئة ناشط كانوا قد أوقفوا في أوربا، بما فيها فرنسا، بريطانيا، إسبانيا، وإيطاليا.



على امتداد أشهر ظل شاؤول يحاول الحصول على إذن يمكنه من إرسال أحد ضباط وكالة الاستخبارات الأمريكية بالذات إلى قلب العراق الخاضع لسيطرة النظام. كان عنده متطوع، مواطن أمريكي لا يشبه الأمريكيين، لا يبدو أمريكياً، ضابط وكالة استخبارات مركزية ذو خبرة واسعة في بعض أكثر البيئات عداء خلال العقد الأخير. كانت الموافقة النهائية على المهمة قد استغرقت أشهراً.

«يا لك من ابن كلبة مجنون!» قال شاؤول للضابط الذي كان يعرفه منذ سنوات. هل كان يعلم ما كان يمكن أن يتعرض له إذا ما وقع في الأسر؟

جرى تسريب الرجل خلسة إلى الداخل وبدأ تصنيف تقارير رصد دفاعات جوية عراقية لم يكن الجيش الأمريكي عالماً حتى بوجودها، مرافق عسكرية أخرى، وبعض بواكير التقارير المتحدثة عن الخنادق الملائ بالنفط حول بغداد التي كان صدام قادراً على إشعالها. كانت البعثة أحد أكبر أسرار وكالة الاستخبارات المركزية، لم تكن العمليات تُبلَّغ إلا إلى الرئيس، تشيني، رايس، رمسفلد، وفرانكس. مع كل يوم كان شاؤول يأخذ نَفَساً بقدر أكبر من اليسر، مع وصول تقارير العميل. كان من شأن وقوعه في الأسر أن يفسد فيضاً من التقنيات وحزمة كاملة من مواد أخرى. تمكن المقتحم المنفرد من تدبيج ١٢٠ تقريراً استخباراتياً.

في قلب جبال شمال العراق في قاعدة معسكر قلعة جوالان، كان لتيم وفريقه عمليات منتشرة على نطاق واسع. طلب من جميع العملاء أن يكونوا على رأس العمل مع حلول ١٠شباط/ فبراير، لأن منتصف شباط/فبراير كان الموعد الأخير لاحتمال بدء الحرب على نحو مطلق. كان تيم قد طلب من الأخوين إعداد ضابط إس. إس. أو. (SSO) منظمة أمن سرية - (جهاز أمن سري). قال لهما تيم: «هاتوه إلى هنا!» جاءا بالرجل، وأصر والد الأخوين، البابا، على حضور جلسة الاستجواب.

«هات ما عندك!» قال تيم للرجل الذي كان متوتر الأعصاب موشكاً على الارتجاف أمام البابا.

«أرجوك هذا ممثل وكالة الاستخبارات المركزية ونحن نريدك أن تتعاون معه» قال البابا.

«لقد حل الشهر المنتظر» قال تيم «ونحن مقبلون على الإطاحة بالنظام».

«أوكي» قال عنصر الإس. إس. أو.SSO .

أخرج الرجل من جعبته قرص سي. دي. C.D وقدمه إلى تيم قائلاً: «هنا

تجدون ذاتية العاملين في جهاز الأمن السري، الأس. إس. أو SSO».

سارع ضابط ميداني آخر إلى وضع القرص في كمبيوتر حضن فظهر على الشاشة ٦٠٠٠ ملف ذاتي - أسماء، خلفيات تفصيلية، مهمات، وصور عاملين كثيرة. بدأ يستعرض الصور. كانت إحداها لرجل كان قد تطوع لخدمة وكالة الاستخبارات المركزية زاعماً أنه كان في الجيش العراقي. تبين أنه من جهاز الأمن السري، ربما هو عميل مزدوج كان مكلفاً بالعمل ضدهم والتجسس عليهم، على عناصر وكالة الاستخبارات المركزية. قرروا تزويده ببعض المعلومات الزائفة.

كان مخبرو تيم نادرين جداً واسعي الخيال على نحو استثنائي إلى درجة أن وكالة الاستخبارات المركزية زودتهم بالرمز أو باللقب السري دي. بي. روكستارز db/ rocrstars (ودي. بي. كان هو مفتاح العراق). كان تيم الآن يدفع للأخوين مليوناً من الدولارات في الشهر مقابل معلومات روكستارز الاستخباراتية. كان الأخوان ينجحان، على ما يبدو، في تبديد المبلغ في غضون ستة أيام، بما كان يؤدي إلى جعل تيم يقدم بضع مئات آلاف أخرى إذا ما جاؤوا بمعلومات استخباراتية جيدة حقاً.

كان عناصر الروكستار السابحون في بحر الأوراق النقدية من ذوات الـ ١٠٠ دولار دائبين على شراء الأسلحة في السوق السوداء مثلهم مثل عناصر البوك (الاتحاد الوطني الكردستاني) الذي كان أيضاً دائباً على شراء الأسلحة. كان البابا، نجلاه وأتباع آخرون ضيوفاً عند الاتحاد الوطني الكردستاني (puk) وكان تيم يدير شبكتهم التجسسية دون علم البوك. أخذ قادة البوك يزدادون ارتياباً مع شروع الجماعة الدينية في ارتداء الملابس العسكرية والتجول جيدي التسليح. سأل أحد مسؤولي البوك: ما الجهة التي تضطلع بها هذه الجماعة الدينية بدور الجيش لخدمتها؟

كان تيم يعطي البوك أيضاً ملايين الدورات لشراء مودته ومقابل المعلومات

الاستخباراتية والأمن اللذين كان يوفرهما. ذات يوم جاء زعيم الهوك، جلال الطالباني، لمقابلته.

«ليتك يا تيم تستطيع أن تزودني بكميات من ذوات الدولار الواحد والدورالات الخمسة والعشرة لأن كل شيء في السليمانية يساوي ١٠٠ دولار.» كانت قطع الـ ١٠٠ دولار قد تمخضت عن تضخم متطرف. بدا كما لو أن حتى فنجان القهوة بات يساوي ١٠٠ دولار لأن أحداً لم يكن يستطيع أن يتوفر على قطع نقدية صغيرة.

وعد تيم بالسعي. إن مليوناً من الدولارات من فئة الـ ١٠٠ دولار كان يزن نحو ٤٤ رطلاً، لذا فإن مليوناً من فئة الـ ١٠ من شأنه أن يزن مئات الأرطال ومن فئة الدولار الواحد آلاف الأرطال.

كان الأتراك يصعِّبون التزود بمؤمن جديدة، ولجلب المال كان يتعين على تيم أو أعضاء آخرين في الفريق أن يعبروا الحدود ذهاباً وإياباً بأنفسهم عدداً من المرات وحقائبهم الظهرية محشوة بالمال. كان الفريق شديد «النرفزة» والملل من الطعام المحلي، من الأمعاء المحشوة بالأرز، من القصبات الهوائية والحناجر الحيوانية، مغلقة خياطة ومغلية. كان غذاؤهم مؤلفاً من الفراريج والخبز المرقق.

جاء أحد عناصر الروكستار بعد ذلك بجهاز اتصال نقال عراقي افتُرض انه أُرسل للإصلاح. تبين أن الجهاز هو المستعمل من قبل نائب رئيس الوزراء طارق عزيز. كان الجهاز قادراً على التسجيل واحد حلقات شبكة اتصالات الإس. إس. أو SSO. كان عميل الروكستارز قد سرقه «لطشه». سارع تيم إلى إيصال الجهاز مع مراسل خاص إلى واشنطن حيث كانت وكالة الأمن القومي قادرة على استغلاله. سرعان ما بدأت وكالة الأمن القومي تلتقط بعض اتصالات جهاز الأمن السري، الإس. إس. أو. SSO.

كذلك قدم الأخوان عنصر روكستار مفتاحياً، ضابط إس. إس. أو SSO، وكان يشغّل إحدى محطات التحويل الهاتفية الرئيسية في بغداد. كان الرجل «لوحاً» ضخماً ذا شاربين. كان قد رُقي لا بفضل معرفته الفنية، بل بسبب إخلاصه المدهش لصدام. حين جلبوه كان البابا موجوداً. ذاب ضابط الإس. إس. أو. متحولاً إلى طوفان من الآهات والأوهات مسارعاً، حرفياً، إلى الانقضاض على قدمي البابا ولثمهما مقبلاً وهو يرتجف كالقصب، حتى بادره البابا قائلاً: «سوف تتعاون». ما لبث هذا أن جلب مريداً آخر إلى تيم، رئيس وحدة اتصالات مهمة لدى جهاز الأمن السري، الإس. إس. أو SSO.

سرعان ما اكتشف تيم أن خطوط الاتصالات كانت تفتح أو تشبك كلما غير صدام مكانه. دليل مستقبلي نادر محتمل على مكان وجود أحد أكثر الناس مراوغة على الأرض.

كانت معلومات الروكستار الاستخباراتية قد أصبحت بالغة الأهمية إلى درجة أن خبراء مكافحة أجهزة استخبارات في مقر القيادة وكالة الاستخبارات المركزية كانوا قد كُلفوا باختبار هذا الفريق بجميع الوسائل الممكنة. جُرب التأكد من صحة المعلومات الدقيقة من خلال عقد المقارنة مع الاتصالات الملتقطة وصور الأقمار الصناعية وغيرها من وسائل التصوير الجوي. كان يجري إطلاع فرانكس مع عدد قليل من الآخرين في السنتكوم CENTCOM على تقارير موجزة كانوا يختبرون مطابقتها للواقع بأنفسهم.

«أعطونا منسقي الـ الجي. بي. إس. GPS لمواقع الدفاع الجوي الجديدة هذه» كانوا يقولون واختباراً كان الجيش يبادر بعد ذلك إلى تسيير طلعات جوية في منطقتي حظر التحليق الشمالية والجنوبية فوق المواقع، وصولاً عبر المزيد من المعاينة إلى اكتشاف الدفاعات الجوية وقصفها. بدأت كمية معلومات عناصر الروكستار الاستخباراتية ونوعيتها تقزّم كل ما عداها.

مع حلول أواخر شباط/ فبراير كان لدى تيم ٩٠ عميلاً في شبكة الروكستار ممن كانوا يقدمون تقاريرهم من داخل العراق. كان يتعين تهريب كل من هؤلاء العناصر لتمكينه من تقديم تقريره الاستخباراتي. كانت وكالة الأمن القومي NSA واثقة من افتقار العراقيين إلى القدرة على اعتراض المكالمات الجارية عبر الأقمار الصناعية والتقاطها، مما دعا تيم إلى شراء مئة جهاز هاتف فضائي مستعمل بسعر ٧٠٠ دولار للواحد من الثريا، إحدى شركات الاتصالات البعيدة عبر الأقمار الصناعية التي تتخذ من أبو ظبي مقراً لها.

قام تيم بتوزيع أجهزة هاتف فضائية على ٨٧ عميلاً في شبكة الروكستار موزعين بين أم قصر في الجنوب والموصل في الشمال. وعندئذ بات عملاء الروكستار قادرين على إيصال المعلومات مباشرة عبر الهاتف إلى بنك هاتفي مأهول بضباط تيم الميدانيين والآخرين.

كانت لاتحاد الطالباني، البوك PUK، صلته المباشرة مع واشنطن، مع وولفوفيتز خصوصاً، عبر خط هاتفي طراز ستو ٣ (stu-٣) آمن. لم يكن تيم يثق بأي شيء يقوله البوك عما يزعم أن وولفوفيتز قاله له. غير أنه لم يكن ليستطيع الاتصال بوولفوفيتز ومخاطبته قائلاً: «اصدقني يابول، هل قلت هذا للاتحاد؟» كان جي. إس -١٤ GS-١٤ براتب سنوي يصل إلى ٨٠,٠٠٠ دولار، أي بمرتب صافي لا يقل عن ٤٤٠٠ دولار في الشهر أو ١٥٠ دولاراً في اليوم. كان البوك أي طرف آخر مؤهلاً للحصول على أذن متعاطفة من وولفوفيتز أو كائن من كان، غير أن تيم بقي الشخص الوحيد الذي يقدم المال، بحق السماء، مما أبقى أعضاء البوك عاجزين عن إغضابه. تلك كانت ورقته القوية. كان قادراً على المطالبة بإلحاح: «أريد مزيداً من هذه. المعلومات الاستخباراتية. وإلا فإن ذلك «الاستهلاك الفاحش» سيتعرض للتقلص!

كان تيم يعلم أن الأرصدة الاستخباراتية معلقة بخط أوهى. فالمخلوق الرئيسي في البوك صاحب الارتباطات القوية مع الحلقة الداخلية الذي كان قد ساعد على تجنيد عملاء الروكستار، كان مدمناً على تعاطي الكحول، وكان تيم قد دفع له مئات آلاف الدولارات التي مكنته من الحصول على كل الكميات الكبيرة من المشروبات التي كان يستهلكها. لم يكن عملاء الروكستار مستعدين للقاء تيم ما لم يكن عنصر البوك موافقاً أو حاضراً، مما أدى إلى أن يجد تيم نفسه في وضعية مستشار شخص مدمن. كان تيم سيبقى مضطراً، على ما يبدو، للجلوس مع ذلك الشخص صباح كل يوم أحد.

كان الرجل مدمناً أيضاً على الشكوى، إذ ظل يردد عبارات التذمر كما لو كانت صلوات قائلاً: «أريد أن أترك العمل!» على نحو منتظم «أكرهكم» كان يؤكد، ثم يبادر إلى الشكوى من ضآلة ما يحصل عليه من مرتب قائلاً: «لا تكنون أي احترام لي». تعين على تيم أن يجالس ذلك المخلوق الذي كان يطعن البوك، وهو ولي النعمة بالنسبة إلى عائلته، في الظهر، ساعات طويلة. سيل كالطوفان من السخط واحتقار الذات مضخماً بمشكلة إدمان كبرى كان يظل متدفقاً على امتداد تلك الساعات.

مطلقاً العنان لمزاجه أغرق تيم الرجل في بحر من الرعاية والاهتمام، لأن رحيله أو افتضاح أمره كان من شأنه أن يؤدي إلى تلاشي عملاء الروكستار.

بدا تيم كما لو كان مقطوع الصلة بجورج تنت. فقد كان وحيداً هناك، مدركا أن أياً ممن يتحادث معهم، بمن فيهم شاؤول، لم يكن مطلعاً إلا على جزء من الصورة متى كانت هذه اللعينة ـ الحرب ـ ستبدأ؟ ما الذي كان يجري بحق الجحيم؟

❖ ❖ ❖

في مقر قيادة وكالة الاستخبارات المركزية واصل شاؤول اندهاشه وانبهاره

الشديدين بالنجاحات. قامت وكالة الأمن القومي (NSA) بتوفير بعض حزم السيغنت (SIGINT) القادرة على التقاط الاتصالات الإذاعية وغيرها من الاتصالات ذوات الطاقة المتدنية، وقام عملاء الروكستار بدفع الحزم إلى داخل بغداد وتثبيتها في مناطق حساسة. أدى هذا إلى توفير مصدر معلومات استخباراتية جديد بالغ الأهمية. وكل شيء كان تيم وفريقه ينجزونه الآن كان يُنظر إليه على أنه مستحيل في العراق. لم يكن قد سبق للوكالة أن أدرات أي عملية ناجحة طويلة الأمد عبر الحدود، أن تسللت إلى صفوف جهاز الاستخبارات العراقية، الآي. آي.إس. I I S؛ تنظيم الأمن السري، الإس. إس. أو sso؛ أو الحرس الجمهوري. كم كانت هذه، شبكة الروكستار، ستدوم؟ ما من شيء في دنيا الاستخبارات يدوم إلى الأبد، وتميل الأشياء الجيدة حقاً والناجحة فعلاً إلى الموت فجأة وعلى نحو متوقع.

فيما كانت تركيا عاكفة على مناقشة ما إذا كانت ستسمح للقوات الأمريكية أن تنتشر فوق أراضيها تمهيداً لفتح جبهة شمالية، كان الأتراك المكلفون بمراقبة تيم والفريق الآخر يزدادون صعوبة باطراد. كان من الممكن أن يقوموا بإغلاق الحدود في أي لحظة، حاصرين الفريقين وقاطعين طرق الإمداد. مع بدء إطلاق النار كان من الممكن أن يبقى الفريقان بحاجة إلى ما يكفي من المال لتغطية نفقاتهما الجارية لمدة شهرين أو ثلاثة وربما أكثر. قرر شاؤول أن يزود تيم والفريق الآخر ببركة مال كبيرة . ٣٥ مليوناً من الدولارات نقداً. كان وزن المبلغ يصل إلى نحو طن من أوراق الـ ١٠٠دولار. كان تهريب المبلغ إلى الداخل، عن طريق إخفائه في طرود الوجبات الجاهزة وغيرها من المؤن، صعباً صعوبة تصل إلى حد الألم. تطلب إدخال مبلغ ٣٥ مليوناً من الدولارات على داخل شمال العراق عبور الحدود ثلاث مرات.



29

يوم الأربعاء الواقع في ٥ شباط/فبراير، بُعيْد الساعة السابعة صباحاً، قبل بضع ساعات من الموعد المبرمج لقيام پاول بإلقاء مداخلته في الأمم المتحدة، التقى بوش عشرين عضواً مفتاحياً من أعضاء الكونغرس في غرفة عمليات البيت الأبيض.

قال الرئيس: «كثيرون منكم سمعوا هذا من قبل. كان سرياً . ويبقى مكتوماً إلى أن يعلنه پاول في الساعة العاشرة والدقيقة الثلاثين. ثمة معلومات إضافية لسنا متأكدين منها .» غادر الغرفة، وبادرت رايس إلى تلخيص ما كان پاول سيقوله بسرعة.

قالت النائبة الديمقراطية الكاليفورنية العضو في لجنة مجلس النواب الاستخباراتية جين هارمان : Jane Harman « إنها قضية قوية» ولكنها سألت: «ما مدى التهديد الذي يتعرض له الوطن؟»

ردت رايس مؤكدة أن من شأن تهديد صدام أن يتنامى مع مرور الزمن.

ثم سألت زعيمة الكتلة الديمقراطية في مجلس النواب، النائبة الكاليفورنية نانسي پيلوسي :Nancy Pelosi «هل سيعمد أي نظام جديد في العراق إلى تطوير أسلحة دمار شامل؟ ماذا عن مشكلة كوريا الشمالية؟» وأكدت على ضرورة اعتماد سياسة متماسكة مطردة. وبعد ذلك استأنفت أسئلتها قائلة: «هل نستطيع أن نستنتج أن أفضل سبل اجتثاث الخطر هو الذهاب إلى الحرب؟ أليست كميات المواد الانشطارية التي يحصل عليها صدام حسين مستوردة من الخارج؟ إنها مشكلة كوكبية ونحن لا نملك حلاً كوكبياً .»

أجابت رايس قائلة: «لن تكون معالجة العراق دواء سحرياً شافياً لجميع العلل. إذا بقيت الأمم المتحدة عاجزة عن حل مشكلة العراق عن طريق ما يزيد على «دزّينة» كاملة من القرارات فإنها «ستظل مشلولة وسيتعين علينا أن نعالج الموضوع بأنفسنا.. ينطوي العراق على أهمية حاسمة على صعيد استعادة أسباب الثقة بمجلس الأمن.»

«وهل الحرب هي أفضل السبل؟» كررت بيلوسي بإلحاح.

أوضحت رايس أن الحرب كانت الخيار الفعال، وقالت: «جربنا، العقوبات، جربنا الخيارات العسكرية المحدودة، جربنا القرارات، عند نقطة معينة تبقى الحرب هي الخيار الوحيد.»

أما النائب الديمقراطي الميزوري العضو في لجنة القوات المسلحة النيابية آيك سكلتون Ike Skelton فقد سأل عما سيتم فعله فيما بعد صدام.

ردت رايس: «ثمة فرق أعمال خيرية إنسانية سترافق القوة العسكرية. سنتولى معالجة العنف الطائفي... لابد من إيقاف البنية التحتية على قدميها. لا نريد أن نبقى هناك إلى الأبد.»

سألها عضو مجلس الشيوخ الديمقراطي المرموق والعضو في لجنة الشؤون الخارجية جوزف بايدن Joseph Biden : «كم من الوقت ستبقون هناك؟»

ردت رايس: «لا نعلم، يتوقف الأمر على النتائج. سنحصل على المساعدة من أناس داخل العراق وخارجه.»

أما السناتور الجمهوري جون وارنر John Warner رئيس لجنة القوات المسلحة فسأل عن أسلحة الدمار الشامل قائلاً: «هل تستطيع آلات التصوير أن تهتدي إلى فوهات بنادق تفوح منها رائحة البارود بعد أن تتقشع سحابة الغبار؟»

أجابت رايس: «لا أعرف تحديداً ما سوف نجده، كما لا أستطيع تحديد الفترة

الزمنية. يقول بليكس إنه لا يستطيع أن يؤكد لنا أن العراقيين لا يملكون أسلحة دمار شامل.»

تدخل عضو مجلس الشيوخ الديمقراطي المرموق في لجنة القوات المسلحة كارل ليفن Carl Levin وقاطع قائلاً: «يقول بليكس أيضاً إنه لا يستطيع أن يؤكد لكم أن العراقيين يملكون أسلحة دمار شامل. إنك متناقضة!»

أفادت رايس بأن الخطر كامن في عودة المفتشين وإخفاقهم في العثور على شيء، مما سيحفز بعض البلدان على المطالبة بإلغاء العقوبات. «فالعراقيون يعشقون هذه اللعبة، مرتاحون معها، ويتقنون فن إلحاق الهزيمة بها. نستطيع أن نواصل هذا فيتعرض مجلس الأمن للانشطار. لا يستطيع المفتشون تجريد العراق من السلاح. يمكنهم فقط أن يتحققوا من حصول التجرد من السلاح.»

قال بايدن: «إذا دخلنا، ولم نعثر على أي مخابئ، فإننا سنواجه مشكلة جدية على صعيد القدرة على الفهم.»

سارع وارنر إلى التدخل قائلاً: «أعتقد أننا سنعثر عليها.»

علقت رايس محاذرة: «لا أريد أن أعطيكم جواباً مطلقاً، قاطعاً.» ولكنها ما لبثت أن أضافت: «إنه يخفي كميات كبيرة. أنا متأكدة تماماً من أننا سنجد كميات كبيرة.»

بعد الاجتماع قال السناتور وارنر لستيف هادلي: «عليك أن تنجز هذا وأنا سأدعمك، حذار من الخطأ. غير أني أؤكد رجائي أن تتمكنوا من العثور على أسلحة دمار شامل لأن من شأن إخفاقكم في ذلك أن يدخلكم في ورطة كبيرة.»



عاش پاول أربعة أيام استثنائية الصعوبة غارقاً في بحر التقارير الاستخباراتية. ما أكثر الأشياء الاستنتاجية والاستدلالية! ظل معشر الاستخبارات دائبين على

تكرار معزوفة أن صداماً كان متوفراً على بضع عشرات من صواريخ سكود. قال باول لنفسه: «ليست السكودات أشياء سبق لأحد أن رآها.» ومع مواصلته القراءة اكتشف أن مفتشي الأمم المتحدة السابقين كانوا قد تحدثوا عن التأكد من مصائر ٨١٧ من مجموع ٨١٩ صاروخاً من صواريخ سكود. غير أن معلومات أخرى كانت تشي بوجود المزيد، مما جعله يوافق على الإشارة بغموض إلى «نحو بضع عشرات من طراز سكود» من الصواريخ.

بعد «البروفة» الأخيرة في واشنطن، أعلن تنت عن اقتناعه بأن القضية كانت مصفَّحة، مدرعة بالفولاذ، وبأنهم كانوا قد دققوا كل جملة. لم يحاولوا تحميل المعلومات الاستخباراتية ما لا تستطيع ؛ وما لا ينبغي أن تحمل من معاني. أضاف تنت لن يتعرض لا الرئيس ولا باول لأي أذى.

«آت معي أنت!» قال باول. كان يريد أن يكون تنت جالساً وراءه في الأمم المتحدة، بوصفه شاهد إثبات منظوراً، أمام عدسات آلات التصوير، للعرض، كما لو أن مدير وكالة الاستخبارات المركزية كان يقول كل حرف وكل كلمة شخصياً. لم يكن تنت السند الوحيد. قدم باول عرضاً بالصوت والصورة، عرضاً مستنداً إلى وسائل الإيضاح السمعية والبصرية المبينة على شاشات كبيرة معلقة في قاعة مجلس الأمن. بل وكانت معه ملعقة شاي من شبيه الانتراكس في قنينة صغيرة للتلويح بها.

ملايين من الناس في أرجاء العالم المختلفة شاهدوا وسمعوا عبر البث المباشر. في مقر قيادة وكالة الأمن القومي، تابع الألوف من الكافتريات والمدرجات المزدحمة والضاجّة بالتصفيق لدى قيام باول بعرض عمليات التقاط المكالمات الثلاث، عرضاً نادراً لعملهم السري للغاية.

في بدلته الداكنة مع ربطة العنق القرمزية، ويداه متمسكتان بالطاولة، بدأ باول كلامه بحذر قائلاً: «لا أستطيع أن أقول لكم كل شيء نعرفه، غير أن ما أستطيع

تقاسمه معكم، حين يضاف إلى ما بتنا جميعاً مطلعين عليه عبر السنين، مثير لقدر عميق من القلق. ما سترونه إن هو إلا تراكم لحقائق وأنماط سلوك مزعجة.»

قام بعرض مشهد الـ «لقد رحّلنا كل شيء» الملتقط. كان قد قرر إضافة تفسيره الشخصي للمحادثات الملتقطة إلى نصه المعدل والمصقول، دافعاً إياها خطوة ذات شأن إلى الأمام ومقحماً إياها في أكثر الأضواء سلبية. كان قد أبلغ موظفي الاستخبارات أنه كان سيفعل هذا لأنه كان قد تعلم في الجيش أن المعنى لا بد من شرحه بلغة انجليزية واضحة ومفهومة. «انتبهوا إلى أنه يقول: رحّلنا كل شيء!» كرر پاول الآن ثم قدم تفسيره: «لم ندمرها. لم نكشف النقاب عنها أمام المفتشين. لم نسلمها إلى المفتشين. لم نضعها تحت تصرفهم. رحّلناها لضمان عدم وجودها في المكان عند مجيء المفتشين.»

أما فيما يخص المكالمة الملتقطة الدائرة خلال البحث عن إمكانية وجود «ذخائر محرمة»، فذهب پاول أبعد في تفسيره: «نظفوا المنطقة كلها، مناطق الهوالك، المناطق المهجورة. تأكدوا من عدم بقاء أي شيء في المكان!» لا شيء من هذا كان وارداً في المكالمة الملتقطة.

أقدم پاول، لدى استشهاده بأقوال مصادر الأخبار والمعلومات من البشر، على توجيه أخطر اتهاماته قائلاً: «نعلم من المصادر أن فرقة صواريخ متمركزة خارج بغداد كانت دائبة على إرسال منصات إطلاق ورؤوس حربية متضمنة أسلحة حربية بيولوجية إلى مواقع مختلفة.» قام بعرض صور صواريخ ومعلومات استخباراتية أخرى موحية بإجراء عملية تنظيف كبرى للبيت فيما حول منشآت الأسلحة الكيميائية والبيولوجية القديمة قبل وصول مفتشي الأمم المتحدة. قال پاول: «نحن لا نعرف ما كان العراق عاكفاً على نقله، غير أن المفتشين كانوا يعرفون أشياء غير قليلة عن هذه المواقع سلفاً، فأدرك العراق أنهم لا بد آتون. علينا أن نتساءل: ما

الذي يجعل العراق يبادر فجأة إلى مثل هذا النوع من نقل المعدات قبل وصول المفتشين إذا كان حريصاً على الكشف عما هو موجود لديه وما ليس موجوداً؟»

كان أحد أقوى اتهامات پاول مستنداً إلى عدد من المصادر البشرية الذين كانوا قد قدموا شهادات حية عما قالوا إنها مصانع أسلحة كيميائية على عجلات أو في عربات سكك حديدية. أمر بعرض مخططات تفصيلية لمختبرات نقالة على الشاشة. أشار أيضاً إلى مركبات جوية غير مأهولة (طائرات بلا طيارين). «تحرّينا واحدة من مركبات العراق الجوية غير المأهولة (UAVs) في تحليق تجريبي قطع مسافة ٥٠٠ كيلومتر بقيادة ذاتية وفقاً لنمط المسار المبين هنا» - مسافة تفوق ثلاثة أضعاف الـ ١٥٠ كيلومتراً المسموح من الأمم المتحدة. أضاف پاول بنبرة منطوية على التهديد أن المركبات الجوية غير المأهولة هذه كانت خطراً محتملاً بالغ الجدية دون تقديم أي دليل. «يمكن للعراق أن يستخدم هذه المركبات الصغيرة التي لا يزيد مدى جناحها على بضعة أمتار، لإيصال قذائف بيولوجية إلى جيرانه، أو إلى بلدان أخرى بما فيها الولايات المتحدة إذا شُحنت.»

وصف پاول الروابط بين العراق والقاعدة على أنها «احتمالات أخطار أكثر شؤماً،» وقام بعرض قصة الزرقاوي وغيرها من الصلات. «يعتقد البعض، يزعم البعض أن هذه الصلات لا تعني شيئاً ذا أهمية. يقولون إن استبداد صدام حسين العلماني واستبداد القاعدة الديني لا يتناغمان. أنا لا أطمئن إلى مثل هذا الرأي» قال پاول، ثم أضاف مخمّناً، إن الطموح والحقد كافيان للجمع بين العراق والقاعدة.

«نحن نعلم أن صداماً مصمم على الاحتفاظ بأسلحة الدمار الشامل التي يملكها؛ إنه مصمم على إنتاج المزيد.» قال الوزير. «هل يتعين علينا أن نخاطر بجعله قادراً ذات يوم على استخدام هذه الأسلحة في زمان ومكان، وبطريقة من اختياره هو، في وقت يكون فيه العالم أضعف بكثير على صعيد الرد؟ لن تُقْدم الولايات

المتحدة ولا تستطيع أن تُقْدم على التساهل مع تعريض الشعب الأمريكي للخطر.»

استغرق عرض الوزير ٧٦ دقيقة.

ربما كانت تعرية المصادر، الأساليب، والتفاصيل الاستخباراتية على الملأ أكثر أهمية من مضمونها، وإن أتى پاول على ذكر ١٠٠ حادثة محددة. لعل العنصر المهم في الأمر هو كون پاول من تولى تقديم المرافعة. إن خليط التخفيف من الوقع والمبالغة والحماسة الشخصية جعل المشهد عرضاً تلفزيونياً مثيراً.

كتبت المعلقة الليبرالية المشهورة في الواشنطن پوست ماري ماكغروري Mary McGrory، وهي من منتقدي بوش، في الزاوية الرئيسية لصفحة الرأي في عدد اليوم التالي عن خطاب «أنا أتهم» J'Accuse لپاول قائلة: «لا يسعني إلا أن أقر بأنه قد أقنعني، ولم يكن إقناعي أقل صعوبة من إقناع فرنسا.» وأضافت المعلقة أنها كانت تعلق الآمال على مبادرة پاول إلى معارضة الحرب، ولكن «التأثير التراكمي كان مذهلاً. تذكرت ذلك اليوم الذي كان قبل زمن طويل حين قام شخص متمسح بأعتاب البيت الأبيض يدعى جون دين John Dean بالانقضاض على ريتشارد نكسون وكان المرء يستطيع رؤية البؤس منقوشاً على وجوه الجمهوريين المدركين أن الإدانة باتت حتمية.» ثم أضافت «صحيح أنني لست مستعدة للحرب بعد، ولكن كولن پاول قد نجح في إقناعي بأن من شأنها أن تكون الوسيلة الوحيدة لوضع حد لأحد الشياطين الخبثاء، وبأن هناك سبباً وجيهاً إذا ما أقدمنا على اعتماد أسلوب الحرب.»

في البيت الأبيض أدرك دان بارتلت مدى أهمية ما كان پاول قد فعله. بدأ يطلق على العملية اسم: «صفقة پاول المربحة.»

◆ ◆ ◆

كان الأمير بندر مشغولاً بالفرنسيين. بتوجيهات من ولي العهد السعودي الأمير عبد الله طار إلى بارس للقاء الرئيس شيراك.

قال الرئيس الفرنسي إن هناك اختلافاً أساسياً وأثار شَكْوَيَيْنِ محدَّدَتَين. لم يكن الرئيس بوش والشعب الأمريكي حريصين على احترامه أولاً، ولم يكونا مستعدين لتقاسم المعلومات الاستخباراتية معه ثانياً.

لدى نقل شكاوى شيراك إلى بوش أعلن الأخير عن استعداده لإغراق شيراك في بحر من آيات الاهتمام والاحترام. أضاف تنت أنه كان يتلقى معلومات من أجهزة الاستخبارات الفرنسية، وأنه لم يكن يعاني من أي مشكلة مع الرئيس الحالي للاستخبارات الفرنسية.

التقى بندر الرئيس المصري حسني مبارك الذي أبلغه أن لدى المصريين عدداً كبيراً من مصادر المعلومات الاستخباراتية داخل العراق قائلاً: «إن استخباراتنا قد أكدت أن هناك مخابر متحركة لصنع أسلحة بيولوجية.» وكذلك قام مبارك بإطلاع بندر على نبأ رسالة محيرة صادرة من قلب العراق، قائلاً: «وصلني مبعوث من صدام وأبلغني عن وجود نساء وأطفال وآخرين، سيجري تحديد هوياتهم لاحقاً، راغبين في المجيء إلى مصر. هل أنتم مستعدون لإعطائنا أحد القصور الجمهورية؟»

تحدث مبعوث صدام عن امتلاك العراقيين لخزنات عملاقة قادرة على استيعاب مليارين اثنين من الدولارات نقداً أو على شكل سبائك ذهبية وعن رغبتهم أيضاً في جلبها إلى مصر. ادعى مبارك أنه كان قد قال للعراقيين إنه مستعد للترحيب بالنساء والأطفال. «أما عن الرجال والموظفين فسوف يتعين عليكم أن تعقدوا صفقة مع الأمريكيين، وإلا فسأتولى أنا دعوة الأمريكيين إلى التدخل.» أفاد مبارك أيضاً أنه كان قد رفض جلب مبلغ المليارين من النقد الأمريكي إلى مصر لأن

من شـأن ذلك أن يؤدي إلى اتهـامه بسـرقتـه. زعم مـبارك أنه كـان قد قـال لمبعوث صدام: «أرسلوا المبالغ بموجب شيكات أو عبر بنك سويسري.»

قام بندر بإبلاغ رايس أنه اقتنع بأن شيراك كان سيساعد، بل وقد يؤيد الحرب.

سـألته رايس متشككة: «هل أنت متأكد؟»

أقـر بنـدر بامتـلاكـه لثـلاثة مـصـادر. فـمبـارك ورئيس الوزراء اللبنانـي رفـيق الحريري أفادا، كلاهما، بأن شيراك كان عازماً على السير في ذالك الاتجاه، إضافة إلى أن مناقشاته مع الرئيس الفرنسي كانت قد أوصلته إلى الاستنتاج ذاته.



في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين من صباح يوم الجمعة الواقع في ٧ شباط/ فبراير، اتصل شيراك ببوش.

ببـرود قال الرئيس الفرنسي: «لا أشاطرك حماستك للرأي القائل بأننا بحاجة إلى حرب. ليست الحرب حتمية. ثمة طرق بديلة لبلوغ الأهداف. إنها مسألة أخلاق. أنا ضد الحرب ما لم تكن حتمية وضرورية.»

رد بوش قـائلاً: «أنـا حـريص على عـلاقـتنا وملتـزم بهـا. أنا ملتـزم بالعـلاقـة الشخصية القائمة بيننا، كما بالعلاقة بين بلدينا. أنت رجل متماسك، رجل رحوم. أنا أيضاً أمقت الحرب. أنا مكلف باحتضـان ومعـانقة أسـر أولئك الذين فقـدوا أرواحهم في الحرب. أرى صدام حسين مسلحاً تهديداً مباشراً للشعب الأمريكي. يمكن لهذا أن يفسر تبنينا لبرنامجين مختلفين. حين يقول مجلس الأمن الدولي شيئاً، من المهم أن ينطوي ذلك على معنى مـا. شكراً على المعلومات الاستـخبـاراتيـة التي مـازلتم تتقاسمونها معنا.»

رد شيـراك مشيـراً إلى الاقتراح الجـديد القـاضي بتمـكين صدام من الذهـاب إلى

المنفى: «موقفي إيجابي من الاقتراح السعودي، لأنه استهدف تجنب الحرب.»

واصل شيراك كلامه: «إذا نشبت حرب فإننا سنتعاون في عملية إعادة البناء»، بادياً ميالاً إلى المصالحة. «بالتأكيد سنساهم جميعاً.»

قال بوش إن كميات من المواد الغذائية قد خُزِّنَتْ للعراقيين، وإن مستشفيات كان سيتم تجهيزها.

علق شيراك قائلاً: «افهم تماماً أن موقفك مختلف. ثمة مقاربتان أخلاقيتان مختلفتان للعالم وأنا أحترم مقاربتك.»

شعر الرئيس بالتفاؤل وهو يعيد سماعة الهاتف إلى مكانها. كان شيراك قد قال إن هناك مقاربتين أخلاقيتين وأنه يحترم مقاربة بوش. هل كان ممكناً أن يمتنع الفرنسيون عن عرقلة استصدار قرار جديد من مجلس الأمن الدولي؟

◆ ◆ ◆

في اليوم نفسه جاء جمال نجل مبارك لمقابلة بوش سراً في مقر الإقامة بالبيت الأبيض، حاملاً الرسالة نفسها التي كان أبوه قد أعطاها لبندر. قال جمال، وهو أحد كبار الإصلاحيين الموالين لأمريكا في حزب أبيه السياسي، إن لديهم أسباباً تجعلهم يعتقدون بأن صدّاماً قد يكون باحثاً عن فرصة تمكّنه من الخروج إلى المنفى ولخّص طلب صدام توفير الأمن لأفراد أسرته ولمليارين من الدولارات الأمريكية في مصر. إن مجموعة من البلدان بما فيها العربية السعودية، الأردن، وتركيا كانت منخرطة في مباحثات توفير المنفى. ما رأي الرئيس؟

رغم صدور سلسلة من التصريحات العلنية عن كل من باول، رمسفلد، ورايس خلال الشهر الماضي، وهي تصريحات موحية بأن المنفى كان خياراً بالنسبة إلى صدام إذا كان سيحول دون وقوع الحرب، فإن الرئيس رد على سؤال جمال قائلاً إن

الولايات المتحدة لن تكون مسؤولة عن حماية حياة صدام إذا ما اختار حياة المنفى. وقال الرئيس أيضاً إنه لم يكن متعاطفاً مع أولئك المتطلعين إلى توفير الحماية له. ثم أضاف: «إذا كنت تبحث عن تطمينات مني حول أننا لن نفعل شيئاً، فإنك لم تحصل على مثل هذه التطمينات.» كان بوش قد اتخذ موقفاً متشدداً من اي بلد يؤوي الإرهاب، ومن هذا المنظور لم يكن صدام إلا واحداً من الإرهابيين. غير أن بوش أضاف بعد ذلك، بغموض، بادياً كما لو كان يمنح بعض التشجيع: «ثمة كانت حالات كثيرة في التاريخ خرج فيها أناس إلى المنفى فتم تجنب الحرب، ونحن لسنا غافلين عن تلك الحقيقة.»

في العاشر من شباط/ فبراير عقد رئيس الوزراء الاسترالي جون هوارد اجتماعاً خاصاً مع بوش في المكتب البيضوي. قال بوش لضيفه: «مازلنا في المستنقع الموحل، غير أننا موشكون، أخيراً، بفضل تصميمكم القوي، على الخروج من النفق المظلم. إما أن يرحل أو نمسك به. ثمة بصيص أمل في أن يرحل.» ثم أضاف بوش متصوراً تعقيدات معينة لذلك السيناريو: «ستتركز المشكلة على ما إذا كان سيُعتبر مجرم حرب ومن يتولى إيواءه؟»

كان پاول يتكهن بأن فرنسا سوف تمتنع عن التصويت في مجلس الأمن «من الصعب حقاً الحصول على جواب نعم، ما لم تحصل رقصة كابوكي (اليابانية)» مقتبساً إحدى عبارات پاول المفضلة.

كذلك في ١٠ شباط/ فبراير، اتصلت رايس مع بندر لتبلغه أن شيراك كان في عالم آخر. «للتو قام صديقك بدعوة شرويدر وبوتن إلى اجتماع.»

أصدر ثلاثي شيراك، بوتن، وشرويدر بلاغاً مشتركاً قوياً في اليوم نفسه داعين فيه إلى عمليات تفتيش مطولة عن الأسلحة. ومما قاله شيراك: « لا شيء اليوم

يسوغ الحرب. إن روسيا، ألمانيا، وفرنسا مصممة على ضمان بذل كل جهد ممكن في سبيل تجريد العراق من السلاح سلمياً.»

كان هذا كل شيء بالنسبة إلى شيراك- بل وبالنسبة إلى بوتن وشرويدر أيضاً.



كان بعض النقاش في مجلس الأمن القومي قد تركز على خطة لدفع مفتشي بليكس على «إغراق المنطقة»، على إجراء سلسلة من عمليات تفتيش المواقع من البداية بدلاً من مقاربة الرصد فالانقضاض أو الحشد البطيء. كان بوسع المفتشين أيضاً استجواب علماء عراقيين خارج البلاد لرفع مستوى الضغط وإزعاج صدام. قد يتمكن بليكس، بتلك الطريقة، من العثور على أسلحة دمار شامل، أو يبادر صدام إلى إعاقة عمل المفتشين بفظاظة شديدة تمهد الطريق إلى الحرب.

ثمة معلومات استخباراتية جديدة، حساسة، عن بليكس أظهرت أن تقريره الثاني المتوقع تقديمه في ١٤ شباط/ فبراير كان سيأتي ضبابياً غامضاً شديد الهزال. كان سيبدو ميالاً إلى ترديد الأصداء الإيجابية «الفرينسپانية» حسب إحدى الروايات، فيقدم ترهيناً متوازناً بعناية على طريقة رئيس الاحتياطي الاتحادي في الولايات المتحدة آلان غرينسبان Alan Greenspan.

في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والخمسين من صباح يوم الجمعة الواقع في ١٤ شباط/ فبراير، نزل الرئيس على غرفة العمليات لسماع تقرير موجز عن نوعية الرد إذا ما وقع انقلاب في العراق. ومع أن الأمر بدا شبه مستحيل فقد تعين عليهم أن تكون لديهم خطة. لم يكونوا يريدون أن يقعوا في حيص بيص إذا ما أقدم أحد جنرالات الجيش العراقي على انتزاع السلطة من براثن صدام. دأب السعوديون على الترويج للفكرة على رؤوس الأشهاد. وفي حين أن أي انقلاب كان خبراً ساراً،

فإن العراق كان من شأنه أن يجد نفسه تحت وطأة حكم دكتاتور جديد-في ظل نظام صدّامي دون صدّام.

ناقش الرئيس ومجلس الأمن القومي ورقة «سيناريو انقلاب» رسمية واتفقوا على أن تبادر الولايات المتحدة فوراً، في حال وقوع أي انقلاب، إلى مطالبة الزعيم الجديد بإعادة السلطة إلى سلطة عراقية مشكلة أصولاً، مدعومة شعبياً، معينة من قبل الولايات المتحدة. كان لابد من قطع شوط ما باتجاه الديمقراطية. وكانت الولايات المتحدة ستطلب من الزعيم الجديد، ثانياً، أن يدرس موضوع استدعاء قوات أمريكية لإزالة أسلحة الدمار الشامل وبتر جميع علاقات النظام السابقة مع الإرهابيين. وحين يتبين أن هناك نوعاً من الإجماع على عدم جواز انتظار الاستدعاء فإن من شأن القوات الأمريكية أن تصبح ملزمة بالمبادرة إلى التدخل مباشرة. صحيح أن الأمر بدا حساساً واستفزازياً، غير أن الحاضرين قرروا بحسم أن أي انقلاب، على أهميته، لم يكن ليعوق الاجتياح العسكري.

كانت قوى المعارضة العراقية تخطط لعقد اجتماع في المنطقة الكردية من شمال العراق في غضون أسبوعين. أريد للاجتماع أن يكون استفزازاً متعمداً. كان من شأنه، بكل تأكيد، أن يلهب أعصاب صدام، وكان ثمة احتمال أن يبادر هو إلى شن هجوم. فقد كان لديه فرق من الجيش جنوب الخط الأخضر المزعوم الفاصل بين عراق صدام والمنطقة الخاضعة لسيطرة الأكراد مباشرة. اتفق كبار المسؤولين، أعضاء مجلس الأمن القومي، على أن أي هجوم مباشر على الأكراد من شأنه أن يشكل خطأ من جانب صدّام ويفضي إلى مضاعفة المعارضة الدولية له ولنظامه.

عبر الرئيس عن الشك، غير أنه وافق على محاولة السير قدماً.

كان مجلس الأمن القومي دائباً أيضاً على التصارع من إمكانية أخرى على درجة يتعذر تصديقها من الحساسية. كان جهاز استخبارات أحد البلدان المتاخمة للعراق

قد تحدث عن اعتزام ذلك البلد إيفاد مبعوث إلى صدّام للتفاوض في الظاهر ولكن لاغتيال الزعيم العراقي في الحقيقة. قرر مجلس الأمن القومي أنه لم يكن قادراً التمويل على المحاولة، توقعها، أو دعمها دعماً مباشراً، ولكن من شأنها أن تكون عظيمة إذا حصلت- مع التنبه إلى أنه كان سيبقى ملزماً بمواصلة بحث قضايا الديمقراطية، أسلحة الدمار الشامل، والروابط الإرهابية مع أي زعيم عراقي جديد.



جاء عرض بليكس أمام مجلس الأمن الدولي في وقت متأخر من صباح ذلك اليوم قائمة إيجابيات وسلبيات دقيقة التوازن. كانت استنتاجاته حادة التناقض مع ما جاء في مرافعة پاول قبل تسعة أيام. قال بليكس في تقريره: «منذ وصولنا إلى العراق أجرينا أكثر من ٤٠٠ عملية تفتيش غطت ما يزيد على ٣٠٠ موقع.» وأضاف «أن جميع عمليات التفتيش تمت دون منغّصات، وإمكانية الوصول كانت تُوفَّر على نحو فوري دائماً تقريباً. لم يكن هناك أي دليل مقنع على امتلاك العراقيين لإنذار مسبق بعمليات التفتيش، قال بليكس: «لقد جرت عمليات التفتيش عبر العراق طولاً وعرضاً في مواقع صناعية، مستودعات ذخيرة، مراكز بحوث، جامعات، أمكنة رئاسية، مخابر متنقلة، بيوت خاصة، مرافق إنتاج صواريخ، ثكنات عسكرية، ومواقع زراعية.

«جمعت أكثر من ٢٠٠ عينة كيميائية وما يزيد على ١٠٠ عينة بيولوجية من مواقع مختلفة.،» قال بليكس. جرت معاينة نحو ثلاثة أرباع تلك العينات ولم يتم العثور على أية أسلحة أو مواد محظورة.

سأل بليكس: «ما كمية أسلحة الدمار الشامل العراقية إضافة إلى جملة المواد والبرامج الباقية، إذا بقيت؟» إلى الآن لم يكن مفتشو بليكس قد «عثروا على أي

أسلحة من هذا النوع؛ اهتدوا فقط إلى عدد قليل من الذخائر الكيميائية الفارغة التي كان ينبغي أن يعلن عنها وأن يصار إلى إتلافها.» قال إن الوثائق العراقية لم تبين أن تلك الكمية قد جرى الإعلان عنها. «لا يجوز لي أن أصل إلى الاستنتاج الذي يقول بأنها موجودة. غير أن تلك الإمكانية ليست هي الأخرى مستبعدة على أي حال.»

لاحظ بليكس أن حكومات كثيرة كانت مقتنعة بأن العراق كان لا يزال حائزاً على أسلحة دمار شامل. «فوزير خارجية الولايات المتحدة قدم مواد مؤيدة لمثل هذا الاستنتاج. للحكومات مصادر معلومات كثيرة ليست متوفرة للمفتشين،» قال بليكس موجهاً انتقاداً لطيفاً. ثم أضاف أن «على المفتشين، من جانبهم، أن يسندوا تقاريرهم إلى الأدلة التي يعاينونها بأنفسهم ويقدمونها علناً فقط.» انتقد تأكيد پاول أن العراق كان قد نظف بعض المواقع قبل عمليات التفتيش. وأضاف بليكس أن صورتي الأقمار الصناعية لموقع واحد كانت قد التقطت بفارق زمني بلغ عدداً من الأسابيع وأن الحركة «كان من الممكن بالقدر نفسه من البساطة أن تكون نشاطاً روتينياً تماماً مثل احتمال كونها تحريكاً لذخائر محرمة توقعاً لتفتيش وشيك.» ثم قال: إذا كان العراق مستعداً لقدر أشمل من التعاون «فإن فترة التجريد من السلاح عبر التفتيش قد تبقى قصيرة.»

كان جهاز التلفزيون الصغير في جناح مكاتب أرميتاج على الطبقة السابعة من مبنى وزارة الخارجية مفتوحاً فيما بقي هو وأركانه يدخلون ويخرجون منتظرين قيام پاول في مجلس الأمن بالرد على شهادة بليكس. كان الوزير غاضباً، ولكنه حافظ على برودة أعصابه عموماً، وإن لامس وتراً ساخراً بين الحين والآخر. قام بدحض استنتاج بليكس المركزي القائل بإمكانية تحقيق التجريد من السلاح عبر التفتيش. قال پاول: «ثمة سلسلة طويلة جداً من الحيَل والألاعيب التي تُمارس علينا.» من شأن

امتثال حقيقي، مباشر، صادق، وغير مشروط لقرار نزع السلاح الدولي أن يكون سهلاً وواضحاً. «لسنا بصدد جراحة دماغية!» قال الوزير. ولأن الفرنسيين كانوا اقترحوا عدداً أكبر من المفتشين قال پاول: « عدد أكبر من المفتشين ؟!- آسف؛ ليس ذلك هو الحل.»

بدا پاول كما لو كان في لباسه الحربي- الميداني الكامل وهو يقول: «من المؤكد أن القوة يجب أن تكون ملاذاً أخيراً .. ولكنها يجب أن تكون ملاذاً دون أي لف أو دوران!»؛ بدت الصفقة المربحة مكتملة. أصر پاول على أن أسلحة صدام «قادرة على قتل عشرات آلاف الناس.»



30

كان يوم ١٥ شباط/ فبراير يوماً محتملاً لبدء الحرب لو سارت عمليات التفتيش وفق الخطة وتمخضت عن فضح صدام. أما الآن فإن حركة «كش ملك!» لم تكن واضحة. كان حلفاء بوش الرئيسيون- بلير، هوارد الاسترالي، وآزنار الاسباني- يتعرضون لضغوط جدية في بلدانهم.

فيما بعد تذكر بوش أنه قال لرمسفلد: «اجعلوا تحركات قواتكم أبطأ!» وعندئذ قال فرانكس ومعه العسكريون إن من الممكن أخذ مزيد من الوقت وبدا لبوش أن هؤلاء كانوا وحدهم عاكفين على دفع البدء إلى الوراء قليلاً. ثم ما لبث الرئيس أن أبعده أكثر قائلاً لرمسفلد: «انتبه يادون! يبدو أننا نبالغ في زيادة السرعة مقارنة بما ينبغي أن نفعل بسبب الجانب الدبلوماسي.»

كان تشيني يمقت فكرة استصدار قرار ثان، وإن شعر بوش أن نائب الرئيس قد تفهم المنطق، واستوعب جملة الضغوط المتقاطعة الهائلة المنبعثة من جبهات مختلفة- من قادة حلفاء مثل بلير، من الجيش، ومن وكالة الاستخبارات المركزية. سمع تشيني المكالمات الهاتفية مع هؤلاء القادة المتعرضين لمخاطر سياسية وكانوا يطالبون بقرار ثان أو قرا نصوصها المفرغة. قال بوش متذكراً: «كان القلق ناجماً عن صعوبة رؤيتنا شاقين طريقنا عبر العملية.»

◆ ◆ ◆

يوم السبت، يوم ٢٢ شباط/ فبراير، استضاف بوش رئيس الوزراء الإسباني آزنار في مزرعته بكروفورد. كانا قد عقدا حواراً رباعي الأطراف مع بلير

وبيرلوسكوني. اتفق الجميع على العمل لاستصدار قرار دولي ثان كان من شأنه أن يعلن أن صداماً كان «قد أخفق» في الانصياع للقرار السابق ذي الرقم ١٤٤١.

أعاد مجلس الأمن القومي دراسة مسألة نفي صدام وقرر عدم جواز إعاقة مثل هذه العملية. وهكذا فإن رمسفلد ورايس عادا من جديد إلى التلويح بالاحتمال على الملأ.

◆ ◆ ◆

جاء كاتب ممن نجوا من معسكرات آوشفيتز وحاصل على جائزة نوبل يدعى إيلي ويسل Elie Wiesel لمقابلة رايس يوم ٢٧ شباط/ فبراير ودلف الرئيس إلى مكتبها. انتقلت رايس إلى الأريكة ليتمكن الرئيس من الجلوس على الكرسي الأقرب إلى ويسل.

قال ويسل للرئيس إن العراق دولة إرهابية وإن الضرورة الأخلاقية تقضي بالتدخل. لو كان الغرب قد أقدم على التدخل في أوربا عام ١٩٣٨ لكان مَنْعُ حدوث الحرب العالمية الثانية والمحرقة ممكناً حسب قوله. «إنها لقضية أخلاقية! كيف نستطيع ألا نتدخل باسم الأخلاق؟»

علق بوش: «يا للحصافة! إن القاتل يرى مظاهرات الاحتجاج التي ينظمها أناس محترمون فيتوهم بأنكم في صفه مؤيدون له. لو مارس الفرنسيون ضغطاً عليه لانتهى. قرأت آراءك حول آوشفيتز في كتاب مايكل بشلوس Michael Besch-loss.» ففي كتاب الفاتحون الذي يركز على آلية صنع قرار الحرب العالمية الثانية لدى كل من روزفلت وترومان، يرد اقتباساً مأخوذاً من ويسل قال فيه إنه تمنى لو أن الحلفاء كانوا قد قصفوا معسكرات الاعتقال ولو أدى الهجوم إلى مقتل السجناء اليهود. «كنا قد كففنا عن الخوف من الموت–عن مثل ذلك الخوف على أي حال.»

قال بوش لويسل: « إذا لم نبادر إلى تجريد صدام حسين من السلاح، فإنه سيستخدم سلاح تدمير شامل ضد إسرائيل والأخيرة ستفعل ما تعتقد أن عليها أن تفعله، ولابد لنا من تجنب ذلك.» من شأن احتمال وقوع أي اشتباك عسكري بين العراق وإسرائيل أن يكون كارثة، ناسفاً دون شك أي إمكانية لالتحاق الأردن، العربية السعودية، والبلدان الأخرى بركب أي جهد ضد صدام.

أكد ويسل أن الحياد مستحيل في مواجهة مثل هذه الشرور. لا يفيد التردد والإخفاق في اتخاذ القرار إلا في تشجيع الشر والمعتدي ومساعدتهما، لا الضحايا. «أنا ضد الصمت.»

في الأيام التالية ظل بوش يكرر تعليقات ويسل بين الحين والآخر. وقد قال لاحقاً، متذكراً: «تلك كانت لحظة ذات معنى بالنسبة إلي، لأنها كانت لحظة تأكيد ويقين. قلت لنفسي: (يا للهول! إذا كان شعور إيلي ويسل الذي يعرف معنى أشكال الألم والمعاناة والاحتضار التي يسببها الطغيان هو هذا، فإن الآخرين يراودهم أيضاً الشعور نفسه، مما يعني أنني لستُ وحيداً.)»



كان فرانك ميلر Frank Miller، مدير جهاز العاملين لدى مجلس الأمن القومي لصالح الدفاع، مضطلعاً بأحد أكثر المهمات حساسية في عمليات الإعداد للحرب. فمنذ آب/ أغسطس ٢٠٠٢ تولى رئاسة فريق حمل اسم فريق التوجيه التنفيذي (إي. إس. جي. ESG) تم تشكيله للإشراف على التنسيق بين الوزارات والوكالات نيابة عن رايس وهادلي. كان ميلر، وهو ضابط بحري سابق وصاحب تجربة دامت ١٩ سنة في الجهاز التنفيذي الأعلى للحكومة، الشريحة العليا من الموظفين المدنيين، قد انشغل بخطط الحرب النووية خلال حقبة تشيني في وزارة الدفاع.

ما لبث ميلر أن أصيب بالدهشة إذ اكتشف أن إحدى مهماته الرئيسية كانت متمثلة بعملية التنسيق بين الأجزاء المختلفة لوزارة دفاع رمسفلد. فمكتب البنتاغون للموازنة، ورشة تخطيط فايث، أركان الجنرال ميرز المشتركة، وأركان قيادة فرانكس المركزية، السنتكوم CENTCOM، جميعاً، كانت تعمل كما لو كانت إمارات إقطاعية مستقلة إلى هذا الحد أو ذاك. وبرأي ميلر ثمة كان عدد أكبر مما ينبغي من كبار القوم ومتوسطيهم ممن يحملون أفكاراً كبيرة، يعشقون المفاهيم، الورق، والكلام (التنظير)، غير أنهم لم يكونوا مدراء ذوي خبرة. قال ميلر في التقرير الذي رفعه إلى رايس وهادلي: «إنهم لا يعرفون معنى التطبيق العملي.»

حرفياً تعين على ميلر أن يستدعي ممثلي مكتب مراقبة الحسابات، مكتب التخطيط، وهيئة الأركان المشتركة إلى مكتبه في مبنى المكتب التنفيذي القديم المجاور للبيت الأبيض. مقدماً بعضهم إلى البعض الآخر قال مرة: «تصافحوا أيها السادة! هل نستطيع الآن أن ننجز هذه؟» تدرجت القضايا المطروحة من لوجستيات البراغي والعزقات والصوامل ذات العلاقة بصب المدارج الخرسانية في المطارات الجديدة إلى موضوعات حساسة مثل أسرى الحرب وجرائم الحرب.

ما لبث ميلر أن درج على عادة عقد الاجتماعات ثلاث مرات في الأسبوع، مجبراً جميع المشاركين على إنتاج لوحات وجداول بخطوط حمراء، صفراء، أو خضراء لبيان التقدم والوضع في ٢١ قضية مركزية مثل حماية حلفاء إقليميين من أي هجمات صاروخية عراقية، تحديد معنى الانتصار، مضاعفات إقدام العراق على استخدام أسلحة دمار شامل ضد إسرائيل، عواقب أي هجوم بأسلحة دمار شامل في مسرح العمليات، الأساس الحقوقي للاحتلال، أعمال الإغاثة الإنسانية، وتوزيع الأرصدة النادرة مثل وحدات صواريخ الباتريوت.

رسمياً كان ميلر يرفع تقاريره إلى لجنة النواب ويدفع بالأوراق والقرارات

السياسية إلى الأعلى حيث كبار المسؤولين ومن هناك إلى الرئيس عند الضرورة. غير أنه جوبه بفوضى عارمة أجبرته على عقد اجتماع استثنائي أسبوعي مع كل من كارد، رايس، هادلي، وليبي لتلخيص المشكلات والنفخ في البوق وصولاً إلى لكز رمسفلد أو آخرين.

قال ميلر في تقريره إن الاتصالات بين الجناحين المدني والعسكري لوزارة الدفاع مقطوعة على نحو كارثي. بفضل صلاته الشخصية في البنتاغون بين صفوف جنرالات وأدميرالات النجوم الثلاث أو الأربع، أدرك ميلر أن هيئة الأركان المشتركة كانت خائفة من رمسفلد وفايث ولم تكن راغبة في أن تُضبط وهي تدس أنفها في خطة فرانكس الحربية.

كانت القضية رقم ١٦ على قائمة ميلر، مثلاً، هي تشكيل وتطوير قوة عراقية مؤلفة من ٥,٠٠٠ منفي قادرة على القتال في القوات الأمريكية. أراد فايث تدريب كشافة، وصولاً إلى لواء قتالي قادر على التوغل في العراق. وهيئة الأركان المشتركة كانت قد أصدرت أمراً تخطيطياً يوم ١٢ أيلول/ سبتمبر، ٢٠٠٢، يوم خطاب بوش في الأمم المتحدة، غير أن التدريب الفعلي لم يكن قد بدأ إلى ما بعد فترة أخرى امتدت خمسة أشهر. كان العثور على مكان للتدريب، التدقيق في أحوال العراقيين للتأكد من عدم كونهم متعاطفين مع النظام أو جواسيس، والحصول على الأموال ووسائط النقل اللازمة، كان هذا كله قد شكل كابوساً حقيقياً. عُين جنرال نجمتين مسؤولاً وعُثر أخيراً على موقع تدريب مركزي في المجر. نحو ٨٠٠ عنصر عسكري أمريكي انشغلوا بالبرنامج أشهراً وأنفقوا عليه ملايين الدولارات. غير أن عدد المنفيين العراقيين الذين دُربوا لم يزد على ٧٠ شخصاً فقط في واحد من أكثر الإخفاقات إثارة للأسى، بل بعثاً على السخرية.



صباح يوم الإثنين الواقع في ٢٤ شباط/ فبراير، حضر الرئيس إيجازاً سرياً لمجلس الأمن القومي عرف باسم «التخطيط للنفط والبنية التحتية العراقية: مسائل للحسم.» كان الرئيس والآخرون يعلقون آمالاً كبيرة على إمكانية جعل الصناعة النفطية العراقية، إذا ما تحررت من العقوبات الدولية، الطريق المختصرة التي تمكّن أي نظام جديد من العودة إلى الالتحاق من جديد بركب الاقتصاد العالمي.

قالت باميلا كوانرود Pamela Quanraud، التي هي خبيرة اقتصاد في وزارة الاقتصاد منتدبة للعمل في مجلس الأمن القومي، للرئيس إن مبلغ ١٦ ملياراً من الدولارات محصل عبر برنامج النفط من أجل الغذاء الحالي لدى الأمم المتحدة ذهب إلى حساب تعهُّد الأمم المتحدة بدفع تعويضات إلى الكويت والعربية السعودية عن أضرار حرب ١٩٩١ في الخليج، وذهب ١٥ بالمئة إلى الأكراد في الشمال مبقياً نحو ٦٠ بالمئة للعراقيين أنفسهم. إن نظام النفط من أجل الغذاء كان خاضعاً لشبكة من القرارات الدولية المتداخلة التي يتعين تفكيك عُقَدها وألغازها برأي خبيرة الاقتصاد.

بقي الأفق في حال وقوع الحرب غامضاً يلفه ضباب كثيف من الشك. قالت كوانرود إن الحاجة قد تدعو إلى إنفاق ٧ إلى ٨ مليارات من الدولارات الأمريكية لإعادة بناء البنية التحتية النفطية إذا ما أقدم صدام على نسف الآبار كما كان قد فعل في ١٩٩١. حتى في سيناريو خراب متدني المستوى لم تكن موارد السنة الأولى مرشحة لأن تزيد على ١٢ ملياراً من الدولارات، مرتفعة ربما إلى ٢٢ ملياراً في السنة الثانية، وهو مبلغ معقول نظراً لإنتاج العراق التاريخي.

ما كانت الولايات المتحدة لتتحامل على أي قرارات صادرة عن حكومة عراقية مستقبلية بشأن قطاع النفط، قالت كوانرود، بمعنى عدم التدخل بالعقود النفطية الحالية أو المقبلة أو الأوبيك. كان من شأن عملية الاستعادة أن تتم على ثلاث مراحل. في الأولى كان الجيش سيوفر الحماية للبنية التحتية. وبعد ذلك كانت

الولايات المتحدة ستتعاون مع إدارة مدنية نامية لإقامة سلطة نفطية مؤقتة واستئناف الإنتاج. كانت السلطة النفطية ستظل برئاسة مسؤول عراقي مع مجلس استشاري مؤلف من خبراء عراقيين ودوليين. وفي المرحلة الثالثة والأخيرة، حين تتولى حكومة عراقية جديدة السلطة، كانت إدارة عراقية ستتولى السيطرة الكاملة.

سأل الرئيس: « هل ستبادر الأطراف الرئيسية إلى الترحيب بالنفط؟ ما الجهة صاحبة الحق؟» عبَّرَ بوش عن القلق حول مدى الترحيب بالنفط العراقي في الأسواق العالمية بعد سنوات من بقائه مغلّفاً بضباب عقوبات الأمم المتحدة.

أكد الرئيس الحاجة إلى تكليف عراقيين وأمريكيين ذوي خبرة في شؤون النفط بإدارة القطاع قائلاً: «نريد أن نضفي ثوباً عراقياً على الإدارة النفطية المؤقتة.» أن نمنحهم سيطرة كاملة في أسرع وقت ممكن. ثم أضاف أن الموارد الأولى يجب أن تذهب إلى العراقيين مباشرة. «أما تسديد الديون فينبغي أن يظل البَنْدَ الأخير في القائمة». بعض هذه الديون كان عائداً للروس، الفرنسيين، والأمريكيين، غير أن جزءاً لا يستهان به منها كان عائداً للسعوديين ولدول الخليج الأخرى.

معبراً عن توجسه من قدرة الأسواق العالمية على امتصاص حالات النقص المؤقتة خلال حرب تندلع في الشرق الأوسط، أعلن الرئيس: «أتخوف من مدى كفاءة سوق النفط». من شأن الصدى المرتد على الاقتصاد الأمريكي أن يكون هائلاً، ثم سأل الرئيس عن قدرة الإنتاج الإضافية لدى كل من اتحاد الإمارات العربية والعربية السعودية. قد يشكل نفط الأخيرة طوق النجاة. وتبعاً لتصريحات الأمير بندر فإن السعودية كانت تأمل في تعيير (دَوْزنة) أسعار النفط لعشرة أشهر مكافأة للاقتصاد في ٢٠٠٤ أما ما كان مفتاحاً فقد تمثل، كما رأى بندر، بالظروف الاقتصادية قبل الانتخابات الرئاسية، لا في لحظة الانتخاب.

◆ ◆ ◆

منذ بعض الوقت ظل پاول دائباً على التساؤل عن مدى سلامة عدم امتلاك سوى ميناء واحد وميناء جوي واحد في الكويت معبراً للقوات والمؤن. إذا ما أقدم صدام على استخدام أسلحة كيميائية أو بيولوجية لضرب هذين الموقعين فإنه كان يستطيع، نظرياً، وقف العملية وقطع خطوط الإمداد.

كان فرانكس راغباً على الدوام في امتلاك خيار جبهة شمالية، كما كان البريطانيون قد اقترحوا أيضاً أن يرسلوا قواتهم عبر تركيا.

مشيراً إلى شبه الجزيرة التي شهدت حملة كارثية من جانب القوات البريطانية والاسترالية في الحرب العالمية الأولى بلغ عدد قتلاها ١٠٠،٠٠٠ وصارت فلماً سينمائياً في ١٩٨١، سأل پاول في اجتماع مجلس الأمن القومي ساخراً: «هل يريدون القيام بالإنزال في غاليبولي (جنة قلعة)؟ لقد سبق لنا أن رأينا هذا الفلم، من المؤكد أنه سيحدث.» كان پاول يعتقد أن الفكرة سخيفة.

سرعان ما تحول التخطيط إلى اعتماد أسلوب إدخال القوات الأمريكية عبر تركيا. ما لبث فرانكس أن راح يناقش نقل قوة مؤلفة من ٣٠،٠٠٠ إلى ٨٠،٠٠٠ عبر تركيا إذا ما أضيفت سائر وحدات الدعم والإمداد. بادر رمسفلد إلى تسيير بواخر شحن محمّلة بدبابات فرقة المشاة الرابعة إلى البحر الأبيض المتوسط لإنزالها لاحقاً على الشواطئ التركية.

قال پاول إن من شأن إدخال مثل هذه القوة الكبيرة أن تتطلب تغيير جميع الاتفاقيات مع تركيا. «تتحدثون يا جماعة عن تمرير نحو ٨٠،٠٠٠ جندي عبر تركيا؟! تذكروا أن هذه حكومة إسلامية جديدة عاجزة عن معالجة مثل هذا الأمر!» هوت الأعداد إلى ٤٠،٠٠٠، ثم ما لبثت أن ارتفعت إلى ٦٢،٠٠٠.

فيما بعد قال پاول لمجلس الأمن القومي: «أظن أنهم (الأتراك) يستطيعون

الموافقة على المرور عبر الأجواء. أعتقد أنهم قادرون على معالجة توفير رأس الجسر. أعتقد أنهم قادرون على التعامل مع ماله علاقة بالجو. تكمن المشكلة في تحريك فرقة مدرعة أو فرقة مؤللة براً عبر هضبة الأناضول من أولها إلى آخرها - كان پاول مغرماً بالأسماء القديمة، وهذه للأدلة على الجزء الآسيوي من تركيا الحديثة- «مع قطار عملاق وطويل خلفها، أعداد كبيرة من العربات، متجهة لغزو بلد مسلم آخر. أنا لست ضد الفكرة، ولكنها قد تعني عبئاً أثقل من أن يطاق بالنسبة إلى الأتراك. لا أظن أننا سنحصل على الموافقة، إضافة إلى أننا نخاطر باحتمال خسارة كل شيء عبر إصرارنا على ذلك. هل أنتم فعلاً بحاجة؟»

قطع رمسفلد وفرانكس مؤكدين أنه أساسي.

في الأول من آذار/ مارس رفض البرلمان التركي الطلب الأمريكي المتضمن نقل قوات عبر تركيا. لاحقاً أحَسَّ فرانكس أن فرقة المشاة الرابعة، التي كانت على متون السفن في عرض البحر، ما لبثت أن انقلبت إلى عملية تمويه فعلية. عبر استخدام مصادر وكالة الاستخبارات المركزية التجسسية، جرى تزويد الحلقة الداخلية لصدام بمعلومات أكدت أن تركيا كانت قد وافقت سراً على السماح للقوات الأمريكية بعبور أراضيها، ولم يكن تصويت البرلمان بالرفض إلا خدعة. اعتقد فرانكس أن التضليل أرغم صداماً على إبقاء إحدى عشرة فرقة من فرق جيشه النظامي وفرقتين من فرق الحرس الجمهوري مجمدة في الشمال مما كان سيتسبب في التأخر كثيراً عن موعد القدرة على المساهمة في القتال دفاعاً عن بغداد.

يا لروث البقر! ياللهراء السخيف! قال پاول بينه وبين نفسه.



أوائل آذار/ مارس، اجتمع رمسفلد في مكتبه مع بعض كبار موظفيه- وولفوفيتز، فايث، الجنرال ميرز، جنرال مشاة البحرية پيت پيس، نائب رئيس هيئة

رؤساء الأركان المشتركة، بل وحتى شاؤول وكالة الاستخبارات المركزية، إضافة إلى موضع أسراره لاري دي ريتا Larry Di Rita، كبير مساعدية المدنيين، واللفتنانت جنرال جون كرادّوك John Craddock كبير مساعديه العسكريين.

كم ستطول الحرب؟ سألهم رمسفلد. أراد سماع أفضل تقديراتهم. كانوا قد كرّسوا أكثر من ١٥ شهراً على هذه العملية. كم سيتطلب تغيير النظام من الوقت؟

حسناً، لن نقول لك، أفاد عدد من الحضور، لأنه هو نفسه كان قد ظل يوصيهم باستمرار على عدم التنبؤ، على عدم تقديم البرامج الزمنية. لم تكن التنبؤات إلا جرائم. نادراً ما كانت التقديرات التخمينية، الـ «Guesstimates»، كما كانت تعرف في الجيش أكثر الأحيان، تتكشف عن أنها صحيحة، إضافة إلى أن الصحافة كثيراً ما كانت تخرجها من قبورها في أثناء المسيرة. كانوا قد أجادوا في تعلم إحدى قواعد رمسفلد المفتاحية. من شأنها أن تكون على درجة من السوء تكاد أن توازي سوء التسريب أو الزريان، بحق السماء. كان ثمة قدر من المزاح على الطاولة للحظة حول هذا السؤال الأخطر والأكثر حساسية.

لا، وألف لا، قال رمسفلد بإصرار. كان يريد أجوبة. كان هذا لقاء خاصاً. كان الجميع يثقون بعضهم بالبعض الآخر، كان لابد لهم من أن يفعلوا.

كان الجنرال ميرز قد قال بشيء من التفاؤل إن من شأن عملية الوصول إلى بغداد أن تتطلب، برأيه، من القوات الأمريكية أسبوعين أو ثلاثة، ما مجموعه ٣٠ يوماً. فيما بعد عبّر ميرز، في إحدى المقابلات، عن عدم رغبته في مناقشة نبوءته لأنها كانت من استفتاء رمسفلد قائلاً: «إنه أستاذ الاستفتاءات هناك. إنه أول مريدي غالوب!».

وفيما بعد قال نائب رئيس الأركان الجنرال بيس إنه كان سؤالاً غير مألوف من رمسفلد. كانت تلك: المرة الوحيدة التي سألني فيها عما أفكر به فعلاً وحقاً. كانت لدينا

معلومات كثيرة عن كثرة من الفرق المستعدة للاستسلام. وبمقدار ما أتذكر فإن ما قلته له هو أن الأمر كان سيستغرق ما هو أقل من شهر إذا كانت المعلومات الاستخباراتية المتوفرة لدينا صحيحة. وفي حال عدم كونها صحيحة قد يطول بنا الموضوع مدة شهرين أو ثلاثة تبعاً لنوعية المقاومة التي نلقاها. غير أنني أضفت أن المرء لا يعرف الحقيقة إلى أن يبدأ الانغماس الفعلي في غمار ما سيحصل على الأرض.»

فرانكس تحدث عن أسابيع، لا عن أشهر.

تحدث شاؤول عن ثلاثة أسابيع، كان دي ريتا دقيقاً، ١٣ يوماً. أما الجنرال كرادُوك فقال ٢١ يوماً. تحدث وولفوفيتز عن سبعة أيام.

عندما نظر الآخرون إلى الوزير، المستر غالوب، ملتمسين تقويمه قال: «مستحيل! لن أتورط مهما فعلتم! هل تظنون أنني مجنون؟» لم يكن راغباً في اللعب والمراهنة، رغم أنه كان قد سجل الرقم الذي نطق به كل منهم على قطعة ورق دسها في درج مكتبه. تراوحت الأرقام بين ٧ أيام و٣٠ يوماً، عاكسة قدراً كبيراً من التفاؤل بين صفوف أولئك الذي يُفترض أن يكونوا الأكثر معرفة بكل الأمور.

فيما بعد أفاد الرئيس بأن التقديرات لم تجد طريقها إليه قط. «رمسفلد أكثر حذراً من أن يفعل ذلك، بالمناسبة. إنه أذكى مما ينبغي. ليس رمسفلد من النوع الذي يمكن أن يدخل إلى المكتب البيضوي ليقول: (سيادة الرئيس، هذه العملية ستنتهي في غضون تسعة أيام).» وقد أصاب حين خمن أن رمسفلد لم يبح قط بنبوءته للآخرين. «أنا أعرف رمسفلد. أعرفه جيداً. لست مندهشاً.» وقال الرئيس أيضاً إن فرانكس لم يعطه هو الآخر أي تقدير. وأضاف بوش أنه لم يُجْرِ أيَّ حساب ولو بينه وبين نفسه. إلا أنه أشار إلى أن «الشك» الذي ساوره كان يشي بأسابيع، لا بأشهر؟ «كنت مستعداً للأسوأ.»

◆ ◆ ◆

كان فرانكس قد قال لبعض أركانه إنه كان يظن أن الإصابات كانت ستبقى دون الـ ١٠٠٠ في الجانب الأمريكي، وربما بضع مئات. أقر الرئيس بأنه كان قد سمع هذا، ولكنه ظل يعاني من هاجس آخر. «كنت أكثر خوفاً إزاء احتمال إقدام صدّام على استخدام أسلحة دمار شامل ضد شعبه بالذات. لا ضدنا نحن. نعم ضد شعبه. وسيتم اعتبارنا مسؤولين عن حصول كارثة إنسانية في العالم.»

غير أن أحداً لم يأت على ذكر إحصاءات جثث العدو. كان ذلك أحد السموم الموروثة عن فيتنام. فقدماء محاربي فيتنام، وهم الآن في مراتب عالية، كانوا ملقّحين، مغسولي الأدمغة. كانوا قد تعلموا الدروس واستخلصوا العبر. كان الجنرال پيس قد خدم في الأدغال الفيتنامية ضابطاً شاباً في مشاة البحرية (المارينز).

من مكتبه الكائن في جناح إي E بالپنتاغون قال پيس، ذلك الرجل اللطيف والمصقول عادة: «ما من مرة في هذا المبنى أقدمنا على الإبلاغ عن جريمة، أي جريمة» مشيراً إلى إحصاء جثث العدو. «ربما لأن مَنْ هم مثلي من مخلفات فيتنام يعرفون ما يحدث حين تبدأ بالعد. عندئذ تكون قد انحرفت كلياً عن الطريقة التي يفكر بها الناس، عن الطريقة التي يتصرف بها الجمهور العادي على الأرض. ما نريد أن يفهمه الناس على الأرض هو إننا نريد إنجاز المهمة بأقل قدر من القتل، ولكن بما هو مطلوب فعله لحماية شبابنا نحن. وطَرْحُ الأسئلة عن أعداد الجثث... من شأنه أن يدفع الناس إلى التركيز على نسب ٢ إلى ١، ٥ إلى ١، ٧ إلى ١.»

بدا پيس متقززاً من تذكر ما حدث قبل ٣٥ عاماً حين توهم وزير الدفاع روبرت إس. ماكنمارا Robert S. McNamara والجنرالات أنهم منتصرون حين تكون نسبة قتلى الفيتناميين الشماليين إلى نظرائهم الأمريكيين على درجة كافية من الارتفاع. «لم يكن الهدف قتل س من الناس، بل إزاحة النظام، إبداله، إذا استطعت

أن تحقق ذلك دون قتل أي شخص فأنت رابح ومنتصر. إذا قتلت ١٠٠٠ من البشر وبقيت عاجزاً عن فعل أي شيء على صعيد تغيير النظام فإنك خاسر ومهزوم. إذن، الأرقام لا تعني شيئاً.»

حتى طَرْحُ مثل هذا السؤال على أي قائد إشكالي: «إذا كان (ما هو عدد من قتلتهم؟) هو السؤال فإن الرسالة التي أوصلتها إليه تدفعه إلى القول: (يا إلهي! لم أكن مطالباً باحتلال المدينة)، بل بقتل الناس، ليس ذلك هو السؤال الصحيح.»

غير أن فرانكس كان فيما بعد سيبوح في إحدى الجلسات الخاصة بتقدير لعدد الجثث على مسامع الرئيس وكبار المسؤولين.



كان فايث مشغولاً بالتخطيط لما بعد الحرب وأسراب كثيفة من الأوراق كانت تتطاير كالعادة. منذ أكثر من شهر كان عاكفاً على مادة بعنوان: «أغراض الولايات المتحدة والتحالف.» في ٤ آذار/مارس جاء فايث إلى البيت الأبيض وقدم تقريراً موجزاً إلى الرئيس ومجلس الأمن القومي. أورد إيجاز نقطة القوة الشامل جملة الأغراض التالية:

- يجري الحفاظ على وحدة العراق الإقليمية وتحسين نوعية الحياة في العراق على نحو ملحوظ.
- تتم رؤية العراق متجهاً نحو اعتماد مؤسسات ديمقراطية مشكلاً نموذجاً لبلدان المنطقة.
- تتولى الولايات المتحدة والتحالف مهمة الحفاظ على حرية العمل لإنجاز الحرب الكوكبية على الإرهاب ووضع اليد على أسلحة الدمار الشامل والنشاطات التخريبية.

◆ الحصول على مشاركة دولية في جهود إعادة البناء.

◆ الحصول على تأييد الشعب العراقي.

◆ الحصول على التأييد السياسي من الأسرة الدولية، بما فيها دول المنطقة، ويفضل أن يتم ذلك من خلال قرار صادر عن مجلس الأمن الدولي.

◆ تنصيب أكبر عدد ممكن من الوجوه العراقية في مواقع السلطة المادية بالسرعة الممكنة.

◆ إنجاز البنود الواردة أعلاه بسرعة.

كان من شأن أحد التحديات المفتاحية أن يتمثل بتحقيق المقايضة الصحيحة بين تعظيم المشروعية عبر المؤسسات الدولية من جهة، وتعظيم مستوى الكفاءة من الجهة المقابلة. تعين على التحالف أن يقرر مستوى المشاركة المسموح لحزب البعث في نظام ما بعد صدام. من المؤكد أن الجهاز البيرقراطي البعثي الموجود ذو خبرة وكفاءة. عَبَّر فايث عن الأمل في الحصول على المشروعية من إشراك العراق كما من إشراك الجانب الدولي.

قام فايث بعرض جداول تنظيمية. كان ثمة حشد من مفاهيم العلوم السياسية المجردة، ولم يكن لدى الرئيس شيء كثير يقوله عدا التعبير عن الرغبة في رؤية معلومات عن الأسلوب الذي سيتم اعتماده في التعامل مع الجيش وأجهزة الأمن.



عقد رمسفلد وفرانكس اجتماعاً مع الرئيس ومجلس الأمن القومي صباح الأربعاء الواقع في ٥ آذار/ مارس، في غرفة العمليات. بدأت حزمة السلايدات الملوّنة وأوراق الإيجاز المعلمة جميعاً بعبارة سري للغاية/ خطوة البولو بورقة منفردة عليها عبارة مسودة ما قبل القرار بأحرف كبيرة يزيد ارتفاع كل منها على ثلاثة أرباع البوصة.

كان الفريق قد توقف عند أكثر أوراق التخطيط الحربي السرية لأن محامي البنتاغون كانوا يعتقدون بأن من شأن التسمية أن تتيح لهم فرصة حماية الوثائق من التعرض للانكشاف أمام الكونغرس أو بموجب قانون حرية الإعلام. تمثلت الحجة بأن الوثائق «ما قبل القرار» كانت جزءاً من تأملات ودراسات داخلية وليست خاضعة للكشف. كانت تلك مراوغة قانونية قد لا تصمد أمام اختبار القضاء بنظر آخرين من كبار المحامين الحكوميين.

كان لدى فرانكس في المنطقة كتلة قوات أمريكية بلغ مجموع أفرادها ٢٠٨,٠٠٠ منها قوة برية قوامها ١٢٧,٠٠٠. جميع القوات البحرية أصبحت متمركزة، وباتت القوات البرية والجوية موشكة على إنجاز التمركز. نحو ٥٠,٠٠٠ جندي إضافة، بأكثرية برية كانوا مستنفرين للنقل خلال الأسبوعين التاليين، مع أن فرانكس عبّر عن استعداده لبدء الحرب أي وقت يأمره فيه الرئيس. أما قوات التحالف، وهي بريطانية بأكثريتها، فكان من شأن تعدادها أن يصل إلى نحو ٤٤,٠٠٠.

كان رمسفلد يصف أحد جداوله الزمنية بـ«النظري» أو «الخيالي» بمعنى افتقاره إلى التواريخ الحقيقية المرتبطة بكل حدث لأن الرئيس لم يكن قد أعطى تاريخاً للبدء. غير أنه كان يقدم تسلسلاً محتملاً لفترة أسبوعين اثنين. كان من شأن أحد الأعمال الأولى أن يكون عملاً هندسياً على الجانب الكويتي من الحدود، متمثلاً بتقطيع كميات هائلة من الأسلاك الشائكة بما يمكّن قوات الولايات المتحدة والتحالف من العبور إلى داخل العراق. كان رمسفلد ميالاً بقوة إلى فكرة إصدار إنذار علني موجه إلى صدام يمنحه فرصة ٤٨ أو ٧٢ ساعة للتخلي عن السلطة. وهذا الإنذار أُطلق عليه اسم «نقطة مركز» في الجدول الزمني. لم يبين الجدول أي قتال رئيسي خلال فترة الإنذار، لم يكن هناك إلا نشاط قوات العمليات الخاصة.

في هذه الأثناء كانت المفاوضات مع تركيا بشأن التمركز قد استؤنفت، وتعين

على فرانكس أن يقرر ما كان سيفعله بفرقة المشاة الرابعة التي كانت الآن تنتظر على متن ٢٧ سفينة في عرض البحر.

سأل الرئيس عما إذا كانوا مستعدين للتعامل مع التخريب المحتمل للجسور وآبار النفط من قبل قوات صدام. تمت طمأنته إلى أنها كانت مغطاة حسب تقديرات مصادر وكالة الاستخبارات المركزية في العراق إضافة إلى أجهزة الاستخبارات الأجنبية.

معبراً مرة أخرى عن قدر من الشك بالمعلومات الاستخباراتية قال رمسفلد: «لسنا على يقين في الحقيقة. قد يكون الناس كذابين معنا. فمدى جديتهم معنا سيبقى متوقفاً على تقديرهم لمدى جديتنا نحن.» وملمحاً إلى أن معشر الاستخبارات كانوا يسايرون بعض المصادر أو العملاء قال: «في منعطف معين الأشياء تتغير فتصبح الحبة قبة والقبة حبة.» بمعنى أن من شأن خداع الآخرين وتمويههم أن يتمخض عن بيدر مقابل من الأكاذيب، غير أن تلك كانت هي الرمسفلدية التي أبقت رؤوساً كثيرة متحركة يميناً وشمالاً بعجرها وبجرها، بلحمها ودمها.

«ما الداعي إلى انتظار يومين بعد انقضاء فترة الإنذار للبدء بالعمليات الجوية؟» سأل الرئيس.

أجاب فرانكس قائلاً إنهم كانوا بحاجة إلى يومين لتأمين مرور قوات عمليات خاصة عبر الحدود إلى جميع مناطق العراق لاستئصال مراكز المراقبة الحدودية، منع أي هجمات سكود، وضمان أمن آبار النفط.

سألت رايس عما إذا كان من شأن التفاف أمر تنفيذ صادر عن الرئيس أن يؤدي إلى حصرنا في الزاوية.

قال باول إنه كان لا يزال يحاول استصدار قرار ثان.

رد رمسفلد على تساؤل رايس قائلاً: «لا، لن يحصرنا ذلك في الزاوية. يتعين علينا أن نكون مرنين فيما يخص العمل الدبلوماسي.» يمكن للمواعيد الزمنية أن تُحَرَّك آجلاً، غير أن من الصعب تحريكها عاجلاً.

أفاد فرانكس بأنهم كانوا قد تعرفوا على ٢٤ هدفاً من الأهداف المنطوية على مستويات عالية من الأضرار الجانبية القابلة للتمخض عن مقتل ٣٠ أو أكثر من المدنيين إذا ضُربت. ثمة عملية بالغة التعقيد كانت قد طُورت لتقويم كل من تلك الأهداف. صحيح أن فرانكس كان يملك صوراً فضائية أو غير فضائية لجميع الأهداف الـ ٢٤، ولكنه أقر بأنه لم يكن مطمئناً إلى المعلومات الاستخباراتية الإجمالية حول عدد منها.

قال بوش: «أنا لست من هواة انتقاء الأهداف.» في الحرب الفيتنامية كان الرئيس جونسون قد أنفق ساعات طويلة وهو عاكف على استعراض الأهداف، مراجعتها، وإقرارها. «أريدكم أنتم أن تحدثونا عن الأهداف التي تعتقدون أن عليكم أن تضربوها لتأمين الانتصار وحماية قواتنا.»

تابع فرانكس إيجازه عن الأهداف المنطوية على مستويات عالية من احتمال حدوث أضرار جانبية. قام بعرض صورة ثكنات الحرس الجمهوري الخاص في تكريت، مسقط رأس صدام على مسافة ١٠٠ ميل إلى الشمال من بغداد، وأقوى قواعد دعمه. قال فرانكس: «.. إن القيمة العسكرية كبيرة» وقد ضُرب هذا الهدف خلال حرب الخليج. قام فرانكس بعرض ستة نقاط استهداف مختلفة على المبنى كانت ست قنابل أو ستة صواريخ ستُبرمج لضربها. كانوا يعتقدون، ولكن دون يقين، بأن الثكنات كانت أيضاً مضطلعة بدور إيواء وحدات القيادة والتحكم، مما كان يجعل

احتمال مقتل ما يزيد على ٣٠ مدنياً وارداً. قدم فرانكس عرضاً مشابهاً للأهداف الأخرى ذوات احتمالات الأضرار الجانبية القوية، وإن أوصى بعدم حاجة بوش إلى التوقف عند أي منها ما لم يكن لديه سؤال محدد.

علق الرئيس على أحد الأمثلة قائلاً: «يا إلهي! إني أرى مدرسة هنا.»

رد عليه فرانكس: «ذلك هو السبب الكامن وراء قيامنا بضرب الهدف ليلاً. لن يكون أي أطفال في المدرسة ليلاً.» قام فرانكس بإيراد مثال آخر لضربة نهارية مقترحة لاستهداف إحدى المنشآت لأن أكثرية المدنيين في ذلك الحي سيكونون في أعمالهم.

وجه رمسفلد كلامه إلى الرئيس قائلاً: «نحتفظ بحق العودة إليك، إذا رأينا أن هناك أي أهداف أخرى نشعر أن ضربها ضروري وأن من شأن مثل هذا الضرب أن يجلب ضرراً جانبياً كبيراً.»

أراد فرانكس أن يعرف نوعية التحذير العلني المحدد بدقة الذي يتعين عليهم توجيهه إلى الجيش العراقي كي يمتنع عن استخدام أسلحة الدمار الشامل.

قال الرئيس إنه يريده قوياً كما يريد إصداره في المنطقة وخارجها على حد سواء. وهو يميل إلى تفضيل تضمين التحذير إنذارات شبيهة بتلك الواردة في تصريحاته.

ختاماً استعرضوا برنامج الإيجازات التي كان الرئيس سيرغب في الحصول عليها في أثناء الحرب - كم مرة كانوا سيلتقون وفي أي أوقات في اليوم؟ وافق رمسفلد على إعداد البرنامج مع كارد.

بعد جلسة الإيجاز، شعر كارد أنهم قبل قليل كانوا مع تركة فيتنام وجهاً لوجه. فقط بعد فيتنام كان الجيش سيفكر بإطلاع أي رئيس على الأهداف بمثل هذا

التفصيل. كان الأمر أشبه بشعار «ألا غطيت مؤخرتك؟!» الإلزامي بالنسبة إلى الجيش. بادر كارد إلى إثارة الموضوع مع الرئيس حين بقيا وحدهما. فرق السن بينهما عام واحد. كان كارد قد ذهب من الثانوية لأداء قَسَم الالتحاق بمركز تدريب ضباط البحرية الاحتياط؛ في حين ذهب بوش من الكلية في الجامعة لأداء قَسَم الالتحاق بالحرس الوطني الجوي. لم يكن أي منهما، برأي كارد، ميالاً إلى ارتداء القمصان القطنية ذوات الربطات المصبوغة العائدة لحركة مناهضة الحرب، غير أنهما كانا، كلاهما، واعيين للشرك الذي يمكن نصبه، وقد نُصب فعلاً، للساسة الذين يحاولون أداء لعبة الحرب. حرص كارد على إبلاغ الرئيس أن وقائع وزارة الدفاع اليوم تمثلت بعزوفها عن امتلاك أي مشكلات. بقيت شديدة الرغبة في وجود شخصية تتولى امتلاكها هي. أضاف كارد وهو يضحك: «كان ذلك للسجل، من أجل أن تكون سجلات وزارة الدفاع قادرة على أن تقول: (كنت تعلم).»

«صحيح» قال الرئيس «أعرف، أنت على حق».



بعد طعام الغداء في ٥ آذار/ مارس التقى بوش مبعوثاً شخصياً كان البابا يوحنا بولس الثاني Pope John Paul II قد أوفده للاعتراض على الحرب والمناقشة ضدها. ثمة كان احتمال وقوع ضحايا مدنيين. وكان من شأن الحرب أن تزيد من عمق الهوة الفاصلة بين العالمين المسيحي والإسلامي. قال المبعوث الكاردينال پيو لاغي Pio Laghi، الذي كان قد عمل سفيراً للفاتيكان في الولايات المتحدة وصديقاً قديماً لعائلة بوش. ما كانت هذه لتكون حرباً عادلة، ستبقى غير شرعية ولم تكن مرشحة لأن تجعل الأمور أفضل.

◆ ◆ ◆

سارع الرئيس إلى الرد قائلاً: «من المؤكد على نحو مطلق أنها تجعل الأمور أفضل.»

في مؤتمر صحفي تلفزيوني ساعة الذروة مساء اليوم التالي، يوم ٦ آذار/مارس، كرر الرئيس دعواه القائمة على القول بأن صداماً لم يكن يتجرد من السلاح. زعم بوش «يواصل رجال الأجهزة العراقية إخفاء جملة من العناصر البيولوجية والكيميائية لتجنب تحريها من قبل المفتشين.» ثم أضاف: «ما زلنا في المراحل الأخيرة من الدبلوماسية. إننا ندعو إلى التصويت» لاستصدار قرار ثان من الأمم المتحدة «آن للناس أن يكشفوا أوراقهم!»

نجح الرئيس في نسج الكلام بعناية إذ أوحى بإمكانية اندلاع حرب دون أن يقول ذلك صراحة. قبل الاختتام قال بوش في زلة لسان تكاد تشي بـ «نحن» مَلَكية/إمبراطورية: «لم أتخذ بعد قرارنا - نحن - بشأن العمل العسكري.» العكس هو ما كان يعرفه كل من تشيني، پاول، رمسفلد، ورايس.

مع عدم إقراره بأي تناقض، قام الرئيس في إحدى المقابلات، بعد تسعة أشهر، بتسليط الضوء على نمط تفكيره: «أدرك الآن أن أي إخفاق للسياسية في هذه النقطة من الوقت كان من شأنه أن يخلق صدّاماً أقوى بكثير، وكان من شأن ذلك أن يعني أنني لم أقم بواجبي. لقد أدى التزامي المقدس إلى جعل قيامي بواجبي أكثر صعوبة في الحقيقة. إذن كان ذلك وقتاً عصيباً، وقتاً مشحوناً بالقلق. لم يكن وقتاً يسمح بالشك. كنت واثقاً من قراري القاضي بالوصول إلى هناك في المقام الأول. ثمة كانت تكتيكات، ثمة كانت الطريق-فقط شديدة الالتواء والتعرج، ملأى بالمنعطفات الخطرة. بدا الأمر كما لو كنا مُبْحرين عبر بحر متلاطم الأمواج.

تزايد تعرض الرئيس للهجوم من جانب المحافظين لأن الحرب لم تكن قد اندلعت بعد. بادر كَنْ أدلْمان، الذي طالما دعا إلى الحرب منذ ما يزيد على سنة، إلى

شن حملة عنيفة في اليو.إس.إي. تودي USA Tody يوم ٧ آذار/مارس قائلاً: «امنحوا صدّاماً فرصة، أخيرة، أخيرة جداً. الرجاء ثم الرجاء !» كانت الإدارة قد «اقترفت خطأ جسيماً إذ بالغت في الانتظار أطول مما ينبغي. لقد بددنا الوقت. إن الانتظار يشجع فرنسا على التصرف كما لو كانت دولة ذات أهمية.»

ذهب روف خلال جولته إلى الكونغرس. الرسالة واضحة: صدام خطر، بادروا إلى اجتثاثه! كفى تسويفاً ومواربة! فريق من محافظي مجلس النواب أبلغ روف على الغداء أن الرئيس كان يتحرك ببطء شديد، وأن الوضع كان موشكاً على أن يفلت من يده. كان يتناول وجبات غداء منتظمة مع وليم كريستول William Kristol، رئيس تحرير المجلة المحافظة المعروفة ذه ويكلي ستاندارد The Weekly Standard ، معلق الهوست تشارلز كراوتهامر، وآخرين كثر من ذلك الحشد. كانت رسالتهم الموجهة إلى بوش تقول: «كفى تفاهة وصغاراً ! هيا تحرك وأنجز المهمة !» قام روف بنقل ذلك كله إلى الرئيس الذي قال: «أفضّل أن أتعرض للنقد لأنني شديد البطء لا لكوني عجولاً.» غير أن الرئيس كان، كما كان روف يعرف جيداً، موشكاً على أن يُقْدِم.

مع أن بوش كان يزعم أنه لم يكن يقرأ صفحات الرأي في الجرائد، فإنه بات شاعراً بالعاصفة المتصاعدة. «بدأت أقلق إزاء الأصداء الخارجة من عمق أمريكا مرددة (إن بوش لن يتحرك. إن الزعيم الذي ظَنَنّا أنه قوي وصريح وصافي الذهن قد أقحم الآن نفسه في وضع بات معه عاجزاً عن الحركة). ولم يكن الكلام صادراً عن اليسار. كان آتيا من اليمين.»



31

مرة أخرى كتب شاؤول إلى تيم في قاعدة قلعة چوالان الواقعة في أحضان جبال شمال العراق يقول: يبدو الأمر جيداً في الحقيقة. إنها ستقع. كان تيم وفريقه التابع لوكالة الاستخبارات المركزية يشعرون بأنهم باتوا مهمّشين، ضائعين على صعيدي المكان والزمان. نعم، لا، نعم، لا، نعم- وصولاً إلى ربما. ظل البرد واللايقين دائبين على نخر عظامهم. كان لدى تيم ٨٧ عميلاً في فريق الروكستار ROCK-STARS هناك، بعضهم يقدم تقاريره عبر هاتفه الفضائي من طراز الثريا. كان تيم قد أوجد مركز اتصالات على قمة يغطيها الثلج على ارتفاع نحو ١٠،٠٠٠ قدم، ثلاث عربات مقطورة من طراز السبعينيات وبعض أكواخ الكونست Quonset (مسبق الصنع) الملفوفة برقائق البلاستيك والمربوطة بالحبال. دَشّنوا القاعدة مطلقين عليها اسم «جونزتاون».

ظلت رقائق البلاستيك تصفع وتصفّق متراقصة مع الرياح الشديدة منفذة الماء بين الحين والآخر إلى داخل الكوخ. بقيت درجات الحرارة متذبذبة ولكن دون درجة التجمد. كانت جيمزتاون بؤرة تتعذر على التصور، حيث كان عويل الريح وصفق البلاستيك أشبه بلحن شيطاني مصر على اجتثاثهم واقتلاعهم من الجبل. وافق الأخوان على المجيء إلى جيمزتاون يومياً لتلقي المكالمات الهاتفية من عناصر الروكستار الذين كانوا يقدمون تقاريرهم عبر هواتف الثريا من جميع مناطق العراق. كانوا يطيلون السهر ليقدموا تقاريرهم مناوبة بين نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل والرابعة والنصف أو الخامسة فجراً. كان لدى تيم ثلاثة من ضباطه الميدانيين واثنين من شباب القوات الخاصة هناك لتوفير الأمن، مقيمين أساسياً في

جيمزتاون. كانوا يستمعون إلى الرسائل والتقارير الواصلة إلى الأخوين باللغة العربية فيعيدون بثها على موجة راديو آمنة إلى أسفل الجبل.

كانت قاعدة تيم، حبة الفستق، أو الفستقة، على بعد ثلاثة أميال في الوادي بين سفوح التلال، وهي مسافة طريق متعرجة شديدة الالتواء كان يستغرق قطعها ١٥دقيقة عبر أرض محرّمة. كانوا غارقين في بحر من التقارير؛ باستمرار ثمة كانت عبارات: «هنا فستقة هل تسمعني ياجيمزتاون؟ جاءتنا معلومات تقول ....» حاول الفريق استلام التقارير الهاتفية وتحويلها إلى تقارير استخبارية في أسرع وقت ممكن لبثها إلى مقر قيادة وكالة الاستخبارات المركزية. ثم كانت الرسائل الجوابية المبثوثة من جيمزتاون إلى أعالي الجبل: «اسمعيني يا جيمزتاون ! هذه فستقة، هل تستطيعين؟.....» على الدوام كان تيم يصر على التفاصيل - على المزيد من الإيضاح، من التأكيد والإثبات.

كان لدى أهل جيمزتاون شاشة تكنولوجيا عالية ٧×٧ أقدام لبيان الموقع الدقيق لكل مكالمة آتية من داخل العراق. أصيب الأخوان بالتجمد رعباً إزاء احتمال امتلاك جهاز الأمن الصدّامي لقدرة مشابهة تمكّنه من تحديد مكان جيمزتاون. أما تيم فكان واثقاً إلى حد بعيد من بقاء العراقيين عاجزين عن الاهتداء إليهم. غير أنه كان يعلم بأن العراقيين قد ينجحون في العثور على بعض عناصر الروكستار المبعثرة في أرجاء البلاد طولاً وعرضاً.

بات الأخوان والبابا مستنفري الأعصاب، متأكدين من أن صدّاماً كان سيدبر اغتيالهم لحظة اشتعال فتيل الحرب. كان أكراد اليوك (الاتحاد الوطني الكردستاني RUk) غاضبين ودائبين على إزعاج أعضاء الجماعة، بل وعلى ضرب بعضهم لأنهم كانوا يشترون كل الأسلحة المتوفرة في السوق السوداء. من زحمة هذه الظروف المرعبة والكابوسية كان تدفق المعلومات الإستخبارية يتحسن باطراد. ثمة أحد

الحراس الشخصيين (البودي غارد) لنجل صدام قُصي ما لبث أن أصبح عنصراً في الروكستار وراح يقدم تقاريره المهتوفة. ضباط من منظمة الحرس السري (الإس.إس.أو .SSO) ممن كانوا خبراء اتصالات لدى قيادة النظام سرعان ما التحقوا بالركب. أحياناً كان تيم يتصور أن لديه نظيراً عراقياً لنادي الروتاريين يتولى إدارة العمليات الاستخبارية عنده - نظير مطواع وملتزم ولكنه مشؤوم تلفه الألغاز.

بدأ البابا والأخوان يمارسون حدوداً قصوى من الضغط على أتباعهم و مريديهم مطالبينهم بمعلومات داخلية جيدة مأخوذة من العمق. وصل تقرير مثير للذهول من أحد عناصر الروكستار المزعومين. نعم لدى صدام غواصات مطلية باللونين الأحمر و الأبيض وهي تقوم بمهمات الدورية في قاع نهر دجلة. كان لابد من ترجمة التقرير عن اللغة العربية. غواصات مخططة كالحلوى؟ تساءل تيم. هل كان التقرير يعني غواصة أم زورقاً؟ مع جهاز دفع؟ ما الذي كان مرسل التقرير يعنيه؟ تبين أن المعلومات لم تكن إلا قطعة روث بقر. في بحر الشائعات وثرثرات القيل والقال، تعين على تيم و الضباط الميدانيين المتخصصين غربلة (فَلّترة) كل شيء.

ذات يوم جاءت مكالمة من أحد عناصر الروكستار لم تكن سليمة. كان الرجل يتحدث رغماً عنه تحت التهديد. ثم سُمع صوت آخر يقول شيئاً من قبيل «كنا نعلم أنك من عناصر وكالة الاستخبارات المركزية.» ما لبث الهاتف أن صمت صمت القبور وبقي صامتاً. كان أحد عناصر الروكستار قد وقع في مصيدة أحد عناصر جهاز الأمن الصدّامي. وفيما بعد ما لبث عميل الروكستار أن ظهر على شاشة التلفزيون العراقي. من الواضح أنه كان قد تعرض لقدر كبير من الضرب و التعذيب . كان يقول : «تم إلقاء القبض علي. أنا شخص سيئ أنا خائن.» شخص يرتدي زيا رسميا لوح بجهاز هاتف من طراز الثريا أمام عدسة آلة التصوير قائلا : «إن كل من

يُضَبَّط و معه جهاز من هذا النوع ميت دون أدنى شك، كما أن جميع أشقائه و أبيه سيُقْتَلون ايضا. لقد أصبح جهاز هاتف الثريا حكماً بالإعدام. توقفت قاعدة قلعة چوالان عن سماع أي شيء من ٣٠ من هواتف الثريا الـ٨٧ .



يوم السبت، يوم ٨ آذار/مارس، اتصلت رايس مع مستشار بلير للأمن القومي ديفد مانِنغ David Manning للاطمئنان. كان بلير يتعرض لهجوم عنيف جراء دعمه لبوش في سياسته العراقية. صوَّرَتْه الصحافةُ البريطانية كلباً مدللاً يجره بوش من فصيلة پودل. وكان بلير قد زاد الطينة بلة إذ أكد أن موقفه كان هو الموقف الأخلاقي. ففي مقابلة له مع جريدة الغارديان في الأسبوع السابق، كان قد قارن نفسه على نحو غير مباشر بتشيرتشل، قائلا: «إن أكثرية من أُناس محترمين حسني النوايا، طيبي السرائر قالت بعدم وجود حاجة إلى التصدي لهتلر وبأن أولئك الداعين إلى مثل هذا التصدي كانوا تجار حروب.» ورداً على سؤال عما يجعله مصراً على السير وراء بوش قال بلير: «الأمر أسوأ مما تظنون. أنا مؤمن بما أفعله. أنا ملتزم حقاً بالتعامل مع هذه المشكلة، بقطع النظر عن موقف أمريكا. لو لم يكن الأمريكيون عاكفين على القيام بهذه المهمة، لما ترددت في ممارسة الضغط عليهم لدفعهم إلى الإقدام على القيام بها.»

وجدت رايس نفسها في مدرسة لتعلم السياسة البريطانية، ثمة كان ٤١٣ عضواً من حزب بلير، حزب العمال، و١٦٦ عضواً من المحافظين في البرلمان، بما كان يوفر له هامشاً بالغ الاتساع. كان المحافظون في صف شن حرب على العراق، غير أن كتلة متمردة مؤلفة من ١٥٠ أو أكثر من النواب العماليين كانوا سيُقْوون أولئك المحافظين، أو يوفرون لهم فرصة الالتحاق بركب المتمردين العماليين وصولاً إلى إسقاط حكومة بلير عبر التصويت بعدم الثقة.

قال مانِنغ لرايس: «إنه مستعد للنزول إذا دعت الضرورة.» كان الشعور العام يؤكد قدرة بلير على النجاة ولو أقدم أحد وزرائه على الهرب من سفينة الوزارة، أما إذا ما بادر اثنان إلى ذلك فإن الأصوات ستصبح متقاربة إلى حد بالغ الخطورة.

في اليوم التالي، يوم الأحد الواقع في ٩ آذار/ مارس ناقشت رايس وضع بلير مع الرئيس.

سألها بوش: «هل تعتقدين أن من الممكن أن يخسر حكومته؟»

«نعم.»

«هل سيُقْدم البريطانيون على ذلك فعلاً؟»

قالت رايس: «تذكر تشيرتشل!» ملمِّحة إلى أن الأخير كان قد خسر حكومته بعد كسب الحرب العالمية الثانية.

من وجهة نظر بوش، كان بلير «القَبَضاي» الذي كان قد أعلن موقفه على رؤوس الأشهاد، الذي كان مالكاً للخصيتين (الكوجونز) اللازمتين للتحلي بالقوة والثبات. إذا ما سقطت حكومته فإن بوش كان من شأنه ليس فقط أن يخسر حليفه الرئيسي بل وأن يواجه مشكلة كسب صدام مزيداً من النفوذ. لنتصور المواعيد! زد على ذلك أن بوش كان سيُلام حسب منطقه. كان من شأن ذلك أن يشكل كارثة مزدوجة.

كان الرئيس شديد القلق. اتصل مع بلير في واحدة من محادثاتهما المنتظمة. قاما باستكشاف الاحتمالات، ما الدول الأخرى في مجلس الأمن التي كانا يستطيعان الحصول على تأييدها من أجل استصدار قرار ثان؟

أكد بوش قائلاً: «ما أريد إبلاغك به هو أن آخر خياراتي وأبعدها هو مواجهة احتمال سقوط حكومتك إذا ما امتنعت الدول عن التصويت معنا. لا نريد أن يحدث ذلك في ظل أي ظروف. إنني أعني ما أقوله حقاً.» ثم أضاف بوش أنه مستعد، إذا

كان ذلك سيساعد، أن يدع بلير يخرج من التحالف، ومن ثم فإنهما سيجدان طريقة أخرى لتمكين بريطانيا من المشاركة.

رد بلير: «قلت أنا معك. أعني ذلك.»

قال بوش إنهما كانا يستطيعان أن يفكرا بدور آخر للقوات البريطانية «موجة ثانية، قوات حفظ سلام، أو أي شيء آخر. أفضل الذهاب إلى الحرب وحدي على التسبب في سقوط حكومتك.»

جاء رد بلير سريعاً: «أتَفَهَّم ذلك، ونُبْلٌ منك أن تقول ما تقوله، لقد قلت: «إنني معك!»

كرر بوش: «أعلم أنك صادق، وأنا أقدر ذلك. أنا مؤمن أيضاً بهذا إيماناً مطلقاً، أشكرك. أقدر لك ذلك. إنه لنبل منك أن تقول ذلك!» كرر رئيس الوزراء بطريقته البريطانية جداً. «غير أنني هنا إلى النهاية الأخيرة.»



مساهماً في برامج الأحاديث التلفزيونية صباح الأحد عبر پاول عن تفاؤله بشأن إمكانية حصول الولايات المتحدة وبريطانيا على أغلبية لاستصدار قرار ثان من مجلس الأمن. ففي برنامج لقاء مع الصحافة في الإن. بي. سي. NBC قال إن هناك: «احتمالاً قوياً، وأنا متشجع وآمل أننا حاصلون على الأصوات الـ ٩ أو ١٠ المطلوبة.» غير أن إسبانيا وبلغاريا فقط كانتا قد التزمتا بتأييد مشروع القرار الأمريكي- البريطاني مما أبقى پاول بحاجة إلى ما لا يقل عن خمسة أصوات أخرى، مع أنه كان على اتصال هاتفي مع ثلاث دول إفريقية توقع كسبها.

عناوين متبارزة ظهرت في صحف اليوم التالي. قالت الواشنطن پوست، «پاول متفائل بشأن التأييد في الأمم المتحدة؛ (احتمال قوي) أن يكون دعم من الأكثرية،

وأعلنت النيويورك تايمز، «دبلوماسية الإلحاح تخفق في تمكين الولايات المتحدة من كسب ٩ أصوات في الأمم المتحدة.»

في اجتماع الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والخمسين المألوف يوم الاثنين الواقع في ١٠ آذار/مارس، قدم مدير جهاز العاملين في مجلس الأمن القومي فرانك ميلر تقريراً وجيزاً عن أحدث الخطط المتعلقة بعراق ما بعد صدام. ومما قاله إن: «أولئك الذين أداروا عراق صدام لا يستطيعون أن يعملوا لمصلحتنا ولا يستطيعون أن يتولوا إدارة عراق المستقبل الحر، غير أننا بحاجة إلى إبقاء عجلة الدولة دائرة.» ثمة حسب تقديرات الاستخبارات الأمريكية نحو ٢٥,٠٠٠ شخص قيادي من حزب البعث، وقال فرانك إن الجميع يجب أن يُعزلوا من مناصبهم الحكومية ومن غيرها من مواقع السلطة والنفوذ. لم يكن هؤلاء يمثلون سوى ١ بالمئة من موظفي الحكومة البالغ عددهم مليونان في العراق، وبالتالي فإن إزاحتهم لم تكن لتُفْضي إلى بقاء المؤسسات العامة دون قيادة، برأي فرانك.

تحدث ميلر عن الحاجة إلى المحافظة على الوثائق والسجلات وإلى احتجاز كبار مجرمي الحرب. من المعتقد أن ملاكات القضاء والشرطة لا بد من تدريبها مهنياً، ويمكن للحكومة المؤقتة التي كانت ستشكلها سلطة التحالف أن تستخدمها. «ينطوي الترسيخ الناجح لسلطة القانون في بيئة ما بعد الصراع مباشرة على أهمية حاسمة من حيث ضمان الاستقرار، السماح بحسن سير أعمال الإغاثة وإعادة البناء، والعمل على إعادة بناء المجتمع العراقي بسرعة.»

علق الرئيس قائلاً: «نحن بحاجة إلى إقناع الناس في العراق بأننا نثق بهم.» أراد وضع بعض الوزارات الحكومية تحت السلطة العراقية بأسرع وقت ممكن. «فالناس في العراق عانوا كثيراً في ظل صدام حسين.» قال بوش: «وسيكونون ساخطين بعض الشيء على أولئك العراقيين الذين كانوا خارج العراق في أثناء حكم

صدام.» وأكد أنه لم يكن راغباً في اختيار حكام جدد، داقاً، عملياً، مسماراً في نعش الزعم القائل بأن الجلبي سيتولى الحكم، مؤجّلاً الفكرة القائلة بتنصيب حكومة انتقالية في وقت مبكر. ثم قال: «إن علينا أن نُبْقيَ نارنا شاعلة على صعيد تسوية التفاصيل إلى أن نصبح مطّلعين على المزيد من المعلومات.»

اقترح باول السعي للحصول على قرار دولي آخر كنوع من المظلة الشرعية فوق رؤوس السلطة الانتقالية العراقية.

وافقه بوش قائلاً: إن من شأن ذلك أن يساعد.

وبعد ذلك قام وزير الخزانة جون سنو John Snow بإيجاز خطة اعتماد عملة جديدة في العراق. كانت ثمة عملتان متداولتان: الدينار السويسري في الشمال، ودينار صدام في الجنوب مع صورة صدام ملصقة على وجه كل قطعة نقدية. بعد الاستيلاء على السلطة كان لا بد، برأي سنو، من ضمان عدم الاستمرار في طبع المزيد من أي دنانير صدّامية، ووضع اليد على المخزونات الموجودة للحيلولة دون التضخم المفرط. فبعد رحيل صدام كانوا سيظلون مضطرين لتسديد مستحقات الناس لإبقاء دولاب الاقتصاد دائراً.

تمثل خيار سنو المفضل بديلاً انتقالياً للنقد المتداول بالدولار الأمريكي ففي حرب الخليج الأولى (الثانية) كانت البنوك الأمريكية قد جَمَّدَتْ نحو ١.٧ بليون دولار أمريكي من الودائع العراقية، وكان الرئيس يستطيع، بموجب قانون الوطنية، أن يستولي على المبلغ بصورة دائمة. كان من شأن شحن ذلك المبلغ إلى العراق أن يتطلب أكثر من ثلاث طائرات نفاثة من طراز ٧٤٧.

وافق بوش على خطة الدولار الأمريكية المؤقتة، غير أنه أراد أن يتأكد من أن الناس في العراق، خصوصاً المتقاعدين، كانوا سيحصلون على زيادة ما شرط ألا تصل إلى مستوى إحداث خلل في الاقتصاد. بدلاً من أوراق نقدية وعليها صورة

صـدام، كـان العـراقـيـون سـيـحـصلـون قـريبـاً على أوراق نقـدية مـزينـة بصـور رؤسـاء جمهوريـات أمـريكيين سـابقـين واشنطن، جاكسون، لنكولن، وغـرانت جنبـاً إلى جنب مـع صور أبطال أمريكيين تاريخيين مثل هاملتن وفرانكلين.



بعـد ظهـر ذلك اليـوم التقـى بوش في المكتب البـيـضـوي كـلاً من رايس، هادلي، كارد، بارتلت، وغيرسون. كـان مصير القرار الدولي المقترح الثاني لا يـزال معلقـاً، غيـر أن الرئيس كـان سيضطر لأن يقـول شيئـاً عنه أمام الجـمهور. مـا الشكل الذي ينبغي إضـفـاؤه على رد الفـعل على أي تصـويت في الأمم المتـحـدة؟ كـان بوش يسـتطيع أن يوجـه إنذاراً إلى صـدام يطالبـه فـيه بـالكف عن المراوغـة - وهـي كلمـة مـفضلة في عـائلة بوش - أو يمكنه بكل بسـاطة أن يعلن بداية العمل العـسكري لأن صدامـاً قد أبى أن يمتثل للقرار الأول، رقم ١٤٤١.

كان الرئيس قد بَيَّنَ بجلاء لا لبس فيه بأن إنذاراً كان سيُوجه. سأل رايس عما كان يجري في الأمم المتحدة، وما لبث مرة أخرى أن عبّر عن نفاذ الصبـر مع العملية المطولة المفتـقـرة إلى النظام والانضبـاط. كانت للبـريطانيين ومـعهم تشيلي وإسـبـانيا مـقـتـرحـات مـتطايرة، حـائمـة في الأجـواء. وبعـد قـدر كـبيـر من الأخـذ والرد، كُلف غيرسون بإعداد خطابين: واحد يفترض حصول نقض (فيتو) للقـرار الثاني، أقله، من جانب الفرنسيين، وآخر يفترض إعادة تأكيد القرار رقم ١٤٤١.

ولكن جوهر الغضب من قـرار الأمم المتحدة كان متمثلاً بمصير بلير الذي بقي شـاغـلاً عقل بوش بقـوة. إذا مـا سـقـطت حكومـة بليـر فإن ذلك كـان سـيـشكل كارثة حقيقة برأي الجميع.

في إيجـاز البنتـاغـون الصـحـفـي في اليـوم التـالـي، يوم ١١ آذار/مـارس، ألمح

رمسفلد إلى احتمال عدم مشاركة البريطانيين في حال وقوع حرب. قال رمسفلد: «تلك قضية سيتولى الرئيس تناولها في الأيام القادمة، كما يمكن للمرء أن يفترض.»

«بحق الشيطان ما الذي تفعلونه؟» سارع مسؤول من السفارة البريطانية مباشرة إلى سؤال مكتب رمسفلد. إنها لإهانة! للجيش البريطاني قوة مؤلفة من ٤٥،٠٠٠ جندي في المنطقة - نحو نصف القوات البرية البريطانية. ما من وكالة أنباء بريطانية إلا وستبادر بسرعة إلى الاتصال بالبنتاغون، بالسفارة، بـ ١٠ داوننغ ستريت وطرح سؤال: ما الذي يعنيه ذلك؟ هل قرر البريطانيون مغادرة الحلبة؟

أصدر رمسفلد توضيحاً شخصياً قال فيه: «ليس عندي أدنى شك بشأن استعداد البريطانيين لتوفير دعمهم الكامل لأي مسعى يستهدف تجريد صدام من السلاح. وفي حال اتخاذ قرار يقضي باستخدام القوة، فإن لدينا كل الأسباب التي تدعونا إلى الاعتقاد بأن مساهمة المملكة المتحدة العسكرية سوف تكون ذات شأن.»

في ١١ آذار/مارس، زودت رايس كبار المسؤولين بـ «استنتاجات ملخصة»، معلمة بكلمة سري التي كانت ترمز إلى ما كان قد تم الاتفاق بشأنه في اجتماع مجلس الأمن القومي ذلك الصباح. وهكذا فإن أي مسؤول كبير كان يستطيع أن يعود ويطالب إدخال تعديلات إذا لم تكن المذكرة عاكسة لما كان قد حدث حسب اعتقاده. تحدثت الخلاصة عن كيفية إقامة سلطة عراقية انتقالية بأسرع وقت ممكن بعد التحرير. وكانت هذه السلطة ستضم عراقيين، أكراداً، ومعارضين عاشوا في المنافي. كان مؤتمر بغدادي سيُعقد لـ«توسيع القاعدة»، كما سبق أن حصل بعد الحرب الأفغانية لتسمية قيادات مؤقتة و«للمساهمة في إقامة حكومة ديمقراطية جديدة». قامت الوثيقة بتلخيص جملة الإيجازات حول النقد، النفط، والجهاز البيرقراطي الذي تم إصلاحه للرئيس.



في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة عشرة من يوم الأربعاء، يوم ١٢/آذار، مارس، انْقَضَّ الرئيس وغيرسون على مسوَّدتين - إنذارين. أما البديل الثالث - وهو إعلان بسيط لعمل عسكري - فلم يكن قد كُتب بعد. قال بوش إن من المهم المسارعة الآن إلى إعداد تلك المسوَّدة أيضاً.

دخل كارد ورايس للاطمئنان إلى حسن سير العمل.

قال بوش: «يجب وضع حد لهذا». بدت الأمم المتحدة مثيرة للسخرية. لعل المحصلة الأفضل هي عدم التوصل إلى أي قرار ثان. يكفي القرار ١٤٤١ لتسويغ العمل العسكري. ربما يتعين عليه أن يصدر الإنذار الموجه إلى صدام - خلال اليوم أو اليومين التاليين. بدت رايس ميالة إلى الاكتفاء بالإعلان عن العمل، دون إنذار. فخطابا الإنذار لم يكونا موفَّقَيْنِ كثيراً وجاءا متضمنين تناقضاً محتملاً: المسوَّدتان، كلتاهما، كانتا تقولان إن الأمم المتحدة لم تكن متوفرة على الشجاعة المنبثقة من قناعاتها الجماعية، غير أنها كانت أيضاً تتصرف بالاستناد إلى القرار ١٤٤١.

أبلغهما بوش أن بلير كان لا يزال يعاني في البرلمان، وقلق بشأن احتمال حصول تصويت بعدم الثقة بسبب الحرب. كان بلير دائباً على التعبير عن قدر عميق من التوجس في محادثاتهما الهاتفية شبه اليومية. قال لهما بوش: «لا أظن أنه سيخسر منصبه.»

كان من المفترض أن يتولى نائب الرئيس تشيني وكارل روف مهمة الاتصال بالمحافظين لإقناعهم بضرورة دعم بلير وتأييد الحرب.

❖ ❖ ❖

في اجتماع مجلس الأمن القومي لاحقاً في الصباح نفسه، تحدث دوغ فايث بإيجاز عن خطط ما بعد الاجتياح على صعيد التعامل مع وزارة الخارجية العراقية

والجيش وأجهزة المخابرات. فيما يخص وزارة الخارجية اكّد أن الهدف تمثل بـ «تطهير الوزارة من كبار القادة البعثيين وضباط الاستخبارات.» كان لابد لسفارات العراق الـ ٥٦ في الخارج من أن تخضع للمعالجة. كان لابد من مطالبة الحكومات المضيفة بطرد السفراء وضباط الاستخبارات المشبوهين ومن تجميد حسابات العراق المصرفية.

«أوكي» قال الرئيس: «ومن سيقوم بذلك؟».

اقر باول بأنه كان سيفعل.

وعن جهاز الاستخبارات العراقية قال فايث إن من الضروري تفكيكه كلياً بأسلوب شفاف بالنسبة إلى العراقيين والعالم. أما عن سؤال ما إذا كان من الممكن الاحتفاظ بالحرس الجمهوري فقد كان الجواب بالنفي، الحرس الجمهوري؟ لا ! ؛ تنظيم الأمن السري (O.S.S)؟ لا !

أما فيما يخص الجيش النظامي فقد كان الجواب: «ربما». قام فايث بإيجاز خطته: تقليص حجم القوات المسلحة؛ إلقاء ظاهرة عَسْكَرة المجتمع. إيجاد قوات مسلحة بعيدة عن السياسة يتم إخضاعها لتحكم سياسي، لتحكم مدني يكون ممثلاً لتركيبة العراق العرقية والطائفية. أضاف فايث أن الميليشيات الخاصة مثل فدائيي صدام كان سيتم تفكيكها وتسريح عناصرها من الخدمة.

كانت السلطة الانتقالية ستفتتح معسكرات اعتقال للتشكيلات العراقية المستسلمة على مستوى السرية، الفوج، أو ربما حتى اللواء. قضت الخطة «بعدم المبادرة فوراً إلى تسريح جميع الناس وإلقائهم إلى أرصفة الشوارع، بل استخدامهم كقوة إعادة بناء.» أضاف فايث أن ثلاثاً إلى خمس فرق من الجيش النظامي كان من شأنها أن تشكل نواة جيش جديد.

مـا لم يخططوا لـه هو احـتـمـال ذهـاب مـئـات الألوف من الجنود إلى بيـوتهم ببساطة، احتمال ذوبان تلك القوة البشرية المؤهلة لإعادة بناء البلاد مثل فص ملح.



لاحقاً في يوم الأربعاء الواقع في ١٢ آذار/ مارس اتصل بلير ببوش لمعرفة ما استجد.

قال بوش: «إذا لم نحصل على الأصوات، بادرْ إلى إسدال الستارة. يكون الأمر قد انتهى!» كان قد شبع قرارات.

«هل من الممكن أن تحاول جولة تصويت أخرى؟» سأل بلير، ملمحاً إلى صوتي فوكس المكسيكي ولاغوس التشيلي.

«بالطبع» قال بوش: «سأكون مسروراً إذا فعلت.»

اتصل بوش بفوكس: «يا فنسنت، أنا مصر على إجراء تصويت غداً في الأمم المتحدة. هل نستطيع التعويل على صوت بلدكم؟»

سأله فوكس: «ما نوع لغة القرار بالتحديد؟»

«لقد ناقشنا هذا الموضوع ما يكفي من الوقت يا فنسنت. أمَنُ الولايات المتحدة على الخط. أريد صوتكم.»

قال فوكس إنه سيعاود الاتصال، وفيما بعد، في أثناء العشاء، اتصلت رايس ببوش لتقول إنها تلقت مكالمة هاتفية تقول إن لويس إيرنسو ديربيز Luis Ernesto Derbez، وزير الخارجية، بات الآن مسؤولاً عن سياسة المكسيك الخارجية لأن فوكس اضطر إلى دخول المستشفى من أجل إجراء جراحة في الظهر.

«مثير للاهتمام!» قال بوش. ثم اتصل بالرئيس التشيلي ريكاردو لاغوس -Ricar

do Lagos، وهو قائد مرموق بنظر بوش، مما أبقاه لبقاً، دون تهديدات.

«هل نستطيع التعويل على صوتكم؟» سأل بوش الزعيم الاشتراكي البالغ الخامسة والستين من العمر.

«هل أنت واثق من أن موعد طرح مشروع قرار على التصويت قد حان؟»

نعم يا ريكاردو آن أوان التصويت. ما أكثر ما أطلنا هذا الجدل؟!»

«غير أننا نحقق تقدماً.» أجاب لاغوس.

«لا لشيء إلا لأن لدينا قوات يصل تعدادها إلى الـ ٢٠٠,٠٠٠. لو لم تكن تلك القوات هناك، لبقي حتى التقدم على الجبهة الدبلوماسية أقل. وكان من شأن صدام أن يبقى أقل اكتراثاً. أي تقدم تتصوره حاصلاً ليس إلا وهماً.» ثم قام بوش بإعلان مأزقه بوضوح. «وأنا لن أترك قواتنا هناك. إما أن تتقدم وتدخل فتزيحه، أو أن تعود إلى الوطن، ياريكاردو.»

كانت هذه فكرة تعيد المرء إلى التوازن والتحلي بالحصافة. لأسباب عملية من جهة وأخرى سياسية من جهة أخرى، كانت إعادة القوات إلى الوطن دون حل مشكلة صدام أمراً غير قابل للتصور بالنسبة إلى بوش. كان الموقف شبيهاً بالموقف الذي كان والده قد وجد نفسه فيه خلال شهر كانون الثاني/ يناير ١٩٩١ مع ٥٠٠,٠٠٠ جندي وجندية في الشرق الأوسط «لا بد لنا من خوض الحرب!» كان بوش الأب قد قال لمستشارية قبل شن حرب الخليج بعدد من الأسابيع. مرة أخرى كان ثمة رئيس آخر يحمل اسم بوش، مع ما يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ جندي في الشرق الأوسط هذه المرة، قد وضع نفسه في وضع حتّم عليه أن يخوض حرباً.

طرح بوش على لاغوس سؤال: «ما لون صوتكم يا ريكاردو؟»

«لا» رد الرئيس التشيلي.

«شكراً جزيلاً!» قال بوش.

اتصل بوش مع بلير وأطلعه على مكالمتيه مع فوكس ولاغوس، قال بوش: «عليك أن تأخذ هاتين المحادثتين في اعتبارك. ليس هذا خبراً ساراً. لقد انتهى كل شيء.»

32

حين التـقى الـرئيس رئيس الوزراء الإيـرلـنـدي بيـــرني آهـرن Bernie Ahern صباح الخـميس الواقع في ١٢ آذار/ مـارس، برز مـوضـوع الفـرنسـيين المحـتـوم على السطح. قـال بوش لآهـرن إن «شيـراك دفع الأمـر إلى نقطة نشأ معها رد فعل عنيف واسع ضد الفرنسيين في أمريكا. إنه مـوضوع النكت. لقـد بالغ كثيراً.» أضاف بوش أن المشكلة تمثلت بعدم اقتصار الأمر على صدام حسين فقط - كان متعلقاً بصعود النفـوذ في أوربا، كـان من شـأن المسـألة أن تكون قـد حُلَّتْ سلمـيـاً لو أبدت ألمانيـا وفرنسا قدراً أكبر من الاستعداد لمجابهة صدام. كان الزعيم العراقي، بدلاً من ذلك، قد التقط رسائل معاكسة، حسب زعم بوش، من زعيمي البلدين كليهما. وكانت مثل تلك الرسائل المطمئنة قد أوهمته بأنه كان قادراً على تحدي الأمم المتحدة كما كان قد فعل على الدوام.

قال بوش: إن شيـراك «متجبر» خصوصاً مع دول أوربا الشـرقيـة. أدى ذلك إلى خلق ردود أفعـال مـا لبثت أن تمخضت عن صب الماء في طاحونة توني بليـر، زعم الرئيس، لأن الفرنسيين بدوا مصابين بقدر مفرط من الجمود العقائدي.

لاحقاً في ذلك اليوم، التقى بوش مستشاريه وعبّر عن اهتمام قوي بعقد قمة مع بلير لإظهار التضامن. جزئياً كان ذلك لملء الفراغ. ما الذي كان يستطيع فعله؟ لم يكن راغباً في البقاء جالساً دون أي عمل. كانت فترة بائسة، ملأى باللا يقين. غير أن جماعة بلير تخوّفوا من مغادرة رئيس الوزراء للبلاد ولو لمدة ثماني ساعات بسبب سابقة ماغي تاتشر Maggie Thatcher، حيث كانت قد سافرت سنة ١٩٩٠ إلى

الخارج لحضور أحد المؤتمرات ولم تعد إلا لتجد أنها أُزيحت عن زعامة الحزب. لم يرغب بلير في أن يقدم بوش على إلقاء خطاب أو إصدار إنذار. تعين عليه هو، بلير نفسه، أن يختار اللحظة المناسبة للدعوة إلى تصويت برلماني. إذن لم يكن ثمة أي مجال لأي خطاب من جانب الرئيس الأمريكي حتى يوم الاثنين على الأقل. كان بوش يقرر كل ما من شأنه أن يخدم البريطانيين.



في الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة الواقع في ١٤ آذار/ مارس أعلن بوش اتفاقاً على «خارطة طريق» للسلام في الشرق الأوسط في الحديقة الوردية. كان ذلك تنازلاً آخر لبلير، الذي كان قد ألح عليه طالباً عدم تأجيل خطة السلام إلى ما بعد حل القضية العراقية.

في إيجاز البيت الأبيض الصحفي الذي عُقد بعيد الظهر أعلن آري فلايشر عن عقد قمة مع بلير وآزنار «للتوقف عند مسألة إيصال هذه الدبلوماسية إلى خواتيمها.»

في وقت لاحق من ذلك اليوم أعطى هادلي غيرسون وثيقة سرية للغاية متضمنة جملة النقاط المتفجرة المطلوب إدخالها في خطاب الإنذار. كانت الوثيقة إحدى نتائج أحد اجتماعات كبار المسؤولين، وقد كانت مثقلة ببصمات رمسفلد الذي أصر على حصر الإنذار بـ ٤٨ ساعة فقط.



طلب الأمير بندر موعداً لمقابلة الرئيس لإبلاغه رسالة عاجلة من ولي العهد الأمير عبد الله. كان الأمير السعودي لا يزال يعلق أملاً على حل لحظة أخيرة لتجنب الحرب، لا يزال يحلم بالإطاحة بصدام عن طريق العمل السري. غير أن

التسويف، التأخير، استمرار الرقص في الأمم المتحدة كان أسوأ من الحرب بنظر السعوديين. كان السعي لمساعدة بلير يجرح مشاعر أصدقاء أمريكا في الشرق الأوسط. وكان الملك الأردني عبد الله غاضباً، خارجاً عن طوره، راح يقول للسعوديين: «هيا نذهب! لا أستطيع أن أطيق هذا.» كانت رسالة ولي العهد السعودي بسيطة: لم يكن التردد الواضح في مصلحة أحد في المنطقة ما الذي ننتظره أو ننتظرها حرب أم لا حرب؟

عندما أُذِنَ لبندر بالدخول المكتب البيضوي كان كل من تشيني، رايس، وكارد هناك. فوجئ كارد بمجيء بندر. كثيراً ما كان وزن السفير يتأرجح، يزيد وينقص، وأزرار سترته في ذلك اليوم كانت مشدودة. بدا متعباً، مضطرب الأعصاب، قلقاً. كان العرق يتصبب منه بغزارة. يا له من مشهد!

«ما المصيبة التي حلت بك؟» سأل الرئيس بندر، ألست متوفراً على شفرة حلاقة أو أي شيء تحلق به؟ درج الأمير على الاحتفاظ بلحية حسنة التهذيب غير أن وجهه الآن بدا غابة شعر شعثاء.

رد بندر، قائلاً: «سيادة الرئيس قطعت وعداً على نفسي بألا أحلق إلى أن تبدأ هذه الحرب.»

«حسناً، أنت موشك سريعاً، إذن، على الحلاقة».

«أرجو ذلك! غير أنني أخشى أن أصبح مثل بن لادن مع حلول موعد هذه الحرب.» مشيراً إلى لحية بطول قدم أو اثنتين.

ثار غضب بوش. لم يكن يحب التعرض للإلحاح كما لم يجد التلميح مضحكاً. كان بندر يعرف مدى كره الرئيس لأي إشارة إلى اتصافه بالتردد. «أقول لك، لن يطول انتظارك» قال الرئيس.

قال بندر إنه كان قد سمع بأن الحرب كانت مقررة في ٣ آذار/ مارس، ثم لم يحصل شيء. بعد ذلك افتُرض أن الموعد كان هو ١٠ آذار/ مارس، ولكنها لم تحدث مرة أخرى، والآن كانت التوقعات تقول بأن بوش كان سيصدر إنذاراً إلى صدام.

«إياك أن تبدأ، ولو مجرد بدء» حذّر الرئيس.

«ولي العهد عبد الله»

قاطعه بوش بتْراً: «لا تقل شيئاً! أعلم. سأفعل. أنا جاد فيما أقوله.»

«سيادة الرئيس .»

«اسمع، أقول لك: حذار حتى من التطرق إلى ذلك! أنا ذاهب، يا بندر، ثق بي فقط!»

«حسناً، إذن أوكي، حسب تقديري...» قال بندر.

سأله الرئيس: «كم من الوقت سننتظر بعد الإنذار قبل أن نبدأ الحرب حسب اعتقادك؟»

«أو تسألني أنا؟»

«نعم، انت» قال الرئيس.

«أنت أدرى بذلك.»

«أعطني تقديرك!» طلب بوش بحدة.

أفاد بندر بأن المدة ستكون ٧٢ ساعة.

«خطأ!».

كان تشيني يحك مقعد كرسيه بمؤخرته بادياً كما لو كان يريد أن يصدر برقيات

طمأنة إلى بندر تحمل عبارة «استَرْخِ يا رجل! إن صاحبنا موشك على الإقدام.» أما وجه رايس فقد كان شبيهاً بوجوه لاعبي البوكر (القمار) المقدودة من الصخر، مثله مثل وجه كارد.

«حسن جداً» قال بندر.



ثم ذهب بندر لرؤية رمسفلد. كان ذلك لقاءهما الثالث منذ إطلاق المسعى الرامي إلى استصدار القرار الدولي الثاني. بدا رمسفلد عصبي المزاج. تركزت أكبر مخاوفه على احتمال قيام صدام بتقديم عرض دقيقة أخيرة ملتمساً فرصة عدد قليل من الأيام فقط؛ وعندئذ كان الروس والفرنسيون سينتهزون المناسبة لإضفاء صفة المعقولية على الطلب.

قال بندر: «سيادة الوزير، أشعر بنوع من الذُعْر كما حصل لي في ١٩٩١.» كان الوضع، من حيث إثارة الخوف، شبيهاً بنظيره عشية حرب الخليج حين كان صدام قادراً على تقديم أبسط أشكال التنازل، ربما تقديم وعد بالإيعاز إلى جيشه بالانسحاب من الكويت ببساطة. وعلى الرغم من أن صدّاماً كان على الدوام يفعل الشيء الغبي، يخفق في انتهاز أي فرصة لتأخير الحرب عبر لعب الورقة الدبلوماسية، فإن بندر ظل يقول: «أنا شديد القلق من احتمال حدوث الشيء نفسه.»

علق رمسفلد قائلاً: «أنت قابلت الريّس هذا الصباح. ماذا تعتقد؟»

رد بندر: «أعتقد أن الإغراء متوفر يا دون، إلا أنني أظن أن صاحبك وصاحبي قد اتخذ قراره.»

علق رمسفلد ثانية: «لن أنزعج إذا ما أعدت تأكيد ذلك.»

◆ ◆ ◆

في السابعة من صباح السبت، ١٥ آذار/ مارس، التقط شاؤول هاتفه الآمن في بيته بمنطقة واشنطن. كان مستيقظاً ودائباً على التصارع من كمبيوتره منذ ساعات. كان رئيس العمليات العراقية في وكالة الاستخبارات المركزية يجد صعوبة في النوم هذه الأيام.

قام المتصل من مقر قيادة وكالة الاستخبارات المركزية لرئيسه: «ننتظر تأكيداً من قسم التصوير.»

«ابق على اتصال» قال شاؤول.

«لا تقلقوا لعدم حصولنا على التأكيد».

انتظر شاؤول. كان بلوغ هذه اللحظة، أو ربما الوصول إلى هذه اللحظة - قد تطلب أشهراً عديدة من النقاش والجدل مع فرانكس. وأركانه. حتى كانت الوكالة تستطيع بدء أعمال تخريبية داخل العراق؟ ففي كانون الأول/ ديسمبر، كان فرانكس قد توجس من احتمال تمخض أي أعمال تخريبية عن رد عراقي لم يكن فرانكس مهيأ للتعامل معه. كان من المحتمل أن يصر صدام على اعتبار العمل التخريبي مهما كان مستواه استفزازاً وتسويغاً لإطلاق العنان لعملياته العسكرية فيما كان فرانكس مطالباً بمنح الدبلوماسية فرصة. غير أن الداوكي» ما لبث أن صدر أخيراً.

كان أحد فرق وكالة الاستخبارات المركزية في الشمال قد زوّد الأكراد بكمية من المتفجرات وانتدب ضابطاً فنياً لتدريبهم على استخدامها. تمثل الهدف بخط قطار الموصل - بغداد، شريان أساسي يبلغ طوله ٢٠٠ ميل. جرى توجيه الأكراد إلى نسف الخط والمبادرة بعد النسف إلى الاتصال بشركة الخطوط الحديدية لإبلاغها رسالة تقول: «لقد نسفنا الخط لا ترسلي أي قطارات عبره.» كان ذلك على درجة كافية من الوضوح، وجزءاً من إصرار بوش على اختزال الإصابات المدنية.

قبيل التاسعة صباحاً تلقى شاؤول المكالمة الثانية من ضابط العمليات.

«أوكي»، حصلنا على الصور، نسفوا الخط الحديدي.» كان موقع التفجير على مسافة ٢٠ ميلاً إلى الجنوب من الموصل.

«جيد.»

«ولكنهم لم ينفذوا شرط الاتصال.»

«لعنهم الله!» صرخ شاؤول. «ما معنى ذلك؟»

«حسناً، ثمة قطار انحرف عن مساره.» باتت صهاريج النفط مبعثرة هنا وهناك فضلاً على خروج بعض عربات الركاب عن السكة.

كان شاؤول قد درس حرب الكونترا لوكالة الاستخبارات المركزية في ثمانينيات القرن العشرين حين كانت الوكالة مكلفة بالإطاحة بنظام الساندنييتسا اليساري في نيكاراغوا. تذكر كيف أقدمت الوكالة على زرع الألغام في الموانئ، مثيرة عاصفة ملتهبة من الاحتجاجات في الكونغرس الذي دأب على شي مديرية وكالة الاستخبارات بيل كيسي وموظفي وكالة آخرين فوق الجمر. «حسناً، أقله إنه يوم سبت» قال شاؤول لنفسه «عندي يوم الأحد لإعداد شهادتي أمام الكونغرس (على التلة- الكابيتول هيل) صباح الاثنين. مؤكد أنني سأُستدعى.» اتصل شاؤول بنائب المدير المسؤول عن العمليات جيم بافيت، رئيس جميع فعاليات الوكالة الخفية والسرية.

«تمت العملية الأولى يا جيم.»

«وماذا حصل؟» سأل بافيت

«أخرجنا قطاراً عن السكة. تبعثرت صهاريج النفط في المكان كله. ثمة بقعة نفط كبيرة. ثمة عربات ركاب. لا نعلم ما إذا حصلت إصابات بشرية أم لا.»

سمع شاؤول صمتاً مشؤوماً، توقفاً كاملاً أشبه بالموت على الطرف الآخر، جعله يتصور أن بافيت موشك على جلده والإجهاز عليه.

أخيراً نطق بافيت: «حسناً، أعتقد أن مثل هذه الأشياء تحدث زمن الحرب. أطلعني على ما يستجد!»

اتصل شاؤول بـ«قبضاياته» وقال: «هيا تابعوا لم يأبه. تابعوا!» كان الأمر يقول: فلتبدأ العمليات!

كان قطاراً عسكرياً ووقعت إصابات. سارع الأكراد إلى نهب ما فيه وتغطية المنطقة بالمنشورات: انتفض أيها الشعب! بات التحرير قاب قوسين أو أدنى!

جرى شن العشرات من الهجمات الإضافية. تم تفجير مركبات رسمية . وُجهت ضربات إلى مقرات قادة حزب البعث. كذلك تعرض مقر قيادة الاستخبارات العراقية الآي آي. اس IIS للاعتداء. من الشمال إلى الجنوب جرى تشويه تماثيل ، صور وملصقات صدام. ثمة كانت عمليات إطلاق نار على الماشي بالسيارات على العديد من المباني الحكومية . باتت نُصُب صدام الرئيسية محروسة بعناصر من أجهزة الأمن والاستخبارات العراقية، عناصر جرى سحبهم من مهمات أخرى. منشورات معنونة بعبارة «أطيحوا بصدام!» و«فليسقط صدام» وُزِّعَتْ باليد في المسرح الذي كان قد شهد تأسيس حزب البعث.

قنبلة صاروخية ذاتية الدفع أُطلقت على قطار آخر ناقل للوقود على خط بغداد - سورية. في كركوك القريبة من المنطقة الخاضعة للسلطة الكردية سار نحو ٢٠,٠٠٠ متظاهر إلى مقر قيادة الحزب البعث مطالبين بسقوط صدام. عبارات وصور بذيئة وداعرة معادية لصدام باتت في كل الأمكنة. ربما كانت العبارة الأساسية هي «الخازوق فيك!» كبيرة.

غير أن شاؤول أدرك أن هناك مشكلة تأبى الحل. كان من شأن إقدام الرئيس، لا سمح الله! على التراجع والتوقف، لأن وكالة الاستخبارات المركزية لم تعد قادرة، بعد أن يكون كل شيء قد بدأ.



لم يكن العمل التخريبي في الحقيقة مستهدفاً إضعاف النظام، بل جعله فقط ينشغل بالداخل مع خلق انطباع بوجود تمرد داخل العراق، وهو أمر كان شاؤول، مثله مثل الآخرين، متأكداً من أنه لم يكن صحيحاً.

على جبهة جمع المعلومات الاستخباراتية، شعر شاؤول بأنهم كانوا قد حققوا تقدماً أكثر جوهرية. تمثلت الذروة، بالطبع، بفريق عملاء الروكستارز -ROCK-STARS. نجح في تحقيق اختراقات وعمليات تسلسل أخرى في شبكات قبلية داخل العراق، ربما وصل عددها إلى العشرين بمن فيهم عناصر الروكستار. وقد أحصى نحو «دزينة» من عمليات التسلل إلى جهاز الأمن و«دزينة» أخرى إلى قلب الحرس الجمهوري والجيش، إذا ما تم إضافة عناصر الروكستار مرة أخرى.

كانت الوكالة قد زَوَّدَتْ فرانكس ببعض المعلومات الاستخباراتية حول مواقع عدد قليل من صواريخ الأرض- جو والبطاريات المضادة للطائرات التي تأكدت عبر عمليات التصوير من الجو. كانت تلك المواقع ستضرب عند بدء الحرب.

ثمة كان عدد لا يستهان به من عمليات الاختراق الأخرى. عدد غير قليل من المهندسين العراقيين في حقول النفط كانوا قد وافقوا على مساعدة وكالة الاستخبارات المركزية وكانوا قادرين على تقديم تقارير راهنة ومباشرة عن أي محاولة يبذلها صدام لشحن الآبار بالمتفجرات. كان فريق شبه عسكري تابع لوكالة الاستخبارات المركزية يخطط لمرافقة الوحدات العسكرية الأمريكية المتقدمة التي

كانت ستعبر الحدود الكويتية ـ العراقية والبقاء على اتصال بالمهندسين أملاً في الحيلولة دون وقوع كارثة في حقول النفط.

كان أحد مجنَّدي الروكستار رئيس جهاز الأمن في ميناء أم قصر العراقي. والعراق بلد قارّي محصور وليس لديه أي منفذ على البحر سوى خليج صغير عند حافة الخليج الفارسي حيث تقع بلدة أم قصر. على امتداد ثلاثة أشهر كان العميل قد وفر تفاصيل عن أماكن الألغام وقوى الأمن بما كان سيمكن قوات المارينز الأمريكية من التقدم ببساطة والاستيلاء دونما عناء على الميناء.

ثمة ضباط كبار في وحدات عسكرية عراقية، بلغت نحو ست فرق، كانوا قد وافقوا على البقاء خارج القتال، الاستسلام، وتسليم جميع قواتهم. أدى هذا إلى خلق آمال عريضة في احتمال حصول ما عُرف باسم استراتيجية الاستسلام، حيث كان من الممكن استخدام الوحدات المستسلِمة في جهود نشر الاستقرار داخل العراق بعد الحرب.

مصدر آخر من مصادر الوكالة العراقيين في منطقة الخليج كان قد زود الوكالة بأسماء عملاء الاستخبارات العراقية في نصف (دزينة) من البلدان، أولئك العملاء الذين كانوا أعضاء في فرق مؤلفة من اثنين إلى أربعة رجال كانت قد أُمرت بتنفيذ عمليات إرهابية ضد مرافق أمريكية في تلك البلدان فور اندلاع الحرب. جاءت الأسماء وجملة التفاصيل محددة. كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد نجحت في تعقب العملاء وتطويق الفرق.

اعتقد شاؤول بأن الوكالة كانت تدبر بعض عمليات التضليل والتمويه الفعالة المحتملة ضد صدام. عادة كانت وكالة الاستخبارات المركزية ستتعامل مع عملاء مزدوجين- أشخاص كانت الوكالة تعرف أنهم كانوا في الواقع يعملون لدى الطرف

الآخر- بهدف محدود تمثل بالسعي لاستكشاف طريقة تواصل العملاء العراقيين. كان شاؤول قد وجه قائلاً: « دعونا نوقف هذا الهراء الشبيه بروث الخيل!» كان من شأن العملاء المزدوجين الذين تم التعرف عليهم عبر الأقراص المدمجة المتضمنة ملفات كوادر تنظيم الأمن السري الإس.إس. أو. SSO أن يبقى أكثر جدوى إذا ما زُودا بمعلومات زائفة حول كيفية وموعد اندلاع الحرب.

عدد غير قليل من العملاء المزدوجين زُودوا بمعلومات تقول إن الحرب كانت ستأخذ شكل عاصفة صحراء ثانية، قائمة على حشد كبير ومطول للقوات. وفي مثال آخر جرى اختيار واحد أو أكثر من العملاء المزدوجين المشبوهين الذين جاؤوا متطوعين للتجسس في عمليات عبور الحدود الإيرانية- العراقية وجرى استجوابهم مطولاً حول إيران. كان الهدف من هذا هو ترك الانطباع الموحي بأن من شأن الهجوم أن يأتي عبر إيران، من خلال أحد ألد خصوم صدام.

معلومات مضلّلة أخرى نُشرت حول احتمال قيام الولايات المتحدة بالهجوم عن طريق دفع فرقتين إلى داخل العراق من الأردن.

وثمة عميل مزدوج آخر جرى تزويده بخطط حربية أمريكية مجلجلة كانت قد صيغت بإتقان لإظهار أن الهجوم كان سيأتي على شكل إنزال جوي مكثف وكبير لمطار صدام الدولي ببغداد. سارع الحرس الجمهوري إلى تحريك أعداد كبيرة من الدبابات وناقلات الجند المدرعة ووضعها على المدارج لإعاقة الهجوم المتوقع.

صُممت إحدى أكثر العمليات ابتكاراً للإيهام بأن الولايات المتحدة كانت عاكفة على طبخ انقلاب وكانت قد تسللت إلى صفوف الحرس الجمهوري الخاص، المكلف بحماية صدام. كان عميل تعرف وكالة الاستخبارات المركزية أنه مزدوج قد كُلف بمهمة خطرة. جرى تسليمه قطعة كبيرة من الحجر وإطلاعه على جهاز اتصال كان

مخبوءاً بداخلها. قيل له إن الجهاز كان يبث رسائل قصيرة متدنية الطاقة إلى قمر صناعي في الفضاء كان عميل مأجور آخر سيتولى إرسالها إلى الخارج بصورة منتظمة. كُلف بزرع قطعة الحجر في مكان محدد قريب من مساكن أو ثكنات الحرس الجمهوري الخاص. قامت وكالة الاستخبارات المركزية ببناء مخبأ داخل سيارة العميل المزدوج ودفعت له مبلغاً زهيداً من المال. قام العميل بزرع قطعة الحجر في مكان قريب من ثكنات الحرس الجمهوري الخاص. كان جهاز الإرسال قد شُفّر في السابق ولكن وكالة الاستخبارات المركزية كانت متأكدة من قدرة العراقيين على فك الرموز. كان الجهاز مبرمجاً سلفاً للبث في أوقات ذهاب المئات من عناصر الحرس الجمهوري الخاص إلى العمل وعودتهم منه- بما يوحي بأن واحداً منهم كان يتواصل في السر عبر إرسال رشات قصيرة من الرسائل إلى قطعة الحجر.

ثمة تقرير من جهاز استخبارات أجنبية آخر قال لاحقاً إن قادة الحرس الجمهوري الخاص كانوا قد استدعوا ونُبهوا إلى أن واحداً منهم كان يتآمر على صدام. وأي شخص يتم ضبطه متآمراً كان سيُعْدَم. وهناك وثائق تم الحصول عليها بعد الحرب بينت أن صدّاماً كان قد تلقى تقريراً موجزاً عن عملية وكالة الاستخبارات المركزية المزعومة، وأن العراقيين كانوا قد أجروا تحقيقاً لاكتشاف الخائن.

ومن العمليات السرية الأخرى دفع بلدان معينة إلى تجميد حسابات مصرفية عراقية في الخارج. كثيراً ما كانت الاستخبارات العراقية تدفع لمجنديها لا نقداً بل عبر تزويدهم بعقود خاصة ببرنامج الأمم المتحدة المعروف باسم النفط من أجل الغذاء. كان المجندون قادرين على تحصيل مليون من الدولارات من مثل هذه العقود، وقد بُذلت محاولات لتجميد الأموال في لبنان، الأردن، وسويسرا. في إحدى الحالات جرى تجميد نحو ٦٥٠ مليوناً من الدولارات.

أما جهود وقف الشراء غير الشرعي لمواد أسلحة الدمار الشامل المزعومة تنفيذاً للتوجيهات الواردة في الأمر الرئاسي الاستخباراتي الصادر بتاريخ ١٦ شباط/ فبراير، ٢٠٠٢ فلم تكن موفقة كثيراً. كانت الفكرة تقوم على وضع اليد على أجهزة كمبيوتر مستوردة مشحونة من الخارج وبرمجتها سراً بما يجعلها تعطل العمل في منشآت أسلحة الدمار الشامل المشبوهة. غير أن جملة الكمبيوترات آلت بطريقة ما إلى شبكة بغداد للهواتف والاتصالات وظلت تعمل دون انقطاع قبل الحرب.



فيما كنت عاكفاً على إجراء المقابلات مع أعداد من الجهات الرسمية والمصادر المتباينة في أثناء الحشد استعداداً للحرب، ثمة ثلاثة مصادر قالت في السر أن المعلومات الاستخباراتية عن أسلحة الدمار الشامل لم تكن حاسمة كما كانت وكالة الاستخبارات المركزية والإدارة قد زعمتا. كان هذا عامل إزعاج، ولاسيما في وقت بدا كما لو كان عشية حرب. تحدثت مع وولتر پنكوس Walter Pincus، وهو أحد الزملاء العاملين في الواشنطن پوست، سبق له أن كتب مطولاً عن عمليات التفتيش عن الأسلحة والاستخبارات في العراق. أفاد پنكوس هذا بأنه كان قد سمع الشيء نفسه بالتحديد الدقيق من عدد من مصادر معلوماته. وهكذا فقد سوّدت الفقرات الخمس التالية لتكون مادة إخبارية محتملة وأخذت نسخة باليد إلى پنكوس ومحرر الأمن القومي في الپوست:

«بعض المعلومات الاستخباراتية الأمريكية المفتاحية التي هي أساس الاستنتاج القائل بأن لدى العراق مخابئ كبيرة من أسلحة الدمار الشامل تبدو عرضية وافتراضية على نحو متزايد، بل وتبدو مهزوزة لدى معاينتها أكثر، إخضاعها لتحليل خارجي وتحقيق ميداني على الأرض، وفقاً لما تقوله مصادر عليمة.

«ثمة مصدر رفيع المستوى في إدارة بوش قدم إيجازاً عن الاستخبارات في الشهر الماضي قال إنها كانت واهية إلى حد كبير، وقد تكفي للوصول إلى مستوى حقوقي لـ سبب محتمل، لتوجيه الاتهام ولكنها غير كافية للإدانة وإقناع هيئة المحلفين.

«إن المعلومات المستمدة من صور ملتقطة من الجو توفر، كما قال موظف كبير آخر في الإدارة، صوراً حية لعراقيين يحركون كميات من المواد. لقد رأيناهم يدفنون أشياء، قال هذا الموظف، نقّبوا عنها افتحوا الأبواب، واستخرجوا ما كان موجوداً في المخبأ داخل حاويات خاصة. لقد رأينا أشياء كثيرة.

«لدى سؤاله عما إذا كانت الاستخبارات الأمريكية واقفة على حقيقة ما كان موجوداً داخل الحاويات الخاصة، قال الموظف: (لا. ولكنها ذات علاقة بالأمر دون أدنى شك.)

«أفاد الموظف بأن الإدارة لم تكن تريد بندقية تفوح من فوهتها رائحة البارود- برهاناً غير قابل للدحض. تمثل كل الهدف من الـ ١٤٤١ ومن الطريقة التي كُتب بها بإبقاء العبء بعيداً عن ظهورنا.»

كذلك أعطيت بنكوس نسخة عن رسالة كان تنت قد كتبها للسناتور جون وارنر، رئيس لجنة القوات المسلحة، قائلاً إن أجهزة الاستخبارات كانت قد زودت مفتشي الأسلحة الدوليين بـ «معلومات تفصيلية عن جميع المواقع ذات القيمة العالية والمتوسطة» المشتبهة بوجود علاقة لها مع أسلحة دمار شامل.

رأى بنكوس ومحرر الأمن القومي، كلاهما، أن مسوَّدَتي كانت مفرطة بعض الشيء في القوة. وافقتهما. إذ على الرغم من أن المصادر كانت ممتازة، فإنها لم تكن تقول إن الدليل هزيل ومهزوز. ما من أحد كان يؤكد احتمال عدم العثور على أسلحة

الدمار الشامل في العراق بعد أي حرب. أراد پنكوس، وهو على صواب، أن يسلط الضوء على عجز أجهزة الاستخبارات الأمريكية عن توفير معلومات محددة عن كميات أسلحة الدمار الشامل وأمكنتها في العراق. كتب مقالة نُشرت يوم الأحد الواقع في ١٦ آذار/ مارس على الصفحة آ- ١٧ تحت عنوان: «الولايات المتحدة مفتقرة إلى أدلة محددة على وجود أسلحة محظورة.» ورد اسمي في قائمة المساهمين في مقالته.

حتى هذه اللحظة لا أستطيع الكشف عن هويات المصادر. غير أنني لم أكن أشعر بأنني كنت متوفراً على ما يكفي من المعلومات لأتحدى بفعالية ونجاح جملة الاستنتاجات الرسمية الخاصة بأسلحة الدمار الشامل العراقية المزعومة. وفي ضوء أحداث لاحقة كان قد تعين علي أن أضغط من أجل نشر مادة صفحة أولى، ولو عشية الحرب، عارضاً بقدر أكبر من القوة ما كانت مصادرنا تقوله. عدد غير قليل من المصادر لم يعبروا، كما أعلم، عن تحفظاتهم داخل منظماتهم المختلفة، غير أنهم لم يكونوا أيضاً يملكون ما يكفي من هذه التحفظات للمبادرة بقوة إلى تحدي الاستنتاجات التي كانت قد باتت مستخلصة. لا أملك أي دليل يؤكد أن تحفظات هؤلاء المصادر المحددين قد وصلت إلى الرئيس.

33

كان آندي كارد قد اقترح عقد قمة بوش، بلير، وآزنار المصفرة في برمودا. غير أن الجزيرة كانت أبعد مما ينبغي بالنسبة إلى بلير وأقرب مما يجب بالنسبة إلى الولايات المتحدة. قضى اقتراح آخر من البيت الأبيض بأن يذهب بوش إلى لندن. أبدى مساعدو بلير اعتراضاً- كان من شأن وجود رئيس أمريكي في لندن في ذلك الوقت أن يشكل استفزازاً للمظاهرات الاحتجاجية الكبرى. أخيراً كانوا قد استقروا على جزر الآزور، ذلك الأرخبيل البرتغالي في القطاع الشمالي من الأطلسي في موقع أقرب إلى لندن منه إلى واشنطن. تولى رئيس الوزراء البرتغالي، خوزيه مانويل دوراو بارّوسو Jose Manuel Durao Barrosso ، الذي كان أيضاً من مؤيدي الحرب، مهمة الاستضافة. احتشد الزعماء الأربعة مع كبار معاونيهم في جلسة مغلقة الأبواب بإحدى القواعد الجوية في جزيرة تيرسيرا يوم الأحد، ١٦ آذار/ مارس.

افتتح بوش الجلسة بتلخيص أسباب وجودهم هناك. قال: «قد تبرق السماء فيوافق شيراك على قرارنا المشترك، غير أن أي مفاوضات لن تكون.» فمن شأن ذلك أن يعني تأخيراً لمدة «اسبوع أو أسبوعين أو ثلاثة أسابيع.» أوضح موقفه بجلاء مؤكداً أن الحرب كانت ستبدأ في غضون أيام، لا أسابيع. إذا ما حصل أي تأخير فإن «الرأي العام لن يصبح»، كما قال، «أفضل بل سيغدو أسوأ في بلدان معينة مثل أمريكا.»

كان شيراك قد سجل مقابلة مع تلفزيون السي. بي. إس. CBS، برنامج ٦٠

دقيقة، لتُبث في تلك الليلة، وكان أحدهم قد سلم رئيس الوزراء البريطاني موجزاً لملاحظات شيراك. قام بلير بإبلاغ الآخرين أن شيراك كان يدعو إلى منح مفتشي الأسلحة الدوليين ٣٠ يوماً آخر في العراق.

«انس الموضوع!» قال بوش «ليس ذلك إلا تكتيكاً للتأجيل.» لم يفد ذلك إلا في إضفاء المزيد من الوضوح على ما هو مقتنع به سلفاً. كانت فرنسا مستعدة للتمسك بأي قشة لتأجيل الحرب. بدا القادة الآخرون موافقين.

عكف الأربعة على استعراض مسلسل الجهود الدبلوماسية الطويل، الذي اتفقوا على أنه قد بات مستنفذاً إلى حد بعيد. كانوا متفقين على إعطاء الدبلوماسية ٢٤ ساعة أخرى، رغم عدم توفر احتمال حدوث أي اختراق، والمبادرة بعد ذلك إلى إسدال الستارة على القرار الثاني رسمياً في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي حسب التوقيت الشرقي.

ثمة جرى بعض النقاش حول ما إذا كانوا متمتعين بالسلطة الشرعية التي تخولهم حق شن الحرب. استعرضوا القرار ١٤٤١ بنداً بنداً واستنتجوا أن عبارة «العواقب الوخيمة» كانت تخولهم حق شن الحرب في حال عدم الامتثال، ومن المؤكد أن العراق، لم يكن بنظرهم قد تجرد من السلاح.

قال بوش: «سوف يتعين علي أن أُلقي خطاباً. سوف يتعين علي أن أوجه إنذاراً إلى صدم حسين.» كان صدام سيتمتع بفرصة مدتها ٤٨ ساعة للخروج من العراق مع نجليه. «ذلك هو ما سأفعله، أوكي؟» لم يكن يستشير كان يُعلم، يبلّغ. ثم أضاف «وهكذا فإن الجميع يعرفون.»

تحولوا إلى إمكانية قيام فرنسا، روسيا، أو أي عضو آخر في مجلس الأمن بطرح قرار مضاد لتسويف «العواقب الوخيمة» وفرض التصويت. من شأن ذلك أن

يشكل معضلة حقيقية. اتفقوا على أن كل ما كانوا يستطيعون فعله تَمَثَّل بالانقضاض على الهواتف وإبعاد المترددين، الحصول على التزامهم بمعارضة القرار، والتصويت (بلا) إذا دعت الضرورة.

زاد بلير تشدداً وقال: «إذا حاول بلد آخر طرح مشروع قرار جديد لمجرد تأخيرنا، فلسوف يتعين علينا اعتبار ذلك عدواناً على الصعيد الدبلوماسي.»

أعادهم ذلك إلى الفرنسيين. قال بوش: «سأكون سعيداً أن أنقض مشروعاً يخصهم، (إن استخدم حق الفيتو ضد مشروع قرار فرنسي) سعيداً حقاً.

لقد انتهى التخطيط الدبلوماسي. قال الرئيس: «اعلموا أننا سنتابع، علينا أن نواصل التخطيط لمستقبل يخص عراق ما بعد الحرب، ونحن متفقون جميعاً على المبادئ الأساسية الخمسة. لا بد من الحفاظ على الوحدة الإقليمية. نحن بحاجة إلى أن نكون مستعدين مباشرة لتقديم المساعدات الإنسانية عبر إيصالها إلى هناك فوراً للحيلولة دون حصول أزمة غذاء أو نازحين.» كانت الأمم المتحدة ستتابع برنامج النفط من أجل الغذاء. «فما يزيد على نصف العراقيين يحصلون على طعامهم منه، وهو يتصرف بطنٍ، بكمياتٍ كبيرة من ثروات الشعب العراقي التي روكمت عبر مبيعات سابقة للنفط مقابل الغذاء بموجب عقود أو (بونات). لا بد للأمم المتحدة من أن تبادر إلى التهيؤ للتدخل من أجل استخدام تلك الأموال لمساعدة الناس في محنتهم.

«يتعين علينا أن نتوصل إلى بناء إجماع دولي لصالح العراق، لصالح عراق جديد، عراق في حالة سلم مع جيرانه، ونحن جميعاً سنعود إلى الأمم المتحدة لاستصدار قرار آخر بعد الحرب. صحيح أن الأمم المتحدة تستطيع أن تمد يد المساعدة في قضايا كثيرة، ولكن يجب ألا تتولى إدارة البلد.» أوضح الرئيس بجلاء

أن التحالف سيكون مضطلعاً بالمسؤولية. ثم ما لبثوا أن عكفوا على إعداد البلاغات المشتركة التي كانت ستصدر في وقت لاحق من اليوم.

◆ ◆ ◆

«هل تحرص على تجنب لفت الأنظار يا غيرسون؟» قال الرئيس لكاتب خطبه الرئيسي وهو يغادر الاجتماع. ذلك بالضبط هو ما كان غيرسون يحاول فعله. كان قد رافق الرئيس في رحلة الـ ٤٦٠٠ ميل الطويلة مما مكّنهما من الانشغال بخطاب الإنذار الذي كان لا يزال يتصف بقدر عال من السرية فضلاً على أنه لم يكن بعد نهائياً.

سألتْ رايس موجهة كلامها إلى غيرسون: «عندك نسخة من الخطاب؟» نعم ولكنها تحمل ملاحظاته، إضافاته التحريرية، وسائر خربشاته الشبيهة بخربشات الدجاج.

«لا بأس» قالت رايس «أوكي، سآخذها.» ثم ما لبثت أن قدمت نسخة الخطاب إلى بلير. جحظت عينا غيرسون مندهشاً. كانت تلك قريبة جداً من أن تكون وثيقة محفوظة في أدراج مغلقة، وثيقة تحدد البرنامج الزمني النهائي للحرب. أدرك في الوقت نفسه أن كل كلمة من كلمات بوش يمكنها أن تترك أثراً هائلاً في السياسة البريطانية، ربما على نحو مباشر، لأن تصويتاً بالثقة في البرلمان كان وشيكاً. لاحظ غيرسون أن مستشار بلير للاتصالات والاستراتيجية، آلاستير كامبيل كان عاكفاً على قراءة النسخة وهو يضع الملاحظات.

◆ ◆ ◆

في الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين من المساء بدأ بوش والقادة الآخرون مؤتمراً صحفياً في صالة رقص مركز النشاطات الاجتماعية بقاعدة لايس الجوية الميدانية.

رحب رئيس الوزراء البرتغالي بالجميع وحاول صياغة الرسالة. خاطب المراسلين قائلاً: «كانت هذه هي الفرصة الأخيرة لأي حل سياسي، ولو بنسبة واحد بالمليون.»

اعتلى بوش المنصة. معلناً استحالة الإفلات من منطق «القرار ١٤٤١» وهو «المنطق القائل بأن النظام العراقي سيتجرد من السلاح وإلا فسيتم تجريده من السلاح بالقوة» قال بوش: «توصلنا إلى استنتاج يقول بأن يوم غد هو لحظة حقيقة بالنسبة إلى العالم.» تجاوز ذاته كما لو أن الحرب كانت يقيناً وصدام قد رحل قائلاً: «سنندفع بأقصى سرعة ممكنة باتجاه إيجاد سلطة انتقالية عراقية.» ثم سارع إلى إضافة: «إذا ما كانت القوة العسكرية مطلوبة.»

بدوره قام بلير بصياغة القضية صياغة مختلفة بعض الشيء: «إن النقطة المفتاحية هي أن مسؤوليتنا تلزمنا بالدفاع عن إرادة الأمم المتحدة التي تم التعبير عنها بالقرار رقم ١٤٤١ في تشرين الثاني/نوفمبر الماضي.»

كان التحالف قد عين نفسه ذراع تطبيق لقرار مجلس الأمن الدولي. غير أن الزعماء كانوا، عملياً، يوجهون إنذاراً إلى الأمم المتحدة وعمليتها في مجلس الأمن. كان الوضع يسلط الضوء على مشكلة حرب استباقية وبدا عاكفاً على تعرية مفارقة دبلوماسية القسر أو الإكراه الباعثة على السخرية. ذلك هو ما لا حظه المراسلون. سأل أحدهم: «ألسنا هنا ذاهبين إلى الحرب؟»

رد بوش: «إن القرار عائد لصدام.»

لاحظ مراسل آخر بين ثنايا سؤال التفافي متعدد الأجزاء قائلاً: «ليس ثمة أي مخرج متاح عبر الأمم المتحدة لأن أكثرية لا تؤيد أي عمل عسكري.» لم يعارضه أحد.

إذن، هل سيكون ثمة أي تصويت على مشروع القرار الثاني؟

قال بوش: «إن الأخ هو الذي قال إن عليهم أن يصوتوا. كشفت فرنسا عن أوراقها. أكَّدَتْ أنها ستستخدم حق النقض (الفيتو) ضد كل شيء يضع المسؤولية على كاهل صدام، يلزم صداماً بالامتثال. إذن، فإن الأوراق قد لعبت، وبقي أن نبادر فقط إلى التقويم بعد غد لتحديد ما تعنيه تلك الورقة.» وقال بوش إنه أراد أن يتحدث عن أهمية الأمم المتحدة. «في عراق ما بعد صدام، ستكون الأمم المتحدة، دون أدنى شك، بحاجة إلى الاضطلاع بدور. وبتلك الطريقة ستتمكن من الوقوف على قدميها، قدمي المسؤولية، من جديد.»

لم يصرح علنا بما كان قد قاله في الجلسة الخاصة للقادة الآخرين حين أكد «عدم جواز تولي» الأمم المتحدة «إدارة البلد.»



أخيراً استعاد غيرسون مسوَّدَتَه للخطاب من البريطانيين. أرادوا جعل خطاب الرئيس أكثر مشروطية، مع عبارة أو مفهوم «إذا جاءت الحرب» مبعثرة بحرية هنا وهناك من أول الخطاب إلى آخره. وعلى الرغم من أن الخطاب يمكن أن يوحي بالحرب، فإن من الضروري ألا يكون خطاب حرب. كان لابد من الإبقاء على بصيص أمل في حل سلمي. لم يجد غيرسون أية صعوبة في اعتماد تلك التعديلات المقترحة إذ كانت معبرة عن المزاج الذي كان فيه عند ذلك المنعطف. لقد كان غارقاً في نوع من الاضطراب والتشويش الشخصيين إزاء الصراع القادم.

بوصفه مسيحياً عميق التدين، كان غيرسون منتبها إلى حقيقة أن الموسم هو موسم صوم كبير، فترة أيام التوبة، الاستغفار، والصلاة الـ ٤٠ الممهدة لعيد الفصح. كان هو وابنه قد أقلعا عن تناول الحلوى صياماً. كان قد بدأ الصوم منذ يومين

وعاكفاً على الصلاة داعياً إلى حدوث شيء ما يوفر إمكانية تجنب الحرب.

تعين على بلير أن يغادر مبكراً ليعود إلى الوطن ويهتم بالسياسة وحالة التمرد في حزبه. رأى كارد أنه كان مفعماً بالتصميم من جهة وبالذعر الشديد من جهة ثانية. أما رايس فقد رأت أن الأمر كان لا يزال شديد القرب من (أَلْمَسْ وامشِ!) بالنسبة إلى البريطانيين. قالت وهي واقفة تراقب مغادرة البريطانيين: «أرجو، من أعماق قلبي، الا تكون هذه هي المرة الأخيرة التي نراهم فيها!»



على متن طائرة سلاح الجو رقم واحد، اتفق بوش ورايس على أنه لم يبق أمامهما سوى إدارة سياسة الأمم المتحدة وعدم إشعال الفتيل إلى أن يجتاز بلير امتحان التصويت في البرلمان. ما لبث هيوز وبارتلت أن انضما إليهما وعكف الجميع على مراجعة الخطاب سطراً سطراً. كان الخطاب مؤلفاً من نحو ٣٠ فقرة. إذن كان سيستغرق نحو ١٥ دقيقة. كانت المقترحات البريطانية مقبولة، وما لبث غيرسون إن عاد إلى أحد كمبيوترات الطائرة وأدخل جملة التعديلات على الخطاب.

قام الخطاب على التذكير بسنوات الدبلوماسية الـ ١٢، وألقى باللوم على كاهل صدام. كان بوش سيقول: «نوايانا الحسنة لم تُقابل بالمثل» مع الإصرار على «أننا أردنا حل القضية سلمياً.»

«إذا بات متوجباً علينا أن نبدأ حملة عسكرية..

«إذا ما بقي صدام حسين مصراً على اختيار المجابهة، فإن الشعب الأمريكي يستطيع أن يرى أن جميع الإجراءات المكنة قد اتُّخذت لتجنب الحرب»، ثم يصل الخطاب إلى عبارة «أما إذا حاول صدام أن يتمسك بالسلطة...»

من جهة أخرى كان خطاب حرب، ولم يترك اي أساس. طرح بوضوح صارخ

إمكانية وقوع هجوم نووي. «يواصل النظام العراقي امتلاك بعض أكثر الأسلحة انطواء على الهلاك التي سبق لها أن صُنعت وأخفيت.» إن إرهابيين مزودين بـ «أسلحة نووية تمت حيازتها بمساعدة العراق» يستطيعون قتل «مئات الآلاف من الأبرياء في بلدنا أو في أي بلد آخر.»

وكذلك فإن الخطاب ذكّر أيضاً بـ ٩/١١. ففي مدة تتراوح بين سنة واحدة وخمس سنوات كان من شأن للتهديد المتمثل بصدام أن يتضاعف، كما قال الخطاب. ثم أضاف «نختار التصدي لذلك التهديد الآن، حيثما نشأ، قبل أن يتمكن من الظهور فجأة في أجوائنا ومدننا.

تضمن الخطاب أيضاً صدى لخطب بوش فيما بعد ٩/١١، تحديداً أن البعض قد يعتقد بأننا في عصر يسوده الإرهاب، ولكن بوش كان سيجعله، من خلال أفعاله، عصراً للحرية. كان غيرسون يعلم علم اليقين أن ذلك كان وسيبقى موضع الرئيس المطرد منذ ٩/١١: كانت الولايات المتحدة ستتحكم بما يحصل ولن تكون خاضعة لتحكم قرارات صادرة عن آخرين. تضمن الخطاب وَخْزاً موجهاً إلى الفرنسيين إذ أعلن: «هذه الحكومات تشاطرنا تقويمنا للخطر، ولكنها تأبى أن تتقاسم معنا تصميمنا على التصدي له ومجابهته.»

ما إن انتهى غيرسون من تصحيحاته، حتى عاد إلى الالتحاق بركب الرئيس والآخرين الذين كانوا مستمتعين منذ نحو ١٠ دقائق بمشاهدة فلم مل جبسون Mel Gibson، نظرية المؤامرة.Theory of Conspiracy قام بوش بتلخيص قصة الفلم بصوت مرتفع وظل خلال الجزء الباقي من الفلم يضحك من القصة حسب ما هو متوقع دون إجحاف أو تحامل.

بعد انتهاء الفلم قام بوش بتسليم غيرسون عدداً قليلاً إضافياً من التعدلايات والتصحيحات التحريرية المسجلة على نسخته.

في الساعة السابعة والدقيقة الثانية والأربعين من الصباح، بالتوقيت الشرقي، بعد ساعات فوق الأطلسي، اتصل بوش برئيس الوزراء الأسترالي جون هوارد، الحليف المفتاحي الذي لم يحضر القمة. كانت أستراليا ستشارك بـ ٢,٠٠٠ جندي.

أبلغه بوش: «سننتظر حتى الصباح.» كان پاول سيشغل الخطوط الهاتفية طوال الليل. «سيحاول كولن جس نبض الحلفاء، البلدان العربية في الأمم المتحدة، وسوف نرى أين نحن؟ إذا لم يتغير أي شيء، فإننا سنسدل الستارة على القرار. سألقي خطاباً في تلك الليلة، سنكتفي بمجرد توجيه الإنذار إلى صدام.»

هل سيكون هذا خطاب إعلان الحرب؟

«لا إنه خطاب إنذار.»

كان هوارد قلقاً بشأن الرأي العام الاسترالي، وقال إنه كان بحاجة إلى سماع كلمة رسمية أخيرة من بوش قبل اندلاع الحرب. «وإلا فإن الأمر سيبدو للشعب الأسترالي كما لو أن بوش قد أقدم على إشعال فتيل الحرب دون الاهتمام ولو بإبلاغ أكبر حلفائه.»

«لا، لا» قال بوش «ليست هذه الكلمة الأخيرة التي ستحصل عليها مني.»

34

في واشنطن اليوم التالي، يوم الاثنين الواقع في ١٧ آذار/ مارس، كانت رايس على الهاتف مع مستشار الأمن القومي في الهند في الساعة السابعة صباحاً. فرئيس الوزراء الهندي آتال بيهاري ڤاجپايي Aatal Bihari Vajpayee كان قد بعث برسالة إلى بوش قبل يومين، عارضاً استضافة قمة لأعضاء مجلس الأمن الدولي الدائمين - روسيا، فرنسا، الصين، المملكة المتحدة والولايات المتحدة - لتسوية مشكلاتهم وخلافاتهم. فالولايات المتحدة كانت قد الحَثّ على الهند غير مرة أن تعتمد أسلوب التفاوض في نزاعاتها الخطرة مع باكستان لأن البلدين كليهما كانا متوفرين على أسلحة نووية. إذن، كان لا بد من رفض عرض ڤاجپايي بحذر.

قالت رايس بلباقة: «فكرة عظيمة! غير أننا نرى أن الأوان قد فات.» شكراً على اهتمامكم ومساعدتكم. «نحن نقدّر جهود رئيس الوزراء، غير أن بلداً واحداً على الأقل كان قد أوضح موقفه.» إن فرنسا كانت ستستخدم حق النقض (الفيتو). «لذا فإننا لا نرى أي فائدة في مثل هذا الاجتماع.»

كان الرئيس متركزاً على الحيلولة دون صدور قرار مضاد في الأمم المتحدة. كان من شأن ذلك شل الأعمال وصرف الأنظار عن المشروعية المتضمنة الآن في القرار رقم: ١٤٤١. في اتصال مع آزنار، طلب بوش مساعدة مع رئيس التشيلي لاغوس. كان قد أخفق في كسب تأييد لاغوس للقرار الثاني في الأسبوع السابق، غير أن آزنار كان متمتعاً بقدر أكبر من النفوذ. التمس الرئيس مساعدة آزنار قائلاً: «هل تستطيع أن تتصل بلاغوس وتحثه على الامتناع عن أي مناورة دقيقة أخيرة؟» فالحفاظ على الجمود في مجلس الأمن كان حاسماً الآن.

وعد آزنار بالاتصال مع لاغوس، وأضاف طلبه الخاص: «اسمع، ستكون قد قدمت مساعدة كبيرة لي إذا ما اتصلت بخوان كارلوس Juan Carlos. مجرد اتصال للاطمئنان على الصحة!» فالملك خوان كارلوس الأول هو رأس الدولة الإسبانية، متمتع بالشعبية والنفوذ في تعيين رئيس الوزراء، رغم بقائه شخصية رمزية إلى حد كبير، كان آزنار يريده راضياً.

«فكرة عظيمة!» قال بوش.

في مكالمة دامت ١٥ دقيقة قام بوش وبلير بتنسيق الجهود لضمان عدم صدور أي قرار مضاد، اتفقا على ضرورة التحدث مع الروس على مستويات مختلفة.

أفاد بلير بأن آفاق التصويت المقبل في البرلمان بدت أفضل، غير أنها كانت لا تزال كئيبة بالنسبة إليه في هذه اللحظة. قال بلير «أعتقد أنني أستطيع أن أفوز. غير أني قلق بشأن هامش الانتصار. لا أريد التعويل على أصوات المحافظين. أريد أن أكسب بقوة حزبي: أعلم أنني لن أكسبهم جميعاً، إلا أني لا أريد تمكين المحافظين من الزعم: (كنت ستخسر لولا أصواتنا نحن!) وأنا أعمل جاهداً مع حزب العمال لأضمن الحصول على أكثرية جامدة شديدة الوضوح من الأصوات العمالية.»

في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والخمسين اجتمع بوش مع مجلس الأمن القومي، أفاد باول بأن شيئاً لم يكن قد تغير في الليل، لم يكن الفرنسيون مستعدين للانحناء.

ابلغ الرئيس فرانكس أنه قد يضطر إلى تطبيق ما بات يعرف باسم خطة الأوب ١٠٠٣ الخامسة (Op Plan 1003 V) خلال اثنتين وسبعين ساعة. «أنا لا أعطيك الأمر المباشر بعد، ولكن عليك أن تكون جاهزاً»، قال الرئيس: «اتخذ جميع إجراءات الدقيقة الأخيرة التي أنت بحاجة إلى اتخاذها.»

◆ ◆ ◆

قام الرئيس باستدعاء آري فلايشر. أمره قائلاً: «اخرج في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين وقل إن حلفاءنا اجتمعوا ثانية هذا الصباح وقد قمنا بسحب مشروع قرارنا.» لن يكون ثمة أي تصويت في الأمم المتحدة.

وهكذا فإن سكرتير الرئيس الصحفي فلايشر ظهر في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين في غرفة الصحافة وقال: «لقد أخفقت الأمم المتحدة في فرض مطالبها الخاصة المتضمنة وجوب تجرد العراق من السلاح فوراً. ونتيجة لذلك باتت النافذة الدبلوماسية مغلقة الآن. إن الرئيس سيخاطب الأمة مساء اليوم في الساعة الثامنة. سيقول إن على صدام أن يغادر البلد (العراق)، من أجل تجنب حصول صراع عسكري.»

تبخر نصف جيش الصحفيين من الغرفة لتطيير البرقيات. لم يكن قد سبق لفلايشر أن رأى أي شيء مشابه لهذا خلال الفترة التي تزيد على السنتين التي قضاها شاغلاً لمنصب سكرتير البيت الأبيض الصحفي. فكر بينه وبين نفسه: «وهل من سبيل آخر للخلاص منهم بتلك السهولة؟»

عملية الفرار تمت بأكثريتها من مؤخرة الغرفة. أما عناصر خدمات الكوابل وعاملو التلفزيون في الصفوف الأمامية فاستطاعوا البقاء لمحاولة اعتصار المزيد من فلايشر، مدركين أن منظماتهم الإخبارية كانت تراقب ومستعدة لإذاعة أو بث النشرات.

فيما بعد قام بوش بتسديد ما عليه من دين لأزنار، وتحادث مع الملك الإسباني مدة أربع دقائق: «هاكم ما هو جار على قدم وساق يا جلالة الملك! سنسدل الستارة على فصل مشروع القرار وسوف أتحدث مع الشعب الأمريكي.» شكره الملك من أعماق قلبه على الاتصال.

في الحادية عشرة صباحاً اتصل الرئيس برئيس وزراء بلغاريا سيميون ساكس

- كوبورغ غوتا .Simeon Saxe - Goburg Gotha فالزعيم البلغاري الذي كان سيمنح حق التحليق وسيرسل فريقاً مؤلفاً من بضع عشرات من خبراء الدفاع ضد الحرب الكيميائية والبيولوجية إلى المنطقة عَبّرَ عن القلق إزاء الظهور على قائمة أعضاء التحالف أمام الملأ.

سأله بوش: «مالذي تعنيه؟ ستقوم بإرسال أشخاص إلى الميدان، وما من أحد إلا وسيعرف بأنكم ستكونون هناك، ولكنكم لا تريديون أن تكونوا على القائمة؟»

عَبّرَ رئيس الوزراء عن امتعاضه.

سارعت رايس إلى التدخل لجلاء الموقف: «إننا لا نقول إنك لن ترسل أشخاصاً، صحيح؟»

«أوه! لا، وألف لا، إننا عازمون على إرسالهم.»

ذلك هو كل ما كان بوش يريده، كان يرغب في إدخال أكبر عدد ممكن من الأطراف إلى حظيرة التحالف مهما بقيت مساهماتها زهيدة. على صعيد لفت نظر الجمهور قال: «لا بأس! لك أن تتصرف كما تشاء وكما يتعين عليك أن تفعل.»

وبعد ذلك تحدثت رايس عبر الهاتف مع وزير الدفاع الروسي سيرجي إيڤانوف Sergei Ivanov لإبلاغه أن صداماً كان سيحصل على مهلة ٤٨ ساعة، وأن صفحة الدبلوماسية باتت مطوية. «نرجو ألاّ تبادروا إلى طرح مشروع قرار جديد.» التمستْ بلطف، ثم سألت عن الإشاعات المتداولة الزاعمة أن إيفور إيڤانوف، وزير الخارجية، دائب على التحرك لرفع مستوى اجتماع مجلس الأمن الدولي القادم إلى المستوى الوزاري. كانت قلقة من أن يضطر ذلك پاول إلى الظهور فيتمكنون من توجيه بعض السهام إليه وإلى بوش، أو أن يكون پاول وزير الخارجية الوحيد الغائب، «نرجو ألا ترسلوا إيفور إلى الأمم المتحدة» أصرت رايس.

رد إيفانوف: «لا أستطيع أن أؤكد أنه لن يفعل، غير أنني أعد بأنه، إذا ما ذهب، لن يجعل من الأمر مناورة سياسية كبيرة. لن يستغل الموقف فرصة لتعنيفكم وإحراجكم.»

قالت رايس إن هناك تقارير تتحدث عن حصول العراقيين على مناظير ليلية وأجهزة جي بي. إس (GPS) من الروس.

«لا تقلقي سننظر في الأمر. من المؤكد أننا لم نكن مستعدين لبيعهم تلك المواد.» كان الاتحاد السوفيتي السابق قد درج على بيعهم مثل هذه المعدات، علق إيفانوف «قد تكون معدات قديمة ليس إلا. قد نحصل على رسائلك متداخلة.» ثم راح يقنع رايس بزيارة روسيا.

وبعد ذلك اتصلت رايس بالأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان، قالت: «إذا ما نشبت حرب، فإن الأمم المتحدة ستجد لنفسها في وضع ما بعد الحرب دوراً حيوياً تضطلع به.» وكلمة «حيوياً» هذه كانت عبارة أصر عليها البريطانيون، ولكنها بقيت غير محددة «إننا سنتعاون في ذلك»، قالت رايس، تاركة كلمة «ذلك» هي الأخرى سائبة.

كان اتصالها التالي مع رئيس جهاز العاملين لدى بوتن في الكرملين، الكساندر فولوشين Alxander Voloshin.

قالت رايس: «نرجو ألا ترسلوا إيفانوف إلى الأمم المتحدة، نرجو ألا ترفعوا الأمر إلى مستوى اجتماع وزراء خارجية» ثم أضافت فرصة جديدة قائلة: «إذا فعلتم فإن باول لن يحضر، فنحن لا نرى أي جدوى في الأمر.»

همهم فولوشين وتمتم. ثم قال: «كم نتمنى أن نراك في موسكو!».

ذلك الصباح عقد بوش جلستي «البروفة» الكاملتين الأوليينْ لتلاوة الخطاب

كله. مر النصف الأول بنعومة ويُسْر، غير أنه ما إن وصل إلى جمل الفعل من قبيل: «يجب على صدام حسين ونجليه أن يغادروا العراق خلال ٤٨ ساعة. ورفضهم لتنفيذ ذلك سيتمخض عن نزاع عسكري، يبدأ في اللحظة التي نختارها نحن» - حتى شعر بنوع من الانحباس في حنجرته.

كان غيرسون يعرف أن أحد أسباب التدريب على أي خطاب تمثل بتمكين الرئيس من عيش الشحنة العاطفية المكتنزة في الكلمات للمرة الأولى. وبعد ذلك، كان يستطيع في «البروفة» الثانية، أن يتجاوز منعطفاتها بيسر، وصولاً، في «البروفة» الثالثة إلى التحكم بالكلمات وما تحملها من عواطف من جهة وبنفسه ذاتها من جهة ثانية. بقي شاعراً بنوع من القشعريرة لدى سماع الكلمات على الرغم من أنه كان قد كتبها وسمعها مكررة في «البروفات.»

في الساعة الثانية بعد الظهر اتصل بوش برئيس الوزراء الأسترالي هوارد لإطلاعه على ما كان سيقوله تلك الليلة.

قال هوارد: «إذا وصلت الأمور إلى هذا المنعطف فأنا أتعهد على مسامعك يا جورج أن القوات الاسترالية ستقاتل إذا دعت الضرورة.»

اتصل بوش برئيس الوزراء الإسرائيلي آرييل شارون وقال: «قلت لك في المكتب البيضوي، يا آرييل إنني سأعلمك قبل ٧٢ ساعة، وها أنا ذا أعلمك الآن!»

«مفهوم، وصلت الرسالة!» قال شارون، وشكر الرئيس، استغرقت المكالمة نحو ثلاث دقائق.

في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين أجرى بوش تلاوته الكاملة الثانية لخطابه في قاعة الصليب، ذلك الرواق الرسمي المغطاة أرضيته بسجادة حمراء على الطبقة الأولى من البيت الأبيض حيث كان سيلقي الخطاب مباشرة بعد

ثلاث ساعات. لاحقاً، حين مشى غيرسون إلى المنبر، سارع بوش إلى لف النص وربت باللفافة على رأس كاتب خطبه مازحاً. في مثل هذه اللحظات كان من عادة بوش أن يبقى متحلياً بالانفلاش، بل وحتى بالتسيب والخروج عن الخط.



كان الرئيس قد وعد بإبقاء الكونغرس على علم وكان ثمة اجتماعان مع القيادة مبرمجان ذلك المساء. كانت رايس ومعها بعض الآخرين، بمن فيهم تشيني وفلايشر، تقدم له تقريراً موجزاً أولياً في المكتب البيضوي لمراجعة قائمة أسماء الذين كانوا سيحضرون. كان ذلك تدبيراً روتينياً، غير أن ما كان يجب أن يقال بقي قليلاً. كانوا عميقي الوعي لجملة أبعاد ما كان جارياً على قدم وساق. قال لهم بوش: «إن أصعب الأجزاء تمثل باتخاذ القرار القاضي باحتمال الاضطرار إلى استخدام القوة» كان ذلك قبل ستة أشهر حين أقدم على تحدي الأمم المتحدة في ١٢ أيلول/ سبتمبر، ٢٠٠٢، معلناً أن على الأمم المتحدة أن تحل مشكلة صدام وإلا فسيفعل هو ذلك. «أما قرار استخدام القوة اليوم فلم يكن هو الأصعب.»

رحّبَ بوش بقادة مجلس الشيوخ والنواب في غرفة روزفلت - رئيس مجلس النواب دنيس هاسترت Dennis Hastert، زعيمة الديمقراطيين في المجلس نانسي بيلوسي، والزعيم الديمقراطي لمجلس الشيوخ توم داشل. أما زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ بيل فريست Bill Frist فقد جاء متأخراً.

راح بوش يشرح قائلاً: «توصلنا إلى استنتاج استحالة الأمر بسبب الفرنسيين،» مشيراً إلى القرار الثاني. «اتفقنا جميعاً على أن ساعة السير قدماً قد دقت. فعلنا كل شيء استطعنا فعله في الأمم المتحدة.» تحدث عن خطابه ناعتاً إياه إنذار الساعات الـ ٤٨، ثم أضاف أن صدّاماً قد يرحب بالعرض ويرحل بعد أن قال: «سنخلعه عن

السلطة، واضمين قانون ١٩٩٨ موضوع التطبيق وهو قانون صوّتَ بعضُكم لصالحه.»

علّقت بيلوسي: «أرجو أن تقر بأن لديك معلومات استخباراتية توحي بذلك!»

«لا!» قال بوش «لدينا أكوام من المعلومات الاستخباراتية التي تؤكد لنا ولكم وللجميع أنه مصمم مئة بالمئة على التحدي.»

في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والعشرين تقريباً بادر بوش إلى توسيع الاجتماع إذ ضم إليه رئيس لجنتي الشؤون الخارجية والاستخبارتية. قال للمجتمعين «إن الجنرالات العراقيين ليسوا إلا مجرمي حرب.» ثم أضاف نغمة جديدة ولافتة قائلاً: «سندخل العراق في جميع الأحوال، حتى إذا رحل صدام حسين. بذلك نستطيع تجنب حصول أي تطهير عرقي. سندخل بطريقة سلمية، وستكون هناك قائمة عليها دولة بعد دولة بعد دولة.... واقفة في صفنا داخل التحالف بصلابة وثبات.» فأهمية الدخول مرتبطة بوضع اليد على أسلحة الدمار الشامل والتعامل مع قيادة حزب البعث.

تابع بوش كلامه قائلاً: «لن تلبث تركيا أن تقف في صفنا. ما زال أردوغان في طور التعلم» قال الرئيس، مشيراً إلى رجب طيب أردوغان Recep Tayyip Erdo-gan، رئيس الوزراء التركي الجديد المنتخب ديمقراطياً. «سننتصر بدون تركيا، من شأن كسب تركيا إلى جانبنا أن يكون جميلاً. لعل القضية هي ضمان عدم توغل الأتراك في شمال العراق.»

في الساعة السادسة والدقيقة السادسة والعشرين، استأذن بوش وغادر الاجتماع للاستعداد. بقي تشيني ورايس للرد على الأسئلة.

عقد بوش مؤتمراً هاتفياً، إذا جاز التعبير، مع كل من وزير أمن الوطن توم ريدج Tom Ridge، باول، تنت، مدير الإف بي. آي FBI روبرت مولّر Robert Muell-

er، النائب العـام جون آشكروفت John Ashcroft، وآخـرين كثـر لبـحث مـا كان يتم اتخـاذه من إجـراءات بشـأن التهـديدات الإرهـابيـة الداخلية. اتُّخذ قـرار قـضي برفع مـسـتـوى الإنذار حـول الإرهـاب الداخلي درجـة واحـدة إلـى اللون البـرتقـالـي توقـعـاً لهجمات انتقامية ضد الولايات المتحدة في حال اندلاع الحرب.

هناك في غرفة روزفلت، طرح السناتور ورانر سؤالاً عمـا إذا كانت الدبلوماسـية قد انتهت وما إذا كان أحد يعتقد بأن صدّاماً كان سيرحل.

رد تشـيني: «تجـري الرياح بمـا لا تشـتـهي سـفننا.» أشـار إلى أن فـرقـة المشـاة الرابعة كان من شأنها أن تكون عـامـلاً مسـاعداً لو كانت قـد وصلت إلى هناك قبل أسابيع، لو كان قـد سمح لها بالعبور من تركيا، غير أنها ساهمت مع ذلك في تجميد العراقيين، قال تشيني، مكرراً زعم فرانكس.

أمـا السناتور جـوزف بايدن، العـضـو الديقـراطـي المتـقـدم في لجنة العـلاقـات الخارجية فقد تساءل عن دور الأمم المتحدة المستقبلي.

متملصاً من الإجابة قـال تشيني «أعتقد أننا سنلقى الترحيب بوصفنا محـررين، غير أن هناك حسابات تنتظر التصفية، إنها بيئة وعرة وصعبة سنوفر الأمن.»

قالت رايس إن النيـة متـجهـة إلى تشكيل سلطة عـراقية انتقـالية لتتولى الحكم «نريد أن نضع إدارة العراق بأيدي العراقيين في أسرع وقت ممكن.»

أفاد تشيني بأنه كان قد تحدث شخصياً مع القادة الأتراك «بعبارة لا لبس فيها، نحن لا نـريدهم في الـداخل.» كـان قـد أوصل الـرسـالة. «أعـتـقـد أنهم سـيحـسنون التصرف، علينا أيضاً ألا نطلق العنان للأكراد.» حتى الأصدقاء كانوا خطرين.

قال تشيني: «لم تضطلع إسرائيل بأي دور، وهـي ليست طرفاً في التحالف. غير أننا نتعاون معها تعاوناً وثيقاً بشأن رد فعلها.»

قال السناتور بات روبرتس Pat Roberts، جمهوري من كانساس ورئيس لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، إن مهلة الـ ٤٨ ساعة كانت أطول مما ينبغي.

رد تشيني: «لا أستطيع بعد أن أتحدث عن ذلك النمط من الأشياء.» ثم أضاف أن أمن الوطن ذو أهمية، ومتذكراً حرب الخليج الأولى (الثانية)، حين كان وزيراً للدفاع، قال إن صدّاماً وجهاز استخبارته كانا قد حاولا شن هجمات داخل الولايات المتحدة، غير أن المحاولات بقيت شديدة الهزال حتى بدت مثيرة لشيء من السخرية.

قالت رايس: «لا نتوقع أي صعوبات مع إيران.»

ثم ما لبث السناتور الديمقراطي روبرت بيرد Robert Byrd، من وست فيرجينيا، أن قرأ من ورقة ملاحظات مكتوبة كلاماً معارضاً أساساً لبوش ولما كان موشكاً على القيام به قائلاً: «أؤيد جيشنا مئة بالمئة، سأدعم عمليات توفير التجهيزات لقواتنا. لا بد للناس من أن يطلعوا على التكاليف وخطط إعادة البناء، غير أن هناك جملة من الأسئلة المعلقة دون أجوبة. أنا لست مع إعطاء شيك مفتوح، أبيض، مع مشروعات عظيمة.» حذر من التباطؤ في إنجاز المهمات ومن التهديدات هنا في الداخل. أخيراً صب جام انتقاداته على الرئيس ونائب الرئيس على إخفاقهما في إشراك الكونغرس بصورة كافية.



قبل الثامنة مساءً بوقت غير قصير، كان بوش في الغرفة الحمراء المجاورة لقاعة الصليب. كان منزعجاً. كانت إحدى الشبكات التلفزيونية قد صورته وهو يلعب ويلهو في الباحة الخلفية للبيت الأبيض مع كلبيه بارني Barny وسبوت Spot، رامياً لهما عصا. كان يأخذ قسطاً من الراحة. ظلت الشبكة دائبة على بث الخبر معظم ساعات اليوم.

«أليس هذا خرقاً للقواعد؟» سأل الرئيس كلاً من بارتلت وفلايشر. نعم إنه كذلك. كان من المفترض ألا تبادر وسائل الإعلام المتمتعة بحرية غير عادية في أرجاء البيت الأبيض إلى تصوير الباحة الخلفية. اتُّفق على أن الأمر كان تجاوزاً للخط الأحمر دون أدنى شك. وعملية تكرار بث المشهد بصورة متواصلة بدت متوغلة في أعماق ذهنه: الرئيس مشغول بملاعبة كلبيه، ولا سيما في هذا اليوم بالذات من بين جميع الأيام. كانت تلك رسالة لا يحلو له أن يبعث بها.

كان غيرسون متنحياً جانباً، وهو يصغي باهتمام إلى المحادثة، لم ير في الأمر أي ضرر، إن المشي واللعب مع الكلاب هما من الأشياء التي يفعلها الأمريكيون، ولكنه لم يقل شيئاً، اي شيء.

بادره بوش: «ما بك يا غيرسون تبدو مبالغاً في الهدوء والصمت.» مشى بوش نحو كاتب خطبه وسأله: «هل أنت متوتر الأعصاب؟»

«نعم، أنا كذلك!» قال غيرسون.

أسمعه بوش قصة عن مناقشة حملة أبيه الرئاسية الأولى في ١٩٨٨ المتلفزة مع المرشح الديمقراطي، حاكم ولاية ماسا تشوسس مايكل دوكاكيس Michael Dukakis. قال الرئيس: «كنت مع أحد أشقائي متوتري الأعصاب وغير قادرين على متابعة النقاش. فذهبنا إلى السينما، لا لشيء إلا لأن النقاش كان بالغ السوء، غير قابل لأن يطاق. غير أن الفلم لم يتمكن من إلهائنا، وظللنا نغادر صالة العرض بين الحين والآخر إلى البهو ونبحث عن هاتف لمعرفة مسار النقاش. أخيراً غادرنا السينما قبل انتهاء الفلم وعدنا إلى البيت حيث تصل البابا وسأل: «كيف كان أدائي؟» «كان رائعاً بكلمة واحدة! صرخنا كلانا.»

«لحظة من فضلك» نادى أحدهم، فاستأذن الرئيس لحظة ليستعيد هدوءه.

كان غيرسون يعلم أن الخطاب هو المهم. كان مشتملاً على الوزن الثقيل. كان من شأن إعلان عمل عسكري متوقع في غضون بضعة أيام أن يبقى شديد الانطواء على الانحدار غير المألوف إلى الهاوية.

في الساعة الثامنة والدقيقة الواحدة بدأ الرئيس يرتّل: «إخوتي المواطنين، إن الأحداث في العراق قد وصلت الآن إلى أيام القرار الأخيرة.» ومع بدئه بالكلام عبر بوش عن قدر ضئيل من الارتباك غير البعيد عن هذا الرئيس، إلا أن كلماته والأجواء تضافرت على مضاعفة درجة توتر اللحظة. كانت الأمة قد اعتادت على هذه العروض المسائية، بل وقد بدت متزايدة الاعتياد عليه بوصفه رئيسها. كان غيرسون يرى هذا أحد أشكال أداء بوش الأفضل أمام عدسة آلة التصوير.

لاحقاً كتب ناقد الواشنطن بوست التلفزيوني توم شاليس Tom Shales ان بوش «اتسم بوقار جنائزي وبهالة أسى مشحون بمزاج الحداد» في خطاب الـ ١٥ دقيقة «دونما اثر لأي تبجح.»



افتتح بوش يوم الثلاثاء الواقع في ١٨ آذار/ مارس، ببعض الدعم الدبلوماسي. اتصل بالرئيس الصيني الجديد هو جنتاو Hu Jintao في الساعة السابعة والدقيقة الثامنة والأربعين لتهنئته، وطمأنته إلى ان وضع العراق لم يكن ليؤثر سلباً في العلاقات الأمريكية - الصينية ولشكره على جهود الصين الرامية إلى اجتراح حل سلمي للوضع في كوريا الشمالية.

وبعد ذلك تحدث الرئيس مع بوتن، وأطلعه على تمخض تصرفات فرنسا عن عواطف معادية لفرنسا ذات شأن في الولايات المتحدة. «ليس ثمة ما أستطيع أن افعله بشأن هذا، لقد طار صواب الشعب الأمريكي، وهو على حق، اشكرك على

عدم إلهاب مشاعر الروس ضد أمريكا وعلى عزوفك شخصياً عن مهاجمة القادة الذين تختلف معهم. وهذا يساعد في مسألة الراي العام الأمريكي تجاه روسيا، يساعد على إبقاء علاقتنا قوية.»

من المؤكد أن بوتن وهو المثقل بمشكلاته الخاصة الكافية قال بينه وبين نفسه، إنه لم يكن ليفعل أي شيء من ذلك القبيل. وإذا كان وزير الخارجية، إيغور إيڤانوڤ ذاهباً إلى الأمم المتحدة فإنه لا يفعل ذلك إلا للحديث عن عمليات التفتيش عن الأسلحة «لن يحاول إيڤانوڤ تسجيل أي نقاط دعائية.»

اتفقا على وجوب إشراك الأمم المتحدة بعراق ما بعد صدام، وألح بوتن على بوش لمعرفة إذا كان الأخير سيحضر القمة المبرمجة في سان بطرسبرغ، مسقط رأس بوتن، احتفالاً بذكرى تأسيس المدينة السنوية الـ ٣٠٠.

قال بوش: «من المؤكد انني آمل أن أتمكن من ذلك» بشيء من الخجل.



في اجتماع كبار جهاز العاملين ذلك الصباح تم إصدار إعلانين: تعليق زيارات الجمهور للبيت الأبيض؛ بقاء الفرق الطبية في متناول اليد للاضطلاع بإدارة حالات الإجهاد.

في المكتب البيضوي، قام مدير الموازنة ميتش دانييلز Mitch Daniels بإبلاغ الرئيس عن أن من شأن الحاجة أن تدعو إلى توفير نحو ٧٣.٢ مليارا من الدولارات على شكل حساب تكميلي من الكونغرس لخوض الحرب وتعزيز أمن الوطن.

«نحن بحاجة إلى استراتيجية تمكننا من إبقائها ناحلة» قال بوش: «إلى إخراج المشروعات المدللة منها.»

تحدثت رايس مع نظيرها الكندي الذي عبر عن الأسف جراء عدم قدرة بلده

على أن يكون جزءاً من العملية، ولكنه وعد بإبقاء اللغة الخطابية متدنية درجة الغليان - بما يكفي فقط لإرضاء الرأي العام الكندي ولكن دون أن يصل إلى مستوى العدوان أو الاستفزاز.

كان هذا يوم بلير المشهود. خطابه الذي دام ساعة كاملة في البرلمان ذلك اليوم اعتُبر أحد اكثر خطبه تأثيراً وحماسة حتى من جانب بعض كبار منتقديه.

قال بلير «في هذه المعضلة، ليس ثمة أي خيار نموذجي، وليس ثمة أي قضية مثالية. غير أن على هذا القرار يتوقف مصير أشياء كثيرة.»

في الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين من بعد الظهر اتصل بوش مع بلير ليقول: «خطاب عظيم!»

رد بلير: «أعرف الآن أنني حاصل على الأصوات اللازمة لكسب القرار لأن مستنفري الأصوات ظلوا يعملون الليل كله دون انقطاع. لعل المسألة الوحيدة هي الهامش، غير أنني واثق.»

تحدثنا عن الحاجة إلى منح روسيا، فرنسا، وألمانيا فرصة للعودة إلى الحظيرة.



في شمال العراق تصاعد النداء المألوف: «يا فستقة، أنا جيمستاون!» معلناً تقريراً صادراً عن عميل رئيسي من عملاء الروكستار، ضابط تنظيم أمن سري، إس.إس أو O.S.S، كان مضطلعاً بمهمة إدارة جزء من بؤر الاتصالات التي كان صدام يستخدمها لدى تنقلاته بين القصور ومواقع أخرى.

كان العميل قد اكتشف أن اتصالات صدام كانت تستخدم حزمة كوابل معينة وكانت لوحة الوضع تبث إشارة تبين مكان وجود الزعيم العراقي. ولكن الفترة الزمنية المطلوبة لبث إحداثيات الموقع إلى مقر قيادة وكالة الاستخبارات المركزية

كانت تتراوح عادة بين ٤٥ دقيقة وساعة، وبالتالي فإن صدّاماً يكون قد غادر المكان. ومن اللافت أن إثباتات الصور كثيراً ما كانت تصل بعد الحدث في اليوم التالي، مبينة حركة المركبات الأمنية.

مع حصول تنت على هذه التقارير أدرك أنهم كانوا يقتربون من امتلاك القدرة على تحديد مكان صدام مباشرة، على نحو آني - حلم قديم كان فيما مضى يُعتبر مستحيل التحقق.

كان العميل الرئيس قد جند مصدر روكستار فرعياً باسم روكان كان يتولّى إدارة الأمن في مزرعة الدرة، مجمع إلى جنوب شرق بغداد على شاطئ نهر دجلة، كانت زوج صدام تعيش فيه. كانت المزرعة تحمل اسم اوميدزا (أم أيضة؟) (Umidza) السري في قاموس الأس. إس. أو. (O.S.S) والكلمة تعني «مذبح» أو «مسلخ.» في ١٨ آذار/ مارس قام روكان بإبلاغ عنصر الروكستار الرئيسي أن صداماً كان في «المذبح». طلب تيم مزيداً من التفاصيل والتحقق. تبين أن روكان كان مزوداً بهاتف ثريا وأمكن تحديد مكانه الجغرافي على شاشة الفيديو في جيمستاون. كان روكان صادقاً حين قال إنه في المزرعة التي زعم أنه كان فيها .

قال روكان إنه من الأفضل له أن يقطع الاتصال الهاتفي. بدأ الشخص المناوب في جيمستاو يصرخ ويزعق قائلاً: «ستبقى على اتصال!» لم تكن تلك مكالمة هادئة. وعند منعطف آخر قال أحد الأخوين لروكان: «يجب أن تكون على هذا الخط الهاتفي كل ساعتين وإلا فالإعدام جزاؤك». كان الأخوان مولَعَيْن بتوهم نفسيهما صاحبي سلطة كلية. وحين كان أحد عناصر الروكستار يخفق في الرد عبر هاتفه، فقد كانا يعتبران الأمر إهانة شخصية خطيرة. لم يكونا يريدان أن يُظهرا أي ضعف أمام تيم ووكالة الاستخبارات المركزية.

حاول تيم تفسير ما حصل عليه من معلومات. كان أكثر من واعد - مصدر الأس. إس. أو. (S S O) المجرب، تابعه روكان في ساحة مزرعة الدرة الجغرافية.

أرسل تيم إلى شاؤول تقريراً تحدث فيه عن احتمال وجود صدام أو أسرته في مزرعة الدرة / أو/ احتمال مجيئه الوشيك إليها. في جميع الأحوال كان ثمة بالتحديد جملة الاتصالات والنشاطات الأخرى الموحية بزيارة طرف على مستوى رفيع. وأخيراً، بعد طول انتظار، استطاع أن يرى أن الحرب باتت قريبة، على الباب، لأن جيم بافيث، رئيس ذراع الوكالة السرية، كان قد أرسل برقية إلى جميع المحطات والقواعد تقول: «في المستقبل القريب جداً وفي غياب أي انعطاف غير متوقع وغير عادي في مسار الأحداث، ستُقْدم أمتنا (دولتنا) على الاضطلاع بمهمة خطرة لتجريد العراق من السلاح وإزاحة صدام حسين عن السلطة.»



ذهب تنت إلى البيت الأبيض في الساعة الرابعة من بعد الظهر للقاء الرئيس ورايس. كان قد درج على عادة إطلاع بوش على كل ما يستجد فيما يخص فريق عملاء الروكستار وعلى مدى اقتراب وكالة الاستخبارات المركزية من تحديد مكان صدام. أفاد تنت بأن عدداً غير قليل من عناصر الروكتسار، باتوا الآن يتحدثون بمزيد من التفصيل والتدقيق عن احتمال وجود صدام أو عائلته في مزرعة الدرة أو عن إمكانية مجيئه إلى هناك قريباً. قال تنت كان الأمر أكثر من مذهل، إذ ظل عناصر الروكستار يزيدون من تقديم المعلومات الجديدة المؤكدة عبر تحديد الأمكنة وغيره من المعلومات الاستخباراتية.

❖ ❖ ❖

لم يسبق لبوش أن أولى مثل هذا الاهتمام لنقاش أو تصويت في أي مجلس

تشريعي أجنبي كما فعل في ذلك اليوم مع ما كان يجري في البرلمان البريطاني. فخلال النهار قد سأل عدداً من المرات: «ما نتيجة عد الأصوات؟» أخيراً في الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة عشرة - أي العاشرة والدقيقة الخامسة عشرة بتوقيت لندن - صوّت البرلمان. فاز بلير بأكثرية ٢٩٦ صوتاً مقابل ٢١٧ صوتاً. ومع أنه كان قد خسر ثلث أصوات حزبه بالذات، فإن المحافظين صوتوا مع الحرب. وبعد ذلك تمخضت جولة تصويت ثانية على قرار متمتع برعاية الحكومة عن هامش أوسع وأعرض مع عدد أقل من المنشقين العماليين. بدا وكأن بلير وشركاه كانوا قد أجادوا العزف على وتر احتمالات هزيمة ممكنة بما أضفى على الانتصار قدراً أكبر من قوة الإبهار.

في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة عشرة جاء وزير الخارجية الأسبق هنري كيسنجر، وهو الآن في التاسعة والسبعين من العمر وبعيد عن المنصب منذ ٢٥ سنة، للاجتماع مع رايس مدة ١٥ دقيقة. شاءت الصدف أن كان في المدينة. كرر وجهة نظره القائلة بأن من شأن الناس أن يزيدوا من شكهم في التصميم على خوض الحرب كلما طال أمد الانتظار. لا يستطيع المرء أن يلقم البندقية كما فعلتم ثم يمتنع عن الضغط على الزناد، قال كيسنجر. اتفقت رايس معه في الرأي.



شعر الأمير بندر انه تُرك في الظلام. لم يكن قد أحيط علماً على نحو مسبق بخطاب الإنذار في الليلة السابقة. كان ذلك مثيراً لقدر كبير من الحيرة. كان بندر قد ظل على الدوام يعتبر بوش رجلاً صريحاً، مكشوفاً، معبراً بوضوح عما يشعر به - أبيض أو أسود، يحبك أو يكرهك، خير أوشر. كانت تصريحات بوش يوم الجمعة السابق مطمئنة «سأُقدم.. أنا جاد .. ثق بي!..» غير أنها لم تكن قاطعة أو حاسمة. كان بندر يعتز بقدرته على تلقي الوضوح من القمة. كان قد رأى عدداً كبيراً جداً من

الناس بمن فيهم رؤساء جمهورية أمريكيون، ممن عكسوا المسار لأسباب غير مقدرة أوغير معروفة سلفاً. ما من شيء كان يحدث إلى أن يحدث فعلاً، حتى بعد الحدوث كثيراً ما كانت الشكوك تراود بندر. سأل رايس عن إمكانية رؤية بوش ودخل قبل الساعة السابعة مساء لمدة ١١ دقيقة.

قال بندر لبوش: «فقط أرجو، يا سيادة الرئيس، الا تكون قد غيرت رأيك، بعد أن قمت بتوجيه الإنذار.»

«اسمع يا بندر» قال بوش: «لا أستطيع أن أبلغك أشياء كثيرة، غير أنني أعدك بأنك ستكون أول من يعلم.» الحكومة الأجنبية الأولى. «ولكن لا تقلق! فقط كن واثقاً بي! صدقني!»

بدا بندر على حافة الجنون وهو يقول: «اسمع! أنا أثق بك! ولكن الا ترى معي، أستحلفك بالله، أن وقت التراجع قد فات بالنسبة إلى كائن من كان؟!»



35

بدأ بوش العمل يوم الأربعاء الواقع في ١٩ آذار/ مارس، الساعة السابعة والدقيقة الأربعين صباحاً بمكالمة هاتفية مع بلير عبر الخط الآمن دامت ٢٠ دقيقة. كانت معنويات الزعيمين كليهما عالية. قام بوش بتهنئة بلير على نتائج التصويت.

معبراً عن قناعته العميقة بأن الناس والأمم سوف تتبع ما سبق له أن أطلق عليه اسم «التيار المنحرف» للقادة الذين يتخذون مواقف قوية ويحددون رسائلهم، قال بوش لصديقه: «لم يقف الأمر عند فوزك، بل وقد تحول الرأي العام لأنك تقود، ذلك هو ما أدى إلى حصول التصويت كما حصل. إنها إرادة شخص معين في أن يقود».

أشار كل من بوش وبلير مداورة إلى إمكانية حصول تغيير ما في خطة الحرب، حتى عبر الخط الآمن كانا يتحدثان بلغة الرموز.

قال الرئيس: «سمعت من معشر الاستخبارات عندي أن عنصراً ميدانياً، واحداً من العاملين معنا، قد شاهد شخصاً انتقد صداماً علناً قُطع لسانه وتُرك ينزف حتى الموت أمام الناس.»

«يا إلهي!» قال بلير «يا للرعب!»

في إيجاز بوش الاستخباراتي ذلك الصباح قال تنت إنه قد يأتي بشيء جيد ودسم حقاً في وقت لاحق، ولكنه لم يكن مستعداً لقول أي مزيد. لم يكن يريد رفع مستوى التوقعات في اليوم الذي كان الرئيس موشكاً فيه على الإيعاز ببدء الحرب. كان هذا الغموض أمراً غير معهود في تنت، إلا أن بوش كان يعلم أن عناصر الروكستار كانوا يزدادون اقتراباً من صدام.

لاحظ كارد أن تنت كان منفعلاً، هائجاً تقريباً. صحيح أن تنت لم يسبق له أن كان قليل الحماس قط، ولكن هذه المرة كانت غير عادية، برأي كارد، بعيدة جداً عما هو مألوف.

توقف بوش وكارد عند انتصار بلير المنحرف في البرلمان، ذلك الانتصار الذي عكس إلى حد ما عمليات التصويت في مجلس النواب والشيوخ الذي كان قد منح بوش سلطة خوض الحرب بهامش واسع.

غير أن عقل الرئيس كان قد انحدر نازلاً كتلة واحدة من درجات السلم إلى غرفة العمليات حيث كان سيصدر أمر المباشرة الموجه إلى فرانكس والقوات.

بعد فترة قصيرة من الوقت، وهو في اجتماع مع مجلس الأمن القومي في غرفة العمليات، سأل بوش: «هل لديكم أي تعليقات، توصيات، أفكار أخيرة؟»

لا، لم يكن ثمة أي شيء.

ثم ما لبث اتصال بخط فيديو آمن أن تم مع فرانكس وتسعة من كبار قادته الميدانيين. قد تكون هذه هي المرة الأولى التي تمكن فيها أي رئيس من التحدث مباشرة مع جميع قادته الميدانيين عشية الحرب.

ما لبث فرانكس الذي كان في قاعدة الأمير سلطان الجوية بالسعودية أن افتتح المؤتمر بالإعلان عن اعتزامه جعل كل من القادة يقدم تقريراً موجزاً إلى الرئيس.

سأل بوش الأول، قائد سلاح الجو اللفتنانت جنرال تي مايكل «بظ» موسلي T. Michael "BuZ" Moseley، الذي كان يدير العمليات الجوية من العربية السعودية «هل أنت متوفر على كل ما أنت بحاجة إليه؟ هل تستطيع أن تفوز؟»

رد موسلي: «جاهز تماماً قيادةً وتحكماً. استلمت قواعد الاشتباك ووزعتها، لا

تواجهني أية مشكلة. أنا مستعد وجاهز.» بقي حريصاً على تجنب الوعد بانتصار مباشر. «عندي كل شيء يلزمنا للانتصار.»

وقال اللفتنانت جنرال ديفد دي. ماكّيرنان، قائد القوات البرية الميداني: «أنا جاهز. ننتقل إلى مواقع هجومية متقدمة. إمداداتنا اللوجستية موفرة، لدينا كل ما نحن بحاجة إليه كي ننتصر.»

افاد نائب الأدميرال تيموثي جي. كيتنغ Timothy J.Keating بانه كان لديه ٩٠ باخرة من البحرية الأمريكية إضافة إلى ٥٩ باخرة للتحالف «الخضرة تغطي اللوحة كلها.»

كرر بوش أسئلته مع كل من القادة الآخرين. جاءت الأجوبة جميعاً إيجابية، وكانت تغدو أقصر فأقصر مع كل قائد جديد.

قال فرانكس: «قواعد الاشتباك والقيادة والتحكم جاهزة. القوة، مهيأة للانطلاق، سيادة الرئيس.»

في كلمة قصيرة جاهزة كان قد أعدها من قبل، قال الرئيس: «خدمة لسلم العالم ومن أجل فائدة وحرية الشعب العراقي، أصدر أمراً بتنفيذ عملية حرية العراق، فليبارك الرب القوات المسلحة!» عند هذا المنعطف، دعت خطة الحرب تحديداً إلى ٤٨ ساعة عمليات خلسة، وكان من شأن هذا العنصر غير المرئي أن ينتقل إلى مستوى جديد نحو هذا الوقت - التاسعة صباحاً، الخامسة بتوقيت العراق الشرقي - مع قيام فرق العمليات الخاصة الأولى بالعبور من الأردن إلى قلب غرب العراق للعثور على أي صواريخ سكود وإيقافها.

رد فرانكس: «ليبارك الرب أمريكا!»

قال الرئيس: «نحن جاهزون للتقدم، هيا ننتصر!» رفع يده محيِّياً قادته، ثم

وقف فجأة واستدار قبل أن يتمكن الآخرون من القفز. غرورقت عيناه بالدمع كما عيون بعض الآخرين.

خرج الرئيس بسرعة من الغرفة، عائداً إلى المكتب البيضوي برفقة كارد الذي كان يظل ملتصقاً به مثل لصاقة فلكرو فقط.

قال لرئيس جهاز العاملين، «إنهم مستعدون، ولم يكن هذا إلا أمر تنفيذ.»

عبر أحد أبواب المكتب البيضوي إلى الهواء الطلق ليمشي وحده.

فيما بعد قال بوش متذكراً تلك اللحظة: «كانت مشحونة بالعاطفة بالنسبة إلي. صلّيت وأنا أمشي حول دائرة الباحة. صلّيت راجياً أن تبقى قواتنا في أمان وداعياً كُلّيَ الجبروت أن يحميها، وأن تبقى الخسائر في الأرواح في الحدود الدنيا.» صلّى بوش من أجل جميع الذين كانوا موشكين على تعريض أنفسهم للأذى من أجل الوطن. «متوغلاً في هذه الفترة، كنت عاكفاً على الصلاة راجياً امتلاك القدرة على تنفيذ إرادة الرب المولى... من المؤكد أنني لن أسوّغ الحرب متذرعاً بالرب، أفهم ذلك ومع ذلك فأنا، في حالتي هذه، إنما أصلي راجياً أن أكون جديراً بالاضطلاع بمهمة حمل رسالة إرادته قدر الإمكان. وبعد ذلك، أصلي، بالطبع، من أجل امتلاك القوة الشخصية، وفي سبيل الحصول على الغفران.»

بعد مشواره في الحديقة، أجرى الرئيس سلسلة من الاتصالات الهاتفية الآمنة مع قادة بلدان التحالف ناقلاً رسالة فحواها: «موشكون نحن على الهجوم!»

ثم جاء كارل روف، دان بارتلت، وآري فلايشر إلى المكتب البيضوي. أراد كارد أن يتأكد من أن المطلعين لم يقولوا شيئاً أو ينذروا غير المطلعين. استنتج كارد أن النمط كان مغلقاً، غير أن أولئك الذين كانوا في الجانب المطلع من الصمام بقوا شديدي الانفعال، مغمورين بالأدرينالين. كان يستطيع رؤية ذلك في بوش ويحس به

في نفسه هو. تخلف روف عن الركب وأبلغه الرئيس أنه كان قد أمر بشن الحرب.



«ألو فستقة، فستقة هل تسمعينني؟ أنا جيمستاون،» وصل النداء إلى تيم في قاعدة قلعة چوالان في شمال العراق. كانت محطة جيمستاون قد تلقت للتو تقريراً من عنصر الروكستار المسؤول عن إدارة اتصالات الإس.إس.أو (S.S.O) أضاف جديداً إلى المعلومات الاستخباراتية المتعلقة بمزرعة الدرة. متصلاً عبر هاتفه الثريا، أفاد المصدر بأنه كان للتو قد سمع من عنصر روكستار آخر كان قد نزل للمساعدة في أعمال الاتصالات في المزرعة وكان قد لاحظ تفصيلاً أمنياً لافتاً. كانوا يخزّنون مواد غذائية ومؤناً. بدا وكأن هناك نوعاً من الاجتماع الأسري. سارع تيم إلى إيصال هذا إلى شاؤول في مقر قيادة وكالة الاستخبارات المركزية.

لم يكن شاؤول ميالاً إلى الإكثار من نشر معلومات الروكستار الاستخباراتية؛ لأنها لم تكن حاسمة فيما يخص التخطيط العسكري الذي كان يظن أنه بات منجزاً أساساً. كان يخشى من أن تؤدي المبالغة في النشر إلى فضح الشبكة العزيزة على القلوب والثمينة. في موعد تجاوز الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة عشرة صباحاً قام باستعراض الصور الملتقطة من الجو لبغداد. يا إلهي انظروا! ثمة كانت تحت أشجار النخيل في مزرعة الدرة ٣٦ سيارة أمنية متزاحمة. كان الحشد كبيراً، لم يكن من أجل شخص واحد أو شخصين. كانت المزرعة تحت تصرف زوج صدام ساجدة، وكان شاؤول يعرف أن صداماً كان قد استخدمها.

◆ ◆ ◆

التقى بوش كلاً من الوزير ريدج ورئيس بلدية مدينة نيويورك مايكل بلومبرغ Michael Bloomberg نحو الساعة العاشرة والدقيقة الثلاثين من الصباح.

قال لهما الرئيس: «نحن على حافة حرب، وبما أن نيويورك هدف رئيسي محتمل، من المهم أن نزورها.» أطرى جهود المدينة الرامية إلى رفع مستوى الجاهزية، إلا أنه نصح رئيس البلدية بالتركيز على الأهداف الرئيسية المحتملة للإرهابيين: «فلتبق عيونكم مشدودة إلى الأنفاق، الجسور، والجالية اليهودية.»



في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين صباحاً، بتوقيت واشنطن، قام فريق كوماندو قوات خاصة بالتوغل في العراق، من العربية السعودية هذه المرة.

التقى الرئيس عدداً من كبار المستشارين والخبراء في شؤون الطاقة في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة بعد الظهر في غرفة روزفلت. وقد ضم الاجتماع كلاً من تشيني، باول، رايس، وكارد. تركزت الأسئلة على التدفق الدولي - العالمي للنفط. ما نوع الاختناقات الإضافية التي يمكن أن تحصل في السوق؟ كانت فنزويلا الغارقة في الفوضى قد أقدمت على إجراء تخفيضات كبيرة في الإنتاج. هل كان يتعين على رئيس الجمهورية استخدام الاحتياطي النفطي الإستراتيجي؟

قدم خبير طاقة في جهاز البيت الأبيض يدعى بوب ماكنالي Bob McNally تقريراً قال فيه إن أسعار الخام كانت قد هبطت سلفاً من ٣٧ إلى ٣١ دولاراً للبرميل الواحد. كان ذلك نبأ ساراً. فمن شأن أي زيادة سريعة في الأسعار أن تورّم التكاليف وتضاعف من ثقلها على كواهل سائر قطاعات الأعمال والمستهلكين على الساحة الاقتصادية كلها.

كان السعوديون قد تعهدوا بإشاعة الاستقرار في سوق النفط الخام عبر زيادة الإنتاج وملء ناقلات النفط الراسية سلفاً في الحوض الكاريبي أو المتجهة إلى هناك بالنفط الخام.

أفاد ماكنالي بأن معاينة حال النفط على المستوى العالمي تشير إلى أن الفائض من النفط الخام يصل إلى نحو ١.٥ إلى ١.٩ مليوناً من البراميل في اليوم الواحد. وهذا الفائض الهائل كان دائباً على دفع الأسعار إلى مستويات أدنى فأدنى.

قال وزير الطاقة سبنس آبراهام Sepence Abraham إن السعوديين كانوا مستعدين للتعويض عن أي نقص نفطي من العراق عن طريق رفع الإنتاج إلى مستوى ١٠.٥ مليوناً من البراميل في اليوم على امتداد ٣٠ يوماً - يا له من تعهد خارق للعادة! في كانون الأول/ ديسمبر لم يكن السعوديون يعرضون إلا ٨ ملايين برميل في اليوم، وفي شباط/ فبراير كان الرقم دون الـ ٩ ملايين.

تدخل وزير التجارة دون إيفانس Don Evans ليقول إن ما يقرب من ثلثي حقول النفط العراقية مجمعة في بقعة واحدة، ولم يكن عدد الملغوم منها للتفجير معلوماً من المعلومات الاستخباراتية.

مستعرضاً جانباً من خبرته الفنية المحصَّلة من احترافه النفطي السابق قال الرئيس إن من شأن إطفاء النار أن يكون سهلاً إذا كانت المتفجرات مزروعة عند فوهة البئر، أما إذا جرى التفجير في الأعماق البعيدة للأنابيب فإن إطفاء تلك الحرائق سيدوم إلى الأبد. «إذا قاموا بنسف آبار نفطهم فإن المطلوب سيكون أكثر من شهر. أما إذا أقدموا فعلاً على تفجيرها، فإن من شأن الوقت اللازم للإصلاح أن يُقدَّر بالسنوات.»



في موعد كان بعد الساعة الثانية عشرة والنصف من الليل - الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين مساء في العراق - تلقى تيم تقريراً من شبكة الروكستار تضمن أن روكان كان بالفعل قد رأى صداماً، الذي كان قد غادر المسلخ قبل نحو ثماني ساعات لحضور سلسلة من الاجتماعات غير أنه كان سيعود للنوم في الدرة بصحبة

قصي وعدي. كان من المؤكد مئة بالمئة أن صداماً «يجب» أن يعود. كان تيم يعرف أن كلمة «يجب» في مثل هذا السياق لم يكن يعني سوى «ربما» أو«قد»، غير أنه كان مضطراً لإيصال ما بلغه. أحس بعدم وجود أي خيار لدى الحديث عن الشخص المرغوب قنصه. أرسل تقريراً إلى شاؤول قال فيه إن العميل الرئيسي يقول إن روكان قد رأى صدّاماً العائد للنوم في المزرعة. كان ذلك موضوع تقدير وتخمين ولكن تيم أفاد بأنه مؤكد بنسبة ٩٩ بالمئة. لا شيء يصل إلى ١٠٠ بالمئة. الوضع كله كان ضبابياً تلفه عتمة الغموض، غير أن هذه لم تكن إلا تقارير مؤلفة من جملتين، لا مجال فيها للتأويلات وظلال المعاني.



في الساعة الواحدة بعيد الظهر كان ما لا يقل عن ٣١ فريقاً من قوات العمليات الخاصة قد توغل في العراق من جهتي الغرب والشمال.

همس كارد في أذن الرئيس قائلاً: «إنهم على الأرض، باتوا في الداخل.»

«يجب أن يكونوا» رد بوش. ما هذا الصمت شبه الكامل؟ كان كارد وهو تواق لرؤية ما إذا كانت الجزيرة أو السي. إن. إن. أو أي وكالة إخبارية أخرى قد التقطت أي تحركات.

في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والأربعين تحادث الرئس مع أزنار مدة ٢٠ دقيقة.

قال بوش عبر الخط الآمن: «قد نكون مضطرين إلى التحدث بلغة الرموز. الأمور تتغير قد لا تكون مطلعاً ولكنها وتائر مختلفة.»

بعيد الثانية بعد الظهر مباشرة، لم يكن هناك أي تسريب بعد.

اتصل كارد بغرفة العمليات للتأكد.

أبلغ الرئيس أن: «البولونيين أصبحوا في الداخل استولوا على منصة.» كان فريق قوات خاصة بولوني قد توغل في وقت مبكر واحتل أحد الأهداف المفتاحية - منصة نفطية في الجنوب.

تبادل بوش حديثاً موجزاً مع الرئيس البولوني كواسنيوسكي.

نقل كارد خبر: «صار الأستراليون في الداخل». كان فريق كوماندو أسترالي قد توغل في الغرب.

في الساعة الثالثة والدقيقة السادسة تكلم بوش مع رئيس الوزراء الدانمركي آندرس راسموسن Anders Rasmussen. قال الأخير إن قراراً برلمانياً كان قيد الإنجاز من شأنه أن يمكن الدانمارك من إرسال غواصة مع مرافقة حراسة بحرية إلى الحرب. قال الرئيس: «لن أكون ميالاً إلى الكلام هذه الليلة، ولكنك تعلم أنني سأبقيك مطلعاً.»



كان تنت، ماكلوخلن، شاؤول، وعدد من نشطاء وكالة الاستخبارات المركزية قد هرعوا إلى البنتاغون مصطحبين تقرير تيم الاستخباراتي وصور الأقمار الصناعية.

كان رمسفلد حريصاً على متابعة معلومات الروكستار الاستخباراتية وقد راوده شعور بأنها جديرة بلفت نظر الرئيس إليها. تمثلت السمة المميزة بأن الفريق لم يكن منافقاً؛ ثمة أناس كانوا قد وضعوا أرواحهم على أكفهم. غير أن العملية، مثلها مثل جميع العمليات الاستخباراتية، بقيت ناقصة، غير كاملة مئة بالمئة. تحدث رمسفلد مع فرانكس الذي رأى مزرعة الدرة هدفاً جيداً فطلب منه الوزير أن يتأكد من جاهزيته لمهاجمة المزرعة.

في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة تقريباً اتصل رمسفلد مع كارد،

وقال: «عندنا بعض التطورات، أريد أن أزوركم وأن أتحدث عنها.»

قام كارد بتمرير مطلب رمسفلد إلى الرئيس الذي سارع إلى الاتصال برايس قائلاً: «اتصل دون قبل قليل يريد المجيء بصحبة جورج تنت. يقول إن ما يرغبان في تناوله موضوع كبير، إنه قادم. انزلي إذن!»

اتصل تنت مع ستيف هادلي. «أنا قادم» قال مدير الاستخبارات المركزية بإيجاز «لن أقول كلمة واحدة على الهاتف. أريد الكشف عن الموضوع مع دون بحضور الرئيس. لا شيء. قبل ذلك.»

جاء رمسفلد، ماكلوخلين، تنت، شاؤول، واثنان آخران من عناصر وكالة الاستخبارات المركزية إلى المكتب البيضوي ودخلوا إلى غرفة طعام الرئيس.

قال تنت: «لدينا شخصان قريبان من صدام.» قدم خلاصة سريعة عن عنصر الأمن في الدرة، روكان، ومن ثم عن عناصر الروكستار الآخرين الذين كانوا قد كلفوا بالمساهمة في الاتصالات. قام تنت بعرض صور الأقمار الصناعية وبين موقع المزرعة القريبة من بغداد عند أحد منعطفات نهر دجلة. ثمة كان عدد من البيوت في المزرعة. «إن صداماً ونجليه كانوا هنا، وقد يعودون قريباً إذا لم يكونوا قد عادوا فعلاً.» كانت وكالة الاستخبارات المركزية على صلة مباشرة مع المصدرين كليهما.

استجوبهم بوش عن المصدرين؟ عن هويتيهما؟ وعن مدى صدقهما؟ شرح شاؤول أن أحد مفاتيح شبكة الروكستار تمثل بضابط الإس.إس.أو. (S.S.O) في الاتصالات، ذلك الذي كان يعمل مع عنصري مراقبة مزرعة الدرة. ما لبث أن تبين أن نقاط اتصال عنصر تنظيم الأمن السري ومن جنَّدهم في الشبكة كانوا جيدين جداً. أكد شاؤول للرئيس أن الوكالة تعتبر هذا، بين المصادر العراقية المتوفرة، أحد أفضل تلك المصادر وأكثرها جدارة بالثقة. لقد كان واحداً من أوائل عملاء

الروكستار، الذين جاؤوا إلى قاعدة قلعة چوالان. إنهم يتعاملون معه منذ أشهر وجرى التأكد من صحة تقاريره، خصوصاً عبر السيغنت (SIGINT).

عقل الرئيس: «هذا جيد حقاً. إنه ليبدو موفقاً.»

«حسناً» قال شاؤول: «لن نحصل أبداً على معلومات موثوقة مئة بالمئة ولكن المنظمة أثبتت أنها جديرة بالتعويل عليها.» في هذه المحطة كان لديهم مصدر واحد، روكان، حول الأمور المحددة المتعلقة بوجود صدام هناك أو بقرب موعد عودته. «في هذه اللحظة نحن متأكدون بنسبة تقارب الـ ٧٥ بالمئة» قال شاؤول.

بدت ضربة قطع رأس مستهدفة لقادة النظام الأوائل ممكنة الآن. كان التفكير منصباً على وقع عملية استئصال صدام ونجليه. من الذي كان سيتولى مسؤولية اتخاذ القرارات داخل العراق؟ الجميع شديدو الإدمان على تلقي التوجيهات من أعلى المستويات. لعل أفضل السيناريوهات هو أن من شأن مثل هذه العملية ان تتمخض أيضاً عن سقوط النظام وانهياره فتنتفي ضرورة الحرب. صحيح أن ذلك غير محتمل ولكنه ممكن.

«ما نوع الأسلحة التي يمكنكم استخدامها؟ سأل الرئيس.

تدخل الجنرال ميرز الذي كان قد التحق بالاجتماع مؤخراً وقال: «صواريخ توما هوك ذاتية الدفع.» واقترح توجيه رشقة مؤلفة من ١٥ إلى ١٧ صاروخاً.

بقي بوش متشككاً، سأل: ما هوية الناس الموجودين في كل مبنى؟ هل سيبقى صدام؟ هل يوجد للنجلين أي أطفال؟ أين هي الزوج؟ هل صدام مع زوجه؟ هل نحن متأكدون من أنه ليس المكان الذي جعله مكاناً لإقامة جميع الأطفال؟



في شمال العراق، ارتدى تيم عباءة فضفاضة فوق ملابسه الداخلية الطويلة

وانتعل حذاءه الموحل. تلك كانت طقوس التعبير عن الاحترام في التعامل مع الأكراد. بصرف النظر عن مدى اهترائهما كان الأخوان هناك في جيمستاون شديدي الحرص على ارتداء سترة، ووضع ربطة عنق. امتطى سيارته التشيروكي قفزاً وساق متوجهاً من الفستقة إلى جيمستاون. عبر الأميال الثلاثة الملتوية الغدّارة الفاصلة بين الطرفين ليكون في المحطة التي تستلم تقارير شبكة الروكستار. كان الجو مثلجاً وخشي أن تكر سيارة الجيب منزلقة، غير أنه نجح في الوصول إلى القمة. كان الجو في جيمستاون مكهرباً إذ ظل الأخوان يزعقان: «لا تفصل! ليبق الخط مفتوحاً! إياك أن تقطع!» تك. قرقعة. قرر تيم أن الأسلوب الأمثل هو الرد بالصراخ على صراخ الأخوين.

صاح تيم بأعلى صوته: «مصير أمتكما متوقفه عليكما، وأنا سأسحب كل شيء منكما وإذا ما خذلتماني فلن تحصل على الكرسي حول الطاولة.»

قام المصدر الرئيسي بتحميل المخابرة تقريراً جامعاً لما بلغه من مصدريه الفرعيين في مزرعة الدرة: من المؤكد أن عُدياً وقُصياً كانا في المزرعة، أما صدام فكانت عودته متوقَّعة فيما بين الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين والساعة الثالثة من الفجر بالتوقيت المحلي العراقي. كذلك تحدثت المصادر على المسرح عن معلومات تفصيلية حول البيوت. ثمة كان بالإضافة إلى البيوت منزول في المجمّع. وكلمة منزول هذه يمكن أن تترجم إلى «مأوى لاجئين» أو «ملجأ» اختار تيم البديل الثاني: ملجأ. تضمن التقرير بعض التفاصيل عن «الملجأ» - المسافات بينه وبين البيوت السكنية الرئيسية، وسماكة السقف والجدران بالأمتار من الخرسانة وسماكة الغطاء الترابي أيضاً بالأمتار. قام تيم بتسجيل هذه المعلومات كلها وأرسلها إلى مقر قيادة وكالة الاستخبارات المركزية في برقية مستعجلة.

طرح الرئيس مزيداً من الأسئلة: «هل كان من شأن العملية أن تعرقل عملية

تومي؟» كان الرجال قد أنفقوا ما يزيد على عام كامل لإنجاز تلك الخطة. ما الوقع المحتمل؟ هل كانت ستفضي إلى نسف عنصر المفاجأة كله؟ كان من المفترض أن تبقى قوات العمليات الخاصة التي كانت قد توغلت سرية. هل كان من شأن العملية أن تؤدي إلى افتضاح أمرها؟ «اذهب وسل تومي!» أمر رمسفلد.

سارع الجنرال ميرز إلى الاتصال بفرانكس.

«ما رأيك بضرب هدف مزرعة الدرة هذا؟» سأل ميرز.

كان فرانكس عاكفاً على مراقبة الأهداف الحساسة توقيتاً بعناية وكان قد عرف الليلة السابقة أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تزداد اقتراباً من صدام، ربما في مزرعة الدرة. بدت المزرعة هدفاً مناسباً لصاروخ توماهوك ذاتي الدفع وكان فرانكس قد أمر سلاح البحرية لبرمجة بعض الصواريخ لضرب الهدف. كان قد قال: «ليعكف الشباب على البرمجة كل الليل»، ثم قال لهم إنه ليس هناك أي إطلاق، كان ذلك لا يزال في إطار مدة إنذار الـ ٤٨ ساعة التي كان الرئيس قد منحها لصدام ونجليه كي يغادروا. كان لدى فرانكس شعور قوي بضرورة الالتزام وكان قد أشار على رمسفلد ألا يطلقوا أي رصاصة خلال تلك الفترة. كانت أشبه بفترة سماح. وقد رأى فرانكس أن الموقف الأخلاقي الصحيح يقضي بعدم إطلاق النار على شخص يهم، مهما بدا ذلك بعيد الاحتمال، إلى الهروب من الباب الخلفي.

سأله ميرز ثانية: «هل تستطيع تنفيذ ذلك في غضون ساعتين؟»

أجاب فرانكس: «نعم!» فصواريخ التوماهوك كانت جاهزة للانطلاق.



في وقت ما بعد الرابعة عصراً - بعد منتصف الليل في العراق - وصل آخر تقارير الروكستار إلى غرفة العمليات وحُملت مباشرة إلى المكتب البيضوي.

«يقولون إنهما معه الآن النجلان كلاهما، موجودان هناك»، قال تنت. زوجاهما كانتا هناك. العائلات هي الأخرى كانت موجودة. أما صدام فكانت عودته متوقعة بين الثانية والنصف والثالثة فجراً - في غضون ما هو أقل من ساعتين. ثمة كان ملجأ وكان أحد عناصر الروكستار قد حدد مكانه بالخطوات، كان قد دخل وقدر القياسات تقريبياً.

وجه هادلي سؤالاً إلى شاؤول قائلاً: «هل تستطيع أن تدلني على مكان الملجأ؟» لم يكن شاؤول واثقاً، ولكنهما أخذا الصور الملتقطة من الجو وحاول هادلي رسم مخطط تقريبي. لم يتأخر ماكلوخلين عن المبادرة إلى رسم خريطة هواة هندسية محسَّنة.

كان پاول هو المسؤول الكبير الوحيد الغائب، وفي الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة عشرة تقريباً قال الرئيس لرايس: «لعل من الأفضل أن تتصلي بپاول.»

اتصلت رايس بپاول في وزارة الخارجية وقالت: «تعال إلى البيت الأبيض يا كولن!» كانت باترة بفظاظة ولم تقدم أي تفسير. وحين وصل پاول خلال دقائق، قام الحاضرون بإيجاز ما جرى. حاول الترفع لأن المسألة كانت عسكرية في المقام الأول. غير أنه ما لبث، وبسرعة، أن غاص في حشد الإيجابيات والسلبيات - الأضرار الجانبية، الإخفاق في إصابة صدام. إلا أنه قال أخيراً: «إذا كانت تمنحنا فرصة تمكّننا من قطع رؤوسهم، فإنها جديرة بالمحاولة.»

أوصى رمسفلد، بقوة، بتوجيه ضربة، وافقه تشيني رغم أنه بدا متردداً.

ملأ بوش فراغ الوقت بالأسئلة، طارحاً في أحد المنعطفات السؤال التالي:

«هل انتم متاكدون حقاً من ان ما انتم عاكفون على معاينته هو ما تعتقدون بأنكم منشغلون بالنظر إليه؟»

«ذلك هو افضل ما يمكن الحصول عليه» قال تنت. ثم أضاف: «لا أستطيع أن أعطيكم ضمانة مئة بالمئة، غير أن هذا افضل ما هو متيسر.»

ظل بوش مشغول البال بشأن النساء والأطفال، مستذكراً حادثة كانت في حرب ١٩٩١ في الخليج حين كان العراقيون قد زعموا بأن مصنع أسلحة بيولوجية مشبوه جرى قصفه لم يكن إلا لإنتاج حليب الأطفال في الحقيقة. قال بوش: «قد يكون الهدف الذي تخططون لضربه مصنعاً لحليب الأطفال.» ثم أضاف: «وسوف يسارع العراقيون إلى إخراج جثث النساء والأطفال، وستكون الدفعة الأولى من الصور صوراً لضحايا مدنيين من هذا النوع أو ذاك.» وبعد ذلك سأل: «ألا يستطيع العراق أن يوظف الأمر في مجال العلاقات العامة؟» قد يتسبب في دفع الناس إلى التعاطف مع صدام. من شأن أكوام جثث الأطفال، القاصرين، والنساء أن يشكل كابوساً مرعباً يدفع الأمور في الاتجاه الخطأ.

زعم رمسفلد وميرز أن ما يتم ضربه في الضربة الأولى ربما لم يكن مهماً؛ لأن آلة الدعاية العراقية كانت ستقول إن الولايات المتحدة قتلت أعداداً من النساء والأطفال في جميع الأحوال. وعند الضرورة كان العراقيون سيعدمون نساء وأطفالاً لاتهام الولايات المتحدة بقتلهم.

ذلك كان هو الوجه السلبي للمسألة في الحقيقة. غير أن الآخرين - تشيني، رمسفلد، تنت، وحتى پاول - بدوا مأخوذين بالوجه الإيجابي، وجه اتباع طريق مختصرة إلى النصر.

أثار ميرز مشكلة جدية. إذا كان ثمة أي ملجأ في مزرعة الدرة تبعاً لما راودهم من شك، فإن من شأن الصاروخ ذاتي الدفع ألا يخترقه. كانوا سيحتاجون قذائف تحطيم الملاجئ التي تزن الواحدة منها ٢٠٠٠ من الأرطال من أجل الغوص إلى مثل ذلك العمق. كُلف ميرز بالاتصال مع فرانكس.

◆ ◆ ◆

للحظات مالت الجماعة إلى تبني الوجه السلبي، كانوا قد وعدوا بالدفاع عن إسرائيل، والدفاع الشامل عن إسرائيل لم يكن جاهزاً بعد. وماذا كانت العواقب الأخرى؟ ماذا لو اعتبر العراقيون أي ضربة ذريعة لإشعال النار بآبار النفط؟ ماذا إذا بادروا إلى إطلاق صواريخ سكود على إسرائيل أو العربية السعودية؟ بدت عواقب أي هجوم مبكر هائلة. كانت الخطة تدعو إلى الشروع في الحملة الجوية في غضون يومين.

في الساعة الخامسة والدقيقة الأربعين خرج تشيني لأخذ نَفَس واستدعى ليبي. قام نائب الرئيس بشرح ما كان قد دخل على الخط. قال تشيني: «تبدو كما لو كانت معلومات استخباراتية جيدة، ولكنها، كسائر المعلومات الاستخباراتية، قد تكون مصيدة منصوبة. إلا أن الوقت الكافي اللازم للتأكد مئة بالمئة ليس متوفراً.»

عاد ليبي إلى المكتب البيضوي برفقة تشيني.

راح بوش يدور في الغرفة ويسأل: هل أنت مستعد للإقدام على هذه؟ «نعم يا سيادة الرئيس أنا مستعد لأفعل!» قال كارد. بدت العملية فرصة أثمن من أن تُفوَّت. رمسفلد أيضاً كان مؤيداً بقوة.

رأى پاول أنها كتلة جهنمية كبيرة من المعلومات الدقيقة التي بدت حسنة، وإن كان مستغرباً بعض الشيء أن تكون مصادر وكالة الاستخبارات المركزية على الطرف الآخر من الهواتف الفضائية قد استطاعوا الحصول على هذا القدر من المعلومات.

أوصى پاول: «إذا كان متاحاً لنا أن نطيح برؤوسهم، فإن العملية جديرة.»

أما رايس وهادلي فقد كان لديهما مزيد من الأسئلة حول المصادر، غير أنهما، كليهما، كانا في صف شن هجوم.

◆ ◆ ◆

اتصل ميرز مع فرانكس عبر خط آمن. هل كان الأخير يستطيع شحن مقاتلة خلسة بزوجين من قذائف إغبو - ٢٧ (EGBU -27)، حاطمة الملاجئ، للهجوم؟

رد فرانكس: «لا! بالمطلق. طائرة الإف - ١١٧ (F -117) ليست جاهزة للإقلاع.» فصقور الليل من طراز إف - ١١٧ آ (F-117 A)، تلك المقاتلات النفاثة الخلسة ذوات المقعد الواحد، كانت تُزود الواحدة منها نموذجياً بقذيفتين لدى شحنها بحمولتها الكاملة.

قام فرانكس بالمزيد من التقصّي. تبين له أن سلاح الجو كان عاكفاً على متابعة المعلومات الاستخباراتية وقد بادر في الليلة السابقة إلى تجهيز مقاتلة إف-١١٧ (F-117) واحدة. فسرب سلاح الجو الموجود في قطر كان قد تلقى في ذلك اليوم رسالة تؤكد إمكانية إسقاط القذائف مزدوجة بأمان، وإن لم يسبق أن تم اختبار ذلك من قبل.

سأل فرانكس عن احتمال قيام طائرة إف-١١٧ (F-117) منفردة باختراق وإنزال قنبلتيها على الهدف؟ مع أنها خلسة ومراوغة للرادار كان سيتعين على الإف-١١٧ (F - 117) أن تذهب قبل شل الدفاع الجوي العراقي، على ضعفه. كان سيتعين على الطائرة أن تبقى عرضة لخطر الانكشاف. جاء الرد يقول إن سلاح الجو لا يستطيع أن يقدر فرص النجاح بأكثر من ٥٠ بالمئة.

«جهزوا قاذفتين!» أمر فرانكس، مقدّراً أن من شأن ذلك أن يزيد الفرص.

في قطر كان سرب سلاح الجو قادراً على شحن طائرة إف ١١٧(F-117) ثانية.

قام فرانكس بإبلاغ المكتب البيضوي أن من شأن العملية أن تكون ممكنة، غير أنه كان بحاجة إلى قرار نهائي للانطلاق نحو الساعة السابعة والدقيقة الخامسة عشرة مساءً ليتمكن من إدخال طائرتي الاف- ١١٧ (F-117) إلى المجال الجوي العراقي وإخراجهما قبل الفجر بوقت معقول.

❖ ❖ ❖

ظل رمسفلد، ميرز، ورجال وكالة الاستخبارات المركزية دائبين على الركض خارجين من، وداخلين إلى المكتب البيضوي بحثاً عن هواتف آمنة في الجناح الغربي. كان كارد قلقاً إزاء احتمال تلاشي الفرصة. هل كانوا قد فهموا المعلومات الاستخباراتية فعلاً؟ هل كان تغيير الأسلحة ضرورياً؟ كان ميرز عاكفاً على احتساب المدة المطلوبة لشحن طائرة الإف-١١٧(F-117)، لإقلاعها، ثم طيرانها من الدوحة إلى بغداد ذهاباً وإياباً. ما عدد الصهاريج المتوفرة لإعادة تزويد الطائرات بالوقود؟

«أين هي الشمس؟» سأل أحدهم. متى كانت الشمس ستشرق في العراق؟

برزت مسألة أخرى. إذا ما تمت الموافقة، فهل كان يتعين على الرئيس أن يظهر على شاشات التلفزيون تلك الليلة ويلقي خطابه معلناً بداية الحرب. وهو خطاب مبرمج الآن ليوم الجمعة؟

تدخل تشيني ليقول: «اسمعوا، هذه عملية جارية على قدم وساق. نحن لم نعلن عن بدء القوات الخاصة بالدخول. نحن لم نعلن عن قيام البولونيين بالاستيلاء على المنصة. نحن لم نعلن عن تقدم الأستراليين نحو السد. لسنا ملزمين بعد بالإعلان عن أي شيء. فأنت لا تعلن عن الشيء إلا عندما تكون جاهزاً للإعلان عنه.»

بدا رمسلفد نصف موافق. قال: «إذا كان لا بد من قيام أحد بالإعلان، فقد أكون أنا من يجب أن يفعل «ولكن ما لبث أن أضاف، مشيراً إلى بوش «ربما تكون أنت».

أثار باول موضوع التأثير السي. إن . إني، نسبة إلى شبكة السي. إن. إن التلفزيونية إذا جاز التعبير. كان من شأن الهجوم أن يُرى آنياً. فالمراسلون المتمركزون في فندق الرشيد البغدادي كانوا قريبين قرباً يكفي لرؤية أو سماع ما يحدث. عشرات من الصواريخ ذاتية الدفع والقنابل الحاطمة للملاجئ. وسائل الإعلام كانت

متحفزة بشغف لتعلن: «لقد بَدَأَت! نعم بدأت الحرب!» آلاف الطلقات المادية والخطاطة الصادرة عن بطاريات المدفعية المضادة للطائرات كانت ستتطاير مغطية صفحة السماء. وكانت الحرب ستبدأ بهذه الحادثة.

«إذا كانت الأرواح في خطر، فلا بد لي من أن أتولى أنا أمر الإعلان عن العملية» قال الرئيس.

سارع تشيني إلى تذكيره بأن الأرواح باتت في خطر من البداية ولم يقم أحد بأي إعلان.

سأل الرئيس: «هل ينبغي أن أنتظر إلى صباح اليوم التالي؟» كان من شأن ذلك أن يمنح فرانكس ١٢ ساعة أخرى قبل أي إعلان.

قام بوش باستدعاء كارين هيوز ودان بارتلت إلى المكتب البيضوي. طلب من شاؤول إيجاز المعلومات الاستخباراتية.

ومن ثم قال الرئيس إنه ربما كان سيأمر بشن هجوم. «كيف نفعل هذا؟» سأل كلا من هيوز وبارتلت. «هل أظهر على شاشة التلفزيون؟» هل كان يتعين عليه أن يخبر الجمهور سلفاً قبل العملية، في أثنائها، أم بعدها؟ هل ينبغي للأمر أن يضطلع به وزير الدفاع؟ تحولت أنظار الجميع نحو هيوز. كانوا يعرفون مدى تعويل بوش عليها.

قالت: «لا يا سيادة الرئيس، أنت يجب أن تتولى الأمر. لا يجوز ترك الشعب الأمريكي يسمع به عبر الصحافة، يجب ألا يسمعوا من طرف آخر. يجب أن يسمعوا من فمك أنت. ولا بد لك من إطلاعهم على ماذا ولماذا؟» إذا جرى ضرب مدنيين أو نساء أو أطفال، فإن على الرئيس أن يسبق المنعطف. ثم أضافت ملاحظتها التي هي بضاعة تخصها وحدها: «لا نستطيع أن نكون في نوع من حالة اللحاق بالركب.»

اتفق بارتلت مع هيوز في الرأي، إلا أن تشيني بقي متحفظاً. ما الذي كان من شأن هذا أن يعنيه لإسرائيل، لتركيا، للعربية السعودية؟ هل أصبحت دفاعاتنا جاهزة فيما يخص إسرائيل؟ لقد وعدنا إسرائيل بالدفاع عنها. تتضمن خطة تومي دفاعاً، إلا أن الخطة لم تُطبق بعد على نحو شامل.

لم يستطع پاول أن يفهم كيف أنهم كانوا سيبدؤون حرباً ويمتنعون في الوقت نفسه عن إصدار بلاغ رئاسي.

قال بوش: «لقد وعدت الناس أن أحيطهم علماً حين تبدأ الحرب. وإذا كانت الأرواح. الحرب بادئة الليلة، الأرواح ستكون في خطر، من واجبي أن أخبر الشعب الأمريكي أنني دفعت بالقوات الأمريكية إلى الحرب.»

لم يَبْدُ تشيني سعيداً.

اكد بوش: «يجب أن يسمعوا بها مني أنا. انا سأفعل ذلك!» من شأن هذه العملية أن تشعل فتيل الحرب، قال الرئيس: «لا حاجة لمخادعة أنفسنا.»

في الساعة السادسة مساء قام كارد باستدعاء غيرسون. سأله: «هل هو جاهز؟ لم يكن قد بقي للإلقاء سوى خطاب واحد.

«أستطيع إعداده في نحو خمس دقائق» قال غيرسون.

«أريدك أن تقابلني خارج المكتب البيضوي في الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين مصطحباً عدداً من نسخ الخطاب.»

نزل غيرسون إلى المكتب البيضوي وجلس على أحد الكرسيين خارج المكتب.

سرعان ما انبثق كارد قائلاً: «سنكون معك بعد قليل. انتظر!» أخذ كارد نسخ الخطاب، تاركاً كارد ليأخذ نفساً. من الواضح أن شيئاً كان على الأبواب ولكن

غيرسون لم تكن لديه أي فكرة عنه. ظل تنت ورجاله يهرعون دخولاً وخروجاً التماساً لإجراء اتصالات آمنة.

داخل المكتب البيضوي، راح الرئيس يدور حول الغرفة، ويسأل عما إذا كان كبار المسؤولين موافقين، وهو يكاد يحصر كلاً منهم في الزاوية. كانوا موافقين.

ثم التفت بوش إلى شاؤول قائلاً: «وأنت، ما رأيك؟»

كان شاؤول في دوامة حقيقية. لم يكن قد سبق له أن انخرط في نقاش كهذا، بله تعرضه للسؤال عن رايه. كان قلقاً على مصير طياري قاذفتي الإف-١١٧(F-117). كانت معلوماته الاستخباراتية الآن ستعرض حياة أمريكيين لخطر مباشر. كانت القاذفتان ستتوغلان في الأجواء العراقية دون تدابير إلكترونية مضادة، دون مرافقة أي مقاتلات حماية، دون أي إخماد مسبق للدفاعات الجوية العراقية. «أجدني ملزماً بالاعتذار عن وضعك أمام مثل هذا القرار الصعب جداً» قال شاؤول للرئيس. «إنني شاعر حقاً بالأسف لاضطرارك إلى اتخاذه.»

«لا تشعر بأي أسف. ذلك هو ما أفعله. سأتخذ القرار» قال بوش.

علق شاؤول قائلاً: «إذن، سيدي، لعلي أميل إلى قول: هيا!»

❖ ❖ ❖

قام الرئيس بطرد الجميع من المكتب البيضوي باستثناء تشيني.

«ما رأيك يا ديك؟»

رد تشيني قائلاً: «إنها المعلومات الاستخباراتية الأفضل التي تمكنّا حتى الآن من الحصول عليها عن مكان وجود صدام. إذا ما نجحنا في اصطياده، فإن من شأن ذلك أن ينقذ عدداً كبيراً من الأرواح وأن يؤدي إلى اختزال أمد الحرب. حتى إذا لم

ننجح فإننا نكون قد أحدثنا هزة قوية لوكْرِه، وقد نعطل سلسلة القيادة. كل ذلك بحد ذاته جدير ببذل الجهد.» كان نائب الرئيس قد أصبح خالياً من الشكوك. «أعتقد أن علينا أن نُقْدم.»

عاد الآخرون إلى الغرفة. وأخيراً، في الساعة السابعة والدقيقة الثانية عشرة مساءً قال الرئيس: تعالوا!» لم يكن قد بقي لموعد فرانكس سوى ثلاث دقائق.

لاحظ پاول بصمت أن الأمور لم تُحسم فعلاً إلى أن كان الرئيس قد اختلى بتشيني وحده. ذهب ميرز إلى الهاتف الآمن لإبلاغ فرانكس.



برز رمسفلد وقال لغيرسون: «لتوي كنت عاكفاً على تقطيع أوصال خطابك.»

نادى الرئيس بصوت مرتفع: «تعال إلى هنا يا غيرسون» كانت هيوز وبارتلت واقفين.

«سنطاردهم» قال بوش مفسراً.

«لا أفهم» قال غيرسون.

رد بوش: «المعلومات الاستخباراتية جيدة.» ثم فسر كلامه قائلاً إنها أظهرت وجود إمكانية لقنص صدام ونجليه. «فلنأمل أننا على صواب» أضاف، مع غصة في حلقه.

قيام رمسلفد بـ «تقطيع أوصال» الخطاب كان بسيطاً. طلب من الرئيس أن يقول إن هذه لم تكن إلا «المراحل المبكرة» لعمليات عسكرية، وأن يشير مرة أخرى، في الفقرة الثانية، إلى «المراحل التمهيدية» للحرب.

قال بوش لكل من غيرسون وهيوز: «أريد لقاءكما هناك في المسكن عندما تكونان جاهزين.» لافتاً أنظارهما إلى إدخال التعديلات.

صعد الاثنان إلى مكتب غيرسون على الطبقة الثانية وأنجزا التعديلات في بضع دقائق. كان غيرسون سعيداً باستعادة خط كان قد قُطع منذ خطاب الإنذار يوم الاثنين. مشيراً إلى صدام وأسلحة الدمار الشامل المزعومة عنده صار الخط يقول الآن: «إننا نتصدى لذلك التهديد الآن، بجيشنا، بسلاح الجو عندنا، ببحريتنا، بخفر السواحل عندنا، وبقوات المارينز، كي لا نضطر لاحقاً لمواجهته بجيوش من فرق إطفاء الحرائق ورجال الشرطة والأطباء في شوارع مدننا. شعر غيرسون أن تلك كانت أقوى طرق التعبير عن الموقف. كان من شأن معنى تجنب ٩/١١ آخر أن يكون واضحاً.

قرأ رمسلفد الخطاب كلمة كلمة لفرانكس على الخط الهاتفي الآمن للاطمئنان إلى عدم وجود أي اعتراضات أو اقتراحات. فتحقق له ذلك.

أجرت رايس اتصالاً مستعجلاً في الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين مع وزير المالية الإسرائيلي بينامين نتنياهو، بشأن قضية أخرى. قال الوزير إنه عارف سلفاً عن الحرب وتمنى أن تكون سريعة و«بلا دماء.»

أيقظت مستشار الأمن القومي البريطانيماننغ، وقالت له: «ثمة، يا ديفد تعديل صغير في الخطط. وأنا آسفة أن أطلب منك هذا، غير أنني أرى أن من الأفضل إيقاظ رئيس الوزراء وإبلاغه.

ذهب بوش إلى المنزل. جلس كارد معه في الغرفة الصفراء. «هل أنت مرتاح؟» سأل رئيس جهاز العاملين. «هل أنت جاهز لإلقاء الخطاب؟» أراد أن يفصل بين موضوعي قرار مطاردة صدام والخطاب.

«نعم» قال الرئيس مفصحاً عن استعداده على الصعيدين كليهما. ومع أنه كان قد سأل جميع من في مجلس الحرب، بمن فيهم كارد، عما إذا كانوا مستعدين

للإقدام على هذا، وكان كل منهم قد رد بالإيجاب، فإنه أعاد السؤال: «هل كنت ستقدم على هذا؟»

«نعم» رد كارد «إن هذا هو الشيء الصحيح فعله. بالمطلق. انتهز هذه الفرصة!»

«منذ متى إقلعت قاذفتا الإف-١١٧؟» سأل الرئيس. «متى تصلان إلى هناك؟»

تحدث التقرير التالي عن أنهما كانتا في المجال الجوي العراقي. لن تكون أي تقارير تمهيدية إضافية لأن صمتاً كان سيُفْرَض على الراديو فوق العراق.



انتقل هيوز، بارتلت، وغيرسون إلى مقر الإقامة. غير متأكدين من رغبة الرئيس في مقابلتهم أم في مجرد استلام الخطاب، طلبوا من الحاجب أن يستكشف. إذا كان بوش مشغولاً بتناول طعام العشاء فإنهم لم يكونوا راغبين في مقاطعته. ما لبث الحاجب أن عاد بسرعة ورافقهم إلى غرفة المعاهدات، مكتب بوش الخاص. رأى غيرسون أن بوش كان مهموماً وشاحب اللون بعض الشيء. للمرة الأولى بدا لغيرسون مثقلاً بكل هذه الأعباء الثقيلة. استلم الرئيس الخطاب وبدأ يقرؤه بصوت مرتفع: «إخوتي المواطنين، في هذه الساعة..

«تقوم قوات أمريكا والتحالف بخوض المراحل المبكرة من العمليات العسكرية الرامية إلى تجريد العراق من السلاح، إلى تحرير شعب العراق، وإلى الدفاع عن العالم وحمايته من خطر بالغ الجدية.»

أكمل قراءة الفقرات العشر إلى النهاية وأقر بأنها رائعة. لم يكن لديه أي تعديلات. رافقهم إلى المصعد لوداعهم.

بهدوء، كما لو كان يريد أن يطمئن نفسه قال بوش: «المعلومات الاستخباراتية جيدة.»



اتصلت رايس مع الأمير بندر وسألته: .هل أستطيع رؤيتك في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين؟»

«كوندي» قال بندر «علينا أن نتوقف عن اللقاء بهذه الطريقة في هذه الساعة. الناس يتقولون.»

عادة كان أي لقاء فيما بعد الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين مساء اصطلاحاً رمزياً يعني أن بندر كان سيلتقي الرئيس. وبالفعل فإن موعد الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين كان متأخراً جداً، قبل نحو ساعة واحدة من ذهاب بوش عادة إلى الفراش. كان بندر قد حجز مطعماً عربياً صغيراً بكامله في جورجتتان لتناول العشاء مع زوجه، أفراد عائلته وبعض الأصدقاء. قال لزوجه أن تنفذ البرنامج. وصل إلى بهو الجناح الغربي ولاحظ وجود أحد المصورين. غريب. وحين دعي أخيرا إلى الدخول في الساعة الثامنة والدقيقة الثامنة والعشرين مساء، خرجت رايس إلى مكتبها الخارجي لاستقباله. وميض (فلاش)!

قال بندر منتفضاً: «أرجو أن يكون ممن يعملون عندك!»

«نعم، نعم! كن مطمئناً!»

كانا موشكين على الجلوس حين أقدم المصور على أخذ لقطة أخرى، وما إن جلسا حتى كانت الثالثة.

«إن الرئيس....» بدأت رايس.

«.. قد طلب مني أن أبلغك.» قاطعها بندر، مكملاً جملتها «أننا ذاهبون إلى الحرب.»

كان ذلك واضحاً- ثمة انتهاء مدة الإنذار وحضور المصور. «منذ عامين اثنين وأنا أجتمع بك في هذا المكتب ولم يسبق لي أن رأيت مصوراً واحداً في هذا المكان؟

لست موشكاً على الاستقالة كي ألتقط صوراً وداعية. وأنت أيضاً لست مقبلة على الاستقالة. هل أخبرت أحداً آخر من الأجانب سواي أنا؟»

«لا!» قالت رايس، رغم أن الإسرائيليين كانوا يعرفون سلفاً.

«تبقى الصورة مهمة بنظري إذن» قال بندر. «فليسجِّل أنني الأجنبي الأول الذي يتم إبلاغه!»

«الساعة التاسعة مساءً تقريباً ستَفتح جهنم أبوابها على مصاريعها» قالت رايس. «وصديقك الرئيس أصر على إبلاغك مباشرة.»

«قولي له إنني في لقائي التالي به....» بدأ بندر، ولكن شكاً عميقاً- شكاً عايشه نحو عشرين عاماً في واشنطن - ما لبث أن تدخل.» «في لقائي التالي به، إذا بدأت الحرب، ساكون حالقاً.» ضحك الطرفان.

غير أن النشوة لم تدم إلا لحظة. اعتقد بندر أنه كان يستطيع الإحساس بنوع من الثقل في الجو. بدت رايس، وهي الصريحة والمرحة عادة، كما لو كانت موشكة على أن تقول: «احبس أنفاسك! إننا مقتحمون، لا أحد يعرف ما سيحدث في نحو ٤٥ دقيقة، كيف سيتغير العالم، باتجاه الخير أم الشر؟»

سأل بندر: «وأين هو الرئيس الآن؟»

«إنه يتناول طعام العشاء في هذا الوقت بالذات مع السيدة الأولى وبعد العشاء قرر أنه راغب في أن يكون وحده.»

«قولي له إنه سيكون في دعائنا وقلوبنا» قال بندر. «فليباركنا الله جميعاً!»

رن جرس هاتف رايس في الساعة الثامنة والدقيقة التاسعة والعشرين مساء.

قالت: «نعم سيادة الرئيس! نعم! لا، قلت له... إنه هنا... نعم إنه معي. أبلغته. حسناً، قال إنك في صلواته.»

«قال شكراً لك» نقلت رايس بعد إعادة سماعة الهاتف إلى مكانها. «فلتستأنف صلواتك فقط!»

راح بندر المتمتع بنعمة القرب من الرئيس الأمريكي يعقلن بينه وبين نفسه أن اللحظة ربما لم تكن ثقيلة حقاً مثلما تصورها، إذا كان بوش قد قال «تعال لزيارتنا!» أو إذا كان قد «دردش» معه. هل كان الحق كله مع بوش؟ لم يكن مهماً من فعل ماذا بمن. فبوش كان مسؤولاً سواء أكانت العملية مذبحة، هزيمة، إذلالاً- أو مجداً. لا أحد كان يستطيع وصف الحالة سوى صاحب القرار. تعين على بندر، إذن، أن يستأذن ويغادر. بدت المسافة بين الجناح الغربي وسيارته في الخارج ألف ميل وميل. صفعت الرياح الباردة وجهه، وما لبث أن بدأ يتصبب عرقاً، ثم أحس بقشعريرة خفيفة.

كم كان الوضع مختلفاً عن نظيره في حرب ١٩٩١ الخليجية! هذه المرة كانوا يقولون لصدام صراحة إن رأسه هو المطلوب. بموجب قواعد الصراع القاتل، صراع الموت أو الحياة، رأى بندر أن من شأن أسراب من الأسلحة الكيميائية والبيولوجية وغيرها من الأسلحة الفتاكة أن تكون متطايرة في السماء في غضون ساعات- موجهة نحو إسرائيل، نحو الأردن، نحو العربية السعودية، نحو كائن من كان دون تفريق إذا كان صدام يساوي شيئاً، أي شيء، حسب تقدير بندر. من المؤكد أنه كان سيستخدمها. كاد الأمير يختنق من الانفعال. غمره طوفان من الفرح للخلاص أخيراً من الوغد، ولكن ثمة كان لا يزال نوع من الشعور باحتمال انعطاف التاريخ انعطافة لم يستطيعوا تصورها أو التنبؤ بها. استقل سيارته وطلب من المرافقة أخْذَه إلى البيت. متصلاً بمنزله أصدر جملة أوامر قائلاً: «ليعد كل من في المطعم إلى البيت. وليبق جميع من في البيت حيث هم. أما من هم في الطريق فليدوروا إلى الوراء، يتصلوا بالبيت، ويقابلوني هناك.»

كان قد رتب لغة رمزية لإخطار ولي العهد الأمير عبدالله إذا ما علم شيئاً في وقت مبكر، تمثلت بالإشارة إلى الروضة التي هي واحة خارج الرياض.

«تقول النشرة الجوية الليلة إن مطراً غزيراً سيهطل على الروضة.» قال بندر عبر هاتفه الموجود في السيارة للعربية السعودية.

رد ولي العهد الأمير: «يا إلهي! سمعتك! سمعتك، هل أنت متأكد؟»

«نعم أنا متأكد جداً» رد بندر، مضيفاً أن لدى الأمريكيين قدرات عظيمة، أقمار صناعية، وما إليها، للتنبؤ بأحوال الجو.

«قل لي ثانية!» طلب ولي العهد.

كرر بندر ما سبق أن قاله.

أخذ ولي العهد نفساً عميقاً. «ليكن ما شاء الله لنا جميعاً!» ثم سأل بصوت مرتفع «هل تعلم كم ستدوم العاصفة؟»

«مولاي» قال بندر، موحياً باحتمال الوقوع في خطأ إفشاء أسرار عملياتية إذا كانت أي سفارة أجنبية أو جهة أخرى متمتعة بالقدرة داخلة على الخط: «لا أعرف، ولكن تابعوا التلفزيون!»

◆ ◆ ◆

قال الرئيس متذكراً ذلك اليوم «لقد كان يوماً طويلاً جداً. أصعد إلى فوق، ولا أستطيع أن أنام. ما زال أمامي نحو ساعة ونصف الساعة من الانتظار.» لم يكن يريد أن يتكلم إلى أن تكون القاذفتان قد أصبحتا فوق أهدافهما. «كنت أحاول أن آخذ غفوة صغيرة.» مرة أخرى استدعى رايس.

لا شيء جديد! لا أخبار.

حاول أن ينام أو يقرأ أو يجد شيئاً يفعله ولم يستطع فاستدعى رايس مرة جديدة.

«سيادة الرئيس وصلتنا للتو رسالة من الشخص الميداني على الأرض. ثمة موكب سيارات دخل إلى المجمع.»

«هل سيارات ذلك الموكب ملأى بالأطفال؟» سأل بوش. بات مقتنعاً بعمق أنه لم يعد ثمة أي مجال للتراجع الآن. كانت القاذفات ستضرب أولاً، متبوعة مباشرة بـ ٣٦ صاروخاً ذاتي الدفع. كانوا قد ضاعفوا حزمة رشقة التوماهوك. فصواريخ توماهوك ذاتية الدفع التي كانت وُجهت إلى هدف مزرعة الدرة منذ ما يزيد على الساعة لم تكن مزودة بآلية تدمير للذات وبالتالي فإنها كانت ستصل دونما اعتبار لأي طارئ.

«لا» ردت رايس، «يعتقد أنه شبيه بذلك النوع المتوقع أن يجلب صدام حسين.»

بعد نحو ساعة، نزل الرئيس إلى المكتب البيضوي وأدى «بروفة» قراءة كاملة. كان الآن مرتدياً قناع اللهو الذي كان غيرسون مسروراً لرؤيته. كان الانقلاب والتحول من الرجل المثقل بالهموم مثيراً لقدر كبير من الدهشة. بعد «البروفة» ذهب بوش إلى مكتبته الموجودة على هامش المكتب البيضوي.



كان فلايشر دائباً على التسكع في الخارج مدركاً أن الاجتماع المطول على نحو استثنائي كان يعني شيئاً، ولاسيما مع كل هذا التراكض الذي يقوم به كبار المسؤولين إضافة إلى حضور حتى عدد من الوجوه غير المألوفة. لم يكن قد سبق له أن رأى هذا العدد الكبير من الهواتف في غرفة العمليات. كان يتعين عليه، إذن، أن يتحلى بالحذر. عادة كانت مهمته أن يبادر في نهاية اليوم إلى إسدال نوع من الستارة على

ما كان قد جرى، قائلاً لمراسلي البيت الأبيض إنه لم يعد هناك أي مزيد من الأخبار تلك الليلة.

أخيراً قام كارد باقتياد فلايشر إلى مكتبه الموجود في الزاوية.

قال كارد: «ستبدأ الليلة. ما هذه إلا المراحل المبكرة. لدينا هدف ثمين، فرصة، وقد أرسلنا مقاتلة خلسة لمطاردته.»

«هل نقوم بإرسال أي أشياء أخرى إلى الداخل؟»

«قلت لك كل ما أنت بحاجة لأن تعرفه،» رد كارد. سيكون الهجوم على هدف في جنوب بغداد. المضادات العراقية لن تلبث أن تنطلق بسرعة.

كل من رايس، كارد، بارتلت، وفلايشر احتشدوا حول جهاز التلفزيون في مكتب رايس. في الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين وصلت تقارير تقول إن صفارات الإنذار كانت قد انطلقت في بغداد. ما لبثت المضادات أن انطلقت هي الأخرى بعد الصفارات دون تأخير.

«هيا أعلن!» قالت رايس لفلايشر.

كان فلايشر على المنصة خلف «الميكرفون» في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين: «إن المراحل التمهيدية لعملية تجريد النظام العراقي من السلاح قد بدأت. وفي الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة عشرة سيوجه الرئيس كلمة إلى الأمة.»

❖ ❖ ❖

قام ميرز بإبلاغ هادلي أن طائرتي الإف-١١٧ (F-117) كانتا قد اسقطتا قنابلهما بنجاح ولكن الطيارَيْن لم يكونا بعد خارج الأراضي المعادية. ذهب هادلي إلى

المكتبة الكائنة على كتف المكتب البيضوي حيث كان الرئيس يتعرض «للمَكْيَجة» إذا جاز التعبير، وأوصل الخبر إلى كل من بوش ورايس.

«فلنصلِّ من أجل الطيارَيْن!» قال بوش.

في الساعة العاشرة والدقيقة السادسة عشرة ظهر الرئيس على شاشة التلفزيون، ووراءه خلفية مزينة بالوشاحات والأعلام والصور العائلية. قال إن «المراحل المبكرة» من الحملة العسكرية ضد صدام كانت قد بدأت. ودون تقديم أي تفاصيل أضاف: «ما يزيد على ٣٥ بلداً يقدمون دعماً حاسماً. من شأن حملة على بقعة صعبة لدولة تضاهي كاليفورنيا من حيث الضخامة أن تكون أطول وأكثر صعوبة مما يتكهن به البعض.» إنه لزمن «مثقل بالأخطار الجسيمة» و«المهالك.»

«ستعود قواتنا إلى الوطن فور إنجازها لمهمتها. لن تكون هذه حملة أنصاف حلول.»

بعد الانتهاء سأل رايس عن وقع الخطاب. فأجابت أنه أحد أفضل الخطب.

اتصل هادلي بميرز، الذي قدم تقريراً نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً قال فيه إن الطيارَيْن كانا قد أصبحا خارج الأجواء المعادية وهما موشكان على الهبوط. اتصلت رايس بالرئيس.

«الطياران صارا خارج دائرة الخطر.»

«حسناً، الحمد والشكر لك يا رب!»



قبل الساعة الثامنة صباحاً بالتوقيت المحلي في شمال العراق، منتصف الليل في واشنطن، أرسل تيم تقريراً قال فيه إن عنصر الروكستار الرئيسي أفاد بأن

صدّاماً ونجليه كانوا في مزرعة الدرة حين سقطت القنابل والصواريخ، ولكنه لم يعرف ما آلت إليه أحوالهم. لم يرد تيم أن يبعث بأي تقارير جديدة إلى أن يتأكد من أنهم قد تمكنوا من صدام. عند الظهر تقريباً- قبل الفجر في واشنطن- أرسل برقية أخرى. مرة ثانية تعين عليه أن يروي ما كان عناصر الروكستار قد قالوه، غير أنه ظل في شك من الأمر لأنه بدأ يلتقط نُتَفاً تشي بأن عناصر الروكستار كانوا يفرّون من المكان. كان مصدرهم، روكان، قد قُتل بأحد الصواريخ ذاتية الدفع. كان أحد نجلي صدام، لم يتضح أيهما، قد خرج وهو يصرخ «لقد تعرضنا لعملية غدر وخيانة» وأصاب عنصراً آخر من عناصر الروكستار في الركبة. أما النجل الآخر فكان قد خرج من تحت الركام مسربلاً بالدم ومشوشاً غير أن أحداً لم يعرف ما إذا كان الدم دمه هو أم دم شخص آخر. كان صدام قد أصيب بجروح حسب رواية شاهد عيان من عناصر الروكستار تعين إخراجه من تحت الركام. كانت الرضوض السوداء تغطي جسده. كان رمادياً. ظلوا يعطونه أوكسجيناً. وُضع على نقالة وأُدخل في مؤخرة إحدى سيارات الإسعاف التي لم تتحرك بعد ذلك لمدة نصف ساعة قبل أن تغادر المزرعة عبر أحد الجسور.

نحو الساعة الرابعة والدقيقة الثلاثين فجراً اتصل تنت بغرفة العمليات وقال للضابط المناوب: «بلّغ الرئيس أننا تمكّنا من ابن الكلبة!»

لم يوقظوا الرئيس. ولدى وصول الرئيس إلى المكتب البيضوي في الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين صباحاً، يوم الخميس الواقع في ٢٠ آذار/ مارس، لم يُبْدوا قدراً مماثلاً من الثقة. ربما كان صدام قد نجا حسب ما كانت الدلائل تشير.

في الحادية عشرة صباحاً اتصل بوش مع بلير وقال «شكراً على تفهمك لاحتمال تعرض الخطط للتغيير. أرى أنه إذا تقدم الجيش بخيار وأوصى به مع شيء من الإصرار فإن الجميع يتكيفون مع الخطة. ذلك هو ما حصل.»

كان بلير في مزاج منشرح رائع. كان قد قاد أمته المترددة إلى الحرب، وبدت الآفاق المباشرة مشرقة إلى حد كبير قال بلير: «أميل إلى نوع من الاعتقاد بأن جملة القرارات المتخذة في الأسابيع القليلة المقبلة ستحدد مصير باقي العالم لسنوات قادمة. وبوصفنا لاعبين من الصف الأول نتمتع بفرصة صياغة أشكال القضايا المطروحة على بساط البحث. سيتوفر لنا، كلينا، رصيد هائل من رأس المال وثمة كثيرون سوف يلتحقون بركبنا، سيكونون معنا.»

خاتمة

في ٢٠ آذار/ مارس، اليوم الأول الكامل للحرب، قدم الجنرال فرانكس تقريراً قال فيه إن القوات الخاصة باتت مسيطرة جزئياً على منطقة الصحراء أو البادية الغربية - وهي ٢٥ بالمئة من مساحة العراق، مما مكّنها من منع إطلاق صواريخ سكود- جنباً إلى جنب مع حقول النفط الجنوبية. ما بلغ مجموعهم الاجمالي٢٤١٥١٦ عسكرياً امريكياً كانوا في المنطقة ومعهم ٤١,٠٠٠ من المملكة المتحدة و٢,٠٠٠ من أستراليا و٢٠٠ من بولونيا. بلغ تعداد القوات البرية، الأمريكية والتحالف، ١٨٣٠٠٠، بأكثرية في وضعية الجاهزية للتحرك شمالاً من الكويت إلى داخل العراق، فمواصلة مسيرة طولها ٢٥٠ ميلاً إلى بغداد.

خلال فترة التخطيط للحرب التي دامت نحو ١٦ شهراً، كان فرانكس قد دأب باستمرار على مواصلة تقليص فترة العمليات الجوية التي كانت ستتم قبل شروع القوات البرية في الاجتياح. كانت الخطة الهجين قد دعت بداية إلى ١٦ يوماً من القصف قبل الغزو، استناداً إلى النظرة التقليدية القائلة إن على التفوق الجوي الأمريكي أن يؤدي إلى إضعاف وتدمير أكبر قدر ممكن من قوة العدو قبل أي اقتحام بري. كان فرانكس قد اختصر مرحلة الجو فقط إلى خمسة أيام، ثم إلى مجرد تسع ساعات فقط في خطته الراهنة المعروفة باسم «الصدمة والرهبة» القائمة على القصف وضربات الصواريخ البادئة بالساعة الواحدة بعد الظهر بتوقيت واشنطن يوم الجمعة الواقع في ٢١ آذار/ مارس- قبل الغزو البري الرئيس الذي كان مبرمجاً في الساعة العاشرة من مساء الجمعة.

كان هذا ممكناً لأن فرانكس كان متوفراً على معلومات استخباراتية جيدة عن

أماكن تمركز التشكيلات التكتيكية العراقية. فصور الأقمار الصناعية وغيرها من وسائل التصوير من الجو، عمليات اعتراض الاتصالات والتقاطها، والمعلومات الاستخباراتية المأخوذة من المصادر البشرية التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية مثل عناصر شبكة الروكستار تضافرت جميعاً في تسليط الأضواء على أن صدّاماً لم يكن قد نشر قواته بما يمكنّها من التصدي لأي اقتحام بري. على نحو غير قابل للتصديق، نظراً لكثافة الدعاية عن الحشد العسكري، كان فرانكس قد أدرك أن إمكانية تحقيق مباغتة تكتيكية ذات شأن كانت لا تزال واردة.

كان ثمة عنصران يمارسان دوراً. كان فرانكس قد علم أن صداماً كان قد أدخل بعض مدافع الهاوزر والدبابات في منطقة حقول النفط. وكان توفير الأمن الكامل لحقول النفط تلك من جانب الولايات المتحدة ضرورة استراتيجية. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية كان رئيس الجمهورية قد أطلق الجزء المرئي من الحرب عبر الضربة الموجهة إلى مزرعة الدرة.

وهاهو ذا فرانكس الآن وقد اقترح تغييراً حتى أكثر جذرية- إذ دعا إلى دفع موعد بدء الحرب البرية إلى ما قبل بداية الحرب الجوية بـ ٢٤ ساعة. كان مستعداً للشروع في الهجوم البري في الساعة العاشرة من مساء يوم الخميس مع بزوغ الفجر في العراق. «تماماً كما لو أن أحداً أضفى على رؤيا استنفرت قواتي البرية قبل ٢٤ ساعة لتكون قادرة على الانطلاق أولاً» قال فرانكس. كان من شأن الحملة الجوية أن تبدأ كما كان مبرمجاً أساساً في الساعة الواحدة بعد ظهر الجمعة بعد حلول الظلام في بغداد.

سارع رمسفلد إلى الموافقة. وقد كان يضغط من أجل جعل الحملتين البرية والجوية أكثر تزامناً. ومع أن الرئيس أبلغ بالأمر، فإنه اعتبره قراراً تكتيكياً يتعين على رمسفلد وفرانكس، لا عليه هو، اتخاذه.

كان وولفوفيتز مسروراً مقتنعاً بأن من شأن هذا أن يدحض الصورة السائدة في الشرق الأوسط عن أن الطريقة الأمريكية في الحرب تقوم على حملات جوية مكثفة، مع ما تنطوي عليه من خراب جانبي محتوم، في سبيل تمهيد الطريق أمام القوات البرية. ما الداعي إلى البدء بحملة جوية بشعة إذا كنت قادراً على تحقيق نجاحا إستراتيجي؟ ظل وولفوفيتز يتساءل.

في الساعة الخامسة من بعد ظهر الخميس، ذهب تشيني وليبي للقاء بوش في المنزل. رايس وكارد كانا هناك. قدم رمسفلد خلاصة متفائلة للخطة عبر الهاتف الناطق. تحدث تشيني عن مدى حيوية ظهور الولايات المتحدة الآن بمظهر القوة، وأثار نقاشاً كان هو وليبي قد أجرياه عن مدى أهمية الانتصار بحسم. قال تشيني: تمت تسوية الحرب العالمية الأولى بوقف لإطلاق النار مع شعور بعض الألمان بأنهم لم يُهزموا. في هذه الحرب كان من الحاسم الا يبقى اي غموض أو لبس بشأن النصر.



في الساعة السادسة صباحاً بالتوقيت العراقي يوم الجمعة الواقع في ٢١ آذار/ مارس، قامت فرقة المارينز الأولى بعبور الحدود الكويتية-العراقية، تبعتها بعد قليل فرقة المشاة الثالثة في الجيش. اندفع الهجوم البري نحو ٦٠ ميلاً إلى عمق العراق. كانت المقاومة خفيفة. الإصابات الأولى كانت تقتل أربعة أمريكيين وثمانية بريطانيين في تصادم بين حوامتين.

لم يكن الرئيس مطالباً في ذلك اليوم باتخاذ أي قرارات مفتاحية، وأمضى معظم وقته مستمعاً إلى التقارير الموجزة ومتحدثاً مع قادة بلدان التحالف. قال لبلير: «بودي أن أقول إننا استولينا على ٤٠ بالمئة من البلاد بيسر كما على ٨٥ بالمئة

من حقول النفط، وهما إنجازان يتعذر تصديقهما في اليوم الأول.» وفي اتصال مع آزنار، كرر بوش رواية قصة إصداره لأمر الحرب في مؤتمر فيديوي عن بعد مع كل من فرانكس والقادة الميدانيين قبل يومين.

علق آزنار: «لا تشعر أبداً أنك وحيد في مثل تلك اللحظات! فأنت تعلم أن كثيرين منا معك.»

رد بوش: «أفهم ذلك تماماً.»

قال الزعيم الإسباني ذو الشاربين: «كلما جَلَسْتَ تذكر أننا معك. تستطيع دائماً أن ترى شاربين بجانبك.»

يوم السبت، يوم ٢٢ آذار/ مارس قام فرانكس بنقل ما استجد حتى اللحظة إلى الرئيس والمجلس الحربي في كامب ديفد عبر الفيديو. أفاد بأن طابور طليعة فرقة المشاة الثالثة كان الآن على مسافة ١٥٠ ميلاً داخل العراق. وفي اتصال لاحق مع بلير تحدث الرئيس: «إن لغة الجسد لدى تومي وجميع القادة إيجابية إلى حد بعيد. إنهم مسرورون بالتقدم، مسرورون بأن أي أسلحة دمار شامل لم تُستخدم ضدنا، ونحن مستمرون في البحث وسوف نعثر على تلك الأسلحة.» ثمة بعض حالات الهروب من الجيش العراقي، غير أن الأمر لم يصل بعد إلى مستوى عمليات استسلام كبيرة، قال بوش، والولايات المتحدة لم تكن تأخذ أسرى حرب. «الآلاف يخلعون زيهم الرسمي فقط ويذهبون إلى بيوتهم.»

أكد بلير: «صحيح إنهم يذوبون ويتلاشون.»

ردد بوش: «يذوبون ويتلاشون.»

❖ ❖ ❖

في مقر قيادته المزدحمة الملأى بالتكنولوجيا العالية في الدوحة القطرية، قام

فرانكس بعرض التقدم الحاصل على جبهة القتال على شاشة بلازما (كوارتز) أبرزت قوات العدو المرسومة باللون الأحمر من جهة وقواته هو ذات اللون الأزرق من جهة ثانية في بث بصري مباشر. ودليل القوات الزرقاء هذا تضمن إشارات دالة على وحدات تحالف زرقاء صغيرة، متوسطة، وكبيرة. بعد بضعة أيام في غمرة الحرب، مع مواصلة قواته تقدمها نحو بغداد، ما لبثت مؤشرات التعقب الزرقاء كلها أن بدت فجأة مندمجة فيما بدا أشبه ببقعة زرقاء عملاقة أو كتلة هادئة ممركزة. وكان ذلك بنظر فرانكس يمثل هدفاً نموذجياً لأي هجوم بالأسلحة الكيميائية أو البيولوجية من جانب صدام.

انفجر فرانكس صارخاً: «موشكون نحن على التعرض لكارثة لعينة، ما هذا العهر؟ تداركوا الأمر وإلا فسأعفي الجميع من مناصبهم!»

يبدو أن ما أطلق عليه فرانكس اسم «تعطيل إستراتيجي» تمثل بنوع من الهجوم بأسلحة نووية، هجوم يؤدي إلى إيقاف اندفاعه نحو بغداد. «لابد لنا من بعثرة هذا التشكيل الداعر بأسرع ما نستطيع لأننا نقدم هدفاً فرصة إلى العدو في الوقت الخطأ تماماً.» طائرة هيلوكوبتر واحدة من القوة الجوية العراقية الهزيلة مع غالون واحد من المواد الكيميائية أو البيولوجية كانت قادرة على شل حركتهم. «أريدكم أن تدمروا أي طائرة أو حوامة على الأرض فوراً!» أمر الجنرال. ثم ما لبث أن هدأ بسرعة حين أدرك أن القوات الزرقاء لم تكن متقاربة كثيراً كما بدت على شاشة الكوارتز.

❖ ❖ ❖

صباح يوم الإثنين، يوم ٢٤ آذار/ مارس، اتصل بوتن مع بوش قائلاً: «إن هذا سيكون بالغ الصعوبة بالنسبة إليكم. أنا حزين من أجلكم! نعم حزين!»

«ولماذا؟» سأل بوش الرئيس الروسي.

رد الأخير: « لأن معاناة إنسانية كبرى ستنشأ »

«لا» قال بوش، «لدينا خطة جيدة. ولكن شكراً على اهتمامك!»

في أثناء الحديث تأكد بوش أن بوتن، المتورط في حرب دامية مع المتمردين الشيشان، كان يعبر عن القلق بشأن الضريبة الشخصية المترتبة عليه هو.

قال بوش أخيراً: «حسناً، شكراً على الاتصال! إنها لفتة باللغة اللطف من جانبكم.»

قال لاحقاً متذكراً: «كان اتصالاً صادقاً. لم يكن نوعاً من المجاملة الشكلية، من رفع العتب أو الشماتة المضمرة من قبيل «قلنا لكم!». لقد كان اتصالاً من صديق. وقد قدرته.» وأضاف «تلك كانت المكالمة الوحيدة التي كانت بتلك المواصفات، بالمناسبة.»

كان الاتصال غريباً، برأي رايس، وبعد يوم أو اثنين قدمت إلى بوش مقالاً بقلم جنرال روسي متقاعد كان قد زار بغداد وكتب أن بوش كان سينتصر في الحرب بالطبع، غير أنه عليه أن يغطي بغداد بالقنابل.

تذكر الرئيس أنه كان مستاء من عدم تفهم الآخرين لحقيقة أن الولايات المتحدة كانت قد اهتدت إلى طريقة لشن حرب دائبة قدر الإمكان على استبعاد المدنيين، تجنب الدمار والخراب الجانبيين، والتركيز على استهداف القادة وأسباب صراعهم من أجل الحفاظ على السلطة. أما حروب الإبادة، القصف الشامل، وحرق المدن بالقنابل فيجب أن تصبح أشياء من الماضي، حسب اعتقاده.

◆ ◆ ◆

خلال الأسبوع التالي قوبلت القوات الأمريكية والبريطانية بمقاومة صادرة عن ميليشيات غير تقليدية مثل فدائيي صدام بقيادة نجل صدام عُدي. كذلك أدت الأحوال الجوية الرديئة والعواصف الرملية إلى إبطاء التقدم. بعض الجنرالات، بمن فيهم كبير قادة الجيش البري الأمريكي اللفتنانت جنرال وليم اس. واليس William S. Wallace، أطلقوا تعليقات موحية بأن الحرب كانت ستطول أكثر، بل ومن شأنها أن تستغرق أشهراً. باتت تلك فترة كئيبة وكالحة بالنسبة إلى بوش، وفريقه، مع استنقاع الجيش، عشرات القتلى الأمريكيين، وقوع البعض في الأسر، والتغطية الإخبارية سلبية.

في لقاء له مع مجموعة من قدماء المحاربين في غرفة روزفلت يوم الجمعة الواقع في ٢٨ آذار/ مارس، قال الرئيس: «أنا لا أبالي بالصحافة. إنها تشبه- لا أدري ماذا تشبه. أحصل على معلوماتي من الجنرال فرانكس.» وأضاف: «الشيء المهم هو كسب السلم. أنا لا أتوقع تمخض الأمر عن توماس جفرسون Thomas Jefferson، غير أنني أعتقد أن الناس سيصبحون أحراراً.»

وفي اليوم التالي، عاد بوش، في اجتماعه مع مجلس الأمن القومي، إلى العزف على أوتار هذه الأطروحات. «شيء واحد فقط ينطوي على أهمية: الفوز. ثمة حشد من التخمينات الجانبية والثانوية فيما يخص عالم ما بعد صدام. واجبنا هو أن نصارح الشعب الأمريكي، أن نحدثه عن مدى اعتزازنا بالجنود؛ وأن نصارح العالم، أن نبلغه أننا سننجز المهمة، سنؤدي الرسالة؛ وأن نصارح حلفاءنا الأوربيين، معبرين لهم عن امتناننا لمساعدتهم؛ وأن نصارح الشعب العراقي، مطمئنينه إلى أننا لم نأت إلا لتحرير البلد كله.» وأضاف: «لا تهتموا بالانتقادات والتخمينات اللاحقة. ترفعوا عنها، كونوا واثقين! تذكروا دوائركم وجذوركم!»

علق باول: «لن نمكّن الصحافة من جرنا إلى التعليق على كل تطور يحصل في

أرض المعركة. ابقوا متركزين على الصورة العامة الكبرى!»

كرر بوش: «ليست المسألة مسألة برنامج زمني. إنها مسألة انتصار.»

يوم الأربعاء الواقع في ٢ نيسان/ أبريل تحدث رمسفلد أمام مجلس الأمن القومي قائلاً: «لدينا ١١٦,٠٠٠ رجل في العراق، ٢١٠,٠٠٠ رجل على المسرح.» نحو ٥٥ بالمئة من قصف ذلك اليوم كان سيُوجه إلى ثلاث فرق مفتاحية من فرق الحرس الجمهوري، قوة صدام القتالية الرئيسية الموالية. نصف رصيد صواريخ توماهوك ذاتية الدفع تم إطلاقه. طلائع فرقة المشاة الثالثة باتوا على مسافة ١٠ أميال من بغداد ونجحت القوات الأمريكية في فتح جبهة ثانية صغيرة بالمظليين في شمال العراق. قامت القيادة المركزية (السنتكوم) بإبلاغ الرئيس أن فرقتي حرس جمهوري باتتا خارج المعركة.

تحدث بوش مرة أخرى، مع أزنار: «إننا نخسر جانباً من جوانب الحرب الا وهو جانب الدعاية.» كان العراق حريصاً على تشغيل الفرق التلفزيونية الرسمية المتحركة وإبقائها على الهواء، على الرغم من تعرضها للاكتشاف والتدمير، كما قال بوش. كان الرئيس قد أصبح أشبه بضابط معنويات لقادة العالم وراح يحدث آزنار عن محادثة أجراها مؤخراً مع فرانكس. «قلت: هل أنت متوفر على كل ما أنت بحاجة إليه ياتومي؟ ورد قائلاً: نعم سيادة الرئيس. وقلت: ما شعورك يا تومي؟ ورد قائلاً: إننا على طريق الانتصار. أنا أعرف تومي جيداً. نأتي من البقعة التكساسية ذاتها. أعرف حين يقول لي الحقيقة وحين يكون عاكفاً على ملء أذني بروث بقر تكساسي، وهو يقول الحقيقة هذه المرة.»

وقال بوش لجون هوارد الأسترالي «أعتقد أن الجميع حققوا قفزة صغيرة لطيفة في خطواتهم هذه الأيام» بعد أسبوع من بروز أشياء إعلامية سيئة، «ثمة

منحنى جيب لهـذه العـمليـة. عـشنـا فـتـرة نشـوة في البـداية، ثم جـاءت مـرحلة التخمينات، وبعد ذلك ما لبثنا أن عدنا إلى مسرح العمل. إنه نمط قابل للتنبؤ، إلا أننا الآن على قمة الموجة. أميل إلى وصف الحالة النفسية داخل العراق بأنها تشي بأن قبضة صدام على رقبة الشعب العراقي باتت مهزوزة ولم يبق منها إلا أصبعتين ونحن نسعى لفكهما.»

تابع الرئيس كلامه قائلاً: «في كل خطبة ألقيها أذكّر الناس بفظاعات النظام للتأكيد على أن زبانية هذا النظام يتصرفون مثل الإرهابيين. يقول المحامون إن علينا الا نقول ذلك بسبب ما ينطوي عليه من دلالة.» كان من المفترض الا يصدر حكماً مسبقاً على اناس قد يُحاكمون لاحقاً بوصفهم مجرمي حرب. «لا استطيع ان اقول إنه نشاط شبيه بالإرهاب» قال بوش، ثم أضاف: «إنهم المحامون! كم هم مخيفون!»



صباح يوم الأربعاء الواقع في ٩ نيسان/ أبريل، قدم فرانكس إلى الرئيس ومجلس الأمن القومي تقريراً عما استجد عبر خط فيديوي آمن. قال فرانكس: «كان أسبوعاً جيداً. القوات متركزة، المعنويات عالية، المحليون رائعون.» تحدث عن الوضع الراهن مدينة مدينة: في الشمال جميع تشكيلات العدو باتت مدمرة. في البصرة ثمة بعض القنص بين وقت وآخر. في الناصرية بدأ قادة محليون يبرزون. في المنطقة الوسطى قمنا بتدمير ٩٠ بالمئة من معدات القوات العراقية. في الشمال جُمّد الجيش النظامي ويتم دك مواقعه بعد أن انخفضت قوته إلى نسبة ٥٠ إلى ٦٠ بالمئة.

عمليات الإغفال كانت لافتة- لم يرد أي ذكر لبغداد القلعة، لأزمة لاجئين، ولاستخدام أسلحة كيميائية أو بيولوجية.

في أحد المنعطفات قال فرانكس: «تقدر الإصابات العراقية بـ ٣٠,٠٠٠».

كان رمسفلد قد شدد كثيراً على ضمان عدم إيراد أي أرقام. وفيما بعد قال: «أتذكر أنني قفزت متدخلاً زاعماً أن الشخص ربما لم يكن يعرف العدد وأن انطباعي هو أن من غير المفيد أن يخرج الناس من غرفة الاجتماع ورؤوسهم محشوة بتلك الأرقام.»

«بعبارة أخرى، كنا نقوم بحصدهم ونحن متوغلون،» علق الرئيس لاحقاً في إحدى المقابلات. وأفاد بأنه كان قد سأل عما إذا كانوا مدنيين أم عسكريين، وقيل له إنهم كانوا جنوداً. ذكرت أن بعض الجنرالات قدروا أن نحو ٦٠,٠٠٠ جندي عراقي قتلوا، غير أن أحداً لم يعرف لتعذر العثور على الجثث. «ذلك هو ما سألت عنه» قال بوش: «أين هي الجثث كلها؟ وجاء جوابهم: مع الفرق ذات الزي الرسمي يجري الدفن فوراً. وفقاً للتقاليد الإسلامية، حسب تقديري.»

في نهاية الإيجاز، قام بوش بطرح موضوع عراق ما بعد صدام. بما أن الأخير كان قد أنفق ٢٠ إلى ٣٠ سنة وهو دائب على تدمير البلد، فقد كان من شأن إعادة إعماره أن تستغرق بعض الوقت. لا تجوز مقارنة عملية إعادة البناء بمدينة أمريكية أو أوربية في بدايتها. «مازال يتوجب علينا أن نقوم بالكثير من العمل. حذار من الانبهار بالاحتفالات.»

ذلك اليوم، يوم ٩ نيسان/ أبريل، كان شاهداً على النهاية الرمزية لحكم صدام. انهارت الحكومة مع استيلاء الجيش الأمريكي على ضفتي نهر دجلة، واكتساح قوات المارينز لمركز مدينة بغداد ومساعدتها فريقاً من العراقيين على إسقاط تمثال لصدام بطول ٢٠ قدماً. جرى التقاط تفاصيل العملية المطولة وعرضها مباشرة على شاشات التلفزيون في طول العالم وعرضه. متابعاً جوانب من التغطية بين

الاجتماعات، لاحظ الرئيس أن كتل الجماهير بدت صغيرة جداً. غير أن الآلاف من العراقيين في سائر أرجاء المدينة خرجوا إلى الشوارع ابتهاجاً. بدت تلك تعبيراً عن الحلوى والورود التي كان قد تنبأ بها البعض.

في الساعة الحادية عشرة والدقيقة السابعة والعشرين تحدث بوش مع آزنار: «بدأت الإستراتيجية تعطي ثمارها،» قال الرئيس، «غير أنك لن ترانا عاقدين حلقات الرقص احتفالاً بالنصر هنا؛ لأن الثلث الشمالي من البلد- الموصل، كركوك، وتكريت- ما زال بأيدي العدو. مازلنا مطالبين بأعمال كثيرة يتعين علينا القيام بها في بغداد، لابد من العثور على القيادات ذات الشأن.» قبل يومين كانوا قد قصفوا مطعماً اعتقدوا أن صداماً ونجليه كانوا فيه، رغم عدم رؤيتهم لأي برهان على نجاة اي منهم من هجمات الليلة الأولى. «شخصياً أعتقد أننا قتلنا صداماً مرتين. أعتقد أننا قتلنا الشخص الحقيقي في اليوم الأول ويوم أمس قتلنا النسخة الزائفة.» أما عن أسلحة الدمار الشامل فقال الرئيس: «هناك أعداد كبيرة جداً من الأنفاق والكهوف. علينا أن نتحكم بالتوقعات ذات العلاقة بالأمر. إن من شأن عملية التنقيب عن أماكن تخزين تلك المواد في أكوام الركام أن تستغرق وقتاً.»

في اليوم التالي يوم ١٠ نيسان/ أبريل نشر كَنْ آدلْمان تعليقاً في الواشنطن پوست بعنوان: «عود على بدء» عبر فيه عن قدر غير قليل من الفرح إزاء ما بدا انتصاراً سريعاً، ومذكراً قُرّاءَه بأنه كان قبل ١٤ شهراً قد كتب أن من شأن الحرب أن تكون نزهة سهلة. صب جام انتقاداته على أولئك الذين كانوا قد تنبؤوا بحصول كارثة. كان صاحب قصب السبق بين حشد المتكهنين بالعواقب المرعبة هو برنت سكوكروفت كتب آدلمان إنه استمد ثقته من عمله لدى رمسفلد ثلاث مرات و«من معرفة كل من ديك تشيني وبول وولفوفيتز عبر كل هذه الأعوام الطويلة.»

سارع تشيني إلى الاتصال بآدلمان الذي كان في باريس مع زوجه كارول. «يا

للتعليق الذكي!» قال نائب الرئيس. «لقد أفحَمْتَهم، وأجهزت عليهم بالفعل.» أضاف نائب الرئيس أنه كان مع زوجه لين Lynne، يفكر بإقامة حفل عشاء خاص صغير مساء الأحد الواقع في ١٢ نيسان/ أبريل، للكلام والاحتفال. الضيفان الآخران الوحيدان كانا ليبي وولفوفيتز. كان آدلمان يدرك أن تلك كانت إحدى طرق تشيني للتعبير عن الشكر، وما لبث هو وزوجه أن عادا من باريس قبل يوم كامل لحضور حفل العشاء.

حين مشى آدلمان إلى داخل منزل نائب الرئيس مساء ذلك الأحد غمره فيض من الحبور الجياش إلى درجة أنه بكى. للمرة الأولى عانق تشيني الذي كان يعرفه منذ ٣٠ سنة. ثمة كانت في الأيام الأخيرة موجة تقارير عن قبور جماعية وحشد من الأدلة الدامغة على التعذيب الذي كان نظام صدام موغلاً في ممارسته، مما أضفى على الأجواء شعوراً طاغياً بأنهم كانوا جزءاً من خير أكبر، من عملية تحرير ٢٥ مليوناً من البشر.

لدى جلوسهم إلى مائدة العشاء قال تشيني: «نحن جميعاً فريق واحد. لا يجوز أن يكون هناك أي بروتوكول، أي رسميات، دعونا نطلق العنان للكلام!»

باشر وولفوفيتز استعراضاً طويلاً لحرب الخليج في ١٩٩١ وللخطأ الفادح الذي ارتكب حين سُمح للعراقيين أن يستخدموا الحوامات بعد وقف إطلاق النار. فقد وظفها صدام لإخماد الانتفاضات.

اعترف تشيني بأنه لم يدرك مدى هول الضربة التي تلقاها العراقيون، وخصوصاً الشيعة، الذين شعروا بأنهم قد خُذلوا من جانب الولايات المتحدة، في ذلك الوقت. أضاف تشيني أن التجربة كانت قد جعلت العراقيين يتوجسون من ألا تؤدي الحرب هذه المرة إلى وضع حد لحكم صدام.

«عندك! عندك!» تدخل آدلمان «دعونا نتكلم عن هذه الحرب الخليجية. إنها شديدة الروعة جديرة بالتمجيد.» ثم أضاف أنه لم يكن إلا مراقباً من الخارج، مستشاراً يعاين من بعيد، شخصاً دأب على رفع مستوى الضغط على المنبر العام. «من السهل جداً علي أن أكتب مقالاً أقول فيه: افعلوا هذا! غير أن من الأصعب بكثير أن يبادر بول إلى تأييد ذلك. أنتما، أعني بول والدراج (سكوتر) تقدمان النصح من الداخل والرئيس يصغي. وأنت يا ديك، يبدو أن مشورتك هي الأهم، هي الكاديلاك. من الأخطر والأكثر جدية بما لا يقاس أن تقدم على تأييد المشروع. غير أن كل ما قلناه لم يتجاوز، آخر المطاف، مرحلة المشورة والنصح. إن الرئيس هو الشخص الذي تعين عليه اتخاذ القرار. صُعقت إذ وجَدتُه متحلياً بهذا القدر الكبير من الحزم والصرامة.» كانت الحرب رهيبة قال آدلمان. «اسمحوا لي فقط أن أرفع نخباً، قبل أن أسكَر. إنه نخب رئيس الولايات المتحدة.»

رفع الجميع أقداحهم. اسمعوا! اسمعوا!

أقر آدلمان بأنه كاد يموت كمداً حين رأى الأيام تكر والدعم يتضاءل دون أن يظهر في الأفق أمل في خوض الحرب.

قال تشيني إن الرئيس أدرك، بعد ٩/١١، ما كان يجب عمله. تعين عليه أن ينجز أفغانستان أولاً، متابعة للهجمات، غير أن الرئيس كان يعلم أن عليه أن يعالج موضوع العراق بعد أفغانستان- «بعيد ذلك دون إضاعة وقت» - أضاف تشيني أنه كان واثقاً من أن الأمور ستصبح «أوكي» بعد ٩/١١.

أقر آدلمان بأنها كانت حركة باسلة. ثم أضاف أن جون كندي، بعد انتخابه بأضيق الهوامش، قال لإدارته إن البنود الكبرى على جدول الأعمال مثل الحقوق المدنية كان سيتعين عليها أن تنتظر فترته الرئاسية الثانية. من المؤكد أن العكس كان صحيحاً بالنسبة إلى بوش.

«نعم» قال تشيني. بدأت العملية مع الدقائق الأولى للرئاسة، حين قال بوش بأن الفريق كان سينطلق بكل طاقته. غير أن هناك، قال تشيني، نوعاً من النزوع إلى الإبطاء حين تكون الانتخابات قريبة، إلى التصرف وفقاً لما تتنبأ به النيويورك تايمز وغيرها من جماعات أهل الخبرة والراسخين في العلم. قال تشيني «هذا الرجل كان مختلفاً كلياً بوضوح شديد. إنه من النوع الذي يقول: هذا هو ما أريد أن أفعله، وأنا سأفعله. إنه قوي التوجه إنه شديد التركيز.»

موجهة كلامها إلى تشيني، وولفوفيتز، وآدلمان، قالت لين تشيني: «أريد منكم أنتم، أيها الثلاثي غير المرح أن تغلقوا أفواهكم وتخرسوا. دعونا نستمع إلى ما يحلم به الدرّاج سكوتر!»

بابتسامة عريضة، اكتفى ليبي بالتعبير عن رأيه حول ما قد حصل قائلاً «رائع! نقطة على السطر.»

وافقه الجميع أنه ما كان قد حصل إنما كان إنجازاً مذهلاً تماماً، خصوصاً مع وجود المعارضة القوية للحرب. ثمة كان برنت سكوكروفت عميد مؤسسة السياسة الخارجية في الصف المعارض معارضة صاخبة، وهو الذي يُعتبر على نطاق واسع أحد مريدي والد الرئيس، أحد بدائل بوش الأب. كذلك كان جيم بيكر في الصف نفسه إذ بقي مصراً على تحالف دولي أقوى وأوسع. أضف إليهما لورنس ايغلبيرغر، وزير الخارجية في نصف السنة الأخيرة من إدارة بوش الأب، الذي ظل يقول على شاشات التلفزيون صبح مساء أن لا شيء كان من شأنه أن يسوغ الحرب سوى العثور على ما يؤكد ان صدّاماً كان موشكاً على شن هجوم علينا. يضاف أيضاً أن ايغلبيرغر هذا قد اتهم تشيني بـ «الغطرسة.»

أتى أحدهم على ذكر اسم باول فصدرت عمن حول المائدة ضحكات خفيفة.

علّق تشيني وولفوفيتز ان پاول كان بالتأكيد شخصاً حريصاً على متابعة مستوى شعبيته في استطلاعات الرأي وكثير التباهي بهذه الشعبية. فقبل بضعة أسابيع كان پاول قد قال في مقابلة مع الإذاعة القومية العامة ما يلي: «إذا ما عاد المرء إلى أي من استطلاعات غالوب للرأي فإنه سيجد أن الشعب الأمريكي راض تماماً عن العمل الذي أقوم به وزيراً للخارجية.»

«من المؤكد أنه يعشق أن يكون ذا شعبية» قال تشيني.

قال وولفوفيتز إن پاول أضفى مصداقية بالفعل، وكان عرضه أمام الأمم المتحدة للمعلومات الاستبخاراتية عن أسلحة الدمار الشامل مهماً. وفور فهمه لما يريده الرئيس أصبح، برأي وولفوفيتز عضواً مخلصاً في الفريق.

هز تشيني رأسه قائلاً: «لا!» بقي پاول مشكلة بنظره. «كانت لكولن على الدوام تحفظات كبيرة بشأن ما كنا عازمين على فعله.»

تطرق الحديث إلى الأخ الغائب رمسفلد. روى الزوجان، كلاهما، عدداً من القصص الملأى بالود والعائدة إلى أواخر الستينيات عندما كانا مشبوكين برمسفلد.

تذكر آدلمان محنة كتابة الخطب لرمسفلد خلال الفترة الوجيزة التي كان فيها وزيراً للدفاع للمرة الأولى. «كنت عاكفاً على خطاب، المسودة رقم ١٢ أو أكثر، ودائباً على العودة إلى تصحيحاته- خربشاته الشبيهة بخربشات الدجاج – طباعته، فهو نادراً ما يستطيع أن يكتب. نظرت إلى ما بين يدي ثم أخذته إليه وقلت: «اسمع يا دون، أنت تستطيع أن تغير ما أكتبه وتستطيع أن تغير ما تكتبه أو ما تريد قوله أنت نفسك، ولكن ما عبثت به هذه المرة إن هو، أقسم بالله، إلا كلاماً اقتبستُه من بريكليس العظيم. وأنت لا تستطيع أن تغير بريكليس؛ ثم أخذ دون المسودة وأضاف جملة إضافية من الخربشات إليها. نظرت إلى الورقة، كان قد أبقى التعديل الذي

أدخله على كلام الجنرال الأثيني العظيم مع إضافة العبارة التالية: ما كان ينبغي لبريكليس أن يقوله.»

قال تشيني إنه كان للتو قد تناول طعام الغداء مع الرئيس «تشكل الديمقراطية في الشرق الأوسط صفقة كبيرة برأيه. تلك هي القضية التي تحركه.»

«اسمح لي أن أسأل» قال آدلمان «قبل أن تتحول السهرة إلى عرس صاخب. لقد صعقني حقاً أننا لم نعثر على أي أسلحة دمار شامل.» ثمة كان مئات الألوف من الجنود وغير الجنود العاكفين على تمشيط البلد طولاً وعرضاً.

علق وولفوفيتز: «سوف نعثر عليها بالتأكيد.»

«لما يمض على وجودنا سوى أربعة أيام» قال تشيني «سنجدها!»



لم يلتزم بوش بنصيحته الخاصة القاضية بتجنب رقصات النصر والحذر من الغرق في بحر حماقة الاحتفالات. في الأول من أيار/ مايو، ارتدى طيار الحرس الوطني الجوي التكساسي السابق بدلة طيران وهبط على ظهر حاملة الطائرات يو. إس. إس. آبراهام لنكولن USS Abraham Lincoln، الراسية في البحر بالقرب من شواطئ سان دييغو. في خطاب موجه إلى الأمة من مَدْرَج ظهر حاملة الطائرات أعلن أن «العمليات القتالية الرئيسية في العراق قد انتهت.» وعلى الرغم من أنه كان، تقنياً، على صواب، ولم يغفل أن يحذر من «أن أمامنا عملاً صعباً لابد لنا من القيام به في العراق،» فقد كان ثمة، دون أدنى شك، خطاب انتصار. وفيما كان بوش يتحدث كانت لافتة كبيرة تزين خلفية الصورة بعبارة «المهمة منجزة!»

كان كاتب الخطاب قد أبرز جميع المحطات البلاغية والخطابية. قال الرئيس واقفاً على متن السفينة المشمس: «لقد سقط الطاغية، وأصبح العراق حراً. لقد

كانت «قضية نبيلة» و«خطوة أخلاقية ومعنوية كبرى إلى الأمام» قرنها بعمليتي الإنزال في النورماندي وإيوجيما، بحريات فرانكلن روزفلت الأربع، بمبدأ ترومان، بتحدي ريغان لإمبراطورية الشر، وبحربه الخاصة على الإرهاب التي بدأت في ٩/١١. «عبر صور التماثيل المتهاوية كنا شهوداً على ميلاد حقبة جديدة.» والحرب على الإرهاب لم يكن من شأنها أن تبقى لا نهائية. «لقد رأينا انقلاباً في اتجاه الموج.»

في أيار/ مايو ٢٠٠٣ جرى إبدال الجنرال غارنر بـ إل. پول «جيري» بريمر الثالث L.Paul ' Jerry' Bremer . رئيس سلطة التحالف المؤقتة، المكلف بالإشراف على إعادة بناء العراق وعملية الانتقال اللاحق إلى الديمقراطية.

بالنسبة إلى فريق بوش لم يكن ثمة وقت كثير لفيض المشاعر الفارغة التي كثيراً ما تتدفق في أعقاب اي فتح او اجتياح. ومع أن الحرب كانت، من نواح كثيرة، انتصاراً عسكرياً مدهشاً، فإن العواقب سرعان ما تحولت مسلسلاً متواصلاً من العنف واللا يقين.

كان فرانكس أول المستقيلين. عدد غير قليل من مرؤوسيه الجنرالات ومعهم آخرون رأوا أنه كان قد أفسد عمليات إشاعة الاستقرار. فمكتب إعادة البناء والمساعدات الإنسانية، برئاسة جي غارنر في البداية، لم يتم إلحاقه بفرانكس ووضعه تحت إدارته بل منح وضعية مكافئة. لم يكن فرانكس، رغم كل قواته وخبرته، مسؤولاً. لم يجادل أو يقاتل في هذا السبيل. «عندي حرب علي أن أخوضها» قال غير مرة. أعتقد بأنه كان قد أقحم كلاً من رمسفلد، وولفوفيتز، والجنرال ميرز في خطط ما بعد الحرب قدر استطاعته، محاججاً بأن أولئك لا يمكنهم أن يبقوا مكتفين بخدمة القضايا عن طريق الكلام المجرد. كان الجنرال فرانكس قد أكد أن العمليات القتالية الحاسمة كانت ستتم بسرعة فائقة، وأنهم كانوا بحاجة إلى أن

يركزوا اهتمامهم على العواقب، على ما بعد العمليات القتالية. إلا أن رمسفلد والآخرين كانوا قد ظلوا مشدودين إلى الحرب دون سواها.

حين انتهى القتال الرئيسي في أيار/ مايو، كان فرانكس مرهقاً وحصل على إجازة. أراد رمسفلد تعيينه رئيساً لأركان الجيش، في ترقية بالاسم فقط. إن القائد الميداني ملك وسلطان، ومن المؤكد أن فرانكس لم يكن راغباً في أن يصبح واحداً من حَمَلَة عنوان إكس X، من أولئك الفاعلين بأمهاتهم. تخلى عن قيادة القيادة المركزية (السنتكوم CENTCOM) في تموز/ يوليو وتقاعد من الجيش في آب/ أغسطس. قال لعدد من الأصدقاء إنه راكم مليوناً من الدولارات مقابل إلقاء المحاضرات خلال الأشهر القليلة التي أعقبت تقاعده، وقد تعاقد على كتابة مذكراته التي حصل على عدد آخر من ملايين الدولارات ثمناً لحقوق نشرها. أبلغ ناشريه أنه ليس لديه أي نقد يوجهه إلى رمسفلد، الذي كان رفيق سلاحه وصديقه. لم يكن ثمة أي احتمال أن يهاجم ولي نعمته ومعلمه الأول. فقد كان من شأن كتابه أن يبقى كتاب مذكرات جدياً، لا كتاب فضائح مثقلاً بالقيل والقال.



قضى پاول الأشهر التالية وهو في حالة دفاع أكثر من أي شيء آخر. على أولئك الذين رأوا أنه كان عليه أن يتحلى بقدر أكبر من القوة من معارضة الحرب، رد قائلاً إنه فعل أقصى ما استطاعه. وقال للأصحاب إنه لم يخدع أحداً. كان قد جادل بنجاح خلال شهري آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر ٢٠٠٢ لإقناع الرئيس باعتماد مسارين اثنين- مسار التخطيط للحرب ومسار إدارة العمل الدبلوماسي عبر الأمم المتحدة. ولم يتمكن الرئيس من السير في ذينك المسارين إلا في الفترة السابقة لبلوغه مفترقاً على الطريق، حيث تمثل أحد الخيارين بالحرب. «إنه الرئيس» قال للأصحاب «وقد قرر، فكان واجبي، إذن، أن أسير معه في الطريق الآخر.»

مع السير قدماً في عملية التخطيط للحرب على امتداد ما يقرب من ١٦ شهراً، كان پاول قد شعر بأن رمسفلد، البنتاغون، وفرانكس بدوا أقل قلقاً بشأن العواقب كلما بدت الحرب أسهل. بدا هؤلاء مقتنعين بأن العراق لم يكن إلا قَدَحاً من الكريستال يكفي طرقه لتهشيمه. غير أن العراق أثبت انه أكثر شبهاً بزق مصنوع من المعدن أو الجلد للجعة أو النبيذ. فليتعاملوا الآن مع زق الجعة!

حين زار العراق في خريف ٢٠٠٣، شاهد پاول المقابر الجماعية وسمع شهادات شهود عمليات التعذيب والقمع. سره أن يكون صدام ونظامه العفن قد رحلا إلى غير رجعة. يا لها من نعمة منقذة ومنعشة! من المؤكد أن قرار الحرب لم يكن خطأ ١٠٠ بالمئة. ولم يكن التاريخ، آخر المطاف، قد أصدر حكمه بَعْدُ حول ما إذا كان ذلك القرار صواباً أم خطأ.

مع مرور الزمن تزايد قلق آرميتاج. ظل يعتقد أن نظام صنع قرار السياسة الخارجية المفترض أن يتم تنسيقه من قبل رايس كان معطلاً أساساً. وذلك الخلل الوظيفي بقي مناسباً طوال بقائهما، پاول وآرميتاج، قادرين على تأجيل الحرب. غير أن تلك الجهود ما لبثت، آخر المطاف، أن أفلست. لاحقاً في ٢٠٠٣، كلما كان خطاب رئاسي أو قضية مع البيت الأبيض، ولاسيما فيما يخص الشرق الأوسط، كان يفضل أن يقول لپاول: «هلاّ قلت لهؤلاء أن يمارسوا الدعارة مع أنفسهم؟!».

تمثل رد پاول بمتابعة التصرف اللائق بجندي.

بعد انقضاء أشهر على الحرب، سألتْ رايس آرميتاج عن ضيقه البادي بوضوح شديد. أبلغها بصراحة أن نظام مجلس الأمن القومي كان مصاباً بخلل وظيفي، مشلولاً، وأن لجنة النواب لم تكن تضطلع بتحمل أعباء مسؤوليتها. لم يكن التخطيط للسياسة يحظى بما يكفي من التنسيق، من النقاش والبحث، وصولاً آخر المطاف إلى

الإقرار. كان لابد لها من أن تتحلى بصفات مقاتل جريء، ومواظب وعنيد حتى تصبح مستشارة أمن قومي قوية قادرة على فرض نظام الانضباط.

ردت رايس قائلة إنها كانت تتعامل مع أوزان ثقيلة حقاً، مع أشخاص من ذوي العبارات الثقيلة، كما كان آرميتاج يعلم جيداً. فتشيني، باول، ورمسفلد لم يكونوا بنفسجات خجولة، وكان الرئيس يريد الاطمئنان إلى تمكين كل منهم من الإدلاء بدلوه.

أوائل تشرين الأول/ أكتوبر، أضفى الرئيس سلطة ومسؤولية جديدتين على رايس حين كلفها بتنسيق المهمة الجسيمة والخطيرة المتمثلة بإشاعة الاستقرار في العراق وإعادة بنائه.

في ١٢ تشرين الأول/ أكتوبر، نشرت الواشنطن بوست مادة صفحة أولى طويلة تحت عنوان: «رايس تخفق في رأب الصدوع، يقول الرسميون؛ منافسات الچلبي تعقّد دورها.» جاءت المادة، وهي بقلم غلن كَسْلر Glenn Kessler وبيتر سلفن Pe-ter Selvin، مراسلَيْ الجريدة الرئيسيَّيْن في وزارة الخارجية، عاكسة لنقد آرميتاج بدقة، رغم أن أحداً من رسميي الإدارة الحاليين، بمن فيهم آرميتاج لم يجر الاستشهاد برأيه، بالاسم.

عَبَّرَتْ رايس عن انزعاجها لپاول الذي لم يتردد في الدفاع عن نائبه، قائلاً: «لا تستطيعين لوم ريتش (يعني ريتشارد آرميتاج)، فقد سبق له أن أبدى الجراة اللازمة حين بادرك بالكلام عن هذا الموضوع على نحو مباشر، ولذا فأنا لا أعتقد انه هو المصدر.» ماكان آرميتاج قد قاله عكس شعوراً عاماً سائداً في واشنطن وفي أجواء مؤسسة السياسة الخارجية، أكد پاول. «لسنا متلاحمين كما لسنا على ما يرام فيما يخص هذه الأمور. أاحبت ذلك أم لا، فإن تلك وجهة نظر تتردد أصداؤها في المدينة

كلها. يؤسفني أن أقول إن السبب الكامن وراء حدوث هذا كله يعود أساساً إلى مجلس الأمن القومي.» ظل پاول يعتقد أن رايس لم تكن مهتمة بتصويب الأخطاء بمقدار ما كانت حريصة على الاهتداء إلى شخص تلومه على نشر تلك الأخطاء للملأ.



بقي تشيني بعبعاً بنظر پاول. وفي اجتماعات كبار المسؤولين (المسؤولين الأول) كان تشيني، برأي پاول، يستفيد من نهجه القائم على عدم الكشف عن موقفه عبر الإصرار على إما عدم امتلاكه لأي موقف أو قدرته على تغيير رأيه في ٣٠ دقيقة. أخيراً نجح پاول في حل لغز هذا النهج. استنتج أن عليه أن يصغي باهتمام لأن إنكارات تشيني كانت لا تلبث عموماً أن تتكشف عن حقيقة كونها مواقف لم يكن تشيني مستعداً لتغيير رأيه بشأنها.

باتت العلاقات شديدة التوتر إلى درجة أن پاول وتشيني لم يستطيعا ولم يحاولا تناول طعام الغداء على مائدة واحدة أو إجراء أي مناقشة لخلافاتهما. بالمطلق.

رأى پاول أن بوش والإدارة كانا، بعد أن باتا مضطرين للتعايش مع العواقب المترتبة على قراراتهما بشأن العراق، يزيدان اتصافاً بنزعة الحماية الخطرة لتلك القرارات. لم يكن أحد في البيت الأبيض قادراً على الاختراق وصولاً إلى الإصرار على إجراء إعادة تقويم واقعية. ثمة كانت كارين هيوز التي كانت تستطيع أن تذهب إلى بوش لتقول له: « انتبه، أنت في ورطة!» بات پاول مقتنعاً بأن أصعب المهمات هي العودة إلى الجذور، إلى الأسس، ومساءلة حكمك أنت بالذات، ولم يكن ثمة ما يشير إلى أن ذلك سوف يحصل. لذا فقد قرر مرة أخرى أن يكون جندياً يمشي بعكس التيار.

◆ ◆ ◆

بقي رمسفلد المدير الشامل، المحقق المضني، تكنوقراط الدفاع الذي كان قد زود الرئيس بخطة الهجوم. اعتبرها تشيني «إدارة» رمسفلد «المخترقة لبؤبؤ العين». إن پاول الذي لاحظ نوعاً من الحمى في تشيني، لم يتحر قط شيئاً من ذلك لدى رمسفلد. لو كان بوش قد قرر الا يخوض الحرب لسارع كل من تشيني، وولفوفيتز، وفايث، حسب قناعة پاول الراسخة، إلى فرك الأيدي امتثالاً بل وحتى إلى البدء بكيل المديح للموقف الجديد المعاكس ١٠٠ بالمئة. أما رمسفلد فلم يكن قط من ذلك النوع من الرجال.

كذلك استطاع فرانكس أن يقف على حقيقة اندفاع رمسفلد غير أنه تحرى ايضاً نوعاً من العزوف إذ بدا أحياناً كما لو كان خارج الغرفة ينظر عبر النافذة.

كثيراً ما كان يقول: «من المؤكد بحق السماء أن أحداً يملك ذرة من العقل لا يمكن أن يرغب في الصراع.»

«هل أوصيت بالذهاب إلى الحرب؟»

فكر قليلاً ثم قال: «إنه سؤال مثير ومهم. ليس هناك في عقل أي شخص أي شك حول انني كنت موافقاً على مقاربة الرئيس وقراره. ولا أتذكر قط أي لحظة رسمية سألني فيها عما إذا كنت مؤمناً بوجوب ذهابه إلى الحرب.»

وفيما بعد أقر الرئيس بأنه لم يكن قد طرح على رمسفلد مثل هذا السؤال.

إلا أن رمسفلد قال إن الرئيس سأل فعلاً أسئلة مفتاحية أخرى متناسبة مع تحديده هو لمنصبه الوزاري.» أستطيع أن أتذكر أنه سألني: «هل أنت واثق بالجنرال فرانكس؟ هل أنت مطمئن إلى خطة الحرب؟ هل أنت، إذن، على ثقة بصواب هذه الأمور التفصيلية؟» وهذا كله كان يدغدغ مشاعر أستاذ تقنيات الحرب: رمسفلد. «تعين عليه أن يشكل قناعة بأن هذه المؤسسة التي هي مؤسسته- أداة الوطن- أن يعاين هذه الأمور بعمق وإمعان.» وبعد ذلك كان يتعين على الرئيس أن يقرر: هذا

يترك له الحبل على الغارب، وذاك يربطه برسن أقصر، أكد رمسفلد «كان يؤدي وظيفته مثل إداري ممتاز واستثنائي على هذا الصعيد.» لم يكن مدير جزيئات تفصيلية. «يتحلّى هذا الرئيس بالكثير من صفات ومميزات رونالد ريغان الذي كان ينظر إلى الأفق البعيد ويغرس علماً هناك ثم يبدأ بتوجيه الأنظار إلى ذلك العلم.»

ولكون عبء قرار شن أي حرب استباقية عبئاً ثقيلاً جداً، فقد سألته عما إذا كان الرئيس قد ناقش معه هذا الموضوع.

«لا!» قال رمسفلد.

«هل كان ثمة أي....؟»

«لا! بالمطلق» قال رمسفلد. «إنه أستاذ في الاضطلاع بمسؤولياته.» لم يكن الرئيس يبالي بقرارات الموت لأنه كان قد وظف الوقت إلى الحدود القصوى لمعاينة وتحديد ما كان يريده ولماذا، قال رمسفلد. ثم أضاف أن شخصاً لم يفعل ذلك «يميل إلى عدم الاطمئنان إلى القرارات، وقابلاً للطيران مع الريح - مسوقاً بالرياح مستعداً لتغيير رأيه، غارقاً في بحر من القلق والعذاب. إن قلقه واستثماره كانا قبل الحدث لا بعده.»



أدرك تيم، رئيس قاعدة وكالة الاستخبارات المركزية في شمال العراق، أنه كان قد عاش حلم كل ضابط عمليات ميداني. كان هناك طليقاً دونما رقيب - لا وزارة خارجية، لا جيش، لا شي- فقط هو بشخصه والمال.

في ٢٤ آذار/ مارس، ٢٠٠٣، بعد بدء الحرب بخمسة أيام، شق تيم طريقه إلى مزرعة الدرة. كان المكان قد تعرض للتنظيف نهباً. بدا كما لو كان حشد مخلفات سوق أشياء مستعملة، وكان الناس مستمرين في شحن المواد. كانت ثمة حفر قذائف

ومن الواضح أن المكان قد تعرض للهجوم. بحث في كل مكان. لم يكن هناك أي شيء يشير إلى وجود ملجأ. اهتدى إلى نوع من القبو لتخزين المواد الغذائية ملتصق بالمنزل الرئيسي. ربما كان ذلك القبو هو ما دأب عناصر الروكستار على الإشارة إليه. كان الأمر محيراً، أشبه باللغز. ألم يكن المنزول ملاذاً أو ملجأ بل مجرد قبو؟

فيما بعد تعقب تيم آثار بعض عملاء شبكة الروكستار الذين كانوا قد بعثوا بتقاريرهم في تلك الليلة. اثنان قالا إن زوجيهما اعتقلتا من قبل عملاء صدام وعُذبتا بقلع الأظافر. زعم ثالث أن بيته سُوي بالأرض بالبلدوزر. ثمة كانت أدلة معينة مؤيدة لهذه المزاعم، غير أن تيم بقي في حالة من الشك.

سرعان ما تمت إعادة تعيين تيم في مقر قيادة وكالة الاستخبارات المركزية للانشغال سراً بقضايا أخرى. طلب منه شاؤول ورؤساء آخرون أن يبادر هو وفريقه إلى وصف تسلسل أحداث نهار وليل ١٩-٢٠ آذار/ مارس، ٢٠٠٣. كانوا يريدون حزمة وجيزة جداً ونقية إلى أبعد الحدود. وكلما غاص تيم أعمق في ذاكرته وفي الوثائق القليلة، زاد اقتناعاً بأن أشياء كثيرة كانت ضبابية، غامضة. كان الجميع متوترين، مضغوطين. عناصر شبكة الروكستار الميدانيون كانوا راغبين في الإرضاء، ومن الواضح أنهم ظلوا دائمي القلق والخوف من التعرض للاعتقال أو القتل.

بذل تيم سلسلة من المحاولات لكتابة ما كان قد حدث بطريقة ذات معنى. جرب إحدى الطبعات. هل قدم ٤٠ بالمئة من الصورة؟ أم ٦٢ بالمئة؟ أم ٨٣ ؟ راح يتساءل. ما النسبة المئوية المتوفرة من الحقيقة؟ ما الأشياء التي انزلقت وضاعت؟ ما الأشياء التي لم تكن صحيحة؟ بذل عدداً آخر من المحاولات. لم تكن الصورة أبيض وأسود، كما لم يكن الخط مستقيماً بكل تأكيد. هل كان يقترب من الحقيقة أم يبتعد عنها؟ لم ينتج قط طبعة نهائية، ناجزة. بقي السؤال المعلق الأكبر دونما جواب متمثلاً بـ: هل كان صدام وحاشيته موجودين هناك في تلك الليلة؟

في ٢ تشرين الأول، ٢٠٠٣، قدم ديفد كي David Kay، خبير الأسلحة الذي اختاره تنت شخصياً والذي أشرف على عمل فريق المسح العراقي المؤلف من ١٤٠٠ عنصر، تقريراً علنياً أولياً عن الأشهر الثلاثة الأولى من بحث الفريق عن أسلحة الدمار الشامل داخل العراق، أقر كي بأن الفريق كان قد حقق «تقدماً ملحوظاً: غير أن التدمير الانتقائي للأقراص الكمبيوترية الصلبة والوثائق عرقلت العمل. صحيح أن كي قدم مرافعة قوية تؤكد انتهاك العراق لقرارات الأمم المتحدة بأساليب لم تكتشف قبل الحرب، إلا أن العنوان بقي متمثلاً بتصريحه الذي أعلن فيه: «لم نتمكن من العثور على أي مخزونات أسلحة».



كانت رايس سائرة على طرق الإيمان أكثر فأكثر بأهمية النتائج طويلة الأمد شعرت بأهمية التحلي بالصبر فيما يخص النتيجة في العراق، ليس فقط بالنسبة إلى أسلحة الدمار الشامل بل وفيما يخص أي تسوية سياسية. من شأن ذلك أن يأتي متأخراً بعض الشيء. وجدت شيئاً من الراحة في حقيقة اتصاف الرئيس بالحزم والثبات وميله إلى التفكير بالمدى الطويل. ففي زيارته لليابان في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٣ كان بوش قد قال لرئيس الوزراء يونيتشيرو كوازومي Junichi-ro Koizumi: «لو لم نتصرف بشكل صحيح في ١٩٤٥ مبادرين إلى المساعدة على بناء يابان مزدهرة ديمقراطياً، لما أمكن لحوارنا - لهذا الحوار بين رئيس وزراء ياباني ورئيس جمهورية أمريكي - أن يجري على الإطلاق، سيأتي يوم يجلس فيه رئيس للعراق ورئيس الولايات المتحدة حول طاولة واحدة ساعيَيْن لحل هذه المشكلة أو تلك، وسيقولان إنهما سعيدان لأننا نجحنا في خلق عراق ديمقراطي ومزدهر.

◆ ◆ ◆

تواصلت أعمال العنف والعصيان داخل العراق، وسقط المئات من الجنود الأمريكيين والمواطنيين العراقيين قتلى.

لقائي الأول مع الرئيس بوش تمهيداً لهذا الكتاب جرى عصر يوم الأربعاء الواقع في ١٠ كانون الأول ٢٠٠٣، بمكتب الرئيس في مقر الإقامة بالبيت الأبيض لمدة زادت على ساعة ونصف الساعة؛ وكان لقاؤنا الثاني عصر اليوم التالي في المكتب البيضوي ولمدة زادت على ساعتين كاملتين. كل من رايس وبارتلت كانا حاضرين في أثناء المقابلتين.

كنت قد أعددت تسلسلاً تاريخياً مؤلفاً من ٢١ صفحة أوردت فيه عدداً من الاجتماعات المحددة، محطات اتخاذ القرار، أو نقاط الانعطاف التي أردت السؤال عنها. قال الرئيس إنه قد أتيحت له فرصة مراجعة بعض سجلاته قبل الكلام. تمثلت بؤرة تركيز أسئلتي على قرار الذهاب إلى الحرب، وقد انعكست أجوبته وذكرياته التفصيلية حول جملة معينة من الأحداث والمنعطفات كاملة في الرواية. ثمة أسئلة وأجوبة أعم تُركت لهذا الفصل الختامي من الكتاب.

أمضينا بعض الوقت ونحن نناقش شخصية نائب الرئيس تشيني. إضافة إلى القول إنه لم يكن يعتقد أن نائب الرئيس كان محموماً فيما يخص القاعدة أو العراق، أقر الرئيس بما يلي: «لا يريد أن يظهر بمظهر بطل أو شرير، يريد أن يُرى نائباً وفياً لرئيس الجمهورية. وهو كذلك حقاً. غير أن لديه، كما تعلم، آراء خاصة، والناس يثمّنون آراءه عالياً لأن ديك هو من النوع الذي لا يكثر من الكلام بالضرورة، ولكنه حين يفعل ويتكلم، فإنه يترك انطباعاً بأنه شخص عميق التفكير راجح العقل.»

قلت إن تشيني برز على المسرح كما لو كان نسخة عن هوارد هيوز Haward Hugles، ذلك الرجل المتنسك القابع وراء الكواليس والرافض للإجابة عن الأسئلة.

«ذلك هو ما قلتُه له»، قال بوش، ألمح إلى أن على تشيني أن يخرج إلى الناس، وأن يجري مزيداً من اللقاءات والمقابلات، إن التزام الصمت، قال بوش، «ينطوي على خطر الظهور إما أقوى بكثير مما أنت أو أضعف بكثير مما أنت. والمظهران كلاهما زائف.»

أفاد الرئيس بأن الأسئلة التفصيلية: «ترعبه» و«تطير الصواب من رأسه» ثم أضاف أن نزوع نائب الرئيس إلى اللف والدوران مثير للإعجاب. «لعل ذلك هو سبب حبي لتشيني» وفيما بعد أضاف «يموت تشيني جزعاً» من أي انطباعات زائفة قد تتشكل جراء مواد منتزعة من سياقها أو مورَّمة «يمقت تشيني أن يبقى محصوراً بين اي مرفقين (كوعين) حادّين».

تابع بوش كلامه قائلاً: «أنا أعرف تشيني جيداً، وهو، بالمناسبة، نائب رئيس جيد جداً».

«يريد أن يبقى مغفل الاسم من ذلك المنظور وعليه أن يفعل، من جهة أخرى إنه جبل حقيقي. أعني أنه صامد وثابت في موقفه من أن صدّاماً كان يشكل تهديداً لأمريكا وتعين علينا أن نتعامل معه.»

أضاف: «يرى هذا الكتاب صادراً عشية انتخابات، وهو على صواب مرة أخرى أن يشعر بالقلق، ولأكن صريحاً معك!»

انتقلنا إلى مسألة الشكوك. اقتبست ما كان توني بلير قد قاله مؤخراً في مؤتمر حزبه السنوي: «أنا لا استخف إطلاقاً بأي شخص يختلف معي.» كان بلير قد قال أيضاً إنه كان قد تلقى رسائل من أولئك الذين فقدوا أبناءهم في الحرب ممن كتبوا أنهم يكرهونه على ما قد فعله، اقتبست من بلير: «لا تصدقوا أحداً يقول لكم إنه لا يعاني من أي شك حين يتلقى رسائل كهذه.»

«غير صحيح!» رد الرئيس بوش: «أنا لم أعان من أي شك.»

«معقول؟» سألت «بالمطلق؟»

«لا. وأنا قادر على البوح بذلك أمام الناس.» وموجهاً كلامه إلى أولئك الذين فقدوا أبناءهم وبناتهم، قال: «آمل أن أكون قادراً على مثل هذا البوح بطريقة متواضعة.»

سألت عن أبيه على هذا الصعيد: «هو ذا الشخص الحي ا لوحيد الذي شغل هذا المنصب وتعين عليه أن يتخذ قراراً يقضي بالذهاب إلى الحرب. من غير المعقول ألا تكون قد سألته في هذا المنعطف أو ذاك عن مكونات القيام بالمهمة على نحو سليم، أو عن رأيه فيما تواجهه.»

«إذا كان من غير المحتمل أن يبدو الامر مقنعاً» رد بوش «فمن الأفضل أن (أخبرك) لك جواباً ما.»

«لا، أرجوك، لا!» قلت «إنني ألح وأكون صريحاً لأن...».

«لا،لا!» رد الرئيس: «يتعين عليك ألا تفعل، اسمع، أنا أتحدث معه بالطبع، أكلمه من وقت إلى آخر، إلا أنني لا أستطيع أن أتذكر لحظة قال فيها: (لا تفعل هذا!) أو (افعل هذا!)، لا أستطيع أن أتذكر لحظة قلت فيها لنفسي: «ربما يستطيع مساعدتي على اتخاذ القرار!، لأن هذا القرار، كما تعلم، ليس تهديداً مفاجئاً تعرضت الكويت له، وهات يا ضرب! بوم! إن هذا جزء من التزام أكبر بات مفروضاً مع الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، ٢٠٠١، إنه جزء من حرب أكبر ومن نوعية مختلفة، لعله أشبه بجبهة عريضة!»

هل قلت له: «بابا، كيف السبيل إلى القيام بهذا العمل على نحو صحيح؟ ما الذي يتعين علي أن أفكر به؟»

«لا أظن أنني فعلت»، رد بوش.

«هل دار بينكما نقاش حول الموضوع؟»

«أنا أثق - من المؤكد أننا تناقشنا. أحاول أن أتذكر. إنه تاريخ لا يُصدق أن أباً وابنه يخوضان حرباً في الساحة نفسها. لم يسبق لمثل هذا الأمر أن حدث من قبل. ربما حدث، لا لم يحدث. ثمة الآدمان بالطبع» ابن جون آدمز John Adams، الرئيس الثاني، كان هو جون كوينسي آدمز John Quncy Adams، الرئيس السادس. «ولكن جون كيو. لم يعد إلى الحرب قط. إنها حرب مختلفة، انظر، إنها حرب من نوع آخر.

«لا أحاول التملص. لا أتذكر، يمكنني أن أسأله لأرى ما إذا كان قد يتذكر شيئاً. ولكن كيف نسأل شخصاً: (ما شعورك إزاء طلبك من شخص أن ينخرط في شيء قد يكلفه حياته؟) تذكر، لقد سبق لي أن فعلت، في المرة الأولى، في أفغانستان.

«من شأن المناقشات أن تركز أكثر على التكتيكات، كيف تسير أمورنا نحن؟ كيف هي علاقتنا مع البريطانيين؟ إنه يتابع الأخبار الآن، وهكذا فأنا أقدم له تقريراً موجزاً عما أراه، أعلم أنه ليس ذلك الأب المناسب لمناشدته على صعيد القوة. ثمة أب أعلى أناشده وأتوسل إليه.»

أقر الرئيس بأن اللحظة كان من شأنها أن تكون «مدهشة» في التاريخ. «غير أنني لا أخفيك سراً. فقط لا أستطيع أن أتذكر لحظة واخزة. أنا واثق من أنها حصلت، ربما كان سيقول: «اسمع يا ولدي! يجب أن يكون هذا عبئاً ثقيلاً جداً على كاهلك. أريد فقط أن تعلم أننا نحبك ولا أزيد!» قال بوش إن أباه حاول، دون شك، أن يطمئن. «كان الأمر أقل، (هاك الطريقة التي يتعين عليك أن تتبعها في الاهتمام بالأخ)، وأكثر (لقد مررت بما مررتَ به أنت، وأعرف ما هو حاصل، وبالتالي فأنا أحبك)، قد يكون أسلوباً أكثر دقة لوصف العملية.»

ذكرت أن واحداً من رؤسائي في الواشنطن بوست كان قد اقترح سؤالاً صعباً عن أسلحة الدمار الشامل. «هل كان الرئيس ضحية تضليل ما....؟»

«لا!» قال الرئيس.

«تضليل من جانب الاستخبارات أو قام هو بتضليل البلد؟»

«لا!» قال الرئيس. « إن الجواب هو «لا» على نحو مطلق وقاطع.

«ما الذي حصل؟»

«ماذا تقصد بما الذي حصل؟»

على صعيد أسلحة الدمار الشامل وقصة «الضربة الناجحة» التي كان تنت قد وعد بها.

لو كانت الأعداد الكبيرة من انتهاكات قرارات الأمم المتحدة التي أوردها ديفد كي في تشرين الأول/ أكتوبر، ٢٠٠٣ معروفة قبل الحرب، لكانت، برأي الرئيس، قد شكلت خرقاً مادياً ووفرت سبباً للحرب. «غير أنني أعتقد أن استيعاب كامل التاريخ بعمق وشمول ما زال يتطلب بعض الوقت.» كانت المعلومات الاستخباراتية على درجة من القوة تكفي لتمكين الأمم المتحدة من اعتماد سلسلة من القرارات وعلى «درجة من القوة تكفي» لتمكين الرئيس السابق بل كلنتون من اتخاذ قرار بضرب العراق في ١٩٩٨ حيث تم إطلاق ٦٥٠ طلقة قاذفة أو صارخ.

قلت: «ولكننا لم نعثر بعد على أي أسلحة دمار شامل.»

رد بوش: «عثرنا على برامج أسلحة قابلة لإعادة التشكيل.»

قلت: «قابلة، أوافق!».

أفاد بوش بأن سلاحاً فعلياً يمكن بناؤه بسرعة كبيرة. «وهكذا، وبسبب ذلك،

ونظراً لأنه، حتى لو كان ما لديك هو الحد الأدنى، فكيف تستطيع الا تبادر إلى اتخاذ تدبير عملي ضد صدام حسين؟ ذلك هو جوابي.»

قلت إنه كان بعد ٩/١١ «صوتَ الواقعية» إذ صارح البلد بعد الهجوم الكارثي مؤكداً ان من شأن الحرب أن تكون حرباً طويلة وصعبة. ومن أسفاري، اكتشفت، قلت له، أن كثيرين، بمن فيهم مؤيدوه هو، باتوا يقولون إنه لم يعد صوتاً للواقعية بالدرجة ذاتها لإخفاقه في الإقرار والاعتراف بأن أي أسلحة دمار شامل لم يتم العثور عليها.

«انا لا اريد الناس ان يقولوا: (انظر الآن، الم نقل لك؟) اريد من الناس ان يعرفوا أن هناك عملية جارية على قدم وساق» قال بوش، ثم اضاف ان شخصاً واحداً لم يقترح عليه أن يقدم مثل هذا الاعتراف. «غير أنك تعيش في أجواء مختلفة عن الأجواء التي اعيش انا فيها. اجواء نخبوية أكثر بكثير.»

قلت: «بل هي في الحقيقة أوساط مجموعات كبيرة من رجال الأعمال.»

علق الرئيس: «لعل الواقعية هي القدرة على فهم طبيعة صدام حسين، تاريخه، أذاه المحتمل لأمريكا.»

قلت إنني كنت أحاول أن أتناول الحقيقة البسيطة المتمثلة بعدم العثور على أسلحة الدمار الشامل: «لم نعثر على أي حَمَّامات فوارة.»

ضحك :

«غير أن تقرير الوضع عن الأشهر أو الستة أو السبعة الأخيرة يقول إننا لم نعثر على اي أسلحة. ذلك هو كل شيء.»

«صحيح وألف صحيح» قال الرئيس. رغم أنه تم العثور على ما يكفي: «إن الشخص الذي يريد من الرئيس أن يقف ويعلن ذلك النبأ هو نفسه الشخص الذي

يمكن أن يقول: (كان يجب الا تفعلوا ذلك) ليس ثمة أي شك في ذهني حول وجوب الإقدام على هذا، ليس فقط من أجلنا نحن، بل ومن أجل خدمة مصلحة المواطنين العراقيين.» ثم قال إن تقرير كي الأولي تضمن تسويغاً كافياً لاعتبار صدام خطراً. «ربما أبدو دفاعياً على نحو غير معقول بصورة مفاجئة»، أضاف ببرود. إن الإخفاق في العثور على «المرجل في حالة الغليان» لم يجعل صدّاماً «مخلوقاً اليفاً.»

قلت إنني كنت أسأل هذه الأسئلة لرغبتي في تسليط الضوء على رأيه حول وضع عملية البحث عن أسلحة الدمار الشامل في هذا الكتاب.

سأل بوش: «وما الذي يحيجك إلى معالجة هذه المسألة في الكتاب؟ ما علاقة الأمر؟»

قلت إن من واجبي تغطية ما امتخضت عنه الحرب من عواقب، كانت هذه المسألة مفتاحية.

أفاد الرئيس بأنه كان راغباً في عدم نشر اعترافه بعدم العثور على أي أسلحة دمار شامل حتى اللحظة في الواشنطن پوست إلى ما بعد صدور الكتاب. «بعبارة أخرى، لن اقرأ عنواناً يقول: «لا أسلحة يقول بوش.»

وعدت بأنه لن يفعل، على الرغم من أنه كان هو نفسه سيبوح عملياً بذلك الاعتراف بعد أقل من شهرين، قائلاً في برنامج لقاء مع الصحافة على شاشة الإن. بي. سي NBC في ٨ شباط/ فبراير: «توقعت وجود مخزونات من الأسلحة، ظننا أنه كان يملك أسلحة» هل شعر بوجود أي خطأ في الحساب حول الوقت الذي كان من شأن إشاعة الاستقرار والأمن في العراق أن يتطلبه من وقت بعد الحرب؟

«لا» قال بوش «كنت مهياً لعملية تغيير طويلة الأمد». ثمة أشياء إيجابية كثيرة قد حصلت، قال الرئيس، ثم أضاف أن حقول النفط العراقية تمت حمايتها بنجاح،

جرى تجنب وقوع أي مجاعة جماعية، وتم اعتماد عملة جديدة، وهذا بحد ذاته «إنجاز ذو شأن». والقضايا الكبرى التي اعتقدنا بأن من المحتمل أن نواجهها لم تحصل ببساطة.»

أما العنف فكان، حسب زعمه، محصوراً بأكثره في ٥ إلى ١٠ بالمئة من العراق. «إنه خطر لأن أعداداً كافية من الأوغاد والسراق والقتلة ما زالت موجودة وهي قادرة على الإزعاج ... إن المسألة ما زالت صعبة. ثمة لا تزال خسائر في الأرواح.» أفاد بأنه متفائل بشأن المستقبل. «إنها مسألة وقت فقط. إنها مسألة مجتمع في طور التطور. إنها مسألة سيادة في حالة تطور» إلى أن يعاد الحكم إلى الشعب العراقي. قال بوش إن التحرير كان «تغييراً لذهنية.» لن يلبث العراقيون أن يحتلوا «مكانهم على الجبهة الأمامية للعمل الشُّرْطي» وأن يصبحوا الأشخاص المضطلعين بمهام مطاردة القتلة، جنباً إلى جنب مع القوات المسلحة العراقية. شكا من أن أشياء إيجابية معينة في العراق لم تكن تحظى بالتغطية في وسائل الإعلام الأمريكية.

«ما يهم هو انبثاق مجتمع حر يكون فيه الناس واثقين من أن حياتهم باتت أفضل، ومن أنهم قادرون على الإمساك باللحظة مع تصميمهم على السير قدماً.» ثم أضاف ملخصاً ما قيل في ختام المقابلة الأولى عن الحرب وما أفرزته من عواقب: «إنها قصة القرن الـ ٢١.»

تابع الكلام عن زيارته القصيرة للعراق قبل أسبوعين قائلاً: «وحين ذهبت إلى هناك في عيد الشكر، إنما ذهبت لأشكر الجنود، غير أنني ذهبت أيضاً لأقول للشعب العراقي: «انتهزوا الفرصة، إنه بلدكم!» خلال حكم ذاتي انتقالي ناجح سيكون التركيز على حقوق الأقلية لتلك الجماعات والعشائر غير الشيعية، مع «فهم واضح لضرورة الحيلولة دون طغيان نزعات الانتقام والتناحر.»

عبـر الرئيس عن إيمانه بأن من شأن السجلات أن تكشف عن أنه مع كل من رمسفلد، فرانكس، وآخرين من القادة العسكريين قد اجترحوا خطة حربية حريصة على استهداف صدام، القيادة البعثية، والحلقة الداخلية، مع ما كان يمكّن هذه الأطراف من الحفاظ على السلطة. جرى توجيه سهام الحرب إلى أولئك وإلى ذلك الجهاز بالتحديد - إلى الجيش، جهاز الأمن، البوليس السري. أما العراقيون العاديون فقد تم إبداء الحرص على تجنيبهم الأذى قدر الإمكان. من شأن ما حصل أن يشكل نموذجاً ذا أهمية تاريخية، نموذجاً: سوف يمكّن قادة آخرين، إذا ما وجدوا أنفسهم مدفوعين إلى خوض الحرب، من الحفاظ على المواطنين الأبرياء وعلى أرواحهم.»

كانت رواية تلك القصة أحد الأسباب الرئيسية التي دفعت الرئيس، حسب كلامه، إلى الموافقة على الحديث بعمق عن الحرب، والتي جعلته يرغب في أن يرد رمسفلد، وآخرون من الإدارة على أسئلتي. قال الرئيس: «غير أن الحدث في هذا، حسب ما أرى، أعني الحدث الكبير المرتبط بالأمر ليس هو واقع أن جورج دبليو بوش يتخذ القرارات. إن الحدث الكبير بنظري أنا هو أن أمريكا غيرت كيف تخوض حرباً وتكسبها، مما مكّنها من جعل الحفاظ على السلم أكثر سهولة على المدى الطويل. وذلك هو المغزى التاريجي لهذا الكتاب حسب ما أرى.»

ذكّرني الرئيس بأنه يحتفظ هناك في مكتبه الخاص بقطعة آجر جَلَبتْها وحدةُ القيادة الخاصة التي نفذت الغارة العسكرية الأمركية الأولى في داخل أفغانستان بعد ٩/١١. كانت من مجمع الزعيم الطالباني الملا عُمر Mallah Omer. قال بوش إن قطعة الآجر كانت لتذكيره بأن من المحتمل تعرض جنود من الجيش الأمريكي لخطر الموت فور النزول على الأرض وإصدار الأمر بالاشتباك البري المباشر. «إذا أطلقت صواريخ التوماهوك من الغواصات، فإنك لا تعرض حياة أي جندي للخطر» قال بوش.

• لا بد لأي رئيس من أن يكون مقدوداً من الفولاذ ليتمكن من التعامل مع الإصابات المحتم وقوعها في ظل أي استراتيجية هادفة إلى كسب الحرب» قال بوش. «وأنا أعني أن هناك موتاً، وخصوصاً إذا كنت مستهدفاً تحرير أمة كاملة من البشر. سيكون هناك موت.» في العراق، مع نحو ٢٠٠,٠٠٠ جندي أمريكي على الأرض، عرفت، قال الرئيس، «أن إصابات ستقع، وقطعة الآجر تلك تذكرني بذلك.»

بعد يومين اثنين، في ١٢ كانون الأول/ديسمبر نجح الجيش الأمريكي في إلقاء القبض على صدام حسين، طويل اللحية مشوشاً بوضوح، إذ تم استخراجه من حفرة قريبة من أحد البيوت الريفية خارج تكريت. في اليوم التالي، يوم الأحد، وجه الرئيس خطاباً إلى الأمة، قال بوش: «إن اعتقال هذا الإنسان كان حاسماً لانبثاق عراق حر. إنها علامة نهاية الطريقة بالنسبة إليه كما بالنسبة إلى أولئك الذين روّعوا الناس وقتلوهم باسمه.» ثم أضاف: «ثمة حقبة مظلمة ملأى بالألم قد ولّت إلى غير رجعة.» غير أنه حذّر من «أن اعتقال صدام حسين لم يكن ليعني نهاية العنف في العراق.»

كان الإخفاق في العثور على أسلحة الدمار الشامل وظاهرتا العنف وعدم الاستقرار المتواصلتان داخل العراق – حقيقة أن الحرب لم تكن قد انتهت فعلاً – يجعل حتى أكثر المؤمنين صدقاً، بمن فيهم وولفوفيتز الذي ظل على امتداد سنوات طويلة داعية مشهوراً ونصيراً ملحاً للإطاحة بصدام، يعدون إلى العشرة.

ما لبث وولفوفيتز هذا أن وجد نفسه متسائلاً مرة بعد أخرى عما إذا كانت الحرب جديرة بأن تخاض، برز السؤال بروزاً مؤلماً جداً في جنازة لفتنانت كولونيل الجيش تشاد بوهرنغ Chad Buehring، الذي كان قد قتل في الطبقة الواقعة تحت طبقة وولفوفيتز حين تعرض فندقه ببغداد للهجوم أوخر ٢٠٠٣، وخلال المرات التي تزيد على العشر التي زار فيها جرحى في مستشفيات عسكرية. حاول وولفوفيتز أن

يعبر عن امتنانه وتقديره لشجاعتهم وتضحيتهم. فقصص أولئك الذين قُتلوا وجرحوا سلطت الأضواء على أن الثمن الحقيقي للحرب كان يتوزع عشوائياً.

غير أن وولفوفيتز بقي، رغم كربه الشديد إزاء أعمال العنف المتواصلة، قوي التمسك بالإيمان بأن الحرب كانت مسوّغة وجديرة وأن القرار كان فعل شجاعة شخصية من جانب الرئيس. فبعد ٩/١١ كان قد بات مقتنعاً بأن الإرهاب لم يعد شراً قابلاً للإدارة، كان لا بد من الانقضاض على كل من شبكاته العالمية المتقاطعة والمتداخلة من جهة ومجموعة الدول التي ترعاه من جهة ثانية. ولطالما كان نظام صدام قد استحق الإسقاط والإحاطة، إلا أن إزاحته باتت بعد ٩/١١ منطوية على أهمية تكفي للمخاطرة بأرواح أمريكيين على نحو مباشر.

قام وولفوفيتز بزيارة العراق ثلاث مرات في الأشهر التسعة التي أعقبت العمليات القتالية الكبيرة ولمس قدراً من الدأب والتحلي بروح أداء الرسالة كاد يقطع أنفاسه. ثمة كولونيل قال لمرؤوسيه إن ما كانوا قد أنجزوه كان يوازي ما كان أجدادهم قد أنجزوه في ألمانيا واليابان، أو آباؤهم في كوريا، بنظر وولفوفيتز كان حزب صدام البعثي تنظيماً شبه نازي مؤلف من عصابات قطاع الطرق والساديين. وإزاحة هذا الحزب عن السلطة كانت تعني ليس فقط إبعاد الخطر عن الولايات المتحدة بل وبوابة مفضية إلى عالم أفضل.

رأى وولفوفيتز أن الحرب، بوصفها حملة عسكرية، كانت بالغة الروعة والألق. أُنجزت بعدد من الإصابات أقل مما كان أي شخص قادراً على امتلاك جرأة الحلم به، دون إشراك إسرائيل. لم يكن هناك أي استخدام لأسلحة الدمار الشامل، أي تدمير لحقول النفط العراقية، أي تدخل خارجي من جانب تركيا أو إيران، وأي صراع عرقي ذي شأن بين الأكراد، الأتراك (التركمان)، والعرب في الشمال. لو أن أحداً كان قد تنبأ بهذا قبل الحرب، لجرى اتهامه بفرط المبالغة في التفاؤل.

أشياء كثيرة كانت قد أُنجزت مما يمكن تسجيله في خانة الإيجابيات بالنسبة إلى العراق والشرق الأوسط باعتقاده، مع أن من شأن التعافي أن يستغرق بعض الوقت. تبقى الحرية حلماً إنسانياً كونياً، بنظر وولفوفيتز، لا حلماً أمريكياً فقط. تعين على الولايات المتحدة دعم المسلمين المعتدلين والناس الموهوبين في العراق لتمكينهم من بناء مؤسسات حرة. رغم التوقعات المعاكسة، كان قد رأى انتشار الديمقراطية في آسيا الشرقية، وكان العالم قد شهد ما حصل في أوروبا الشرقية خلال السنوات الخمس عشرة الماضية. لذا فإن وولفوفيتز كان واثقاً من أن هذه الحرب كانت، بعد نحو ١٠ إلى ٢٠ سنة من الآن، ستعتبر محطة أساسية على امتداد المسيرة المفضية إلى حرية الإنسان، إلى الديمقراطية، وإلى إلحاق الهزيمة بالإرهاب، بما يخدم مصالح الأمريكيين.



رأى السناتور الديمقراطي الفلوريدي الذي خاض في ٢٠٠٣ حملة قصيرة للترشيح الديمقراطي للرئاسة بوب غراهام أن الحرب في العراق كانت أحد أكثر أخطاء السياسة الخارجية الأمريكية منذ الحرب العالمية الثانية. بدا كما لو أن الولايات المتحدة كانت قد خاضت حرباً ضد إيطاليا موسوليني Mussolini في ١٩٤١ بدلاً من ألمانيا هتلر. اعتقد غراهام أن هتلرات الإرهاب هم القاعدة وحزب الله، أولئك المتطرفين المدعومين من إيران. الطرفان كلاهما كانا يشكلان تهديدين أكبر من العراق؛ الطرفان كلاهما، كانا قادرين على وراغبين في الهجوم ومتمتعين بوجود خفي داخل الولايات المتحدة، باعتقاده.

كانت الحرب العراقية قد صرفت الأنظار خصوصاً عن القاعدة التي كانت، حسب اعتقاده، قد جددت نفسها وباتت الآن أكثر خطراً. لذا فإن النتيجة كانت أن الولايات المتحدة أصبحت في خطر أكبر مما كانت قبل الحرب.

وعن مسائل أسلحة الدمار الشامل رأى غراهام أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت قد استخدمت معلومات غير صحيحة، ثم ما لبثت الإدارة، بما فيها الرئيس، أن وظفتها وبالغت في توريمها، اعتقد غراهام بضرورة إقالة تنت أو طرده من الوظيفة، وفوجئ إذ أن بوش لم يكن قد بذل أي خطوة عملية مباشرة لإصلاح وكالة الاستخبارات المركزية. شعر السناتور أن الرئيس كان يتعين عليه أن يعترف بالخطأ ويتحمل مسؤولية الأخطاء. وقد أمل في أن يبادر الغاضبون الأمريكيون في الانتخابات ٢٠٠٤ إلى الاتفاق معه بالرأي لإبعاد بوش عن المنصب.



بداية ٢٠٠٤، كان تشيني واثقاً من أن الحرب في العراق كان من شأنها أن تبدو حدثاً مشكّلاً للتاريخ. لم يكن نادماً على تحليله للإرهاب وعلى تأكيداته المتعلقة بصدام. تمثل التهديد الأكبر للأمة بالقاعدة المسلحة ليس فقط بالأمواس وبطاقات السفر على الخطوط الجوية بل بسلاح نووي في قلب إحدى المدن الأمريكية. والإدارة كانت قد اتهمت بالإخفاق في الربط بين النقاط قبل ٩/١١، وكيف كان لهم أن يتجاهلوا تلك النقاط بعد ٩/١١. بدت المسألة على تلك الدرجة من البساطة.

اعتقد تشيني بأن أحداً يملك عقلاً شاغلاً لمنصب بوش الرئاسي لم يكن قادراً على تجاهل الخطر، وهو يرى المعلومات الاستخباراتية المتحدثة عن الروابط القائمة بين العراق والقاعدة عبر سنوات كثيرة والأدلة الاستخباراتية المؤكدة لوجود أسلحة دمار شامل. كان تشيني لا يزال يرى أن تقويم الاستخبارات القومي (NIE) لعام ٢٠٠٢ كان مقبولاً.

على العموم، رأى أن بوش كان قد أتقن فن التركيز على ما هو أساسي ومهم، فن اختيار المكان الذي يجب عليه أن يقضي فيه وقته. فالرئيس لم يبدد أي وقت

على التوافه، وعلى امتداد الأشهر الستة عشر المفضية إلى الحرب، كان قد ركز كل اهتمامه على التخطيط العسكري. كان تشيني قد رأى أصداء أسئلة الرئيس مترددة عبر وزارة الدفاع والجيش، إذ قال مرة لأحد أصحابه: «يعلم هؤلاء انه لن يلبث أن يتعين عليهم الإجابة على أسئلة صعبة من الرجل.»

كذلك كان تشيني مقتنعاً بأن لدى بوش إيماناً راسخاً بأن من شأن منح الناس الحرية والديمقراطية أن يطلق عملية تغيير في العراق لن تلبث أن تؤدي في الأعوام المقبلة إلى تغيير الشرق الأوسط. ثمة كان بعد أخلاقي. لقد قال مؤرخ عسكري يحظى بتفضيل تشيني يدعى فكتور ديفيس هانسون Victor Davis Hanson إن من شأن القيادات والأمم أن تصبح «شريكة للشر عبر القعود عن العمل.» أما بوش فقد بادر إلى العمل. وما كان الرئيس قد فعله، برأي تشيني، كان أهم وأصعب مما سبق له أنه كان قد رآه على هذا الصعيد في الإدارتين الأخريين اللتين كان قد خدمهما - إدارتي فورد وبوش الأب.

ثمة كان قدر كبير من التركيز على عواقب وانتقادات التخطيط لما بعد الحرب. ولكن تشيني رأى أن ذلك لم يكن مرشحاً لأن ينطوي على أي أهمية في النهاية. كان من شأن ذلك أن يبقى جلبة مصاحبة للتاريخ طوال بقائهم ناجحين فيما كانوا عاكفين على فعله. تقاس الأمور بنتائجها. رأى تشيني أن التاريخ كان سينصف بوش دون أدنى شك، رغم اعترافه بأن هيئة المحلفين لم تكن بعد على القوس.



ما لبث كارل روف أن هام بحب تشيني. سبق لجل رؤساء الجمهورية أن تعين عليهم التعامل مع نواب رؤساء ذوي آفاق مستقبلية واقعية أو وهمية. فحتى بوش الأب، وهو نائب الرئيس الأكثر ولاء، اختلف علناً مع ريغان عدداً من المرات حين رأى

ذلك ضرورياً على الصعيد السياسي، كما حصل عندما تورطت إدارة ريغان في التفاوض مع الزعيم البانامي مانويل نورييغا وكان بوش قد نأى بنفسه عن الصفقات المعقودة مع الرجل القوي ذي السمعة السيئة.

أما تشيني فكان قد أوضح عدم تطلعه إلى الرئاسة. لعل من الترف غير المسموع به الا يكون نائب الرئيس مترصداً اي هفوة يمكن أن تصدر عن الرئيس، حسب ما تأكد لروف. لم يَبْدُ تشيني حريصاً على تغطية مؤخرته هو، في ظاهرة مدهشة في عالم السياسة. نصائحه لم تكن مشوبة بأي مصلحة أنانية سياسية بمقدور روف تحريها. لم يكن تشيني ناجحاً دائماً مع الرئيس، على الرغم من عدم وجود أي نظير لمدى عمق معارفه. كان يملك حدساً واشنطنياً وإن لم يتصف دوماً، بنظر روف، بالدقة، تمثلت مصافي تشيني بأهوائه وأمزجته. ولعل أبرز تلك الأهواء التي لاحظها روف هو هوسه المرضي بالقاعدة، «حمى حقيقية» كما نعته روف متفقاً في الرأي مع باول.

ظل تشيني متوتر الأعصاب إزاء البقاء في مكان واحد مع الرئيس، وبقي دائم الخوف من احتمال قيام القاعدة بتوجيه ضربة تؤدي إلى قطع رأس الحكومة. وهكذا فإنه كان لا يزال أحياناً يذهب إلى مواقع سرية أو يُغَيِّبُ نَفْسَه. في بضع مناسبات كان الرئيس وروف قد ناقشا الأخبار المتحدثة عن كون تشيني ممسكاً حقاً بالخيوط وعاكفاً على إدارة الأمور من وراء الكواليس. بعض عناصر الاتصالات في البيت الأبيض كانوا يشعرون بشيء من القلق إزاء هذا. أما بوش فكان يضحك. كان روف وبوش، كلاهما، قد تمكنا من رؤية مدى زُهد تشيني وإذعانه. «نعم سيدي الرئيس» أو «لا، سيدي الرئيس» لا أكثر ولا أقل. ولم يكن الأمر مختلفاً لدى بقاء الرئيس وتشيني وحدهما.

في غياب الرئيس، كثيراً ما كان تشيني يشير إليه بعبارة «الرجل»، قائلاً: «إن

الرجل يريد هذا» أو «الرجل يرى أنه... ». صحيح أن تشيني كان مدافعاً قوياً، دؤوباً، غير أن الرئيس كان هو الذي يقرر. لعل الدليل الأكثر وضوحاً على صحة ذلك هو اعتراض تشيني الشديد على الذهاب إلى الأمم المتحدة التماساً لقرارات جديدة خاصة بعمليات التفتيش عن الأسلحة. كان الرئيس قد تصرف بعكس ما أشار به، وكان تشيني قد امتثل مؤدياً تحية الطاعة والامتثال.

رأى روف أن سياسة الأطروحة القائلة بأن تشيني هو الممسك بزمام الأمور كانت تصب في مصلحتهما. فكل من كان يصدق ذلك كان ضائعاً بالنسبة إليهما منذ زمن بعيد. هذا أولاً، أما ثانياً فإن روف كان يريد أن يبقى الناس مشغولين بالحديث عنها، بتوجيه الحملة إلى ذلك الحقل من الشوك. كان روف مؤمناً بأن الشخص العادي لن يكون مستعداً لشراء مثل هذه البضاعة. ثمة ٦٧ بالمئة كانوا يقولون إن بوش زعيم قوي، بمن فيهم ثلث غير الراضين عن أدائه الرئاسي. ما من زعيم قوي يتملق نائبه، ومن قال إن بوش بدا متملقاً أمام الجمهور؟!

❖ ❖ ❖

مع حلول أوائل شباط/ فبراير، ٢٠٠٤، بات روف قادراً على رؤية أن العراق كان بادئاً بالتحول إلى نقطة سلبية محتملة. فأعمال العنف على الأرض ظلت مستمرة. وكان للجيش الأمريكي ما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ جندي هناك، مع استمرار الحاجة إلى مثل هذا العدد أو أكثر لبعض الوقت. صار جنود أمريكيون يُقتلون بمعدلات عالية جداً، مع عدم التوصل إلى أية تسوية سياسية. بدا نقل الحكم إلى العراقيين مهزوزاً. إن الإخفاق في العثور على أسلحة الدمار الشامل، مضافاً إلى اعترافات بوش وتنت العلنية باحتمال كون المعلومات الاستخباراتية خاطئة، بقي منطوياً على احتمال نكسة كبيرة.

من قبل، كان روف قد زعم أن لعابه سال إزاء احتمال قيام الديمقراطيين بترشيح حاكم فيرمونت السابق هوارد دين Howard Dean في سباق ٢٠٠٤ الرئاسي. غير أن دين هذا ما لبث أن أفلس، وكان السناتور الديمقراطي الماساتشوستي جون كيري John Kerry، قد فاز في ١٢ من السباقات الأولية الديمقراطية الـ ١٤ الأولى، وبدا قريباً من الحصول على الترشيح، تبقى السياسة لعبة التعويض، القدرة على التكيف، والتفاؤل. سارع روف، إذن، إلى اعتماد خط جديد.

لم يتردد روف في أن يقول: «لعل الخبر السار هو أن دين لم يعد هو المرشح» لأحد الأصحاب في مكتبه الكائن على الطبقة الثانية من الجناح الغربي، فمعارضة دين غير المشروطة للحرب في العراق كان من شأنها أن تشكل نقيضاً قوياً لبوش. «مع أن إحدى نقاط قوة دين تمثلت بقدرته على أن يقول: أنا لست جزءاً من ذلك الجمهور هناك في الشارع.» أما كيري فقد بدا جزءاً عضوياً من الجمهور الواشنطني وقد سبق له أن صوت مؤيداً قرار الحرب. أخرج روف ملفه الفضفاض البالغة سماكته بوصتان والمعنون: «للعرض.» تضمن الملف غوصاً في سجل سنوات كيري الـ ١٩ في مجلس الشيوخ. لعل الصفحات ٩-٢٠ من الجزء الخاص بالعراق كانت هي الأكثر أهمية.

بيَّن السجل أن كيري كان موجوداً على الخارطة كلها. بلهجة تذكر المرء بممثل منهج مؤمن بدوره قدم روف بعض المقتطفات من سجل كيري.

قرأ روف مقتبساً كلام كيري في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٠، وفقاً لما هو وارد في سجل الكونغرس أن «العراق قد طور أسلحة كيميائية» وكان صدام دائباً على «السير قدماً» في تطوير أسلحة دمار شامل، أو «مالك لكل تلك القدرات.» كان كيري قد قال في كانون الثاني/ يناير ١٩٩١. (بالطبع، اتضح أن هذا كان صحيحاً كما

تبين لمفتش الأسلحة الدوليين بعد حرب ١٩٩١ الخليجية) وفي ١٩٩٨ قال كيري، بوصفه عضواً في لجنة الاستخبارات، إن صدّاماً كان عاكفاً على اعتماد برنامج لبناء أسلحة دمار شامل» ثم قال في ٢٠٠٢: «أنا مستعد لأن أعتبر صدام حسين مسؤولاً فأقدم على تدمير أسلحة الدمار الشامل الموجودة بحوزته.» و«إن التهديد المتمثل بصدام حسين مع أسلحة دمار شامل تهديد حقيقي.. لقد واصل بناء تلك الأسلحة.»

راح حاجبا روف يتقافزان صعوداً وهبوطاً وهو يقرأ. «لعله الأفضل عندي شخصياً!» ثم اورد كلاماً قاله كيري في ١٩ آذار/ مارس، ٢٠٠٣، قبل بدء الحرب بيوم واحد معلناً: «أعتقد أن أسلحة الدمار الشامل الموجودة عند صدام حسين تشكل تهديداً، وذلك هو السبب الذي جعلني أصوت لصالح اعتباره مسؤولاً والتأكد من تجريده من السلاح.»

«يا إلهي!» زعق روف بأعلى صوته. وقد كان ذلك عبر الإذاعة القومية العامة! كل ذلك موجود عنده على أشرطة التسجيل. إذن هاكم عضواً في مجلس الشيوخ من لجنة الاستخبارات وهو يقول إن صداماً كان متوفراً على تلك الأشياء. وكان من شأن حجة حملة بوش أن تتخذ الصيغة التالية: «أنت تعاين المعلومات الاستخباراتية نفسها مثل الرئيس وتتوصل إلى الاستنتاج ذاته، وإذا كنت تتهمه بتضليل الشعب الأمريكي، فما الذي كنت تفعله أنت؟ هل تعترف بأنك تعرضت للاستحماق؟»

ما إن بدأت عواقب الحرب تزداد سوءاً حتى راح كيري، بالطبع، كما لاحظ روف، يتراجع، زاعماً انه كان قد صوت لا للحرب بل لمجرد منح الرئيس سلطة التهديد بالحرب. وبقدر أكبر من الوضوح الصارخ كان كيري قد قال في برنامج لقاء مع الصحافة في آب/ أغسطس ٢٠٠٣، إن قرار الكونغرس الذي «اعتمدناه لم يخول الرئيس حق تغيير النظام، فوضناه فقط فيما يخص قرارات الأمم المتحدة ذات

الملاقة.» ولكن روف، وباقي أهل البلاد، كانوا يعرفون أن القرار منح الرئيس بوضوح موافقة على استخدام الجيش في العراق.

طار روف فرحاً. «إنه مسجل على الشريط! وقد أجرينا اختياراً، وهاك إنه هناك، تستطيع أن تقتبس المقتطف حيث يقول بعض هذا الكلام ثم تبرزه وهو يتبادل الكلام مع كريس ماتيوز Chris Mathews قائلاً: (أنا معاد للحرب). فيقول الناس: (يا للمنافق!)

كان من شأن كيري أن يتوفر على أجوبة وقد أثبت ذلك. تمثل رده الرئيسي بأن بوش لم يضغط بما يكفي من القوة، أو لفترة زمنية كافية، على الأمم المتحدة بأنه لم يبن تحالفاً كوكبياً شرعياً؛ بأنه لم يخطط للعواقب؛ وبأنه كان شديد التوق لخوض الحرب حين أصبح صدام معزولاً وضعيفاً.

غير أن روف اعتقد بأنه امسك بكيري متلبساً حين صوّت لصالح إشعال الضوء الأخضر أمام الرئيس فيما يخص الحرب ومسارعته فيما بعد إلى الانسحاب حين وجد العواقب غير مستساغة أو لاحت أمامه فرصة سياسية.

مهما يكن من أمر بدا روف مقتنعاً بأن فريقه قادر على تحصين الرئيس فيما يخص حرب العراق في أي حملة مع كيري. بقي الأمر بحاجة إلى إثبات عملي، غير أن روف كان عازماً كل العزم على بذل المحاولة.



أما پاول وآرمتياج فكانا لا يزالان قلقين بشأن نفوذ الزعيم المنفي أحمد الچلبي، رئيس المؤتمر العراقي الوطني INC. مع أن الرئيس كان قد أعلن عن عزوفه عن التدخل في عملية اختيار القيادة الجديدة في العراق، فإن الچلبي كان، بوصفه عضواً في مجلس الحكم، قد كشف عن تمتعه بدعم بوش. كان قد جلس بالقرب من

لورا بوش، في أثناء خطاب حالة الاتحاد للرئيس في ٢٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤، إلا أن الرئيس قال فيما بعد إنه لم يكن مسروراً من إقدام أحدهما على التخلي عن مقعده. أحياناً، كان پاول يتصور أن الچلبي كان هو المشكلة الكبرى التي يواجهونها في العراق. وحسب التقارير التي تلقاها آرمتياج من العراق، كان جل العراقيين يرون الچلبي يابس الرأس. ومع أن آخرين في الإدارة أنكروا الأمر، فإن آرمتياج كان مؤمناً بأن الچلبي كان قد قدم معلومات استخباراتية مبالغ بها عن أسلحة الدمار الشامل ما لبثت أن شقت طريقها إلى بوش وتشيني قبل الحرب. وكان يقدر أن وكالة الاستخبارات المركزية والكونغرس كانا سيعمدان إلى معاينة دور الچلبي في الإخفاقات الاستخباراتية.

فيما يخص آرمتياج كانت للاندفاع حدوده. كان هو وپاول يخوضان المعركة الخيرة، محاولين عند كل منعطف ممكن تزيين مظهر - بل وواقع - النزعة الأحادية والغطرسة اللتين تطبعان سياسة إدارة بوش الخارجية. غير أن آرمتياج لم ير أن أياً منهما، برز بوصفه جندي السنة أو حتى الشهر.

كان معاون وزير الخارجية معين حديثاً سبق له أن عمل في أحد مراكز البحوث المحافظة في واشنطن قد زار آرمتياج في اليوم الأول لتوليه المنصب. قال الأخ الجديد: «أعتقد أنني، بفضل صلاتي، سأكون قادراً فعلاً عل إصلاح العلاقة وعلى الاضطلاع بدور الجسر بين الدفاع والخارجية.»

«أنت في فريقنا» أبلغه آرمتياج، مدركاً أنه كان يخلع رأس المسكين عند كتفيه، مضيفاً «من قال لك أن الغائط يمكن جَسْرُه؟! لقد عرفت كل تلك المخلوقات الداعرة منذ ٣٠ سنة. لا يستطيع المرء أن يجسر الغائط.» وبعد نحو ثلاثة أسابيع في المنصب جاء المخلوق الجديد إلى آرمتياج مرة ثانية، سأله آرمتياج:

«قل لي الآن، أين صرنا؟ كيف الأحوال؟»

«رائع سيدي!»

«إنها أصعب بكثير مما ظننت، أليس كذلك؟»

«لم تكن عندي فكرة » قال الرجل الجديد: «إنها مدوِّخة.» ومن ثم تابع يفصِّل كيف أن «الفاعلين بأمهاتهم» هناك في وزارة الدفاع كانوا دائبين على عرقلة الجهود المبذولة مع الأمم المتحدة.

أحد أصدقاء آرمتياج الحميمين من الكونغرس قال له إنه وباول كانا قد أخفقا حقاً. كانا قد أصبحا أدوات التمكين، إذ وفرا الغطاء ومظهر التعقل اللذين مكّنا تشيني ورمسفلد من تحقيق مآربهما. لم ير آرمتياج أي خطأ فيما قاله صديقه من الكونغرس. في لحظات كآبته الخاصة كان يستعيد سنواته الثلاث في الخارجية غير أنه لم يكن يستطيع أن يجد فيها أي لحظات منعشة جديرة بالتذكر سوى تلك المرتبطة بعلاقته الشخصية مع باول وهما دائبان على حل المشكلات بالدبلوماسية، لا الحرب.

اكتشف آرمتياج صعوبتين خطيرتين موروثتين عن الحرب في العراق. على الرغم من اعتقاده بإمكانية إخماد التمرد والانتصار في النهار، فإن الجيش الأمريكي كان سيدفع الثمن على امتداد عشر سنوات أو أكثر. كانت القوات البرية، بشكل خاص، قد مُطَّت كثيراً. باتت أمريكا، في الحقيقة، مشغولة بخوض ثلاث حروب - أفغانستان النازفة، العراق الملتهب، والحرب الكوكبية المتواصلة على الإرهاب. وبرأي آرمتياج لم يكن منطقياً ولا ممكناً إنجاز الانتصار في هذه الحروب بقوة توازي من حيث الحجم نظيرتها التي كانت موجودة خلال إدارة كلنتون زمن السلم. إلا أن ذلك هو ما كانت إدارة بوش تحاول فعله.

أما الصعوبة أو المشكلة الثانية فكانت سياسية. لم ير آرمتياج ما يمكن إنجازه في العراق أو في أي مكان آخر خلال الأشهر الثمانية المتبقية للانتخابات الرئاسية بما يؤدي إلى تغيير التصور القائل بأن بوش في مأزق يصعب الخروج منه. إن أصدقاء آرمتياج الجمهوريين في مجلس الشيوخ، أولئك الذين كانوا في ٢٠٠٣ يعتقدون أنهم قادرون على كسب مقعدين أو ثلاثة إضافية في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٤، باتوا الآن خائفين من انتقال السيطرة في مجلس الشيوخ، بل وحتى في البيت الأبيض، إلى الديمقراطيين.



يوم الأربعاء الواقع في ٢٨ كانون الثاني/ يناير، ٢٠٠٤، قام ديفد كي، الذي كان قد استقال مؤخراً من منصب رئاسة فريق المسح العراقي، بإبلاغ لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ، إذ «إنا كنا جميعاً تقريباً، دون أن استثني نفسي بكل تأكيد، على خطأ» افاد بأن ٨٥ بالمئة من العمل قد تم ولم يكن يُتوقع أبداً أن يُعثر على أي مخزونات من أسلحة دمار شامل في العراق. أضاف: «إن من شأن الأمر أن يتطلب تحقيقاً خارجياً»، وصولاً إلى معاينة الإخفاق الاستخباراتي فيما يخص أسلحة الدمار الشامل. ومما قاله كي إن من «المهم الاعتراف بالإخفاق» وإن توفير الثقة الضرورية لدى الكونغرس والجمهور بأي معلومات استخباراتية تصل إلى الرئيس وكبار المسؤولين مشروط بإجراء مثل هذا التحقيق.

تصاعدت الضغوط من الجانبين الديمقراطي والجمهوري كليهما مطالبة بتحقيق مستقل. في البداية قال بوش: «لا» ولكنه ما لبث، ومعه تشيني، رايس، وآخرون في البيت الأبيض أن أدركوا الضرورة - والفرصة - بسرعة. إذن، فليقرروا الإمساك بزمام المبادرة، وليقترحوا تشكيل لجنة مستقلة مؤلفة من الحزبين كليهما من قبل رئيس الجمهورية! كان من شأنهم أن يضعوا شرطين، أن تقوم اللجنة بمعاينة مسألة

أسلحة الدمار الشامل والمشكلات الاستخباراتية من منظور أوسع، ليس في العراق فقط بل وفيما يخص الانتشار في إيران كوريا الشمالية، وليبيا، أولاً. وألا تبادر اللجنة، ثانياً، إلى تقديم تقريرها إلى ما بعد الانتخابات الرئاسية ببعض الوقت.

سارع تشيني إلى الاتصال ببعض أعضاء لجنتي الاستخبارات في مجلس الشيوخ والنواب، محاولاً إقناعهم بالنقطة المفتاحية المتمثلة بأن من شأن عملية تحقيق خلال موسم انتخابات رئاسية أن تكون مسرحية هزلية وأن تفضي فوراً إلى تسييس قضايا استخباراتية. عن طريق التحرك بسرعة واستباق المنعطف، كما ظلت كارين هيوز تكثر من الإلحاح، نجح البيت الأبيض في صياغة الخبر. جاء عنوان مادة يوم الأحد الواقع في الأول من شباط/ فبراير التي كشفت النقاب عن القصة في جريدة الواشنطن پوست يقول: «بوش يقرر إعادة الغوص في البيانات العراقية، يقول الرسميون.» لاحظ المراقبون أن «تحول موقف بوش يمثل مسعى الالتفاف على قضية مرشحة لأن تكون خطرة تنطوي على التهديد بإلقاء ظلال من الشكوك على تطلعه إلى إعادة الانتخاب.»

يوم الاثنين، يوم ٢ شباط/ فبراير، بعد اجتماع لمجلس الوزراء، وجه أحد المراسلين السؤال التالي إلى الرئيس: «هل تعتقد أن البلد مدين بتفسير حول الإخفاق الاستخباراتي في العراق قبل الانتخابات لتمكين الناخبين من امتلاك هذه المعلومات قبل الإقدام على انتخاب رئيس جديد؟»

«قبل كل شيء، أنا أريد معرفة جميع الحقائق» قال بوش ملاحظاً أن الإدارة لم تكن جزءاً من العملية، ومتملصاً من الرد على السؤال.



فوجئ پلول بعدم تحلي كي بالهدوء. كان تنت قد أبلغه أن كي كان سيبقى واحداً

من كبار مستشاري وكالة الاستخبارات المركزية، وأن الوكالة كانت ستبقى حريصة على «استبقائه في المزرعة» غير أن كي كان، على ما يبدو، قد فضل الهرب من الحظيرة، المحترقة، قضى پاول بعض الوقت وهو يعاين نص شهادة كي أمام لجنة القوات المسلحة. من المؤكد أنها بَيَّنَتْ أن صدّاماً كان متوفراً على كل من النية والقدرة اللازمتين لإنتاج أسلحة دمار شامل. غير أن غياب المخزونات الفعلية من الأسلحة البيولوجية والكيميائية كان مشكلة كبرى، ويتعذر التغاضي عنها.

ربما كان السبب يعود إلى عقله العسكري القديم، ولكن پاول تصور أن عليه، في الحدود الدنيا، إذا ما تغيرت البيانات التي كان قد بنى على أساسها قراره، أن يقر بأن من واجبه أن يعيد النظر في القرار إذا ما أصبحت البيانات الجديدة متوفرة. أما وقد كان كي الآن عاكفاً على تأكيد، بقدر من المرجعية لا تقل عما يملكها أي شخص آخر، وقوع «خطأ فادح» فيما يخص المخزونات، فإن الإدارة باتت ملزمة بمواجهة الواقع الجديد. ثمة كانت مجموعة مختلفة تماماً من الوقائع ذات العلاقة بأحد أسباب الحرب المفتاحية.

بعد اجتماع مجلس الوزراء في ٢ شباط/ فبراير، قابل پاول، مصطحباً نسخة مثقلة بفيض من الملاحظات والتعليقات من بيان كي، فريقاً من محرري الواشنطن پوست ومراسليها، لم أحضر اللقاء.

دافع پاول عن قرار بوش القاضي بالذهاب إلى الحرب، قائلاً: «لقد كان الشيء الصحيح فعله.»

«لو كان تنت قد قال قبل بداية الحرب ما قد قاله الدكتور كي الآن عن عدم وجود مخزونات فعلية، فهل كنت ستستمر في التوصية بالإقدام على الغزو؟» سأل أحد الحضور.

أجاب پاول: «لا أعرف، لأن المخزون هو الذي وفر اللمسة الصغيرة الأخيرة التي

جعلت الأمر أكثر قرباً من خطر وتهديد حقيقي وحاضر بالنسبة إلى المنطقة والعالم.» ثم أضاف: «إن غياب أي مخزون يؤدي على تغيير المعادلة السياسية، الحساب السياسي. يؤدي إلى تغيير الجواب الذي تحصل عليه.»

كانت تعليقات الوزير المادة الرئيسة في عدد اليوم التالي لجريدة البوست: «باول يقول إن البيانات الجديدة كان من شأنها أن تؤثر في قرار الحرب.»

كان باول يعلم أن البيت الأبيض كان يحبس أنفاسه كلما بدأ يقول شيئاً، أي شيء، لوسائل الإعلام، وأن رايس مدمنة على قراءة الصحف في ساعة مبكرة من كل صباح. كانت ستصاب بالدهشة إزاء أي خبر غير متناغم مع موقف الرئيس. كانت رايس قد ناقشت تعليقات باول مع الرئيس سلفاً حين اتصلت به ذلك الصباح.

قالت رايس لوزير الخارجية إنها ومعها الرئيس قد «طار صوابهما». كان باول قد «أعطى الديمقراطيين سلاحاً خطيراً.» كان الرئيس قد اعتمد الموقف العلني القائم على الزعم بأن هيئة المحلفين الخاصة بأسلحة الدمار الشامل مازالت غير ملتئمة، وبأنه راغب في معرفة الحقيقة. أما الآن فقد خرج باول على الناس بخط جديد. كان قد تسبب في صدور عناوين صاعقه في طول البلاد وعرضها مرة أخرى.

حتى حين كانت رايس تمرر إليه رسالة من الرئيس، انزعج باول انزعاجاً استثنائياً إذ وجد نفسه يتعرض للانتقاد من قبل شخصية تصغره بـ ١٧ سنة وتشغل المنصب الذي كان قد شغله قبل ١٥ سنة. رد عليها قائلاً: «اسمعي، وماذا أيضاً؟ كان عظيماً.» إلا أنه لم يتصور وقتاً واجهوا فيه مجموعة مختلفة تماماً من الحقائق ذات العلاقة بواحدة من القضايا المفتاحية في عملية اتخاذ القرار القاضي بالذهاب إلى الحرب، مجموعة حقائق كان يستطيع أن يرفض إعادة النظر فيها على الأقل.

كان كل من باول ورايس يعلمان جيداً أن باول لم يكن قد سبق له أن قدّم أي

توصية عامة بشأن الحرب لا لشيء إلا لأن أحداً لم يطلب منه ذلك ببساطة. لم يكن ذلك قد طُرح في مقابلة البوست.

كانت رسالة رايس واضحة: حذار من الخروج على الخط! ابق في الصف!

في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والأربعين من صباح ذلك اليوم فيما كان باول يهم بمغادرة وزارة الخارجية متوجهاً إلى البيت الأبيض للقاء الرئيس وأمين عام الأمم المتحدة كوفي أنّان، سأله المراسلون عن تعليقاته المنشورة في البوست.

لم يكررها. أعلن أن صداماً كان قد توفر على النية وامتلك القدرة اللازمتين لتطوير أسلحة دمار شامل. «خط القاع هو هذا: قام الرئيس باتخاذ القرار الصحيح،» قال باول، ثم أضاف ثلاث مرات أخرى أن قرار الرئيس كان «صائباً» وأطلق تصريحاً غير اعتيادي حين قال حتى لو كانوا قد توفروا على «معلومات أخرى- مؤيدة ربما لتقويم كي- قبل الحرب، لما كان ذلك قد أفضى إلى تغيير قرار الحرب.» كان ذلك أمراً وافقنا عليه جميعاً وقد نكون مستعدين للموافقة عليه مرة أخرى في ظل أي مجموعة أخرى من الظروف.»

بنظر باول، ثمة كانت مجموعة أشياء واضحة من سلوك الرئيس، من أسلوبه وكل الأشياء التي كان باول قد عرفها عن بوش. لم يكن الرئيس مقبلاً على دفع أي منهما من فوق الحافة، لا باول، ولا تنت. وكذلك فإن الرئيس أوضح أن أحداً لم يكن موشكاً على القفز من السفينة. بعد أن قامت سابقة كي بتسليط الضوء على المخاطر الكامنة في ذلك.

بقي الرئيس راسخ الإيمان بأنهم كانوا، دون أدنى شك، قد فعلوا ما هو صحيح حين أزاحوا صدّاماً. كان جميع أعضاء مجلس الحرب قد وافقوا على القرار. كانوا فريقاً. والرسالة الأكبر كانت واضحة: سارعوا إلى تطويق العربات!

◆ ◆ ◆

تطلبت مبادرة تنت إلى استيعاب مدى هول وضخامة مشكلته فترة طويلة من الوقت. فبعد شهر كامل من انتهاء القتال الرئيس لم يكن يشعر بأي قلق إزاء الإخفاق في العثور على أسلحة الدمار الشامل. كان يرى أن العثور عليها أمر مؤكد وإن بدا أن الأمر قد يتطلب عدداً من الأشهر. مع حلول شهر أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٣، بعد الإخفاق في إبراز أي شيء في غضون ما يقرب من ستة أشهر، ظل موقفه قائماً على القول بأن الأمر قد يستغرق عشر سنوات. كان يشعر بأن المعلومات الاستخباراتية كانت جيدة كما لم يكن مستعداً لتعديل تقويمات الأجهزة ولو أتيحت له فرصة فعل ذلك. مع حلول تشرين الثاني/ نوفمبر، بدأ تنت يقول إنه قد لا يتمكنون قط من الاهتداء إلى جواب حول أسلحة الدمار الشامل. فأعمال النهب وعمليات إتلاف الوثائق داخل العراق كانت بالغة الاتساع والشمول إلى درجة أن عراق ١٨ آذار/ مارس، قبل يوم واحد من بدء الحرب، لم يعد موجوداً.

ظلت قضية أسلحة الدمار الشامل تنبض وتتفاعل في العمق وفي الباحات الخلفية مدة ١٠ أشهر إلى أن جاءت استقالة كي وتصريحاته المؤكدة لأن الجميع كانوا على خطأ. أدى هذا إلى وضع تنت في مأزق. فالرجل وجهازه جهاز وكالة الاستخبارات المركزية، كانا فخورين باستنتاجاتهما وتحليلاتهما الدقيقة والصارمة. حواجز المعايير كانت عالية جداً، والوقوع في الخطأ غير مقبول. وراء الكواليس كان تنت متشدداً في توجيه الانتقاد إلى القصص الإخبارية التي كانت مخطئة أو مبالغة بشأن احتمال حصول نوع من الاستقاع في الحرب الأفغانية أواخر سنة ٢٠٠١. كان قد قال: «ليس ثمة أي ثمن على الإطلاق» لوقوع وسائل الإعلام في الخطأ. وقد أفاد بأن على الرئيس أن «يركل» مدير وكالة الاستخبارات المركزية «على مؤخرته» إذ ما كان قد قدم معلومات موازية سوءاً.

غير أن أحداً في وكالة الاستخبارات المركزية لم يكن يدفع أي ثمن أو يتعرض

للمحاسبة بشأن ما بدا أنه كان خطأ، وتنت نفسه كان هذا الذي كان قد طمأن بوش مؤكداً له أن قضية أسلحة الدمار الشامل كانت «ضربة مجلجلة».

كانت الوكالة الآن عاكفة على حك جميع المعلومات الاستخباراتية وغربلتها، محاولة التوصل إلى اكتشاف مكامن الخطأ، مع اللجوء أحياناً حتى إلى اعتماد أساليب الهندسة الراجعة عبر السعي إلى تحديد سبب احتمال تعرض أي معلومة لأن تكون خاطئة أو يساء فهمها.

اتفق تنت مع نائبه، جون ماكلوخلين، على ضرورة التحلي بشجاعة احتمال الوقوع في الخطأ التماساً للوضوح. تجاوز ذلك. أعتقد أن على وكالة الاستخبارات المركزية ما أطلق عليه اسم «واجب التحذير،» مسؤولية التنبيه إلى الأخطار المحتملة. ربما كان نوع من النزوع إلى تضخيم الأخطار قد خرج من رحم سلسلة التحقيقات التي تمت بعد ١١/٩ والتي كانت قد أشارت إلى الإخفاق في ربط النقاط فيما يخص القاعدة. ما من أحد، وخصوصاً تنت، كان يريد أن يُضبط وهو يقع في مطب الاستخفاف بأي تهديد محتمل.

«لست أحمق،» قال تنت لأصحابه دون تردد، في نَفَسٍ واحد، مضيفاً أن الإخفاق في العثور على أسلحة دمار شامل لم يكن إلا «حظاً عاثراً.» كان يعرف أن رأسه قد يتدحرج عن النطع. كانت لجنتا استخبارات مجلسي الكونغرس عاكفتين على التحقيق والتقصي، وكان زعيما اللجنتين قد صرحا علناً أنهما كانا سيصدران تقريرين مثقلين بشحنة عالية من الانتقادات.

قرر تنت أن يبادر إلى الدفاع. في ٥ شباط/ فبراير، ٢٠٠٤، يوم الذكرى السنوية الأولى لعرض باول الخاص بأسلحة الدمار الشامل أمام الأمم المتحدة، ألقى خطاباً عاماً نادراً بجامعة جورجتاون.

معارضاً بيان كي العلني على نحو مباشر، قال عن عملية البحث عن أسلحة الدمار الشامل «لسنا قريبين قط من إنجاز ٨٥ بالمئة من المهمة. وأي دعوة أطلقها اليوم تبقى مؤقتة ومشروطة بالضرورة. لماذا؟ لأننا بحاجة إلى مزيد من الوقت وبحاجة إلى المزيد من المعلومات.» أضاف تنت أنهم كانوا قد اكتشفوا أن لدى العراق بحثاً وتطويراً، عزيمة وقدرة لإنتاج أسلحة كيميائية وبيولوجية. في منتصف الخطاب اعترف بأنهم لم يكونوا قد اكتشفوا أي أسلحة بيولوجية أو كيميائية.

كانت وكالة الاستخبارات المركزية دائبة على مراجعة ومعاينة كل شيء في سبيل تحسين أدائها، وكانت قد اكتشفت أن واحداً من مصادر معلوماتهم كان قد «فبرك» بعض المعلومات، قال تنت. ثم لاحظ أن عناصر التجسس البشرية لدى وكالة الاستخبارات المركزية كانت قد وفرت جملة المعلومات التي كانت قد أفضت إلى اعتقال بعض كبار قادة القاعدة بمن فيهم خالد الشيخ محمد، العقل المدبر لهجمات ٩/١١، واضطلعت بدور مفتاحي في الكشف عن شبكة الانتشار النووي السرية لعبد القدير خان، الذي هو أبو البرنامج النووي الباكستاني، تلك الشبكة السرية التي كانت قد ساعدت كلاً من ليبيا، إيران، وكوريا الشمالية في برامجها النووية. وقد نبه إلى ضرورة التحلي بالحذر خلال عمليات التحقيق والمراجعة الجارية على قدم وساق. «لا يسعنا أن نطبق تطوير بيئة يكون فيها المحللون متوجسين من إجراء الاتصالات، يجري فيها الامتناع عن إصدار الأحكام؛ لأن المحللين يخشون الوقوع في الخطأ.»

بمعنى من المعاني كان تنت يطلب باختزال أو إلغاء الثمن المدفوع مقابل الوقوع في الخطأ. من منطلق ما ترتب على الـ ٩/١١ من عواقب مع أخذ تهديد القاعدة المتواصل بنظر الاعتبار، كانت المشكلة شاغلة بال صانعي القرار السياسي والجمهور. لم يكن ثمة أي خطأ، بطبيعة الحال، في التحذير من احتمال تعرض

الولايات المتحدة للهجوم. فتنت وسائر كبار موظفي وكالة الاستخبارات المركزية كانوا على يقين من أن القاعدة كانت ستهاجم مرة أخرى. أوائل سنة ٢٠٠٤ قال نائب المدير المسؤول عن العمليات الخاصة جيمس باڤيت لعدد من الأصحاب: «ما زلنا مرشحين للتعرض للضرب مرة أخرى. ما زلنا مرشحين لتلقي ضربة كبرى من نوع ما. بالتأكيد المطلق. نعم بكل تأكيد.» غير أنه أضاف: «أما إذا مرت خمس سنوات، ست سنوات، سبع سنوات ولا نتعرض لأي ضربة، فسوف أكون راضياً تماماً ومسروراً إلى أبعد الحدود؛ لأنني كنت على خطأ.» إلا أن الوقوع في الخطأ حول المعلومات المتحدثة عن امتلاك صدام حسين أسلحة بيولوجية وكيميائية - وهي أساس الحرب- ما كان ليستطيع أن يجعل كائناً من كان راضياً ومرتاحاً.

مع رجوع تنت إلى المعلومات الاستخباراتية مرة بعد أخرى، اعترف أمام حلقة من الأصحاب بأنه كان يتعين عليه وعلى وكالة الاستخبارات المركزية الإعلان صراحة في نص تقويم الاستخبارات القومية NIE كما في بيانات استخباراتية أخرى عن أن الأدلة لم تكن محكمة ١٠٠ بالمئة، عن أنها لم تكن مشتملة على أي بندقية ذات فوهة تفوح منها رائحة البارود.

◆ ◆ ◆

«يا للروث المقدَّس!» قال پاول بينه وبين نفسه لدى قراءة نسخة خطاب تنت. ثمة كان مدير وكالة الاستخبارات المركزية معلناً أن أنابيب الألمنيوم التي كانوا من قبل واثقين تماماً بأنها للاستخدام كنوابذ أو مماخض لتخصيب اليورانيوم ربما كانت قذائف مدفعية عادية. تذكَّرَ پاول أنه كان قد تحداهم حول هذا قبل عرضه في الأمم المتحدة منذ سنة. كان جون ماكلوخلين قد استفاض في الحديث عن سماكة جدران الأنابيب ومعدلات سرعة دورانها، محاججاً أنها نوابذ بالتأكيد. وهاكم الآن تنت قائلاً: «علينا أن نجمع بيانات إضافية ونعاين مزيداً من المصادر»

و«ربما كانت» وكالتُه «قد وقعت في خطأ المبالغة» عند تقدير التقدم الذي كان صدام يحققه على صعيد تطوير أسلحة نووية. شعر پاول بأنه خُذل.

كذلك كان تنت متراجعاً عن تأكيدات سابقة لليقين بشأن وجود مخابر بيولوجية متحركة مزعومة. فوكالة الاستخبارات المركزية كانت من قبل قد قالت: إن لديها خمسة مصادر معلومات بشرية مؤيدة لذلك الزعم، كما تذكر پاول. والآن كان تنت يُنْكِر وجود أي إجماع ويضيف: «ولا بد لي من أن أقول لكم إننا نكتشف سلسلة من التباينات في بعض المزاعم الصادرة عن المصادر البشرية بشأن الإنتاج المتنقل للأسلحة البيولوجية قبل الحرب.»

أطلق پاول شتيمة مقدسة أخرى من النوع الثقيل! كان يعلم علم اليقين أن تنت كان قد أبلغ الرئيس «باللغة النيويوركية البذيئة» كما وصفها پاول مرة، أن قضية أسلحة الدمار الشامل كانت «ضربة مجلجلة.»

كان الرئيس المثال الأبرز لشخص كان قد اشترى هذه البضاعة. وكان پاول الثاني من حيث البروز، وقد أدرك أنه كان قابلاً للصرف والاستهلاك. كان يعلم أن تنت شعر بالأسى وكان، بوصفه مديراً، يحاول التحلي بالحذر نيابة عن وكالة الاستخبارات المركزية. غير أن هذه كانت ورطة حقيقية. هاكم پاول الآن وقد وجد نفسه طارحاً أكثر الأسئلة حدة ونفاذاً عن كل شيء قالته له أو أبلغته به وكالة الاستخبارات المركزية.

لم يكن پاول يشاطر آرميتاج انزعاجه من أنهما كانا أداتين لخدمة السياسات المتشددة لثنائي تشيني- رمسفلد. وحين قام بغربلة جميع القضايا شعر پاول أن وزارة الخارجية كانت قد أنجزت عملاً جيداً ولم تحصل على ما يكفي من التقدير فيما يخص بعض النجاحات مثل العلاقات المحسنة مع الصين وروسيا.

كلما ألمح كائن من كان إلى أن على پاول أن يكون معانياً من وخزات الضمير بشأن الحرب، كان پاول يرد قائلاً إنه كان قد فعل كل ما بوسعه. في آب/ أغسطس ٢٠٠٢ كان قد أوشك على كسر حريته (إغماد سيفه!)، باسطاً أمام الرئيس جميع مصاعب الحرب وويلاتها- جملة العواقب الوخيمة والسلبيات المحتملة. كان ذلك في زمن توهم فيه أن الرئيس لم يكن حاصلاً على الصورة الاجمالية الكاملة. كان قد حذّر الرئيس. كان القرار قرار الرئيس. لا قراره هو. والآن بات العراق ملكاً للولايات المتحدة. ملكاً لبوش. إلا أن پاول شعر بأنه كان قد قام بواجبه.



بعد خطاب تنت، وجه الرئيس رسالة واحدة إلى رئيس استخباراته. «لقد قمت بعمل عظيم» قال بوش في اتصال هاتفي.

فيما يخص رايس، كانت عملية الذهاب إلى الحرب شاقة، ولا بد لها، برأيها، من أن تكون كذلك. كانت العواقب مربكة، ولاسيما على صعيد الإخفاق في العثور على أسلحة الدمار الشامل.

كانت تعلم أن المعلومات الاستخباراتية ليست حقائق. بسبب كل تلك السنوات الكثيرة التي قضتها وهي تتعامل مع أجهزة الاستخبارات ومعلوماتها في أوقات مبكرة تعود إلى أيام اضطلاعها بمهمة مراقبة روسيا في جهاز عاملي مجلس الأمن القومي لدى بوش الأب، كانت عميقة الإدراك لحقيقة تعويلهم على الاستخبارات حين يكونون مفتقرين إلى معرفة هذا الشيء أو ذاك. ومع أن معلومات وكالة الاستخبارات المركزية عن أسلحة الدمارالشامل العراقية كانت من بين أكثر الأشياء التي كانت قد رأتها إطلاقاً، فإن للاستخبارات حدوداً بوصفها الأساس المعتمد لرسم الخطة أو السياسة. إنها موحية، عاكسة لسلاسل من الاحتمالات والظلال،

بدلاً من أن تكون معبرة عن حقائق يقينية. كانت شخصياً قد اختبرت ضابط الاستخبارات القومية لدى الوكالة حول الاستنتاجات المتعلقة بأسلحة الدمار الشامل العراقية، سائلة إياه في أحد المنعطفات عما إذا كانت التأكيدات حقائق أم أحكاماً.

كان الضابط قد رد على سؤالها قائلاً: «إنها أحكام.»

بوصفها مستشارة الأمن القومي، لم تجرؤ رايس على محاولة التأثير في تقويم الاستخبارات القومية NIE، تلك الوثيقة الصادرة عن وكالة الاستخبارات المركزية، غير أن قربها من بوش ومكانتها عنده جعلاها الشخص الوحيد القادر على تحذير الرئيس ودفعه إلى تغيير بياناته الخاصة المتصفة بالإطلاق عن أسلحة الدمار الشامل.

إلا أن تشيني كان عملياً قد استبق تلك المسألة في ٢٦ آب/ أغسطس، ٢٠٠٢، حين أعلن عن «عدم وجود أي شك» حول امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل. وما لبث الرئيس أن كان قد بادر، وبسرعة، إلى أن يحذو حذو نائبه مطلقاً سيل بياناته اليقينية حتى قبل نشر تقويم الاستخبارات القومية الصادر عن وكالة الاستخبارات المركزية.

مع تعاظم الجدل والخلافات حول أسلحة الدمار الشامل في ٢٠٠٤، عبر الرئيس عن مخاوفه على مسمع رايس. كان من شأن تسليط الأضواء على جميع مشكلات وكالة الاستخبارات المركزية أن ينطوي على سلبيتين كان يريد تجنبهما. كان من شأن الجدل، أولاً أن يفضي إلى تحقيقات برلمانية (كونغرسية) شبيهة بلجنتي تشيرتش Church وبايك Pike في ١٩٧٥-١٩٧٦ اللتين فضحتا قيام وكالة الاستخبارات المركزية بالتجسس على مواطنين أمريكيين، باختبار المخدرات، وبتدبير مؤامرات اغتيال زعماء أجانب. لم يرد حصول عملية مطاردة سحرة جديدة، متذكراً تاريخ التحقيقات التي كانت قد أنزلت ضربة بمعنويات القوة البشرية العاملة وجعلت

وكالة الاستخبارات المركزية ميالة إلى التهرب من المخاطرة خلال فترة طويلة من الزمن. ولم يكن بوش، ثانياً، يرغب في أن يبقى أي رئيس مستقبلي مسكوناً بهاجس الحاجة إلى التحرك الاستباقي ضد تهديد آخر.

في الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين من ظهر الجمعة، في ٦ شباط/فبراير، ظهر الرئيس في غرفة الإيجاز الصحفي ليعلن ما قد بات الآن خبراً أكل الدهر عليه وشرب. قال إنه عازم على تعيين لجنة مؤلفة من تسعة أعضاء للنظر في قدرات أمريكا الاستخباراتية وفي المعلومات الاستخباراتية المرتبطة بأسلحة الدمار الشامل على الصعيد العالمي. تمثلت مهمة اللجنة بتحديد الأسباب الكامنة وراء عدم تأكد بعض المعلومات الاستخباراتية العائدة إلى ما قبل الحرب عن أسلحة الدمار الشامل العراقية المزعومة على الأرض. امتدح بوش الناس الذين يعملون في أجهزة الاستخبارات بوصفهم «مهنيين مخلصين مضطلعين بمهمات صعبة ومعقدة. فأعداء أمريكا متكتمون. إنهم لا يعرفون معنى الرحمة ومتوفرون على وسائل كثيرة. لا بد لأمتنا (دولتنا) من توظيف جميع الأدوات واستخدام كل الميزات التي نتوفر عليها من أجل تعقب أولئك الأعداء وشل فعالياتهم.»

وبعد ذلك أضاف الرئيس: «سيقوم أعضاء اللجنة بإصدار تقريرهم مع حلول تاريخ الـ ٣١ من آذار، ٢٠٠٥»



لعل إحدى الأطروحات التي ظلت تبرز على نحو متكرر في كل الساعات التي أمضيتها وأنا أُجري سلسلة المقابلات مع الرئيس، ومئات الساعات التي بذلتها وأنا أقابل آخرين قريبين منه أو منخرطين في قرارات الحرب العراقية هي قناعة بوش بأنه اتخذ القرار الصائب.

في المقابلة الثانية معه يوم ١١أيلول، ٢٠٠٣، أفاد الرئيس بأنه كان مرة قد أبلغ رايس، «إنني مستعد للمخاطرة برئاستي من أجل أن افعل ما أعتقد أنه صحيح، كنت مستعداً للعمل. ولو كان الثمن هو الرئاسة، ذلك ما كنت متأكداً منه، غير أنني كنت شاعراً بقوة أنه الشيء الصحيح الذي يجب عمله، وانا كنت مستعداً لأن أُقدِم.»

سألته عما إذا كان قد قال، كما سبق لي أن سمعت، في أحد الاجتماعات خلال فترة التمهيد للحرب: «بودي أن أكون رئيس فترتين، ولكن إذا شاء القدر أن أكون رئيس فترة رئاسية واحدة، فليكن!»

رد الرئيس: هذا صحيح! إنه موقفي. صحيح مئة بالمئة. إنه الصواب المطلق.» لاحظ أن الأمور كان من المحتمل أن تتعثر على الأرض، في أثناء التمهيد، أو كان من الممكن الوقوع في شرك عمليات التفتيش الدولية عن الأسلحة التي لا تعرف معنى الانتهاء.

سألته: «وماذا إذا ما خسرت الانتخابات ثمناً لهذا القرار؟»

«الرئاسة - تلك هي الحياة» قال بوش «مستعد ١٠٠ بالمئة للتعايش مع ذلك.»

في ذلك اليوم، بعد ساعتين، وقفنا في المكتب البيضوي وبدأنا نمشي إلى الخارج.

كان الظلام يوشك على أن يخيم في الخارج. ربما كانت الانتخابات الرئاسية المقبلة ستشكل أكثر الأحكام مباشرة على الحرب، إلا أنه لن يكون الحكم الأخير أو النهائي بكل تأكيد. كيف كان التاريخ سيحكم على حربه العراقية؟ سألته.

أفاد الرئيس بأنه سيكون من المتعذر استيعاب المعنى بشكل صحيح في المدى القصير، مضيفاً أنه كان يعتقد بأن من شأن فهم وَقْع الحرب ومغزاها الحقيقي أن يتطلب نحو عشر سنوات.

قد تكون هناك دورات، قلت له. ثم ذكَّرتُه بأن التاريخ كله، حسب اعتقاد كارل روف، لا يقاس إلا بالنتائج.

ابتسم بوش. قال: «التاريخ!» وهو يهز كتفيه، ويسحب يديه من جيبي سرواله، وينشر ذراعيه موحياً بلغة حركات جسده بأن ذلك بعيد.

«لن نعرف. سنكون جميعاً من الأموات.»



كلمات شكر وعرفان

مرة أخرى وفرت لي دار نشر سايمون آند شوستر وجريدة الواشنطن پوست دعماً كاملاً عبر منحي الوقت والقدر غير العادي من الاستقلالية اللازمين للسير قُدُماً على طريق إنجاز هذا الكتاب.

مرة أخرى كرّست آليس ميهيو Alice Mayew، محررتي في سايمون آند شوستر خلال السنوات الـ ٣٢ الماضية عبر ١٢ كتاباً، تركيزها غير العادي ومهارتها النادرة التي لا نظير لها، ضامنة نشر ما نتوفر عليه من مادة بأقصى سرعة ممكنة. فيما يخص المواعيد تبقى آليس أشبه بقوى الطبيعة، زاخرة بالأفكار، بالأسئلة، بالتعديلات المقترحة الصغيرة منها والكبيرة.

أما ليونارد داوني الابن Leonard Downie مدير الواشنطن پوست التنفيذي، وستيف كول Steve Coll، مدير تحرير الپوست، فيقومان بتوفير الدعم والمرونة اللازمين لإنجاز مشروعات معمقة ذات أطوال مساوية لأطوال الكتب. يبقى دون غراهام Don Graham، كبير ضباط الپوست التنفيذيين، وبوجونز Bo Jones، الناشر، بين أوائل تنفيذي وسائل الإعلام الذين يفهمون معنى الصحافة ويقدرون أهمية السعي للوصول إلى قاع القصة.

وقد كرس بل هاملتون Bill Hamilton، مساعد مدير تحرير الپوست لشؤون المبادرة (بمعنى كل شيء) وأحد أفضل الناس في «بزنس» الصحافة، عدداً من الأسابيع مساهماً في تحرير الكتاب واقتباس المقتطفات منه لنشرها في الپوست.

أعبر له عن شكري الخاص على ريادته الحصيفة.

ما من كتاب إلا ويتمتع بنعمة الإفادة من كل ما سبق. وهذا الكتاب مستند إلى تقاريري الخاصة، رغم أنني متأكد من أنني استخدمت مواد نقلتها من مصادر معينة أو معلومات منعكسة في سجلات ظهرت من قبل بهذه الصيغة أو تلك من صيغ النشر أو السرد الإخباري. وأنا مدين كثيراً لكل من كتب عن، ودبّج التقارير حول عمليات التهميد للحرب العراقية، إدارتها، وعواقبها. عموماً قام هؤلاء بعمل عظيم. فمئات المراسلين الذين رافقوا الوحدات العسكرية في المنطقة خلال الحرب يستحقون أن يُذكروا بشكل خاص. ما يزيد على العشرة من المراسلين فقدوا أرواحهم، بمن فيهم مايكل كلي Michael kelly وديفد بلوم Daivd Bloom.

قدم زملائي في البوست قدراً كبيراً من العون، ليس عبر تغطيتهم اليومية الممتازة فقط، بل من خلال تقديم الكثير من الاقتراحات والآراء بصورة غير رسمية. تشتمل قائمة أسماء أولئك المراسلين، على كل من والتر بنكوس، دانا بريست Dana Priest، توماس إي. ريكس Thomas E.Ricks، كارين دي يونغ Karen De Young، مايك آلن Mike Allen، دانا ملْبانك Dana Milbank، فيرنون لويب Vernon loeb، برادلي غراهام Bradley Graham، غلن كَسْلَر Glenn Kessler، بيتر سلفن Peter Selvin، وبارتون غلمان Barton Gellman، أما ليز سبيد Liz Spayd ومايكل ابراموفيتس MichaeL Abramowity، اللذان يديران الجهاز القومي للعاملين، فقد كانا كريمين ومتعاونين كعادتهما دائماً.

كذلك ساهم جهاز عاملي الواشنطن پوست في الخارج بقدر ذي شأن من الخلفية والفهم. فهذا الفريق المؤلَّف من مراسلين مرموقين والخاضع لقيادة فيل بنت Phil Bennett. ديفد هوفمان David Hoffman المقتدرة تضم فيمن تضم كلاً من انطوني شديد Anthony Shadid، راجيف تشاندرا سيكاران Rajiv Chandra Sekara، وريك اتكنسون Rick Atkinson.

تولت أولون برايس Olwen Price مهمة تفريغ العديد من المقابلات، تحت ضغوط متطرفة من حيث الوقت، فلها منا آيات شكرنا الصادقة.

أما جو إلبرت Joe Elbrrt وفريق مصوريه في البوست، ومازال هو الأفضل، فقد زودنا بالعديد من صور هذا الكتاب. نقدم أيضاً شكراً خاصاً إلى ما يكل كيغان Michael Keegan ولاريس كاركليس Laris Karklis على الخارطة.

وفي دار سايمون آند شوستر فإن كارولين كي. رايدي Carolyn K, Reidy، الرئيسة، وديفد روزنتال David Rosenthal، الناشر، ضمنا توفر الملاكات والمنظومات اللازمة لإيصال هذا الكتاب إلى رفوف المكتبات بأقصى سرعة يسمح بها نظام النشر في القرن الـ ٢١. شكراً لروجر لابري Roger Labrieعلى عدد كبير من المساعدات. أتقدم أيضاً بالشكر إلى جاك رومانوس Jack Romanos، الرئيس ورئيس ضباط الإدارة التنفيذية؛ إلزا ريفلين Elsa Rivlin، المستشارة العامة؛ فكتوريا مير Victoria Meyer، مديرة الدعاية التنفيذية؛ آيلين بويل Ai-leen Boyle، مديرة الدعاية؛ جاكي سيو Jackie Seow، المدير الفني ومصمم الأغلفة؛ لندا دنغلر Linda Dingler، مديرة التصميم، وماريا لوري Mania Lu-rie، محررة الإنتاج التي أدارت برنامج عمل سريع بمهارة فائقة.

ثمة شكر خاص أهديه إلى جوان واهلر John Wahler، مدير الإنتاج، على عنايته وتفننه مع كل التفاصيل ـ الصغيرة منها والمتوسطة والكبيرة دونما تمييز.

تقدمنا مارك مالسيد Mark Malssd وأنا بآيات شكر خاصة إلى فريد تشيز Fred Chase الذي ساعدنا وقام بتحرير وإخراج بوش محارياً في ٢٠٠٢، على عودته من تكساس لتحرير وإخراج هذه المخطوطة ولإعطائنا قراءة ممعنة، وعدداً لا يحصى من الاقتراحات المهمة.

يأتي عمود هذا الكتاب الفقري مما يزيد على ٧٥ مصدراً. الأكثرية وافقت على تقديم المعلومات شرط بقاء الهويات مغفلة. إلى جميع أولئك الذين وردت أسماؤهم والذين لم يتم ذكر أسمائهم أتقدم بأجمل آيات الشكر والعرفان. كثيرون أمضوا ساعات بلغت أحياناً عشراً ونيف، معي للانخراط في الموضوع.

كذلك حصلت على عون لا يقدر بثمن جراء الاطلاع على التقارير والتحاليل المنشورة في كل من النيويورك تايمز،الوول ستريت جورنال، النيوزويك، التايم، اليو. إس. نيوز آند وورلدريبورت، اللوس أنجلوس تايمز، النيويوركر، ذه ناشيوال جورنال، الأسوشيتدبرس، ووكالات أنباء أخرى كثيرة. يبقى موقع جماعة غلوبال سيكورتيي. أورغ غير الربحية على الشبكة مرجعاً لا يقدر بثمن فيما يخص قضايا الجيش، الاستخبارات، والأمن القومي.

أما روبرت بي بارنت Robert B. Barnett، وكيلي ومحامي، فقد ظل، مرة أخرى، يوفر النصح الثابت والحصيف بوصفه مستشاراً وصديقاً صدوقاً. ونظراً لأنه يمثل ديمقراطيين مرموقين مثل الرئيس السابق بل كلنتون والسناتور هيلاري رودام كلنتون Hillary Rodham Clinton، وجمهوريين مرموقين مثل كارين هيوز والسناتور السابق بوب دول، فإنه لم ير الكتاب إلى أن أصبح مطبوعاً.

شكراً من لروزا كريولّو Rosa Criollo، نورما غيانلّوني Norma Gianelloni، وجاكي كراو Jackie Crowe.

كريمتاي تالي Tali التي تعمل مراسلة لدى ذه سان فرانسيسكو بي غارديان وديانا Diana التي هي في الصف الأول بالكلية، ابدتا قدراً كبيراً من الأريحية والكرم في التعامل مع عملية جمع مواد هذا الكتاب وتأليفه.

مرة أخرى ظلت زوجي وصديقتي الفُضْلى إلزا والش تقدم الدعم، النصح،

والحكمة، حول هذا التاسع من كتبي خلال السنوات الـ ١٥ من حياتنا الزوجية. إن زحمة تأليف الكتب عن موضوعات في الأخبار التي تكون في طور الانكشاف والتغير على نحو شبه يومي تلقي أعباء غير عادية على كاهل الحياة العائلية. تتقن إلزا Elsa التكيف بجلال مدهش، مكتفية بالمزاح قائلة إن الحياة خلال السنة الماضية كانت «كل العراق كل الوقت.» لهذا، كما لأشياء أخرى كثيرة جنباً إلى جنب مع الحياة السعيدة التي خلقتها لأسرتنا، يبقى هذا الكتاب هدية لها.

فهرس الأعلام

الألف

حرف التاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف العين

حرف الغين

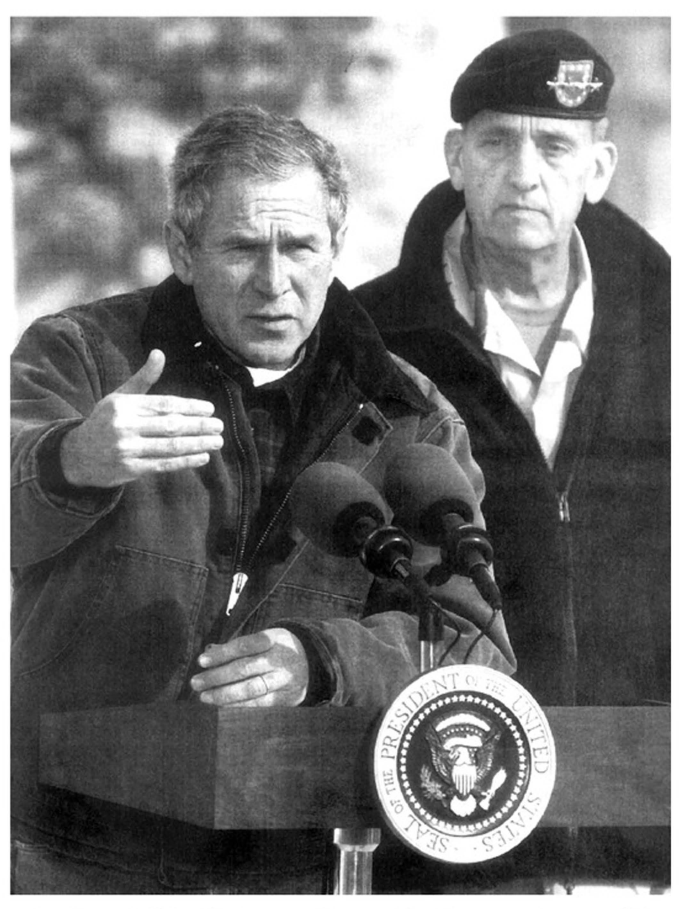
حرف الفاء

حرف النون

فهرس وسائل الإعلام والكتب

مؤلفات بوب وودورد الأخرى

- بوش محارباً.
- المايسترو (قائد الجوقة): غرينسبان رئيس البنك الاتحادي والطفرة الأمريكية.
- الظل: خمسة رؤساء جمهورية وميراث ووترغيت.
- الاختيار.
- جدول الأعمال : من داخل البيت الأبيض في عهد كلنتون Clinton
- القادة.
- الحجاب : الحرب السرية لوكالة الاستخبارات المركزية ١٩٨١-١٩٨٧
- الواقع في الشرك: الحياة القصيرة والأزمان السريعة لجون بلوشي John Belushi.
- الإخوة (بالاشتراك مع سكوت آرمسترنغ Scott Armstrong).
- الأيام الأخيرة (بالاشتراك مع كارل بيرنشتاين).
- جميع رجال رئيس الجمهورية (بالاشتراك مع كارل بيرنشتاين).



الرئيس جورج دبليو. بوش مع الجنرال تومي فرانكس، بعد جلسة التخطيط الحربي السرية الرئيسية الأولى حول العراق في كروفورد التكساسية، يوم ٢٨ كانون الأول/ ديسمبر، ٢٠٠١، قال فرانكس لأحد مساعديه بعد الجلسة: «لقد بدأنا».

▲ وزير الخارجية كولن باول، وسكرتيرة الأمن القومي كوندوليّزا رايس، ووزير الدفاع دونالد رمسفلد. تمثلت إحدى وظائف رايس بـ «قراءة الوزيرين» والاضطلاع بدور الحَكَم في شجاراتهما المتكررة.

▼ نائب وزير الخارجية ريتشارد آرميتاج أبلغ مستشارة الأمن القومي رايس أن نظام مجلس الأمن القومي كان «مشلولاً».



▼ «الدراج» لويس ليبي، نائب رئيس جهاز العاملين في مكتب نائب الرئيس تشيني، كان يحمل ثلاثة ألقاب في الإدارة ومضطلعاً بدور تعظيم نفوذ برامج تشيني وجداول أعماله.



▲ بوش يتدرب على إلقاء خطابه عن حالة الاتحاد في كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٢، ذلك الخطاب الذي أعلن فيه الرئيس كلاً من العراق، إيران، وكوريا الشمالية «محوراً للشر» ثمة مستشارة البيت الأبيض كارن هيوز ومساعدون آخرون يستمعون إلى «البروفة». لم يتوقع بوش أن تصبح تلك عبارة محدَّدة على هذا النحو.

▼ كان بول وولفوفيتز، نائب وزير الدفاع، أحـد العـرابين الفكريين الداعين إلى الإطاحة بصدام حسين عن طريق القوة.



▼ تولى ستيف هادلي، نائب مستشارة الأمن القومي، رئاسة لجنة النواب واضطلع بمهمة التنسيق لتخطيط ما بعد الحرب.





▲ باول وآرميتاج، متابعين تنامي كثافة التخطيط للحرب خلال صيف ٢٠٠٢، وقد حذرا من عواقب الحرب واحتلال العراق، واصفين الأمر بـ «حكم مخزن الخزف»: تكسره فتملكه. مرة بعد أخرى كان باول يبقى في «علبة الجليد» (البراد) على صعيد علاقته مع البيت الأبيض.

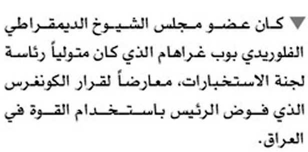
▼ كان رمسفلد يلتقي بوش لقاءات خاصة بصورة منتظمة لمراجعة الخطط، الهواجس والقرارات المتعلقة بالعراق. ظلت خطط الاجتياح تتغير شهرياً تقريباً على امتداد ما يزيد على سنة.

▲ يقوم مدير اتصالات البيت الأبيض دان بارتلت (إلى اليسار)، رايس، وكاتب الخطب مايكل غيرسون يراجعون مسودة خطاب «حالة الاتحاد» مع بوش في المكتب البيضوي.

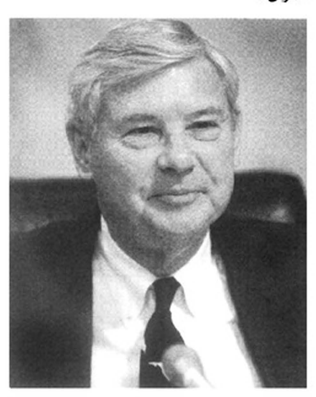
▼ في خطاب له أمام قدماء محاربي الحروب الخارجية في مؤتمرهم يوم ٢٦ آب/ أغسطس، ٢٠٠٢، قال نائب الرئيس ديك تشيني: «ليس ثمة أي شك أن صداماً يملك أسلحة دمار شامل».



▲ اعتبر مدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تنت قضية أسلحة الدمار الشامل العراقية «ضربة مجلجلة».



▼ كان عضو مجلس الشيوخ الديمقراطي الفلوريدي بوب غراهام الذي كان متولياً رئاسة لجنة الاستخبارات، معارضاً لقرار الكونغرس الذي فوض الرئيس باستخدام القوة في العراق.



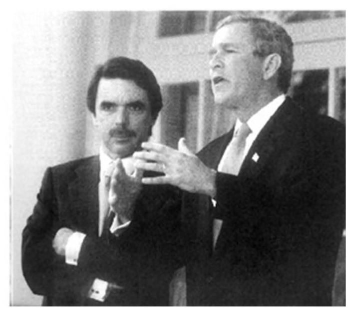
▼ رمسفلد وفرانكس على تلة الكابيتول (في الكونغرس) مع عضو مجلس الشيوخ الديمقراطي المتشيغاني كارل لفن الذي صوّت أيضاً ضد القرار.

▲ تعهد رئيس الوزراء البريطاني توني بلير في أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٢ بدعم الرئيس بوش في العراق. «صاحبكم يتمتع بخصيتين (كوجونين)»، قال بوش لمساعدي بلير بعد الاجتماع.



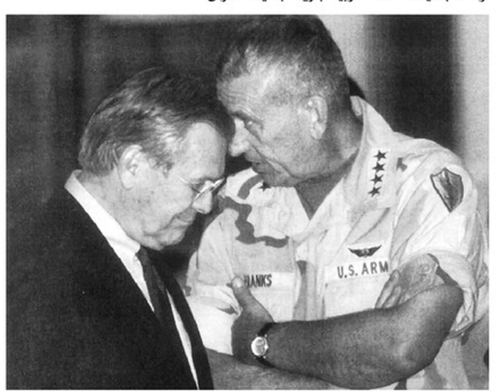
◀ باول وبوش في ٨ تشرين الثاني، ٢٠٠٢ بعد تبني مجلس الأمن للقرار رقم ١٤٤١ القاضي باعتماد عمليات تفتيش أسلحة جديدة بالإجماع.

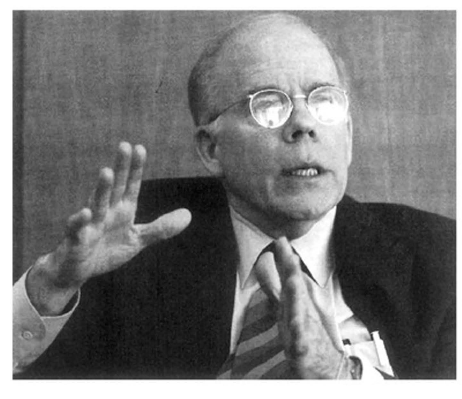
▼ أكد رئيس الوزراء الإسباني خوسيه ماريا آزنار، المؤيد للعمل العسكري، للرئيس بوش: «تستطيع دائماً أن ترى شاربين إلى جانبك.



▲تشيني، باول، بوش، ورايس خلال لحظة صفاء في المكتب البيضوي.

▼تحدى فرانكس الوزير رمسفلد خلال الحرب الأفغانية قائلاً: «إما أن أكون القائد، وإلا ... » - غير أن الرجلين ما لبثا أن نجحا في الاهتداء إلى طريقهما وقاما بصياغة خطة حربية جريئة جديدة للعراق.

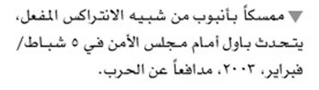




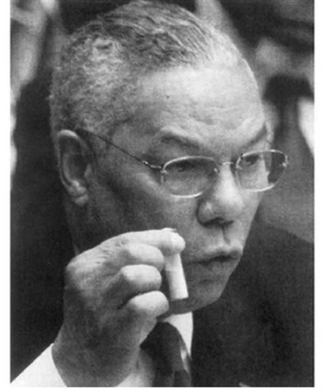
◀ نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية جون ماكلوخلين، وهو محلل حذر لم يحظ عرضه السري جداً في المكتب البيضوي حول أسلحة الدمار الشامل العراقية في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٢ باهتمام بوش على أنه مقنع.



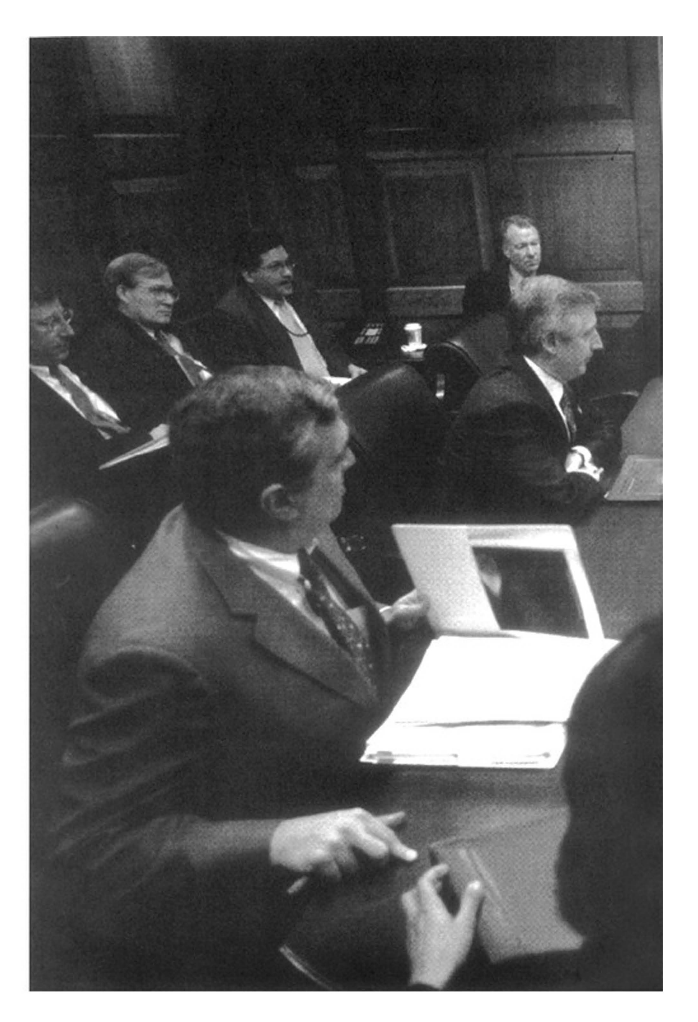
▲ هانس بليكس (إلى اليسار) ومحمد البرادعي، رئيسا مفتشي الأسلحة الدوليين.



▼ ممسكاً بأنبوب من شبيه الانتراكس المفعل، يتحدث باول أمام مجلس الأمن في ٥ شباط/ فبراير، ٢٠٠٣، مدافعاً عن الحرب.





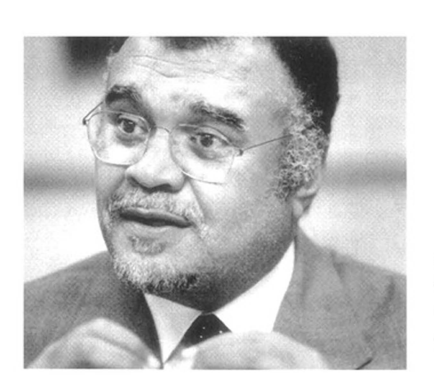


▲ يتحدث بوش مع الرئيس الروسي فلاديمير بوتن في ١٨ آذار/ مارس، ٢٠٠٣، قبل يوم واحد من بدء الحرب، فيما رايس، كارد، وتشيني يتشاورون.

▼ جيمس بافيت، نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية للعمليات (إلى اليسار)، تنت، وماكلوخين يصلون إلى البيت الأبيض مصطحبين تقارير استخباراتية حساسة صادرة عن دي. بي. روكستارز DB/ROCKSTARS، في ١٨ آذار/ مارس، ٢٠٠٣.



▲ كارد، تشيني، ورايس في المكتب البيضوي. ما لبثوا جميعاً أن أوصوا باعتماد بوش لقرار شن هجوم على صدام في مزرعة الدورة يوم ١٩ آذار/ مارس، ٢٠٠٣.



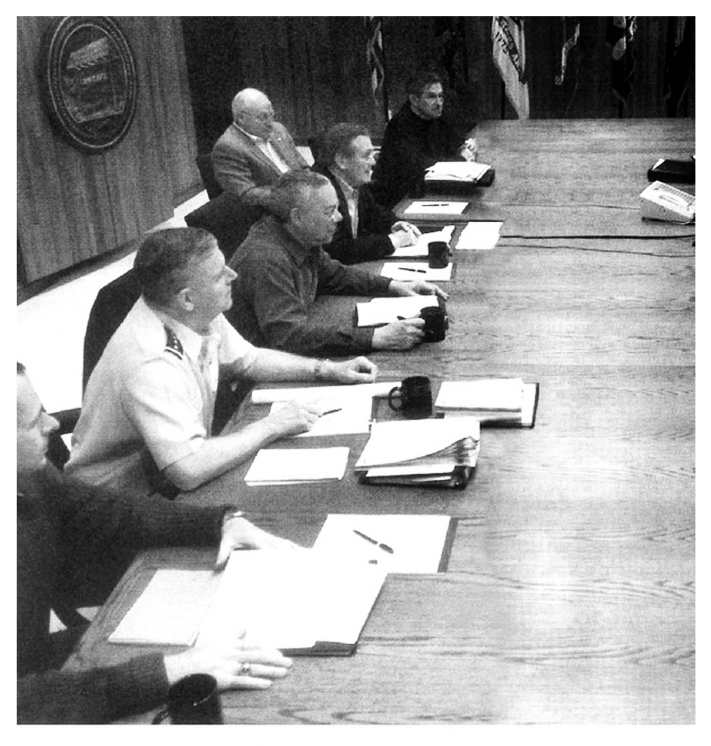
◀ كان السفير السعودي الأمير بندر بن سلطان، ويكاد أن يكون سلطة خامسة في واشنطن، متمتعاً بقدرة غير عادية على الوصول إلى بوش.



▲ لقاء خاص يجمع بوش وتشيني يوم ١٩ آذار / مارس، ٢٠٠٣. أوصى تشيني أن يأمر بوش بضرب صدام. وإن أخطأت الضربة الهدف، فإنها ستؤدي إلى «خلخلة قفصه».



◀ أمام شاشة التلفزيون في مكتب رايس بالجناح الغربي ليلة بدء الحرب، من اليسار: سكرتير البيت الأبيض الصحفي آري فلايشر (على الهاتف)، كارد، بارتلت، هيوز، ورايس.



▲ مجلس الحرب يجتمع في كامب ديفد يوم السبت الواقع في ٢٢ آذار/ مارس، بعد يوم واحد من بدء حرب «الصدمة والرعب» الجوية. باتجاه دوران عقارب الساعة حول الطاولة، من اليسار: نائب رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة الجنرال بيت بيس، رئيس هيئة رؤساء الأركان الجنرال ميرز، وزير الخارجية باول، وزير الدفاع رمسفلد، نائب الرئيس تشيني، نائب وزير الدفاع وولفو فيتز، رئيس جهاز العاملين لدى نائب الرئيس ليبي، رئيس جهاز العاملين في البيت الأبيض كارد، الرئيس بوش، مستشارة الأمن القومي رايس، مدير وكالة الاستخبارات المركزية تنت، ومستشار البيت الأبيض غونزاليس.



الرئيس بوش يمشي وحده صباح يوم ١٩ آذار/ مارس، ٢٠٠٣، بعد إصدار أمر بدء الحرب «كانت لحظة عاطفية بالنسبة إلي. صليت وأنا أمشي حول الدائرة» قال الرئيس متذكراً.

تابع من الغلاف الأمامي .

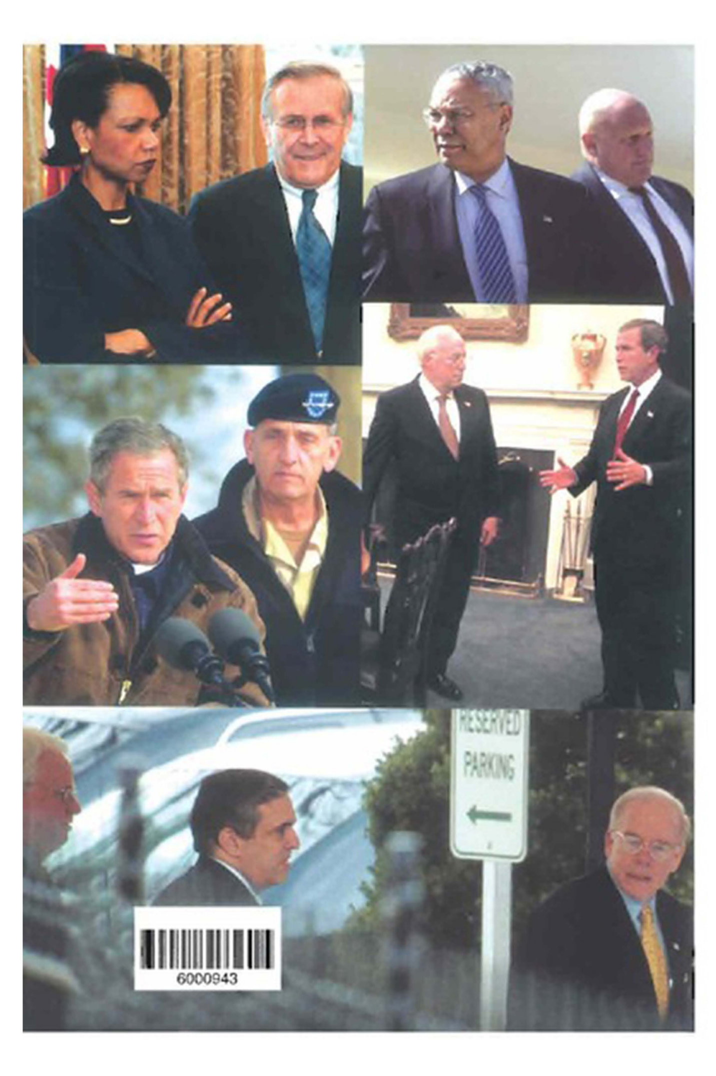
ثمة كوندوليزا رايس **Coundoleezza Rice** مستشارة الأمن القومي والمرجع دائم الحضور؛ ثمة كارل روف **Karl Rove**، أستاذ الاستراتيجيا السياسية المتمكن؛ ثمة أعضاء رئيسيون آخرون في جهاز العاملين في البيت الأبيض وقيادات مجلسي الكونغرس؛ وثمة قادة أجانب بينهم رئيس الوزراء البريطاني بلير ورئيس الجمهورية الروسي بوتن.

يتضمن خطة الهجوم تفاصيل جديدة عن التقويمات الاستخباراتية لأسلحة الدمار الشامل العراقية المزعومة ولعملية التخطيط للتعامل مع عقابيل الحرب.



* سبق لبوب وُدورد ، وهو أحد مراسلي ومحرري الواشنطن بوست **The Post Washington** منذ ثلاثة وثلاثين عاماً، ان ألّف او شارك في تأليف عدد غير قليل من كتب المرتبة الأولى الأكثر رواجاً . كان اول تلك الكتب وهو بعنوان جميع رجال رئيس الجمهورية (١٩٧٤)، بالاشتراك مع كارل بيرنشتاين **Bernstein Carl**، عن فضيحة ووترغيت، في حين يشكل الأخير، وهو بعنوان بوش محارباً، رواية وُدورد لقصة رد أمريكا على الحادي عشر من ايلول/ سبتمبر، ٢٠٠١، على تلك الهجمات الإرهابية ولحكاية الحرب في أفغانستان.

لوُدورد ابنتان: تالي **Tali** وديانا **Diana** . يعيش في واشنطن العاصمة مع زوجه إلزا والش **Elsa Walsh**، التي هي إحدى كاتبات النيويوركر **The New Yorker** .


RESERVED
PARKING
6000943